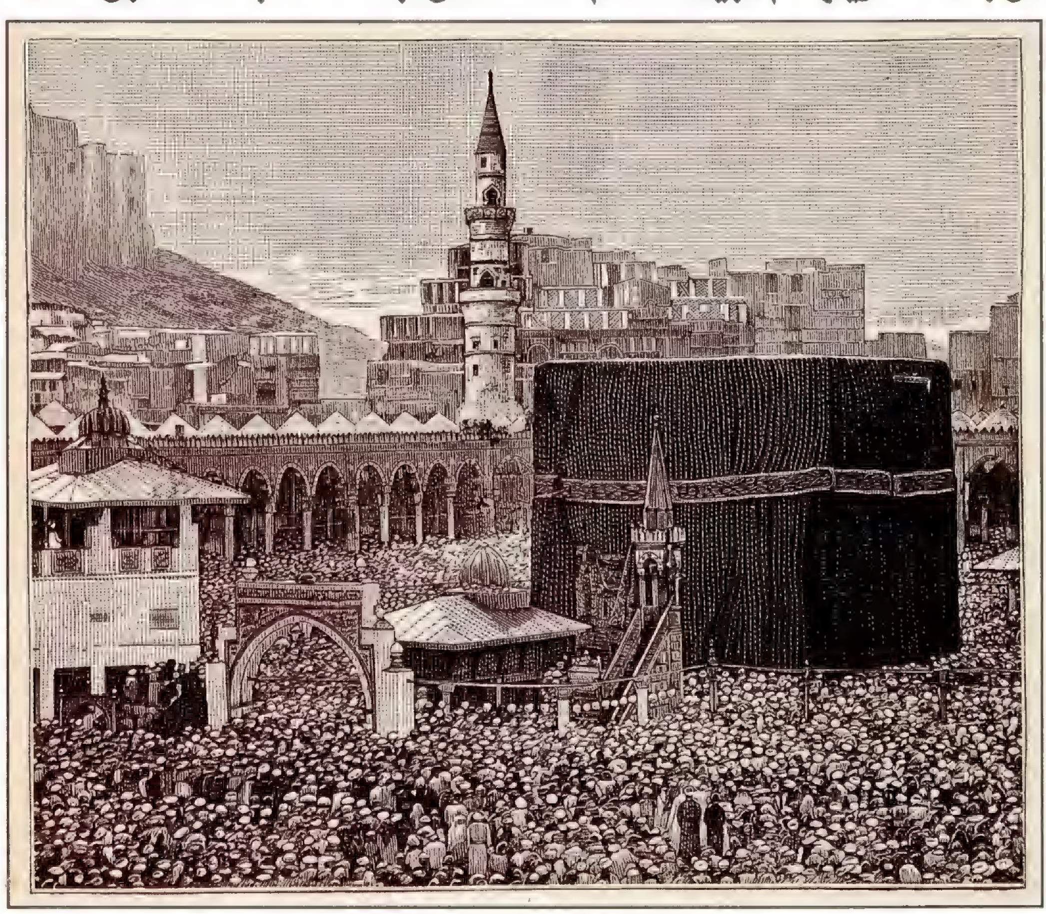
هاينريش فرايهر فون مالتسان

رحلة حجٍّ إلى مكة

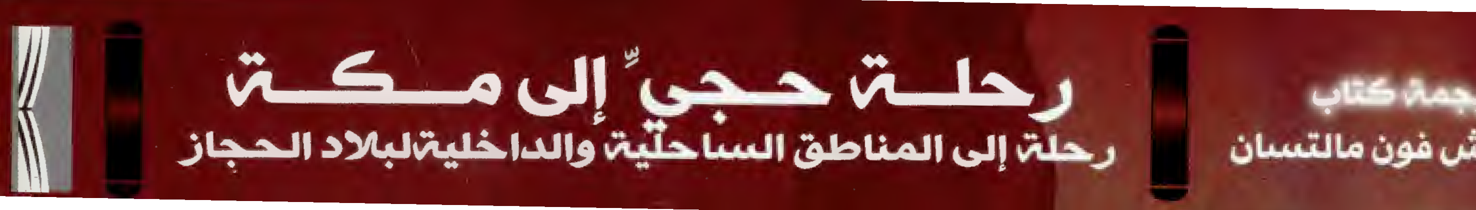
رحلة إلى المناطق الساحلية والداخلية لبلاد الحجاز

ترجمة د. ريهام نبيل سالم

مراجعة د. عبد الله ابو هشه



دار الحكمة
لندن



دار الحكمة
لندن

هاينريش فرايهر فون مالتسان

رحلة حجٍّ إلى مكة

رحلة إلى المناطق الساحلية والداخلية لبلاد الحجاز

ترجمة د. ريهام نبيل سالم
مراجعة د. عبد الله ابو هشه

رغبة ابن الرابع والثلاثين من العمر هاينريش فرايهر فون مالتسان "في التقصي بعمق وعناية في حياة الشعوب الشرقية وبالأخص العربية" دفعته في عام ١٨٦٠ إلى الرحلة الشاقة نحو مكة، المدينة التي "لم يرها إلا إثنا عشر أوروبي فقط".

هذا الكتاب المترجم من أدب الرحلات (١٨٦٥)، يتحدث عن رحلة الحج ومناسكه كالإحرام والوقوف على جبل عرفة ورمي الجمرات من خلال الرحالة الألمانى.

هاينرش فون مالتسان Heinrich von Malzan. وهو ايضًا مستشرق وعالم آثار واسع الاهتمامات، وكذلك شاعر وكاتب روائي. زار مكة متنكرا باسم جزائري ووقف مع الحجيج في جبل عرفات وكرّس سنوات طويلة للتعمق في دراسة المغرب العربي. كرس حياته إلى عالم الرحلة والعلم والمعرفة. بدأ رحلتة في الرابعة والعشرين من عمره، جاب في رحلاته الأولي القارة الأوربية لكنه كان يتطلع إلى الشرق، فقد عكف أثناء دراسته على تعلم اللغات الشرقية وفي مقدمتها العربية، وتوحي جميع كتاباته بتعلقه بالشرق وعالمه وهذا ما برر إقامته المستمرة والمتقطعة في المغرب العربي ورحلاته العديدة في المشرق العربي والجزيرة العربية على مدى عقدين من حياته قضى معظمها في الجزائر، ويعد من أفضل من عرفوا الجزائر وفهموها في القرن التاسع عشر. كمّا أن تعلمه للغة العربية يسّر له فرصة الاتصال مع أبناء الشعب الجزائري بجميع طبقاته.



DAR ALHIKMA
Publishing & Distribution

88 Chalton Street
London NW1 1HJ
Tel.: +44 (0) 20 7383 4037
E-Mail: hikma_uk@yahoo.co.uk
Website: www.hikma.co.uk

ISBN
978-1-78481-096-2





رحلة حجّي إلى مكة

رحلة إلى المناطق الساحلية والداخلية لبلاد الحجاز

* رحلة حجي إلى مكة.. رحلة إلى المناطق الساحلية والداخلية لبلاد الحجاز

* الكاتب : هاينرش فرايهر فون مالتسان

* ترجمة: د. ريهـــام نبيل ســالم

* مراجعة: د. عبد الله ابو هشه

* لايبتزيج ١٨٦٥ - دار نشر ديكشه

الطبعة : الاولى ٢٠١٨

الناشر : دار الحكمة - لندن

الإخراج الفنى: مجدى عزالدين

Heinrich Freiherrn von Maltzan: Meine Wallfahrt nach Mekka. Reise in der Küstengegend und im Innern von Hedschas. Erster Band. Dyk'sche Buchhandlung. Leipzig.1865.

ISBN: 978-1-784810-96-2

DAR ALHIKMA دار الحكمة
Publishing and Distribution للنشر والتوزيع

88 Chalton Street. London NW1 1HJ Tel.: +44 (0) 20 7383 4037
E-Mail: hikma_uk@yahoo.co.uk Website: www.hikma.co.uk



رحلة حجّي إلى مكة

رحلة إلى المناطق الساحلية والداخلية لبلاد الحجاز

لمؤلفه

هاينرش فرايهِر فون مالتسان

ترجمة: الدكتورة ريهام نبيل سالم

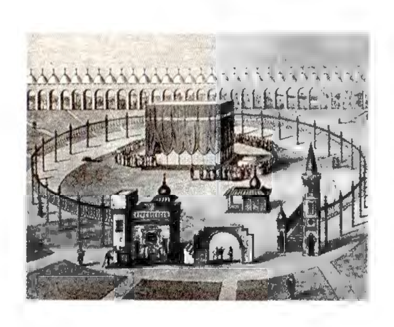
مراجعة: الأستاذ الدكتور عبد الله أبو هِشّه

لايبتزيج 1865

دار نشر ديكشه

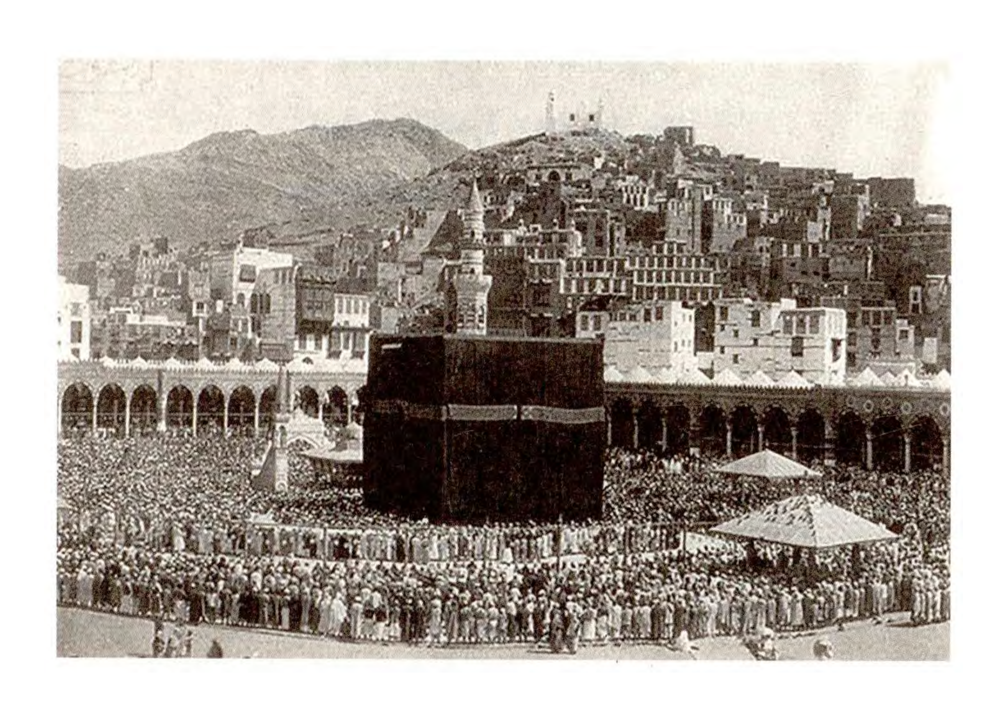
دار الحكمــة

لنــدن



تعليق الناشر

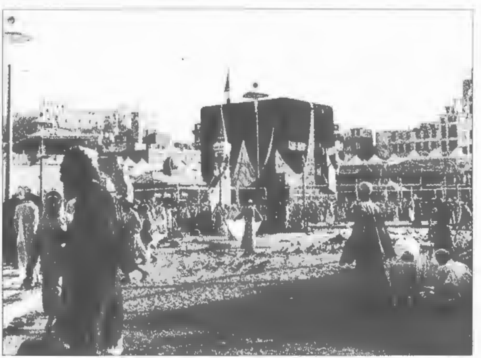
وردت عبارات من المؤلف فى كتابه تدل على جهله بالإسلام وعدائة وتم التعليق عليها فى مواضعها.



مقدمة المؤلف

كانت رغبتي في التوغل والانغماس في حياة الشعوب الشرقية وبالأحرى العربية، ودراستها في مركز ومهد الدين الإسلامي بشكلٍ أعمق مما قام به أيّ رحّالة أوربي من قبلي، قد جعلتني أتخذ قراري بالرحلة إلى مكة قبل بضع سنوات. دارت كل الملاحظات والمشاهدات التي سجلتها في رحلة حجي إلى مكة حول الحياة الدينية والأخلاقية للقبائل العربية، وكان هذا هو مأربي الرئيس من كتابة مذكراتي عن هذه الرحلة، حيث حرصت على تقديم صورة صادقة بقدر الإمكان عن الطابع القومي العربي بشكلٍ عام، وبشكلٍ خاص عن الطريقة التي تتطور وتتغير بها هذه الطباع التي تميز العالم الإسلامي في رحلة الحج.

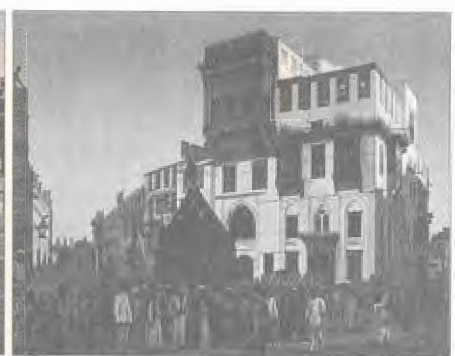
بالإضافة إلى ذلك، أخذت على عاتقي في كل مكان كتابة دراسات وملاحظات عن الآثار الجغرافية لبعض السواحل العربية، التي صادفتني في رحلة حجي، وحيثما كان من الممكن التعرف على مواقع الأماكن التي كانت موجودة هنا في العصور القديمة. لقد فرض على تنكري في ثياب المسلمين، أن أتحاشى كل ما يمكن أن يخمنه أي أوربيٍّ، وهو بالأخص السؤال عن الحطام وبقايا العصور القديمة على الملأ والتنقيب عنها؛ لذا آمل أن أساهم بتقديم خيط بحث جديد مضيء في الجغرافية القديمة لهذه النواحي، من





خلال مقارنة المواقع الحالية بما كتبه ووصفه الرحّالة في العصور القديمة. ولأن الهدف من كتابي هذا ليس علميًّا فقط، كنت أبحث في كل مكان عن أيّ اكتشافات أثرية على قدر المستطاع، وركزت جلّ انتباهي على الأشياء والمجالات التي تحوز على شغف وإقبال من العامة؛ وهي تقديم أنماط وصور حقيقية من أعراف وتقاليد شعوب وحياة هذه المنطقة، والتي عملت جاهدًا على تحري الحقيقة والدقة فيها، وتحملت المخاطر من أجل ذلك. آمل أن يجني جمهور القرّاء الذين استفادوا من كتابي "ثلاث سنوات في شمال غرب أفريقيا" (Drei Jahre im Nordwesten Afrika) الثمار النافعة أيضًا من كتابي هذا.

ربما يتساءل بعض القراء عن سبب طباعة وظهور هذا الكتاب الآن فقط، وقد كُتب قبل أربعة أعوام. السبب طبعًا في ذلك هو أنه كان محرمًا عليَّ ذلك لأسبابٍ يعرفها كل قارئ جيد، فلو كنت قد طبعت الكتاب ونشرته قبل هذا التوقيت لتعرضت حياة الرجل العربي الفقير، الذي ساعدني بشكلٍ رئيس في رحلتي، للخطر من قبل أهله المتشددين؛ لأنه لا يوجد شيء عند المسلمين يستوجب العقوبة أشد من مساعدة مسيحي وتمكينه من زيارة البلد الحرام. فطالما ظل هذا الرجل الذي انتحلت اسمه وتنكرت في شخصيته بإذنه وإرادته على قيد الحياة، كان ضميري يحرّم عليّ نشر تقريري هذا عن رحلتي حتى لا يصير مذنبًا وتحل عليه العقوبة. علمت فقط في هذا الصيف بموت عبد الرحمن، فتحررت من كل القيود التي منعتني من نشر كتابي ومن العقبات التي وقفت في طريق ظهوره للقارئ.



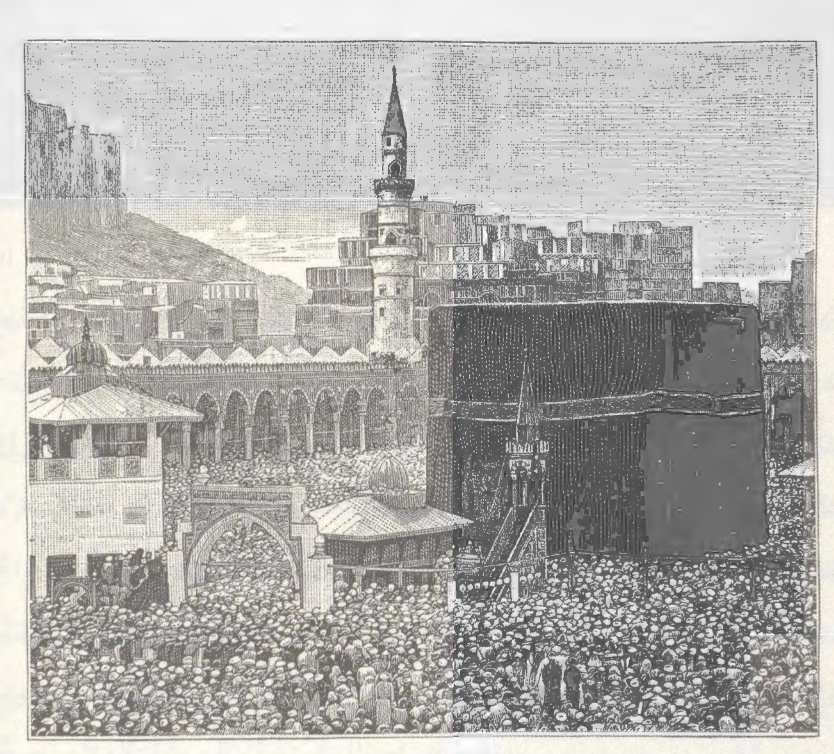


وأخيرًا وليس آخرًا لدي شيء أود ذكره عن قواعد الضبط والترقيم للأسماء العربية. توجد طريقتان لنسخ وكتابة الكلمات العربية بالحروف الألمانية، التي يجب اتِّباع إحداها: الأولي هي الحفاظ على الشكل الحرفي للكلمة، والثانية عبارة عن كتابة الكلمة كما تُنطق. أنا لا أُحبذ الطريقة الأولى وكنت سأعمد إليها فقط لو كان كتابي هذا مُوجها للمستشرقين فقط؛ ولأن كتابي ليس لهذا الغرض، فقد استخدمت الطريقة الثانية وبذلت قصارى جهدي في كتابة الكلمات بأقل عدد ممكن من الحروف؛ أي استخدمت الحروف التي كانت تُنطق فقط، وتركت كل ما عداها مثل العلامات الصوتية الخاصة باللغة العربية الفصحى مثل التنوين والنهايات الدالة على التصغير.

لهذه الأسباب لا يتعجب القارئ حينما ترد في هذا الكتاب بعض الكلمات التي كُتبت بطريقة أخرى في كتب رحلات أقدم، على سبيل المثال كنت أكتب كلمة عرفة (Arafa) بدلًا من (Arafat) مثلما كتبها باقي الرحّالة من قبلي، التي تنتهي بحرف التاء (T) وتُنطق في نهايتها في حالات قليلة، أي فقط إذا جاءت في حالة الإضافة أو جاء بعدها ضمير. تعاملت بنفس المنهج مع كلمات كثيرة بالحذف والإطالة كي أنقل طريقة نطقها الحقيقية كلما أمكن.

المؤلف

١٤ نوفمبر ١٨٦٤



THE KAABA AT MECCA

مقدمة المترجمة

حظي الحديث عن الرحلات التي قام بها الرحّالة على مر الأزمان باهتمام كبير، لا سيّما تلك التي وُثقت في مؤلفاتهم، ونشأ عن هذا التوثيق ما سُمي بأدب الرحلات، وهو نوع بارز من أنواع الأدب، تُصاغ وتعرض من خلاله الرحلات بطريقة أدبية مشوقة. أمَّا الرحلة إلى مكة والمدينة خاصةً فقد حظيت بكثير من التوثيق في أدب الرحلات، وذلك من خلال التعبير عن روحانية المشاعر والمشاهد التي تواجه الرحالة في بلد تتوجه إليه الملايين من شتى بقاع المعمورة؛ لأداء مناسك الحج والعمرة.

من أبرز المؤلفات التي تحدثت عن رحلة الحج والعمرة في أدبنا العربي الحديث كتاب (في أرض الحجاز) لأحمد حسن الزيات، وكتاب (رحلة الحجاز) لإبراهيم عبد القادر المازني، و(في منزل الوحي) لمحمد حسين هيكل، و(إلى أرض النبوة) لعلي الطنطاوي، و(رحلة إلى مكة) لمراد هوفمان والكثير من المؤلفات الأخرى.

أمَّا الكتاب الذي نقدم لترجمته هنا، فهو ضربٌ من أدب الرحلات أيضا، يتحدث عن رحلة الحج ومناسكه كالإحرام والوقوف على جبل عرفة ورمي الجمرات؛ ولكن من خلال عيون أحد الرحالة الألمان. مؤلف الكتاب هو هاينرش فرايهر فون مالتسان (Heinrich Freiherr von Malzan). يعتبر فون مالتسان شخصية متعددة الجوانب، ومثلما هو رحالة فهو مستشرق وعالم آثار، وذو اهتمامات أثرية واسعة، وكذلك شاعر وكاتب روائي[1].

١ اعتمدت في معلوماتي عن مؤلف الكتاب هاينرش فرايهر فون مالتسان على بعض المقالات التي كُتبت عنه في مجلات الأدب المتخصصة وكتب التراجم والموسوعات، وما تحصلت عليه من معلومات عن حياة الرحالة من خلال مقدمات كتبها في عدد من مؤلفاته.

زار فون مالتسان مكة متنكرا باسم جزائري، ووقف مع الحجيج في جبل عرفات، وكرّس سنوات طويلة من عمره للتعمق في دراسة المغرب العربي. وقد أسهمت الثروة التي خلفها والده بعد وفاته سنة ١٨٥١ في قرار فون مالتسان الانضمام إلى عالم الرحلة والعلم والمعرفة، وتكريس حياته لهذه الأغراض. بدأ فون مالتسان عهده بالرحلة في الرابعة والعشرين من عمره، جاب في رحلاته الأولي القارة الأوربية؛ لكنه كان يتطلع إلى الشرق، فقد عكف أثناء دراسته على تعلم اللغات الشرقية وفي مقدمتها العربية، وتوحي جميع كتاباته بتعلقه بالشرق وعالمه، وهذا ما برر إقامته المستمرة والمتقطعة في المغرب العربي ورحلاته العديدة في المشرق العربي والجزيرة العربية على مدى عقدين من حياته قضى معظمها في الجزائر، ويعد من أفضل من عرفوا الجزائر وفهموها في القرن التاسع عشر. كما أن تعلمه للغة العربية يسَّر له فرصة الاتصال بأبناء الشعب الجزائري بجميع طبقاته.

لقد شملت رحلاته، بالإضافة إلى المغرب، إثيوبيا ومصر وفلسطين والشام وآسيا الصغرى، وفي عام ١٨٥٣-١٨٥٤ تطلع فون مالتسان إلى المغامرة بالقيام بزيارة الديار المقدسة بمناسبة الحج، روى في كتابه الذي ترجمناه من الألمانية إلى العربية "رحلة حجيِّ إلى مكة" فكرة المغامرة وكيفية شروعه فيها، والإجراءات التي أتخذها ويسرّت له الوصول إلى مكة، والقيام بجميع مناسك الحج والوقوف بعرفة مثل باقي الحجاج، ومعايشة كل ظروف الحج الاجتماعية والاقتصادية ورصدها بعين الملاحظ قوي الذاكرة ثاقب النظر، وبروح الدعابة والفكاهة أحيانًا، وأحيانًا أخري غلبت على تقاريره وتخميناته السطحية وعدم التعمق في معلوماته، التي اعتمد معظمها على حكايات وخرافات المطوِّفين غير العلمية، التي لا تستند إلى مصادر علمية موثقة فيما يتعلق برأيه في كثير من المشاعر الدينية ووصف الحرم المكيِّ ومكوناته؛ فعلى سبيل المثال في نهاية الكتاب لم يحدد الكاتب قائمة بيبلوغرافية للمصادر والمراجع المعتمدة، ربما لأن كتابه يكتسي بطابع الرحلة التي تعتمد الملاحظة والتجربة الميدانية أكثر من أي شيء آخر.

عاني فون مالتسان من الأمراض والآلام النفسية، فوضع حدا لحياته في مدينة بيزا الإيطالية يوم ٢٢/ ٢/ ١٨٧٤ قبل أن يبلغ الثامنة والأربعين من عمره، وبذلك فقد

ميدان العلم والمعرفة شخصية فذة فى ذروة عطائها؛ وخاصة أنها برزت في ميدان النقوش الفينيقية والحميرية التي كرَّس لها اهتمامه في السنوات الأخيرة من حياته. وقد خلف فون مالتسان مجموعة من الكتب التي ألفها من خلال رحلاته العديدة، ومن أهمها: (ثلاث سنوات في شمال غرب إفريقيا: رحلة في الجزائر والمغرب)، و (رحلة إلى جزيرة سردينيا سنة ١٨٦٩) وثّق فيه النقوش الفينيقية التي عثر عليها في الجزيرة، و (رحلة حجي إلى مكـة) الذي صدر في سنة ١٨٦٥، و (رحلات في الجزيرة العربية) و (رحلة في تونس وطرابلس)، بالإضافة إلى عدة كتب أدبية ومقالات صحفية.

تكمُن أهمية كتاب فون مالتسان في أنه توصل إلى معرفة العديد من أساطيرنا وعاداتنا وتقاليدنا في مختلف الجهات التي زارها و أقام فيها فترات طويلة. والكتاب مليء إلى جانب ذلك كله بمعلومات تاريخية وسياسية واجتماعية واقتصادية غزيرة، فما من قرية يمر بها، و ما من مدينة يحل بها إلا ويقدم وصفا لها وللقبائل التي بها، ويسرد نبذة عن تاريخها منذ نشأتها حتى الفترة التي زارها فيها، ويتحدث عنها حديث العارف المطلع على ما كتب عنها قديمًا في كتابات الرحّالة قبله، بالإضافة إلى تجاربه الشخصية وملاحظاته الخاصة عن بلاد الشرق التي لا أتفق معه في بعضها، إلا أن علينا أن نأخذها على أنها وجهة نظر الآخر، من حق أيٍّ منا أن يناقشها أو يرفضها. فتارة يكتب بسلاسة ودقة وتارة أخرى تغلب على أسلوبه الثرثرة؛ لكن هناك دائمًا روح المغامرة والفكاهة كطابع يغلب على الكتاب.

محتويات الكتاب متعددة ومتنوعة، فمن ضمن الأشياء التي يتحدث عنها سرد أحداث تنكره في شخصية عبد الرحمن، ورحلته من ينبُع حتى وصوله إلى مكة، والوصف الجغرافي واقتفاء أثر الأماكن التي يمر بها، وتاريخ الكعبة وكسوتها والمسجد الحرام والأماكن المقدسة حوله، ويصف بالتفصيل مراسم الصلاة والأدعية الواجبة في كل مكان، ويعرض أفكارًا فيما يخص القرآن الكريم، ويسترسل في الكلام عن تعاطي الأفيون والحشيش والفرق بينهما. وهو ملم بأمور زواج المتعة "الذي يساعد الحاج على تخفيف ملل أعمال الورع"، كما يسرد باستفاضة حياة الحريم في بيت صاحب النُّزل الذي أقام

فيه، ويشرح باستفاضة العلاقات النسائية بين الزوجات الأربع والإماء في مخدع الحريم وكيف كان يراقبهنّ. والحال أنّ النظرة الغربية إلى النساء العربيات غالبًا ما انطلقت من تحيّز مسبق مفاده أنّ النساء العربيات يعانين من الاضطهاد ما لا تعانيه غيرهن من النساء في الغرب، وأن سبب هذا الاضطهاد هو الدين الإسلامي، وهذا ظاهر جدًا في كتاب فون مالتسان. ولعلِّي أجد هنا الفرصة لتذكير القارئ بما جمعته جودي مابرو من أقوال الرحّالة الغربيين عن النساء العربيات في كتابها (حقائق غائبة خلف الحجاب: تصورات الرحالة الغربيين عن النساء في الشرق الأوسط)[1]، وخاصة مقدمتها الرائعة حيث تسلّط سهام نقدها على هذه النظرة الغربية وتقوم بمقارنة بين وضع النساء العربيات في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ووضع النساء الغربيات في هذه الفترة ذاتها، لتخرج بنتيجة مفادها أنّ هذين الوضعين لم يكونا مختلفين ذلك الاختلاف الذي صوّره الرحالة الغربيون لصالح نساء الغرب. ولكن ربما غياب الجدية وسيادة الطابع الهزلي الفكاهي عند الكاتب في تعاطيه مع ملاحظاته، يخلق مسحة من خفة الظل أثناء قراءة تقرير الكاتب في هذا الشأن تخفف من حدة نقده.

في نهاية الرحلة، بعد الوقوف على عرفة ورمي الجمرات أثيرت الشكوك حوله بسبب ثرثرة المطوِّف المصاحب له، فاعتبره بعض الجزائريين إما أن يكون مسيحيًا متنكرًا في لباس عربي، أو جاسوسًا فرنسيًا، فخشي من افتضاح أمره وعجّل بالرحيل قبل زيارة المدينة المنورة، واتجه إلى جدة ووجد سفينة إنجليزية صعد إليها وتوجه إلى عدن ومنها إلى بومباي، وبذلك تنتهي أحداث رحلة فون مالتسان بالفصل الأخير في الجزء الثاني، حيث أن تقرير رحلته هذه يقع في جزءين كل منهما يبلغ حوالي ٣٧٥ صفحة.

حاولت ألّا أثقل على القارئ بملاحظاتي ومحاولات تصويبي لبعض الكلمات التي سمعها فون مالتسان بطريقة خاطئة فكتبها أيضًا خاطئة؛ لأنه كان يعتمد في كتابة المفردات والأسماء العربية وأسماء الأشخاص والقبائل والأماكن والمأكولات والمشروبات على كتابة ما يسمعه أو ما ينطقه هو، وليس بالطريقة التي سلكها المستشرقون والرحّالة قبله،

١ جودي مابرو: حقائق غائبة خلف الحجاب: تصورات الرحالة الغربيين عن النساء في الشرق الأوسط. ترجمة معين الإمام. دارنون ١٩٩٧.

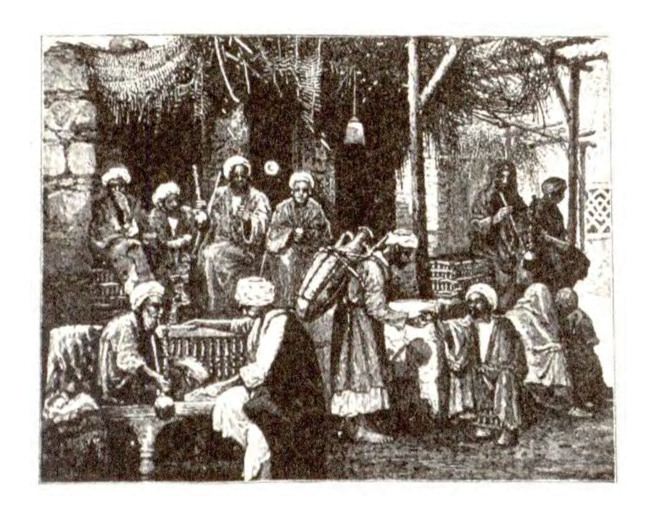
فتدخلت كلّما كان ذلك واجبًا حتى لا يختل المعنى العام للنص أو يحدث التباس يصعب على القارئ معه الاسترسال في تتبع الأحداث. أمّا ما يتعلق بدحض آرائه عمّا دونه بخصوص الحياة الاجتماعية أو السياسية والاقتصادية والثقافية لمكة وما ذكره الرحّالة من أفكار خاطئة أو غير معقولة أو تحيزات حيال المسلمين، ولا سيّما أني كقارئة شعرت بضراوتها في بعض المواضع، كنت أتدخل كمترجمة كلما تطلب الأمر توضيح الخلل، لأن الرد على ما ذكره الرحالة ليس وظيفة المترجم، ولكن يُترك لعلماء الثقافة والتاريخ والاجتماع.

وأخيرًا وليس آخرًا فإن كتاب "رحلة حَجيٍّ إلى مكة. رحلة إلى المناطق الساحلية والداخلية لبلاد الحجاز" حفل بالكثير من الموضوعات الهامة عن طبيعة الشخصية العربية، كما أنه حافل بمعلومات ثرية سواء كانت جغرافية أو اجتماعية أو اقتصادية عن الأماكن التي مر بها فون مالتسان انطلاقًا من ينبُع والبحر الأحمر، وجدة، والطائف حتى مكة. ومن فوائد هذا الكتاب أن مؤلفه يركز اهتمامه على البشر بطباعهم ولباسهم ومساكنهم، مما يجعله محط اهتمام علماء الأنثروبولوجيا، وعلماء الاجتماع والتاريخ والجغرافيا. كما أنه طرح أفكارًا كثيرةً منها الصحيح ومنها المشكوك فيه ومنها ما يقبل النقاش ومنها ما تجاوزه الزمن، واللافت للنظر أن كثيرًا مما طرحه ترك آثاره المستمرّة لاحقًا، ولا يزال موضع نقاش وجدال وأخذ وردّ في الأوساط الثقافية والدينية والاجتماعية وفي نقاشات وجدالات حوار الثقافات.

د. ريهام نبيل سالم

دوسيلدورف

جمهورية ألمانيا الاتحادية





الفصل الأول
التنكُّر كمسلم والسفر إلى القاهرة

التلاقي مع "بورتون" زائر مكة – صعوبات الحج إلى مكة بالنسبة لأوربي – قائمة الأوربيين ممن زاروا مكة – عودتي من بلاد المغرب – خطتي للحج إلى مكة – حصولي "كعربيّ" على جواز سفر في الجزائر – الوصول إلى مالطة – التنكر والتخفي – رحلة إلى الإسكندرية – السكة الحديد إلى القاهرة – معارف جدد – الشيخ مصطفى – أبناء أخيه الثلاثة – إقامة قصيرة في القاهرة – الأيام الأواخر من شهر رمضان – شرائي عبدًا زنجيًا – الإبحار من بولاق.

جلست في إحدى الأمسيات أثناء زيارتي الأولى لمصر (اعتقادي أن ذلك كان في ديسمبر عام ١٨٥٣) على مائدة العشاء المجهزة في فندق شبرد، وجلس قبالتي رجل يربو على الثلاثين من عمره بزيّ شرقيّ كامل، ذو لحية طويلة بنية اللون، وبشرة مائلة للاسمرار بفعل الشمس، حليق الرأس، يداه عاريتان حتى الكوع، وقدماه عاريتان حتى الركبة، عاري الرقبة تمامًا، ذو طبيعة مجونية مستهترة في كل تصرفاته، مما جعله يبدو عربيًا أصيلا.

في البداية لم أكترث به كثيرًا؛ لأنه قلما يُوجد عربي في القاهرة غريب الأطوار مثله، كما كانت ندرة البوم في أثينا[١]. لكنه أثار فضولي فور أن فتح فمه وشرع في التحدث إلى من بجواره بإنجليزية سليمة، لا يستطيعها إلا لندني أصيل.

١ وردت الجملة أولًا فى ملهاة أرسطوفان "الطيور"، ثم تحولت إلى مثل شعبى يقصد به الشئ الزائد عن الحاجة. (المترجمة)

نعم قابلت خلال أسفاري المتعددة كثيرا من الإنجليز المهووسين، الذين يجدون متعتهم في الترحال متنكرين مرة على أنهم رجال عصابات إيطاليين، ومرة كجنود يونانيين قدماء، وأخرى كبدو أو كهنود وثنيين؛ لكن لم يخل الأمر مع كل هؤلاء جميعا - حتى مع تنكرهم - من مسحات مسرحية غير متقنة. لكنني قابلت مرة أحد أبناء انجلترا مرتديًا زيًّا غريبًا، وكان في تلك المرة زيًّا شرقيًا (وظني أن هذا الزي أصعب في ارتدائه من أي زيّ غيره نظرًا لسمات الشخصية الشرقية)، وقد أتقنه حتى النخاع، تماما كجليسي على المائدة هذا.

لقد بات من الواضح أن ذلك كان ثمرة بعثة دراسية طويلة الأجل حول الحياة والعادات الشرقية، تمخض عنها تعامل مع الشرقيين سنين طويلة.

من كان هذا العربي الإنجليزي أو الإنجليزيّ المتعرب إذن ؟

كان عليّ ألا أبقى طويلًا في تلك الحيرة حول شأن هذا الرجل. بدأ الرجل متحدثًا جيدًا؛ مما مكنني من فتح حديث معه، عرفت من خلاله أني أتحدث مع شخص سيصبح مشهورًا جدًّا فيما بعد؛ ولكن حتى ذلك الحين كان محدثي هو الرحالة الإنجليزي الغامض "الملازم بورتون" (Burton)، الذي كان عائدًا لتوه من مكة والمدينة.

مكة والمدينة! كيف لأوروبي أن يزور تلك المدن الإسلامية المقدسة المنعزلة، التي يعتبر المسلم وجود مسيحي بها خطيئة كبرى، مثلما فعلت قديمًا إحدى الراهبات في معبد فيستا[1].

أعلم جيدًا أن هناك بعض الأوربيين قد زاروا تلك المدن في القرون المنصرمة، وواحدًا أو أكثر فعلها في هذا القرن. لكن يظل هذا كله تحت مسمى ظروف استثنائية. كان الرحالة "بوركهارت" (Burkhardt) واحدًا ممن عرفنا أنهم قد قاموا بذلك، وكانت ظروف رحلته أيسر من غيره؛ حيث حظي بدعم من حكومة محمد على المقربة من الأوربيين. وكان بذلك زائر مكة الأوروبي الوحيد الذي لم يضطر لإخفاء أصله الأوروبي. وعلى

١ يقصد بذلك "فانينا" إحدى الراهبات الست لمعبد فيستا فى روما. ويروى أنها خرقت أحد شروط المعبد الصارمة فى المحافظة على عفتها وطهارتها وتنازلها عن حقوقها الاجتماعية كالزواج والإنجاب، حيث وقعت فى حب الشاب "كايوس فينديكس"؛ وأقامت معه علاقة، جعلتها تواجه عقوبة الدفن حية. (المترجمة)

الرغم من أنه قد عُرف عند البعض بكونه صابئًا أشهر إسلامه، واعتبره كثير من العرب مسلمًا حقيقيًّا؛ إلَّا أن سخرية محمد على عندما زاره في الطائف تكشف بوضوح عن أنه يرى في انتماء بوركهارت للمسلمين إشكالية كبرى؛ ولكنه كأمير فلسفي، لا تهمه أساسًا الأحكام الدينية المسبقة كثيرًا، فإنه سيتعطف عليه ويعتبر إسلامه إسلامًا حقيقيًّا.

بذلك حصل بوركهارت على خطاب توصية من الباشا لتقديمه إلى السلطات في مكة، وما كان هذا ليحدث أبدًا إلا في ظل السيادة المصرية المزدهرة، والتي بعدها عادت مكة مرة أخرى كتابًا مغلقًا بالنسبة للمسيحيين كما كانت من قبل.

هناك طريقتان مكَّنت الأوربيين الذين لم يشهروا إسلامهم من دخول مكة في العصور المنصرمة: إحداهما كانت إجبارية، وهي الدخول كأسرى حرب؛ وذلك بأن يصحب الأسير سيده إلى الحج. أما الطريقة الأخرى فهي طواعية؛ وذلك من خلال التنكر في زيّ عربي أو تركي أو أفغاني أو أي زي مسلم آخر؛ لكن تلك الطريقة - وإن كانت طواعية وأيضا أكثر استحسانًا - محفوفة بالمخاطر لأبعد مدى. بالطبع لم تَعُد الطريقة الأولى لدخول مكة موجودة الآن، أما الثانية فمازالت تستخدم، وأعرف شخصيًا أحد الإنجليز في الجزائر، ممّن عاد لتوه من الحج بنفس الطريقة في العام الماضي (١٨٦٣). وسأستهل وصفي لرحلتي إلى مكة قاصدًا الحج بقائمة لأسلافي الأوربيين ممن سبقوني في رحلة الحج إلى مكة؛ ممّا قد يجد الاستحسان لدى القارئ.

١) لودوفيكو بارتيما (Lodovico Bartema) (١٥٠٨): إيطالي من بولونيا، زار مكة متنكرًا؛ ولكن عرف في اليمن فيما بعد أنه مسيحي وقبض عليه فترة من الزمن، إلى أن تمكن أخيرًا من الهرب. تتميز رحلاته بالإثارة؛ وذلك لأنه قد شاهد الجزيرة العربية قبل دخول تركيا عام ١٥١٦.

٢) لو بلانك (Le Blanc) (١٥٦٦): فرنسى، قام "برجارون" بطبع رحلاته في باريس عام ١٦٤٩.

٣) يوهانيس فيلد (Johannes Wild) (١٦٠٤): ألماني، تم أسره على يد الأتراك وبيعه كعبد. وصَحِبَ - كعبد - سيده في رحلة حجه إلى مكة. ظهرت رحلاته في نورنبيرج عام ١٦٢٣.

٤) يوزيف بيتّو (Joseph Petto) (١٦٨٠): إنجليزي من إكزيتر، سافر إلى مكة عندما كان شابًا عمره ثمانية عشر عاما وأشهر إسلامه. ظهرت رحلاته في لندن عام ١٧٠٨.

٥) جيوفاني فيناتي(Giovanni Finati) (١٧٠٠؟): مرشد روحاني من إيطاليا.

٦) علي باي أو دومينجو باديا (Ali Bei oder Domingo Badia) (١٨٠٠): إسباني سافر متنكرًا كمسلم. تم التشكيك في رحلاته على مستويات عدة؛ إلا أني أرى في ذلك ظلمًا؛ لأني وجدت أن ملاحظاته وحتى خارطته لمكة صحيحة في مجملها.

٧) بانكيس (Bankes): إنجليزي، حامت الشبهات حول رحلاته أيضًا.

٨) زيتسن (Seetzen) (١٨١٠): ألماني، مات في الجزيرة العربية. لم تظهر - على حد علمي - مذكراته عن مكة مطبوعة. كان عليه إشهار إسلامه حتى يتمكن من زيارة الكعبة، التي رسمها من الداخل. وتم اكتشاف تلك المخطوطات - كما كانت تسمى - بحوزته، ولهذا تم قتله بتهمة الردة والخيانة.

٩) بوركهارت (Burkhardt): ألماني عاش أعوامًا طويلة في بلاد الشرق. تمكن من اللغة والعادات الشرقية أكثر من أي أوروبي آخر سبقه في ذلك. زار مكة والمدينة أيضًا بدعم من محمد علي (Mohamed Ali). ولوقت طويل كانت رحلاته الصادرة باللغة الإنجليزية المصدر الوحيد لمعرفتنا بالأماكن المقدسة.

١٠) والين (Wallin): فرنسي سافر تحت اسم ولي الدين. ولم يُعرف عنه إلا القليل.

١١) الملازم بورتون (Burton) (١٨٥٣): (وهو الآن القبطان بورتون والقنصل الإنجليزي في فرناندو بو)[1]، سافر أولاً على أنه برنس إيراني، ثم كطبيب هندي، وأخيرًا في هيئة درويش أفغاني؛ وبتلك الصفة زار مكة والمدينة. والتزمت الجمعية

١ جزيرة في غينيا الاستوائية، وسميت بذلك نسبة إلى مكتشفها البحار البرتغالي فرناندو بو، وتسمى حاليا بيوكو. (المترجمة)

الجغرافية في لندن بتمويل رحلته؛ على الرغم من أنها أرسلته حقيقةً فى بادئ الأمر إلى وجهة أخرى خلاف مكة والمدينة، ألا وهى عُمَان (سلطنة عُمان الآن)؛ وأغلب الظن أنه انطلق متسللًا من اليمن، وليس من جدّة، كما حاول الادعاء.

١٢) ليو روخس(Lèo Roches): شغل حتى وقت قصير منصب القنصل العام الفرنسي في تونس، والآن يعمل سفيرًا في اليابان. وقد تنكر في زى مغربي بصحبة مغاربة آخرين. واعتقادي أنه لم ينشر رحلته، ولا نعلم عنها إلا القليل. وقد حصلت على تأكيد من عرب ثقات أن روخس كان بالفعل في مكة.

إلى هنا تنتهي قائمة أسلافي، ولم يتبق لي سوى أن أذكر خليفتي - الوحيد حتى الآن - الذي أصبح معروفًا لدىّ: إنه إنجليزي يُدْعى "تينِت" (Tenett)، وُلِدَ في لندن، ويعيش الآن في قرية البيار في الجزائر. وقد اعتنق تينِت الإسلام ليظهر في جدة، ويؤدى الحج عام ١٨٦٣. وهو معروف بين العرب باسم "الحاج عبد الواحد"، وبالمناسبة فهو الآن يرتدى الحُلَّة الأوروبية، ولا يتبع أيا من تعاليم الدين الإسلامي. وهناك شاهدان على رحلة حجه يعيشان فى الجزائر، وتحديدًا هما: الحاج إبراهيم (Hadsch Brahim) والحاج علي طِري (Hadsch Ali Tri)؛ وذلك كي لا يشكك أحد في رحلته.

وعودة مرة أخرى إلى بورتون؛ إذ لايمكنني بعد هذا إلا أن أبدي إعجابي بجرأته، واندهاشي لمهارته في نفس الوقت؛ اللتان مكّنتاه من أداء دوره كمسلم. وهذا لم يكن ممكنًا؛ إلا إذا تمكن المرء من إتقان كل مصطلح شرقي إتقانًا تامًّا. وقد اختار بورتون دور الأفغاني؛ لأنه يتحدث الفارسية بطلاقة. أما ما منعه من تقديم نفسه على أنه إيراني؛ فهو ما يلقاه الإيرانيون دومًا فى الجزيرة العربية من سبٍّ ومن إساءة معاملة لكونهم شيعة.

لقد كنت كلما سمعت بورتون يتحدث، كلما ازدادت لدي الرغبة في أن أحذو حذوه. لكن قدرتي وقتها على التحدث بالعربية لم تكن بالقدر الكافي لخوض تلك التجربة؛ فكنت أعرف بعضًا من اللهجة السورية، وبعضًا من المصرية، وبعضًا من المغربية؛ أي شيئًا من كلٍّ، وليس القدر الكافي الذي يمكنني من أداء دوري كعربي وإتقانه بمهارة. لهذا أقلعت حينها بقلب مكلوم عن خطتي بأن أصبح خلفًا لبورتون.

بعد ذلك بسبعة أعوام (ربيع عام ١٨٦٠)، عندما عدت من زيارتي للمغرب؛ حيث كان عليّ أن أسير متنكرًا على الأقل في العاصمة الإمبراطورية؛ أما ما عدا ذلك فكنت أتخفي باستخدام حيل عديدة، حينها راودتني الفكرة عمّا إذا كان الوقت المناسب قد حان بعد لمراجعة خطتي المعدة سلفا؟ ومن خلال إقامتي أعوامًا عديدة في شمال غرب أفريقيا وتعاملي الذي حرصت طويلًا على أن يقتصر تقريبًا على العرب فقط، نجحت في أن أصل في إتقاني للهجة المغربية لدرجة مهارة جعلتني مميزًا. إذن سأتنكر في هيئة مغربي، وبهذا يمكنني القيام برحلة الحج بمفردي.

أما عن اللهجات العربية الأخرى فإني أفهمها جيدًا؛ ولكن لا أستطيع التحدث بها بطلاقة. بجانب ذلك هناك ميزة كبرى لتنكري في هيئة مغربي، وخاصة مغربي جزائري (لأن المغربي يُطلق في الشرق على التونسي والمغربي، أما في الجزائر فيطلق على المغربي فقط)، وهي أني بهذا قد وقعت تحت حماية السلطة الأوربية؛ والأهم من ذلك أن أي شيء غريب قد يثير الشبهة حول أوربيتي، سيتحمل فاتورته البلد التي أزعم حمل جنسيتها؛ وذلك لأنه لم يَعُد نادرًا اليوم أن ترى جزائريين قد تفرنجوا بشكل أو بآخر.

هذا وقد اتخذت قراري سريعًا، ولم يتبق لي إلّا شيئين: أحدهما الزيّ والآخر تدبير جواز سفرٍ يحمل اسم رجل مسلم. أما الأمر الأول فكان يسيرًا، وأما الثاني فلم يكن بالغ الصعوبة.

وبطابع من السرية القصوى (وذلك لأن ما كنت أنتويه لابد وأن يظل سريًّا، وخاصة عن هؤلاء الذين سأنتحل شخصية من قبائلهم الشقيقة) قمت بشراء زيّ بربري كامل عبارة عن: روليلا (معطف)(Rolila)، اثنان من الفوقية أو الكندورة (الصديري) (Bedaija)، حسام (وشاح)(Hosäm)، سروال (بنطال)(Sarual)، شاشيّة (قبعة حمراء) (Schaschia)، غبّانة (عمامة رأس شِبه حريرية)(Turbanti) وعباءة. عقب الشراء لم أقدم على ارتداء ذلك الزي؛ وإنما قمت بحزمه بعناية في أحد المفارش، ومن ثم توجهت بتلك الصرة في جنح الليل إلى أحد أبعد أحياء المدينة، حيث دلفت إلى قبو أحد المقاهي العربية، وهناك عرفت أني سأتقابل مع أحد الرجال المكلّف بتدبير جواز السفر لي.

في أحد أركان ذلك الحانوت المظلم جلس أحد المتشردين (الصعاليك) العرب، ممن كانوا ينعمون سابقًا بحياة رغدة إلى حد ما، أوصلها إدمان تدخين القنب (وهو نوع من الأفيون الإفريقي)(Kif) إلى أسفل سافلين. ولحُسن الحظ أدركته في تلك الليلة وهو لم يثمل بعد، لدرجة أنه بعد التحيات الأولى (كنت قد قابلته قبل ذلك عدة مرات عند أحد الطلبة، وكنت أتحدث إليه كلما سنحت الفرصة) كان على استعداد لأن يهبني آذانًا صاغية. لقد أدهشته لفترة ليست بالقصيرة حينما شرعت فى الحديث إليه كما يلي:

"خبرني يا عبد الرحمن (Abd-er-Rahman)، هل ترغب فى قضاء ستة أشهر محاطًا بأكثر وسائل المعيشة راحة واستحسانًا، دونما قلق، مدفوعة التكاليف تمامًا، مع توفير ما يلزمك طوال تلك الفترة من الحشيش (القنب) كما يشتهى القلب، ودون أن يجرؤ أحد من دائنيك على أن يمسسك بسوء؟"

نظر عبد الرحمن إليّ مذهولًا لدى سماعه تلك الكلمات، وعندها أعتقد أني أدخن الحشيش، وأني الآن بلغت حد الهذيان بإثارة إحدى حكايات ألف ليلة وليلة. وبما أن وجهي لا يشي بأي شبهة لهفة للتعاطي أو الهذيان، مما يظهر على مدمني الكيف، أيقن حينها تدريجيًا، أني ما زلت سيّد حواسي الخمس. لذلك بدا له أخيرًا أن التجاوب مع سؤالي أمر ليس من قبيل المجازفة؛ عندها أجابني بسؤال مضاد قائلًا: "وماذا عساني أن أفعل مقابل هذا الهذيان؟"

أجبته قائلًا: "سوف تذهب خلال ثمانية أيام إلى بعيد من هنا، إلى تونس أو بونة، وتمكث هناك ستة أشهر تحيا متنعمًا في لذّة كيفك المفضل، وستحصل مقابل ذلك على ..." (تلى ذلك عرض مبلغ من المال سيلاقى قبولًا تامًا عند العربي).

على الرغم مما اعتاد عليه متعاطي الحشيش من غمامة التفكير؛ إلا أن هذا لم يمنع عبد الرحمن من إدراك أن لهذا العرض مقابل مطلوب منه. يعرف جيدًا كل الجزائريين الآن نوعًا من الأوربيين، يُدعون بالمبشرين الإنجليز، الذين يحاولون في بعض الأحيان - لكن بلا طائل - تنصير المسلمين، ويتوهمون أن الرشوة هي ذات اللحظة الفارقة التى لا يمكن أن تفشل في تنصير المسلمين. ومن المحتمل أن ما ورد بتفكير عبد الرحمن،

أني أيضًا من تلك الفئة، وأن عرضي هذا لم يكن إلا بهدف حمله نحو الخطوة المفزعة، وهي تنصيره.

أجابني وسيماء الجد تعلو ملامحه، أنه سيفعل أي شيء؛ إلا أن يتخلى عن دينه، وقد بدا مضحكا أن يتشبث مدمن مثله بدينه. ولكن سرعان ما طمأنته وأكدت له أن ما أطلبه منه هي خدمة ذات طبيعة مختلفة تمامًا. هنا أبدى استعداده التام للنزول على رغبتي في أي شيء، حيث أنني لا أريد أن أجعله ملحدًا؛ إلا أنى وضعته مرة أخرى موضع الاندهاش لفترة ليست بالقصيرة، عندما بادرته قائلًا:

"سوف ترتدي في الصباح الباكر تلك الملابس، التي أحضرتها معي في تلك الصرّة، وتذهب مرتديًا إياها إلى حكومة الولاية، وتطلب استخراج جواز سفر لمكة لأداء الحج."

وكان عبد الرحمن، ذلك الرجل الطيب، عند ارتدائه ملابسه الشخصية أقرب ما يكون إلى هيئة درويش رث الثياب، والاحتمال الأرجح هو رفض السلطات الفرنسية استخراج جواز السفر، إذا رأته بتلك الهيئة التي تجعله يبدو كما لو كان شحاذًا.

أجاب عبد الرحمن على اقتراحي قائلًا: "عليك أن تدفع لي المال اللازم لذلك، ربما تعرف كم تتكلف تقريبًا رحلة الحج إلى مكة."

أجبته قائلًا: "أعتقد أني على علم بذلك. وسوف تحصل على المال بمجرد أن تسلم لي جواز سفرك."

اتضح الأمر برمته لمتعاطي الكيف مرة واحدة. وانطلاقًا من تلك اللحظة بدأ في تنفيذ خطتي حرفيًّا، كما أخذت حذري لتأمين سكوته، فهو شخصيًّا سيتبوأ مكانة خطيرة بين بني قومه، حال معرفتهم أنه قد هيّأ الوسيلة والسبيل لأوربي أن يبلغ مكة، المحرم دخولها على غير المسلم. لا يعد أمر السفر إلى مكة فقط من اختصاص الحكومة التركية - وهى الحارس المتعصب -، التي شرعت عقوبة الإعدام لغير المسلم، ممن قد يتسلل إلى الأرض المقدسة، بل إن كل فرد مسلم - طبقا لدرجة تعصبه - يعتبر حماية البلد الحرام (المقدس) بأقصى حزم واجبًا عليه طالما واتته الفرصة لذلك. نعم، وإني لعلى قناعة، بأن الحكومة التركية تظهر من أجل ذلك بمظهر المتعصب، كي لا تفقد شعبيتها بين المسلمين المتدينين.

وبلا شك فإن أكثر المتعصبين تعصبًا هم الحجيج (جمع حاج)(Hadschasch)، وبالطبع هم أفضل من لديه فرصة لممارسة مهمة الحراسة التطوعية على عملية الحج بأكملها، والوشاية بأي مسيحي غامر بالذهاب إلى مكة للحج متنكرًا.

في اليوم الذي حصلت فيه على الجواز بعد لقائي بمتعاطي الكيف، أبحر عبد الرحمن إلى تونس ومعه المال اللازم، مدعيًا بأنه يريد الحج إلى مكة، وذلك كي يعود مرة أخرى بعد ستة أشهر من تونس إلى الجزائر حاملًا تلك المرة لقب الحاج، هذا اللقب الديني المُهاب، الذي منحته إياه؛ وذلك بأن أرسلت له مرة أخرى جواز سفره الممهور من القنصل الفرنسي فى جدة بختم الزيارة. وبناءًا على ذلك وفي ظل غياب الشهود الست، فقد ملك وثيقة قانونية يُعتد بها، تُثبت على أقل تقدير أنه في وقت الحج كان حاضرًا في ميناء جدة؛ خاصة وهو معلوم أنه لن يسافر أي مغربي في شهر ذي القعدة (Du el Kada) إلى جدة لغرض آخر سوى أن ينطلق من هناك حاجًا إلى مكة وعرفة. لذا كان انتزاع اللقب أمرًا مضحكًا، خاصة وهو لا يملك شهوداُ. وبالمناسبة، كان بإمكانه ادعاء بقاء الشهود في مصر، الأمر الذي لن يكون محل تصديق أيضًا.

بهذا أصبح لدي جواز سفر فرنسي مستخرج باسم عربي بغرض الحج إلى مكة، جواز سفر قمت باستخدامه كما كان يهوى القلب. وكانت الصعوبة الوحيدة المتبقية، هي أن الجواز يحمل أوصافًا هي كالآتي:

السن: ٤٥ عامًا

الطول: متر وأربعون سنتيمترًا

الشعر: لا يوجد

الجبهة: صغيرة

الحاجبان: سوداوان

العين: بنية

الأنف: طويل

الرقبة: طويلة

الفم: كبير

اللحية: سوداء

الذقن:مستديرة

الوجه: طويل

لون البشرة: مائل إلى السمرة

علامات مميزة: الرأس بها مرض الجرب القشري

أما عن أوصافي الحقيقية فهي كالتالي:

السن: ٣٤ عامًا

الطول: متر وستون سنتيمترًا

الشعر: أشقر

الجبهة: عريضة

الحاجبان: شقراوان

العين: رمادية

الأنف: طبيعية

الفم: طبيعي

اللحية: شقراء

الذقن: مستدير

الوجه: طويل

لون البشرة: مائلة للصفرة

علامات مميزة: لا توجد

لقد بات من الواضح أن أول مجموعة أوصاف من هاتين المجموعتين المختلفتين تماما لا يُستساغ تبعيتها للموصوف فى المجموعة الثانية. لهذا يتحتم إجراء تحويرات كاملة على جسدي؛ كي أظهر بالشكل المقارب إلى حد ما للسيد عبد الرحمن محمد .

هذا ولا تمثل النقطة الأولى، ألا وهى السن، أي عقبة إطلاقًا؛ وذلك لأن مقدار عشر سنوات قلّت أو كثرت لا يمكن استنباطها عند كل شخص في فئة عمرية معينة من ملامح الوجه. أما بالنسبة لاختلاف الطول فيمكنني أن أتخذ وضعية ذات انحناء أقل لفتًا للنظر. أما فيما يخص النقطة الثالثة، فيمكن للعمامة وحلاقة شعر رأسي أن تمنع اكتشاف أنى لست بنفس صورته، ومما سرني ادّعاء أن مرض الجرب القشري هو السبب فى تلك الرأس الصلعاء تمامًا.

كما أن العمامة ستعمل على تغطية الجبهة إلى حد كبير. أما الحاجبان واللحية فتمثلان العقبة الأكبر بسبب لونهما؛ ولكن حتمًا سأعمل على تحويل ذلك اللون الأشقر إلى هيئة عربيّ في مالطا لاحقًا؛ وذلك عن طريق صبغة (Eau Berger) المعروفة بقدرتها على تلوين الشعر في دقائق، كما أنها أقل صبغة - من بين الصبغات الست الأخرى التي قمت بتجربتها - تحتاج إلى إعادة استخدام.

هنا قد يعترض أحد عليّ متسائلًا: لمَ لمْ أستخرج جوازًا خاصًّا بعربيّ أشقر اللون؟ وبهذا أكون قد أعفيت نفسي من عناء كبير. الآن يوجد بالطبع بعض العرب الشقر؛ ولكن هناك أمران، أولًا: ما كنت لأجد من يقبل بذلك الاتفاق كما فعل معي عبد الرحمن، وثانيًا: هب أني أغريت أحد الأشخاص من بين العرب الشقر القلائل لقبول خطتي، فأنا بذلك أضع نفسي في خانة الاستثناء؛ ذلك لأن القاعدة أن العرب ذوي شعر غامق اللون، وسيُنظر إلي بعين الاستثناء، وهذا ما كنت أخشاه. لهذا كان من الحكمة البالغة أن أصبغ اللحية والحاجبين، وكنت سأقوم بذلك من نفسي، حتى وإن لم يجعله جواز السفر أمرًا حتميًا؛ ذلك لأن وجود عربي أشقر أمر غير وارد بالمرة؛ على الرغم من وجود ذلك في الواقع أحيانًا.

أما الأوصاف المذكورة للأنف والفم والذقن فهي متناسقة إلى حد ما مع بعضها البعض في كلا الطرفين. كما ينبغي للون بشرتي المائل للصفرة أن يتحول في رحلتي إلى اللون المائل للسمرة. أما مرض الجرب القشري المصاب به شبيهي، فالحق يقال أنى لا أريد أن أتمثل به؛ على الرغم من أنه من الممكن أن أمتلك تلك العلامة المميزة عن طريق

حيل التنكر؛ ولكنى سأدعى أنى شفيت من مرض الرأس هذا. التناقض الوحيد الذي كان وسيظل هو لون العين؛ تلك لا يمكنني صبغها كاللحية ولا إخفاؤها كالشعر (كما أن ارتداء نظارة ذات لون أزرق قد يثير الشبهات حول أوربيتي)؛ لذا ظلت تلك النقطة هي الوحيدة المتغايرة في الأوصاف، والتي كان من الممكن أن تطيح برأسي دائما أثناء الحج، ولكن لحُسن الحظ لم يحدث.

هناك نقطة أخرى تخص جواز سفري، تمثل جانبًا مهينًا بالنسبة لشعوري الداخلي، ولكنها على العكس من ذلك تمامًا بالنسبة لخط سير الرحلة؛ بل إنها قد تكون الأنسب. تلك النقطة هي كل ما يمثل المكانة الاجتماعية المتواضعة التي يتبوأها من أتقمص شخصيته، وبها قد أصبح صعلوكًا باقتدار، والتي تندرج في جواز سفره تحت مسمى "الحالة". كما يطلق عليه أيضا لقب "متدني". أصابتني كل تلك المسميات غير اللائقة في البداية بالقشعريرة؛ ولكن لأنه لن يطّلع أي أوربي على جواز سفري - سوى القنصل أحيانًا - ولأنه لن يعلم أحدٌ شيئًا عن التخفي والتغييرات الشخصية التي أجريتها، لذا هدأ رويدًا شعوري الداخلي المستنكر للأمر منذ البداية. هذا ولا يحبذ العرب أيضًا إطلاق لقب "خادم" عليهم، مما يجدون فيه نوعًا من الاحتقار؛ ولكن القلة القليلة هم من يستطيعون قراءة الفرنسية؛ لذا سيبقى مسمى الحالة المهين الكائن في جواز سفري لغزًا ما بعده لغز بالنسبة لهم. إلا أننى رجَّحت كفة ذلك المسمى المتواضع على غيره؛ كي أتجنب كل ما يثير الشبهة التي لا حاجة لي بها أثناء رحلتي، والتي قد تبدو متعارضة مع ما ورد تحت خانة "الحالة" فى جواز السفر المصطنع. في الواقع، كنت قد اصطحبت شابًّا زنجيًا معي من القاهرة، تحتم عليّ نوعًا ما وجوده كعبدٍ، ولكن في الحقيقة استُخدِم ذلك البائس الفقير في خدمة مخاطر رحلتي ذاتها أكثر من خدمتي أنا شخصيًّا؛ على الرغم من أنني كنت ملزمًا بالدفع له. وفيما عدا ذلك نجحت في تجنب أي مظهر للترف، مما قد يلفت النظر إليّ، كما نجحت في المجمل ولحُسن الحظ في تنفيذ الدور الذي أوجبه جواز سفري.

لم أشعر بأمان بحوزة جواز سفري كما شعرت به وأنا على ظهر السفينة متجهًا إلى مارسيليا، التي بعد إقامةٍ قصيرةٍ بها اتخذت وجهتي إلى مالطا. كنت حتى تلك اللحظة

أوربيًا، وبمجرد بلوغي مالطا تنكرت في شخصية السيد عبد الرحمن بن محمد، وقد كان ذلك أمرًا ضروريًّا لا مفر منه لبلوغ هدفي المنشود. كان ارتدائي للزيّ البربري في الجزائر أمرًا خطيرًا للغاية؛ لأنه في العادة سيقوم بعض الجزائريين، إن لم يكن كثيرًا منهم بأداء فريضة الحج معي، وعندما يرونني الآن في وطنهم متنكرًا فسيكون انطباعهم على الأرجح أني أوروبي، وحتمًا سيثير ذلك الشكوك حولي، خاصة إذا ما قابلت أحدهم لاحقًا في الشرق متنكرًا بنفس الهيئة التي ظهرت بها في وطنهم. لذا وجب عليّ - رغم ادّعائي أني مغربي - أن أتجنب كل المغاربة الآخرين في طريقي إلى الحج؛ ذلك على الرغم من أني أتحدث اللهجة المغربية، وأرتدي زيًا كالمغربي، لدرجة أني قد أبدو مغربيًا قحًا في عينى أي مصريّ أو تركيّ أو عربيّ أصيل؛ إلا أنه لن يمكنني بحال من الأحوال أن أخدع المغاربة أنفسهم، فقد يكتشفون الحقيقة في النهاية نظرًا لآلاف التفاصيل الدقيقة.

هناك للأسف عادة للمغاربة فيما بين بعضهم، وهى أنه إذا قابل أحدهم أحدًا من أبناء جلدته في الخارج، فإنه يلجأ إليه فورًا ويستعلم باحثًا عن أصله، فلربما كانا أبناء عمومة ولو في الجد العشرين. ولكي أتجنب ذلك الخطر، اخترعت اسم بلدة من المستحيل أن أجد لي فيها ابن عمٍّ واحد؛ لأنه لا يوجد عربي واحد يقطن في تلك البلدة. كان الفرنسيون أول من أسس تلك البلدة ولم يقطنها سواهم، ألا وهى "بلدة فيليب فيل" (Philippeville) أو كما يطلق عليها عربيًّا "السكيكدة (Skikda)"[1]. لهذا أطلقت على نفسي "السكيكدي" (أي القادم من فيليب فيل أو السكيكدة)، كما ادعيت أنى العربي الوحيد القاطن في تلك البلدة. أسدى لي أيضًا ذلك اللقب "السكيكدي" - كما تمنيت - خدمة جليلة؛ ذلك لأن كل المغاربة تقريبًا، ممن سمعوا عني خلال رحلة الحج أو أتوا معي، سرعان ما كانوا ينزوون عني بمجرد سماعهم أني قادم من بلدة سكيكدة؛ هذا لأنهم موقنون أنه ليس لديهم أي أبناء عمومة في تلك البلدة الكافرة، حتى لو تتبعوا النسب إلى الجد الأربعين.

في الثاني عشر من إبريل لسنة ١٨٦٠ ميلادية، الموافق بالتقويم العربي العشرين من رمضان لسنة ١٢٧٦ هجرية، أبحر السيد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالسكيكدى على

١ سكيكدة أو روسيكادا حسب التسمية الفينيقية، مدينة وبلدية شرق الشريط الساحلي الجزائرى. احتلت المدينة سنة ١٨٣٨ أى بعد ثماني سنوات من دخول فرنسا الجزائر، حيث أطلق عليها اسم "فيليب فيل".(ويكيبيديا الموسوعة الحرة. المترجمة)

متن باخرة إنجليزية منطلقًا من مالطة قاصدًا الإسكندرية، متخذًا مقعدًا له في الدرجة الثالثة؛ لأن أبناء جلدته دائمًا ما يحرصون على السفر في تلك الدرجة، كما أن حالته المتواضعة المنصوص عليها في جواز السفر لن تسمح له بدرجة أفضل من ذلك؛ إلا إذا أراد أن يبقى في دائرة الظنون والتكهنات. كان البحر لحُسن الحظ هادئًا؛ لذا لم يعان السيد عبدالرحمن كثيرًا لدى وجوده على سطح الباخرة من الأمواج العاتية، كما ظل بمأمن من دوار البحر. ومما يسر القلب أن نرى كيف كان ذلك الحاج الورع يحافظ على صيام رمضان بشدة، وعلى إتمام وضوئه وأداء صلواته في مواعيدها.

لحسن الحظ لم يكن هناك جزائريون آخرون على سطح السفينة؛ لأنهم عادة يحرصون على استقلال الباخرة الفرنسية من مارسيليا إلى الإسكندرية مباشرة، كما أنه لا يمكن للسيد عبد الرحمن أن يخالط أيًا من التوانسة الحاضرين إلا قليلًا؛ لأن أغلب أبناء جلدته غير مهذبي الطباع، وهو بالطبع يتفوق عليهم كثيرًا بصفاته كحضريّ مهذب الطباع، لذا تحتم عليه الابتعاد عنهم.

وفي السادس عشر من أبريل رست الباخرة في ميناء الإسكندرية. تملكني حينها شعور خاص استقبلت به عمود السواري(Säule des Pompejus)[1]، الذي كنت قد رأيته خلال البحر منذ سبعة أعوام في ظروف مختلفة تمامًا. كنت آنذاك حرًّا كالطير، أما الآن فقد أصبحت كالعبد تمامًا، لزامًا عليه أن يحسب بعناية حسابًا لكل نظرة ولكل كلمة وحركة منه، وأن يعمل جاهدًا على التكيف مع الدور المنوط به أداؤه. إلا أن الظرف الحالي أتاح لي قدرًا كبيرًا من الإثارة لم تتحه لي المرة السابقة، حيث لم أر أي شيء على الإطلاق سوى ما يمكن لآلاف الإنجليز مشاهدته يوميًا بكل رتابة. إلا أن مهمتي الجديدة قد حتّمت عليّ التسلل إلى الأماكن التي قلما تطؤها أقدام الأوربيين، وإماطة اللثام عن ذلك الحرم (المقدس) بعيد الغور، ورؤية الكعبة العتيقة، التي تُعد رؤية أي مسيحي لها جرمًا يُعاقب عليه – طبقًا للشريعة الإسلامية – بالإعدام.

١ يعتبر عمود السواري من أشهر المعالم الأثرية في الإسكندرية. أقيم فوق تل باب سدرة بين منطقة مدافن المسلمين الحالية والمعروفة باسم مدافن العمود وبين هضبة كوم الشقافة الأثرية. ويصل طوله إلى حوالي ٢٧ مترًا ومصنوع من حجر الجرانيت الأحمر. أقيم تخليدًا للإمبراطور دقلديانوس في القرن الثالث الميلادي. وهو آخر الآثار الباقية من معبد السيرابيوم الذي أقامه بوستوموس، ويعتبر أعلى نصب تذكاري في العالم. (المترجمة)

لملمت حقائبي المتواضعة عقب وصولي إلى مدينة الإسكندرية، التي عرفتها بالقدر الكافي أثناء إقامتي فيها عام ١٨٥٤ لمدة شهرين، متخذًا وجهتي صوب أحد الأحياء المأهولة بالمسلمين فقط؛ لأني عملت جاهدًا على أن أتجنب الأوربيين؛ كي لا يفتضح أمري، وتفشل المهمة. سرعان ما وجدت مأوى في خان (مستراح القوافل) يحمل اسم "خان سليمان باشا" (Khan Sliman Pascha)، حيث عُرضت عليَّ حجرة صغيرة خالية تمامًا من أي سبيل للراحة مقابل خمسة قروش في اليوم، وهو مبلغ زهيد بالنسبة للأوربيين بالفعل؛ إلا أنه ذو قيمة بالنسبة للتصور العربي. يمكنني في هذا المكان أن أبقى على الأقل بمفردي، وأهرب من هرج شوارع الإسكندرية المحاطة دائمًا بصياح البشر وصهيل الخيول وجلبة السيارات، ونهيق الحمير والبغال، ونباح الكلاب، ورِغاء الجمال الكئيب، مما يجعل مسافرًا اعتاد على هدوء الباخرة يسقط مغشيًّا عليه في البداية.

لا يمكنني في هذا المقام وصف مدينة الإسكندرية. فاعتقادي أنها لم تأخذ أبدأ حقها وافيًا في الوصف. لا أعرف كتابًا واحدًا أوفى تلك المدينة حقها قدر الإمكان، متعرضًا لآثارها المصرية القديمة والقبطية واليونانية والرومانية والمسيحية القديمة والعربية، وأطلالها، وبالأخص طوبوغرافيتها الأثرية. كم من المجلدات يمكنها سبر أغوار مدينة تواجد على أرضها معبد السيرابيوم[1] (Serapeum) وجزيرة فاروس (der Pharus)، وسد هيبتا (das Heptastadium)، وآثار الإمبراطورية البيزنطية (das Panium) ومعبد القيصر (Caesarium)[2]، ومكتبة الإسكندرية الكبرى وآلاف غيرها. كم خفي على عقول البحث العلمي المحبة للآثار القديمة من كل حقبة من تلك الحقب التي مرت على تاريخ الإسكندرية؟

ولكن كما أسلفت، فإنه ليس من واجبي في هذا المقام - رغم أني كنت أريده بكل سرور - أن أتوقف عند آثار البطالسة التي وصلتنا من المدينة القديمة، كما أني قد عزمت

١ السيرابيوم هو اسم يطلق على كل معبد أو هيكل ديني مخصص لعبادة إله الوحدانية سيرابيس. وهي عبادة مقدسة في مصر في العصر الهيلينيستي، تجمع بين إلهين من آلهة مصر القديمة وهما أوزوريس و أبيس. أنشئ سيرابيوم الإسكندرية في عهد بطليموس الأول "سوتر" (٣٦٧ ق.م.-٢٨٣ ق.م.) (المترجمة)

٢ قامت كليوباترا بتشييده على شرف يوليوس أنطونيوس في الإسكندرية، وبه مسلّتان عند مدخله. تواجد في ميدان سعد زغلول الحالي. لم يبق شيء من أطلاله حيث دفن مع آثار الإسكندرية القديمة. أما المسلتان فقد أهداهما محمد علي باشا لأمريكا وبريطانيا ولا زالتا هناك حتى اليوم. (المترجمة)

على الحج إلى مكة؛ لهذا لا أريد أن أقع في الخطأ الذي وقع فيه الجغرافي العربي "ابن حوقل" (Ebn Haukal)[١]، حيث وعد في مستهل كتابه أنه سيصف مكة؛ غير أنه لم يفعل ذلك مطلقًا على طول الكتاب، بل ترك نفسه متنقلًا بين مظاهر خروجه على النص، لدرجة أنه لم يضع هدفه الأساس نصب عينيه مطلقًا.

بدءا من ذكرها في الأعمال العظيمة ذات الموروث الكلاسيكي وحتى كونها ضمن الاختراعات الواقعية لعصرنا الذرائعي، تقف السكة الحديد كخطوة محزنة؛ ولكنها ضرورية. فقد أرست تلك السكك الحديدية - رغم ما تتلقاه من احتقار في عرف كل ذوق فني وكل لون أدبي - قواعدها حتى في مصر وتصل ما بين القاهرة والإسكندرية. والخليفة عمر (Omar der Khalif) الذي أمر بحرق كتب مكتبة الإسكندرية العظمى في مواقد الحمامات[٢]؛ لأنها اعتبرت زائدة عن الحاجة بجانب القرآن، إن كان قد قُدِّر لذلك المتطرف أن يرى في مصر الأرثوذكسية اختراعًا شيطانيًّا مثل تلك السكك الحديدية، فإنه وبلا شك كان سيصب لعناته على ذلك المنتج الشيطاني، أو على الأقل سيمنع كل حاجٍ متدين من استخدام ذلك الاختراع الإنجليزي الآثم. لكن لن يجرؤ أحد شيوخ الإسلام اليوم - رغم أنه يتمنى فعل ذلك - على صب اللعنة على السكة الحديدية أو إصدار فتوى للمسلمين تحرم استخدامهم لها. بهذا يحق للصغير والكبير والمسلم والكافر، وحتى الحاج المتدين استخدام ذلك الشريط الحديدي المنقذ في الرحلة من الإسكندرية للقاهرة. هذا ما فعله أيضًا السيد عبد الرحمن السكيكدي.

في السادس والعشرين من رمضان (الموافق الثامن عشر من إبريل) حجز عبد الرحمن تذكرة من فئة الدرجة الثالثة من محطة السكة الحديدية (التذكرة ذات الدرجة الأعلى قلما يطلبها مسلم ولا سيما مغربي) ثم وجد لنفسه مكانًا في إحدى عربات القطار.

بحثت لنفسي عن عربة مكدسة بالمصريين أو الأتراك؛ كي لا أتعرض لخطر أن جليسي قد يكون مغربيًا. كانت هناك في محطة القطار مجموعة من المحسوبين على أنهم بنو وطني،

١ محمد أبو القاسم ابن حوقل: كاتب وجغرافي ومؤرِّخ ورحَّالة وتاجر عربي من القرن العاشر الميلادي. من أشهر أعماله "صورة الأرض" عام ٩٧٧م. (المترجمة)

٢ حرق الرومان مكتبة الإسكندرية قبل ظهور الإسلام بأربعة قرون؛ فالمؤلف هنا يسير مع الأكاذيب التي يروجها الغرب عن الإسلام، كما أنه لا يريد أن يرى مصر إلا أرثوذكسية. (المترجمة)

ومن بينهم أعداد غفيرة من التوانسة وبعض الجزائريين أيضًا، وكنت ألمح من حين لآخر بعض الوجوه التي كنت قد رأيتها في شوارع الجزائر. لكن لحسن الحظ كان الرداء المغربي الأبيض علامة مميزة للمغاربة عن بعد، مما مكنني من تجنبهم بسهولة في معظم الأحوال.

هكذا تواجدت في مجتمع أجنبي عني تمامًا، ولن يدوم الحال كذلك لمدة طويلة. كان رفاقي في السفر من المصريين، وكلهم مسلمون تعرفت عليهم، فكانوا طيّبي المعشر وهادئي الطباع إلى أبعد مدى، كما أزعم أنهم أقل تطرفًا، هذا إذا ما كان للمرء حق في أن ينعت مسلمًا بأنه قليل التطرف. يقع المصريون العرب منذ قرون تحت وطأة من يحكمونهم من الأتراك، حيث يُعاملون بأقسى أنواع الطغيان، كما أنهم يتعرضون للتجريح في كل فرصة بأنهم قد اكتسبوا كثيرًا من طبيعة الشعوب المغلوبة على أمرها. أؤكد الآن وبعد كل خبراتي التي اكتسبتها من أسفاري أنه بجانب كثير من الصفات السلبية مثل أنهم شعوب مغلوبة على أمرها، هناك أيضًا صفات إيجابية مثل أنهم يتمتعون بالحفاوة والمجاملة تجاه الأجانب. هذا ما وجدته أيضا لدى اليهود المعدمين البائسين في المغرب، وفي تونس لدى الجرابة (Dscherbiten)[1] سيئ السمعة لكونهم ملحدين، ولدى بعض الأرمن واليونانيين في القسطنطينية، وفي الجزائر لدى بني مزاب (Beni Msab)[2] المحقَّر شأنهم لكونهم وهّابيين ولدى الكثيرين غيرهم. يرى كل من عانى - باستثناءات قليلة - ظلمًا في وطنه واحتقارًا تحت وطأة من يحكمه من القبائل المستبدة في كل أجنبي شريكًا في الألم، ممن يجد أيضًا من الاحترام قليله في كل البلاد تقريبًا. ويشعر بناءا على ذلك - إذا تواجد لديه أساسًا شعور إنساني- بالتعاطف معه، والحمد لله لم يفتقر المصريون العرب لذلك الشعور، الذي فيما عدا ذلك يمكن اعتباره أحد الأخطاء الكثيرة والجسيمة.

كان جليسي الأول رجل طاعن في السن، له وقاره، ذو لحية بيضاء طويلة، له أنف ساميّة قح، عريضة ومقوسة، ذو عينين ضيقتين مفعمتين بالحيوية بُنيتا اللون، وله وجنتان

١ الجرابة هم سكان جزيرة جربة في تونس. وتقع في جنوب شرق تونس في خليج قابس. (المترجمة)

٢ بني مزاب هم مجموعة عرقية تنتمي إلى قبائل زناتة الأمازيغية الذين يمثلون السكان الأصليين لشمال غرب أفريقيا (٦٠٠ كم جنوب الجزائر). ينحدر الميزابيون من بني مصعب من قبيلة زناتة، وكلمة ميزاب محرفة من كلمة مصعب وسبب تحريف مصعب إلى مزاب أن البربر والميزابيين خاصة يحرفون الصاد في العربية زايًا، فقالوا مصعب ثم مصاب ثم مزاب. (المترجمة)

شاحبتان متهدلتان، وحاجبان كثان غير مهذبين. لم يكن هذا الرجل المفرط في النحافة عجوزًا موهنًا بأي حال من الأحوال، وكان يرتدي قفطانان من القطن العادي المُصنّع، واضعًا على رأسه عمامة نظيفة إلى حد ما، ومرتديًا حذاءًا أصفر اللون. كان يبدو عليه الوقار إجمالًا، ويشي حديثه بذلك أيضًا. اتسم حديثه تقريبًا بالعبارات الدينية، والعبارات المبتذلة ذات المظهر الديني، وأقوال القرآن المأثورة، والإسفاف المذهبي فقط. أهم جديدٍ أُخبرت به مائة مرة على الأقل في رحلتي من الإسكندرية للقاهرة، هو عبارة "أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله". سرعان ما اتضح أن هذه الشخصية المتدينة هو الشيخ مصطفى من القاهرة، عالم دين، يحفظ القرآن كاملًا، وكان قد اتخذ وجهته إلى الإسكندرية كي يحضر أبناء أخيه الثلاثة: علي ومحمد ومحمود، أبناء أخيه المتوفى نور الدين، كي يصطحب هؤلاء الشبان الصغار طيبي القلب، المقبلين على الدنيا معه في رحلة حجه إلى مكة، حيث منّاهم بمردودها المدهش لأقصى درجة على حياتهم المديدة وفلاحهم فيها.

جلس الشبان الثلاثة سالفي الذكر في نفس المكان أيضا، يصغون لحديث عمهم الشيق بصبرٍ مُرغَم وتثاؤبٍ مذموم. الأول ويُدعى علي، شاب فتيّ، يبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا، يبدو قصيرًا نوعًا ما؛ ولكنه بدين، اكتسب وجهه سمرة شديدة، تشي عيناه الضيقتان اللامعتان كعيون النمر بانطباع شهواني حسي. والثاني ويدعى محمد، فقد إحدى عينيه بسبب مرض الرمد المنتشر في وادي النيل، إلا أنه لا يبدو ضعيفًا أو قبيح الشكل على الإطلاق، لذا يشي وجهه بمظهرٍ ذي مسحة من الحزن. أما الثالث ويدعى محمود، فقد أتم لتوه عامه الثامن عشر، وربما هو أقوى الثلاثة؛ على الرغم من أن به عاهة، وله هيئة كهيئة العفريت تمامًا؛ فقبضتا يديه تجعل المرء يتذكر سمعة سيكلوب[1]؛ ويعطي وجهه انطباعًا عجيبًا مغايرًا لما يوحي به جسده الضئيل المنكمش في بعضه؛ فكان وجهه يشبه وجه لويس الرابع عشر تمامًا، له أنف أقنى مستو، ونظرة حاسمة نزَّاعة إلى التحكم، وجبهة عريضة مقوسة للغاية، لا تخلو من دلالتها على صفاتٍ عقلية. إذا اعتمد الإنسان

١ السَّيكُلوب عملاق في الأساطير اليونانية، له عين واحدة وسط جبينه. والسيكلوبات الثلاثة أرقس، وبرونتس، وستيروبيز؛ هم أبناء إله السماء أورانوس وإلاهة الأرض غايى. وقد صنع هؤلاء الثلاثة الصواعق التي يحملها زيوس ملك الآلهة. (المترجمة)

على حدسه، فإنه يحيل ذلك الوجه إلى جسد طوله ستة أقدام وبه قسمات فنية؛ لكن وَقَعَ اختيار الطبيعة المتقلبة على ذلك الجسد المتقزم.

لأني قد تعرفت على هؤلاء الأربعة عن قرب، فقد ذكرتهم في هذا المقام تفصيلًا. لن أتعرض لبقية صحبة السفر إلا إجمالا كلما أمكن، فهم ليسوا إلا صحبة عابرة. واحد فقط أريد ذكره؛ هو الزنجي العملاق، الذي كان يرتدي زيًا نظاميًا (عبارة عن سروال قطني وصديريين ومعطف) وبالتالي قدم نفسه إلينا على أنه موظف حكومي. هذا الإبن المدعو شمس، قد تزوّد - بخلاف سيف - بمقرعة ضخمة، كان يعلقها دومًا - متعللًا بقتل الذباب - على جليسه، دون لومٍ من أحد. بهذا يتضح كم الخوف في نفوس المصريين من موظفي الحكومة.

اتضح لي من الحديث مع الشيخ مصطفى، أنه قد عزم هو وأبناء أخيه الثلاثة على دخول مكة عبر طريق غير طريق السويس المعتاد، الذي تسلكه الأغلبية، وذلك عبر نهر النيل إلى قنا، ومنها يسلكون طريق الصحراء إلى القصير، حيث ينطلقون منها إلى الساحل العربي. ولأن السيد مصطفى قد قدر أني من المسافرين ميسوري الحال، بما يعني أني سأرحب بمشاركته في إيجار أحد المراكب النيلية؛ لذا كان يتحدث إليّ بحماسٍ ألا أسلك في رحلتي طريق السويس لتفشي مرض الكوليرا هناك - وظني أنه كان يختلق ذلك - وأن أستبدله بالإبحار عبر نهر النيل. لم يع ذلك الرجل الطيب أنه يتوجه بخطبته هذه إلى شخص قد ارتأى ذلك بالفعل؛ لأن تجنب طريق السويس، الذي يسلكه تقريبًا كل المغاربة، كان هدفي الرئيس منذ البداية. وهكذا تواعدنا سريعًا بأني سألتقي الشيخ مصطفى وأبناء نور الدين الثلاثة في يوم العيد الصغير (غرة شهر شوال) في بولاق (ميناء القاهرة)، حيث نستقل من هناك أحد المراكب التي قام بتأجيرها رفاقي في السفر.

مرَّ الوقت سريعًا بين تلك الأحاديث والمواعيد ولم نشعر إلا وأهرامات الجيزة تلوح في أفق الصحراء. والآن مررنا على قناطر محمد علي، ذلك العمل الضخم الذي لم يكتمل بناؤه والذي كان سيتحكم في فيضان نهر النيل عن طريق السماح للمياه بالمرور أو منعها طبقًا للحاجة، ويقف الآن كالأطلال؛ على الرغم من أنه لم يمر عليه ثلاثون عامًا. إنه

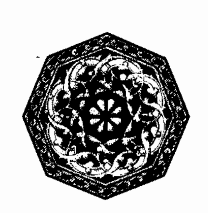
صورة حقيقية لأحد إنجازات محمد علي لمصر الحديثة، والتي تحولت إلى حضارة متهدمة من بعده. أخيرًا استقبلت عيوننا القاهرة، بلد الخلافة القديمة. فاجأنا وسرّنا صوت مدفع الإفطار في وقت المغرب فى محطة السكة الحديد، معلنًا انتهاء يوم الصيام. ماذا لو قُدّر للقراء الآن أن يشاهدوا إلى أي حد بلغ نهم معظم المسلمين، فهذا تهافت على غليونه، والآخر تهافت على ما احتفظ به من الطعام مسبقًا.

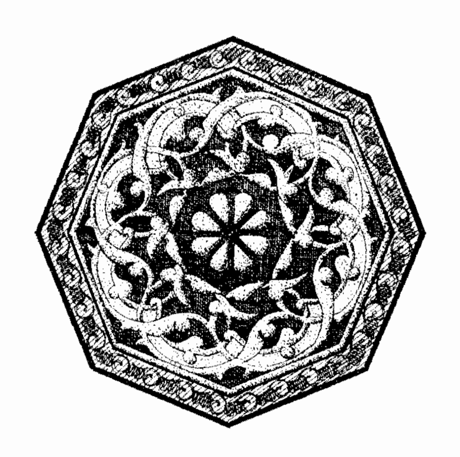
لم يطل بقائي في محطة السكة الحديد، بل عجلت من أمري كي أستقل بغلًا أصل به إلى وسط المدينة العربية، وكانت تلك هي الوسيلة القاهرية البديلة للحنطور. وبعد الغدوة والروحة والاستفسارات غير المجدية في العديد من الأزقة، وصلت أخيرًا إلى حي النحاسين وبه خان النحاسين، حيث وجدت به مأوى متواضعا ولكن لا بأس به.

لن أذكر شيئًا من الكثير مما توصف به القاهرة. استغرقت إقامتي تلك المرة أربعة أيام فقط، وبالتحديد الأيام الأواخر من شهر رمضان، التي كان عليّ صومها، مما جعلني أؤثر النوم كي لا يصيبني الوهن الشديد. كنت أنطلق ليلًا فقط متجولًا في شوارع القاهرة ذات الإنارة المبهرة؛ كما زرت الجوامع المتلألئة بسحر حقيقي، والمضيئة بآلاف المصابيح في ليالي رمضان كجامع محمد علي وجامع أحمد بن طولون وجامع الحاكم الشهير، أقدم جامع، وهو على هيئة قوس ولازال موجودًا، وكنت أتسكع بين الحوانيت أشتري أحيانا بعض الأشياء الصغيرة من الأسواق، أرتاد ذلك المقهى أو ذاك، حيث لمست هناك الدعابات البذيئة للعروض البهلوانية التركية المسماة بالأراجوز. كما قمت بعمل حمام تركي، والذي يشوبه هو الآخر العديد من المساوئ، التى كان ينبغي عليّ ذكرها، لكني أوثر الصمت. قابلت بالصدفة فى الليلة قبل الأخيرة من رمضان الشيخ مصطفى الذي تعرفت عليه مؤخرًا. حياني بأدب جم ودعاني لطعام العشاء عند أحد أبناء عمومته الذي يعمل تاجر رقيق. تُدار تلك التجارة اليوم في قدرٍ عالٍ من السرية بسبب الاعتراضات المستمرة للحكومة الإنجليزية. كنت قد توجهت إلى هناك؛ كي أشتري شابًّا زنجيًا بمبلغ مائتي فرانك؛ إلا أنه بزعم أني خاضع للفرنسيين فلن يمكنني تملك عبد بنفسي؛ لذا تحتم عليّ أن يكون الشراء باسم الشيخ مصطفى، الذي أبدى بدوره ترحيبًا واستعدادًا لذلك،

وخاصةً عندما أوضحت له أني سأهبه العبد عقب انتهاء الحج، كما أن اصطحابي إياه فقط كي لا أظل وحيدًا، مما قد يثير الشكوك دومًا؛ إذ يعتبر المسلمون الشخص الذي يعيش وحيدا أكثر الصعاليك شرًّا إن لم يعتبروه أسوأ من ذلك - أو على الأقل هو الأسوأ بالنسبة لهم - على أنه مسيحي أو يهودي مقنَّع. علاوة على ذلك نادرًا ما يعتقد الناس فيمن يملك عبدًا أنه أوروبيّ. يُدعى هذا الذي اشتريته حديثًا "عليًّا"، ويبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا، أسود اللون للغاية، له شفتان عريضتان جدًّا وأنف أفطس، وأسنان بيضاء تمامًا؛ باختصارٍ زنجي قح كما يجب أن يكون. كانت صحبته لي في رحلتي كرفيق - وليس كخادم، فهو لا يعي أي شيء كي يفعله - هي الخدمة التي لا تقدر بثمن، حيث كان وجوده مؤازرًا لي هو المانع من كل الشبهات التي قد تحوم حولي؛ لأنه كما قلت آنفًا، فإن الأوربيين لا يحرصون على اقتناء عبدٍ، وعليٌّ نفسه اعتبرني مسلمًا، وقد قال هذا لكل من رغب في سماعه.

ها هو رمضان المضني قد انتهى، وصباح غد يوم العيد الصغير - اليوم الأول من شهر شوال - ويسمى عند المغاربة المحسوبين أنهم أبناء جلدتي بـ"عيد الفطر"، ومعناه التحلل من الصيام، والذي وافق في ذلك العام الثالث والعشرين من إبريل. توجهت أنا وعليٌّ إلى بولاق؛ أي ميناء القاهرة، حيث وجدنا معارفنا ومعهم نيفا وخمسين آخرين من المصريين على متن الدهبية (مركب نيلي كبير). كان المسلمون المتدينون يتطلعون إليّ بقدرٍ قليل من الغرابة على أنّ أوروبيًّا متنكرًا قد صعد إليهم؛ ولكن اصطحاب الزنجي من جهة، وحفاوة الاستقبال التي لاقاني بها الشيخ من جهة أخرى، كان من شأنهما تهدئة المظنة التي نمت إليهم. سرعان ما صعدنا إلى ظهر المركب، الذي بدأ في شق عباب النيل بشراعٍ ملأها الهواء برياح شمالية مواتية طيبة.







الفصل الثاني
الرحلة النيلية من القاهرة لقنا

رفاق السفر - الشيخ العلاّمة العربيّ - الحاج كروي الشكل - مصطفى بك - حامى الحريم - تجارة الرقيق السرية - حيلتان بدائيتان - السوريّون المتعصّبون - أهل مكة الأشقياء - الدهبية - طريقة الإبحار في النيل - اقتفاء أثر النبي - أطفيح - الزيتون - بني سويف (Beni Suf) - الأقباط الخبثاء - الإنسان العجيب - أساطير جبل الطير - المنيا - بني حسن(Beni Hassan) وآثارها القديمة - منفلوط(Manfalut) - أسيوط(Siut) وتجّار الطواشى - بانوبولس(Panopolis) - جرجا(Girge) - فرشوط(Farschut) - سرقة أحد المسافرين واكتشافها - دندرة وقفط (Tentyra und Koptos) - النزول في قنا (Kene)

يقدَّر عدد المسافرين بحوالي خمسين مسلمًا، أغلبهم مصريون، وبعضهم زنوج، واثنان من الأتراك، وخمسة شوام سوريين، واثنان مكيَّان. لحُسن الحظ كنت أنا المغربيّ الوحيد بين ذلك الجمع المتعدد. كان أغلب المصريين رجال دين أو تجّارا قادمين من القاهرة أو الإسكندرية أو بعض مدن الدلتا، وهم بذلك ينتمون لأنبل الطبقات الاجتماعية لأهل البلد؛ وذلك لقصر رتب الضباط وموظفي الدولة تقريبًا على الأتراك، وبالتالي فهم ليسوا من سكان البلاد الأصليين. لم يرافقنا سوى قليل من الفلاحين؛ فكانوا ينأون بأنفسهم دائمًا بمعزلٍ عن بقية صحبة السفر، مقيمين عند بحّارة السفينة، يأكلون معهم الشعير

الجاف الأسود المخبوز بالماء، وهو تقريبًا الغذاء الوحيد لعموم المصريين، وينامون على ظهر السفينة، وكانوا بالمناسبة يفعلون ذلك دونما خوف من الإصابة بالأنفلونزا، فى ظل درجات حرارة - كما شهدناها - لا يُستهان بها، حيث بلغت ٢٠ رانكين[١].

سرعان ما عرّفني الشيخ مصطفى (Schich Mustapha) بأصدقائه المرافقين لنا في السفر، حيث كانوا رجال دين مثله.

كان أحد رجال الدين هؤلاء رجلًا له خصوصا من نور الحكمة الكثير، فكان متقنًا حتى لقواعد النحو، التي كانت آخر ما يتعلمه العرب. وعلى الرغم من إلمامي ببعض من قواعد علم النحو أيضًا؛ إلا أنني تحاشيت تمامًا البوح بذلك خشية إثارة الشك فيّ كأوربي، نظرًا لما يتطلبه ذلك العلم من العصمة من الخطأ، كما أنه لا يُسمح بتعلم علم النحو إلا لطالب قحٍّ نشأ بين المسلمين، وأنا أبعد ما يكون عن كوني طالب. والمقصود بذلك من لديه القدرة على تلاوة القرآن كاملًا غيباً دون أي لحنٍ في التشكيل.

فقط من يحفظ القرآن كاملًا عن ظهر قلب له الحق في تعلّم تفسيره، حيث يقف النحو كأفضل العوامل المساعدة على ذلك. لا يُسمح لأي مسلم بتعلم أي شيء آخر قبل حفظه للقرآن الكريم عن ظهر قلب، وإلاّ تعتبر كل العلوم حينها خطيئة. لهذا تكمن التربية بشكل كامل في طريقة الحفظ الببغائية. ويعتبر آثمًا من أراد فهم القرآن قبل أن يحفظه غيبًا.

ويُدعى هذا المطّلع على علم النحو "حسن أفندي"(Hassan Effndi)، حيث ينبئ اللقب التركي أنه من أفراد الأسرة الحاكمة؛ إلا أنه عربي ابن عربي، ولا يعي من التركية - كما أزعم - سوى لقب أفندي هذا، الذي يقترن عادة بالشيوخ العلاّمة. وكان حسن أفندي يرتدي جلبابًا رمادي اللون، ذا لحية قصيرة رمادية، وعينين سقيمتان، تذرفان الدمع باستمرار، أما فيما عدا ذلك فكان يشي بالوقار إجمالًا.

كنت قد تعرفت على خمس من الشيوخ العلامة غيره؛ ولكن على درجة أقل منه، يُدعى أحدهم "الحاچ عمر" (Hadsch Omar) أو كما ينطقه المصريون "حاج عمر" (Haggi Omar)، الذي إذا ما ألحقت باسمه صفة "العلاّمة"، هز كتفيه. وكان للحاج عمر هذا

١ مقياس رانكين هو مقياسٌ للحرارة المطلقة. سمي على اسم الفيزيائي الاسكتلندي وليام رانكين. وتعادل وحدة القياس فيه درجة فهرنهايت. (المترجمة)

هيئة كروية الشكل، كالثور تمامًا، وبه شبه ملحوظ من وليّ عهد مصر قبل السابق "عباس باشا" (Abbas Pascha)، الذى كان معروفًا بعدم قدرته على الترجل أو امتطاء الجواد؛ وذلك بسبب بنيته. أما رجال الدين الآخرون فكانوا: السيد منصور (Sidi Mansur)، والسيد عبد الله (Sidi Abd-Allah)، وحامد أفندي (Hamed Effendi)، ومصطفى بك (Mustapha Bei). ولقد تقلّد هذا الأخير الحاصل على لقب البكوية العسكري منصبًا صغيرًا في الحكومة، لم يجن من ورائه شيئًا سوى السماح بحمل ذلك اللقب عديم الفائدة، الذي أضحى لقبًا عامًا على الدوام، حتى أن بعض الأوربيين ومن بينهم للأسف أيضًا ألمان ممن يعملون في خدمة باشا مصر، يتباهون بذلك اللقب. أعرف شخصيًّا طبيبًا خاصًّا للباشا، مسقط رأسه تيرول، كان يطلب أثناء زيارته لوطنه أن يُلقب فى كل مكان بذلك اللقب المصاحب غالبًا للعوام في مصر. لقد أضحى لقب "بك" في هذه الأيام عامًّا تمامًا كما في النمسا بالنسبة للقب "هر فون" (Herr von) على سبيل المثال وتعنى السيد، ويُطلق تقريبًا على أي ماسح أحذية. غالبًا ما يُطلق ذلك اللقب على سبيل التأدب، ولكن في كثير من الحالات تمنحه الحكومة بنفسها. وبنفس الطريقة حصل اللاجئون المجريون ممن كانت لهم الرغبة في الارتداد عن دينهم عام ١٨٤٩م على ذلك اللقب عديم القيمة، الذي كان يحظى على أية حال بمكانة رفيعة سابقًا، مما حدا ببعض الكتاب الأوربيين إلى ترجمته إلى "أمير".

كان حامد أفندي طاعنًا في السن، متعصبًا بدرجة مبالغ فيها، وله من الأبناء اثنان يؤديان الحج أيضا بصحبته، ودائمًا ما كان يحثهما على الصلاة ويراقبهما ببالغ الشدة خشية أن يرتادا أماكن العوالم (Die Ualem) في القرية التي نرسوا عليها. لقد كان ولداه فَتيَين يبدو عليهما المرض، يبلغ أحدهما سبعة عشر عامًا ويبلغ الآخر خمسة عشر عامًا. تبدو عليهما بالمناسبة طيبة القلب، كما أنهما كانا يعاملاني باحترام شديد، شأنهما في ذلك شأن أبيهما، الذي سعيت إلى أن أستميله إليّ بسقيه القهوة باستمرار، وبجعل عبدي الزنجي رهن خدماته تمامًا وبشكل خاص. وبالمناسبة قد كان عليٌّ المسكين في الحقيقة رهن خدمات الآخرين من رفقاء السفر أكثر مما كان لي.

كان من بين الزنوج المرافقين لنا أيضًا في السفر من يسمى بـ"حارس الحريم" أو "قعيد الدار" (Kaid-ud-Dar)، الذي كان مسافرًا إلى المدينة بأمرٍ من إحدى الأميرات المصريات. أمّا ما كان مكلفًا به فلم أتقصّ عنه على وجه اليقين؛ لأنه كان يعتبره سرا من أسرار الدولة؛ بيد أنّي أظن أن الأمر يدور حول شراء أولجا (جارية بيضاء). وعلى الرغم من إعلان الدبلوماسية الأوربية في السنوات الأخيرة عن تجريم تجارة الرقيق في الشرق رسميًّا؛ إلا أنه لا زال هناك تجّار رقيق يمارسونها سرًا؛ أما تجارة الجواري البيض فتديرها سيدات نبيلات جدًا، لسْن ذوات صفة رسمية، يأخذن الفتيات من آبائهن الفقراء أو الأطفال اليتامى أو اللقطاء ويقمن بتربيتهن كبناتهنّ، ثم يبعنهنّ سرًا عند بلوغهن، دون اعتبار ذلك حرفة موسمية. يتواجد الكثير من مربيات الجواري هؤلاء بشكل خاص في المدن المقدسة كمكة والمدينة (Mekka und Medina). لا يُنظر لهؤلاء المربيات بعين الاحتقارِ أبدًا أو أنهن بلا قلب؛ فالفتيات اللواتي تتم المتاجرة بهن يصبحن في أغلب الأحوال في أفضل حال، ولا ينتقلن إلا لبيوت غنية. ولم تستطع الدبلوماسية الأوربية وأد هذا النوع الأخير من تجارة الرقيق أبدًا طالما هناك حكام مسلمون. للرق جذور عميقة جدًّا في الشرق، قدسه[1] القرآن والسنن، لدرجة أن المسلم لن يفهم إذا قيل له إن هذه التجارة شيء غير آدمي. من الواجب أيضًا ذكر أنه من دواعي الشرف للعرب والأتراك معاملتهم لكل الرقيق تقريبًا كأولادهم، وأن هناك بون شاسع بين الرق في الشرق ومثيله في أمريكا لصالح الشرق.

أما التركيّان اللذان صحبانا في السفر فكانا من سلسلة جبال آسيا الصغرى، ولم يجيدا كلمة عربية واحدة. كانا جافان فظان ولهما بنية غليظة الأطراف. كانا يخطوان بتثاقل ويتصرفان بغير لباقة، ويأكلان بطريقة بشعة ومقززة، يفعلان أقبح الأشياء في المجتمع، بيد أن ذلك لم يفقدهما وجاهتهما الفطرية، التي تشي أحيانًا بقدر قليل من الأرستقراطية. وعلى الرغم من أنهما شخصان ليست لهما صفة رسمية؛ إلا أنهما يُعاملان بقدر كبير من الاحترام، لأنهما ينتميان للأمة الحاكمة.

١ المؤلف مندفع في تعبيراته الكريهة، ولو كان منصفًا لقال أقره أو حتى أباحه. (المراجع)

أما السوريون فكانوا خمسة صبية متعصبين، وكانوا طوال الرحلة ما أن يلمحوا أوروبيًّا أو يرون سفينة ترفع علمًا أوروبيًّا، ممن كنا نقابلهم كثيرًا، إلا وينطلقون يصبون عليه اللعنات بالكفر. يا لمصيبتي لو كانوا قد عرفوا حقيقتي.

أما الرجلان المِكيّان فكانا على ما يبدو أرستقراطيين، على خُلق مهذب وحسن؛ ولكن هناك شيء أثار حفيظتي، فقد استباحا شيئًا في منتهى الرخص، حيث أرادا ركوب السفينة مجانًا، وأصبح من الصعب جدًا أن يدركا أن عليهما سداد حصتهما من أجرة السفينة. صحيحٌ أنهما قد وعدا أخيرًا بدفع ما عليهما؛ إلا أنهما في النهاية لم يفعلا، واتفقا على الهرب من محصل الأجرة. كان هذان الأفاكين الكبيرين أبناء المدينة المقدسة. إذا ما أنصت المرء لحديثهما، أدرك امتلاك آبائهما لقصور قد تنافس قصر علاء الدين (Aladdin). وكنا كلما اقتربنا من بلادهما، كلما زادت نبرة الفخر بالجاه، وانتهى بهما المقام إلى أن اضطرا للاعتراف بأن أبويهما وهما شخصيًّا من أكثر أهل مكة فقرًا.

كان هؤلاء هم أبطال رفقة السفر، الذين قضيت بصحبتهم رحلتي من القاهرة لقنا عبر نهر النيل، ثم المسافة من قنا للقصير على متن دابة عبر الصحراء، ثم الرحلة البحرية من القصير إلى مكة عبر البحر الأحمر. أما السفينة التي اتخذناها في رحلتنا النيلية فتستحق في هذا المقام شيئا من الذكر. كانت السفينة عبارة عن زورق مائل للطول، من ذلك النوع الذي يسمى "دهبية"، وهي أكبر نوعٍ من السفن يشق عباب النيل، مزودة باثنين من الصواري، يقع الأكبر في المنتصف والصغير في المقدمة، وبها أشرعة مثلثة الشكل، تبدو ملتقية مع بعضها عند فتحها؛ وتحوي قمرة قيادة بها أربع غرف، كما أن لها ثلاثة مجاديف، يجلس عندها الملاّحون، وكنا نناديهم بـ"ريس"، والمقصود بذلك قائد الدفة والصبيان البحّارة التسع إجمالًا، وكان معظم طاقم السفينة زنوج، يقتاتون خبز الذرة الجاف، ويرتدون في أغلب الأوقات حلة زرقاء طويلة، يقفزون بها في النهر لحظة ارتطام السفينة بكوم رمال تحت الماء، حيث يدفعونها بقبضة الأيدي والظهور حتى تعاود الطفو مرة أخرى. لم تكن الدهبية مفتوحة؛ بل كان بها جزء مغطى بسقف في المقدمة وآخر في المنتصف، هذا بخلاف قمرة القيادة المغطاة في الجزء الخلفي. من المتوقع أن تضاهى

الذهبية اليوم ما كانت عليه التلاميجوس (thalamegus) في العصور القديمة، والتي حرص الملوك المصريون على استقلالها في رحلاتهم النيلية الممتعة. إني أقارن بالطبع بين الذهبية وتلك التلاميجوس القديمة من حيث الشكل الخارجي فقط؛ أما فيما يخص فخامة تأسيسها فتتفوق فيه الأخيرة، حيث أنها ذات طابع ملكي فاخر.

تُعد الرحلة من القاهرة لقنا قمة في المتعة لمحبي الآثار القديمة، ليس فقط بسبب المعابد المصرية القديمة وأطلال القصور التي نقابلها غالبًا في كل خطوة؛ بل أيضًا بسبب طريقي الرومان الممتدان على جانبي نهر النيل الأيمن والأيسر بكل وضوح على طول المسافة. ومما أدخل عليّ السرور في رحلتي السابقة لمصر- التي أبحرت حينها عبر نهر النيل لبعض الوقت بصحبة قارئ الهيروغليفية العالم د. بروج (Dr. Brugsch) حتى شلال المياه الثاني عند وادي حلفا - رؤية كل من الآثار الفنية القديمة التي تعود لعصر رمسيس وأمينوفيس، وكذا الآثار المعمارية الحديثة نسبيًا التي تعود لعصر الرومان بكل وضوح رؤيا العين. أما هذه المرة فلا يمكنني مشاهدة تلك الكنوز الأثرية في أغلب الأحوال إلا عن بعد، هذا لأن المسلم الحق لابد وأن ينظر دائمًا لتلك الآثار المصرية أو الرومانية بعين الاحتقار. وفي كثير من الأحيان لم أتمكن من التغلب على نفسي، حيث كنت أقتنص الفرصة أحيانا، إذا ما توقفت الذهبية بالقرب من هذه أو تلك الأطلال، وأذهب لمشاهدة تلك الآثار القديمة المعروفة، وكان لزاما عليّ إما كتمان الأمر أو أن أختلق عذرًا.

وبسبب الندرة الشديدة للرياح الشمالية في أواخر فصل الربيع في مصر، لم نتمكن من حساب مدة دوامها، وسرعان ما سبب تيار الهواء المواتي المصاحب لنا من بعد ثلاث ساعات من بداية الرحلة من بولاق سكونًا للرياح، ثم تبدل إلى رياح غير مواتية. لقد كانت تلك هي رياح الخماسين (Chamsin)؛ وتعني رياح الخمسين يومًا، كما يطلق عليها نظرًا لفترتها المعتادة التقريبية في مصر "رياح الجنوب" و "سيروكو"(Scirocco)، "قبلي الجزائر" (Kabli der Algierer)، "سموم قاطنى الصحراء" (Simum der Wusten-bewohner). تهب رياح الخماسين في المعتاد في فصل الربيع أو بداية فصل الصيف، وهي رياح ساخنة جدا وجافة، وتثير معها موجة من الأتربة الناعمة، يمكنها التسلل عبر

الشرفات والمحال التجارية، وعادة ما تسبب الحمى والتهاب العين وأمراضا أخرى، كما أنها تسبق فيضان النيل. وبما أن أشرعتنا قد أصبحت عديمة الفائدة، فلا مناص من التجديف، وهو ما يفعله البحارون النوبيون الكسالى بلا رضا وببطء شديد جدًّا، لدرجة أننا كنا نتقدم بالكاد بسرعة نصف ميل ألماني في الساعة، وبسبب هبوب رياح الخماسين طوال رحلتنا النيلية بلا توقف، كانت النتيجة أن تلك الرحلة استغرقت ثلاثة أسابيع، فى حين أن نفس الرحلة استغرقت ثمانية أيام العام الماضي في فصل الشتاء. ولأن المقام لا يتسع هنا لسرد تفاصيل تلك الرحلة النيلية، التي تعتبر مقدمة لرحلتي إلى مكة، لذا آثرت أن أنقل رحلتي إلى قنا هنا على شكل مذكرات يومية بسيطة الصياغة.

غرة شوال ١٢٧٦ (٢٣ أبريل ١٨٧٠م): سمعنا قبل الإبحار من بولاق خطبة الخطيب والتي تُعلم ببداية العيد الصغير. وقد هنأ فيها بعضنا البعض بالعيد بعبارة "عيد مبارك" (Aitek embarek) أو "عيدكم بصحة"، ثم صعدنا إلي الدهبية. وفي حوالي الساعة العاشرة صباحًا استقبلنا عند ضفة النيل الشرقية المسجد الخلاب "أثر النبي" (Attar en nebbi)؛ وتعني آثر قدم النبي، حيث وجدنا فيه -كما يشي اسم المسجد- آثر قدم النبي مطبوعة على الحجارة، وهي مقدسة كأثر قدم المسيح على قمة جبل الزيتون في المسجد الصغير. وصلنا مسرّة عند منتصف النهار (تقع على الضفة الشرقية للنيل) والتي استقرت بها مملكة طروادة (Troicus Pagus)، حيث بناها مساجين طروادة بحسب "سترابو" (Strabo)[١]. وتقع على مقربة منها المحاجر المشهورة بآثارها البطلمية والأسر الحاكمة القديمة ذاتها. ثم مررنا بحلوان، حيث شُيد فيها أول مقياس عربي لمنسوب نهر النيل في سنة ٨٠ من الهجرة. ثم توقفنا قرب الليل عند البدرشين (Bedrischain) الواقعة على الضفة الغربية للنيل، وبمقربة منها توجد آثار منف (Memphis) وأبو الهول (Sphinx) الشهير. وفي المساء كانت تُقام ملاهٍ كبيرة على ضفاف النيل، بها الكثير من الراقصات والاحتفالات العامة بقدوم العيد. وتدق الطبول وتصدح النايات حتى وقت متأخر من الليل.

١ مؤرخ وفيلسوف يوناني، أطلق عليه العرب اسم اسطرابون. (المترجمة)

الثاني من شوال (٢٤ إبريل): واصلنا الإبحار بالتجديف فى السادسة صباحًا حتى منتصف النهار لهبوب رياح خماسين متواصلة. مررنا في الساعة الثامنة بهرمي لشت (Lischt)[1] المحطمين، وفى الساعة العاشرة بهرم الكذب (Haram el Kedeb) الذي زعم رفاق السفر أنه لا شيء سوى بناء حجري تكون بفعل الطبيعة. وصلنا في المساء "أطفيح"(Atfi) (مدينة أفروديت القديمة) (Aphroditopolis) والتي بحسب خرائط أنطونيني أجوستي (Antonini Augusti) تبعد ٤٠ ميلًا عن هليوبوليس (Heliopolis) فى القاهرة. وطبقًا لتلك البيانات نستنتج أن تلك الطرق لا تؤدي مباشرة إلى النيل، لأن المسافة بطول النهر تبلغ خمسين ميلًا.

الثالث من شوال: انطلاقًا من أطفيح وحتى الزيتون (Situn). مررنا في طريقنا بـ "الزاوية" (Sauja)، إيزيس القديمة ومدينة إيزيس القديمة والتي لا تبعد كثيرًا عن مدينة النيل. أما إطلاق اسم "زيتون" فما هو إلا الترجمة العربية للاسم القبطي (Ph-ni-giot).

الرابع من شوال: وصلنا بني سويف (Beni Suf) في منتصف النهار، وهى أكبر مكان بعد مغادرتنا بولاق، حيث مكثنا فيها باقي النهار والليل. ولأن العيد قد قارب على الانتهاء قضينا اليوم كله في المقهى.

الخامس من شوال: مررنا حوالي الساعة العاشرة بـ"ببا" (Bibba)، وهي قرية صغيرة بها كنيسة قبطية. وزعم الشيخ مصطفى أن قاطنيها من الأقباط "حرامية" (Haramin) ومحتالين كبار. فقد ادعوا قديمًا كي يزودوا عن كنيستهم ضد الهدم، أن هناك رجلًا مسلمًا من الأولياء قد دُفن في نفس المكان، وهو ما جعل المسلمين يتوقفون عن هدم المبنى. وبدأ بالفعل كثير من المسلمين المتدينين بإقامة صلاتهم في ذات المكان، لدرجة أن بعضهم تناسى أنهم يقيمونها أمام صورة هذا الولي وهو ما حرمه الإسلام بشدة. وكان اكتشاف تلك الخدعة بعد ذلك أمرا مخزيا لهؤلاء الملحدين. واتضح أن صورة هذا الولي لم تكن إلا صورة للقديس جورج. وصلنا الفشن (Feschen) في المساء؛ وهى قرية فقيرة، حيث لم يتواجد بها مقهى واحد.

١ قرية اللشت هي إحدى قرى مركز العياط. وقد اتُّخذت عاصمة لمصر في بداية العصور الوسطى. وتحوى الكثير من الآثار الفرعونية الهامة. (المترجمة)

السادس من شوال: في منتصف الطريق بين الفشن وشارونة (Scharuna) – حيث قضينا الليل – مررنا بجبل الشيخ مبارك (Dschebel Schich Embarek)، وقد سمي هذا الجبل باسم هذا الرجل الصالح، الذي قص عنه رفاقي في الرحلة الكثير من عجائب القصص. كانت إحدى هذا القصص أقل ما يطلق عليها أنها خرافة، سأقصها فقط كي أعطي قرائي مثالًا لما قد يصدقه مسلم متدين هذه الأيام. عاش الشيخ علي مبارك على هذا الجبل بمعزل كامل عن كل البشر، فقط بصحبة مجموعة من القطط. حمل الشوق قلبه أن يتخذ شريكة له، فقام بتحويل إحدى القطط إلى فتاةٍ غاية في الجمال وتزوجها. إلا أن نذير الشؤم جعل سلطانًا أتى إلى ذلك المكان للصيد يراها ويهيم بها عشقًا ومن ثم يختطفها. ولكن حل انتقام هذا الصالح. ففي يوم العرس خربشته تلك الحسناء حتى الموت، وتحول كل الخدم الذين ساعدوه على خطفها إلى قطط سوداء تحوم حتى الآن وتنذر بالخراب؛ هذا لأن القطط السوداء تمثل دائمًا نذير شؤم عند العرب.

السابع من شوال: وصلنا أبو جرج (Abu Girge) أو أبوچرچة (Abu Dschird-sche) عند منتصف النهار تقريبًا، حيث قضينا الليل فيها. يقع بالقرب منها كينوبولس(Cynopolis)، أي مدينة الكلاب، وهي كما يشير الاسم كانت منغرسة في تقديس الكلاب، تمامًا مثل مدينة التماسيح حيث عبادة التماسيح ومدينة الذئاب حيث تقديس الذئاب. كما نجد في الكهف المقابل لأبوجرج أعدادًا هائلة من مومياوات الكلاب.

الثامن من شوال: من أبو جرج إلى المنيا(Minie). مررنا في منتصف الطريق بنزلة الشيخ حسن (Nessle esch schich Hassan)، وهي قرية وأهلها فلاحون (Fella-hin)، توجد بها قبة لهذا الشيخ مبنية من الطوب الخفيف. لم نرس عند تلك القرية؛ ولكن أدَّينا الصلاة على روح ذلك الشيخ الصالح، الذي حكى عنه أيضًا رفاق السفر ما يعرفونه من العجائب. بعدها وصلنا "جبل الطير"(Dschebel et Tär)، حيث تحكى الأسطورة الشعبية أن الطير كان يجتمع سنويًا لكي يختار وفدًا يقرئ النبي السلام. كان الوفد المختار يبيت شتويا هنا في هذا المكان، بينما تطير الطيور الأخرى نحو الجنوب. ويتواجد دير

مريم، ويعني منزل مريم وهو الدير القبطي على هذا الجبل. حينما أبحرت في المرة الأولى عبر نهر النيل، أتى إلى هذا المكان سابحًا أحد الرهبان الذين يعيشون على الصدقة، أما هذه المرة فلم يأت طبعًا لأني أسافر بصفتي مسلمًا. لم يترك رفاقي في الرحلة أي فرصة إلا وسبوا الأقباط، وينطقونها "جبطي" (Gipti)، كما يوصمونهم بأنهم أهل لارتكاب ما يوصم بالعار. تعود أصل كلمة "جبطي" (Gipti) بالمناسبة لنفس لفظة "غجر" في العصور الوسطى، والتي أطلق عليها في فرنسا "جبسينس" (Gypciens) (ومنها سمى شارع جيسون في باريس)، ويسمون الآن في انجلترا أيضًا "جبسيس" (Gypsies) وفى أسبانيا "جيتانوس" (Gitanos). وعما إذا كان للغجر أصول قبطية، فذلك السؤال المشهور لم يحسم بعد. من الوارد أن يكون الغجر قد نزحوا من مصر إبان ظهور المسيحية بها؛ لأنهم وبلا شك قدموا إلى أوروبا وثنيين. ومن المحتمل أن تكون لفظة "مصريين" (Aegypter) قد أطلقت عليهم فقط على سبيل المجاز، كما كان يطلق على الملاحدة لقب العمالقة أو غير المثقفين، أو كما كان يطلق المتزمتون بعد ذلك على كل مختلف معهم لفظة "مصريين" (Aegypter). مررنا بعد منتصف الظهيرة بقرية تونة الجبل، التي شاهدت فيها منذ بضع سنوات ما بقي من العصور القديمة والنقوش اليونانية الشيقة جدًّا. وبحسب خرائط أنطونيني أجوستي أستنتج أنه في هذا الموضع يقع دير مواس، الذي يبعد حوالي أربعين ميلًا شمالًا عن مدينة أنطونيو. أما المنيا فهي مدينة صغيرة ولطيفة إلى حد ما، مبنية من الطوب اللبن، وبها سوقٍ تجولنا فيها، وبها مسجد كبير أدينا فيه الصلاة. أراني الشيخ مصطفى في نفس المكان عمودا من المرمر ينساب منه الماء كأنه ينابيع في بعض الأحيان، خاصة إذا ما لمسه إنسان متدين. للأسف لم أكن بالتدين الكافي، إذ أبى العمود أن أتأكد من تلك المعجزة في عصري الحاضر.

التاسع من شوال: توجد في مواجهة مدينة المنيا من الناحية الشرقية للنيل مقابر المسلمين. ولتميز شهر شوال بزيارة المقابر، رأينا قوارب صغيرة كثيرة العدد محملة بالسيدات المصريات يرتدين البراقع الزرقاء ومحتجبات تمامًا، يتجهن نحو المقابر: ينقل لنا مشهد رحلة المقابر صورة مميزة، حيث يذكرنا بالنقوش المصرية القديمة على الجدران.

مررنا في حوالي الساعة الثامنة بقرية سوادة، وكان بها مصنع لمشروب الروم يمتلكه نائب الملك. ويعد هذا مثالًا سيئا لأمير مسلم بالنسبة لأبناء دينه؛ لأن الروم يعتبر شيئًا مقززًا بالنسبة لهم.

يعتبر هذا الجزء من الرحلة النيلية هو أكثر جزء جدير بالاهتمام الشديد من قبل أي محب للآثار القديمة؛ لأنه على امتداد ميلين يجد كل ما يلي مجتمعًا:

١) كهوف بني حسن وحجرات الدفن المصرية القديمة، الغنية برسومات ونقوشات الجدران.

٢) اسطبل عنتر (Speos Artemidos) كهف أرتميس وكهوف ديانا، التي تبعد نصف ميل جنوب بني حسن وتحوي أيضا نقوشًا مصرية قديمة، وديانا هنا ما هي إلا ترجمة لاسم الآلهة المصرية باخت.

٣) أطلال مدينة أنطونيو (Antinoopolis) الجميلة والمحتفظة بحالتها الجيدة، التي بنى عندها القيصر هادريان بنيانًا إكرامًا لصديقه الشاب الذي غرق في هذا المكان. واليوم عليّ أن أمر على هذه الكنوز العتيقة للأسف دون أن أبالي، بل عليّ أيضًا أن أتظاهر بعدم معرفتي شيئًا عنها؛ لأن علم الآثار هو علم يجب ألا يهتم به المسلم الحق، وهو العلم الذي يفضح أمر الكافر بلا شك. قضينا الليل في ملّوي(Malawi)، وهي قرية صغيرة فقيرة على الضفة اليمنى لنهر النيل.

العاشر من شوال: مررنا عند منتصف النهار بتل العمارنة، حيث الكهوف الجديرة بالاهتمام والمقابر القديمة، وبها اعتبرت تل العمارنة (Psinaula) مدينة الأموات (Nekropole)، كما سماها بسلا(Pesla) في سجلاته. ولأن ملاحينا كانوا في هذا اليوم منهكين جدا، والتمسنا لهم العذر في ذلك؛ لأن رياح الخماسين كانت حقا مرهقة؛ لهذا لم نبحر فى هذا اليوم إلا حتى القصير فقط.

الحادي عشر من شوال: أخيرا كفت رياح الصحراء البغيضة شيئًا ما، وتنفسنا الصعداء بحق. وكان من المقرر ظهور أول تماسيح في الساعة الثامنة صباحا عند بلوغنا جبل أبو الفدا (Dschebel Abu-el-Feda)، إلا أنني لم أر شيئًا. حكى القاهريون كثيرا

من نوادر هذا المكان. تظاهرت بديهيا وكأني لا أعرف ما هو هذا التمساح؛ لأن إظهار تلك المعرفة من مغربي مثلي أمر مثير للشبهة. يعتبر المغربي عند المصريين نموذجا للجهل. وحتى اللغة العربية لا يعرفها إذا ما سمعها من المصريين، ويقرأ القرآن بكلام غير مفهوم. ويرى المصريون المغاربة تقريبا بنفس العلاقة التي كان الرومان قديما ينظرون من خلالها للغالّ(Die Gallier)[1] خاصة عندما يبذل جهده لتعلم اللغة اللاتينية، وكما قال شيشرون أن أعلمهم لا يقارن بأجهل من في الرومان. وعلى نفس ذات المنوال يعتبر المثقف المغربي في القاهرة، والذي نادرا ما يسعى لنيل مرتبة أعلى، جاهلًا كليةً. علاوة على ذلك فإنك لا تجد مسلما له باع في علومٍ مثل الجغرافيا وعلم الشعوب البدائية وتاريخ العلوم إلا وتعلمها من الأوربيين، والتعلّم من الأوربيين إلحاد بيّن. قضينا استراحتنا الليلية في مدينة منفلوط الصغيرة المبنية من الطوب اللبن الهش. ونظرًا لوجود حمام بخار، نزل كثير من رفاق السفر إلى تلك المدينة. وقد تبعتهم بدوري؛ إلا أني عدت أدراجي عند باب الحمام، فقد شاهدت الناس يغتسلون دون غطاء للجزء السفلي، وهذا ما لا أستطيع فعله، دون أن يُكتشف أمري أني غير مسلم؛ لأن العادة المعروفة التي أمر بها الإسلام لم أقم بها لنفسي.

<u>الثاني عشر من شوال</u>: من منفلوط إلى أسيوط(Siut). ولمنفلوط شهرة خاصة عند المسلمين المتدينين، إذ وجد فيها النبى لوط مأواه بعد تحطم سدوم وعمورة (Gomor-rha). وأعجب شيء هنا هو حذر المسلمين من نطق اسم النبي لوط (der Prophet Loth) عند زيارتهم لمسجده؛ ذلك لأن اسم هذا البطريق قد أصبح سبة بمرور الزمن، ويشير اليوم إلى الرزيلة التي حارب لوط قومه من أجلها. وهكذا تتغير دلالات الكلمات غالبا بمرور القرون. هناك انحناءات كثيرة لمجرى النيل في المسافة بين منفلوط وأسيوط، وتطلب الأمر جسارة بالغة، عندما تقدمنا خطوة للأمام مبحرين ضد تيار الرياح الجنوبية. وصلنا أسيوط في الليل، وقضينا فيها الليل، وهي بلا شك مدينة عبادة الذئاب القديمة (Lycopolis)، وقد وجدت بنفسي في أحد الكهوف مجموعة من مومياوات

[1] الغال: هو الاسم الذي أطلقه الرومان علي المنطقة التي يسكنها الغاليون. كانت بلاد الغال تضم المناطق التي تشمل الآن فرنسا وبلجيكا والجزء الألماني الواقع غرب نهر الراين.(المترجمة)

الذئاب. ويحتوي هذا الكهف على تماثيل لمحاربين يختلفون بلا شك في أسلحتهم وتعابير وجوههم عن المحاربين المصريين القدامى. إلا أن تسليحهم يشبه بشكل عجيب ما أورده زينوفون(Xenophon)[1] في وصفه للتسليح المصري. ويميل علماء الآثار إلى أنهم كانوا جنودًا في الفترة الانتقالية لحكم الهكسوس، الذين كانوا ملوكًا بدويين من أصول غريبة عن المصريين، وأزاحوا لفترة كبيرة من الزمن الأسرة الحاكمة من أهل مصر في مصر السفلى.

انتهز الشيخ مصطفى الفرصة في أسيوط وحول دفة الحديث إلى الأقباط المفزعين، وتلك المرة كان لديه الحق. يمتهن بعض أقباط أسيوط تجارة الرقيق ويجرون لهم عملية إخصاء، ويلقى الكثير منهم حتفه على إثرها، ويبلغ عددهم حوالي ٢٠ ضعفًا ممن يظلون على قيد الحياة، بحسب ما اعترفوا به من قبل. فهل لدى المسلمين الحق في كرههم للأقباط الشرقيين؟

الرابع عشر من شوال: بعدما توقفنا عن الابحار يومًا في أسيوط؛ كي يتمكن البحارة من خبز الخبز، استكملنا رحلتنا مساءًا حتى بلغنا قاو الكبير(Kau el kebir)، التي تعرف باسم أنتيوبولس (Antaeopolis)، حيث تميز بوضوح آثار معبد أنتيوس. وهنا أشير إلى الأسطورة القديمة التي تشير إلى موت العملاق أنتيوس على يد هرقل، بينما توجد أسطورة أخرى أكثر انتشارا، معروفة باسم رأس سبارطيل الموجودة اليوم فى المغرب إشارة إلى مكان التبارز.

الخامس عشر من شوال: وصلنا جبل الشيخ الشريدي عند منتصف النهار، حيث عاش قديمًا الشيخ المذكور ذو الكرامات، فكان يشفى جميع الأمراض بواسطة ثعبان. من منكم لم يتحسس فى تلك الأسطورة ما كان لإله الشفاء "أيسكولاب" مع ثعبانه؟ بعد مرورنا بقرية "الدير الأبيض"، وهي إحدى قرى الأقباط، وتقع بالقرب منها أطلال مدينة التماسيح (Crocodilpolis)، وصلنا مساءا أخميم، وهي مدينة صغيرة، مبنية

١ زينوفون: مؤرخ يوناني وكاتب فلسفي، عاش بين القرنين الثالث والثاني ق م. وكان أحد تلاميذ سقراط واشترك مع الفرس في حروبهم، وله كتاب يُدعى الأناباسيس والذي اشتهر به، حيث أرخ لرحلة تقهقره مع رجال قورش الأصغر لآلاف الكيلومترات.(المترجمة)

بالطوب اللبن، وهي الموضع القديم لمدينة بانوبولس، كما تشير الكثير من النقوش من القرن الثاني لتقويمنا.

السادس عشر من شوال: وصلنا عند منتصف النهار مدينة جرجا(Girge) أو چرچا (Dscherdsche)، وهي العاصمة العربية القديمة للصعيد، وتقع بالقرب منها آثار أبيدوس المشهورة عالميا، والتي تعتبر أول مدينة في منطقة النيل العليا بعد طيبة. وقد انحسرت جرجا عن مساحتها القديمة، ولا تبدو الآن أكثر جمالًا من مدن صعيد مصر، المبنية بالطوب اللبن، لذا فهي لا تعطي انطباعا بشكل المدن؛ بل هي مجرد بنايات مبنية بالطوب الطيني ذي الطابع القروي. أما ما تحدث عنه "ليو أفريكانوس" من جمال المساجد والبنايات الأخرى في صعيد مصر فيبدو لي أنه غير محق فيه؛ لأن كل بناء في وقته كان مبنيًا أيضا بالطوب اللبن، كما هو الحال اليوم، وأي بناية تبنى بالطوب الطيني لا يمكنها الاحتفاظ بشكلها المعماري ذي الطابع الجمالي الذي كانت عليه عند بنائها، بل سرعان ما تتحول بفعل العوامل الجوية إلى شكل كاريكاتوري وتبدو وكأنها تصدعت.

السابع عشر من شوال: مررنا بالمدينة العربية الكبيرة نسبيا فرشوط، وتقع على الجانب الأيمن لنهر النيل في نطاق هوَّراة، القبيلة العربية الكبيرة، والتي كانت سابقًا وحتى وقت قصير مستقلة، وصلنا قرية "هو" مساءا، كانت تسمى قديمًا (Diapolis Prava). وإلى هنا ساد بين المسافرين على ظهر سفينة الحج نوع نادر جدًّا من الأُلفة، لأن الحُجَّاج التُّقاة لا يحرصون فيما عدا الحج على جعل الألفة من فضائلهم الهامة. ولكن حدثت هنا حادثة، حيث سرقت حافظة نقود القاهري البدين الحاج عمر، الأمر الذي أخرجه عن هدوئه الجامد وأدخله في موجة غضب عارمة، اتهم فيها معظم المسافرين بالسرقة. وبالطبع كان حالنا جميعًا هو رفض ذلك الاتهام. ولكن كيف يُكتشف السارق؟ خطرت لمصطفى بك خاطرة؛ فكتب آية من القرآن على ورقة ومزقها إلى قطع صغيرة، وأخفى كل من كان حاضرًا قطعة في فمه، وكان على كل شخص ابتلاع تلك القطعة، التي تتأثر بشكل عجيب بكرامات أي من الصالحين، فتفضي بالمذنب إلى الموت، ولا تحدث أي ضرر يذكر للبريء. وتلك طريقة كثيرة الاستعمال في مصر لاستنطاق الحقيقة ممن يعتقدون بالخرافات؛ لأن

المذنب المعتقد بالخرافة سيتحاشى ابتلاع الورقة، ومن ثم ستكتشف في فمه عند إعادة الفحص الدقيق. ولكن المسافرين معنا كانوا جميعًا متفتحي العقل جدًّا، لدرجة تجعلهم يفطنون أن السارق نفسه قد يبتلع الورقة، مما يهدد التجربة بالفشل الذريع. ولم يكن أمامنا إلا إرسال الأمر إلى مأمور فرشوط، الذي سيطلب من حاجب المحكمة بلا أدنى شك أن يستخرج الحقيقة باستخدام النبّوت. ولكن بمجرد أن اقترح الحاج عمر هذا الاقتراح، قوبل بعاصفة من الاستياء من الجميع، وسرعان ما هددوه وألجموا لسانه، لأننا في تلك الحالة سننال جميعًا نصيبنا من الضربات. وأخيرًا اقترح أحد الأتراك الحاضرين اقتراحا آخر، وكان هو الآخر اقتراحًا غريبًا، إلا أنه تكلل بالنجاح التام. وفي نفس الوقت تميز الاقتراح بالسذاجة الطفولية. كان على كل منا إبراز ما لديه من نقود. وكما تنبأنا، فإن من يثبت بحوزته مبلغ من المال أكثر من النفقات الضرورية اللازمة للحج يكون هو السارق بعينه. تعتبر مثل تلك التجربة بالنسبة للأوربيين عبثية للغاية. أما بالنسبة للمسلمين فلها اعتبارات أخرى، فهم يحرصون دائمًا في رحلة الحج على اصطحاب مبلغ قليل من المال؛ لأنهم اعتادوا في تلك الرحلة - شأنها شأن أي رحلة أخرى - تحويل أموالهم الفائضة إلى بضائع. وكما اتضح فعلا من التفتيش لم يمتلك أحد سوى السارق مبلغًا من المال يفوق ما يتطلبه الحج، وبالطبع فإن هذا المبلغ هو مبلغ تقريبي كحد أدنى محدد مسبقا، بحيث يفي المتطلبات الأساسية ولا يتخطاها. وقد كان لدي من المال ما يفوق هذا المبلغ المحدد؛ ولكن نقودي كانت في أغلبها عملات ورقية خبأتها جيدًا. وكان بحوزة السارق - وهو أحد المكيين - من الذهب ما يقرب من ثلاثة أضعاف ما لدى أي مسافر، وعليه فهو مرتكب كل أعمال السرقة التي حدثت وظل الفاعل مجهولا. ولأنه قد تم تهديده بتطبيق حد السرقة عليه المذكور في القرآن إذا لم يعترف بفعلته، ذلك الحد هو قطع الأيدي الذي لم يعد يطبق تقريبا، لذا فقد أقر بفعلته، وأخرج النقود، وسامحه كل صحبة السفر عن طيب خاطر، وهو الأمر الذي لا تجده إلا عند المسلمين، ومرجع ذلك إلى لؤم قضاتهم واقتناعهم أن المتهم الخبيث ذاته قد حكمت ببراءته بعودة المال. وسُرّ الحاج عمر البدين أيما سرور بعودة نقوده، التي كاد أن يفقد الأمل في عودتها. وفي غمرة فرحته قدم لنا جميعا

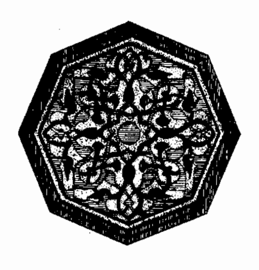
أفضل قهوة، ولم ينس حتى السارق. أما هذا الوغد فلم يشعر بأي تأنيب ضمير، فقط انقطع عن مجالستنا ليوم واحد ثم عاد مرة أخرى كأن شيئًا لم يحدث.

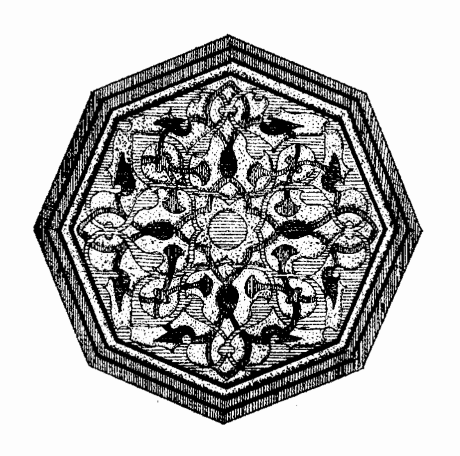
الثامن عشر من شوال: لمحنا معبد دندرة الخلاب عند منتصف النهار، الذي كان يسمى قديمًا (Tentyra)، ولا يبعد عن المدينة الشهيرة "قفط" (Coptos) كثيرًا، كما أنه يقع قبالة وجهتنا المقصودة "قنا". ومن المعلوم أن معبد دندرة لم يحاكي نفس فخامة وجمال شكل المعابد الأخرى، مثل معبد الكرنك(Karnak) والأقصر(Luksor) وأبي سمبل(Abu Simbel) وفيلة(Elephante)، على الرغم من أنه قد بنى بعد تلك المعابد بقرابة الألفي عام. ويعود أصله إلى البطالمة وعهد الأسرات المصرية القديمة. ففي القرن الأول الميلادي ساد بين المدينتين المتاخمتين لبعضهما دندرة وقفط عداوة ضارية، لدرجة أنه في إحدى أعياد الآلهة الوثنية شن أهل مدينة دندرة هجوما شرسا على القفطيين، ومزقوهم إربًا وأكلوهم، تلك الحادثة التى ندين بمعرفتها لصاحب الهجائيات الشهير "جوفنال"(Juvinal) في قصيدته الخامسة عشرة. كان الشاعر الثمانيني وقتها شاهدا بنفسه على أكلة لحوم البشر من مدينة دندرة، حيث سطر وحشيتهم جنبا إلى جنب مع رذائلهم.

لم تعد تلك الوحشية هي المثلب الرئيس للمصريين في عصرنا الحديث؛ بل إنهم من أرق الشعوب الإسلامية التي عرفتها؛ ولكن بزوغ نجم سهيل القديم عاد للتألق مجددا بكامل بهائه، وما قاله الأسقف سالفينو ماسيليني(Salvianus Massilensis) في القرن السادس الميلادي عن المسيحين الأفارقة، مازال ساريا لليوم، بل ربما بصورة مرتفعة لدى المسلمين.

وفى تمام الساعة الثانية ظهرًا من يوم الثامن عشر من شوال سنة ١٢٧٦ هجرية (الموافق العاشر من مايو ١٨٦٠ ميلاديّة) أنهينا رحلتنا النيلية ورسونا في قنا، ومنها سنستقل القافلة عبر صحراء البدو العبابدة(Ababda - Bediuṇen) إلى ميناء القصير(Kosair) بالبحر الأحمر، ومنها إلى السواحل العربية وخاصة ميناء ينبع(El Imbu)، وهو ميناء المدينة المنورة، وميناء جدة، وهو ميناء مكة. ومازالت قنا محتفظة تقريبًا باسمها القديم بلا

تغيير (Caenopolis). وتعتبر قنا اليوم هي المركز التجاري العربي الوحيد على نهر النيل، وتبوأت تلك المكانة بدلًا من مدينة قفط أولًا ثم بدلًا من مدينة قوص لاحقًا. وفي أوقات الحج يدب فيها نشاط حيوي؛ على الرغم من أنها لم تعد كما كانت في السابق؛ وذلك لأن طريق السويس يستقطب تقريبًا معظم الحجيج. فيما عدا ذلك لا تتميز قنا بشيء آخر، اللهم إلا أنها تعتبر مكانًا لتجمع العوالم(Ualem)، ومنها ينطلقن إلى كل صعيد مصر.







الفصل الثالث
الرحلة من قنا حتى القصير عبر الصحراء

فعاليات الرحلة عبر الصحراء - الإجراءات الوقائية الرديئة للعرب - الجمال - أول طريق للجمال في إفريقيا - القافلة الملونة - بئر عنبر(Bir Amber) - الطرق الرومانية في الصحراء - البدو العبابدة - بئر الغايتة - الآثار الرومانية - بئر الحاج سليمان - البيضا - نافورة الإنجليز (Inklis) - المياه الآسنة - الوصول للبحر الأحمر - رؤية القصير

هناك خمسة طرق من قنا تؤدي إلى القصير، اثنان منهما هما الأكثر استخداما؛ أحدهما يمر بالمعيلي(Moäle) ويبلغ طوله ٢٤ ميلا، والآخر يمر بالرصافة(Rassafa) وأقل من الأول بمقدار ميل. يمر كلا الطريقين عبر الصحراء، حيث يقطن واحتها قليلة السكان البدو العبابدة. اجتمع ركب قافلة الحج وعددهم مائتا رجل على سلوك الطريق الثاني. كنت قد استأجرت في قنا من أحد البدو المذكورين جملين بمبلغ ١٠ عملات ذهبية، جمل لي، والآخر لعليّ، الذي لم يبدُ لي بالقوة الكافية التي تمكنه من السير على قدميه. استرحنا في الطريق في قنا لمدة يومين، وخُصص اليوم الأول لاستئجار الدواب والثاني لتدبير المواد الغذائية.

على الرغم من أن كلا المهمتين كان يمكن إنجازهما معا في خلال نصف يوم؛ إلا أن ذلك يعتبر مخالفًا للبطء العربي المعتاد، وكان الوقت ما زال مبكرًا، ورفاق السفر لم ينهوا مهامهم بعد. وبخلاف المواد الغذائية أخذت مؤنتي من الماء؛ لأنه لا يوجد في مثل

هذا الطريق ماء صالح للشرب. لهذا كنت قد ابتعت من القاهرة مائة عبوة كبيرة من الماء مغطاة بالجلد، وهذا ما يصطحبه المسافر معه عبر الصحراء غالبًا. ولدهشتي الكبيرة وجدت أني الوحيد الذي اتخذ مثل تلك الإجراءات الاحتياطية، وكأن العرب لا يجدون مشقة مع العطش؛ بل هم أكثر منا وأكثر من الأوربيين في ذلك، نظرا لاعتيادهم على توافر مياه الشرب؛ لكن ما أشد عدم اكتراثهم، فهم يفضلون التألم من العطش على أن يبذلوا الجهد للتفكير فيما هو آت. إنهم لا يصطحبون الماء معهم إلا في سفر الصحراء الطويل وخاصة في الطرق غير المأهولة بالسكان.

أمّا قافلتنا، التي ذكرت سابقا أن قوامها مائتا رجل، فقد بلغ عدد من يمتطي فيها دابة حوالي الربع، حيث كان هناك حوالي مائة وخمسين فردا مترجلين طوال الطريق إما بخلا أو فقرا. أمّا من كان دافعهم البخل فكانوا بالتأكيد يملكون مجموعة قوامها من أربعة لخمسة جمال، وقد تصل إلى ثمانية جمال محملة بالبضائع وتسير مع القافلة، حتى أنهم قد يتشاجرون بكل سهولة عند طلب دفع مستحقات المرور الزهيدة بالنسبة لهم. يتشابه العربي بكل أطيافه، سواء كان فلاحًا أو حضريًّا أو بدويًّا، فيما يخص وسائل الراحة الشخصية، فهو لا يدلل نفسه. لا أستطيع حقًّا أن أفسِّر كيف وصف الكتاب البيزنطيون أمثال زانوراس(Zanoras) وكانتكوزينوس(Cantacusinus) وجورجاس(Geogorgas) المصريين المعروف عنهم دائمًا عدم التغيير حتى في خلال ألف عام، أنهم عاشوا حياة البذخ والترف، وبناءا عليه كان من المفترض أن نراهم اليوم بالكيفية التي كانوا عليها وقت القيصر زينون(Zeno). يعتقد الأوربيون أن مظاهر الترف وفساد الأخلاق ظاهرتان لا تنفكان عن بعضهما، وتوجد الأخيرة عند الشرقيين في كل مكان، أما الأولى فلا تجدها إلا في القصور الكبيرة، التي قلما يوجد فيها شيء آخر غير ذلك؛ أما تلك الرذائل التي يصفها واعظ الآداب لدينا بأنها سمة مميزة للبلاط والمدن الكبرى، فتتوافر هنا في أفقر أكواخ الفلاحين وفي خيام البدو غير المنسقة؛ لذا يحق لنا استنتاج أن هؤلاء البشر فاسدون أولاد فاسدين، وبالطبع فهم ليسوا مرفهين. سكان المدن فقط هم من يملكون أدنى مقومات الرفاهية، وحتى هؤلاء على استعداد تام أن يتخلوا في أسفارهم عن كل ما هو ليس ضروريًّا.

بالمناسبة فإن المشي سيرًا على الأقدام لم يكن ينهك المصريين الأقوياء؛ لأننا كنا نقطع الطريق الذي يبلغ طوله ثلاثة وعشرين ميلا في سبعة أيام، وبهذا كنا نقطع في اليوم الواحد للرحلة ما يربو على الثلاثة أميال في وقت قدره حوالي ست ساعات سيرًا على الأقدام أو على الجمال؛ لأن الجمال العملاقة تسير ببطء شديد. لا يوجد مطلقًا سوى جِمال قليلة جدًّا يمكنها السير بسرعة أو تلك التي تسمى وحيدة السنام (Dromedare)، ومن المعروف أنها ليست نوعًا من أنواع الجمال، وإنما هي طريقة خاصة في تربية الجمال، حيث ينتمي الصنفان لنوع رخيص من الجمال العربية وحيدة السنام، بينما الجمال ثنائية السنام، وهي الجمال الآسيوية (Bacterianus) فتسمى دائما الجمال الجبلية. لا يمكن للجمل وحيد السنام، الذي يسمى في الشرق الهجن وفي المغرب المهرية، أن ينضم لقافلة عادية مثل التي نحن فيها؛ وذلك لسرعته التي يتحرك بها. كان من الممتع حقًّا القيام برحلة على ظهر الجمل في تلك المنطقة، وهي الأولى في كل إفريقيا التي أتى الجمل إليها. ومن الطبيعي ألا يتبنى أحد اليوم وجهة نظر المستشرق المشهور "كواتريمير" (Quatrémere) الزاعم بأن الجمل منشأه أفريقيا. ففي بلاد المغرب لم يتواجد في الأزمان السحيقة أي ذكر للجمال، وهذا ما أثبته "بارت" (Barth) في إحدى ملاحظاته في كتاب "رحلات على البحر المتوسط"، وأتت الجمال هناك لأول مرة في عهد الملك يوبا (Joba)[١] وكانت بأعداد قليلة جدا، وجاءت إلى مصر لأول مرة عام ٢٥٦ [٢] بعد الميلاد من نجد، وهي قبيلة المنشأ لتلك الجمال في شبه الجزيرة العربية، عن طريق بطليموس الثاني فيلاديلفوس (Philadelphos)، الذي مهد طريق القافلة بين برنيس وقفط لنقل الجمال. يقع هذا الطريق قريبا جدا من المكان الذي سننطلق منه للسفر اليوم وقريبا من الطريق الواصل من قنا القديمة (Caenopolis) حتى القصير القديمة (Philoteras Portus)، وربما يتماس الطريقان عند نقاط معينة مع بعضهما. تشتهر تلك المنطقة، حيث يقطن البدو العبابدة، في كل شرق أفريقيا بسبب تربيتها للجمال ذات النوعية الممتازة، لدرجة أن الجمال كانت تصدر بأعداد كبيرة في العصور القديمة وحتى الآن.

١ Julius Caesar، de bellacano c. Afri 68. (المؤلف)

٢ Strabo, Geogr. Lib. XVII, 815. Plinius, Historia naturalis VI, 26. (المؤلف)

في صباح يوم الحادي والعشرين من شوال بدأنا رحلتنا الصحراوية من قنا إلى القصير. تضمنت قافلتنا خليطًا متعددا من الجمال والحمير والخيول والبغال بمختلف أشكال السروج والألجمة، كما شملت خليطًا ملونًا من البشر مختلفي الأزياء: فالفلاحون المصريون يرتدون الجلابية الطويلة الزرقاء بملامحهم المستكينة المتواضعة والمخيفة، كما لو أنهم لا زالوا يشعرون بعصا أسيادهم الأتراك فوق ظهورهم، ويسير بجانبهم أصحاب الجمال، وهم البدو الأحرار المتفاخرون المنتمون لقبيلة العبابدة، والمتزينون بلباسهم الحايك[1] الأبيض الجذاب، الذي لم أعهده جذابًا عندما كان يرتديه البدو الجزائريون، وكان عبارة عن سلهامين أي بُرنصين وغطاء للرأس مدبب مما يضيف مهابة خاصة لمرتديه؛ أما هذا الذي يرتديه البدو العبابدة فيظهرهم على العكس من ذلك أكثر بساطة وخفة وتحررا وراحة بال وحركة؛ على عكس المغاربة متثاقلي الحركة. كان البدو العبابدة هم أبناء الصحراء حقا، فليس لديهم تراب وطن يلتصقون به، ويعيشون على الصيد وتربية الأغنام فقط، وكل مكان على وجه الأرض هو موطنهم، يضربون خيامهم التي يحملونها معهم أنّى وجدت الصحراء والواحات. معنا أيضًا المصريون الحضريون بردائهم القديم الذي يشبه القفطان (Dalmatica)، والسوريون بغطاء رأسهم الملون والكوفية، واثنان ضخمان وثقيلًا الحركة من الأتراك، لهما شاربان كثان مقززان، ولهما بروز عند منتصف جسديهما محاط بوشاح، بداخله أنواع مختلفة من الخناجر والمسدسات، ملفوفة بمهارة من خلال دوبارة أو بالأحرى متشابكة، لدرجة أنهما قد يحتاجان إلى نصف ساعة إذا ما أرادا استخدام أي من تلك الأسلحة، وهو الأمر الذي لم يحدث، وربما من غير الوارد حدوثه، وتصوري أننا لسنا في حاجة لمعظم أنواع الأسلحة. بجانب هؤلاء كان هناك بضعة رجال كريتيين – وهو الاسم الذي يطلقه العرب على من ينتسب إلى جزيرة كريت(Creta) أو كانديا(Candia) – أقوياء البنيان، تبدو وجوههم كالطيور الجارحة، إلا أنهم مهندمون ويبدون بملابس حضرية كاملة، وإن كانت إلى حد ما هزلية. كما كان معنا أيضًا زنوج من النوبة، وكان البعض منهم مصطحبًا سيدات معه حتى القصير، وكان هؤلاء النوبيون

١ الحايك أو الحائك، لباس تقليدي انتشر قديمًا في كل من ليبيا وتونس والجزائر و المغرب. كانت تلبسه بعض النساء أثناء قيامهن بالانتقال وحيدات لمسافات طويلة خارج منطقة السكن العادية. (المترجمة)

عراة تمامًا، فقط يرتدون حزاما صغيرا مصنوعا من طبقة رقيقة جدًّا، وشعرهم ملطخ بطبقة سميكة من الدهن الزنخ، ينساب على ظهورهم من خلال آلاف القطيرات. علاوة على ذلك كان هناك نصيب للعربيات كعضوات في قافلتنا. منهن من كن زوجات أو بنات لبعض معارفي، واللائي لم أتبادل كلمة واحدة معهن طوال الطريق من قنا حتى القصير؛ ذلك لأنه من الشيم الطيبة عدم تحدث العربي إلى أقاربه من النساء أمام الرجال. كانت السيدات محتشمات تماما، أو بالأحرى متحجبات؛ لدرجة أن ما يمكنني رؤيته من وجوههن أقل مما نراه لدى الموريسكيات في الجزائر، اللاتي يتركن فقط خطا صغيرا من أول منطقة العينين حتى الصدغ، بينما ترتدي المصريات منديلًا واحدًا يغطي الوجه وبه فتحتان للعينين؛ لدرجة عدم التمكن من رؤية الحواجب.

بدأت رحلتنا في السير ببطء كما أسلفت. ولعدم إرهاق القارئ بهذا البطء، سأعرض الرحلة - كما فعلت سابقا - على شكل مذكرات يومية قصيرة.

الحادي والعشرون من شوال ١٢٧٦ (الثالث عشر من مايو ١٨٦٠). تحركنا في تمام الساعة الرابعة صباحا، وحتى الساعة الثامنة ونحن في الطريق إلى أن وصلنا إلى بئر عنبر، حيث تريثنا باقي اليوم، لدرجة أننا لم نقطع سوى ميلين في هذا اليوم. ومن المعروف أن كلمة البئر هي المرادفة العربية لـ (Quelle) والتي تعني بالرومانية (Fons) وباليونانية (Hydreuma). وتواجد هذا البئر حسبما نستنتج من الآثار القديمة في هذا الطريق منذ العصر القديم بنفس الهيئة التي هو عليها الآن. للأسف لم نعرف اسمه القديم، لأن المؤرخين بيلينيوس وأنطونيني قد ذكرا في شرحهما لتلك البقعة محطات الوقوف بين قفط(Coptos) وبرنيس(Berenice) وليس تلك الواقعة بين قفط وميناء جواسيس (Philoteras Portus)، كما أنه لم يصلنا من "بطليموس"(Ptolemāos) أي شيء عن تلك الصحراء سوى ما ورد عن بعض الأحجار الكريمة والحجارة السوداء، الواقعة عند منتصف المسافة بين قفط وميناء جواسيس، وكان وصفها مقاربا لنفس البقعة التي نحن فيها الآن. لم أر عند بئر عنبر هذا سوى بعض الأحجار المنقوشة القديمة، وظني أنها تعود لإحدى المنحوتات أو الآبار.

الثاني والعشرون من شوال (الرابع عشر من مايو). توقفنا في حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل بعد سير لمدة ثمان ساعات عبر واد مقفر ليس به سوى نخلة. وصلنا في تمام الساعة التاسعة صباحا عند منبع بئر العجايتة، حيث سكن البدو العبابدة قديمًا. يعتبر هؤلاء البدو العبابدة نسل الزباديين المذكورين عند بطليموس، بينما ينحدر من سكن منهم شمالًا من بدو المحاسي (Mahassi-Beduinen) من العباسيين، كما ذكر نفس المؤرخ. غالبًا ما احتفظ كل منهم باسمه حتى الآن. تلك هي أقدم القبائل العربية النازحة إلى إفريقيا. كان وقت نزوحهم بلا شك في نفس وقت ظهور الجمال في إفريقيا، كما نجد أن الطرق التي تم إنشاؤها في عام ٢٥٦ قبل الميلاد بين قفط والبرنيس لنقل الجمال، والتي كانت واقعة تحت حكم مدينة طيبة، قد حملت أسماء عربية أو أسماء حكام عرب. لهذا فمن المقبول أن تكون قبيلة البدو العبابدة من أوائل القبائل العربية التي نزحت إلى إفريقيا، وبالتالي هم من سكنوها على مدار واحد وعشرين قرنا من الزمان، منهم تسعمائة سنة قبل الهجرة كانوا فيها دليلا على حب العرب للهجرة وإدمانهم للترحال إلى البلاد الأجنبية، ذلك الذي أسسه "محمد" فيما بعد كقانون للدولة. أما ما إذا كان العرب يدينون بالمسيحية في ذلك الوقت، فهو سؤال أميل للإجابة عليه بنعم؛ وذلك لمصاهرتهم لإرم وقديسي طيبة، كما وصلنا من كتابات آباء وكهنة الكنيسة. وعلى كل حال فإن المسيحية لم تتجذر فيهم إلا عند النوميديين(Numidier) والمورانيين(Mauritanier)، كما هو الحال لدى المصريين، فلم يبق منهم على مسيحيته إلا القلة القليلة، وهؤلاء من انحدر منهم الأقباط الحاليون، بينما الفلاحون والحضريون من المصريين الحاليين فقد كان السواد الأعظم منهم من المسيحيين قديمًا؛ على الرغم من تسميتهم الآن عربًا، تمامًا كما هو الحال مع الجزائريين والمغاربة المنحدرين أساسا من النوميديين والمورانيين. أرى بوضوح في منطقة بئر العجايتة(Bir el Agaita) بعضًا من الآثار الرومانية، كما أنه توجد ثلاث طرق رومانية تربط بين طيبة وقفط وقنا وتؤدي إلى ميناء جواسيس.

الثالث والعشرون من شوال. ظلت القافلة تسير من منتصف الليل حتى التاسعة صباحا، حيث قطعنا أربعة أميال ونصف، وهي المسافة الفاصلة بين بئر العجايتة وبئر

الحمامات. هذا الأخير يبدو عليه بوضوح طابعه الروماني، ومن المحتمل أنه قد كان يوجد فيه حمّام روماني. على أي حال فإن هذا المكان له أهمية نظرا لوجود بعض الأحجار الكريمة بالقرب منه شكلها القدماء ومنها الحجارة الخضراء (الزبرجد)، التي يتزين بها الكثير من توابيت الفراعنة والقنينات والكثير من أدوات الزينة، التي نراها كثيرا في المتاحف في مصر وأوروبا. قمت باستغلال النهار أثناء نوم رفاق الرحلة في زيارة منطقة الأحجار الكريمة المتواجدة عند وادٍ صغير يدعى "وادي الفخار"(Wad Fochar). رأيت هناك نقوشًا قديمة عديدة بعضها بالهيروغليفية يعود إلى العصور الفرعونية والبطلسية، وبعضها نقوش متأخرة بعض الشيء تعود للعصر اليوناني، ومعظمها مهداة للآلهة اليونانية والإله "بان"(Pan) إله المراعي والطرق المفتوحة. أما عن اسم تلك الأحجار في العصور القديمة فلا نعرف عنه شيئا.

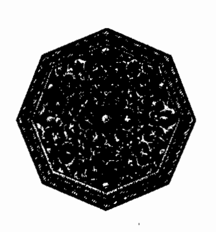
الرابع والعشرون من شوال. لم نتقدم في هذا اليوم سوى ثلاثة أميال حتى وصلنا إلى مكان هادئ ليس به ماء على الإطلاق. لقد كانت المسافة لأقرب نبع ماء بعيدة جدًّا، تجعلنا نتأخر في رحلتنا يومًا كاملًا. هنا ظهرت أهمية قارورات المياه التي اصطحبتها معي، فارتويت وأعطيت الفائض لأصدقائي. ويمكن القول بأنني اكتسبت بهذه الصدقة أصدقاء (تعتبر المياه هنا صدقة حقيقية)، حيث يحرص هؤلاء الجبريون على بذل كل الصدقات كوسيلة مباشرة للتقرب لله، كما يبدو لهم المتصدق آلة صماء لا تستحق الشكر.

الخامس والعشرون من شوال. توقفنا بعد سير ست ساعات في تمام الساعة السادسة صباحا عند بئر "حاج سليمان"(Hadsch Sliman)، حيث يتهافت عليه معظم الحجيج بعد عناء وعطش طويل طلبا للماء. كما يوجد هنا العديد من الآثار الرومانية الموجودة بوضوح في البنايات ذات الطابع الفني الروماني، الذي أورده "مارتيال"(Martial) (EP. VI، 43) في وصفه.

السادس والعشرون من شوال. توقفنا بعد سير ست ساعات متواصلة عند البيداء(El Bida)، وتعني المكان الأبيض، وسمى بهذا الاسم نظرا للحجارة البيضاء التي تحيط بالوادي. أما المفاجأة فهي أن نبع الماء الموجود في هذا المكان يسمى "Bir el Inklis"

وتعني بئر الإنجليز. وبالفعل فقد قام الجيش الإنجليزي الشرق هندي بحفره في طريقه إلى الهند. قام كثير من رفقاء السفر المسلمين المتدينين بسؤال الشيخ مصطفي عما إذا كان الشرب من هذا البئر حرام؛ حيث أنه قد تم حفره من حكومة مشركة. أجابهم الشيخ مصطفي بالآتي: "تُرى لو أن حمارًا رفس حجرًا بحافره، وتجلت معجزة الله ونبع الماء من ذلك الحجر، فهل لن تشربوا منه؛ لأن حمارًا كان سببًا في تلك المعجزة؟ والأمر كذلك بالنسبة للإنجليز هؤلاء الكلاب المشركون ليس لهم علم ولا إرادة بذلك البئر، فهم مجرد أداة صماء سخرها الله بإرادته كي تطفئ ظمأ الحجيج في رحلة حجهم." وبالمناسبة فإن ماء هذا البئر هو أسوأ ماء مررنا عليه في طريقنا للحج.

السابع والعشرون من شوال. وصلنا على مسافة ميل من بئر الإنجليز عند بئر آخر ذي مياه آسنة يسمى بئر العمبجي(Bir al Ambadschi)، ولم نتوقف عنده؛ ولكن واصلنا المسير في طريقنا لمسافة ميل ونصف في اتجاه القصير. في الصباح سيتبقى لنا حوالي خمسة أميال ونصف كي يتغير للمرة الأولى منظر ذلك الأفق الصحراوي. فبدلًا من الرمال الممتدة بلا نهاية والحجارة العارية سرّنا ولأول مرة من على بُعد منظر رقعة مضيئة تحت أشعة الشمس محاطة بنقاط بيضاء صغيرة مبهرة لا حصر لها. هذا هو البحر الأحمر الذي يستقبله كل الحجاج بالفرحة والترحاب؛ لأنه يفضي بنا مباشرة إلى بوابة الحج، التي نمر من خلالها إلى بيت الله في مكة ثم إلى جبل عرفات. ونحن مفعمون بهذا الأمل حطت قافلتنا رحالها بعد قرابة الساعتين في القصير في تمام الساعة السابعة والنصف صباحًا، وبدا لنا أننا قد تغلبنا على عقبات رحلتنا للحج.





الفصل الرابع
عبور البحر الأحمر من القصير إلى ينبُع

القُصير والقُصير القديمة - ميناء فيلوتير[1] - السفن في البحر الأحمر - مواعدة قائد السفينة - الكنجة - طاقم السفينة - الطريقة البدائية للملاحة -السِّمارة - الخُطب والأحاديث الدينية - خطأ قائد السفينة - شواطئ الجزيرة العربية - تهليل الحجاج - سمكة عجيبة - جزيرة النعمان - مرسى علم - تسمية البحر الأحمر عند القدامى - وادي الوجه- قديس السمك - الخطر في متاهة المنحدرات - جزر الأرخبيل - (Haura und Auara) - التصاقنا بالشعاب المرجانية - جزيرة الحساني - (Sherm Mahar) - سلسلة الجبال ذات السبع قمم - الوصول إلى ينبُع - المسافرون إلى المدينة.

ذكر موللر (Müller) في ملاحظاته على النسخة المنشورة عن جغرافية الإغريق أن الرومان والإغريق يعتبرون القُصير "الميناء الأبيض" (Albus portus)؛ لكن يبدو لي أنهم غير محقين في هذا الرأي؛ لأنها تقع على بعد ٤٠ دقيقة قوسية من ميناء فيلوتيرا جنوبًا، الذي مما لا شك فيه أنَّه عبارة عن القُصير القديمة، كما اكتشف ذلك السير

١ بالإضافة إلى الطرق البرية التي تربط مصر والجزيرة العربية كانت هناك عدة طرق بحرية تنقل التجارة القادمة من الجزيرة العربية إلى مصر عبر موانئ البحر الأحمر، ومن أشهر موانئ مصر التي أسهمت في التبادل التجاري مع الجزيرة العربية: ميناء أرسينوي (السويس)، وميناء ميوس هرموس (ميناء أبو شعر القبلي يقع إلى الشمال من الغردقة)، وميناء فيلوتيرا (يقع إلى الجنوب من سفاجا)، وميناء برنيكي (ميناء رأس بانياس الذي يقع جنوب القصير). (المترجمة)

جاردينر[1] (Sir Gardener Wilkinson). ولأن القُصير القديمة تقع على بُعد أربع دقائق قوسية شمالًا من القُصير، فليس من المقبول أن يخطئ بطليموس في تقديره بمقدار ست وثلاثين دقيقة أو تسعة أميال ونصف بالحساب الألماني؛ لذا نستنتج من ذلك ألاَّ يكون للقُصير اسمٌ قديمٌ. فمن الأرجح أن تكون اكتشافًا من العصور الوسطى وأُسست بعد دمار القُصير القديمة التي كان يسكنها العرب في العصور الوسطى، ثم أصبحت مهجورة تمامًا منذ عدة قرون. وفي كتابات كثير من الجغرافيين في العصور القديمة، ذُكر ميناء فيلوتيرا (القُصير القديمة)، الذي استُبدل اسمه القديم أينوم (Aennum) باسم الأدميرال فيلوتيروس، الذي كان في خدمة الملك بطليموس فيلاديفيوس(Ptolemäus Philladephus) في القرن الثاني قبل الميلاد. كان يقع ميناء القُصير في أحد شوارع الرومان ويمتد بطول الساحل، ويحده من الشمال ميناء ميوس هرموس (Myos Hormos)، ومن الجنوب البوس بورتوس (Albus Portus)، ويجاور أحد محاجر الزبرجد ورأس الأنف (Lepte extrema) وأخيرًا برنيس (Berenice).

كان كلٌّ من ميناء ومدينة فيلوتيرا صغيرين وبقايا من العصور القديمة والوسطى، التي لا يُعَول عليها أهمية كبيرة. ولكن لم تتح لي خطة ترحالي الابتعاد عن القُصير. هذه المدينة الجديدة، التي ترتفع على خليج صغير يعتبر مرسى آمن، شُيدت إلى حد كبير من الأحجار المرجانية المتوافرة هنا، وبها حصن غير مجهز جيدًا؛ فيه بعض المدافع عديمة الفائدة، ويسكنه العرب وأهل ينبُع الذين يأتون من ينبُع؛ تلك البُليدة التي تقع على الساحل العربي في مقابل القُصير.

استقرت قافلتنا في أحد الخانات[2] السيئة. لذا فضلت أن أظل داخل خيمتي التي استضفت فيها أيضًا الشيخ مصطفى، ذلك الرجل الكهل الطيب الذي كان يرافقني دائمًا. كان الأمر مقبولًا لي في مجمله؛ على الرغم من أني كنت بدأت أمل من خطبه المستمرة المستهلكة والمكررة عن موضوع الحج وما شابهه.

---

١ السير جاردينر ويلكينسون: Handbook for Traverllers in Egypt. و The Manners ans Customs of Ancient Egyptians. (London bei Murray). (المؤلف)

٢ الخان هي كلمة أعجمية تدل على الفندق في عصرنا الحديث، وهي موضع مبيت وراحة المسافرين. (المترجمة)

لم يكن لدينا شيء في القصير نقوم به غير الراحة؛ لأن المكان كان مملًا للغاية، ولم نفكر في شيء سوى الاستعداد للرحلة. اتجهنا بعد ذلك للسفينة التي ستحملنا إلى شاطئ شبه الجزيرة العربية المقابل. ذهبنا أنا والشيخ مصطفى وأبناء أخيه الثلاثة وعلى الزنجيّ معا للميناء أو بالأحرى للمرسى الذي وهبته الطبيعة للقُصير. كانت توجد في نفس الميناء اثنتا عشرة سفينة شراعية، تحمل أكبرهن وأهمهن حمولة تُقدر بحوالي مائة طن. كان طاقم هذه السفن كلها في هذه اللحظة تقريبًا على الأرض، بجوار الميناء، يجلسون في خيام صغيرة تشبه أكشاك القهوة؛ لذا لم تكن هناك صعوبة في العثور على نوخذة[1] ومقدم[2] الباخرة وطاقمها.

كان لكلِّ سفينة نوخذان، أحدهما للبر وهو مستأجر السفينة لنقل المسافرين والبضائع وأحيانًا يكون مالكها، أمّا نوخذة البحر فهو المسئول الفعلي عن قيادة الباخرة ويعطي الأوامر للملاحين، وهو في نفس الوقت القبطان ومَن يجمع المال من المسافرين، بينما لم يكن لدى المقدم شيءٌ هامٌّ يقوم به. كان علينا الاتفاق مع أيٍّ من النوخذة على السفر على متن الباخرة؛ لكن نصحنا البعض أن نتم ذلك مع نوخذة البحر؛ حتى نتأكد من أن العدد الذي يخصه قد اكتمل، بينما في بعض الحالات كان نوخذة البر يغبنه في العدد الذي يخصه. كان في مصلحتنا أن يكون نوخذة البحر راضيًا؛ لأنه هو الذي سيرافقنا في الرحلة وسيتفاوض معنا بخصوص المال وحسن مراعاة ما سيُدفع له. أمَّا نوخذة البر، فكما يوحي اسمه كان يظل دائمًا على البر. لم يكن له وللبحارة أجرٌ ثابتٌ مثل أي تاجر أوربي، بل كان يتقاسم معهم ما يحصل عليه من أرباح، وبالطبع كان يحتفظ لنفسه بنصيب الأسد.

١ النوخذة هو ربان السفينة صاحب الأمر والنهي على ظهرها وهو الحاكم والقاضي إذا تطلب الأمر الفصل بين متخاصمين، وقد يكون النوخذة هو صاحب السفينة التي يقودها في "الأغلب الأعم" أو يكون مستأجرًا لها أو يعمل لحساب الغير. (المترجمة)

٢ المقدم هو رئيس البحارة ونائب النوخذة والمسئول عن السفينة في حالة غيابه وهو أقرب البحارة للنوخذة وهو المسئول عن العمل في السفينة وهو المسئول عن تزويد السفينة بالزاد والماء والأدوات المستخدمة في الغوص وله حصة غيص (أي ثلاثة أسهم من الحاصلة)، والمقدم في رأي النوخذة والغواصين هو الطباخ الذي يقوم بعمل القهوة وشي السمك وكل الأمور المتعلقة بالمعيشة على ظهر السفينة. (المترجمة)

بعد عدة مشاورات استطاع الشيخ مصطفى العثور على الحاج أبي عبد الله الذي كان نوخذة بحريًّا لإحدى السفن اسمها "أم السلام" وهي سفينة متينة. كان رجلًا كبير السن، له ملامح الزنوج، وكرش كبير، وعينان غائرتان وملامح وجه سخيفة ساذجة، بالإضافة إلى أنه كان مُصابًا بالجرب، مما جعلني لا أقترب منه طيلة الرحلة. اتفقنا معه بكل سهولة على تكاليف الرحلة إلى ينبُع وبعدها الانتقال من هناك إلى جدة. بلغ مقدار ما دفعته ألف قرش (حوالي ستون تالر) لي ونصفهم لعلي الزنجيِّ، وكان من المنصوص عليه في الاتفاق أن أفرد سريري في قُمرة الباخرة. يُعّد هذا المبلغ بالنسبة للأوربيين رخيصًا جدًّا؛ لكن بالنسبة للمسلمين مبلغ محترم للغاية.

بعد أن قضينا يومين في القُصير لشراء السلع والمواد الغذائية اللازمين للرحلة، التي قد تستغرق خمسة أيام، أبحرنا بالباخرة أم السلام في اليوم الأخير من شهر شوَّال (الحادي والعشرون من مايو). كان يُطلق على هذه الباخرة اسم الكنجة (Kandscha) وهي من أكثر البواخر همجية. كانت تبلغ حمولتها من ثمانين إلى مئة طن وبها عمودان فقط مصنوعان من جذوع الشجر، أحدهما أصغر بكثير من الثاني وكان مثبت عليهما شراعين من الأشرعة اللاتينية مُثَلثة الشكل، اللذان يبدوان متقاطعين عندما يُنشرا. عندما تبحر السفينة في اتجاه الرياح يجب لف الشراع والعمود بسرعة، وهذا أمر شبه مستحيل في حالة ما إذا وجد إعصار أو عاصفة، وهنا يكمن خطر مثل هذه السفن. كانت هذه السفينة مكشوف سطحها فيما عدا الجزء الخلفي، فقد كان مغطى بسقف صغير مرفوع يوجد تحته ما يُسمى بالقُمرة، وهي عبارة عن مكان منخفض ضيق لا يمكن للمرء الوقوف فيه في الجزء الخلفي من الباخرة.

كانت هذه الباخرة أيضًا وسيلة للسفر منذ العصور القديمة، يخطر ببال من يقع نظره عليها أن شكلها مثل سفن العصور القديمة، ولم يعترها أي تغيير منذ ألفي عام فبقيت على حالها في هذه البلاد، التي لم تلحق بركب تطورات الحضارة وظلت حبيسة العصور القديمة. لكن إلى أيّ نوع من السفن القديمة تنتمي هذه؟ مما لا شك فيه أنها تتطابق مع نوع سفن نقل البضائع (navis oneraria) التي يسافر عليها التجار؛ لكن تحت أي نوعٍ

يمكن إدراجها إذن؟ يجب أن أعترف أني لم أجد أيَّ نوع منذ العصور القديمة يضاهي هذه السفينة. يبدو لي أن هذه الباخرة تمزج خصائص نوعين مختلفين من أشكال السفن؛ فتشترك مع سفن النقل [1] (navis actuaria) أنها أحيانًا تُدار بالمجاديف، ومع سفن الشحن (navis apetra) و (semi apetra) في سطحها المكشوف أو نصف المغطى. مما لا شك فيه أن هذه السفن صُنعت في العصور القديمة مثل هذه التي نستقلها، والتي لم أهتد بعد لنوعها.

على الرغم من أن العرب هم مخترعوا البوصلة، إلا أنها تُستخدم لصالح الأوربيين فقط في الوقت الحالي، مثل سائر الأجهزة القديمة التي بلا قيمة عندهم. كان يوجد على سطح باخرة "أم السلام" بوصلة سيئة جدًا وشاقول، لا يمكن أن تشتريها حتى من سوق الخردة في أوربا. لقد بلغت حمولة هذه السفينة حوالي سبعين طنًا. كانت مُحملة بالبضائع والمسافرين لدرجة تجعلها تغوص عميقًا في الماء. ولتقليل دخول أمواج المياه إليها من أسفل حشوا جوانبها بحصير من القش؛ لكن لم يساعد ذلك كثيرًا. وعدنا نوخذة البحر أن يأخذ معه على متن السفينة خمسين مسافرًا فقط، وبدلًا من ذلك وجدنا تسعين مسافرًا كلٌّ واحد منهم يحسب نفسه من الخمسين الأساسيين والآخرين من المتسللين للباخرة، كما وعد أيضًا كل مسافر بذلك، فعمت حالة من السب والضجر لدى الحجاج ضده وفيما بينهم أيضًا. وأخيرًا ساد الهدوء سطح الباخرة نوعًا ما، وجاءت النساء إلى الجزء المكشوف على سطح الباخرة كلما أمكن، وشدوا أحد الأوشحة في مكانهم كالخيمة، حتى لا يراهن الحجاج الورعون ويُفتنوا بهنّ. اختار معظم المسافرين مكانهم على سطح السفينة المفتوح؛ حيث كان يجب عليهم أن يظلوا جالسين حتى الوصول؛ لأن السفينة كانت ضيقة جدًا ولا يُسمح بالحركة فيها. على الرغم من أني حجزت مكانًا في قُمرة السفينة للنوم؛ إلا أني وجدتها تكتظ بالناس والدواب؛ لذا اكتفيت بترك أمتعتي هناك فقط، وبحثت عن مكانٍ لي على السطح الضيق بجانب أصدقائي المصريين.

١ أنواع من سفن الشحن والنقل في الأسطول البحري الروماني. (المترجمة)

كان من المعتاد أن تبدأ الرحلة من القُصير إلى السواحل في اتجاه غير الشمالي الشرقي، مثلما فعل قبطان باخرتنا؛ وإنما إمَّا الاتجاه الشرقي أو الجنوبي الشرقي. ولأنه كان يجب على القبطان أن يسلم شحنة من البضائع في مرسى علم التي تقع شمال القُصير، كان لزامًا علينا أن نسلك هذا الطريق الملتوي نحو الشمال، مما أتاح لي فرصة مشاهدة عدد هائل من السواحل العربية أكثر مما كان مخططًا أن أراه. كان رد فعل باقي المسافرين على هذا الطريق الطويل هو اللامبالاة؛ لأنه لم تُطلب منهم مبالغ مالية زيادة، والوقت ليست له أيّة قيمة عند هؤلاء المسلمين المؤمنين، فهم لا يدركون معني المثل الشعبي الإنجليزي "الوقت مال".

لحُسن الحظ كانت الرياح والأمواج عادية فبدأ الإبحار في أمان، وعلى أيَّة حال كانت رحلات السفن في بلاد العرب لا تزال على هذا الوضع البدائي وهو قلّما أقدمت السفن على الابتعاد عن السواحل، وتظل دائمًا بطول السواحل كي تحتمي سريعًا في أحد المراسي في حالة هبوب عاصفة خطرة؛ حتى لا تضطر إلى قضاء ليلة في أعالي البحار، مما يشكل خطرًا شديدًا بسبب غياب أو عدم استخدام الأجهزة الملاحية على متن الباخرة. كان سبب هذه الرهبة من الرحلات الليلية، التي كانت موجودة كاليوم في العصور القديمة، هو الإيمان بالاعتقاد السائد أن البحر الأحمر لا يمكن الإبحار فيه ليلًا، والذي ادَّعاه بروكوبيوس (Procopius) بكل جدية. أمَّا نحن فكان يجب علينا أن نكسر حاجز الخوف هذا ونظل مكاننا لمدة وصلت إلى ثلاث ليالي في نفس المكان كي لا نبحر في أعالي البحار. والآن تعتبر الرحلة الليلية في البحر الأحمر عند العرب إقدامًا على خطر لا نهاية له. ارتعدت أوصال كثير من المسافرين معي بسبب الخوف من الإبحار في الليل؛ ولأننا غادرنا القُصير في الساعة الرابعة صباحًا، والرياح الغربية كانت في مجملها مواتية للرحلة، وجدنا أنفسنا في المساء في أعالي البحار، وغابت السواحل عن أنظارنا تمامًا. بعد صلاة المغرب سادت حالة عامة غريبة بين الحجاج والملاحين. كان كل واحد منهم يتأهب لقضاء الليلة بين العبادة والاحتفال. كانت تُسمى هذه الليلة السَّمَارَة (Semara) وكان الاستعداد لها يتم عن طريق احتساء القهوة وتدخين التبغ وأحاديث السَّمر في الليل. لم

يفكر أحدهم أبدًا في النوم، فالسِّمارة من أفعال الأبطال، والحاج الذي يسافر إلى مكة عن طريق السويس لا يحصل على تقدير من باقي المسلمين مثل الذي يسافر عبر القُصير، لأن الأول لم يعايش هذه السِّمَارة. وجد الشيخ مصطفى من المناسب لطبيعته المتدينة أن يُثنينا عن احتساء القهوة في هذه الليلة، بينما احتفى أبناء أخيه بالضيف ببراعة. دخن المسافرون التبغ وتسامروا وصلُّوا وتوضأوا وحكوا حكايات، وأكلوا وشربوا القهوة عدة مرات، وأخيرًا كان ينام أحدهم قليلًا من الوقت؛ لأنه في ليلة السِّمارة لا يحصل أحد على قسط مريح من النوم، بل يظلون متوترين كما لو كانوا منتظرين حدوث نهاية العالم. في هذه الليلة لم يحدث شيءٌ آخرُ غريبٌ، غير أن القبطان قاد الباخرة في الاتجاه الخاطئ لوقت طويل بدلًا من المضي قُدمًا في طريق هدفنا، ووجدنا أنفسنا نقترب من جديد حيال السواحل المصرية كما كنا عشية أمس، فالقبطان الهُمام قد نام وفي يده عجلة قيادة السفينة ووجهها في الاتجاه الخطأ، ذلك الأمر الذي قد يحدث أيضًا وهو مستيقظ.

كانت نتيجة ذلك أن بقينا مدة يومين وثلاث ليالٍ في أعالي البحار، بينما كان من المحتمل أن نصل ساحل الجزيرة العربية في يومين. لو كنا أبحرنا في أيّ وقت غير هذا الوقت من السنة وصادفنا الرياح الغربية بدلًا من تلك الشمالية التي سادت البحر الأحمر والتي كانت أيضًا مواتية لرحلتنا في الاتجاه الشمالي الشرقي، لكان من الممكن أن نقضي وقتًا أطول في عبور هذه المسافة. لذا توَجَّب علينا قضاء ليلتين أخريين نحتفل فيهما بالسَّمارة، كنا نقضيهما بسرور في حالة صحو نحتسي القهوة ونأكل ونصلي ويحكي البعض الحكايات الدينية، بينما النهار كنا نقضيه بين يدي الرب. وأخيرًا في اليوم الرابع بعد الإبحار من القُصير رأينا السواحل العربية التي طال انتظارها. ابتهج وهلل كل الحجاج بمجرد رؤيتها، دون إمعان النظر في النجاة من المخاطر التي كان يمكن أن تلحق بنا بسبب هذه الباخرة السيئة وجهل طاقم السفينة. لم تُسَر نفوس وصدور هؤلاء المتعصبين فقط بسبب النجاة من مخاطر الرحلة في البحر؛ ولكن بسبب هذا الساحل المقدس لشبه الجزيرة العربية المباركة. كانت هذه المشاعر في نفوسهم ذات طبيعة دينية صوفية؛ لذلك عبروا عن فرحتهم عن طريق الصلوات وقبل كل شيء الأدعية المملة.

كذلك الشيخ مصطفى شعر أنه من الواجب عليه أن يلقى على أسماعي خطبة دينية بسبب هذه المناسبة ألخص فحواها تقريبًا فيما يأتي:

"يا مغربي، أنت ترى أمامك الأرض، التي نبعت منها جميع النعم؛ وحيث كانت دعوة النبي عليه السلام، هنا التقى كل من سيدنا آدم وستنا حواء على جبل عرفة مرة أخرى، بعد أن طردهما إبليس الملعون من الجنة، وحيث بنى سيدنا إبراهيم وولده إسماعيل بيت الله. أنت ترى أمام ناظريك هذه الأرض المباركة. أشكر الله واحمده، صل له وأعط الصدقات وصُم يا مغربي!"

على الرغم من أني لم أكن أميل للصيام؛ إلا أنه كان من الواجب عليَّ أن أنصت لهذه الخطبة بورع. ولحسن حظي لم يكمل الشيخ مصطفى خطبته بسبب حادثة كانت بالنسبة لي غريبة جدًّا واستحوذت على كل انتباهي. سكنت الريح منذ حوالي نصف ساعة ولم نتقدم من مكاننا، فحاول أحد البحارة صيد السمك ونجح في ذلك بجدارة، فاصطاد سبعة أشكال من الأسماك أحادية القرن (Chaetodon unicornis) التي يكثر وجودها في هذه المنطقة ويسميها العرب السمك أبو قرون. كان شكل هذه السمكة غريبًا جدًّا؛ فزعانفها على شكل عرف الفرس، وذيلها عريض منقسم إلى جزءين، ويقع القرن مستقيًا بين العينين مدبب الرأس معقوفًا لأسفل، فيبدو كما لو كان كالخطاف أكثر من كونه قرنا. كان طعمها سيئًا ولحمها صلبًا؛ وعلى الرغم من ذلك أكله العرب وإن لم يكن ذلك غالبًا عندهم. حكى لي البحار الذي اصطاد هذه السمكة في شباكه قصة خرافية لا يمكن تصديقها عن هذا النوع من الأسماك، والتي أكررها هنا فقط لأن العديد من علماء الطبيعة قد صدقها، أو على الأقل لأنها أسطورة انتشرت قديمًا على نطاق واسع. كانت هذه الأسماك قادرة على قتل أحد الطيور الجارحة كصقر البحر، بأن تغرز قرونها في براثن الطائر؛ ولأن مئات الأسماك تقريبا تقوم بنفس العملية في نفس الوقت، ثم يسبحون في اتجاهات مختلفة يتمزق الطائر لذلك إربًا صغيرة وربما إلى أربعة أجزاء. تبدو هذه القصة مضحكة جدًّا؛ لكن كل العرب صدقوها؛ لكن أحد العلماء الدنمركيين الذي جاء إلى

الجزيرة العربية مع نيبور[1] لم يصدق هذه القصة واستخف بها. يحب هذا النوع من الأسماك العيش دائما في تجمعات تتراوح ما بين المائتين والأربعمائة تقريبًا.

في الرابع والعشرين من مايو عام ١٨٦٠م وصلنا بالقرب من جزيرة النعمان، وهي عبارة عن ساحل صخري طويل يتكون من طبقات كثيفة من الشعاب المرجانية تمتد بعرض الساحل، مغطاة إلى حدٍ كبير بغابات خضراء منخفضة لها منظر جميل وتبدو مسكونة. كانت توجد على هذه الجزيرة قبة أحد الصالحين المشهورين، أقام عندها البحارون الذين كانوا متعصبين ويقدِّسون الأولياء احتفالًا صغيرًا يتمثل في جلوسهم على شكل دائرة صغيرة؛ حيث يغنون أغاني دينية بصوتٍ يخرج من أنوفهم، ويتناولون القهوة فيما بينهم ويشربونها على شرف هذا الولي. لقد كانوا يقومون بنفس الطقوس كلما مررنا بضريح أحد الأولياء فكان يحتفي فيها بالولي طاقم باخرتنا الذين يؤمنون بالخرافات.

أعتقد أن مانيرت (Mannert) كان محقًّا عندما اعتبر هذه الجزيرة (Ancu des Ptol-emäos) التي كانوا يبحثون عنها قبالة السواحل العربية وعن أماكن وجود (Hip-vicus) pos) التي لا تقع بعيدًا عن (Hippos mons) وفي عصر الإدريسي (Edrissis Zeit) أُطلق عليها (Ancu) اسمها الحالي وكان يسكنها اليهود كما حكى لنا هذا الشريف.

بعد رحلة أخرى لمدة ثلاث ساعات وصلنا لأحد الموانئ العربية لأول مرة، وهو مرسى السلام الذي سمّاه نيبور (Salma Ukesaf) والذي من المحتمل أن يكون هو ميناء بطليموس (Hippos vicus)، بينما جبل (Hippos) هو طبقًا لمانيرت جبل[2]

١ كارستن نيبور (بالألمانية: Carsten Niebuhr) مستكشف وعالم رياضيات وعالم خرائط ألماني عمل في خدمة الدولة الدانماركية، عاش في الفترة ما بين ١٧ مارس ١٧٣٣ و ٢٦ إبريل ١٨١٥. اقترح أحد أساتذته أن يشارك نيبور في رحلة علمية أمر بها الملك فردريك الخامس ملك الدانمارك سنة ١٧٦٠ م، وكان هدف الرحلة كتابة تقرير علمي واجتماعي شامل عن الجزيرة العربية وسوريا ومصر. وافق نيبور على الاقتراح وانخرط في دورة لمدة عام ونصف تقريبا درس فيها علم الرياضيات والمساحة والخرائط وبعض الدروس في اللغة العربية بشكل مكثف ليتأهل لموقعه في البعثة كمساح وراسم للخرائط. ومع مطلع العام التالي (١٧٦١ م) أبحرت الحملة لتصل إلى الإسكندرية ثم القاهرة ثم جبل سيناء. وفي عام ١٧٦٢ م غادر نيبور إلى السويس ووصل منها إلى جدة، ومن جدة إلى مكة ثم مضى إلى اليمن. لقد كتب نيبور عن كل المناطق التي زارها، ورسم خرائط لها، وتحدث عن السكان والقبائل والمذاهب والأديان، وقد طالت فترة بقائه في اليمن فزار صنعاء وبيت الفقيه وابو عريش وغيرها. (المترجمة)

٢ مانيرت: جغرافية الإغريق والرومان VI. (المؤلف)

(Uwerend esch Schich) لأن هذا الجبل بعيد جدًّا في اتجاه الجنوب. كان لمرسى علم أهمية كبيرة فيما مضى؛ لأنها كانت المحطة التي تقع في منتصف طريق الحجاج بين القاهرة ومكة، كما كانت استراحة تُدار فيها عدة أنشطة. أمَّا الآن فقد فقد هذا الطريق من القاهرة إلى مكة أهميته، وتهدَّمت بالكامل القلعة التي كانت في قلب مرسى السلام، ولم يصبح هذا المكان الصغير سوى قرية فقيرة يسكنها البدو، الذين يعيشون هنا في الخيام التي تتكون فقط من أربعة أعمدة مثبتة في الأرض ويُشد عليها أحد الأغطية؛ ولذا فهي لها سقف فقط وليس لها جدران. هنا كانت الحدود الفاصلة بين كلٍّ من بدو بلي[1] (BILI) والحويطات[2] (Huwäte) الذين كانوا يسكنون مرسى السلام. هؤلاء السكان الأوائل للبلاد العربية الذين رأيتهم هنا، كانوا أُناسًا نصف عراة وثيابهم ممزقة، ولهم منظر بائس جدًا، ولا يتطابق هذا الوصف بالتالي مع وصف الرحالة الإغريق القدامى لبلاد العرب، مثلما ذكر ديونيسوس (Dionysius) وكما قال بذلك أفينيوس (Rufus Festus Avienus).

فقد أطلق معظم الشعراء القدامى العنان لمخيّلتهم بشأن ثراء العرب، فتغنى تيبولوس (Tibullus) بذلك أيضا.

من بين أسباب الثروة كما قالوا القواقع التي جعلت الساكنين بجوار البحر الأحمر من الأثرياء، ربما يكون المقصود بها اللآلئ، التي لا تزال موجودة حتى الآن في السواحل الأفريقية. كما تعرضت مجموعة أخرى من الشعراء للأحجار الكريمة، التي كانت تُوجد في قاع البحر الأحمر، مثل: (Palinodia in Leone). ربما المقصود من هذه الأحجار الزمرد، الذي يوجد في جزيرة النعمان واكتسبت اسمها منه، بسبب مناجم الزمرد التي كانت موجودة على السواحل المصرية. والبعض كان يعتقد أن البحر الأحمر سُميَ هكذا بسبب لون الشعاب المرجانية الموجودة به. فقد ذكر أجاتارشيدس (Agath-

١ قبيلة بلي هي قبيلة قضاعية عربية من قبائل شمال وغرب شبه الجزيرة العربية وتسكن اليوم عددا من الدول منها السعودية ومصر والأردن وسوريا وفلسطين وغيرها من الدول العربية وصولًا إلى أسبانيا (الأندلس). (المترجمة)

٢ قبيلة الحويطات وواحدهم حويطي، الحويطات هم من الجمامزة من الأشراف الحسينيين الذين هاجروا إلى البادية من المدينة المنورة، وهي من أكبر القبائل في الحجاز في شمال غرب المملكة العربية السعودية والأردن وسيناء في مصر وفلسطين. (المترجمة)

archides) أربعة أسباب بشأن تسمية البحر الأحمر، التي ربما يتدبر القارئ الذكي في شأن صحتها، عندما أذكرها هنا له وهي كالتالي:

١- لأنه محاط بالتربة الحمراء والرمل الأحمر (وهذا ليس الوضع الحقيقي).

٢- لأن أشعة الشمس هناك لونها أحمر قاني.

٣- لأن بيرسويس (Perseus) كان عنده ابن اسمه إيروتارس (Erythars) (البحر الأحمر اسمه هكذا) عاش هنا وسُمي البحر على اسمه.

٤- كان يوجد شخص آخر اسمه (Erythars) فارسي الأصل وأسس مملكة هنا وسُمي البحر على اسمه.

أجاتارشيدس أبطل الأسباب الثلاثة الأولى، وادَّعى أيضًا أن البحر اسمه (mare Erythrum) وليس (mare Erthrae) وبالتالي فإنه ليس البحر الأحمر.

بعد أن قضينا ليلة في هذا الميناء الآمن نسبيًا مرسى السلام، استكملنا في صباح الرابع من ذي القعدة عام ١٢٧٦ (٢٥ مايو ١٨٦٠) رحلتنا بطول السواحل العربية. كان الساحل بطوله يعجُّ بالشعاب المرجانية التي كانت تمثل خطرًا كبيرًا على السفن في حالة هبوب عاصفة، أمَّا في حالة سكون البحر فهي تعلق دائمًا بالسفن كما حدث لنا. لم يجرؤ أحد من العرب على الإبحار في اتجاه داخل البحر؛ بل كانوا يظلون على طول الساحل، وبسبب جهلهم بعلم الملاحة كانت أسوأ عاقبة يمكن أن تحدث لهم إذا أبحروا نحو أعالي البحار، على الأقل قيادة في الطريق الخاطئ. لم يكن من السهل أن يضل القباطنة العرب الطريق بطول السواحل؛ لأنهم كانوا يعرفون كل منطقة على حدة أحيانًا بواسطة معالم طبيعية أو علامات صنعوها هم بأنفسهم، حيث كانوا يكسرون الأحجار المرجانية ويكوموها فوق بعضها وبذلك تصبح مراسي للسفن. كانت كل الجزر التي استخدموها كعلاماتٍ في رحلاتهم عبارة عن منحدرات مرجانية، وكل الصخور الشاطئية التي تبرز من البحر دائمًا هي أيضًا صخور مرجانية، تحيط مداخل الموانئ مكونة برزخًا ضيقًا جدًّا تمر من خلاله السفن في هذا الخليج بأمان. ولأنه في الصيف لا تهب دائمًا سوى الرياح الشمالية التي نادرًا ما تكون مصحوبة بعاصفة مثل تلك الرياح الجنوبية الموسمية الآتية من المحيط الهندي، لم نصادف في رحلتنا نحو الجنوب رياحا مناسبة فحسب؛

بل رياحًا مقبولة لا تسبب أيًّا من أمراض البحر، وإذا ما حدثت ذات مرة حادثة صغيرة، لم يكن ذلك بسبب عناصر غير مواتية للإبحار؛ بل فقط بسبب غباء القبطان والقائد الرئيس للباخرة التي كنا على متنها. هذان النوعان من الرياح اللذان يسودان البحر الأحمر والخليج الفارسي (العربي) على مدار العام كان يلاحظهما المؤرخون القدامى وكتبوا عنهما، على سبيل المثال ما كتبه دينيسيوس (Dinysius) في عام ٩٢٩ في (Periegesis):

"يحيط البلاد العربية بحران مزدوجان، الفارسي والعربي: يهب من كل بحر نوع مختلف من الرياح، من البحر العربي الرياح الغربية ومن الفارسي تهب الرياح الجنوبية."

كان الساحل يمتد بين مرسى السلام واسطبل عنتر، هذان الميناءان اللذان يبعد كل منهما عن الآخر حوالي عشرة أميال بالحساب الألماني، نقطة بدايتهما في الاتجاه الجنوبي الغربي وينتهيان في الاتجاه الجنوبي. ولأن الريح كانت مواتية استطعنا أن نقطع ميلًا كاملًا في ساعة واحدة؛ لذا كان في مقدورنا أن نصل إلى الخليج الجميل اسطبل عنتر في مساء يوم الرابع من ذي القعدة. هذا الخليج يتغلغل بعمق في الأرض وتحيطه الصخور والهضاب المرجانية، التي نمت عليها بعض النباتات المتفرقة، التي لاحظت بعضها أثناء جولة صغيرة قمت بها في المساء؛ على سبيل المثال نبات زهرة الغمد (Glinus crystallinus Lin) التي تلتصق بالأرض وتنمو أزهارها البيضاء مباشرة على الساق وتبرز كالبثور من نفس الساق، وأوراقها بيضاوية الشكل لا تحمل أيّة أزهار، كذلك كان يوجد نبات من فصيلة النباتات الزهرية، التي تنمو على هيئة عدد لا حصر له من الزهور الصغيرة خضراء وبيضاء اللون معًا على الكأس، الذي تنتشر أوراقه في ارتفاعات غير منتظمة. شاهدت كذلك أشكالا مختلفة من نباتات السالسولا مثل السالسولا القرمدية (Salsola imbricate). أمّا شجرة الأراك التي عثر عليها روبل (Rüppel) والتي صنع منها العرب سواك الأسنان لتنظيفها، فقد بحثت عنها هنا بلا جدوى، وأعتقد أنها تنمو بكثرة في المناطق المنخفضة، أمّا السواك نفسه فقد رأيته كثيرًا؛ لكنه على أية حال لا يُستخدم بكثرة.

أُطلق على اسطبل عنتر[١] هذا الاسم نسبةً إلى أحد الشعراء العرب المشهورين الذي عاش قبل مجيء محمد والذي يعرف عنه بعض العرب قليلًا[٢]. كان يسكن هنا بعض البدو والصيادين في الخيام، وشُيِّد أحد الأسواق الصغيرة التي يتزوَّد منه الحجاج بالسلع الغذائية. غادرنا هذا الميناء الآمن حوالي الساعة السادسة صباحًا في الخامس من ذي القعدة، وأبحرنا بين الصخور المرجانية مرورًا بجبل عنتر، واتبعنا خط سير الساحل مبتعدين قليلًا عن البر في اتجاه الجنوب، حتى دخلنا في الساعة الواحدة بعد الظهر خليج الوجه، الذي يبعد حوالي ثلاثة أميال ونصف عن جبل عنتر.

لكتابة كلمة الوجه طرق عديدة تختلف وفقًا لطريقة نطقها Wedsch, Widsch, Uidsch, Udsch (Uedsch) وتُكتب بالانجليزية (Wedge) وبالفرنسية (Vedj) والتي معناها جميعًا في العربية الوجه، وهو عبارة عن مكان صغير كتب اسمه الجغرافيون الأوربيون بعدة طرق نظرًا لاختلافهم في طريقة نطقه. كنت أعرف طريقة نطق هذه الكلمة جيدًا في المغرب، فهم ينطقونها (Udsch, Utsch)؛ لكن من الأسهل لي أن أصيغها (Wedsch) ومن الأسهل كذلك كتابتها بالحروف بسبب هذا النطق وهي أيضًا الصحيحة؛ لأن حرف (W) يُنطق في الإنجليزية بطريقة تجمع بين الحرفين (W وU) في الأبجدية الألمانية.

أعتقد أنه يمكن التعرف في منطقة الوجه على معالم مدينة بطليموس (Phoenicon des Ptolemäos) من جديد، التي ذُكر أنها تقع على خط عرض ٢٦° ٢٠، بينما ذُكر في (Survey) أن خط العرض الشمالي للوجه يبلغ ٢٦° ١٣، وذكر مانيرت (Mannert) أن درجات خطوط العرض لمدينة بطليموس عند هذا الساحل تتطابق مع الدرجات الحقيقية بشكلٍ غريب؛ لذا أرى أني محق في رأيي هذا. ومن المحتمل أن تكون (Phoenicon) كما

١ توجد حاليًا محطة سكة حديد اسطبل عنتر تقع على بعد ٢٠ كم عن البوير وعلى بعض الخرائط سموها محطة المقرح!. وتشمل قلعة وثكنة؛ لكن بينهما مسافة ابعد من المعتاد، وقد بنيت هذه المحطة بالحجارة البازلتية السوداء، و سميت بهذا الاسم الغريب على اسم الجبل الذي تراه غربا منها، وهو جبل عنتر الأحمر الضخم ذو القرنين على قمته، واسمه حديث نشأ في عصور العامية حيث تناقل الناس خرافة أن هذا الجبل كان مربط خيول عنتر بن شداد! و كان يسمى ذو الفحلتين وقد ورد في كتب السيرة النبوية في قصة مهاجمة سرية زيد لقبيلة جذام حيث لقيهم علي رضي الله عنه "بفيفاء الفحلتين" وهم رجوع وورد أيضا كمحطة في طريق غزوة تبوك. (المصدر: *http://alsahra.org/?p=181*) (المترجمة)

٢ فون هامر Von Hammer: Wiener Jahrbücher 1840. المجلد ٩٢، ص٤٩. (المؤلف)

يدل الاسم عبارة عن مستوطنة فينيقية لم نعرف عنها شيئًا بعد. بحثت بلا جدوى عن بقايا وأطلال من العصور القديمة في الوجه بلا فائدة، ولا يعني عدم وجودها بالضرورة أن تكون دليلًا ضد وجود موقع (Phoenicon) هنا. لم يكن هذا المكان سوى بقع صغيرة تتكون من منازل السكان من الطوب الهوائي، بينما كان يسكن التجار الفينيقيون هنا في الخيام. أما الآن فقد غدت منطقة الوجه قرية فقيرة تتكون من عدة كهوف قليلة منحدرة يسكن فيها البدو الفقراء من قبيلة البلي؛ لكنهم كانوا أُناسًا طيبين، غير فاسدين، كانوا على الأقل أقل خداعًا من باقي سكان الموانى الذين كانوا يبتزون الحجاج وينهبون أموالهم بطريقة مخزية. استطعنا أن نشتري ما نحتاجه من مواد غذائية بأسعار معقولة جدًّا، فقد كان بدو بليٍّ يبيعون عسلًا من أجود الأنواع في السوق بسعرٍ زهيد جدًا. كذلك جددت مخزون الماء معي، حيث أرسلت عليًّا لملئ العشرين قربة ماء من البئر الذي يبعد عنا حوالي نصف ميل، فأجرت حمارًا لهذا الغرض ودفعت المبلغ المضحك بالنسبة لي لقلة قيمته قرشًا لعليٍّ وشباب القبيلة الذين رافقوه. كانت مياه البئر عذبة ويقع بالقرب من أحد الحصون الصغيرة، حيث يسكن الأونباشي التركي مع عشرة رجال آخرين في هذه الحامية.

غادرنا منطقة الوجه في السادس من ذي القعدة في الساعة الخامسة صباحًا، وبذلك نكون شرعنا في رحلتنا إلى الأرخبيل الذي يمتد حتى قصر البنت[1] وحوالي اثنتي عشرة جزيرة أخرى تكثر فيها الصخور والشعاب المرجانية لدرجة كان يصعب معها الإبحار بالباخرة. كان ينبغي أن نعبر هذا الأرخبيل في يومين، في الجهة المقابلة لمنطقة الوجه وعلى بعد ميلين من الشاطئ رأيت لأول مرة جزيرة ريخة(Recha أوRega). من المحتمل أن تكون هذه الجزيرة نفس الجزيرة التي ذكرها نيبور تحت الاسم غير المعروف مطلقًا (Me-kamerin)؛ لأن جزر أبو الملا (Abu Mölla) والمردومة (Marduma) التي يشتبه أن تكون إحداهما أيضًا جزيرة الجن التي كانت موجودة منذ العصور القديمة؛ لأن اسمها العربي والأساطير التي أُشيعت حولها والتي تناقلتها الألسنة تجعل هذا الرأي صحيحًا؛

١ قصر البنت هو قصر منحوت في جبل يقع في مدائن صالح، خارج قصر البنت توجد رسمة لحيتان داخل شكل مثلث لتمثل حارس القبر، وهذا ناتج عن التأثير اليوناني على الفن النبطي، وقد تم التوقف فجأة عن إكمال بناء هذا القبر، والوردية على المدخل ونظرائه تمثل طبقا مزخرفا يستخدم في المناسبات الدينية. (المترجمة)

على الرغم من أن جزيرة الجن الحقيقية كانت تقع على مسافة أبعد في اتجاه الجنوب، في مقابل راس مستورة (Ras Mustura) وبثلاثة وعشرين درجة أقل. أمَّا جزيرة المردومة فهي عبارة عن صخرة مرجانية ضيقة لا ينمو عليها نبات الدُّبال، وبالتالي لم أر عليها غطاءًا نباتيًا. كانت جزيرة الجن تقع قبالة شرم أبَّان (Sherm Abban) الذي كان مرسى جدبًا مأهولًا من البدو المارقة.

عندما مررنا بشرم أبَّان استغل مقدم السفينة الفرصة كي يحكي لنا حكاية خرافية يعرف أحداثها هو بنفسه؛ فقبل حوالي عشرة أعوام وصلت إلى شرم أبَّان مجموعة من الإنجليز الملعونين، فقتلهم البدو الذين يعيشون هناك، إمَّا لغرض سرقتهم أو لأنهم خافوا أن يزور هؤلاء الزنادقة مكة أو المدينة ويدِّنسوا هذه المدن المقدسة بوجودهم هناك. وبمجرد أن قُتل الإنجليز، خطر ببال أحد البدو أن يفتح بطنه لأن معظم العرب يعتقدون أن معظم المسافرين يبتلعون قطع الذهب ووجدوا بالفعل بطون الإنجليز مملوءة بجنيهات الذهب. استطرد القبطان قائلًا، منذ ذلك الحين لم يأت الإنجليز إلى هنا؛ لكن البدو حاولوا مرات عدة معرفة ما إذا كانت بطون المسلمين تمتلئ أيضًا بجنيهات الذهب أم لا، وأُشيع ذلك بسبب الجثث الكثيرة التي عُثر عليها لأجساد مشقوقة. لقد سمعت عن حكايات شبيهة في الجزائر، حيث تعتقد القبائل هناك أن المسافرين يخبئون الذهب في بطونهم؛ لكنهم كانوا يكتفون بأخذ الذهب منهم غصبًا دون قتلهم. أمّا إذا كانت هذه الحالات بها أدنى شيء من الحقيقة، فلنترك هذه القضية مفتوحة. بالطبع كان يصدق رفاقي في رحلتي هذه الحكايات كما لو كانت إنجيلًا.

أمَّا الجزيرة الرابعة التي صادفتنا هنا في الأرخبيل فكانت جزيرة الشيخ حسن مربوط (Schich Hassan Marbut)، هكذا سُميت نسبة إلى أحد الأولياء الذي جاء إلى هنا واستوطن المكان حتى مات فيه ودُفن هنا، والآن يحيي ذكراه هؤلاء الناس الذين يعتنقون الخرافات. لمَّا وصلنا إلى قمة جزيرة مربوط، لم يدع البحارة تلك الفرصة أن تفوتهم بالمشاركة في الأناشيد الدينية واحتساء القهوة التي وُزعت على كل الحاضرين في المكان، وأخيرًا جاء مقدم السفينة الثرثار وألقى خطبة فحواها كانت حكاية هذا الولي

الشيخ حسن، الذي كان يقدِّس الأسماك مثل القديس أنطونيوس فون بادوا (-Anto nius von Pauda) الذي ألقى موعظة على السمك، مما كان لها عظيم الأثر على كل سكان البحر، كذلك أخذ الشيخ مربوت على عاتقه القيام بذلك. كانت تأتيه الأسماك كل يوم وتضع نفسها تحت تصرفه، وحقًا كان تصرف بعض مريديه غريبًا جدًّا، فقد كانوا يضعوا أنفسهم في المقلاة بينما تغمرهم السعادة والرضا ريثما يأكلهم القديس. عاش القديس حياته في رغد من العيش يأكل السمك دون أدنى عناء يبذله في صيده. ولكن للأسف لم يستمر هذا الحال. ذات مرة ارتجف قلب القديس لطاعة الأسماك له وتضحيتها بنفسها في سبيله، فقرر أن يلقي عليهم موعظة، ابتدأها بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسوله؛ لأنه مسلم. وهنا حدثت المعجزة! فبمجرد أن نطق الشيخ مربوط الشهادتين حتى شرعت جميع الأسماك في ترديد الشهادتين أيضًا، وبذلك أصبحوا جميعًا مسلمين ومتدينين مثل القديس ولم يعد يأكل القديس منهم. وأُشيع أنَّ القديس قد ندم على موعظته التي لم تكن في أوانها؛ لكن سلواه كانت في معجزات أخرى حدثت له لا تكفي مجلدات لعدها وتدوينها. ليس من المعروف ما إذا كان الشيخ حسن قد مات أم لا؛ على الرغم من وجود قبره، فهذا ليس دليلا على شيء؛ لأن الأولياء المسلمين من خصائصهم أن أجسادهم تزدوج وهذا ما زعمه مقدم باخرتنا من أن الأولياء يُدفنون وهم لا يزالون في نفس الوقت أحياءًا.

في المساء سكنت الريح فجأة، وأصبحنا في ريبة مما إذا كنا سنصل للمرسى الجنوبي؛ لذا كان يجب علينا أن نتجه مرة أخرى نحو الشمال، ووصلنا أخيرًا إلى الميناء الصغير شرم منبور (Scherm Menbur) (كان يطلق عليه المسافرون الأوربيون أيضًا منايبورة) (Menaibura)، ووجدنا هناك سوقًا جيدًا نوعًا ما، وقضينا ليلتنا هناك. كان زوار هذا الميناء قليلين جدًّا، فالساحل هنا مجرد تمامًا من النطاق النباتي حوله؛ لكنني رأيت بعض نباتات من فصيلة النجيلة (Panicum dichotomum)، التي كانت تُستخدم كعلف للجمال وتُصنع منها أكواخ القش.

في السابع من ذي الحجة واصلنا رحلتنا في متاهة الصخور المرجانية المحفوفة بالأخطار، وكنا لا نزال بالقرب من جزيرة الشيخ مربوط، تلك الفرصة التي استغلها بحارة الباخرة الذين يعتنقون الخرافات كي يرسلوا الهدايا لحرّاس ضريح الشيخ حسن. انتظرنا حوالي أربع ساعات حتى عاد الوفد إلى الباخرة، وأبحرت الباخرة من جديد بعد الظهر في اتجاه جزيرة أم الرومة (Um er Ruma) التي كانت مختلفة عن سائر الجزر؛ لأنها كانت مغطاة بالكامل بالشجيرات التي قلّما ضربت جذورها في الصخور المرجانية. من المحتمل أن تكون هذه الجزيرة هي جزيرة (Timagenis Insula des Ptolemäos) كما ادعىَ موللر (Müller) ذلك، والتي بحث عنها مانيرت عند الحسانية التي تقع في الجنوب. أرى أن موللر محقٌّ في رأيه؛ لأنه طبقًا لما أورده بطليموس نفسه تقع (Timagenis) قبالة جزر (Chersonesus) و(Rhaumatus)، مما يتناسب مع جزيرة أم الرومة التي تقع قبالة جبل راس راركومة (Ras Rharkuma). لا أستطيع تحديد موقع (Pagus Rhaumatus) على وجه الدقة. ويعتبرها مانيرت (Mannert) أنها تقع أبعد في الجنوب. وكما ذكرت سابقًا فإني أرى أن آراء موللر تدحض آراء مانيرت، والتي يحدد فيها موللر موقع (Rhaumati vicus) وهذا أهم ما يجب فعله. إن راس راركومة (Ras Rharkuma) ليست هي الجبل ذا السبعة رؤوس (Ras sebba Rus) كما يزعم مانيرت، ورأيي أن تكون هي (-Chersonesus ex trema)؛ من ناحية لأن درجة خط العرض لمدينة بطليموس تتطابق بالضبط مع الحقيقة حيث ذكر (Alexandriner) درجة خط العرض لـ(Chersonesus extrema) وهي ٢٥° ٢٠ ودرجة العرض لراس راركومة تبلغ ٢٥° ٣٠، ومن ناحية أخرى لأنه يمكن افتراض أن هذا الجغرافي اليوناني ذكر هنا على هذا الساحل جبلًا واحدًا فقط، الذي من المؤكد أن يكون راس راركومة وليس الجبل ذا السبعة رؤوس (Ras sebba Rus).

مع الاتجاه قليلًا جنوب (Timagenis) القديمة رأينا جزيرة مستوية الأرض جرداء بها العديد من الصخور، اسمها موشابية (Moschabija) يقطنها بعض الصيادين من قبيلتي الطامي (et Tämi) والحوطامي (Höttämi).

بعد الظهيرة مررنا على بعض الجزر الأخرى هي أم المُلك، والحمرا، والعقادي. كانت الساحرات العربيات القدامى تنفث في العقد المعقودة من الخيوط، وبذلك يمكنهن التأثير على قدر الإنسان، بطريقة ما خرافية. تشتمل سورة الفلق وهي إحدى السور المشهورة في القرآن، على أحد الأدعية للتحصين من النفاثات في العقد. لم يكن واضحًا لي المغزى من اسم هذه الجزيرة ولا من الجزيرتين الأخريين، أم المُلك والحمرا، فلم تكن أم المُلك جزيرة يانعة عامرة بالثمار، ولم تكن الحمرا ملأى بالأحجار الحمراء، فقد كان يغلب اللون الأسود على الصخور المرجانية هنا. بسبب بقائنا لوقت متأخر بالقرب من جزيرة الشيخ حسن مربوط لم نتقدم صوب شرم ربرا (Sherm Rhabra) التي من المحتمل أن تكون هي نفسها (Gabrin) التي تحدث عنها نيبور؛ على الرغم من أنها تقع ناحية الشمال قليلًا. لقد كانت عبارة عن مرسى للبواخر؛ ولكن كان المكان هنا يتمتع بطبيعة خلابة؛ لأن جبل (Haura) الذي كان نوعًا ما قريبًا قد رسم في الأفق خطوطًا عريضة بديعة، وأُحيطت التلال المجاورة له بغطاء نباتي مزركش الألوان. ليس ببعيدٍ عن الساحل وجدت بعض شجيرات رقيب الشمس (heliotropium europaeum) كانت ترعى فيها الجمال؛ لأنها تحب هذا العشب بشكلٍ خاص. أمَّا العرب الذين كانوا يرعون هذه الجمال فكانوا من أكثر العرب الذين رأيتهم في حياتي همجية وبربرية. كانوا يمشون نصف عراة، أي أن القميص ذا الأكمام الذي كانوا يرتدونه كان مهلهلًا تملأه الثقوب، وكان من الأجدر بهم ألاَّ يرتدونه، وكانوا يضعون على أجسادهم ورقة التين كما كان يفعل آدم، على الأقل كان سيكون ذلك كافيًا لحفظ الأدب، ولا يمكن تحقيق هذا الغرض بقميصٍ بأكمام تملؤه الثقوب. لكن آداب الاحتشام هذه لم تكن لها أدنى ضرورة في هذا المجتمع الذي ينظر للمرأة باعتبارها حيوانا يُربَّى في المنازل.

في الثامن من ذي القعدة، أبحرنا عبر الصخور العديدة في خليج (Haura) عند قاعدة الجبل، الذي أطلق عليه نيبور (Hawen). كانت توجد في هذا الخليج بقايا آثار وأطلال من العصور القديمة وأعمدة وما شابه ذلك طبقًا لما ذكره (Wellsted) في "رحلة إلى بلاد العرب"، وخمن أيضًا بعض المستشرقين والجغرافيين من أمثال (Ritter) و(Gosselin)

و(Quatremere) أنها ربما تكون بقايا وادي عينونة[1] (Leuce come) ويرى (Ritter) أنها تتطابق مع حُميمة الغربية[2] (Auara des Ptolemäos). بذلت ما في وسعي كي أعرف شيئًا عن هذه الآثار فوجدت أعرابيًا قد رأي شيئًا من هذا القبيل، وقال لي أنه توجد بقايا أحد القصور العربية منذ عصر الصحابة (الخليفة الأول). ربما تكون هذه (Hawra) التي ذكرها كل من الادريسي (Edrisi) والاصطخاري (Isstachari). لا يمكنني أن أنفي إمكانية وجود مدينة اسمها الحورا (Hawra) في الماضي، التي لا يزال يُرى حطامها وآثارها هنا؛ لأني لا يمكن أن أحكم على هذا الحطام بصفتي شاهد عيان له فحسب. لكن يتضح لي هنا شيئان؛ أولهما أنّ هذا الحطام ليس موجودا مكان (Auara des Ptolemäos)؛ لذا فإنها ليست (Leuce come). لقد ذكر بطليموس في الحقيقة أن عينونة تقع تحت الدرجة الثلاثين؛ ولأننا وجدنا أنه على هذا الساحل تتطابق الدرجة التي ذكرها بطليموس الإسكندراني مع الدرجة الحقيقية؛ لذلك من المضحك افتراض أن يخطئ في تقدير هذه النقطة بحوالي خمس درجات، والتي ذكرها منفصلة منقطعة عن أيِّ سياق تُذكر فيه. لو سلَّمنا أن حورا هي عينونة، واللتان يعود تاريخهما إلى عصر بطليموس، فإنه يجب إذن طرح خمس درجات من كل قياسات مدن العصور القديمة التي افترضنا صحتها على هذا الساحل حتى الآن، وبناءًا على ذلك تحل[3] (Jambia vicus) محل جدة، ويجب أن نبحث عن (Badeo regia) في اليمن. لا يوجد شيء مشترك يجمع بين الحورا وعينونة؛ على الرغم من تشابه أسميهما، مما يؤدي إلى الرأي الخطأ والمضحك نتيجة الخلط بينهما. يوجد دليل آخر على ذلك وهو أن عينونة لا تقع موقع حورا حاليًا، ويبدو لي أن السبب في ذلك أن عينونة كان اسمها (Avara) قديمًا، وكانت في القرن الخامس يُشار إليها باعتبارها أبرشية، كانت توجد مثيلتها في عاصمة بلاد العرب البصرة، العاصمة الكنسية البترائية العربية، والتي تُعرف عالميًا بالبتراء. لم يُسمع بعد ذلك عن أيَّة أبرشية

١ عينونة واحة تقع على بعد ٩٠ كيلومترا إلى الشمال من مدينة ضباء الواقعة شمال المملكة العربية السعودية، وساحلها يقع على ميناء الأنباط الشهير (لوكي كومي) أو المدينة البيضاء، ولا تزال آثار لوكي كومي باقية في واحة عينونة وتقع قرب العين في المكان المسمى بمغائر الكفار، إلى ساحل البحر الأحمر في المكان المسمى بالخريبة وتوجد فيه آثار إسلامية. (ويكيبيديا) (المترجمة)

٢ حميمة – حوارة كما كانت تعرف قديمًا – قرية أردنية تقع في محافظة معان في الجنوب. (المترجمة)

٣ طبقًا لما ذكره بعض الجغرافيين تعتبر Jambia هي Auara. (المترجمة)

أخرى في بلاد العرب إلا في الإمبراطورية الرومانية، وربما في أماكن متفرقة في بلاد العرب. في بلاد الحجاز الحالية أي في الجزء الشمالي من بلاد العرب، الذي تقع فيه حورا (Hawra)، لم يثبت وجود أيَّة أبرشية. لم يمتد الحكم الروماني المسيحي، الذي سمح بتشييد الأسقفيات والأبرشيات في كل مكان في القرن الخامس، أبدًا في اتجاه الجنوب أكثر من خط عرض ٢٩ في الشمال، وهي الدرجة التي ادّعى بطليموس عندها وجود مدينة عينونة (Auara) وعليه فإن مدينة (Avara) كانت إحدى الأبرشيات في الجنوب. سوف تحدث بلبلة وحيرة لكل الحقائق التاريخية إذا افترضنا أنه تحت درجة عرض ٢٤ كانت تقع (Haura) التي من المفترض أن تكون هي نفس مدينة عينونة (Auara) والتي يطلق عليها العرب اسم "المدينة البيضاء". هذه الاشتقاقات اللغوية كلها خاطئة؛ لأن الكلمة العربية "حَور" تعني "أبيض" فقط في حالة واحدة، وهي إبراز بياض العين المضاد للون الأسود في قَرة عين الإنسان الأعمى، ولكنها قد تعني أيضًا "السواد" كما قال كاموس[1] (Kamos) ويكون المقصود بذلك سواد قرة العين وهو عكس البياض. إن اشتقاق اسم المدينة (Haura) من كلمة حَور يعتبر بعيدًا جدًا عن الصحة؛ لذلك تزداد صحة وجهة النظر التي تقول أن عينونة (Auara) هي لوكي كومي (Leuce come). بالإضافة إلى ذلك يبدو لي أن اسم لوكي كومي الذي يشير إلى لون أحد الأماكن، له علاقة بلون هذه المدينة ومنازلها، وعلى سبيل المثال نوع الحجارة البيضاء أو طلاء المباني الأبيض، أو علاقة تجمع بين كل شيء بالمدينة وهي الصخور البيضاء التي تتناثر على الساحل هنا، أو ربما المقصود لون الرمل والحصى الأبيض المسحوق على الشواطئ، وربما السبب هو الصخور الحجرية البيضاء المدمجة والموجودة على الساحل. في الحالة الأولى الأكثر احتمالًا بالنسبة لي ربما يسقط الاسم عن إحدى المدن والذي يعبر عن لونها بمرور الوقت، وهذا ما حدث لمدينة لومي كومي، ربما تهدَّمت البيوت المُشيدة بالحجارة البيضاء أو أن اللون قد تآكل بفعل التجوية وعوامل التعرية. ماذا يتبقى إذن من كل هذا الاسم حورا (Haura) ؟ يمكن للمرء اتخاذ قرارٍ بشان هذه التسمية إذا وُجد دليل على وجود مكان ما يُسمى

١ Kamos، لندن ١٨٠٠. انظر أيضًا Freytag: القاموس العربي-اللاتيني Lexikon arabico-litteram. و Kasimisrsky Dictionnaire arabe-francais، باريس ١٨٥٣. (المؤلف)

حورا حاليًا، التي تعتبر موقعًا وليس مكانًا فيما مضى حتى الآن، وماذا سيحدث إذا نجح أحد الأوربيين في أن يأتي إلى هنا وبحث في هذا الحطام الموجود هنا.

أمَّا ما ذكره ستيفانوس البيزنطي عن عينونة (Auara) فمن الأرجح أنها لا تقع على الأرض، ويدعم هذا الرأي أن أهل الإسكندرية كانوا يعدونها من الدول الحبيسة، أمَّا مدينة إلانا (Elana) في نهاية خليج إلانا (elanitischen Golf) فهي في الجنوب أكثر من (Auara) كما أن البحر الأحمر لا يوجد عند هذه المدينة.

واصلنا الإبحار في هذا الأرخبيل المملوء بالصخور والجزر، ومررنا بعد الظهيرة بجزيرة الجدري (esch Dschädri) ذلك الاسم الغريب الذي معناه جُديري الأطفال وبجزيرة عدن (Addun)، ووصلنا في المساء إلى مَرسى جزيرة الحسانية (Hassania)، ولم نكن لنصل إلى هذا المكان الخلاَّب دون تكبد العناء بين هذه المتاهات من الصخور المرجانية وهذه الجزر المتعددة.

تُذكر في دليل البحر الأحمر (Periplus des roten Meers) الذي يُنسب بالخطأ لأريان [1](Arrian) الصخور الأربعة والموانئ السيئة والرحلات المحفوفة بالمخاطر على طول الساحل في هذا الجزء من الأرخبيل العربي، ولتجنب هذه الشعاب المرجانية وإيجاد طريق آخر، كان يُرسَل أحد البحارة على سارية ليستكشف وجود الشعاب المرجانية من لون ماء البحر الفاتح والداكن، ثم يُخبر القبطان متى وأين ستوجد هذه الشعاب بالقرب من الباخرة. اعتمدنا في رحلتنا على احتياطيات الأمن هذه أيضًا؛ لكن الكشَّاف الذي أرسلناه لم تكن له عين ثاقبة، فتكبدنا عاقبة نظره السيئ في الحال.

كانت الساعة الثالثة بعد الظهر تقريبًا عندما ظلت "أم السلام" عالقة بأحد الشعاب المرجانية والتصقت به كأنها تسمَّرت في مكانها. يمكن للمرء أن يتخيل حالة الهرج والمرج التي سادت سطح الباخرة، ناحت النساء وولولت، حاول الرجال الهرب، وجرى الجميع في فوضى وحيرة وبلا توجه، وتوارى كل من قبطان البر والبحر في أحد زواياها؛ إمَّا لأنهما لم يتلقيا أمرًا حازمًا للمساعدة، أو لتجنب اللوم الذي يستحقانه بجدارة. كان

١ المقصود هنا المؤرخ الاغريقي فلافيوس اريانوس Lucius Flavius Arrianus. (المترجمة).

البحارة يرتعدون من الخوف والأطفال تصرخ، والشيخ مصطفى يتلو الأدعية بسرعة، حتى تراطمت حبات مسبحته واحدة فوق الأخرى محدثة أصوات حركاتٍ نقر متشنجة، وبدا كل شيء حولنا كأننا نواجه النهاية السريعة، وهذا ربما يكون مصيرنا المحتوم لو كان البحر عاصفًا، أو كان فقط هائجًا بدلًا من حالة السكون هذه. كانت لطمات الأمواج الصاخبة وحدها كفيلة بتحطيم السفينة "أم السلام" إلى ألف قطعة صغيرة فوق هذه الشعاب المرجانية، وفي الغالب سيغرق الحجاج لأننا كنا نبعد حوالي ساعة عن أي بلدة مجاورة لنا؛ على الرغم من وجودنا في منتصف أرخبيل الجزر، ولم يكن غالبية الحجاج أبطالًا في السباحة، أمّا الفلاحون المصريون فقد كانوا ماهرين فعلا في السباحة. كان البحر لحسن الحظ أملسًا مصقولًا كالمرآة، وبعد أن انتحب كل واحد وبكى لفترة طويلة، ووقف حائرًا مكتوفًا أمام نهاية العالم، خطر ببال أحد الأتراك الذي كان جسدي يقشعر من شاربه الكبير الذي نمَّ عن كثير من رجولته، التي لم أجدها عند كثير من مجموعة الجبناء الآخرين، أنه يمكن فعل شيء لإنقاذنا. أوصى الرجل بأن عشرين رجلًا يجب أن يقفزوا على هذه الشعاب المرجانية ويدفعوا السفينة بأكتافهم. ولأن الجَزر لم يكن كاملًا بعد، بلغ الشعاب المرجانية أدنى مستوى للمياه في وقت الجَزر، مثل سائر الشعاب التي لا تطفو بسبب القوى البركانية (من المعروف أن الشعاب المرجانية لا تطفو أبدًا على سطح الماء)؛ لذا ستصل المياه حتى ركبة أو فخذ مَن سينزل للماء، مما أخاف الكثيرين، بينما فزع آخرون من أعماق البحر ومن وحوشه. أخيرًا نجحنا في إخراج القبطان من مخبأه ودفعناه لقيادة مناورة الإنقاذ هذه. لكن البحارة لم يريدوا القفز في الماء زاعمين أن الشعاب المرجانية مسكونة بالجن. لكنهم في الحقيقة كانوا يخافون من الزوائد والأذرع الرفيعة التي تنمو على تلك الشعاب وتسلخ جلد القدم التي تلمسها. لكن عندما سبقهم إلى الماء رجلان تركيان وأبناء أخو الشيخ مصطفى الثلاثة، وكانوا جميعهم بالزي الموحد لآدم، قرر البحارة أخيرًا القفز في الماء، وبعد نصف ساعة كان في الماء حوالي عشرين رجل يدفعون السفينة كي تتحرك، ونجحوا بالفعل في ذلك أخيرًا. للأسف لم أتمكن من المشاركة في هذه المناورة؛ لأنه كان سيكون ملفتًا جدًّا لانتباه الآخرين عندما أقفز

عاريًا في الماء، وهذا أمر لا يُسمح لي به، حتى لا يكتشف الآخرون أمري بأني كافر لم يُختَن. لذا حصلت على سُمعة الجبن التي لم أكن أستحقها. أمَّا الشيء الأكثر إضحاكًا بالنسبة لي فكان رؤية أحد الأغوات المصريين الذين أُرسلوا على متن الباخرة لشراء العبيد البيض من مكة والمدينة. لقد وجده صاحبه الزنجيِّ بعد مرور ساعة من الخطر، لكن أين وجده؟ كان جالسًا تحت أقدام النساء ينتحب ويولول ويخفي رأسه تحت مئزر إحدى الزنجيات. حتى النساء كان جبنه مضحكًا بالنسبة لهن؛ على الرغم من أنهن من قبل أقمن حفلًا موسيقيًا حقيقيًا بسبب خوفهن؛ لكنهن الآن يشعرن بالراحة ويهدئن من روع الأغا بكلماتهن الساخرة مثل: "لا تخف يا جميلي! يا برعم قلبي! ارفع رأسك الجميل لأعلى يا نجمي في الصباح!"، وكلمات أخرى كثيرة على هذا المنوال لم يسمعها الرجل الزنجيّ؛ لكنها أسعدت باقي الحضور. أخيرًا خرج الأغا من مخبئه غير المناسب له وزُجَّ به بين الرجال الذين ينتمي إليهم بالاسم.

الآن انشغل الجميع لمدة ساعة بمداواة الجروح الكثيرة في أقدام المنقذين التي حدثت لهم بسبب الشعاب المرجانية. انزلق أحد الأتراك بين كتلتين من الشعاب المرجانية فانسلخ جلده من عند القدم حتى أعلى الفخذ بالكامل، وحالته يُرثى لها. لم يخرج أحد من الماء دون إصابات، مما برر خوف البحارة من القفز على الشعاب المرجانية.

كانت جزيرة الحساني من أجمل جزر الأرخبيل وأكبرها، وبها ميناء آمن إلى حدٍّ مَّا قضينا فيه ليلتنا. كانت الجزيرة تقع في جنوب الأرخبيل الذي مررنا بنهايته بالكامل من جهة الشمال، وتختلف هذه الجزيرة عن باقي جزر الأرخبيل، ليس بسبب مساحتها وارتفاعها حيث يبلغ طولها ميلان بالحساب الألماني وكذلك عرضها، أو بسبب الجبل الشاهق الذي يقع عند طرفها الجنوبي ويبلغ ارتفاعه ستمائة فحسب؛ بل بسبب الأحجار الأخرى التي تتكون منها غير الصخور المرجانية، فقد رأيت هنا صخور الجرانيت، وهذا ما أراد أحد الجغرافيين إثباته، وهو أن للحسانية أصل في العصور القديمة التي ظهرت بعد تحديد الصخور البدائية من خلال ما يخرج من فوهة البركان على سطح البحر. راق لنا هنا أن نجدد مخزوننا من الماء؛ على الرغم من أن الماء هنا لم يكن بنفس

جودة الماء في منطقة الوجه، لم يكن يوجد في الجزيرة بأكملها سوى نبع واحد لا يقع بعيدًا عن ساحل إحدى القرى هنا التي اسمها الطامي، يسكنها الصيادون. بينما ذكر الإدريسي أنه في العصور القديمة كان يسكن هنا أحد الأئمة اسمه حسان ابن الخليفة عليّ، صهر النبي، وسُميت الجزيرة هكذا نسبة إليه. من المحتمل أيضًا أن يكون اسمها في الماضي (Zygaena) وقد ذكرها بطليموس بهذا الاسم وذكر أنها تقع عند خط عرض ٢٥° وتكاد تلك الدرجة تتطابق مع خط العرض الحقيقي للحسانية التي ذكرها (Moresby) وهي ٢٤° ٥٧. أمّا (Mannert) فيعتبر جزيرة الحسانية هي (Timagen-is) التي بناها بطليموس، وكما ذكرنا سابقًا أنه من المحتمل رؤيتها في جزيرة أم الرومة. من الغريب أيضًا أن هذا الاسم القديم للحسانية معناه قرش المطرقة (Hammer-fisch) وله علاقة في الماضي بصيد الأسماك وبيعها مثلما هو الحال في هذه الآونة حيث تزود قبيلة الطامي التي تسكن هنا الموانى المجاورة بالأسماك الطازجة، وتزود مصر والقاهرة بالأسماك المملحة، حيث يقدر أهالي مصر أسماك الماكريل المملحة القادمة من الحسانية جدًّا. طبقًا لما ذكره الجغرافي (Müller) كان اسمها عند القدامى (Assi-ma) وفيه تشابه لافت للنظر مع اسم الحسانية، لذا يمكن اعتقاد أن هذا الاسم أصله الحسانية ويربط الاسمين معًا الاسم العربي المسلم حسان.

مكثنا في جزيرة الحسانية على البر لفترة قصيرة؛ لذلك لم أستطع زيارة الحطام الذي تحدث عنه (Wellsted) هنا؛ لأن رفاقي في الرحلة كانوا يحتقرون ساكني هذه الجزيرة ويعتبرونهم زنادقة ولم يريدوا التعامل معهم؛ لذا كانوا يتحاشون البقاء طويلًا في البر هنا. لهذا أبحرنا بعد ما اشترينا ما نحتاجه من مؤونة، وقضينا المساء على سطح الباخرة حتى أقام البحارة احتفالًا للاحتفاء بمواصلة الإبحار والاحتفاء بمحاولة الإنقاذ الناجحة من الشعاب المرجانية شمال هذه الجزيرة. لهذا الغرض ذبحوا جديًا أُكل نصف مشوي، وقدموا أجزاءًا منه لكل المسافرين على السفينة. لكن القلة القليلة فقط استمتعت بهذا الطعام، فقد كف الغالبية بعد محاولات عقيمة عن غرس أسنانهم

في اللحم المطاطي لهذا الجدي العجوز واكتفوا بأكل الأطعمة الأخرى الأقل ورعًا على شرف هذا الجدي المقدس.

في مساء يوم التاسع من شهر الحج ذي القعدة (توجد ثلاثة أشهر للحج هي شوال وذو القعدة وذو الحجة) تحركنا من جزيرة الحسانية إلى شرم محار (Scherm Mahar) بعد أن قمنا طول النهار بجولة جريئة جدًا على السواحل الممتدة حول الجبل العالي رضوى (Rhadua)، ويقع عند سفح جبل رضوى شمال شرم المحار ميناء صغير اسمه شرم الشاب (Scherm Schab) سُمي بهذا الاسم نسبة إلى جبل شاب الذي يتشابه اسمه مع أحد الجبال التي ذكرها (Diodor ص٤٤) وكان يوجد في هذه الناحية. لو كان جبل رضوى حقًّا هو جبل (Chqbinus)، لكان يجب إذن وجود أنقاض وحطام على قمته للمعابد الثلاثة الضخمة التي ذكر ديدور[1] (Diodor) أنها كانت تقع على قمته، وكانت تُعبد فيها الآلهة التي لم تكن معروفة عند اليونانيين. إلا أنه من الصعب التسليم بأن هذه المعابد قد شُيدت بالطوب الهوائي؛ ولذلك لم تترك أيّة آثار دائمة. أمّا أنا فقد بحثت هنا كثيرًا عن آثار لتلك المعابد؛ لكنني لم أجد أي أثر يدل على وجودها هنا.

كان ميناء محار ضيقًا وغير مريح، ولم نكن نتوقع مدخله الواسع الجميل. كما أن المياه كانت سيئة هنا جدًا؛ لذا فضلت عدم تجديد مخزوني منها. زرت في شرم محار مع عليّ أحد المقاهي العربية التي يمتلكها أحد البدو الذي ينتمي إلى قبيلة جهينة التي تبدأ منطقتها من هنا. لم يكن مضى من الوقت سوى ربع ساعة، حتى دخل علينا أحد سَحَرة الأفاعي الذي يشبه الحواة والرفاعية في المغرب ومصر، وقام بعدة عروض جريئة مع حنش. على الرغم من أني كنت أعرف هذا النوع من الأفاعي وبالتالي أعلم أن لدغتها لا تؤدي للوفاة؛ لكنها عادة تسبب أوراما وأمراضا؛ لذا لم أتعجب من جسارة هذا الحاوي بشكله الحديث. إلا أني شعرت بشيء من الدهشة غير مصحوبة بأيّ تقزز حينما رأيته قد شرع في أكل الأفعى بنفس الطريقة التقليدية وغير الخطيرة عليه مطلقا. كان يبدأ بذيل الأفعى

---

١ ديودور الصقلي Diodorus Siculus مؤرخ موسوعي يوناني. ولد في مدينة أغريون الصقلية، وعاش في القرن الأول قبل الميلاد، وعاصر أشهر إمبراطورين رومانيين؛ الأول يوليوس قيصر الذي قضى على نظام الحكم الجمهوري، وفترة من حكم الإمبراطور أغسطس، الذي أسس نظام الحكم الإمبراطوري. (المترجمة)

التي كانت لا تزال على قيد الحياة، يضعه في فمه ويعضعضه، ثم يستمر في ذلك من الخلف للأمام واضعًا قطعة تلو الأخرى في فمه، يمضغها ويأكلها حتى يصل للرأس فيأكلها هي الأخرى. لم يكن يمسك بالجزأ العلوي للأفعى بيديه، كما يعتقد البعض، ولكن كان يتركه حرًّا عالقًا في جسده، بينما الجزء السفلي يحتفظ به في فمه، مما يجعل الأفعى التي عضها الحاوي في ذيلها تثور وتغضب فتلتف بجسدها عليه وتلدغ الحاوي الذي يعضها ويأكلها وقد سببت له مئات الجروح التي اندفع منها السائل الأحمر على الأرض. لم تحدث أي التهابات أو تورم بعد لدغات الحنش، لذا فطنت إلى أن الغدد اللعابية لهذا الحنش قد دُمرت بطريقة ما. اعتقد الحاضرون بالطبع حدوث معجزة من أحد الأولياء. كانوا على درجة عالية من الجهل؛ لذا لم يعرفوا نوع الأفعى، واعتبروها من أحد الأنواع السامة. حُكي لي ذات مرة عن هذا النوع من الأفاعي حكاية، وهي أنها قادرة على الالتفاف على جسد جمل بالكامل من أحد الأطراف إلي الآخر، وكانت تُداوى الجروح بكيِّها بالحديد الساخن وفي هذه الحالة لا تلحق بالجمل أية أضرار.

في العاشر من ذي القعدة تركنا شرم محار الذي يقع في جنوبه الجبل ذو السبعة رؤوس (Ras Sebba Rus) الذي ذكره مانيرت باسم (Chersonesus extrema des Ptol-emäos)؛ ولكن أرى أنه من الأولى اعتبارها فرعا من جبل (Lämon Oros) الذي ذكره أجاتارشيدس (Agatharchides). من الممكن أن نرى آثارًا لجبل (Lämon Oros) في جبل النبي، الذي يعتبر أحد أفرع جبل رضوى وتطل قممه على الساحل مباشرة. قد يكون أيضًا من الراجح أن ديودور كان يقصد بجبل (Lämon Oros) وصف جبل النبي، لَمَّا ذكر أنه يوجد عند ميناء شرم ينبُع (Scherm Imbu) جبل كبير مكسو بالغابات؛ لكنه لم يذكر اسمه، ربما لأنه اعتبره آنذاك فرعًا من جبل (Chabinus) الذي ذكره. إن اسم رأس بسبعة رؤوس (Ras Sebba Rus) شائع الاستخدام في الجغرافية العربية، فعلى سبيل المثال يُذكر في الجزائر خمس مرات، ولا يُقصد بذلك معنى محدد، على الأقل المعنى الحرفي لهذه الكلمة وهو أن هذا الجبل له سبع قمم شاهقة. كلمة سبعة (Sieben) معناها رقم صحيح أو عدد مقدس؛ لكنها لا تعني عند العرب سوى "الكثير"، مثلما نتحدث في أوربا

عن الجبل ذي المائة قمة؛ لكن الشرقيين يحبون التشبيهات التي تعود دائمًا للعدد سبعة. لم يوجد شيء مثير للسخرية لي أكثر من اكتشاف السبع قمم لهذا الجبل الذين لم يكونوا سوى ثلاثة. أطلقت بعثات الاستكشاف الإنجليزية بقيادة (Moresby) على هذه القمم الثلاث اسم جبل الرؤوس (Zackenberg) أو جبل قمع السكر(Zuckerhut) أو جبل المنحدرات (Klippenberg). لا يعرف العرب هذه المسميات، ونادرًا ما يطلقون على قمة جبل اسمًا، بل يسمونها باسم مجموعة القمم كلها مع بعضها، وغالبًا يكون الاسم مشيرًا إلى أحد الأماكن أو القبائل أو ضريح أحد الأولياء أو السهول. يجب أن ينطلق المرء من مبدأ أساس واحد فقط في الجغرافية العربية إذا أردنا تجنب الاستنتاجات الخاطئة دائمًا، وهو أن أسماء كل الجبال والبلاد والأنهار تقريبًا كلها غير محددة وغير معلوم سببها، لدرجة أن العرب أنفسهم لا يعرفون لها معنى، وباختصار تعتبر كل جغرافية العرب غير واضحة ويعتريها الغموض. ليس من العسير معرفة السبب في ذلك، فالعربي كان فيما مضى ولا يزال حتى الآن بدويًا؛ ففي كل البلاد العربية لا يحبذ البدو أكل سمك البلايس المفلطح (Scholle) ولا يقدرون قيمته، ولا يهتمون بمعرفة اسمه، بينما يُجلون عائلتهم وقبيلتهم ويقدرونها. فتجد البدوي مخلصًا لاسم قبيلته ويحمله معه من مكان لآخر، ويذكره في كل مكان يستوطنه من جديد؛ لذلك نجد هذه البلبلة غير المعقولة في أسماء الأماكن. فعلى سبيل المثال، سألنا ذات مرة: ما اسم هذا البلد؟ فكانت الإجابة: بني حسن. بعد ذلك بثمانية أيام وصلنا إلى أحد الأماكن وسألنا نفس السؤال وكانت الإجابة أيضًا هي بني حسن، ثم نفس الإجابة في مكان ثالث. ربما أقام بنو حسن في جميع الأماكن كبدو يتنقلون، وقياسًا على ذلك أسماء الأنهار والجبال. فقط أسماء البلدان تعتبر محددة.

كان يُطلق على الجانب الآخر للرأس ذي السبعة رؤوس اسم آخر، وهو نفس الاسم لأحد الأماكن غير الساحلية وهو(Burida) أو (Buredi) أو (Bredi) أو (Burdi) ويختلف هذا الاسم طبقًا لطريقة نطق هذه الكلمات.

في مساء العاشر من ذي القعدة وصلنا أخيرًا إلى ينبُع (Imbu) أو (Limbu) أمام ميناء في الطريق إلى مدينة الرسول المدينة المنورة، وبذلك نكون قد وصلنا إلى نصف

المسافة التي يجب أن نقطعها. هنا اعتاد الحجاج على إنهاء السفر بحرًا وبدء رحلة في البر مستخدمين الجمال للوصول إلى المدينة بعد رحلة تستغرق خمسة أيام، ومن هناك يواصلون السفر برًا لمدة عشرة أيام كي يصلوا إلى مكة. هذا الطريق سلكه بورتون (Bur-ton) في عام ١٨٥٣. إلا أن رفاقي في الرحلة فضّلوا أن يكملوا الطريق بحرًا حتى جدة ومن هناك الوصول إلى مكة في رحلة تستغرق يومين فقط، ثم يعودون من جدة إلى ينبُع؛ لكي يبدأوا الرحلة إلى المدينة. كان هذا الطريق هو الأمثل بالنسبة لي؛ لكي أظل بصحبة رفاقي هؤلاء الذين لا يمثلون أيّ خطر علي، كما أنهم هم الأنسب لي بسبب ظروفي الخاصة. فالمسافر الذي يكون محاطًا بعدد أكبر من المعارف والأصدقاء يكون في مأمن من الحماقات وطيش الآخرين، أكثر من المسافر الوحيد الذي ليست لديه على الأقل في الشرق مكانة مقبولة بين الناس. لو كنت نزلت من السفينة في ينبُع وأردت زيارة المدينة من هناك، لكنت سأظل وحيدًا؛ لأن الشخص الوحيد الذي نزل من الباخرة هو الأغا؛ لأنه كان يقصد المدينة. هذا الوحش الأسود لن يكون مصدرًا للحماية لي، وبالإضافة إلى ذلك لم تكن صحبته مقبولة لي؛ ولأنه لا يوجد إنسان أكثر خيانة ومحبًا للشماتة من هذه الكائنات التعيسة التي تبدأ بإثارة التعاطف معها وتنتهي بكره الجميع لها. واسيت نفسي ومنيتُها بزيارة المدينة التي دُفن بها الرسول في رحلة العودة من مكة عن طريق ينبُع؛ لأن رفاقي سيسلكون نفس الطريق وكلهم يجلُّون ويقدِّرون الرحلة من مكة إلى المدينة التي وصفوها بأنها مرهقة جدًا وتحفها مخاطر كثيرة. كيف يمكن تنفيذ هذه الخطة الرائعة وتحت أيّة ظروف تناسبني، سوف نرى ذلك عند ذكر طريقة عودتي من مكة إلى جدة. على أيّة حال من الخطأ إذا اعتقدنا أن الرحلة إلى المدينة وزيارتها أمر واجب الحدوث للحصول على لقب الحاج. طبقًا لأفضل المراجع العربية التي جمعها ريلاند[1] (Reland) يكتمل الحج بخمسة أشياء فقط:

١-النية الصادقة والأدعية التي تشهد بذلك.

٢-الوقوف على جبل عرفة في التاسع من شهر ذي الحجة.

---

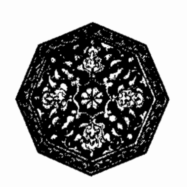
١ راجع Relandus، de Relligione Mohamedica. Trajcctum ad Rhenum 1705. (المؤلف)

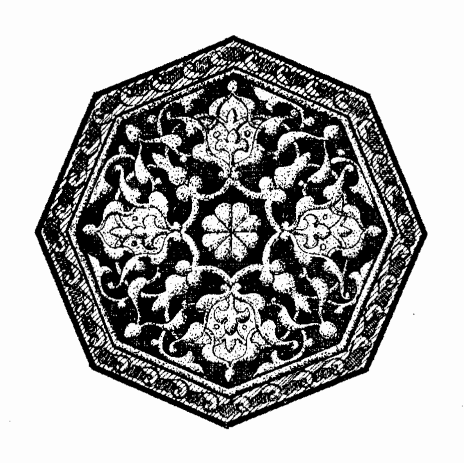
٣-الإحرام أي لبس ملابس الإحرام وقص شعر الرأس.

٤-الطواف سبعة أشواط حول بيت الله وهو الكعبة وهي المعبد الذي بناه إبراهيم في وسط صحن المسجد الحرام.

٥-السعي بين الجبلين المقدسين الصفا والمروة.

كما ترون هنا لم تُذكر المدينة في هذه الشروط، إن الرحلة إلى المدينة وزيارتها لا تعتبر واجبة على كل مسلم مقتدر مثل الحج إلى مكة والوقوف بعرفة؛ بل تُعَد عملًا صالحًا روحانيًا يُثاب المرء عليه. مع العلم أني سمعت من بعض العلماء العرب أنه في حالة ما إذا استطاع المرء تحقيق هذه الشروط الخمسة للحج، يمكنه أن يحصل على لقب حاج، ما عدا الشرط الثاني الواجب تحقيقه وهو الوقوف على جبل عرفة في التاسع من ذي الحجة. الحج عرفة، كنت أسمع تلك الكلمات كل يوم. يمكن التكفير عن كل شرط فائت من تلك الشروط من خلال ذبح شاة، إلا شرط الوقوف بعرفة في التاسع من ذي الحجة. في أي يوم عدا التاسع من ذي الحجة لا يعتبر الوقوف على عرفة أمرًا ذا أهمية، فقط في هذا اليوم يكون هذا الجبل مقدسًا.







الفصل الخامس
(ينبُـع) الإمـبو (El Imbu)

الاسم الإمبو- لوكي كومي(Leuce Come) – و (Der vicus albus oder vicus perspicuus) – و (Der Charm othas) – ينبُع إبان الحكم الاسلامي – رسو السفينة في ميناء ينبُع – سور المدينة – عدد السكان – بدو قبيلة جهينة – عاداتهم القاسية – الطامي، شعب الصيادين – وفرة الأسماك – الأسواق – أكشاك القهوة – حشود من الحِجاج – مشروب من غلي قشر ثمرة القهوة – أشعار عن القهوة – زيارة المسجد – الصلوات – عبارات الذِّكر والتعبد – الرجوع لمتن السفينة – مشهد عراك هزلي

كتب الكُتَاب الأوربيون اسم هذا المكان بطرق مختلفة مثل (Janbo) و[١](Jambo) و(Yanbo) و[٢](Yambo) و(Jenbo) و[٣](Jenbuu) و[٤](Emba) و(Imba) وينبع البحر (Janbo el Bahhr) لتمييزها عن ينبُع النخيل (Janbo en Nachel) التي لا تقع على البحر. هذه هي الأشكال الرئيسة لاسم هذا البلد، ويمكن اعتبارها كلها طرق كتابة صحيحة؛ لأنها جميعًا اشتملت على نفس حروف الكلمة الأساسية. تنطق هذه الأحرف مجتمعة في الألمانية (Janbo) وفي الفرنسية (Yanbo) وفي الإنجليزية (Yunbo). لكن في

١ انظر Ritter، Erdkunde XII، XIII. (المؤلف)
٢ انظر Burkhardt، Travels in Arabia. Londen 1820
٣ انظر Berghaus Arabia und das Nilland. Gotha 1885
٤ انظر Sir Gardener Wilkinson Egypt. Londen 1846

الحقيقة تُنطق الكلمة بطريقة مختلفة تمامًا، ولا يفهم أيٍّ عربي في الوقت الحالي أيّ مكان يُقصد بهذه الكلمة (Janbo). حرف الياء (Jot) متبوعًا بالنصب (الحرف المتحرك A) أدي إلى نطقه ياء غير ممدودة، وحرف النون (N) قبل الباء (B) نُطقا معًا ميم (M)، وحرف العلة الأخير يُنطق قصيرا (U) وليس طويلًا (O) (على الرغم من أنه في اللغة العربية قلّما أمكن التمييز بينهما)، كل ما سبق أدى إلى نطق (Janbo) عند العرب (Imbu). بالإضافة إلى أن العرب يقدّمون أداة التعريف (ال) على أسماء المدن وخاصة تلك التي تبدأ بحرف متحرك؛ لذا تُنطق الإمبو أو ليمبو (لأن الحرف المتحرك في أداة التعريف لا يُسمع)[1]. آثرت في كتابي عن الرحلة أن أعمد إلى طريقة لكتابة أسماء المدن كما تُنطق من سكانها، وهي أصح من الاعتماد على طريقة المستشرقين الأوربيين الذين يستقون معلوماتهم عن اللغة العربية من القواميس فحسب، وليست لديهم أدنى فكرة عن طريقة نطقها.

أمَّا عن يَنبُع في العصور القديمة فلدينا بعض المعلومات التي لا تجعل الرؤية مظلمة ومربكة حول العثور على اسم قديم أيضًا لهذا المكان؛ لأنه توجد ثلاثة أماكن على الأقل من المحتمل أن يكون مكانهم هنا في نفس موقع ينبع وهي (Charmuthas) و(Jambia) أو(Jambia Vicus) و(Leuce Come) أو المدينة البيضاء. طبقًا لمانيرت تقع هذه الأماكن على نفس الخليج (شرم ينبع حاليًا) بحيث تقع (Charmuthas) عند مدخله الشرقي، وكل من (Jambia) و(Leuce Come) عند أحد منافذ البحر في الجنوب. أمَّا عن بطليموس الذي يعرف الكثير عن جغرافية المدن العربية ولم يذكر المدينة البيضاء لوكي كومي، فيبدو أن لهذا الاسم معنى آخر أو يشير إلى مكان آخر. ولكن يُعزى الفضل لمانيرت أنه اكتشف أن لوكي كومي هي نفسها (Jambia Vicus) وهذه المعلومة ألمس صحتها من مشاهداتي الخارجية؛ على الرغم من أن ريتر (Ritter) عارضه واتفق بوخارت مع أنفيللى (Bochart) و(Anville) في أن لوكي كومي هي نفسها (Auara) و(Stephqnus Byzantinus). حاولت أن أجد البرهان على هذا الرأي الأخير الخاطئ؛

١ ورد اسم ينبع في كتب التاريخ في صور متعددة (ينبع) وهو الصواب و (الينبع) أو (الينبوع) وهما تحريف للأول، ويكثر هذا في مؤلفات أهل القرن الثامن عشر فما بعده كالمقريزي والقطبي وابن إياس الحنفي، والنابلسي وغيرهم ويطلق اسم ينبع في العهد الحاضر وقبله بزمن على ينبع الميناء أو ينبع البحر كما يسمى وإذا أريد ينبع النخل قيل ينبع النخل. (المترجمة)

لكني لن أتناوله هنا مرة أخرى؛ بل سأذكر باختصار أسباب اعتبار رأي مانيرت هو الوحيد الصحيح؛ لأن تعليله لرأيه مقنع لي جدًا. يرى مانيرت أن الرحلة بحرًا من السويس إلى ينبع تستغرق في وقتنا الحالي وقتًا أكبر من الذي استغرقه (Aelius Gallus) من هناك إلى لوكي كومي، وذُكر في دليل بحارة البحر الأحمر أن الرحلة تستغرق من برنيس (Berenice) إلى لوكي كومي حوالي من يومين إلى ثلاثة، وهذا لن يكون صحيحًا إذا كانت لوكي كومي هي نفسها (Auara) التي تقع طبقًا لبطليموس خمس درجات شمالًا أكثر من برنيس (Berenice) التي تقع مقابل (Jambia) وعلى نفس خط العرض. لا تستغرق الرحلة بالباخرة من (Berenice) برنيس إلى (Auara) من يومين إلى ثلاثة فحسب؛ بل على الأقل من ستة إلى سبعة أيام. أحب أن أضيف إلى ما سبق من أسباب ما يأتي: ذات مرة ذكر بطليموس أن (Auara) لا تقع على بحر؛ بل قال بالحرف أنها مدينة حبيسة، فالبحر الأحمر بأكمله لا يصل إلى درجة خط عرض (Auara) التي تقع تحت خط ٢٩° ٤٠. فكيف تقع إذن مدينة على البحر والبحر لا يوجد أساسًا؟ بدون خلاف تقع لوكي كومي على بحر، ولا يمكن أن ينطبق عليها ما يجري على (Auara) حيث كونها بلد غير ساحلي، ولقد أوضحنا آنفًا عدم صحة ترجمة اسم (Auara) إلى "البيضاء". إن الرحلة البحرية التي تستغرق من يومين إلى ثلاثة من برنيس (Berenice) إلى لوكي كومي تعتبر أقل زمن عبر البحر الأحمر، وحتى إن ذُكر في الدليل أن السفن كانت تبحر من برنيس (Berenice) شمالًا على طول الساحل، سنجد التعليل عند (Jambia) التي تقع عشرة درجات قوسية شمال برنيس (Berenice) وتنحرف نحو الشمال أكثر من هذه الدرجات؛ لذا قد تستغرق الرحلة من برنيس (Berenice) إلى لوكي كومي أكثر من ثلاثة أيام. أمَّا (Gosselin) فيرى أن لوكي كومي هي (Moila) و(Vinset) يجدها في (Onne)، والحق أن كلا المكانين يمكن اعتبارهما (Auara)؛ لأن موقعهما معروف، أمّا موقع (Auara) فهو محل شك وخلاف. بالطبع تكفي نظرة واحدة على الخريطة لإثبات خطأ هذين الرأيين اللذين لا يتبنى أحدهما أحد. ولكن هذه المشكلة ظلت بالفعل باقية، ففي دليل بحارة البحر الأحمر ذُكر أن لوكي كومي كانت حصنًا ومصلحة للجمارك

للملك مالك النبطيّ، الذي كانت مدينة البتراء هي مقر حكمه، ويؤدي الطريق من هنا إليها مباشرة. في الحقيقة كلما اتجهنا جنوبًا وعند درجة خط عرض ٢٤، لا يمكن رؤية سوى حدود مملكة الأنباط. لكن الحقيقة أنه لا يوجد إثبات على أن لوكي كومي كانت إحدى مستوطنات الأنباط سوى دليل البحر الأحمر، ويكفي تعليل الجغرافي الإغريقي (Strabon) بأن هذا الأمر لم يكن دائمًا بل عارضًا في عصر ازدهار مملكة الأنباط حتى آخر حاكم بطلميّ في مصر، وربما امتد حتى عصر الإمبراطور الروماني أغسطس. كانت للأنباط شوارع اتخذوها مقرات لهم بطول ساحل خليج العقبة وأجزاء من ساحل البحر الأحمر. وهذا أمر يمكن تصور أنه حقيقي أكثر من الرأي الذي يقول أنهم أقاموا لفترات مؤقتة في لومي كومي، وأنهم مدوا الطرق لقوافلهم كما ذُكر في الدليل أنهم وصلوا إلى البتراء. أمّا أن هذا الطريق لم يكن موجودًا في عصر الإمبراطور الروماني أغسطس فحقيقته أنّ (Aelius Gallus) لم يسلك طريق البر وفضّل أن يبحر إلى لوكي كومي وهو الطريق الذي تحفه الكثير من المخاطر، ويُرجع (Starbon) ذلك إلى خيانة الأنباط، وعدم مقدرتهم الفعلية على حماية مقراتهم وشوارعهم. لمّا احتل الرومان البتراء انقرض شعب مملكة الأنباط شيئًا فشيئًا وماعاد يُسمع شيئٌ عن لوكي كومي وامبراطورية التجارة النبطية.

أمَّا عن السبب الرئيس لإصرار معارضي مانيرت على رأيهم، وهو أن حوارة (Ha-wara) هي لوكي كومي، فيرجع إلى اعتمادهم على علم تاريخ الكلمات، وبالأحرى هنا كلمة (Hawara) تعني اللون "الأبيض"، وهذا ما ذكرت سابقًا أنه خطأ ووضحته. ماذا سيقول إذن هؤلاء العلماء حينما أذكر لهم هذه الجملة وهي أن (el Imbu) أي ينبع لها نفس المعنى في اللغة العربية وكذلك أيضًا (λευκό) في اللغة اليونانية؛ ولكن هل ستصلح كل أدلة مانيرت من التحليل اللغوي لتاريخ الأسماء؟ في القاموس اللاتيني- الإغريقي توجد لكلمة (λευκό) بجانب معنى اللون الأبيض إشارة إلى أسماء بعض الأشخاص (Clarus) و(Perspicuus) و(apertus)؛ لذا يمكن الاعتقاد أن لوكي كومي كانت مركزًا تجاريًّا اسمه (vicus perspicuus) وتُرجم بطريقة خاطئة إلى

(vicus albus). فقط في قاموس (Golius، Lexikon arabico-latinum) (Lugd.) (Bat.p.863) نجد الكلمة العربية مُبَيّن(Mubain) التي تُنطق شعبيًّا Embain والتي لها نفس معنى (perspicuus) و (λευκό). من المحتمل أن يكون اسم (el Imbu) في العصور القديمة (Ombain) أي "المكان المميز" أو"vicus perspicuus". نُسيت فيما بعد الأصول اللغوية لهذه الأسماء عندما تدهورت لوكي كومي كمركز تجاري ولم تعد مكانًا مميزًا. ولأن العرب كانوا يطلقون اسمًا له دلالة على كل مكان وقد فقد (Embain) معناه بمرور الوقت، فاختاروا فيما بعد اسمًا أسهل ومشابهًا له وهو ينبوع الذي معناه "النبع"، ونطقه العامة من الشعب (Ombain) أو بالأحرى (Imbu). وكُتب هذا الاسم (Jano) التي معناها "النبع" على الرغم من أنها كانت لا تزال تُنطق (Imbu) الذي يتشابه إلى حد كبير مع (Ombain). أعتقد أن هذا التحليل اللغوي لتاريخ الأسماء هو الأسهل والحقيقي. توجد في الشرق أمثلة كثيرة على الأماكن التي كان لها اسمان عبر العصور، وكلاهما متشابه في طريقة النطق؛ على الرغم من أن معناهما مختلفان. فاسم (Janbo) أو (Inbu) بحرف النون بدلًا من الميم كما تُكتب حاليًا يعتبر أسهل من الكتابة الجديدة، وربما عُرفت هكذا في العصور الوسطى؛ لأن بطليموس هو الوحيد الذي ذكر هذا الاسم وكتب (Jambia Come) وليس (Janbia). إن طريقة الكتابة القديمة بحرف الميم هي التي توافق معنى مُبَيّن (Ombain) أي (vicus perspicuus)، والكتابة بحرف النون التي معناها النبع هي الطريقة الجديدة، والتي وردت عند المؤرخ (Isstachari) الذي عاش في القرن الحادي عشر. وحتى إشعار آخر سأظل عند رأي مانيرت أن (Jambia vicus) أي بقعة ينبوع أُطلق عليها "البقعة البيضاء". كانت تقع ينبع البيضاء هذه مكان ما يُسمى حاليًا (el Imbu) التي احتفظت بهذا الاسم المُحرَّف عبر القرون لأنه لن يخطئ أحد في تقدير التشابه الكبير بين الاسمين (Jambia) و (el Imbu).

قد يكون شرم الإمبو (Scherm el Imbu) هو ميناء (Charmuthas) الذي تحدث عنه (Strabon) و(Diodor) وربما يكون أيضًا (Azotas des Ppmponius Mela) الذي كان أهم المراكز التجارية في بلاد العرب، ويبدو أن هذا المكان الذي

أنزل فيه (Aelius Gallus) نائب الإمبراطور أغسطس في مصر حملته التي تتكون من عشرة آلاف روماني وألف نبطي ضد بلاد العرب؛ ليسلك هذا الطريق إلى داخل الجزيرة العربية: إنها الحملة الوحيدة التي قامت بها روما للاستيلاء على بلاد العرب السعيدة وانتهت نهاية محزنة. لكن لا أعتقد أن (Horaz) قد حذر صديقه (Iccius) من الاشتراك في هذه الحملة.

ما قيل عن عدم خضوع بلاد العرب يعتبر إلى حدٍ كبير صحيحًا أكثر من المقولات الضخمة التي أشاعتها أمثال القدامى التي تحدث عنها الشعراء في كل أشعارهم وفي كل مكان. لقد وصف ديودور ميناء (Charmuthas) بأن مدخله ضيق وداخله عريض جدًا يسع حوالي ألفي سفينة، وهذا مما لا ريب فيه ما يتناسب مع شرم ينبُع.

على النقيض من ذلك يمكن البحث هنا عن (Jambia) القديمة أو البقعة البيضاء في ميناء (Charmuthas)؛ لأن الكتاب القدامى[1] تحدثوا عن هذه المدينة بشكل مباشر مع منطقة الشرم، وهذا يمكن فهمه على أن ينبُع التي تقع على بعد ميل ونصف جنوبًا من الشرم، لا تقع هنا وليست هي المقصودة. لكن لأننا لا نعلم ما إذا كانت توجد آثار على ساحل هذا الخليج (لم يعثر عليها أي رحالة أوربي من قبل) أم لا؛ لذا لا يمكن أن أحسم الأمر في هذا الشأن. من المحتمل أن (Jambia) القديمة كانت تقع على أحد الخلجان وقامت (Jambia) الحديثة مكان ينبُع بعد أن دُمرت القديمة بسبب أحد الزلازل أو في الحروب. توجد في العالم العربي أمثلة شتى على المدن التي اختفت، وكما ذكرنا آنفًا فإنه من المحتمل أن تكون (Jambia) هي لوكي كومي؛ لذا يمكن افتراض أن النبطيين، ذلك الشعب الذي امتهن التجارة، قد اتخذوا من لوكي كومي مركزًا تجاريًا لهم، ومن المرجح أنهم اختاروا ميناء شرم ينبُع ذا الموقع المميز أكثر من ينبُع نفسها الأقل نفعًا لهم في قوافلهم التجارية. كذلك إذا اتجهنا شمالًا بالقرب من عاصمتهم البتراء، نجد الطريق المباشر إلى لوكي كومي. يزعم (Ritter) أن (Jambia) التي أسسها بطليموس هي ينبع النخل حاليًا، التي تقع في قلب محافظة ينبع. أمَّا باقي الأماكن التي ذكرها بطليموس في

١ انظر Nuttia‹ utriueque Dignitatle Imperli Romani. Venetiis 1705. (المؤلف)

القائمة بدءًا من (Onne) أي عين نون حتى جدة، والتي ذُكرت فيها (Jambia) أيضًا فتطل جميعها على البحر، وإذا ما لاحظنا البحر وما تدل عليه أسماء الجبال ومصبات النهر سيلفت نظرنا أن (Jambia) هي الوحيدة بين هذه المدن التي لا تطل على البحر.

كانت يَنبُع (El Imbu) في عهد الرسول مقرًا لكثير من الدويلات اليهودية وكانت مركز الحكم السياسي آنذاك للملكة اليهودية اليمن[1]. احتل اليهود المدينة القديمة يثرب (المدينة حاليًا) ونجحوا في استمالة قبيلة الخزرج لدينهم، ذلك الدين الذي لم يأخذ منه هؤلاء العرب سوى عقيدة مجيء الماشيح، وهي أحد مبادئ الإيمان اليهودي؛ وبذلك كانوا ينتظرون نبيًا لهم سيأتي من أكبر القبائل وهي الخزرج. من الراجح أن سكان ينبع كانوا من أوائل الذين اعتنقوا الإسلام.

ترجع أهمية ينبُع إلى الحقبة التي اتُخذت فيها ميناءًا للمدينة لأول مرة، فأقدم جغرافيّ عربي معروف هو الإصطخاري (el Isstachri) الذي عاش في القرن العاشر الميلادي لم يذكرها كميناء لمدينة الرسول. لقد تكلم فقط عن ينبع النخل التي تبعد ثلاثة أرباع ميل عن ينبُع، وتقع في قلبها. أمَّا الجغرافي العربي الإدريسي[2] (Edrisi) الذي عاش عام ١١٥٠ في بلاط الملك روجر فلم يعرف شيئًا عن ميناء ينبُع، والكردي أبو الفدا[3] (Abu ul Feda)، الذي لم يتورَّع في رحلاته الحكومية كحاكم مستقل في سوريا (١٢٧٣-١٣٣١) أن يكتب أفضل جغرافية عربية، ذكر ينبُع فقط كدويلة صغيرة. وفي هذا الوقت كان الجار وهو ما يُعرف بالبركة حاليًا، ميناء المدينة المقدسة.

في أواخر العصور الوسطى ظهرت ينبُع تدريجيًا بمينائيها، الأول يقع مباشرة على سور المدينة والثاني الأكثر أهمية ويقع على بعد ميل واحد في اتجاه الشمال وهو شرم ينبُع، الذي كان اسمه في العصور القديمة (Charmothas)، وهو أقرب لمدينة الجار[4] (Dschar)، التي تقع على بعد سبعة أميال ونصف جنوبًا واندثرت أهميتها كميناء ومحطة

١ انظر G. Well، Mohamed der Prophet. Stuttgart 1848، S. 71. Und 410-12. (المؤلف)

٢ Edrisi، Noshat el Muschtak oder Geographische Unterhaltung. Göttingen 1796. (المؤلف)

٣ انظر Abulfeda Geographie، Arabischer Text. Paris 1840 (المؤلف)

٤ تقع الجار على بعد حوالي ١٠كم شمال بلدة الرايس بالقرب من ينبع. و يرى بعض الباحثين أن موقع الجار هو ميناء "البريكة" الواقعة بين الرايس و ينبع. (المترجمة)

هامة للحجاج في المدينة. يعتبر ميناء ينبُع حاليا هو الميناء الوحيد لمدينة الرسول، ولم يبق من الجار سوى أطلال الميناء القديم.

كانت المدينة تبعد بضع خطوات عن الميناء الذي وصلت له السفينة مما أغراني بزيارتها. كان حب الاستطلاع هو دافعي الوحيد لهذه الزيارة؛ إذ أني كنت قد تمكنت بالفعل من شراء المواد الغذائية اللازمة لي من الميناء؛ لأن به سوقا صغيرة. لكن يجب أن أعترف هنا أن حب استطلاع رفقائي في الرحلة وفضولهم كان أخطر بكثير؛ لأن مفهوم حب الاستطلاع عند العرب يعتبر رذيلة عند الأوربيين. لذلك هممتُ بزيارة ضريح أحد النُسَّاك. لحسن الحظ كان يوجد أحد الأضرحة في ينبُع وكان لعليٍّ الكبير بن أبي طالب، حفيد صهر النبي، الذي كان يحكم البلدة المجاورة ينبُع النخيل. علمت عن وجود هذا الضريح من أحد المكيين الذي لم يكن يُجلّ هذا الناسك لأنه من المحتمل أن يكون أحد أئمة الشيعة يقدسونه ويجلُّونه، ولكن بعض المسلمين المتشددين كانوا يزورون هذا الضريح أيضًا؛ لذلك لم تكن رغبتي في الذهاب إليه أمرًا غريبًا. لم أجد أحدًا من رفقاء الرحلة مستعدًا لصحبتي في هذه الجولة؛ لذا عزمت على القيام بها بمفردي، ولم يصاحبني سوى عليّ الزنجيّ؛ بالأخص لأنه اقتنع بسبب جهله الفطري أن عليًّا بن أبي طالب صاحب الضريح شفيعه، وأنه كان ينوي زيارته فاهتزت درجة إيمانه أمام باقي الحجاج.

لَّما رست السفينة في ميناء ينبُع استقبلتنا مجموعة من موظفى الجمارك الأتراك الجشعين الذين كان يجب عليَّ رشوتهم ببعض القروش؛ على الرغم من أنه لم يكن معي شيء يستوجب الجمارك؛ ولكن كي يتركونا في هدوء نواصل رحلتنا. عجبًا للحجاج المساكين الذين يُنهبون في كل فرصة.

وجدنا في ينبُع حالة من التدهور المزري مثل سائر المدن العربية؛ فعلى الرغم من صلاحية كلا الميناءين وصلت درجة رواج التجارة بهما للصفر. فقط في موسم الحج كان يأتي بعض الحجاج ويبثون الحياة من جديد في مواصلاتها المندثرة. كانت أيضًا بعض القوافل الكبيرة والصغيرة تمر أسبوعيًا من ينبُع إلى مدينة الرسول.

أعطى الموظف التركي الذي كان يعتبر أعلى هيئة إدراية في الميناء لنفسه الحق في تحصيل خمسة وسبعين قرشًا ضرائب من كل سفينة ترسو في ميناء ينبُع؛ وبسبب هذا العبء الضريبي الثقيل اشتكى الكثير من أصحاب السفن لدى الحكومة، فأوكل الباب العالي الأمر لشريف مكة للنظر فيه، فشرَّع بندًا آخر للضرائب يتم تحصيلها من أصحاب السفن بحجة إلغاء القديمة هذه التي اشتكى التجار منها. لم يجن أصحاب السفن أي مكسب من جرّاء هذه الضرائب الجديدة سوى أنهم صاروا يدفعون نقودهم للعربيِّ بدلًا من الموظف التركي، وهذا في حد ذاته ضرب من الترضية لهم.

كان سور مدينة ينبُع مهدمًا إلى حد كبير (حُطم السور في أحد الحروب ضد محمد على والي مصر)، وكانت البيوت مبنية من الحجارة، وبعضها من الطوب الهوائي. كانت المادة الأكثر وفرة هي الأحجار المرجانية. تكونت البيوت هنا، ما عدا بعض الخانات نصف المهدمة وبعض المساجد وقصرين بهما المكاتب الإدارية، من طابقٍ واحد وعلى هيئة تل له شكل حيوان الخُلد، وعلى خلاف ما هو معتاد عليه في البلدان العربية كانت البيوت مطلية باللون الأبيض. هذان القصران، اللذان يخص أحدهما الحاكم التركي الذي كان اسمه (محافظ)، أمَّا القصر الثاني فكان يقطن فيه شريف مكة الذي ينحدر من قبيلة جهينة، لم يبق منهما حاليًا سوى أكوام حطام مثل نصف بيوت ينبُع تقريبا. كما تصادفنا بوابتان يمكن من خلالهما الخروج من هذه المتاهة والفوضى إلى الصحراء، وهما باب القاهرة في الشمال وباب المدينة في الشرق؛ ولأنهما ظلا نصف مهدَّمين كانت توجد بعض المواضع التي يمكن من خلالها إيجاد مخرج من المدينة، كما كان من الممكن الوصول إلى المدينة من خلال بعض المنافذ، واستخدام بعض قطع الحطام والحجارة كسلالم.

تتكون محافظة يَنبُع من مدينتين صغيرتين يفصلهما عن بعضهما خليج، الأولى وهي ضاحية ينبُع واسمها (Rabad ei Kad) ويسكنها الصيادون وأصحاب السفن، والثانية تعتبر هي المدينة الرئيسة. طبقًا لتقديري يبلغ عدد سكان المدينتين حوالي أربعة آلاف مواطن، وأعتقد أن هذا التقدير أكبر من العدد الحقيقي. ويسكن ينبُع في المقام الأول البدو من قبيلة جهينة (Dschehina) التي يعمل أفرادها بطول الساحل؛ لكنهم ليسوا

شعبًا متحضرًا؛ بل من أهل الريف الذين استوطنوا هذه البلدة كمرحلة انتقالية، على الرغم من أن هذه الفترة الانتقالية امتدت لأجيال متتالية. لكنهم يختلفون جذريًا عن باقي ساكني المدن وعن سائر المواطنين السلميين من خلال ما ذكرته سابقًا، وهذا يبدو لي في منتهى التناقض، إلا أنها الحقيقة. كانت ملابسهم مثل سائر ثياب البدو في المنطقة المحيطة بهم، ولا يوجد ما يتميزون به عنهم، فقد كانوا يرتدون العباءة وهي عبارة عن معطف طويل من الصوف مقلّم أبيض في أسود يأتون به من سوريا، وتحتها الكميجة (Kamidscha) وهي عبارة عن قميص قصير من القطن، ويلفون على خصرهم الحزام الجلد وبه عدة مخابئ للخنجر المقوّس اسمه الجنبية (Dschenbia). ويسدلون على رأسهم الكوفية وهي عبارة عن غطاء للرأس عادة ما يُصنع في سوريا من الحرير، مُقصَّب بالأحمر والأخضر والذهبي وتنتهي أطرافها بعدد صغير من الشرائط والعُقد الحريرية، مما يجعل الكوفية تتحرك ويستخدمونها كمنشة للذباب.

الأمر المثير حقًا للدهشة هو تشابه ما يرتديه العرب من ملابس مع ملابس العصور القديمة؛ فالعباءة، ذلك المعطف الطويل الذي ذكرته توًا، واضح جدًا تشابهه مع (Abolla)[1] وطبقًا للطول قد تكون قصيرة أو طويلة مثل معطف فلاسفة الإغريق (Mart. Ep. IV، 53). ويبدو أن لفظة عباءة قد أُشتقت من (Abolla). أمَّا الجنبية (Dschenbia) أي خنجر البدو فيتشابه مع (Machaera) في اليونان، والكوفية غطاء الرأس، فهي مما لاشك فيه (Theristurm) الذي كانت النساء في اليونان ترتدينه للوقاية من أشعة الشمس (Theocrit XV, 69). هؤلاء البدو يتسمون بغلظة القلب والخشونة، ويعيشون في خصام وعراك مستمر فيما بينهم؛ لأنهم توارثوا فيما بينهم عادة الثأر، لا يحبون الغرباء، ولا يحبذون سكن أحد الأتراك أو عرب الحضر في ينبُع. لقد اعتادوا على مضايقة الغرباء لدرجة تجعلهم لا يطيقون العيش في وطن هؤلاء البدو فيرحلون. في أغلب الحالات لا يتزاوجون سوى من قبيلتهم؛ لأنهم يعتبرون أنفسهم ينتمون للعرق النقي، ويعتبرون أي دم غريب من العامة. ومع ذلك كان يحدث في بعض الأحيان أن

١ Juvenal IV, 76, Martial Ep. VIII, 48

يتزوج أحد سكان ينبُع امرأة مكيّة، وقد تؤدي هذه الزيجة إلى النظر إلى النسل الناتج منها على أنه مساوٍ لأولاد البدو ذوي الأصل النقي؛ على الرغم من المكانة الكبيرة التي يحتلها أطفال مكة المولودين في قبائل عربية أخرى. لا يشتغل سكان ينبُع الأصليين أبدًا بالتجارة. يعيش السكان الأصليون في ينبُع على إيرادات محصول حدائق النخيل، ويحتقرون التجار الذين يتعاملون مع مالكي هذه الحدائق في كل البلاد؛ لأنهم في الغالب غرباء من الهند أو مصر ويقيمون في ينبُع لسنوات قليلة فقط.

لا يُسمح لغير المسلمين بالإقامة في هذا الميناء الخاص بمدينة الرسول المقدسة. لقد أبقى ساكن ينبُع الأصلي داخله على بعض صفات البدو؛ حيث أنه لا يقيم فيها للأبد دون ترحال إلى مكان آخر. فهو يقيم بين ينبُع النخيل حيث يكون بالتأكيد في الريف وينبُع البحر حيث يوجد الميناء. وحينما تراه عائدًا من الريف متلفحًا معطفه ذا الثنيات، حاملًا بندقية الصيد على ظهره، يمر على محلات التجار كارهًا لهم، تحسبه ملكًا يتفحص رعيته وزمرته.

لم ينتشر الثراء بين ساكني ينبُع وكذلك حالة الرفاهية وهناء العيش بشكل عام، والتي تحدث عنها الرحالة الذين سبقوني إلى هنا مثل (Burkhardt) و(Wellsted) و(Rüppell) ولكن كان الوضع الاجتماعي السائد في الشرق عبارة عن حالة وسط تجمع بين الفقر المدقع والطبقة المتوسطة الراضية بما هي عليه. فطبقًا لتصوراتي من الصعب أن نجد هنا في ينبُع ثلاثة أشخاص يمتلكون ألفي ريال (حوالي ثلاثة آلاف تالر). فعلى النقيض من ذلك أدى الاكتفاء في الإنفاق لدى هؤلاء البدو إلى عدم شعورهم بالحاجة أو بحالة الفقر التي يعيشون فيها. فقد كان يكفيهم لقوت يومهم بعض الأرز والسمك والخبز والتمر. كان السمك هو غذائهم الرئيس بسبب الكميات الكبيرة التي كانت تُباع في السوق.

كان سوق السمك أول شيء مثير جدًّا يصادفني خلال جولتي في ينبُع لسببين: أولهما بسبب البضائع المعروضة للبيع فيه، التي تختلف تمامًا عمَّا اعتاد عليه الأوربيون، وثانيهما هو أصالة البائعين أنفسهم. فهم ليسوا من سكان ينبُع الأصليين؛ ولكن مثل بيئة صيادي باقي البلدان لهم ما يميزهم. يطلق العرب عليهم الطامي (et Tämi) ذلك الاسم الذي يذكرنا بما كان يوجد أيام بطليموس (Temi) الذين كانوا يمارسوا الصيد

في الخليج الفارسي وليس في البحر الأحمر. لكن هذا لا يمنع وجود صلة قرابة بينهما لأن البحرين يقعان بالقرب من بعضهما، وتوجد دائمًا وسائل مواصلات كثيرة تربطهما معًا. ذكر ديودور طبقة الصيادين في هذين البحرين وأطلق عليهم اسم آكلوا السمك. (Ichthyophagen) في دليل البحر الأحمر ذُكر وجودهم أيضًا في الخليج العربي تحت اسم(Kanraiten)، كما ترك لنا الجغرافيّ العربي الإدريسي وصفًا كاملًا لهم لا زال يناسب مبادئهم وسماتهم الرئيسة حتى اليوم على الرغم من مرور سبعة قرون على ذلك.

لم تعد الطامي تسكن في الكهوف والشقوق على البحر كما كانوا ايام ديودور؛ بل أضحت لديهم أكواخ لاستضافة المسافرين وخيام من النوع الذي يسمونه (kemli) كيملي والتي لا تتعدى مكوناتها أعمدة ممدودة في الأرض مفروش عليها فرو الماعز للحماية من أشعة الشمس. كانت قبيلة الطامي تسكن في أماكن متفرقة بطول ساحل البحر الأحمر حيث يقيمون في أحب المناطق إليهم وهي الجزر المنتشرة فيه، ويبيعون بضاعتهم في الأسواق الرئيسة التي تُقام في القُصير وجدة. ويرتدي أفراد قبيلة الطامي في الوقت الحالي القميص الطويل ذا الثنيات، لونه أبيض أو أزرق مصنوع من القطن الخشن الذي نراه عند الفلاحين المصريين، بدلًا من السير عراة مثلما كان حالهم في العصور القديمة طبقًا لما ذكره ديودور. أمّا في أقدامهم فلم يكونوا يرتدون حذاءًا؛ بل نوعا من الصنادل مصنوع من جلد أحد الأسماك الكبيرة اسمها بقر البحر النجمي (Halicore) (Manati) وهو نوع نادر جدًا من الأسماك. لهذا السبب تحتل صنادلهم هذه مكانة كبيرة عندهم. على أيّة حال فإن كلمة صندل (Sandala) تعتبر هنا كناية لأنها كانت عند الطاميين لا تتطابق مع الصندل المعروف منذ العصور القديمة؛ بل يناسب أكثر نعل (Solea)الذي أشار إليه (Aulus Gellius) (XIII, 21) والذي يتشابه مع أحذية الرهبان الكبوشيين. أمّا لون بشرتهم فكان داكنًا جدًا وأقرب للون الأسود؛ على الرغم من عدم وجود أصول زنجية لهم، ومظهرهم الخارجي كان وحشيًا وبربريًا.

يحتقر العرب الذين يعيشون على البر الصيادين بلا حدود، ويلصقون بهم أبشع التهم والصفات؛ على الرغم من أنهم أنفسهم لا يحق لهم قذف غيرهم بالطوب؛ لأنه يكاد لا

يوجد شيء تملؤه العيوب أكثر من العربي الأصيل. لكن سبب احتقار العرب للصيادين يرجع إلى قصة لا يفوتني أن أذكرها هنا. تعود القصة إلى الرسول محمد نفسه، ذات مساء عندما وصل عندهم أثناء تجوله على ساحل البحر الأحمر ونزل ضيفًا عليهم، قدم له هؤلاء الأوغاد كلبًا مشويًا أو مطهيًا فغضب النبي جدًا واستاء منهم ولعن كل أفراد القبيلة، وطلب من أصحابه ألاَّ يجلسوا أبدًا على مائدة واحدة مع أكلة الكلاب، وألا يتعاملوا معهم أبدًا. وعلى الرغم من أن هذه القبيلة قد أسلمت ولم تعد تأكل الكلاب؛ إلا أن أثر اللعنة عليهم سيستمر أبدًا. لو كان الرسول قد رأى في الجزائر أهل ولاية بسكرة الذين لا يزالون يأكلون هذه الحيوانات النجسة طبقًا للإسلام، للعن حتى كل ماسح للأحذية في هذه الولاية. لقد تعاملت مع هؤلاء الصيادين ووجدتهم فعلًا مقبولي الطباع وأكثر تهذيبًا في التعامل من عرب البر والبدو. ومن المؤكد أنهم أقل خداعًا للحجاج المساكين الذين كانوا يدفعون أضعاف الأثمان الحقيقية في كل مكان، حتى في سوق السمك.

كان سوق السمك يبدو جيدًا على غير العادة، والسبب يرجع لكونه المحطة الرئيسة لبيع السمك في البحر الأحمر. كان النوع السائد بين أنواع السمك الجيدة هو الماكريل، كما لاحظت وجود ثلاثة أنواع من هذا السمك لم أكن أعرفها من قبل، وهي سمك اللسان(Lysan) (Missiäf, Lisan Scomber) وهو عبارة عن سمكة طويلة لونها فضي لها ظهر منحني ولها أسنان صغيرة، يغطيها عدد قليل من القشور، والنوع الثاني الريم (Scomber Rim) وهو عبارة عن سمكة بيضاوية الشكل فضية اللون، لها أسنان ذهبية وظهرها مستقيم وتوجد أسماك من هذا النوع بلا أسنان، النوع الثالث هو سمك الكيرم (Kirm) (Scomber ignobilis) وكانت موجودة منها كميات كبيرة ويشتريها الفقراء. كانت توجد كذلك السمكة الببغائية (Scarus) التي لها أنواع كثيرة مختلفة وبالأخص (Scarus stellatus) التي لها قشور كبيرة تتدرج ألوانها الكثيرة والمتعددة؛ فاللون الأساس لامع براق مخطط باللون الأحمر الأرجواني، ولون بطنها لون زرقة السماء، أمّا الزعانف فكانت حمراء. على أيّة حال لحم هذه الأسماك الببغائية جامد ولا يفضلها الكثيرون ولم تكن تُباع سابقًا. كذلك كان يوجد في السوق سمك الربيب (Caranx).

من بين أنواع هذا السمك التي كانت معروضة للبيع في هذا السوق رأيت (Carnax Tra-churus) أو ما يُسمى بـ(Bastardmacrele) التي تتشابه مع فصيلة الإسْقُمريّ وتختلف عنها فقط في عدم وجود الزعانف على الذيل ووجود خطوط طويلة على الجانبين مكسوة بالقشور. أمّا نوع (Scomber carangus) أو على الأقل النوع المشابه له، فكان موجودا هنا أيضًا؛ لكنني لم أندهش لذلك؛ لأن البحر الأحمر به وفرة من هذه الأنواع مثل خليج المكسيك، حيث تكثر أنواع (Carang)أيضًا. هذا النوع الجميل من السمك لونه فضي ويحبه العرب كثيرًا. من الأنواع التي وجدتها أيضًا في هذا السوق (Caranx glaucus) و(Bastardcarangen). كان يُباع نوع (Carangen) بأثمان أرخص من الماكريل لأن العرب لم يحبوا طعمه. فقط العارفون بأنواع الأسماك هم وحدهم مَن يستطيعون التمييز بين أنواع (Caranx) و(Scomber) وكثير من الحجاج الذين كانوا يأتون من أفريقيا لم يكن في استطاعتهم إدراك الفرق بين هذين النوعين؛ لذا كان يبيع التجار لهؤلاء الحجاج الطيبين سمك (Bastardcarange) على أنه أجود أنواع الماكريل. كان يوجد في هذا السوق أيضًا سمك (Aspisurus) وكذلك رأيت أنواعًا من سمك (Dicope).

غادرت سوق السمك واتجهت إلى داخل المدينة؛ حيث وصلت إلى السوق (البازار) من خلال أحد الشوارع الضيقة المتعرجة القذرة وغير المرصوفة، بدت البيوت فيه غير مأهولة بالسكان وتكاد تكون حطامًا. كان أكثر البائعين في هذا الشارع من الأجانب، أي ليسوا من أهل ينبُع الذين كانوا يحتقرون التجارة. بدت على بدو جهينة سمات المحاربين المحبين لوطنهم؛ لذا كان التجار الغرباء بجوارهم فقراء وبلا هيبة، خاصة أن الأغنياء منهم كانوا يرتدون القميص المصري ذا الثنيات والمصنوع من القطن المصري كفلاحي مصر. في بعض الأحيان كان يظهر أحد الهنود المسلمين مرتديًا البنطلون الطويل الممزق والقفطان القديم. أمّا أهم ما كان يميزهم جميعًا، فهي العصا الطويلة يمسكونها باليد اليمنى؛ لأن الدفاع عن النفس هنا في السوق هو قانون الضرورة للأجانب المساكين أمام خنجر البدو الذين كانوا يعتبرونهم من الطبقة الدنيا. كان هذا السوق تقريبًا مثل باقي الأسواق في المدن الصغيرة به المواد الغذائية والأشياء الضرورية فقط؛ لكنه لم يكن

مثل أسواق القاهرة والإسكندرية وإلى حد ما مكة به السلع الفاخرة. على الرغم من أننا كنا إلى حدٍ ما في بداية العام (منتصف مايو)؛ إلا أن دكاكين الفاكهة كانت مملؤة بفاكهة الصيف اللذيذة، فوجدنا التين والرمان والموز والبرقوق والمشمش. كذلك البرتقال والليمون الحلو لكنهما كانا مرتفعي الثمن. لم أستطع للأسف شراء فاكهة النبق (-Rha muns Lotus) لأن موسمها كان قد مضى منذ شهرين. على الرغم من أني لا أعتقد في رأي بوركهاردت أن هذه الثمار هي حقًا نبق اللوتس التي كانت في العصور القديمة؛ لأن شجر النبق هذا لا ينمو في تونس وطرابلس وفي هذه النواحي التي تقيم فيها قبائل اللواتة، فأنا أرى أن ثمار نبق اللوتس التي كانت في عهد اليونانيين كانت عبارة عن البلح لذا كنت شغوفًا أن أتذوق هذه الثمار. تُباع هذه الثمار غالبًا في الأسواق في شهري فبراير ومارس. أمّا البلح فقد كان موجودًا في هذا السوق بكميات كبيرة، وكانت الكميات المعروضة للبيع هنا يأتي بعضها من المدينة ومن الأماكن العامرة بالنخيل في المناطق المجاورة لها مثل ينبُع النخيل حيث توجد حدائق نخيل أهل ينبُع. كانت ثمار البلح هذه صغيرة الحجم، فاتحة اللون ولها طعم حلو رائع. اعتاد الحجاج على شراء كميات كبيرة من هذا البلح، ويفسدون معدتهم بأكل كميات كبيرة جدًا منه، حيث يعاني الكثيرون منهم من عسر الهضم. أمَّا في دكاكين بيع اللحوم التي كان يمتلكها الأجانب (في الغالب هم المكيون والمصريون وذكر بعضهم لي أنهم الوهابيون) فقد لفت نظري تفضيل العرب لإلية الخراف السمينة وشراؤها. لقد رأيت في بلاد العرب أنواعًا كثيرة من الخراف لها ذيول جميلة ولكن لم أر قط خروفًا يجر عربة صغيرة كما كنا نرى هذه الصور في كتب الرحلات القديمة. سألت الكثيرين عن هذا الأمر، ولكن لم ير أحد هذه الخراف التي تجر عربة، حتى أني صدقت أنها مجرد خرافات. فقط بدويّ واحد حكى لي أن أحد زعماء القبائل في اليمن قد ربط عربة صغيرة في مؤخرة أحب الخرفان له. ربما كانت هذه العادة منتشرة في أجزاء أخرى من جزيرة العرب؛ ولكني لا أعتقد ذلك.

لم تكن توجد في السوق بضائع أخرى ذات أهمية بخلاف المواد الغذائية. أمَّا اللآلئ التي كانت فيما مضى يؤتى بها من مدينة مُصوع وأماكن أخرى على طول ساحل البحر

الأحمر؛ لتُباع هنا في السوق، فقد أصبحت نادرة جدًا في العصر الحالي. لكني لم أر منها أي شيء هنا؛ لأني كنت أشتري أشياء أخرى من السوق كانت ضرورية لي ولم أكن اشتريتها بعد، وهي عبارة عن موقد صغير يمكن حمله للطبخ، صُنع ليحمله الحجاج معهم في رحلتهم، يطلقون عليه اسم الكانون. هذا النوع من المواقد يُصنع من طين لونه أصفر، ويصنعها زنوج من مُصوع والحبشة. تعتبر هذه المواقد من أثمن ما يمتلكه الحجاج بسبب وزنها الخفيف وسهولة حملها. لقد دفعت من أجل أحد هذه الكوانين خمسة قروش أي حوالي ستة وثلاثون كرويتزر، وأستطيع أن أقول أن ما اشتريته ودفعت فيه نقودي كان بلا جدوى، بخلاف هذا الكانون الذي قدم لي أنفس الخدمات أثناء رحلة الحج. فبفضل هذا الكانون أصبح في إمكاني أن أشرب القهوة والشاي دائمًا وأستمتع بالتدفئة الناتجة عن إعداد القهوة؛ لأني كنت بعد ذلك تقريبًا نصف عارٍ في ملابس الإحرام؛ وعلى الرغم من هذا الجو الحار هنا؛ إلا أني كنت أشعر بالبرد بسبب هذه الملابس. إن الدفء الذي كان يسري في جسدي كان بسبب الحرارة التي تنبعث من هذا الكانون أثناء طهي القهوة والشاي، لقد أنقذني هذا الكانون حقًا من التجمد في ملابس الإحرام هذه، ويرجع إليه الفضل في الحفاظ على صحتي.

كان يوجد في السوق، بخلاف الدكاكين التي وصفتها فيما سبق، عدد كبير جدًا من أكشاك القهوة في أكثر الأماكن أهمية كما هي العادة في سائر مدن الشرق. لم تكن من العادات السائدة هنا أن يجلس أعيان البلد والرموز الدينية فيها في هذه الأكشاك لاحتساء القهوة، كذلك كان الحرفيون المحترمون وصغار التجار يتحاشون الجلوس في أكشاك بيع القهوة؛ حيث لا توجد بالفعل إلا طرق الكلام السوقية، ولا يوجد إلا المومسات والقوَّادون يمارسون حرفتهم هناك. أمَّا الأُناس الأكثر احترامًا بين العرب، الذين يريدون احتساء القهوة ولا يريدون تحضيرها بأنفسهم، فكانوا يذهبون إلى أحد معارفهم من الحرفيين أو التجار ويطلبون القهوة تأتي من المقهى المجاور عن طريق صبي المعلم. أمَّا الحجاج المساكين فلم يكن لديهم معارف أثناء رحلة الحج، وعندما يريدون الجلوس

في أحد الدكاكين لشرب القهوة، كان عليهم شراء المزيد من البضائع للاستفادة من هذه الميزة. لذا لم يبق لهم سوى الجلوس في هذه المقاهي سيئة السمعة.

لكن مما لا شك فيه أنه ليست كل المقاهي لها نفس السمعة السيئة وليست دائمًا مثل تلك التي تقع عند مدخل السوق ويزورها الرعاع والأوباش. كذلك في ينبُع كانت توجد مثل هذه الأكشاك التي كان يزورها عدد قليل من الرعاع بسبب موقعها. دلفت إلى أحد هذه الأماكن أنا وعليّ والذي على الرغم من شوقه لزيارة ضريح الوليّ؛ إلا أنه رحب بشربنا للقهوة واعتبرها تدهورًا مقبولًا في رحلتنا الورعة هذه. كان هذا المقهى يتكون مثل باقي المقاهي في ينبُع من جذوع النخيل، ويتكون من قاعة واحدة منخفضة، يجلس فيها الزوار على مقاعد على الأرض من خشب النخيل، وتسع أربعين شخصًا كانوا مزيجًا من كل شعوب البلاد الإسلامية. لحسن الحظ لم يكن بينهم أي مغربي كما لاحظت من أول نظرة لي على المكان من خلال تفقدي السريع للبرانس التي كانت معلقة في الصالة، فقد اعتدت في كل مكان ارتاده أن ألقي نظرة سريعة على المكان الذي تُعلق فيه هذه القطع من الملابس. ربما يعرف القارئ أن البُرنُس أو البِرنُس أهم ما يميز الرجل المغربيّ (التونسي، والجزائري والمغربي) ولأني قدمت نفسي على أني من سلالة العرش الملكي في الجزائر، كنت أخاف دائمًا أن يكتشف أحد هويتي المزيفة كجزائري وصفتي الحقيقية أني كافر؛ لذلك كنت أتحاشى أي احتكاك مع الجزائريين. أمّا بعض المسلمين الذين رأوني بالملابس المغربية وأتحدث اللهجة الجزائرية فلم يكن في استطاعتهم اكتشاف أمري؛ لأنهم لم يفهموا جيدًا الفرق بين طريقة نطقي واللهجة المغربية الحقيقية. كانت الغالبية العظمى من الحجاج من المصريين، كان القفطان الضيق الذي يرتدونه على ثيابهم يميزهم عن باقي العرب الذين يرتدون العباءات والذين يأتون من المدينة ومن باقي المدن داخل منطقة الحجاز. هذا الزي الرسمي لعرب الحضر، والذي سأتحدث عنه بالتفصيل فيما سيأتي في الفصل الخاص بمكة، يجعل من يرتديه تبدو عليه الهيبة والرشاقة. أمّا أغطية الرأس التي كان يرتديها الحجاج الأعاجم (الفرس) فقد بدت أقل رشاقة بشكلها الذي كان على هيئة أقماع السكر والمصنوعة من صوف الخراف، وهذا ما يميِّز

ملابس الأعاجم في كل أنحاء العالم. على أيَّة حال كانت ملابس الأعاجم في مجملها جميلة للغاية، فالقفطان كان له ذوق رائع في قصته، وأحذيتهم لها أشكال جميلة أخاذة ومن خامات جيدة. وكان للرجال البالغين منهم لحية لونها أسود فاحم؛ ولكني سمعت أنهم يصبغونها بألوان صناعية؛ لأن الفرس كانوا متقدمين في إنتاج صبغات اللحى. أمَّا بعض الزنوج الذين أتوا من الشواطئ المقابلة للخليج العربي فقد ظهروا هنا بين هذا الحشد من الحجاج بملامحهم الداكنة وأسنانهم الناصعة البياض.

بعدما وجدت مكانًا أجلس فيه في المقهى بلا عناء (جلس عليٌّ الزنجي على الأرض وكان يشبه في طريقة جلسته هذه الكلاب المنتظرة) جاء القهوجي وسألنا هل يحضر لنا فنجاني قهوة. كنت سأوافق على الفور بلا تردد إن لم أتمنى تجربة أي مشروب آخر غير القهوة التقليدية. كنت أود أن أجرب مشروب قشر القهوة وهو مشروب من قشور القهوة وليس من حبوب القهوة وهو مشروب مشهور هنا في نواحي مكة ومنه نشأت قهوة موكا التي تُشرب فقط في بعض النواحي عن طريق غلي قشر حبوب القهوة. كانت قشور القهوة نادرة في الحجاز؛ لأن أشجار القهوة لم تكن تنمو هنا، وبالتالي لا يمكن الحصول على قشور حبوب القهوة الطازجة دائمًا للحصول على مشروب جيد بعد غليها. إلا أنه كانت تُجلب قشور القهوة إلى الحجاز ولكنها تصل جافة لذلك لم يكن دائمًا مشروب قشر القهوة طيب المذاق. لكني كنت شغوفًا أن أجرب هذا المشروب مرة، واستمتع به، فسألت القهوجي هل عنده قشر القهوة. لحسن حظي كان لديه بعض القشر وأبدى استعداده أن يحضر لي فنجانًا من مشروب قشر القهوة. أمَّا عليٌّ فكان يفضل القهوة التقليدية ولم تصبه عدوى سيده أن يجرب مشروبًا جديدًا. كان القشر الذي استخدمه القهوجي لصنع المشروب عبارة عن أوراق رقيقة لونها فاتح، وهي الطبقة الخارجية لثمرة القهوة التي تحوى كل منها حبتين من القهوة. عندما تكون الثمار طازجة تشبه حبة الكريز؛ لذا أطلق عليها العرب حب الملوك. أصبح الشراب جاهزًا لأن تحضيره سهل جدًا حيث لا يجب سوى غلي القشر فقط. وجدت طعمه عاديًّا ولونه باهتًا على الرغم من رائحته التي تشبه القهوة ولكنها هنا أقل تركيزًا منها.

في حالة تحضير المشروب من غلي القشر الطازج تكون رائحته طيبة وأخف تركيزًا من القهوة؛ لذا يفضله الناس على القهوة. بعدما انتهيت من تجربة المشروب الذي كان مجهولًا لي، طلبت القهوة التي كنت جربتها من قبل، وارتشفت بعض فناجين القهوة التي تختلف هنا عن السائل الخفيف القوام الأسود الذي كنت أشربه في الجزائر، أو ما يطلقون عليه بالفرنسية (Cafe avec cognac) الذي يعتبر الشراب الوطني المفضل، الذي يُمزج مع الهندباء البرية وعدة بدائل أخرى تبلغ نسبتها تسعة أعشار الشراب. توجد في ألمانيا وفرنسا أيضًا وسائل للتقوية (العرب يسمون القهوة في الأساس القوة "Kua" أي التقوية)، فمثلًا يمكن شرب مزيج من الهندباء البرية وغبار الفحم؛ لكن في بلاد العرب حيث يحرم شرب الكونياك والخمر والنبيذ، يُفضل أن أشرب مشروبًا آخر مزيفًا للاستقواء وهو القهوة؛ لاستمداد القوة الضرورية منه. لذلك كنت استمتع دون لذة غامرة بشرب هذا المشروب الأسود المادي، الذي تفوح رائحته هنا في المكان وله طعم مقبول دون إضافة السكر له كعادة العرب في الجزيرة العربية. فقط الأتراك وبعض الحجاج من الدول التجارية الكبرى يخلطون القهوة بالسكر، وحينما يتعمق المرء أكثر في حياة الشرقيين وعاداتهم سيعرف أي مكانة تحتلها القهوة في ثقافتهم الاجتماعية، وسيصاب بعدوى حماسهم لذلك المشروب، وسيوافق هذا الشاعر في كلماته التي أنشدها عن القهوة:

يا قهوتي، أنتِ تمحي داخلي قلقي،
منحكِ الله للإنسان،
كصباحٍ دائم ينير شبابنا،
ويملأ حياتنا كلها.
فأنت تمنحينا روح الشباب،
فلا نشعر بألم الحزن والحسرة،
وبالتأكيد أنت لستِ عدوًا للعفة،
التي لا يقاتلها إلا الخمر الوضيع.
أنتِ رفيقة الحكماء، ومَن يحب الله

سوف يعشقك أنتِ أيضًا؛
لأن رشفة منك كل ساعة،
ستمنحه اليقظة للأبد.
أنتِ الحظ السعيد، يا ألذ العطايا!
لم ينجح الرسول في القضاء على الخمر،
ففعلت أنت ذلك، وانتصرت عليها،
وأنسيتينا إياها.
فاحمٌ لونك كالقبور،
بريئة كبياض الحليب.
يا قهوتي، يا ذات الرائحة العطرة!
أنت للمسلم أثمن من الذهب.

بعد أن انتهينا من احتساء القهوة اللذيذة، تركت أنا وعليٌّ المقهى وذهبنا أخيرًا للبحث عن ضريح الولي الصالح سيدي علي بن أبي طالب. وجدنا الطريق الصحيح بصعوبة؛ لأني لم أكن أريد سؤال العابرين هنا عن مكانه، فقد كان يفعل ذلك عليٌّ؛ ولكن كان يجيبه أهل ينبُع بهز الأكتاف فقط. أخيرًا وصلنا إلى مكان الضريح الذي كان مبنيًا من الأحجار المرجانية؛ لكنه كان خاليًا من الزخارف الجميلة، تعلوه منارة صغيرة تشبه طراز المنارات في مصر. دلفنا إلى داخل الضريح حيث توجد رقادة عليها فُرش خضراء اللون؛ لكني لا أعتقد أنه نفسه مدفون هنا. لكنها كانت تشبه الأسرّة الملكية الأوربية التقليدية وهي هنا على أيّة حال ليست إلا رمزًا لقبر هذا الرجل الصالح. لكن أحيانا يُدفن الأولياء تحت هذا القبر المزين الذي يصلح للعرض فقط. حان وقت صلاة الظهر في هذه الأثناء حينما أعلن المؤذن ذلك على المنارة، فصلينا تحت هذه القبة التي تصلح أيضًا مسجدا.

من المعروف أن الصلاة تجب على كل مسلم خمس مرات في اليوم، وهي الصلوات الخمس: الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء، وتُؤَدى تقريبًا في هذه الأوقات:

طلوع الشمس والظهيرة وبعد الظهر وغروب الشمس والمساء. ويؤَذن لصلاة الظهر حوالي الساعة الواحدة. بخلاف هذه الصلوات الخمس الواجبة، توجد صلاتين أخريين يؤديها المسلم الأكثر ورعًا وهما صلاة الفجر (مع بزوغ ضوء الفجر) والشفع والوتر (آخر صلاة بعد العشاء أو الأصح هي صلاة الليل وتؤدى بعد صلاة العشاء).

صلَّيت صلاة الظهر أربع ركعات، وتمنيت ألا يكون الإمام تركيًّا من أنصار المذهب الحنفي ويصلي صلاة الظهر بعدد ركعات ضعف ما يصليه أصحاب المذهب المالكي الذي ينتمي إليه كل المغاربة. فالحنفية يصلون الظهر ثماني ركعات والصبح خمس والعصر عشر ركعات والمغرب ست والعشاء عشر ركعات[1]، بينما أصحاب المذهب المالكي والمفترض أن أكون منهم يصلون الصبح ركعتين فقط والظهر أربع ركعات والعصر أربع ركعات والمغرب ثلاث ركعات والعشاء أربع ركعات.

كثير من القُرَّاء لا يعرفون معنى كلمة ركعة؛ ولأن الصلاة لعبت دورًا هامًا في رحلتي للحج، أجد إذن أنه من الضروري توضيح معنى هذه الكلمة بالتفصيل. الركعة هي بالفعل صلاة المسلم، فلا توجد صلاة بدون الركعات، وفي الغالب تتكون الصلاة الواحدة من عدة ركعات منفصلة غير مرتبطة ببعضها البعض. والركعة مثل القُداس المسيحي تتكون من الأدعية وأجزاء من المزامير والرسائل والأناجيل والابتهالات، والركعة عبارة عن مزيج من عبارات الحمد ومقاطع من الشهادة والأدعية وسور من القرآن وبعض العبارات التي تُقال عندما يكون الجسد في أوضاع معينة مرتبطة بوضع الرأس والأيدي. لا تقل الركعة عن اثنتا عشر أو ثلاثة عشر جزءًا وهي كالتالي:

١- تبدأ الركعة كل مرة بالآذان وهي كلمات يقولها كل مرة المؤذن من على قمة المئذنة وهي كالتالي:

"الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله. حي على الصلاة حي على الفلاح. قد قامت الصلاة. الله أكبر. لا إله إلا الله". تُقال كل جملة مرتين. عقب هذا الآذان يقف المصلي رافعًا يديه على جانبي رأسه حذو أذنيه.

---

١ خلط المؤلف هنا بين صلاة الفرض وبين صلاة السنة، وجمع عدد ركعاتها معا على أنها الفرض. (المراجع).

٢- بعد الآذان ينحني المصلي للأمام بجسده وفي أثناء هذه الحركة يكرر عدة مرات: سمع الله لمن حمده.

٣- بعد ذلك يسجد المصلي ويكرر "سبحان ربي الأعلى" عدة مرات.

٤- بعد ذلك يعتدل المصلي واقفًا ويظل هكذا وهو يقول "الله أكبر".

٥- هنا يقرأ سورة الفاتحة أول سورة في القرآن واضعًا يديه مفتوحتين فوق بعض على صدره.

٦- ثم يلي ذلك قراءة بعض عبارات الشكر وهو في وضع الركوع.

٧- ثم يعتدل واقفًا ويقرأ سورة من القرآن يختارها هو. كان العلماء الذين يحفظون القرآن الكريم، يقرأون إحدى السور الطويلة؛ لكي يظهروا علمهم للآخرين أثناء صلاتهم. أما غير الحافظين والمتعلمين فيكتفون بقراءة إحدى قصار السور؛ مثل: سورة الفلق والناس والكافرون والنصر والمسد وباقي الصور القصيرة التي يسهل حفظها.

٨- بعد ذلك يسجد المصلي بوجهه على الأرض وهو ما يطلق عليه في اللاتينية (Ad-oratio prona) حيث ينزل المصلي على الأرض ويلمس الأرض بسبعة أعضاء من جسده وهي الجبهة والذقن والصدر والركبتين ومقدمة القدمين وهنا يقول أيضًا بعض عبارات الحمد.

٩- ثم ينهض المصلي رافعًا الجزء العلوي فقط ويظل جالسًا على ركبتيه وهذه هي أول راحة روحية في الصلاة.

١٠- يعقب ذلك السجود الثاني حيث يلامس وجه المصلي الأرض مثلما حدث في الخطوة رقم ٨.

١١- ثم الراحة الثانية مثل الخطوة رقم ٩.

١٢- ثم يعتدل قائلًا الله أكبر.

١٣- أخيرًا يكرر الشهادتين وهي الإقرار بأنه لا يوجد إله إلا الله وأن محمدا رسوله.

خلال هذه الخطوات الثلاث عشرة التي تتكون منها الركعة يبدل المصلي بين أوضاع الصلاة الأربعة وهي كالآتي:

١- القيام أو الوقوف في الخطوات الأولى والرابعة والثانية عشر والثالثة عشر للركعة.

٢- الركوع وهو أن يحني المصلي ظهره ورأسه في وضع غير مريح تمامًا في الخطوات الثانية والثالثة والسادسة من الركعة.

٣- السجود وهو وضع الجبهة على الأرض في الخطوات الثامنة والعاشرة.

٤-القعود أو الجلوس على الركبتين في الخطوتين الخامسة والتاسعة[١].

بذلك تكون انتهت الركعة أخيرًا وهي ليست سهلة كما ترون، لقد بذلت جهدًا كبيرًا كي أتعلمها؛ لأني لم أجرؤ على أن أسأل أحدًا عمَّا أجهله وبالتالي ينكشف أمري بأني كافر وغير مسلم. لذا كنت أصلي بصوتٍ منخفض للغاية حتى لا يلاحظ أحدًا أخطائي في القراءة وحتى أسمعها من الآخرين بالطريقة الصحيحة. لقد كنت أقرأ التسابيح والأذكار كما كان يقرؤها المغاربة وليست بالطريقة الفصحى الصحيحة التي كانت موجودة في كتب المستشرقين. بدا لي أنه من الأفضل أن أقرأها كما سمعتها كي أنقل للقارئ صورة حقيقية للواقع وليس كما يجب أن تكون صحيحة.

إذا انتهت الحركة الأولى يشرع المصلي مباشرة في الركعة الثانية، وهي تكرار لنفس خطوات الأولى، ولكن مع قراءة سورة غير التي قُرئت في الأولى. ويجب قراءة سورة الفاتحة في كل ركعة. أمَّا الركعة الثالثة وما يأتي بعدها من ركعات فهن أقصر؛ لأن المصلي لا يقرأ فيهن سورة قصيرة ويُكتفى فقط بالفاتحة. وبذلك تتكون الركعة من اثني عشر جزءًا فقط، وبذلك يُختصر جزء كبير من وقت الصلاة بترك الخطوة السابعة التي كان يبالغ فيها بعض الأئمة بشكلٍ مضحك؛ لاختيالهم بما يحفظونه وقراءة سورة طويلة حقا في الركعة.

---

١ وصف المؤلف لركعات الصلاة وما يقرؤه المصلي في كل ركعة مليء بالأخطاء مثل القراءة بعد الركوع أو طريقة السجود المستحيلة التي وصفها بوضع الجبهة والذقن معا على الأرض وغير ذلك كثير من السهل معرفة مواضع الخطأ فيه. (المراجع)

لم يكن عليٌّ الزنجي على دراية كاملة بالصلاة والقرآن، فقد كان يقلد الآخرين بطريقة آلية. كان يحفظ عددًا قليلا من قصار السور ومنها سورة الفاتحة الأكثر شهرة، التي يقرؤها في كل ركعة من الصلاة. استطعت بمرور الوقت أن أُعلِّم عليٌّ سورة أخرى، واخترت سورة لا تقع في نهاية القرآن؛ لكنها أسهل السور القصيرة، ويتعلمها الصغار في المدارس، وهي أحب السور إلى قلبي؛ هذه السورة هي الزلزلة وهي: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ① وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ② وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ③ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ⑤ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ⑥ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ⑦ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ⑧﴾.

نظرًا للأهمية القصوى لسورة الفاتحة في كل الصلوات سأذكر هنا ترجمة هذه السورة أيضًا: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ① ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ② ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ③ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ⑤ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ⑥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ⑦﴾.

هذه السورة اسمها الحرفي (فاتحة الكتاب)، ويطلق المغاربة عليها فتشة، وهي من أهم أركان الصلاة، وتعتبر عماد الصلاة في الإسلام، التي يكررها المسلمون مرارًا وتكرارًا. تقريبًا لا يوجد مسلم واحد لا يحفظ سورة الفاتحة عن ظهر قلب، وهي أول ما يتعلمه الأطفال في المدارس، وهذا أمر لا عجب فيه؛ لأنها أول سورة في القرآن. بعد أن يحفظ الصغار هذه السورة لا يواصلون الحفظ بالترتيب؛ بل يحفظون القرآن من آخر المصحف، ويتعلمون في المدارس الجزء الأخير حتى يختمونه في نهاية مرحلة التعليم الأساسي. هذه المؤسسة التعليمية الغريبة اعتمدت على أن الجزء الأخير من القرآن يتكون من قصار السور التي يسهل حفظها، فيحفظ الصغار بهذه الطريقة العدد الأكبر منها حتى يصلوا إلى نصفه أو ربعه، وهذه هي الطريقة الأسهل؛ لأن السور الأولى في المصحف هي الأطول والأصعب. ولأن المطلوب في الصلاة قراءة سورة واحدة سواء كانت قصيرة أم طويلة؛ لذا يفضل الكسالى مثلي حفظ عدد من السور القصيرة على نفس العدد من السور

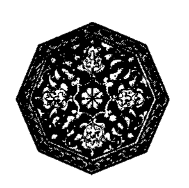
الطويلة. كما أنه يجب أن أعترف بكل صراحة أني واحد من هؤلاء الكسالى وأن السور العشرين التي استطعت حفظها بخلاف الفاتحة كانت من قصار السور في آخر المصحف. لو كان معي نسخة مطبوعة من القرآن لكنت قد تمكنت من حفظ عدد آخر من السور في ذاكرتي أثناء ساعات الفراغ في رحلتي. لكن للأسف امتلاك أحد الكفار للمصحف والقراءة فيه يُعد من أكبر الخطايا؛ لذلك كان يجب عليّ أن أترك مصحفي الجميل في البيت وأكتفي بمخطوط صغير مكتوبة فيه آيات القرآن يجهد عيني كلما قرأت فيه.

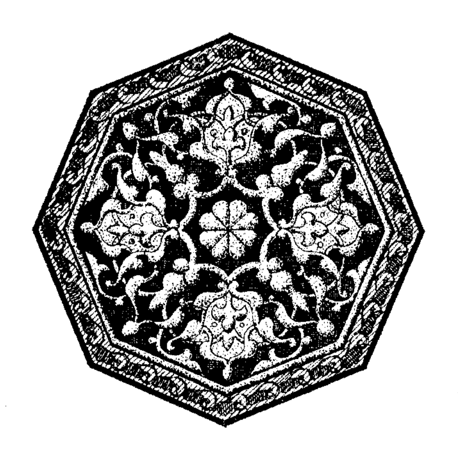
قبل أن أرحل من ينبُع يجب عليَّ أن أفكر في أهم شيء يمكن أن يكون موجودًا في بلد عربي ويجعله من أهم الأماكن الصالحة للإقامة فيه وهو مياه الشرب. أخبرنا أبو الفدا أن ينبُع بها ينابيع مياه كثيرة حتى أنه قيل أن كلمة ينبُع معناها "النبع"؛ وعلى الرغم من هذا المعنى لاسم البلد إلا أنه لا يوجد به ما يُطلق عليه حقًا نبع الماء. يوجد به فقط بئر تُسحب منه المياه؛ لكني لا أنصح أحدًا بالشرب منها أبدًا لأنه ماء فاسد فيه مرارة. كانت توجد أمام باب المدينة بعض برك المياه التي تكمن فائدتها حينما تُمطر في فصل الشتاء. هذه الظاهرة لم تكن موجودة كل عام حيث تجف برك المياه هذه. كنا نصادف يوميا أناسًا يدورون في الشوارع بخراطيم ويملأون الوعاء الكبير بأسعار ساخرة. سألت عن أصل هذه المياه فأجابوني أنهم يحضرونها من مكان يبعد حوالي ساعة من هنا. لأني كنت أعلم تقارير رحلات بوركهاردت، خمنت على الفور أن المقصود بهذا المكان هو ما كتبه بوركهاردت باللغة الإنجليزية (Aseylya) أي ما أكتبه بالألمانية (Aseylya). لكني لم أسمع هنا هذا الاسم أبدًا؛ إلا أني لا أشك في صحة المعلومة التي ذكرها بوركهاردت؛ لأني عهدت دائمًا صحة رواياته. استمرت الأمطار تقريبًا طول الشتاء عام ١٨٥٩-١٨٦٠، ففي ينبُع كانت المدينة كلها تعتمد على هذه المياه التي ذكرتها آنفًا، وتبعد عنها حوالي نصف ميل، فيما عدا ذلك كانت صهاريج المياه مصدرًا جيدًا لمياه الشرب الحلوة كما أكدَّ لي البعض. وهي تشبه خزانات المياه في العصور القديمة، التي كانت توجد تحت الأرض ولها غطاء عليها، وتصل مياه الأمطار إليها عن طريق قنوات تتجمع فيها مياه الأمطار. بعض أنواع هذه الصهاريج التي كانت تُبني فوق سطح الأرض - تشبه الخنادق في العصور القديمة

- كانت تتدفق إليها مياه الأمطار أيضًا عبر قنوات فوق سطح الأرض. حكي لي أحدهم هنا أنه كان يوجد كلا النوعين من الصهاريج أمام باب المدينة الذي لم أتجاوزه بعد.

بعدما انتهيت أنا وعليٌّ من الزيارة الواجبة لضريح علي بن أبي طالب، مضينا في شوارع ينبُع لمدة ساعة نتجول ونتفقد هذا الحشد المتنوع من الناس، ثم بحثنا بعد ذلك في الميناء عن الباخرة الكنجة، حيث كان أصدقاؤنا المصريون ينتظروننا متعجبين بسبب غيابنا عنهم هذه المدة الطويلة. لأن عليا كان لديه الكثير ليحكيه عن الضريح؛ ولأننا كنا قد شرعنا في أداء صلاة العصر التي أُذن لها مع قراءة سورة طويلة فيها، فصليت معهم بشكلٍ طبيعي، وكان هذا كل ما حدث بشكلٍ عام بعد زيارتنا للضريح التي كانت دليلًا على ورعنا وإيماننا. قضيت المساء في أحاديث مع أصدقائي المصريين المقربين لي الذين سألوني كثيرًا عما إذا كنت قد قابلت أحدًا من معارفي المغاربة الذين رست بهم السفن في ينبُع. اختلقت لهم بالفعل أسماء عدة أشخاص المفروض أني أعرفهم وتحدثت معهم؛ على الرغم من أني كنت أهرب من أي مغربيٍّ وكأنه داء الطاعون؛ لكن لو كنت قلت لهم أي شيء غير ذلك في ظروفي هذه لكان الوضع قد أصبح خطيرًا جدًا لي. أمَّا عن سؤالهم بشأن رغبتي في استكمالي الرحلة برفقة هؤلاء المغاربة معارفي، فقد أجبتهم بأني لا أريد أن أخسر إيجار السفينة الذي دفعته فوجدوه الرأي السديد. بعد ذلك بدأ الشيخ مصطفى القاهريُّ، الشخص الوحيد الجدير بالاحترام على متن هذه السفينة، حديثًا دينيًا عن واجبات الحج؛ على الرغم من أنه تكلم فقط في البديهيات المعلومة للجميع، وبالتالي كان كلامه مملًا جدًا لنا؛ لكن كان من الواجب علينا الإنصات لحديثه تقديرًا له. لحسن الحظ لم يوجد مهرب من حديث الشيخ مصطفى الورع غير غلبة النُعاس علينا؛ لكنه سرعان ما توقف عن حديثه لسبب آخر حدث على الباخرة وآثار غضب جميع الحجاج واعتراضهم. ذهب الشاب أوتسمان بن نور الدين (Otsman ben Nur-ed-Din) الإسكندراني إلى المدينة، ودخن في أحد المقاهي القنب المشهور في أفريقيا وله خصائص الأفيون فثَمِل الشاب تمامًا بسبب هذا المخدر. كان الحجاج سيعتبرون حالة السُكر والثمل التي كان عليها الشاب من الخطايا التي تُغفر، لولا أنَّه أصرَّ على اصطحاب إحدى الزنجيات التي كانت

تعمل بالتجارة في ينبُع الصناعية معه على الباخرة، وهذا ما لم يسمح به الحجاج الأتقياء الفضلاء. كانت عاقبة هذا مشهد اشتباك هزلي بين أوتسمان وشقيقيه محمد ومحمود الذين كونوا حزبًا وحدهم ضد مجموعة من الحجاج بلغ عددهم عشرين فردا، كان نصبب بعضهم كدمات في العينين أو الأنف، قبل أن ينتهي هذا الاشتباك أخيرًا بصياح الشيخ مصطفى، الذي اتخذ القرار بأن تغادر الزنجية الباخرة. لم يكن هذا القرار سوى تحصيل حاصل؛ لأن الزنجية المسكينة التي كانت سببًا في هذا العراك قد هربت من على السفينة، وتوجد حاليًا مما لا شك فيه في مكانها وبين مَن يقدرونها. والآن تبدل مشهد العراك إلى الصُلح وتعانقت جميع الأطراف التي تعاركت، وانتهى هذا المشهد ببعض العبارات المبتذلة عن وجوب الصلح بين الحجاج من الشيخ مصطفى حتى خلدنا إلى النوم جميعًا على متن الباخرة "أم السلام."







الفصل السادس
مِنْ ينبُع إلى جدة

النباتات الاستوائية - الثراء في الجزيرة العربية السعيدة - شرم البُريكة - الجار، أقدم ميناء في المدينة - (Copar vicus) - (Arga und Arra) - شرم خرار - شعب القمصة - رابُغ - حياة الترف والنعيم - ارتداء الحجاج ملابس الإحرام - الاستحمام في البحر - خطبة الحاج - ملابس الإحرام غير المريحة - التلبية - دعاء لبس ملابس الإحرام- (Zaaram regia)- جزيرة ذات رائحة عطرة "أم المسك" - شرم أبحُر - (Baetii fluminis ostia) - مضايقات في رحلة الحج - البدو البدائيين - رؤية ساحل جِدَّة.

غادرنا ينبُع في اليوم الثاني من ثاني شهر من أشهر الحج عام ١٢٧٦ هجرية، أي في الثاني من يونيو عام ١٨٦٠ ميلادية؛ كي نواصل رحلتنا بحرًا إلى جدة. عمت حالة من البهجة والسرور بين الحجاج لأنهم سيرتدون في غضون أيام ملابس الإحرام، التي يُقال عنها في أحد الأمثال العربية أنه لا يرتديها إلا مَن يرى مكة وعرفة. وهذا يعتبر بالطبع خرافة لأنه من النادر جدًا أن يموت الحاج بين رابغ (Rabörh) حيث يبدأ ميقات الإحرام ومكة. كان للسواحل التي تقع جنوب ينبُع منظر جميل يبعث البهجة في النفوس، فقد كانت منبسطة ضحلة مكسوة بالغابات، ولها تكوين مختلف عن السواحل في شرق ينبُع. استطعت من على بعد تمييز بعض الأشجار التي نمت في هذه الغابات، فقد كان أغلبها

أنواع من الميموزا (Mimosenarten) ونمت بينها بعض أنواع الصبار (Acacia Vera) التي يُستخرج منها الصمغ العربي المشهور (Gummi arabicum)، وقد قال لي مقدم السفينة أنه يوجد تقريبًا في كل هذه الغابات. كان ارتفاع هذه الأشجار يتراوح بين أربعين وخمسين قدم وكان لها منظر مهيب. على مقربة من الشاطئ نمى العديد من الموكروناتا (Rhizophoren) والمانجروف (Mangrove) وهو ما أضفى على المنطقة طابع الغابات الاستوائية، كما لو كنا على مقربة من إحدى الجزر الجميلة العامرة بالنباتات والأشجار النابتة بسبب الأمطار الاستوائية، ولسنا في الجزيرة العربية الفقيرة في أشجارها ومياهها. كانت هذه السواحل سببًا في حكايات وأخبار القدامى عن الغابات العظيمة الرائعة الموجودة في الجزيرة العربية، والتي كان أساسها الأشجار العطرية التي انبعثت منها الروائح الحلوة العطرية إلى السفن على سواحل البحر الأحمر. وصف كل من ديودور وديونيسيوس (Dionysius) هذه الغابات بالتفصيل. وقد كتب الأخير عنها ما يأتي:

(تفوح في بلاد العرب دائمًا أغنى الروائح سواء كانت روائح أشجار البخور أو شجرة المّر ونباتات البلسم الرائعة).

لكن ديودور ذكر أن الأفاعي تسكن هذه الغابات والتي تتسبب في وفاة مَن تلدغه. ولكن بلينيوس (Plinius) ذكر عدم وجود هذه الأشجار الفوّاحة في جزيرة العرب (Historia naturalis XII, 41).

أمَّا الشعراء القدامى وبعض المؤرخين فقد نقلوا أنه كان يوجد في بلاد العرب المجهولة لهم كل ما هو مترف وجميل ويفوح عطرًا، كما توجد الكنوز مثل (Plenae Arabum do-mus) الذي ذكره هوراس(Horaz :Oden, 12) الذي امتدح ثراء العرب وحياتهم المترفة.

كان يحصل كل من الوزير البيزنطيّ العظيم والأغا أويتروبيوس (Eutropius) على عطورهم من هناك، كما ذكر الكاتب كلاوديوس كلاوديانوس (Claudius Claudianus).

لم تستمر مشاهدتنا لهذه السواحل المكسوة بالأشجار والغابات الخضراء، فمع الوقت أضحت أوراق أشجار الموكروناتا أصغر، وقلّما صادفتنا في الأفق أشجار المانجروف والميموزا، فقد حلت محلها شجيرات قصيرة كانت تبدو لي من على بعد كأنها نخل قصير

كالأقزام على الأرض، ثم ظهرت لنا رمال الصحراء مجددًا، وسادت المشهد تمامًا حتى أنه لم يعد يلوح لنا في الأفق سوى بعض شجيرات الصبّار الصغيرة هنا وهناك.

مررنا بعد الظهيرة بضريح أحد الأولياء اسمه قبة سيدي هاشم. فجأة عمت مظاهر الاحتفالات في "أم السلام" فوزع علينا البحارة الأتقياء القهوة ودخنوا الشيشة، وتناقلوا فيما بينهم حكايات عن الولي الصالح سيدي هاشم. كان من بين ما ذكروه عن هذا الرجل من هراء وخرافات أنه بإمكانه أن يشفي الأمراض وبالأخص الأمراض الجلدية حتى بعد موته؛ لذا نصحت نوخذة السفينة أن يطلب منه أن يشفيه من الجرب المُصاب به ويخلصه نهائيًا من شر هذا المرض المقزز. وقد رحب كل من الشيخ مصطفى وبعض العلماء المصريين باقتراحي ووجدوه الأصح، وامتدحوا إيماني وورعي؛ إلا أن النوخذة لم يستجب لنصيحتي. كان مرضه الجرب من الواضح جدًا للجميع؛ لكن لم يكن هذا الأمر مزعجًا بالنسبة له، وكان يرى أنه ليس من حقه أن يطلب من الوليّ أن يُشفيه بسبب هذه التفاهات؛ لأنه ليس من عاداتهم أن يطلبوا من الوليِّ الصالح أشياءًا حقيقية ملموسة؛ بل تُطلب منه فقط الأشياء التي لا يصلح تفسيرها فيما بعد إلا على أنها تكهن أو وحي منه، سواء بالمعني الحقيقي أو الرمزي من خلال السفسطة الكلامية التي تجعل من اللون الأسود أبيض، حتى يكون هذا الولي على صواب دائمًا.

بعد الرحلة التي استمرت عشر ساعات وصلنا في المساء إلى شرم البُريكة، وهذا الاسم تصغير لكلمة البركة، والمقصود هنا البركة الصغيرة؛ لأن البركة كانت قديمًا ميناءًا في المدينة؛ لذا يعتبر هذا الميناء الصغير وليدًا لميناء مدينة الرسول. كان ميناء البُريكة صغير جدًّا ويسع من خمس إلى ست سفن تبلغ حمولتها من خمسين إلى ثمانين طنًّا، بالإضافة إلى أن الحركة فيه كانت صعبة للغاية بسبب الشعاب المرجانية، التي كانت تنتشر على جانبيه. وجدنا على البر بعض الخيام البالية المفتوحة وسوقًا صغيرة أُقيمت من أجل الحجاج، حيث كان بعض النساء البدويات يجلسن على الأرض تحت مظلات مصنوعة من سعف النخيل ويبعن الخضر والفاكهة. كانت أثوابهن مهلهلة وبالية للغاية لدرجة أني تمنيت أن أقول لهن مثلما قال ممفستو للملائكة:

(يمكنكن أن تبقين عاريات؛ لأن الرداء الطويل ذا الثنيات قد فاق حدود التأدب).

في الحقيقة كانت ثيابهن ذات الثنيات الزرقاء اللون والمصنوعة من القطن خارجة عن حدود التأدب نظرًا لكثرة الثقوب بها، التي أظهرت أكثر مما تخفيه هذه الأثواب. فقد كان يكفيهن مئزر بسيط لستر ما أردن حجبه عن الناس بدلًا من هذا الثوب الطويل ذي الأكمام. بخلاف أجسادهن كانت وجوههن مختفية وراء قطعة سمكية من قماش القطن لونها أسود وبها ثقبان صغيران مستديران، تبرز منهما عينان ثاقبتان كعيون بنات آوي. كل هؤلاء النسوة كن صغيرات السن، على الأقل كما يبدو لنا نحن الأوربيين؛ لكن كانت التجاعيد تكسو أيديهن وأرجلهن التي كانت عجفاء كأجزاء من هياكل عظمية، كانت أذرعهن كعود ثقاب الكبريت تمامًا وشعورهن خفيفة تملؤها الحشرات؛ وعلى الرغم من أن وجوههن كانت مغطاة ولم نرها؛ إلا أنه كان من الممكن الاستنتاج مما هو واضح أمامنا أنهن لسن مغريات بأيِّ حال من الأحوال. هنا يجب أن يأتي الرسامون الذين يبحثون عن نموذجٍ للساحرات الشريرات.

ليس بعيدًا عن شرم البُريكة كان يقع ميناء الجار الذي تؤدي إليه إحدى القنوات التي تسع السفن؛ على الرغم من أن الميناء لم يعد يستقبل السفن. هنا كانت توجد بقايا من مدينة الجار، التي كانت موجودة في العصور الوسطى، والتي كنت شغوفًا جدًّا بزيارتها. لكنني للأسف لم أستطع قطع مسافة تبلغ عدة أميال غير آمنة، وقد حكى لي أُناس كثيرون عن حوادث قتل حجاج حدثت قريبًا، حيث كان يبعد الحجاج عن رفقائهم ويخرجون بمفردهم، ثم يجدونهم قتلى بعد ذلك في الأماكن الصحراوية. كما أني لم أفكر في الوصول للبحر أبدًا؛ لأنه كان يتعين عليَّ أن أستأجر مركبًا، وبالتالي سيعرف الجميع أني متشوق وشغوف بزيارة الآثار، وهو ما يميز تقريبًا كل الأوربيين؛ لكن الحجاج سيعتبرونني زنديقًا. يصف مورسيبي (Morseby) في كتاباته عن الشواطئ أنه توجد شواطئ هائلة وهو بالتأكيد يقصد بها مدينة الجار، التي كانت سابقًا ميناء المدينة وأُطلق عليه اسم الجار؛ لأنه كان مجاورًا للمدينة؛ لأن العرب ينسبون كل شيء لمدينتهم المقدسة. كان بوركهاردت يكتب هذا الاسم (Djar) ونيبور يكتبها (Dsjar) وروبيل يكتبها (Diar)

والمترجم أبو الفدا كتبها (Giar)؛ لكن الطريقة الألمانية في كتابتها هي الوحيدة الصحيحة (Dschar). وقد استنتج كثير من الجغرافيين أن هذه المدينة الجار والمدينة القديمة أجرا (Agra)، نظرًا للتشابه في طريقة كتابتها، أن الأخيرة كانت موجودة قبل مدينة الجار في العصور القديمة، وهذا الاعتقاد يستطيع أي إنسان أن يفقده صحته إذا رجع إلى مقدار درجات خطوط الطول التي ذكرها بطليموس. فكيف يمكن لهذا الإسكندرانيّ الذي يعرف جيدًا بلاد العرب أن يزعم أن المدينة، التي تبعد أربعا وعشرين دقيقة فقط من ينبُع، تقع على بعد درجة ونصف منها جنوبًا؟ لكن من المحتمل أن نرى في مكان الجار المدينة التي ذكر بطليموس أنها تقع بين ينبُع وأجرا والتي أطلق عليها اسم (copar vi-cus)، والتي يتشابه اسمها كثيرًا مع الجار أكثر من اسم (Agra)؛ على الرغم من أن رأيي هو أن اسم الجار أُطلق على هذا المكان بعد الهجرة، وبالتالي فهي ليست مشتقة لا من (Agra) ولا من (Copar). أمّا مانيرت فقد أزاح مكان (Copar) للجنوب أكثر وأبعد من أبو أيان (Abu Ajan) التي ذكرها نيبور. لكن مثل هذا الاعتقاد قد يؤدي إلى تغيير أسماء المناطق كلها الممتدة بطول سواحل الحجاز، كما أني لا يمكنني إدراك كيف يستطيع مانيرت بعد هذه الفرضية رؤية باديو ريجيا (Badeo Regia) في جدة التي تقع أكثر عمقًا ناحية الجنوب. كانت السواحل هنا كلها ضحلة رملية، وليس عليها أية نباتات أو أشجار. خلف الساحل نرى سلسلة الجبال المرتفعة التي يطلق عليها الإدريسي جبل الرضوى، والذي ذكر ريتر (Ritter) عنه أنه ليس جبلًا واحدًا؛ بل سلسلة من الجبال. لم يعرف البدو الذين يسكنون في الخيام هنا أن يذكروا لي الاسم الصحيح لهذا الجبل، ربما لم يريدوا ذلك لأن العربيّ كتوم جدًا أمام الأغراب.

في صباح الرابع عشر من ذي القعدة أبحرنا من جديد بطول ساحل ضحل مكسوٍّ بنخيل البلح ونخيل الدوم يشبه إلى حدٍّ كبير شاطئ نهر النيل. في المساء وصلنا ميناء مستورة؛ حيث كانت الشعاب المرجانية الخطيرة تحيطنا، وبالتالي كان دخول الميناء صعبا للغاية؛ لكن داخل الميناء كانت حالة السفن جيدة وفي أمان تام. كان موقع هذا الميناء اختيارًا رائعًا؛ لأن هذا المرسى كان مستورًا بين الشعاب المرجانية. فربما يمر الشخص

غير العارف بوجود هذا الساحل عليه دون أن يعرف بوجود هذا الميناء هنا. هذا المكان الصغير مستورة؛ حيث يوجد حوالي عشرون بيتًا بائسة مبنية من الأحجار الصخرية، يبعد حوالي ميلًا عن المرسى، وفي قلب المرسى وعلى بعد حوالي نصف ميل من الشاطئ كانت تقع محطة الحجاج المسماة مستورة، التي يمر من خلالها الشارع الذي يربط المدينة بمكة وبه مياه صالحة جدًّا للشرب. لو لم يكن الوقت متأخرًا لأرسلت عليًّا لإحضار المياه من هناك؛ لكنني اكتفيت بمياه ميناء البُريكة.

أعتقد أنه في قرية مستورة، التي تقع على خط عرض ٢٣ شمالًا، يمكن رؤية مدينة (Agra) التي بناها بطليموس، والتي قال عنها مانيرت أنها تقع بعد رابغ. ولأن هذا الرأي كان على الأرجح مؤكدًا، ورأى مانيرت شخصيًا أنَّ جِدَّة هي مدينة (Badeo Regia)؛ لذا كان يجب اختصار جزء من الساحل يقع بين ينبُع ومدينة (Badeo)؛ كي نحصل على نتائج صحيحة كما فعلنا في المسافة الواقعة بين ينبُع والجار.

لا تتطابق مدينة (Agara) التي شيدها بيطليموس مع مدينة (Agara) في عهد بلينيوس؛ لأن الأولى كانت عاصمة دولة النبطيين في خليج العقبة، والتي يجب البحث عنها شمالًا في إقليم البتراء؛ لأنه لا يمكن أن يكون الشعب ساكنًا في الشمال ويتخذ عاصمة إقليمه في الجنوب وهي (Leuce Come) آخر مدينة أقام فيها النبطيون. بالإضافة إلى ذلك ذكر بلينيوس بالحرف، أنَّ (Agra) لا تقع على البحر عندما أبرز الفرق بين موقعها وموقع (Läana).

إن المعنى الحرفي لـ (et in sinu) أن (Agra) لا تقع على الخليج؛ ولكن الخليج (in sinu) له صلة بكلتا البلدتين (Agra) و(Laeana) على السواء. على النقيض من ذلك يبدو لي أن بيلينيوس يقصد أن مدينة (Agra) التي شيدها بطليموس هي مدينة أخرى هنا اسمها (Arra).

كانت (Arra) مدينة تجارية هامة تطل على بحر مثل (Agra). ومما لا شك فيه أنها هي (Negra des Strabo) التي كانت من مدن الموانئ التي حكمها الملك (Obeida) والتي كانت عاصمتها (Zaaram). هنا توقف القائد الروماني (Aelius Gallus) أثناء غزوته

غير الموفقة لبلاد العرب، التي فقد فيها تقريبًا كل جيشه بسبب الأمراض والنقص في المؤن ولم يحقق شيئًا سوى الاستيلاء على قلعة بائسة وتحطيم عدة أماكن. لكن هل يمكن اعتبار (Agra) التي حكمها بولينيوس هي هذه المدينة؟ هذا سؤال آخر ولكن في حالة إثباته سيكون لـ (Arra) موقع آخر.

سيكون يوم الخامس من ذي القعدة يومًا هامًا بالنسبة لنا نحن الحجاج؛ لأننا كنا نأمل فيه أن نصل إلى رابغ؛ حيث سيرتدي الحجاج هناك ملابس الإحرام. كنت مهمومًا ويساورني القلق؛ لأني كنت أخشى أضرار ومساوئ هذه الملابس. بعد أداء أربع ركعات دخلنا "أم السلام" ورآني الشيخ مصطفى واجمًا قلقًا، فسألني عن سبب خوفي الذي لم أستطع البوح به؛ كي لا يشك أحد في ورعي وإيماني. تحججت بأني أشعر بالدوار والفتور، فأعطاني على الفور علاجًا هو عبارة عن ورقة صغيرة مكتوب عليها بعض آيات القرآن، وكان يجب على أن أبتلعها فتسببت لي في القيء.

لم يتحقق أمل الحجاج بسبب الرياح الشمالية التي هبت، ولم يكن في الإمكان قطع المسافة بين مستورة ورابغ التي تبلغ عشرة أميال في يوم واحد. بعد تغيير الطريق والإبحار حول رأس وردان، الذي لم يدل سطحه العاري تمامًا من أي ورد أو نباتات على اسمه، وصلنا إلى مرسى شرم الخرار، وكان يجب علينا أن نبحث عن مأوى ضروري. كانت تقع شرم خرار في مقابل أخطر الشعاب المرجانية في هذا الساحل، والتي كان يُطلق عليها شعب خرار. فكلمة شعب التي تُطلق على اسم أربعة منحدرات هنا معناها "الرأس الصلعاء"، وكان من عادة العرب أن يسموا أي جبل بـ"رأس" ويظهرون أضداد الأشياء من خلال التشبيهات مثلما الحال هنا؛ فالجبل الذي تكسوه الأشجار والغابات عندهم كالرأس المزدهرة، أمَّا تلك الصخرة، التي تقع في الجهة المقابلة للبحر وهي جرداء لا ينمو عليها أي نبات، فهي قمة رأس صلعاء لرجل هرم. في الغالب كانت توجد رأس (جبل) وشعاب محيطتان به ولهما نفس الاسم، مثل شعب خرار وراس خرار في الجهة المقابلة لها.

قلَّما كانت تُذكر خرار كمكان له أهمية؛ لأن الميناء كان سيئًا للغاية لحماية المسافرين عندما يكون الطقس سيئًا وتتغير حالة سكون الريح التي صادفتنا هنا لحسن حظنا. على

أيّة حال كانت المياه هنا جيدة، وبهذا يتطابق اسم المكان مع أصوات المياه الذي يعني شدة جريان الماء وتدفقه. لم نستطع شراء اللبن أو البيض من البدو الذين كان عددهم قليلا جدا هنا في هذا المكان؛ على الرغم من توافر اللبن والبيض عندهم؛ إلاَّ أنهم رفضوا بيعهما لنا مقابل المال؛ لأن البدو الأصليين؛ أي الذين لم تفسد عاداتهم الأصلية بسبب التعامل مع الغرباء، كانوا يرونه من العار أن يبيعوا ما تنتجه حيواناتهم التي يربونها كالبيض واللبن. لكنهم كانوا يبيعون العجول الصغيرة والمُهر والفراخ الصغيرة وليس البيض وألبان أبقارهم. أما عن الجبن والزبد فلا مجال للحديث عنهما عند هؤلاء البدو. فهم مختلفون عن باقي البدو الذين صادفونا في رحلتنا للحج، فهؤلاء هنا في خرار التي قلَّما يزورها الغرباء، لا زالوا يحافظون على تقاليدهم الأصيلة التي يتقاسمونها مع البدو المقيمين في المدن التي لا تطل على السواحل.

في السادس عشر من ذي القعدة وصلنا أخيرًا بعد رحلة حفتها المخاطر بسبب الشعاب المرجانية إلى ميناء رابغ، الذي ترتفع فوقه شعاب القمصة في وقت الجزر، وكان يجب علينا الوصول إلى مدينة رابغ؛ حيث سنبدأ الإحرام. سُميت شعاب القمصة هكذا نسبة إلى الملابس؛ ربما لأن هذا آخر مكان يُسمح فيه للحجاج بارتداء ملابسهم؛ حيث يجب عليهم فور وصولهم هنا خلع ملابسهم على الفور ولبس ملابس الإحرام، التي لا يصح أن نطلق عليها ملابس بالمعني الحقيقي؛ لأنها ليست إلا قطعتين مربعتين من القماش. ويرجع اسم القمصة إلى قطعة ملابس منذ العصور الوسطى تقريبًا مثل السترة القصيرة (Tunica) في العصور القديمة. بإحساسٍ لا يخلو من الكآبة كانت تختفي شعاب القمصة عن أنظارنا، وظهرت لنا في الأفق رابغ التي تهددنا بملابس الإحرام، والتي كنا سنصل لمينائها في وقت الظهيرة.

أُطلق على رابغ هذا الاسم على سبيل السخرية اللاذعة والتهكم؛ لأنه مما لا شك فيه أن كل حاج ساخر لا يشعر بالراحة مطلقًا في ملابس الإحرام سيدرك المعنى غير الحقيقي لهذا الاسم، الذي يعني "حياة الترف والنعيم" (summa commoditas vitae)، التي لا نملك لها مقابلا في لغتنا الألمانية والتي يعبر عنها الإنجليز الذين يحبون الراحة بكلمة (Comfort).

لذلك لا يمكن وصف مكان غير مريح مثل رابغ بأنه مكان الحياة الرغدة الرابغة، ولا يمكن أن يحدث هذا إلا على سبيل التهكم والسخرية. لكن مصطفى بك، أحد الحجاج المسافرين معي في رحلتي، أوضح لي سبب تسمية هذا المكان بهذا الاسم؛ وهو أنه في مدينة رابغ الصغيرة التي تقع على بعد ميلٍ واحد من الميناء وعلى وجه الدقة في شارع الحجاج بين المدينة ومكة يوجد حمام تركي مريح جدًّا به أماكن للاستحمام ودكاكين للحلاقة أُعدت جيدًا للحجاج، الذين سيستحمون ويحلقون ويضعون ملابس الإحرام، وبذلك يصح إطلاق هذه التسمية على مدينة "رابغ" ذات الحياة الرغدة الرابغة. ربما كان هذا هو المكان الذي وصفه بورتون (Burton) في رحلاته بأنه استحم في مكانٍ فاخر وتطيب بالعطر قبل لبس ملابس الإحرام؛ ولكني أجد ذكر تطيب الحجاج بالعطر هذا أمرا مبالغا فيه من بورتون؛ لأني لم أصادف حاجًا واحدًا شممت منه رائحة الطيب والعطر، فهذا من الحالات النادرة جدًا؛ لذلك ليس هذا سببًا لتعميم هذا الأمر في رابغ، كما أني أعتقد أنه منذ عهد هارون الرشيد لم يعد يوجد الحاج الذي يتعطر، ولا أريد أن أخوض في هذا الشأن أكثر من ذلك خوفًا من أن تفلت مني عبارات غير مهذبة.

كان يوجد في ميناء رابغ خمسة وعشرون بيتًا بُني بعضها بالصخور المرجانية والبعض الآخر من الطوب الهوائي، وبجوارهم حوالي ثلاثون خيمة يُقام فيها السوق، ولا يوجد أيّ حمام؛ بل توجد فقط ثلاث خيام مؤقتة لغرض الحلاقة تعج ليلًا ونهارًا بالحجاج، الذين يتشاجرون ويتعاركون أمامها ويتراشقون بألفاظ السباب، وقد يصل الأمر إلى التشابك والضرب، وهذا مما لا شك فيه من الأفعال العادية للحاج الورع. بعد جهد كبير استطعت أن أصل إلى أحد خيام الحلاقة هذه التي كانت تعج بالحجاج والزحمة؛ ولكني قررت بعد ذلك أن أرجع إلى السفينة وأن أكلف أحد البحارة بحلاقة رأسي؛ لأنهم يجيدون هذا الأمر، ثم كان يجب عليَّ أن أقص أظافر يدي ورجلي، ومن ثَمَّ أكون جاهزًا للطهارة والاستحمام. لم يكن يوجد مكان للاستحمام سوى البحر الكبير المفتوح للجميع، الذي يغطس فيه الحجاج قبل ارتداء ملابس الإحرام، ففعلت مثلهم ومثل سائر الحجاج الذين كانوا معي على السفينة ومثل باقي الحجاج الذين يبلغ عددهم حوالي

مائتي حاج كانوا على متن أربع سفن أخرى، ومن بينهم خمسون مغربيًا كنت أتحاشى الاختلاط بهم والكلام معهم بشدة؛ كي لا يكتشفوا أمري ويفضحوا حقيقتي، وسهَّلت ملابس الإحرام عليّ هذه المهمة؛ لأني لم أعد أرتدي الملابس المغربية التقليدية التي تلفت نظرهم إليَّ. لقد كان حقًا مشهدًا غريبًا جدًا حينما نزلت كل هذه الكائنات النحيفة التي تبرز عظامها إلى البحر. لم يكن بالفعل منظرًا جميلًا. تذكرت رغمًا عني مشهد نار لدانتي (Dante) حينما قفز الملعونون في بحيرة النار. حتى إن لم يكن هذا البحر من نار؛ إلا أنه من المؤكد أنه كان ساخنًا بالقدر الذي لا تفيد معه أي محاولة للتبريد. على أيَّة حال فقد زادت أيضًا درجات الحرارة في هذا الوقت من السنة بشكل كبير. أظن أنها تصل في الظل إلى سبع وثلاثين درجة مئوية كالتي عايشها أيضًا بوركهاردت، والتي اعتبرها هومبولدت (Humboldt) أعلى معدل حقيقي قد تصل له الحرارة في هذا المكان. لست في حاجة إلى أن أصف للقارئ مدى معاناتي من هذه الحرارة فهو يستطيع تخمين ذلك؛ بالأخص لأننا كنا في منتصف فصل الصيف؛ لكني لحسن حظي لا زلت بصحتي وعلى قيد الحياة. فقط كان يحدق بي خطر جاد واحد، وهو أنه كان يجب عليَّ أن أخلع كل ملابسي بما فيها الفانِلَّة (القميص الداخلي)، ولا تضحك عليَّ عزيزي القارئ! التي تُلبس تحت الملابس في البلاد العربية حتى تمتص العرق والهامة جدًا في البلاد الحارة أكثر من البلاد الباردة، وهذا بالنسبة لي أمر غير صحي على الإطلاق وغير مقبول؛ أمَّا الشيء الأكثر إزعاجًا بالنسبة لي ولم أكن أحتمله فهو وجوب تعرية رأسي تمامًا تحت هذه الشمس الحارقة في هذا البلد الذي كان بالمعنى الحقيقي للكلمة "بلد ضربات الشمس والحُمَّى". لم يكن مسموحًا للحاج تغطية الرأس ولو حتى بمنديل رقيق، ولم يعتد الحجاج على استخدام الشمسية، فقط كان مسموحًا بوضع اليدين على الرأس ولم يمثل ذلك أدنى حماية من الشمس، حتى الشعر الذي يمثل وسيلة الحماية الطبيعية ضد الشمس كان يجب على الحاج حلقه بالكامل، ولكم إذن أن تتصوروا المخاطر التي كانت تنتظر الحاج حينما يضع ملابس الإحرام.

كنت على دراية جيدة بتعاليم الحج وملابس الإحرام التي يجب أن أتبعها؛ لأنها كانت محور أحاديث الحجاج ورفقائي في الحج طول الرحلة، وزاد على ذلك حكايات الشيخ مصطفى لي عنها وكذلك الحاج عمر أو كما يطلق عليه المصريون حجي عمر؛ لأنه قام بالحج قبل ذلك مرة وبذلك كان يُنظر إليه على أنه له اليد العليا في هذا الشأن. لم يذكر القرآن شيئًا عن ملابس الإحرام والقواعد الخاصة بها؛ ولكن ذكر فقط الحج كفريضة على المسلمين في مواضع متفرقة فيه. تعتبر فريضة الحج قديمة جدًّا منذ الجاهلية قبل ظهور الإسلام في بلاد العرب. أبقى محمد عليها تعظيمًا للكعبة التي يجلّها كل العرب ويقدِّرونها، واستغلَّ ذلك لدينه الجديد، ووّسع فريضة الحج حينما فرضها على كل المسلمين. فيقول محمد (الصحيح: يقول الله تعالى) في السورة رقم ٢ آية ١٩٢ عن الحج ومناسكه[١]: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦ ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾.

في السورة الخامسة (سُورَةُ المَائِدَةِ) من القرآن كان الحديث أيضًا عن الحج وتعاليمه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥ أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩٦

١ الصحيح الآية رقم ١٩٦ و ١٩٧ (المترجمة).

۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾.

كما نرى في هذه الآيات لا يوجد ثمة شيء ذُكر عن ملابس الإحرام وطريقة ارتدائها وعن وجوب تعرية الرأس تمامًا وعن كل الجَهد والشقاء المبذول في رحلة الحج. من المحتمل أن محمدًا أراد أن يحتفظ بمثل هذه التفاصيل لسلطته، وربما كانت ملابس الإحرام هذه شائعة في وقته؛ لأنه كما ذكرت آنفًا أن الحج كان عادة عربية وثنية قديمة قبل ظهور الإسلام. لقد عمل مفسرو القرآن على تعقيد أحكام لبس الإحرام وإظهارها بالصورة التي هي عليها اليوم وبالغوا في أشكالها غير المريحة. من المؤكد أن محمدا لم يكن يريد أن تكون ملابس الإحرام للرجال تمثل خطرًا يهددهم وعبئًا غير مريح لهم. فقد كانت ملابس الإحرام، التي يجب على الحاج أن يرتديها، هي نفس ملابس الرجل العربي العادي في عهد محمد، كما ذكر نيبور. أبقى محمد على هذا الشكل من الملابس؛ ولكنه أراد فقط عن طريق ذلك التنبيه على أن الحاج يجب عليه أن يظهر خضوعه وولاءه لله في هذه الملابس البسيطة المتواضعة؛ ليظهر بها أمام الله في بيته الحرام. أمَّا مسألة تعرية الرأس فقد كانت فقط من محض الصدفة؛ لأن العرب لم يعتادوا تغطية رؤوسهم منذ العصور القديمة وحتى عصرنا هذا، مثل شعوب أخرى كثيرة في العصور القديمة، لدرجة أنَّ الرومان كانت القبعة عندهم رمزًا للهمجية. وأكدَّ بلينيوس (Plinius) أنّ (Arabes mitrati degunt) ولكنه يقصد بالعرب هنا النبطيين الذين لا يعتبرون من العرب الأصليين. بعد ذلك رأي مفسرو القرآن أن زي الإحرام هذا يجب أن يكون مثل ملبس آدم وحواء على الأرض بعد طردهما من الجنة. مثلما فعل علماء اللاهوت في العصور الوسطى في المسيحية والفريسيون في اليهودية، قام أيضًا علماء المسلمين المتشددين، الذين لم يتقيدوا بالكلمات المكتوبة وحروفها فقط؛ بل أيضًا بالروايات الشفاهية، فجعلوا من التعاليم التافهة أو التي صيغت على سبيل المصادفة أو لضرب الأمثال قواعد صارمة لا يمكن مخالفتها. هذا هو الوضع بالنسبة لملابس الإحرام. تجب ملابس الإحرام على جميع المسلمين؛ على الرغم من أنها لبعضهم أمر سهل يمكن احتماله وللبعض الآخر أمر صعب التنفيذ. فالرجل

العربيّ في وقتنا الحالي، الذي يرتدي ملابس قليلة واعتاد أن يجلس يوميًّا تحت الشمس الاستوائية، يمكنه ارتداء ملابس الإحرام وتعرية رأسه دون أي عناء أو مشقة، بينما التركي والتتريُ والفارسيُ، الذين يرتدون ملابس ثقيلة، واعتادوا على الشمس متوسطة الحرارة، لا يحتملون الوقوف بأجسادٍ نصف عارية ورؤوس مكشوفة تحت هذه الشمس الحارقة خوفًا من الضرر على صحتهم. من المؤكد أن محمدًا نفسه لم يفكر أبدًا في أن دينه سينتشر بهذه الطريقة كما هو الحال بالفعل. وخير دليل على ذلك أنه كان يتحدث عن الحج كأنه شعيرة سهلة بسيطة يقوم بها الحاج كل سنة، كما هو الحال عند العرب فقط. لو كان محمد قد عرف أحوال اليونانيين وساكني المناطق الشمالية وكيف يعانون من ملابس الإحرام وهم صامتون لا يشتكون، لكان قد تعاطف معهم وأبطل حكم وجوب الإحرام عليهم، أو فرض عليهم شكلًا آخرَ من ملابس الإحرام. لكن للأسف لم يكن لدى محمد نظرة مستقبلية في هذا الأمر، ولم يكن يعرف أن دينه سيكون لجميع البشر؛ وإلا كان سيراعي أنه في بلادٍ أخرى مثل روسيا لا يمكن صيام رمضان؛ لأنه في الصيف تكون الأيام طويلة جدًّا وفي الشتاء تكون الليالِ طويلة، ومن المعلوم أن دين محمد قد وصل إلى هناك في أعالي الشمال، وحتى يومنا هذا لا تزال توجد جالية مسلمة في موسكو. لكن المفسرين المتشددين، الذين يتمسكون بمنطوق النص في القرآن والسنة وليس بتأويله، لا يعتقدون أن محمدًا لم يعرف أمرًا من الأمور أو لم يتنبأ به. فهم يعتبرون كل ما جاء في النص قانونًا لا يمكن مخالفته؛ ولهذا السبب يتمسكون بهذا الشكل لملابس الإحرام؛ ولنفس السبب يموت سنويًا عدد من الحجاج المساكين بسبب الأمراض المسببة للموت، التي تنتج عن تعرضهم للشمس الحارقة ورؤوسهم عارية وأجسادهم نصف عارية، والتي لم يكونوا سيحتملونها حتى لو غطوا أجسادهم واحتموا من الشمس تحت الشمسية. بعض الأوربيين الذين زاروا مكة قبلي، على سبيل المثال بورتون (Burton) الذي لم يكن مجاملًا، قد ذكر أنه من المسموح به في الإحرام حماية الرأس عن طريق الشمسية. ولكن هذا أمر مسموح به في الضرورة القصوى؛ وبالأخص عند أتباع المذهب الحنفي؛ لكنه في الحقيقة لم يجرؤ أحد على حمل الشمسية سوى أحد الباشوات وأحد الأغاوات من حراس

الحريم وأحد أثرياء الهند. يعتبر حمل الشمسية طبقًا للتقاليد العربية من مظاهر النعومة الأوربية، وكان يجب علي الامتناع عن استعمال هذا الشيء الذي سيثير الشبهات ضدي.

القارئ الذي مرت على مسامعه كلمة إحرام هنا عدة مرات، ربما لا يعرف معناها على وجه الدقة ومما يتكون. حينما خرجنا من البحر بوصولنا إلى ميناء رابغ كان يجب علينا آنذاك ارتداء ملابس الإحرام، وإني لأجدها فرصة مواتية الآن كي أصف الإحرام. هذا الزي الجميل يتكون من قطعتين مربعتين من القماش المصنوع من القطن ولونهما أبيض، وغالبًا ما تكونان مخططتان بخيوط لونها أحمر؛ ولكنهما لا تشبهان المناشف التركية المنتشرة حاليًا في أوربا. يبلغ طول كل قطعة قماش حوالي خمسة أذرع ونصف وعرضها ثلاثة ونصف. يجب أن تخلو هاتين القطعتين من الخياطة أو الربط أو العقد، أحدهما الإزار يُلف حول الخصر، بحيث يستتر به المحرم الجزء من جسمه الواقع ما بين السُّرة والقدمين، والقطعة الثانية الرداء يلف المحرم أحد طرفيها حول خصره ويستر بالطرف الآخر كتفه الأيسر مع بقاء الكتف الأيمن مكشوفًا. ويجوز للحاج أن يلبس في قدميه صندلًا خشبيًا يعادل النعل (Solea) في العصور القديمة، والذي كان يجب على الحجاج خلعه كالعادة عند كل صلاة وعند دخول المساجد والبيوت. والرأس يجب أن تظل عارية، وكما ذكرت من قبل يجب حلق شعر الرأس أيضًا، الذي يمثل وسيلة الحماية الطبيعية ضد الشمس. وتسمح التقاليد العربية للأثرياء فقط والأعيان بحمل الشمسية. والآن قد حلقت رأسي، والآن أقف مرتديًا هاتين القطعتين ورأسي صلعاء تمامًا وحافي القدمين، وأقف كحاج بين حوالي مائتين من الحجاج الآخرين، الذين ارتدوا مثلي أيضًا ملابس الإحرام. وفجأة ارتفعت أصوات الحجاج لأول مرة بالتلبية "لبيك" التي كانت تدّوي في المكان.

بمجرد خروجنا من السفينة ونحن نرتدي ملابس الإحرام استقبلنا أحد الكتاب السوريين وقام بدور الخطيب ودارت خطبته بأكملها حول هذه الكلمة "لبَّيك"، والتي لم يوضح معناها لنا؛ بل امتدح فائدتها وتمنى لنا الحظ السعيد بأن نلبي. مثل السمك الذي كان يستمع لخطبة (Antonius von Padua) كلما ألقاها عليهم، أنصت هؤلاء السمك

البشري بمجرد خروجهم من البحر إلى خطبة هذا الخطيب الذي كان ينتظرنا على شاطئ البحر، وكما كان السمك يغني آنذاك (te deum laudamus) كانت تصيح هذه الأسماك البشرية "لبيك" التي كانت تدّوي على طول شاطئ رابُغ وتخرج من حناجر مئات الحجاج هنا. كان بعض الحجاج يصيح "لبيك" بكل حماس وعزم، بينما كان البعض الآخر يلثغ بحروفها بحذر بتقوى وورع. كان صدى هذه الكلمة يتردد في كل مكان. لم يُسمع في رابُغ سوى هذه الكلمة، وكأن اللغة العربية بأكملها لا يوجد فيها إلا هذه الكلمة التي يرددها جموع الحجاج، الذين بدأوا يرددونها منذ ارتداء ملابس الإحرام يوميًّا وبكل حماس، ويكررونها حتى يصلوا إلى هدفهم وهو الوقوف على عرفة فيبدأون من جديد الصياح بها بأعلى أصواتهم وبحماس شديد.

أمَّا معنى هذه الكلمة "لبيك" فلم يكن يعرفه سوى قلة من العرب؛ لكن الجدير بالأهمية هو لفظ الكلمة نفسها، وليس معناها. لذلك لم يعتن العرب بمعرفة معنى هذه الكلمة المقدسة، كما أني أعرف أُناسًا من الذين زاروا مكة عشرات المرات ومن المؤكد أنهم رددوا هذه الكلمة آلاف المرات ولا يدركون كنه هذه الكلمة. وحينما كنت أسأل أحدهم عن معنى هذه الكلمة المقدسة، كان يردُّ عليَّ متعجبًا وهو يهز كتفيه ويقول: "أنت إنسان فضولي جدًّا، أيها الحاج!" وتكررت هذه الإجابة عدة مرات. أمَّا صديقي الشيخ مصطفى فقد ذكر لي توضيحًا لمعنى هذه الكلمة لكنه مضحك للغاية؛ لدرجة أني لا أجرؤ على أن أذكره هنا. لهذا السبب استغنيت عن السؤال عن معنى هذه الكلمة الغامضة بالنسبة لي أثناء رحلة الحج؛ لكني كنت قد عقدت النية على الكشف عن معنى هذه الكلمة في أحد القواميس حينما أكون في بلد متحضر. لقد علمت من القاموس المعنى الدقيق لهذه الكلمة وكأني سألت أكبر علماء العرب. اشتُقت هذه الكلمة من الفعل "لبى" ومعناها: (Morigerus sdsum tibi et obsequor) والتي يمكن أن أترجمها إلى الألمانية على النحو التالي: "ألوذ بك من الضائقة القاتلة وإني على طاعتك." هكذا فهمت معنى هذه الكلمة؛ فهذا النداء يعبر عن الاشتياق الكامل لَمن يقصد الله والسعي الدءوب منه لترك هذه الحياة الدنيا البائسة والبقاء عند الله في طاعته؛ لينجي الله من قصد سبيله. يكمن في هذه

الكلمة أساس المعنى الروحاني للدين الذي ينبع من الإسلام، الذي يسود فيه تمجيد الجسد كما يقول علماء الدين. فكل شيء في الإسلام تقريبًا مرتبط بالجسد؛ إلا نداء التلبية هذا فهو روحاني محض. المسلمون يمجدّون رغبات الجسد ويطلقون العنان لشهواتهم؛ فطبقًا لتعاليم الإسلام يمكن أن يحيا المسلم متبعًا لدينه وهو في نفس الوقت غارق في مستنقع الشهوات وملذاتها. فنجد الحاج يترك هذا المستنقع الأخلاقي ودَنس الحريم بكل أنواعه؛ فيتحرر من تعدد زوجاته وإمائه وما ملكت يداه ومن شهواته الجسدية بكل أنواعها، ويسافر لأداء الحج ويلبي بكلمة "لبَّيك" وليته يدرك المعنى الكامل لها حينما ينطقها. بهذه الكلمة "لبيك" يُكفِّر المسلم عن حياته الماجنة المترفة التي يحيا فيها، ويعتبر أن كل ما لديه من حريم لإرضاء شهوته، وما يملك من إماء مثيرات فاتنات في ريعان شبابهن، والليالي التي قضاها في خِدر متعته؛ ليس إلا بؤسًا كبيرًا وتعاسة لا تُوصف، فيهرب من كل هذا المستنقع إلى الله ويقيم عند بيته لفترة من الزمن كي ينتعش ويستقوى من منبع الطهر والصفاء الأبديِّ، وكي يحتمل بؤس جسده من جديد في الأعوام المقبلة، وذات يوم حينما يقول آخر لبيك يكون قد هرب من هذا البؤس الدنيويّ وأتى إلى الله. وكما ذكرت من قبل أن عددًا قليلًا جدًّا من العرب يدرك المعنى الكامل لهذه الكلمة؛ لذا أعتقد أنه يتحاشى هذا الجانب الروحاني للتلبية تمامًا؛ لأن العروبة الحديثة تقضي على كل ما هو روحاني في مهده بسبب الكيل بمكيالين لكل ما يخص شهوات الجسد. لكن قديمًا كان العرب لا يحيدون عن المعنى الكامل الروحاني لهذه الكلمة، وخير دليل على ذلك أشعار المتصوفة التي رواها لي الشيخ مصطفى، والتي أنتقي منها هنا بعض الأبيات وأترجمها بنفسي للقارئ:

من شقائي صحتُ،

لبَّيك اللهم لبيك،

بئس ما قدمت يداي في حياتي،

الحظ والمنة منك وعندك وحدك.

أتيتُ إليك، ألوذُ بك،

فانقذني، لبَّيك،

انفث في قلبي من روحك،

كي أتحصن بك، لبَّيك.

الأرض ليس فيها سوى ظلام الليل والظلم،

أنت النور فقط،

اللهم في بيتك هذا تتتابع الصعداء من أنفاسي.

أنا لا أفكر هنا في عذاب الدنيا،

ولا في شهواتها ومتعها، فيك أنت فقط، لبَّيك.

حينها أمكث هنا عندك،

تنتعش روحي بك،

كي أحيًا دومًا صالحًا، لبَّيك.

وحينها أستغني عن وادي البؤس، الأرض، لبَّيك،

أكون وصلت لساحة الجنة، عندك يا إلهي لبَّيك.

لم تنجح نظرات المومسات في جذبي إليهن،

لأني لا أريد رؤية سوى وجهك أنت، لبَّيك.

ألوذ بك، ألوذ بك يا الله،

فجُد عليّ برؤيتك، لبَّيك.

أرني وجهك أرني وجهك،

ياألله، لبيك اللهم لبَّيك.

من خلال هذا الشعر الذي لم أنجح في معرفة اسم صاحبه، نجده ليس كباقي المسلمين أتباع محمد الذين يتمنون الجنة؛ بل يصبو إلى ما هو أسمى وأبعد وهو رؤية وجه الله تعالى التي وعد بها محمدًا في القرآن لعدد قليل من عباده المصطفين؛ لأنه كان يعلم أن الجنة وما فيها من متع لن ترضي هذه القلة من الناس.

كما رأينا الآن أن هذه الكلمة "لبيك" لها معنى شامل روحاني جدًا، فلا نتعجب إذن من أن عددا قليلا من العرب يدركون هذه الكلمة في سياقاتها الروحانية الشاملة. والعدد الأكبر من المسلمين يعتقدون أنها كلمة غير مفهومة، وليس لها معنى محدد؛ والحقيقة أنها كلمة صوفية تعبر عن الورع لم يتطرق أحد لبحثها على وجه الدقة، فترجمة بورتون (Burton) لها "هنا أكون عندك" سطحية جدًا ولا تعبر نهائيًا عن فحواها الصحيح. كان من الأجدر به أن يترجمها: "ألوذ بك يا ألله" أو "أنت ملاذي يا ألله."؛ على الرغم من أن هذه الترجمة أيضًا لا تفي الكلمة حقها ولا تبرز معناها الروحاني.

بعد أن صاحت حناجرنا المبحوحة "لبيك" لوقت طويل، كان واجبًا علينا الآن ترديد الأدعية اللازمة عند الإحرام، وهي دعاء لبس الإحرام:

"**ارتديت لبس الإحرام لوجه الله تعالى، اللهم أعني على إتمام الحج.**"

بعد ذلك صلينا الصلوات المفروضة طبقًا لأوقات اليوم وعدد ركعات كل صلاة؛ فالمغرب أربع[1] ركعات والفجر ركعتان الخ. بعد الانتهاء من الصلاة يقول الحاج المرتدي ملابس الإحرام هذه الكلمات:

"**اللهم إني نويت الحج والعمرة فيسِّرهما لي وتقبَّلهما مني. أنت ملاذي يا الله! أنت ملاذي ومنجاي! كتبت على نفسك الرحمة والجاه، وسلطان عظمتك ومقدرتك لك وحدك لا شريك لك فيها. إليك وبك ألوذ!**"

كان يجب على كل من الحاج أو المعتمر، الذي يقوم بالعمرة أي الحج الأصغر، أن يدعو بهذا الدعاء. تعتبر العمرة أقل أهمية من الحج، وتكمن أهميتها في أن الحجاج الذين يصلون للبلد الحرام وينتهون من الطواف حول الكعبة ويريدون زيارة مسجد العمرة القريب من مكة، يمكنهم إذن أن يخلعوا ملابس الإحرام بشكلٍ مؤقت ويرتدوا ملابسهم العادية من جديد ويرتدوا ملابس الإحرام من جديد عند الوقوف على عرفة. زيارة هذا المسجد هي الطريقة الوحيدة التي تمنحهم الحق في خلع ملابس الإحرام. بذلك يتحاشون هذه الملابس غير المريحة لمدة أربعة عشر يومًا، وفي الغالب تصل المدة لشهر

[1] المغرب ثلاث ركعات.

كامل حسب ميعاد وصولهم إلى مكة، على أن يكونوا في التاسع من ذي الحجة نصف عراة على جبل عرفة. كثير من المغاربة والمصريين والفرس وأعيان الأتراك يستفيدون من هذه الميزة للعمرة؛ لكن العرب الأصليين وعامة الشعب من الأتراك وبالأخص الزنوج يتجاهلون هذه الميزة ويرتدون ملابس الإحرام غير المريحة منذ وصولهم مكة حتى يوم رجوعهم من على عرفة، ويرون في تصرفهم هذا فضلًا خاصًا بهم. ويُطلق على هذه المجموعة الأخيرة حجاج الحج أي الذين يتمون الحج الأكبر؛ بينما المجموعة الأخرى يُطلق عليها حجاج العمرة أي الذين يستفيدون من ميزة الجمع بين الحج والعمرة. هذان النوعان من الحجاج لهما الحق في الحصول على لقب حاج؛ لكن حجاج العمرة ليس لهم نفس المنزلة ولا يتساوون مع حجاج الحج. على أيّة حال قلت أعداد حجاج الحج في السنين الأخيرة؛ لأن معظم المسلمين يميلون للراحة هذه الأيام أكثر من البقاء والتجول في ملابس الإحرام التي لا تُطاق.

لن يلومني أحد إذا قررت أن أستغل العمرة وأكون حاج عمرة بسبب كرهي لملابس الإحرام، في الحقيقية لم يكن من الواجب على أن أكون حاج الحج. ولأن العدد القليل من المغاربة في الرحلة اختاروا العمل البطولي بأن يصبحوا حجاج الحج؛ لذا كنت محقًا في اختياري واستمررت في تمثيل دوري بصورة طبيعية، وأعتقد أني نجحت في ذلك.

قضينا كل الوقت في مساء أول يوم ارتدينا فيه ملابس الإحرام بين الأحاديث الدينية والأدعية والاغتسال وسماع الخطب التي أسعدنا بها كل من الشيخ مصطفى وبعض العلماء المصريين. وأخيرًا حلَّ الليل الذي كنت في أمس الحاجة إليه؛ لأنه سيحررنا من عناء يومٍ كامل قضيناه بين الضجر والمشقة.

عندما فتحت عيناي في صباح اليوم التالي وفركتهما ونظرت حولي، رأيت كل هذه الأجساد العارية التي تزحزحت عنها ملابس الإحرام أثناء النوم، فاعتقدت أني موجود في مستشفى المجانين في بادئ الأمر؛ لأن ملامح معظم هؤلاء المتعصبين كانت لها تعابير مضطربة. شيئًا فشيئًا بدأت أتعود على هذا الواقع القبيح، الذي لم يكن يخلو فقط من الجماليات؛ بل كان هزليًّا للغاية؛ بالأخص هذان التركيان اللذان تبرز العضلات من

جسديهما المكسوان بالشعر الكثيف وشاربيهما اللذان يثيران القشعريرة في بدن من يراهما. لقد بدا منظر هذا الشعر الكثيف في كل أجزاء جسديهما مناقضًا تمامًا لرأسيهما الصلعاوين، فبدا كل شيء غريبًا للغاية. كذلك كان منظر الحجاج أهل جزيرة كريت (Candianer) مثيرًا جدًّا للسخرية؛ فقد كانت تعابير وجوههم مسرحية هزلية، واللّحَى منسقة كأنها مدهونة بالشمع، وجفون عيونهم مصبوغة باللون الأسود، باختصار بدت رؤوسهم في حالة من الدلال والوسامة فأعطتني انطباعًا خاصًّا كأني أرى أسودًا تتجول في ثياب الإحرام البائسة هذه. أمَّا الشيخ عمر البدين فقد كان منظره مضحكًا جدًّا. لم تكن قطعتا ملابس الإحرام الضيقتان كافيتين لجسده السمين، فبذل جهدًا كبيرًا كي يداري ثنيات جسده تحت هذه الملابس المقدسة، ودائمًا كان غاضبًا لهذا السبب، فأحيانًا كان يبرز كرشه فجأة معلنًا عن ثورته، أو تتعرى فخذاه العملاقتان أثناء المشي، ومن حسن حظه أن ملابس الإحرام تتيح له أن يظل صدره الكبير عاريًا الذي لا تغطيه قطعتان من ملابس الإحرام هذه. أمَّا الشيخ مصطفى فقد كان على النقيض تمامًا من الحاج عمر، فقد كان نحيفًا لدرجة أنه كان في إمكانه أن يلف رداء الإحرام مرتين حول صدره؛ لكن ذلك لم يكن مسموحًا له به؛ لأن ملابس الإحرام كانت تُلبس على نحوٍ معين يجب التقيد به. لذلك كان يعلق الشيخ مصطفى الرداء الكبير جدًا عليه على جسده، وقد وفر ذلك مكانًا فسيحًا لمن أراد أن يلعب ويحصي ضلوع هذا الكهل الهزيل الطويل. كيف كنت أبدو أنا شخصيًّا في ملابس الإحرام؟ لا أعرف؛ لأنه لم تكن معي مرآة. لكني كنت أعرف أنها ملابس مزعجة جدًا بالنسبة لي وغير مريحة تمامًا سواء عند الوقوف أو المشي أو الجلوس، فدائمًا ما كنت أشعر بالخجل والضيق بسبب هذه الملابس. أكثر ما كان يزعجني في هذا الإحرام هو وجوب تعرية الرأس، مما جعلني عرضة لخطر الإصابة بضربات الشمس. وكما ذكرت آنفًا، لو كنت استعملت الشمسية كأيّ أوربي، لكنت قد لفت الأنظار إليَّ؛ لأن أعيان العرب هم الذين كانوا يحملونها. مما لا شك فيه أني لو كنت أمسكت شمسية لظن الآخرون أني زنديق كافر وكلفني ذلك حياتي؛ فقررت أن أظل رهينًا لخطر الإصابة بضربة الشمس الذي اتضح لي في نفس الصباح مدى تهديدها لي من خلال ما حدث لأحد الشباب؛ مصطفى ابن

حامد بك الذي سقط على الأرض بسبب وجع في رأسه وارتفاع في درجات الحرارة، التي تزايدت خلال ساعات ودخل في حالة هذيان كاملة، وظل طول اليوم مغشيًّا عليه، ومات في المساء. برهن أبوه بعد موته على رضائه بالقضاء والقدر وصبره على موت ابنه حينما رد على كل عبارات التعزية والمواساة: "كُتب عليه قصر الأجل." كان المسلمون يستخدمون هذه العبارة عند موت ذويهم بطريقة تدعو للسخرية منهم، فحينما يشيع أحد الأمراض القاتلة في مكانٍ ما، أو تسأل عن الأشخاص الذين ماتوا بسبب انتشار أحد الأوبئة، تجد أحدهم يجيبك: "مَن كُتب عليه قصر الأجل، يموت"، وهو ما يعتبر تكملة لأركان الإيمان والشهادتين التي يجب أن يؤمن بها كل مسلم.

عند الناس الذين يؤمنون بأن كل شيء قد كُتب عليهم، وأن القدر يحرم عليهم كل إرادة حرة أو فعل حر، ويفرض عليهم أن يؤمنوا بعدم الفائدة المطلقة للأدوية واتخاذ التدابير الصحية للوقاية من الأمراض، يعتبر الموت عندهم من توافه الأشياء. لهذا السبب لم تتأثر رحلتنا بالمرض الخطير لمصطفى وموته؛ لأن دفن جثته حدث في الليل في مكان نزولنا بمنتهى السرعة دون أي مراسم جنائزية. في السابع عشر من ذي القعدة غادرنا "مدينة الترف والنعيم" لكي نستكمل رحلتنا إلى جدة عن طريق استكمال رحلتنا عبر السواحل في غضون أيام قليلة أخرى لنصل إلى هدفنا في النهاية.

قبل أن أنتهي من حديثي عن رابُغ أريد أن أذكر بعض الكلمات عن مكانها في العصور القديمة من وجهة نظري. لقد ذكرت آنفًا أن مدينة الجار من المحتمل أن تكون هي (Copar) ومستورة هي (Agra). إذا سلمنا بصحة هذه الفرضية، وفي نفس الوقت ربطنا ذلك برأي مانيرت أنه يمكن البحث في جدّة عن (Badeo regia) التي شيدها بطليموس، سنجد أن رابغ من المحتمل أن تكون (Zaaram) وهي عاصمة (Strabo) التي ذكرها الملك (Obeids) الذي كانت تقع مدينته الثانية (Negra) ليس بعيدًا عن البحر، وكما رأينا قد نجدها في مستورة. طبقًا لما ذكره بطليموس كانت تقع (Zaaram) على بعد أربعين دقيقة جنوب (Agra)، وهذا ما يناسب المسافة بين رابُغ ومستورة، والتي تبلغ أيضًا طبقًا للمقاسات الجديدة أربعين دقيقة. فضلًا عن أنه يصح

تخمين مرسى رابُغ بأنه "ملكيّ" وكان تابعًا للمدينة التي لم تكن تقع على البحر مباشرةً، ولم نجد لها آثارًا؛ بل كانت تقع بالداخل محل البلدة الصغيرة رابُغ التي كانت تعتبر محطة هامة للحجاج بين المدينة ومكة، حيث كانت توجد ينابيع المياه الجيدة، التي بُنيت من حجارة قديمة.

اليوم لا يفصلنا عن (Zaaram) القديمة سوى مسافة تُقدر بميلين ونصف، نقطعها في حوالي ست ساعات مع الرياح الشمالية البطيئة. كانت درجات الحرارة في هذه الرحلة لا تُحتمل؛ لكن لحسن حظي استطعت أن أحمي رأسي العارية الصلعاء من أشعة الشمس الحارقة في تلك القُمرة، وبذلك تجنبت خطر الإصابة بضربة شمس. كانت هذه الُقمرة الضيقة القذرة وغير المريحة تجذبني إليها وكأنها حلم إلدورادو (El Dorado)[1]؛ لأنها المكان الوحيد الذي يقيني من خطر الموت، وظل هذا العدد الهائل من باقي المسافرين معي على سطح السفينة المكشوف تحت هذه الأشعة الحارقة الخطيرة للشمس. كنت أتعجب حقًا كيف أنهم لم يُصابوا جميعهم بضربة الشمس؛ لأنها كانت حامية جدًّا وحارقة، وكأنها تعامدت على مدار السرطان فبلغت درجة حرارتها القصوى. يمكنني القول أنه لحُسن الحظ لم يصب سوى خمس أو ست من بين جميع الحجاج في رحلتي من رابُغ إلى جدة، وهم الآن سعداء في العالم الآخر بعد موتهم؛ حيث لم تُجد معهم بعض الأدوية غير الفعالة. لكن كما يُقال: "كُتب عليهم قصر الأجل." قصر الأجل لهؤلاء الشباب، ولم يخطر ببال أحد أن يحزن لقضاء الله هذا. ولأني لم أكن مقتنعًا بهذا الأمر، وهو أنه ربما حياتي أنا أيضًا كُتب عليها قصر الأجل كما يقول هؤلاء القدريُّون وتمنيت طول الأجل؛ لذا كنت احتمي من أشعة الشمس كلما أمكن بوضع يدَيَّ على رأسي، وهذه الوسيلة هي الحماية الوحيدة المسموح بها للحاج. بهذه الطريقة استطعت أن أنجو من قصر الأجل. لكن نجاتي من ضربة الشمس كان هؤلاء القدريّون يرونها أيضًا قضاءًا وقدرًا من الله مثل سائر الأشياء التي يقوم بها الإنسان أو يفكر فيها أو يقلع عنها. نعم حتى لدغة الحشرة قد علمها الله وكتبها عليه منذ الأزل؛ والسبب في هذا هو الإيمان العميق بإرادة الله، وهذا

[1] دفع حلم إلدورادو، أو مدينة الذهب المفقودة الكثير من الرحالة الفاتحين للمكسيك وبيرو في القرن الثامن عشر إلى القيام برحلات محفوفة بالمخاطر في الغابات المطيرة وجبال أمريكا الجنوبية. (المترجمة)

هو مبدأ هؤلاء القدريّين، الذين نرى أناسا لهم نفس هذه التوجهات العقائدية القدرية في أوربا أيضًا. نحتاج فقط إلى قراءة تاريخ الكنيسة في عصر الإصلاح لنجد أنه كانت توجد أيضًا في أوربا نزاعات حول إرادة الله المطلقة والحتمية السببية مما أدى إلى ظهور حركة البيلاجية[1] التي أدت إلى ظهور عقيدة القضاء والقدر لإدراك الانحرافات التي تسبب فيها الإيمان الأعمى بالقضاء والقدر، وكذلك مثل النقيض المطلق لذلك الذي يؤسس لاستنتاجات خاطئة تمامًا، بينما تظل الحقيقة معلقة بينهما. لن تؤدي البحوث عن إرادة الرب سوى إلى أكثر النتائج حماقة، ويبرهن على صحتها الإسلام الحديث؛ لأنه من المعلوم أنه لم يَتبنَّ علماء المسلمين في العصور القديمة مبدأ القدريّة؛ بل نشأ في الفرن الثاني عشر بإصرار و مثابرة، ويتمسك به الآن كل المسلمين؛ على الرغم من أنه يمنع الاستخدام الحر لعقولهم، وبالتأكيد هو المسئول في المقام الأول عن انهيار الشرق.

في السابع عشر من ذي القعدة وصلنا إلى مرسى دنب (Mersa Deneb)؛ أي ميناء أعلى نقطة على الأرض، الذي كان لي موقعًا ممتازًا، كانت المياه عميقة وخالية من الشعاب المرجانية، ومدخل الميناء كان كبيرًا ومريحًا، وهذا أمر قلَّما يحدث في السواحل العربية. على الشاطئ كانت توجد بعض الخيام التي بدا عليها الفقر، وفيها كان يجلس بعض نساء البدو يعرضن بعض السلع الغذائية للبيع التي لم تكن تبدو مثيرة لشهيتي. في داخل الميناء كان يرتفع جبل الأسد الذي رسم في الأفق أشكالًا رقيقة لخطوط كانت على نحوٍ متناسق بديع؛ لكنه كان يخلو من كل أنواع الأشجار؛ إلا أنه كان مكسوًا ببعض الأعشاب المتناثرة، التي كانت لا تزال نضرة خضراء؛ على الرغم من درجة الحرارة العالية.

أعتقد أنه من الممكن أن يكون هذا المكان هو مدينة (Centus vicus) التي شيدها بطليموس؛ على الرغم من عدم وجود آثار لها هنا. على النقيض من ذلك أكَّد لي أحد الأعراب أنه على بعد نصف ميل من هنا يوجد حطام لأعمدة قديمة وحجارة كانت

١ خرج الراهب البريطاني بيلاجيوس Pelagius على كل الطروحات الكنسية التي رآها تميز بين البشر، وتصادر حرياتهم، مؤكدا إنه إذا كانت النعمة التي وهبها الله للإنسان تعني الحرية في القيام بالفعل، فإن القدرة على الإتيان بهذا الفعل هي إرادة إنسانية نابعة من قوة الفرد الذاتية دون أية مساعدة إلهية، وهو هنا يحرر الإنسان تماما ويجعله المرجعية الأساسية لأفعاله دون أية عوامل خارجية، وتبقى إرادة الرب ومساعدته للبشر من وجهة نظر بيلاجيوس متمثلة في تعاليم الإنجيل فقط. وهذا ما يُعرف بالبيلاجية. (المترجمة)

تستعمل في البناء؛ لكني بالطبع لا أستطيع أن أعتمد في رأيي على هذه الأخبار غير المؤكدة. إن موقع مدينة (Centus vicus) الذي وصفه بطليموس يتطابق مع المساحات الواقعة بين(Zaaram) و(Thebae) وخط العرض؛ أي تقع في منتصف المسافة بينهما تقريبًا، ومن هنا يتضح أن هذا المكان يجب أن يطل على البحر، مما لا يدع مجالًا للشك في أنه هو مرسى دنب وهو الميناء الوحيد الجيد الذي يقع بين رابُغ (Zaaram) و(Thebae).

أمَّا مانيرت (Manmert) فيرى مكان (Centus vicus) على بعد خمس وعشرين دقيقة من راس الحطيبة الواقعة جنوب مرسى دنب، التي هي عبارة عن سلسلة جبال وليست ميناءًا؛ وعلى الرغم من وجود خليج بالقرب من هذا الجبل اسمه (Tual). على أيّة حال من الممكن اعتقاد أن الأماكن القليلة التي كان يعرفها بطليموس على هذا الساحل كانت موانئ، ومن الصعب افتراض وجود خليج (Tual) آنذاك؛ لذلك تعتبر مرسى دنب هي المكان الوحيد الذي يمكن أن يكون هو (Centus vicus).

حينما غادرنا مرسى دنب في الثامن عشر من ذي القعدة تمتعنا برياح شمالية باردة لطفّت الجو وأنعشت الحجاج المساكين، الذين تعرضت رؤوسهم العارية وأجسادهم نصف العارية للشمس الحارقة. في ظل هذا الجو الرطب المناسب لحرارة الشمس أبحرنا إلى راس الخرمة (Ras Churma) التي تبعد عن مرسى دنب حوالي ميلٍ ونصف. هذا الاسم معناه "قمة الجبل" أو "قمرة الصخرة". على بعد ميل من راس الخرمة صادفنا راس محلوق (Ras Mahluk) العارية تمامًا من أيّة نباتات أو أشجار كما هو واضح أيضًا من تسميتها. كانت الجبال الواقعة مقابل راس محلوق اسمها شعاب ناصر (Schab Nass-er)، ويرجع هذا الاسم إلى انتصار أحد الأولياء المسلمين على الجن الذي كان يسكن هنا، وربما بسبب هذه التسمية قد يعتقد البعض أن هذا المكان هو جزيرة الشيطان التي لم تُكتشف بعد. لكني أعتقد أن كلمة "ناصر" ليس معناها الفوز أو الانتصار؛ بل المقصود هنا كلمة "النسر" التي تليق أكثر بالمكان؛ أي شعاب النسر. إن الساحل الذي يمتد من رابُغ إلى راس الخرمة في الاتجاه الجنوبي الشرقي كان له امتداد أيضًا في الاتجاه الغربي حتى يصل إلى راس الحطيبة. أوصلتنا هذه الرحلة على طول الساحل بعد ذلك إلى جزيرة

صخرية كبيرة اسمها شعاب أبو مضفر، التي تعني ذو الرائحة الطيبة. يصف نيبور جزيرة تقع في هذه الناحية اسمها مشابه لأبي مضفر وهي "أم المسك". ولأني سألت الجميع عن جزيرة اسمها "أم المسك" ولم أجد أيّة إجابة عنها، صرت مقتنعًا أن "أبو مضفر" هي نفسها "أم المسك". ومن المؤكد انه لا أحد هنا في هذه الأيام يعرف هذه الصخرة تحت هذا الاسم. ربما أيضًا لم يكن يوجد هذا الاسم، وربما نيبور الذي كان مختلطًا بالعلماء العرب لم يكتب الاسم الحقيقي وكتبه كما يسميه بعض المسافرين في الشرق. أمّا الدليل على أن اسم "شعاب أبو مظفر" هو الحقيقي وليس صياغة أخرى له هو ما ذكره الرحالة الإنجليز عن السواحل فذكروا هذا الاسم ولم يذكروا أي شيء عن اسم "أم المسك". على أيّة حال كانت تسمية "أبو رائحة عطرة" تعتبر غريبة جدًّا لهذه الصخرة العارية تمامًا، التي لا ينمو عليها أي شيء له رائحة طيبة. ربما يكون السبب في هذه الأسماء إحدى الحكايات القديمة التي لا أعرفها. ثم تقدمنا حتى وصلنا إلى شعاب أخرى كانت هذه المرة ليست عارية؛ بل مكسوة بالكامل بشجيرات خضراء يانعة. قيل لي أن اسمها "الحرمل" نسبة إلى شجيرات الحرمل البريّة التي اسمها النباتي (Peganum). أطلق نيبور على هذه الجزيرة اسم "جزيرة الحرام" (Dsair el Haram)؛ ربما لأنه لم يسمع النطق الصحيح لكلمة الحرمل. كان يبلغ طول صخرة الحرمل حوالي خمسمائة قدم وترتفع عدة أقدام عن مستوى البحر في وقت المد. في الجهة المقابلة كان يقع خليج (Tual) الذي ذكرته آنفًا، والذي يرى موللر (Müller) أنه (Duatus sinus) في عهد بلينيوس (Plinius)؛ لكنني لا أراه موفقًا في وجهة نظره هذه؛ لأنه ليس من المحتمل أن يعتبر بلينيوس هذا المرسى السيئ خليجًا كبيرًا وآمنًا.

في المساء وصلنا إلى خليج توال؛ وعلى الرغم من أنه مكان خطر على السفن التي ترسو به في الطقس السيئ؛ إلا أن البحر كان هادئًا وكان الخليج آمنًا في رحلتنا. نزلنا هنا ووجدنا قرية صغيرة للصيادين يسكنها أهلها الذين اعتقدت في بادئ الأمر أنهم من قبيلة الطامي؛ لكنني علمت مؤخرًا أن قرية الصيادين هذه لها أصل آخر غير الطامي. أطلق الصيادون على أنفسهم لقب طوال وسُميت القرية على اسمهم. هم في الأصل من البدو

ولهم أيضًا بعض أشقاء في النسب ولهم نفس الاسم أيضًا. وعلى الرغم من أنهم يزاولون مهنة الصيد منذ مئات السنين؛ إلا أنهم لا يزالون يحافظون على بعض التحيزات للبدو؛ وذلك بأنهن قرية الصيادين الوحيدة في البحر الأحمر ويقللون من شأن قبيلة الطامي. فهم يشعرون بشيء من الإهانة حينما يسألهم الغرباء عمّا إذا كانوا هم قبيلة الطامي أم لا. فقد كانوا يتشابهون مع الطامي في كل شيء ما عدا ملبسهم وملامح ولون بشرتهم التي لم تكن سمراء. بخلاف صيد الأسماك كانوا يبحثون عن المحارات التي بها اللؤلؤ في البحر؛ ولكن هذا الأمر لم يعد مجديًا كما كان عليه الحال فيما مضى، وكفوا عن ذلك واكتفوا بصيد الأسماك ليبيعوها للمسافرين وليعيشوا من ربحها. من بين أنواع الأسماك التي كانت معروضة كان يوجد نوع من أسماك الفراشات كيتودونتيدي (Chaetodon) لا يأكله العرب، وهو نوع خاص من الأسماك مثلث الشكل، تنمو زعنفتان كبيرتان على جانبي هذا المثلث بينما الذيل قصير جدًا، ويبدو كأنه مكنسة صغيرة مصنوعة من القش. اشتريت بقرش تركي سمكة من هذا النوع كانت تزن حوالي اثني عشر رطلًا، وحاولت أن آكل منها شيئًا بلا جدوى؛ لأنها لم يكن قد اكتمل طهيها بعد مدة طبخ استمرت أربع ساعات. لكن على النقيض مني التهم البحارة، الذين أهديتهم هذه السمكة المصنوعة من الجلد، لحمها الجامد السيئ في حوالي ربع ساعة، فقط اثنان منهم لم تحتمل معدتاهما هذا الطعام فأعادتاه سريعًا لأسماك البحر. لقد اعتاد العرب الإفراط في تناول هذه الوجبات المجانية فيما عدا ذلك فإن الزهد من أهم صفاتهم كما ذكر عنهم إيخيلينسيس (Echelien-sis) في كتابه (Chronicon orientale).

لا يجوز أن تكون هذه الفضيلة السبب في إتلاف المعدة على حساب الآخرين. في صباح الثامن عشر من ذي الحجة أبحرنا من جديد ووصلنا بعد أربع ساعات في اتجاه الغرب إلى رأس (Ras el Hatteba) الحطبة التي ذُكر اسمها في القرآن والمقصود بها زوجة عم الرسول التي أُشير إليها "بحمالة الحطب"، وهي زوجة عمه أبو لهب الذي أظهر عداوته للرسول على الرغم من أنه عمه؛ لذلك جعله محمد لا يُنسى وقدمه في سورة من القرآن تلعنه هو وزوجته حمالة الحطب، التي جاءت إلى هذا الجبل بعد أن انتهت حياة

زوجها على نحوٍ مأساويّ وأرادت أن تقيم باقي حياتها الشريرة هنا. من يشك في صحة هذه الحكاية يسأل الحاج عمر الذي حكي لي هذه القصة بتفاصيلها وأكدها لي. عند راس الحطبة تكون السواحل قد وصلت لحدودها في الغرب في هذه الناحية، ثم اتجهنا من جديد ناحية الجنوب الشرقي حتى أبحرنا بعد ساعتين في اتجاه رأس (Dahlimar) التي كان يتكون الجزء الأكبر منها من الجرانيت بينما كانت الصخور المرجانية تحيطها. كوّنت الصخور المرجانية سلسلة حول الجبل الممتد إلى الداخل. يبدو من اسم هذا الجبل الذي يمتد بطول الساحل والذي تبلغ مساحته حوالي ميل مربع أو أكثر أنه مميز جدًّا وله دلالات هامة في الجغرافية العربية لا أريد أن أتحدث باستفاضة عنها هنا. هذا الاسم مشتق من (Dahal) أي "النزاع، الكراهية، العداوة والبغضاء" و(Imar) وتعني "الرجل أو الذئب"، ونستطيع أن نقول مجازًا "اللص أو الرجل الخطر" شجار اللصوص" أو "نزاع قبائل اللصوص". فمن المعلوم أن العرب يميلون إلى إطلاق أسماء الحيوانات المتوحشة وشبه البرية على أنفسهم حتى يُوصفوا ببعض صفاتها كالشجاعة والإقدام. فنجد عندهم أسماء الحيوانات مثل الأسد والثور والجاموس والذئب والثعبان والكلب ليست ألقابا فخرية؛ بل العكس تمامًا. وقد لاحظ المستشرق فرينتسل (Frenzel) والقنصل الفرنسي في جدة أن اسم الجبل مشتق من الاسم الذي ذكره ديودور وهو (Deabe) أي الذئب الذي أطلقته إحدى القبائل العربية على نفسها في العصور القديمة. فحينما نرى في هذه الأيام شعبًا في نفس المكان اسمه (Imar) أي الذئاب (مجازًا اللصوص)، هل من المحتمل أن يكونوا هم من نفس القبائل التي كان اسمها أيضًا الديابة (Deabe) في العصور القديمة؟ نستطيع أن نقول أن مكان هذه القبائل الديابة لم يحدده كل من (Strabo) و(Agatharchides)؛ ولكن يمكن التأكد من هذا الأمر من خلال بطليموس الذي ذكر أن مكان الديابة (Thebae) في المنتصف بين (Centus vicus) ومصب نهر (Baetius). لأننا عرفنا الآن أنّ (Centus vicus) هي مرسى دنب وسوف نوضح فيما سيأتي أن ميناء (Obhor) هو المصب المفترض لنهر (Beatius)، لم يبق لنا إلا أن نرى في (Dahlimar) المكان الذي ذكره بطليموس واسمه (Thebae) الذي سكنت بجانبه قبائل الديابة. سبب

واحد فقط يجعلني أشك في صحة موقع هذا المكان، وهو أن (Thebae) التي ذكرها بطليموس تقع على بعد عشرين دقيقة من مصب النهر شمالًا، بينما راس (Dahlimar) تقع على بعد عشر دقائق من (Obhor) شمالًا. لكن ليس من الضروري افتراض أنّ (Thabae) أي "مكان الذئاب" كانت تقع على "جبل الذئاب" وبالتالي سُميت الناحية كلها على اسم الذئب؛ لكن يجب الدفاع عن فرضية أن (Thebae) تقع شمال قمة الجبل الذي له نفس الاسم، ومن ذلك يسهل معرفة سبب الفرق في العشر دقائق. في دليل البحر الأحمر (Der Periplus maris Erythraei) (Editio Carl Müller، Par-is, bei Didot، 1855) ذُكر اسم قبيلة للصوص على هذا الساحل تحت اسم (Can-raiten)، والتي ذكرها مولر (Müller) تحت اسم (Cassaniten) في عهد بطليموس و(Casandriten) عند (Agatharchides) و(Photius).

قطعنا العشر دقائق أو الميلين ونصف التي تفصل رأس (Dahlimar) عن شرم أبحر (Obhor) في خمس ساعات، وواصلنا مساءًا حتى وصلنا خليجًا كبيرًا اسمه أبحر، حيث صادفنا أجمل مرسى في رحلتنا هذه. كان مدخل هذا الخليج الذي يمتد حوالي ميل في الاتجاه الشمالي الشرقي للداخل ضيقًا؛ لكنه كان آمنًا؛ لأن العرب بنوا على جانبيه برجين صغيرين من الأحجار المرجانية؛ ليكونا نقطة استدلال به؛ وليضيئا الأماكن الخطيرة به، ومن خلالهما يستدل البحارة على مدخل الخليج الآمن. لقد صرت على قناعة كاملة بأن هذا الخليج العميق الممتدة مياهه للبر، والذي اعتقد نيبور في باديء الأمر أنه نهرٌ، ليس إلا المصب المفترض لنهر (Baetius) الذي قال عنه بطليموس أنه يصب في هذا المكان؛ على الرغم من أنه لا يوجد أيّ نهر في تهامة كلها؛ بل يوجد هنا أو هناك جدول صغير تسري فيه المياه. يرى بوركهاردت أن هذا التصور غير معقول وهو أن يقدر بطليموس المسافة بين (Centus vicus) و (Badeo regia) على أنها نهر يبلغ طوله مائة ميل، وقد بحث عن منبع هذا النهر الذي رسمه في مدوناته. لم أندهش كثيرًا من رأي بطليموس؛ لأني اتبعت آراءه في شواطئ كثيرة مثل سواحل (Mauritania tingitana) و (Nigritiens) واكتشفت بنفسي عدة أخطاء من هذا القبيل. فهذا الإسكندراني لا يعرف عن المدن التي

لم يؤسسها الرومان سوى السواحل. لقد تحدث عن هذه المدن ودوّن استنتاجاته؛ لكنه لم يكن يعرف الكثير عن المكونات الداخلية لبلاد العرب، لقد اعتقد فقط هذا الرأي، وربما أكدّ بعض البحارة له أن خليج أبحر هذا الذي يشبه النهر يعتبر مصبًا للنهر. اقترف البحارة دائمًا مثل هذه الأخطاء دائمًا في كل العصور، على سبيل المثال تكرر نفس الخطأ حينما اعتقد البرتغاليون في ريو دي جينيرو أن الخليج الذي يشبه النهر هو نفسه نهرً. ومما لا جدال فيه أنه لا يوجد أيّ نهر في تهامة (Tehama) بكاملها الذي من الممكن اعتبار أنه نهر (Baetius)، وكما ذكرنا أنه على بعد أميال لا يوجد أيّ خليج ولا مرسى ولا أي شرم يتشابه مع مصب النهر مثل هذا الميناء، علاوةً على ذلك تعتبر المعلومة التي ذكرها بطليموس عن درجات العرض؛ ولهذه الأسباب أرى أنه مما لا شك فيه أن شرم أبحر هو (Baetii ostia). لقد تحدث أيضًا سترابو (Strabo) عن وجود نهر عند قبيلة الديابة التي ذكرناها آنفًا، والتي تتطابق مع (Dahlimar) في وقتنا الحالي ولاحظ أن هذا النهر معناه الذهب. وبسبب هذا الافتراض اتضح التشابه الكبير بين كلمة ديابة والكلمة العربية ذهب. أما الحديث عن رمال الذهب فلا مجال له هنا، وربما لم يكن موجودًا هنا أبدًا. هذا الافتراض أراه يرتكز على أساس لغوي خاطئ والسبب في هذا هو (Aelius Gallus) الذي استقى سترابو من تقاريره هذا المعنى المحتمل. ربما سمع القائد الروماني أيضا عن معنى هذه الكلمة (Deheb) وربطها باسم القبيلة (Debae) وبالشعب الذي يمتلك رمالا من الذهب محتمل وجودها في النهر، وعلى هذا الأساس بنى وجهة نظره التي تسببت في تضليل سترابو. ربما اعتقد الرومان أن أحجار الميكا التي رأيتها أنا بنفسي في الميناء هي الرمال الذهبية وأن هذا الخليج هو النهر ذو الرمال الذهبية.

في شرم أبحر لم تكن توجد في العصر الحالي مثلما كان الحال في العصور القديمة أية مدينة أو قرية؛ لأن بطليموس لم يذكر هنا سوى مصب النهر، كان يوجد فقط بعض البدو يسكنون في خيام قذرة ممزقة أقاموا سوقًا للحجاج اشترى منه عليّ بعض الأشياء. كان البدو في هذا المكان شعبًا فظًا ثقيل الظل؛ فعلى سبيل المثل كانوا يسخرون بصورة فظة من حاجٍ أحدب لا تستر ملابس الإحرام حدبته ويلصقون بها نبات القراص ويلطخونه

بالقار، بالإضافة إلى أنهم يتندرون ويطلقون النكات على الحجاج المساكين الذين كانوا يتقبلون هذا كله ويصبرون عليه؛ لأن الرجل منذ أن يرتدي ملابس الإحرام لا يُسمح له بأن يقاومهم أو يتعدي عليهم. كذلك لا يُسمح للحاج بقتل الحيوانات ولا حتى الحشرة المقززة؛ مما دفع بدو أبحر إلى التندُّر من الحاج المسكين، الذي تملؤه جيوش القمل التي يمكن جمعها في كيس، وإطلاق النكات للسخرية منه. ومع وجود هذه الطفيليات البشعة كان على الحاج المسكين استكمال رحلته حتى جِدَّة ومكة دون أية محاولات للتخلص من هذه الحشرات التي لا يُسمح حتى بطرحها بعيدًا باليد خوفًا من إصابتها.

أمّا بخصوص مياه الشرب هنا التي تعتبر نوعًا ما سيئة فأجد لها تعليلًا واحدًا؛ وهو أنه لم يؤَسس مكان يُعلي من أهمية جدة بمرور الوقت بسبب المرسى الكبير الآمن، الذي يتسع لعدة سفن أكثر من الميناء الحالي في جدة.

كلمة أبحر هي جمع بحر وتطلق أيضًا على الأنهار؛ لأن العرب اعتادوا تسمية النهر بحرا كما هو الحال عند المصريين الذين يطلقون على النيل كلمة "بحر". ولهذا السبب كان معنى أبحر "الأنهار" منذ زمن بعيد، وربما أدت هذه التسمية المزدوجة إلى اعتقاد البحارة أنه يوجد هنا نهر وليس بحرًا، ومن الممكن أيضًا أنه لنفس السبب كوّن بطليموس رأيه الذي ذكره. لأن بطليموس الإسكندرانيّ لم يذكر سوى نهرا اسمه (Baitios) وكتبه باللاتينية (Baetitus)؛ لذا فإنه من المحتمل أن يكون اسم أبحر هو الاسم الحديث فقط لهذا النهر. ولكن في الحقيقة أين نبحث الآن عن نهر (Baetitus) الذي ذكره بطليموس؟ يُدين ريتر هذا الرأي الذي يرى أن (Wakr) الذي ذكره نيبور هو هذا النهر المقصود من بطليموس؛ والسبب في ذلك أن هذا الخليج ليس به أي نهر يصب فيه. وكما ذكرت آنفًا فإنه يمكن عند ريتر (Ritter) قراءة أنه في تهامة بأكملها لا يوجد أي نهر تتطابق أوصافه مع نهر (Baetitus) الذي ذكره بطليموس. لهذا السبب يجب الإصرار على وجهة النظر التي تقول بأن شرم أبحر هو مصب النهر المفترض والأدلة التي تبرهن على خطأ آراء الرحالة القدامى كافية ومتوفرة الآن، ومنها أنهم ترجموا اسم أبحر "أنهار"، أو أنهم استنتجوا وجود نهر رماله من الذهب بسبب التشابه بين كلمة ذهب العربية واسم

قبيلة (Debae)، أو أخيرًا وهو التعليل الأخير والكافي وهو أنهم اعتمدوا على منظر هذا المرسى وطبيعته الذي يشبه النهر على أن هذا الشرم هو مصب النهر، وظلوا على قناعة تامة بهذا الرأي؛ لأنهم لم يبحثوا فيما بعد عن مجرى هذا النهر. يمكن توضيح معلومات بطليموس عن النهر المفترض وجوده بكل سهولة من خلال التقارير الخاطئة للبحارة عن الجغرافية الداخلية لهذا المكان.

أفصح صباح اليوم التاسع عشر من ذي القعدة عن أن الأيام التي قضيناها في رحلتنا كانت تعمها حالة من البهجة الصافية؛ فقد كنا جميعنا نعتبر السحب القليلة التي تظلنا رحمات من السماء، أمّا اليوم فقد تسببت نجمة الصباح الحارقة في إصابة بعض الحجاج المساكين بضربات الشمس. وعمومًا كانت الأحوال والظروف التي تواجد فيها الحجاج غير مريحة تماما؛ خاصة ما يتعلق بصحتهم والإجراءات غير الجادة لحمايتهم من الأشعة الحارقة، فقد عانى الكثيرون منهم من منغصاتٍ في الرحلة قد تبدو للمشاهد عن بعد هزلية ومثيرة للضحك؛ ولكنها للحجاج أنفسهم مخجلة جدًا؛ على سبيل المثال الانتشار الكثيف للحشرات الضارة وخاصةً القمل الذي كان يطير من على أحد الحجاج في أبحر. كان يُدعى هذا الحاج المُبتلى إسماعيل أفندي وهذا الحاج المُبتلى هو أحد العلماء، ومن سوء حظه أن الشعر الكثيف كان يكسو جسده كله، فوجدت الحشرات المقززة مرتعًا جيدًا في هذا الشعر. كانت الطريقة الوحيدة المسوح له بها للتخلص من هذه الحشرات هو هز جسده كله كي ينفض عنه هذه الحشرات ويعدي بها جيرانه حتى أصبحت المساحة الواقعة في محيط وجوده مكانًا موبوءًا يجب على الجميع تجنبه. على الرغم من ذلك كان لا مناص من وجود الناس بجواره والتصاقهم به لأن الكنجة "أم السلام" التي كنا على متنها كانت تكتظ بالمسافرين؛ لأنها كانت تستقبل على متنها كل الحجاج على طول الساحل من مرسى السلام حتى أبحر، فبلغ عدد الحجاج على متنها مائة وخمسين حاجًا تقريبا. ولأن "أم السلام" من المفترض أنها تسع ستين حاجًا فقط كي يقيموا على متنها في راحة؛ لذا استحالت السفينة إلى عبوة من أسماك الرنجة؛ ولكنها حوت داخلها الحجاج المساكين، الذين كانوا يقيمون فيها فوق أو على أو بجوار

بعضهم البعض، فكانت رائحة عرقهم مزيجًا من آلاف الزهور (Eau de mille fleur). سوف تصدقون كلكم كلامي وتتخيلون حالة التعرّق التي كان عليها هؤلاء الحجاج الملتصقين ببعضهم ولا تحسدوني على ما نتج عن هذا التلاصق والالتحام من روائح أُبتُليت بها حاسة الشم عندي. لقد تحدث بورتون (Burton) عن "رائحة الطيب التي تفوح من الحجاج"، والتي تعتبر سخرية لاذعة من الحقيقة. في الواقع لم يكن الحجاج يعانون فقط من ارتفاع درجات الحرارة؛ بل أيضًا من نزلات البرد التي ألَّمت ببعضهم، وهذا أمر يوّضح لكل إنسان ما يحدث للشخص، الذي اعتاد أن يرتدي ملابسه دائمًا ولا يخلع أي قطعة منها، حينما يُطلب منه فجأة أن يخلعها كلها. اعتاد الرجال المسلمون على لف أجسادهم أربع أو خمس لفات بوشاحٍ وقايةً من البرد والإصابة بنزلات البرد. أمَّا مع ملابس الإحرام فكان يجب الاستغناء عن جميع الملابس بالإضافة إلى هذا الوشاح أيضًا، مما كان له أسوأ الأثر على الجزء السفلي لأجسادهم، وتسبب في إصابتهم بأمراض مثل الإسهال والكوليرا والدوسنتاريا والحمى وما شابهها من أمراض تنتج حتمًا بسبب تعرية الجزء السفلي لأجساد الحجاج؛ لأن ملابس الإحرام قلّما أمكن اعتبارها ملابسًا؛ فهي عبارة عن قطعة قماش تُلف حول الجسد خارجيًا فقط، وتسقط من على الحاج عند أي حركة بسيطة؛ لذلك كان يوجد على متن "أم السلام" عدد من الحجاج ليس بالقليل يعانون من فظائع الحج بسبب منظرهم المقزز بدون ملابس تستر أجسادهم. هل كان الرسول قاصدًا أن تحدث كل هذه الفظائع للحاج كي تعذبه؟ إذا كان ذلك صحيحًا فهذا خير دليل على عدم ربوبية رسالته.

في الساعة الخامسة صباحًا أبحرت "أم السلام" ببطء نحو الهدف الجديد وهو الوصول إلى جِدَّة وميناء مكة الذي يُعد عند المسلمين مثل يافا عند المسيحيين وميناء أورشليم. هذا الأمل المفرح بث فينا النشاط والحيوية في أجسادنا العليلة، ونسينا الظروف المزرية التي نتواجد فيها، وسادت في المكان حالة من الروحانية عبر عنها أحد الشعراء الذي أترجم كلماته فيما يلي:

إذا أُصيب جسدك بالمرض،

فتوجه لرب السماء.
واترك همومك هناك،
وستزول عنك كل آلامك.
فهذه الدنيا لن تعطيك إلا
بؤسًا، ومَن يكن كل همه الدنيا،
فهو مريض بلا أوجاع،
ولن يبلغ الهدف الأسمى.
وسيكون كيوم ولدته أمه،
مَن مرِضَ جسدُه،
وسلَّم أمرَه لله،
فيكون قد وصل للهدف الأسمى.
إذا كان لروحك هدفٌ سامي ترنو إليه،
وتسعى إليه،
وهو أن تنتصر على كل إحساس بالألم،
فلا ترى ما يدّنس هذه الدنيا.
لذلك ستشملك رحمة الله، فلا تقنط
أيها الإنسان، حتى وإن كنت لا تزال مريضًا،
فلو اجتمعت في روحك هذه الخصال،
فلن تمرض في الحقيقة أبدًا.

تبلغ المسافة من شرم أَبحُر إلى جِدّة حوالي ميلين ونصف في الاتجاه الجنوبي. كل ما استطعت مشاهدته من السفينة أن هذا الساحل كان مسطحًا ولم تكن به نباتات رائعة. بالتوغل أكثر للداخل صادفنا قمة جبل عارية من أيّة نباتات تبعد عن الساحل حوالي ثلاثة أميال ويبلغ ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم. كتب موللر في ملاحظاته أن هذا الجبل هو (Tricoryphus Mons des Plinius) وهو محق في ذلك. كان الجبل يقع قبالة شرم أَبحر

الصخرة الكبيرة التي كانت رأسها العارية لا مثيل لها في عظمتها. حطّت طيور البحر عليها في أعداد جمة ومن بينها بعضٌ يؤكَل ولكن يحرم على الحاج الاصطياد أي التعرض لصيد مأكول بريّ وحشيّ سواء كان طيرًا أو غيره.

بعد الظهيرة رأينا أخيرًا كتلة هائلة من البيوت لاحت في الأفق خلف البحر، وارتفعت المآذن والقباب واصطف أمامها عدد من صواري السفن الشراعية وأحيانًا كان هنا وهناك شراع لأحد السفن البخارية، لقد وصلنا أخيرًا الميناء الذي طالما تقنا إليه؛ إنها جدّة البوابة التي ستوصلنا إلى مكة والجسر الذي سيقودنا للبلد الحرام والمفتاح الذي سيفتح لنا كل أسرار الإسلام. عمَّت حالة من القلق المصحوب بالبهجة بين جميع الحجاج لرؤية الميناء من على بعد. كانت وجوههم تشع شوقًا وشغفًا وملامحهم تتوهج تحمسًا للمكان، فهنا تقع مدينة أول أم للبشرية بأكملها، وفيها يوجد قبر أمنا حواء والذي أُشتق منها اسم هذه المدينة (جِدّة) الذي أضفى على المدينة قدسية ومكانة عالية، ولا غرو فهي ممر الحجاج إلى مكة. لم يتمالك رفيقي الشيخ مصطفى نفسه لرؤية هذا المنظر وسرعان ما ألقى على خطبته التالية:

"يا مغربيِّ! أنت الآن وصلت إلى مكان أم البشرية؛ فقل بصوتٍ عالٍ: السلام عليك أمنا حواء، السلام عليك! فهي ترقد هناك، من قبل أن توجد أنت في الدنيا. احمد ربك واشكره أنه خلقها من ضلع سيدنا آدم أبو البشر. فبدونها لم تكن أنت ستولد على هذه الأرض ولم تكن ستأتي إلى مكة لتحج، وهذا حظ لا يوصف. لذلك سبح ربك واشكره أنك الآن على مقربة من أم البشر".

استمرت خطبة الشيخ مصطفى حوالي ساعة؛ لأنه أخذ يكرر ما يقوله من بديهيات، بينما كانت "أم السلام" تشق طريقها بصعوبة في البحر إلى جِدّة بين الصخور والشعاب المرجانية التي كانت تحيط الميناء. وأخيرًا وصلنا جدّة في وقت الظهر. كانت نداءات "لبيك" تدّوي في المكان تحيةً من الحجاج لوصولنا إلى هدفنا جدّة التي طالما انتظرناها.





الفصل السابع
جِــدَّة

طريقة كتابة الاسم - معنى الاسم - (Badeo regia) - رسو السفينة في ميناء جِدَّة - إجراءات فحص جواز السفر - الابتزاز والرشوة - تعذيب موظفي الجمارك لي - المشقة في إيجاد مسكن-النُّزل- الدراويش المنافقون - نُزُل لا يُطاق - وأخيرًا الهروب منه - سكن جديد - أهل جِدَّة - أحد النخَّاسين الأثرياء - بعض حيَل مهنته - الصرَّافون في جِدَّة - أسعار العملات غير الثابت - أهل حضرموت - هنود من سورات - الزنوج - البدو - الحرفيون - الأزياء المختلفة - أثواب النساء المميزة - الصدرية - مستحضرات تجميل ووشم النساء - إحدى الحسناوات المشهورات - تربيتها المميزة - زيارة حنيفة - نتيجة مضحكة - ذبح خروف.

كُتب اسـم جِـدّة بطـرق مختلفة، فمثلًا نجد المستشرقين الفرنسيين يكتبـونها -Dsched da, (Dschidda Dschidde), Dschodda, Didda, Djidde وكتبها الرحالة الإنجليز بنفس الطريقة، وكتبها بعض الألمان Gidda, Gidde, Juddeh, Jiddah وكتبها نيبور (Dsjidda) وهذه هي أهم الأشكال التي كتب بها الرحالة الأوربيون اسم مدينة "جِدّة" أم البشر. يبدو لي أنّ طريقة الكتابة الألمانية هي الأسهل (Dschedda) في الكتابة؛ لأن الحروف تتطابق مع النطق الصوتي لحروف الكلمة العربية التي تعني "والدة الأم" مما يجعلني أزعم أن (Dschidda وDschidde) ليسا كتابة صحيحة. مَن يعرف اللغة العربية

سيعلم أنه في هذه الكلمة لا يمكن التفرقة بين حرفي (I وE) كما في حالات أخرى كثيرة وأن حرف (A) في آخر الكلمة من الطبيعي أن يحل محله (E). لا يوجد ثمة جدال حول معنى هذا الاسم؛ على الرغم من أنّه لم يذكره أي رحالة أوربي قبلي؛ وعلى الرغم من أن كل الجغرافيين حتى يومنا هذا يتجاهلون هذا المعنى، إلا أنّ ترجمته سهلة ولن يهتدي إليها كل مَن معه قاموس (Golius أو Freytag). علاوةً على ذلك يستخدم العرب هذا الاسم بشكل عام دون أن يعرفوا معناه؛ لذا تعجبت كثيرا من أن الرّحالة قبلي لم يسألوا أهل البلدة عن معنى اسمها. (Dschedda) معناها "والدة الأم" وهذا صحيح طبقًا لأصل الكلمة الاشتقاقي؛ لأن المقصود بستنا حوا (Sittna Hauwa) أم جميع البشر التي قضت آخر وقت في حياتها هنا، وتوجد مقبرتها في هذه المدينة التي سنراها حالًا وسيزورها جميع الحجاج. لعبت مكة وكل ما حولها دورًا كبيرًا في حياة الزوجين آدم وحواء؛ ففي مكة بنى آدم هيكلًا وعلى جبل عرفات القريب من الهيكل التقى مرة أخرى بزوجته بعد فراق استمر مائة وعشرين سنة. وفي نطاق هذه المدينة المقدسة رُزق آدم وحواء بالعديد من الأبناء والبنات. في كل مرة كانت تلد حواء توأمًا ولدا وأنثى، وكان حرامًا على الولد من البطن الواحدة أن يتزوج من أخته التي من نفس البطن؛ لكن يحل له الزواج ببنت من حمل غير حمله. جاءت حواء أخيرًا إلى جِدّة بعد حياة طويلة مليئة بالأحداث وماتت بها، بعد أن طافت بالبيت الحرام سبعة أشواط وصامت رمضان. هذه المفارقات التاريخية لا يندر أن تحدث في تقاليد الإسلام. لم يرد آدم أن يموت في جِدّة ولم يقتنع بأيّ مكان آخر سوى جزيرة سيلان التي وصل إليها بعد موت حواء بمائة عام بعد أن بحث في كل مكان عن حواء ثانية وتجاهل نصيحة الشيطان له بأن يكسر ضلعًا آخرًا لتخرج منه حواء ثانية مثلما خرجت الأولى. هذه القصة تتناقض بشكل واضح مع ما ذكره مسيحيو الشرق حيث لم يذكروا مكان المثوى الأخير لآدم سوى أورشاليم. أترجم أبيات الشعر التالية حول الآراء المختلفة بشأن مكان قبر آدم:

أيّ الرأيين أصحُّ لا أعرف،

ولكني أعتقد بشكلٍ واضح،

أنّ كلًّا من الحاخام والراهب،
يحيدان عن الرأي الصحيح.

أمَّا بخصوص جِدّة في العصور القديمة فيرى موللر أنها هي (Centus vicus)، ومانيرت يـرى أنهـا (Badeo regia) والبعـض الآخر يرى أنها هي (Machura و Makoraba des Ptolemäos)؛ على الرغم من أنّ بعض الرحالة يستبعدون هذا المكان من مكة. بالنسبة لي لأني لم أعتقد أن أُبحر هي مصب النهر (Baetius)؛ لذا أرجح أن تكون جِدّة هي (Badeo regia). لقد ذكر بطليموس أن (Badeo) تقع على بعد ٢٥ درجة جنوبًا من نهر (Baetius)، والآن تُقَدَر المسافة بين أُبحر وجِدّة بحوالي عشر دقائق؛ ولكن عندما ننطلق من نهاية الخليج أُبحر من ناحية الشمال، حيث افترض بطليموس أنه مصب لنهر (Baetius)، سنجد أن فرق الدقائق هذا يتناقص من ربع الساعة إلى عشر دقائق؛ ولكن هذا ليس كافيًا لكي نتجاهل رأي مانيرت الذي يقول بأن جِدّة هي (Badeo regia). ليس لديّ أي فكرة عن السلالة الحاكمة التي أطلقت على هذه البلدة لقب "المملكة" وكذلك لم أعثر على تفسير لهذا ولن يجده القارئ أبدًا. لا توجد أيضًا أيّة آثار وأطلال من العصور القديمة في جِدّة، فقد بحثت عنها بنفسي بلا جدوى، ولم أجد أيًا من المواطنين قد رآها من قبل. ربما كان من الأجدر أن نستنتج من غياب المعلومات الكافية عن هوّية هذه البلدة أنها هي (Badeo regia)، ولديّ دليل عن الأهمية المحدودة لهذه المدينة سابقًا وهو وجود مقر إقامة الملك؛ لكنها كانت مملكة صغيرة ومجهولة تتكون قصورها من أكواخ الطين ومعابدها مبنية من الطوب اللبن الذي يجف في الهواء ولا يُحرق في الأفران، ولم تترك ثمة أثرًا واحدًا يدل عليها.

لا أعرف إذا ما كان من الممكن قصر (Badeo) السابقة على جِدّة؛ فمن بين الجغرافيين العرب يذكر الاصطخري[1] (Isstachri) عن جِدّة أنها كانت عامرة بالسكان وبها مستوى معيشة مرتفع، وهي ثاني دولة في مدن الحجاز تشتهر بالتجارة وخاصةً تجارة الخيول؛ لأنه على مر العصور تعتبر جزيرة العرب هي المكان الوحيد للخيول الأصيلة.

١ Mordtmanns deutsche Uebersetzung des Liber Climatum des Isstachri. Hamburg 1840. S. 9. (المؤلف)

وفي نفس وقت الاصطخري وربما قبل ذلك في عام ٨٧٠ ذكر بطريرك الإسكندرية في الحوليات التي كان يصدرها باللغة العربية عن ميناء جِدّة الذي كتب مترجمه (Pocock) اسمه بهذه الطريقة Jodda[١] امتدح الجغرافيّ العربي الإدريسي[٢] (Edrisi) جِدّة كثيرًا، على سبيل المثال أنها دولة غنية مشهورة بالتجارة ورَغد العيش وترفه. ففي عصره كان حجم تجارة الحجاج أكبر عشرين مرة مما هي عليه في وقتنا الحالي، وكان ربع الحجاج على الأقل يأتون إلى مكة عن طريق جِدّة ونصفهم تقريبًا تجار يزاولون مهنة التجارة في مكة؛ فقد كانت إحدى التقاليد العربية القديمة أن الحجاج التجار يخفضون تكاليف الحج عن طريق بيع أو استبدال بضائعهم. بهذه الطريقة أضحت جِدّة من أهم مراكز التجارة في جزيرة العرب بحكم كونها ميناءًا وموضعًا لقدوم الحجاج القادمين من الهند والنوبة وجنوب شرق إفريقيا، وأيضًا كثير من الحجاج القادمين من سوريا ومصر وتونس وطرابلس والجزائر والمغرب؛ حيث كانت تُباع فيها جميع البضائع صعبة النقل. لقد اكتسبت جِدّة أهمية بالغة لأنها أهم مراكز التجارة الرائجة في بلاد الإسلام، وتتضح هذه الأهمية لي على سبيل المثال في وقتنا الحالي وكذلك بعد انتهاء موسم الحج. فقد كان يأتي إلى مكة في عصر خلفاء دمشق وبغداد حوالي مائة ألف حاج سنويًّا.

تختلف جِدّة في وقتنا الحالي عن باقي المدن الإسلامية، فهي على النقيض تمامًا من تلك المدن التي يعتريها كلها التدهور والانحطاط بلا استثناء في هذا القرن. وبخلاف مدينة الإسكندرية في مصر لا يوجد في هذا القرن دولة مسلمة قد ارتقت إلى مكانة مرموقة أو حافظت على ما كانت عليه من ازدهار، أمَّا الإسكندرية فقلّما صح تسميتها مدينة إسلامية لأنها قد وصلت لما هي عليه من رواج وتقدم بسبب التجار الأوربيين الذين استوطنوها. فيما عدا ذلك تعتري كل المدن التجارية الرئيسة في كل بلاد الإسلام حالة واضحة من الانحطاط والتدهور، وهي حالة فريدة لا مثيل لها في التاريخ. ضعفت شوكة الإسلام منذ فترة طويلة؛ لكن الآن يبدو أنه في طور الانهيار؛ فكل ما شكَّل بريقه فيما مضى كالعلم

١ Euthychii Patrarchae Contextio germmarum sive Annales, Editio Pocock. Oxford 1670

٢ Jauberts französichen Übersetzung des Edrisi. Paris 1836. Lateinischen Üebersetzung von Gabriel Sionita und Jonnes Hesronita. Paris 1619 (المؤلف)

والتعلّم والفنون والصناعة والأنشطة التجارية قد فقد قيمته منذ أمدٍ طويل، وأضحت سلطته السياسية مسارًا للسخرية، فعلى سبيل المثال التجارة قد تقهقرت إلى نقطة الصفر، وظل الإسلام صرحًا باليًا مفتتًا على حاله، ويبدو أنه سيظل أيضًا هكذا لوقتٍ طويل على التعصب الديني والقدسية القائمة على الرياء والنفاق، وتُعَد شعيرة الحج نفسها إحدى دعائم هذه القدسية المزّيفة. لهذه الأسباب يمكن القول أن كلًّا من مكة وجِدّة لم تشاركا في تدهور الإسلام مثل باقي المدن بسبب هذا المبدأ الوحيد الذي لا يزال يحفظ للإسلام ازدهاره ورونقه؛ ولأن التعصب الديني يمد هاتين المدينتين بروافد جديدة وحياة جديدة كل عام بسبب موسم الحج، مما يجعل كيان هاتين المدينتين غير مقيد بوقت؛ بل جعل بقاءهما مشمولا دائمًا برغد وترف العيش فيهما. لذلك تبرز جِدّة كنقطة مضيئة بين كل المدن الإسلامية التي يحويها رداء الاضمحلال المظلم الذي لم تنسحب منه شمس الحياة بعد؛ على الرغم من أنها لا تسطع بنفس التألق واللمعان اللذين كانت عليهما في القرون السابقة. وبناءًا على ما سبق نجد المسافر الشرقي الذي اعتاد على أكوام التراب والحُطام الذي يُطلق عليه بلاد المسلمين، التي قد يتقزز منها إلى حد الغثيان، يبتهج ويسعد بقدومه إلى جِدّة؛ لأنه بدلًا من الانحطاط المعتاد والبؤس الذي لا حد له، يمتع عينيه وينعش روحه بمناظر تجعله يشعر بإنسانيته حتى لو كان هذا الأمر ظاهريًّا فقط.

لقد كنت مندهشًا ومسرورًا حينما وقعت عيناي على جِدّة، فقد كان منظرًا خلابًا يثير البهجة في النفس ويجعلنا نتناسى وحشية الصحراء. لقد كانت تقع على ربوة عالية بين طريقين طويلين على جانبي البحر، محاطة بأسوارٍ عالية تبرز عليها هنا وهناك أبراج للمراقبة بها فتحات ومدافع. لاحت لنا بطول المرسى، الذي كان يقع تحت حراسة إحدى فرق المدينة، بيوت بيضاء من الأحجار المرجانية وأحجار الكالسيت، وارتفع بينها أهم مسجدين في جدة بالقباب المفرغة والمآذن الصغيرة، وتناثرت في بعض الأماكن شجيرات السنط التي تشبه أوراقها الريشة، مما زاد هذا المنظر البيوت بهاءًا وحسنًا بسبب الطبيعة. حينما غادرنا "أم السلام" دون أي تأثُر ودون أن نودّع ربانها المريض بالأمراض الجلدية، ونزلنا في قوارب صغيرة، وأخذنا نجدِّف حتى نصل إلى البر، وذلك

لأن ميناء جِدّة كان ضحلا جدًا لا يصلح لرسو السفن الكبيرة، وعندما نزلنا أخيرًا إلى أحد الطريقين الطويلين شعرت بسعادة غامرة؛ لأني وجدت جِدّة تختلف تمامًا عن باقي المدن الإسلامية. لقد أيقظ المنظر الخارجي الجميل في المدينة الآمال بداخلي، حقًّا هذا الجمال ليس زيفًا؛ بل كان دليلًا على حالة الترف ورغد العيش بها مثل البيوت والقصور والمساجد التي بُنيت على غرار المباني في المدن الكبيرة، ورواج التجارة في المتاجر والأسواق وانتعاش التجارة البحرية في الميناء، وحركة المرور الهائلة للحجاج في ميناء جِدّة، كل هذه العوامل تضافرت من أجل إحداث الازدهار الذي ساد هذه المدينة؛ لكن كل ذلك لم يُخفِ القذارة التي كانت على ملابس إحرام هؤلاء المسلمين.

قبل أن أتناول بالتفصيل وصف "مدينة الأم الكبرى" أريد أن أتحدث عن طريقة استقبال الجمارك لنا نحن الحجاج المساكين المعذبين المجهدين الذين تعرضنا للسلب والنهب من قبل الجميع في رحلتنا. لم تكتف الحكومة التركية بما تعرضنا له من ويلاتٍ طول الرحلة مثل الروائح النتنة والحشرات الضارة والحُمى وضربات الشمس ونزلات البرد والإسهال وما شابه ذلك من مشاكل أخرى، سعت في جعل إجراءات فحص جوازات السفر البغيضة والجمارك هي أول ما ينتظر الحاج. بمجرد وصولنا نحن الحجاج المساكين بملابس الإحرام، وبينما كنا لا نزال نلهث ونتصبب عرقًا ونعاني من حمل أمتعتنا، استقبلتنا مجموعة من ضباط الشرطة الأتراك الوقحين الحقراء اللحوحين الذين لا يُطاقون؛ لنخضع لسلسة من إجراءات التعذيب الجسدي والأخلاقي منهم، الغرض منها على أيّ حال ابتزاز الحجاج والحصول منهم على أكبر قدر من البقشيش. لقد حذرني الكثيرون على متن السفينة من احتيال رجال الشرطة وموظفي الجمارك الذين لا يجبرون الحجاج على دفع الرشوة فقط لهم؛ بل اعتادوا على سرقة ما استطاعوا سرقته؛ لأن الحاج كان يحتفظ بنقوده في أمتعته وليس معه في حافظته؛ لأن ملابس الإحرام ليس بها جيوب، كما لا يُسمح للحاج بحمل حافظة نقوده. بهذه الطريقة كان يعلم موظفو الجمارك الحقراء ما يملكه كل حاج من نقود، وعندما لا ينجحون في سرقة المال كانوا يطالبون الحجاج بمبالغ أكبر تحت بند البقشيش والإكراميات حسب ما يملكه كل حاج من مبالغ نقدية في

أمتعته. لم يكن في استطاعة الحاج المسكين أن يُخفي عنهم النقود أو ينكر وجودها؛ لأنهم كانوا يرون كل شيء. كان الحل الوحيد أمام معظم الحجاج كي يحافظوا على أموالهم من السلب والنهب أن يدّعوا أنها ليست أموالهم؛ ولكنها مال مقترض. كان رد فعل موظفي الجمارك الابتسامات الساخرة ويقولون بأنها أعذار واهية لن تجدي معهم، وحتى لو كانوا صادقين (في معظم الأحيان تكون فعلًا هي الحقيقة)، فلن يصدقوهم. لا مناص من أن يدفع الحاج لهم البقشيش وإلا كان سيترك أمتعته لوقتٍ أطول بين أيديهم حتى يجد وسيلة حماية في جِدّة تنقذه من هؤلاء الموظفين النصّابين ومحاولات السرقة التي يقومون بها. لكن وسائل وهيئات الحماية هذه كانت تتجنب سماع كل الحجاج الذين يحتفظون بأموالهم وأشيائهم الثمينة في أمتعتهم، وكما ذكرت آنفًا فإن الحجاج لم يكن يُسمح لهم بحمل النقود معهم ولكن فقط في أمتعتهم، وكانوا يتجنبون سماعهم حتى يستطيع موظفو الجمارك سرقتهم. ربما يفكر بعض الأوربيين في ما يأتي: "أيها المسلمون الأغبياء! لماذا لا تضعون حزامًا جلديًّا به حافظة للنقود حول خصركم؟" نعم! إنه الحل؛ ولكن طبقًا لإحدى فتاوى شيخ الإسلام حُرّم هذا الحزام الذي اعتاد الحجاج لبسه من قبل. لا يوجد شيء أكثر شؤمًا من هذا الحزام على الحاج. لم يبق إذن للحاج سِوَى أن يحمل المبالغ النقدية في أمتعته التي غالبًا ما لا يُحكم غلقها أو تُغلق بطريقة سيئة أو يحتفظ بها في صُرَّة يسهل لأي شخص أن يفتحها؛ لأنه لم يكن من المعتاد أن يمتلك الحاج أكياسا للنوم أو صندوقا للقبعات أو حافظات للنقود أو أمتعة يمكن إغلاقها. كانت تعتبر حقيبة السفر من علامات الرفاهية، و كانت غالبًا مصنوعة من الخشب بأشكال بدائية، فحقيبة السفر العادية المصنوعة من الجلد بالنسبة للأوربيين سوف تثير الشك في مالكها وسيعتبر كافرًا إن لم يحتم من لعن الآخرين له برتبته العالية. فأي شيء متحضر يمتلكه المسلم يكون لافتًا لنظر الآخرين وغير معتاد عليه بينهم، مثلما أخطأ برتون (Burton) ولم يأخذ حذره فاستعمل البوصلة أمام أحدهم الذي اعتبرها أداة سحرية سيئة السمعة يرهبون بها المسلمين دائمًا.

عند وصولي إلى ميناء جِدّة وقعت أنا أيضًا في أيدي الشرطة وموظفي الجمارك. في البداية كابدت عذاب فحص جواز السفر حين طلب مني أحد ضباط الصف أوراقي بلهجة فظة آمرة توقعت منها التلميح بطلب البقشيش. كان جواز سفري لا ينقصه شيء، واعتقدت أنه حينما يراه سوف يتركني أكمل طريقي دون عقبات؛ لكني كنت مخطئًا في ذلك، فبمجرد أن رأوا جواز سفري الفرنسي الذي أمتلكه لأني جزائري انحنى لي الموظف؛ مما قد يكون معناه أنه ينحني بكل احترام أمام حماية دولة عظمى مثل فرنسا لرعاياها؛ لكني استشعرت في نفس الوقت رائحة السخرية من الموقف فأدركت سريعًا أنه كان يقصد نصب فخ لخداعي. لقد اتضحت لي نيته الحقيقية فيما بعد؛ فقد قال لي الموظف بكل وضوح أني أحتاج إلى تأشيرة من القنصلية قبل أن أخطو خطوة واحدة داخل المدينة بدون مصاحبة الشرطة لي، وبالتالي سيرافقني أحد رجال الشرطة إلى القنصلية ولختم جواز سفري ثم أعود إلى ضابط الصف المزعج؛ كي أحصل على تصريح دخول جِدّة. تهيأت نفسيًا لتنفيذ هذا الشرط الصارم، وهو أن يصطحبني أحد رجال الشرطة الذي كانت ترتسم على ملامح وجهه السخرية والتهكم، مما جعلني أُدرك أن شيئًا ما سيئًا سيحدث لي قريبًا. وهذا ما حدث بالفعل. فعندما غادرت المرسى مع ضابط الصف اعترض طريقي أحد موظفي الجمارك وأخذ كل أمتعتي مدعيًا أنه لا يُسمح لي بأخذها. كيف سأتصرف الآن؟ لم أستطع ترك الأمتعة في مبنى الجمارك وإلا كنت سأشحذ باقي الرحلة؛ لأنه مما لا شك فيه أن هؤلاء الموظفين ورجال الشرطة كانوا سيتقاسمون نقودي وأغراضي العزيزة على قلبي جدًّا فيما بينهم، ولن تستطيع أيّ قوة في العالم أن تعيدها لي. المخرج الوحيد الذي رأيت أنه قد ينقذني من مأزقي هذا هو أن أرجو موظف الجمارك أن يفحصوا أمتعتي حالًا في هذا المكان؛ لكنهم تهكموا مني وأجابوني بأنه يُسمح بفحص الأمتعة فقط حينما ينفّذ صاحبها طلب الشرطة. وهنا خطر ببالي سريعًا أن موظفي الجمارك قد تواطئوا مع ضابط الصف من أجل ابتزازي والحصول على المزيد من البقشيش. ماذا يجب على أن أفعل الآن؟ أريد أن أستعيد أمتعتي وفي نفس الوقت أذهب إلى القنصلية، ربما سيوفر لي ذلك نفقات البقشيش؛ ولكن من المحتمل أن يكون ذلك السبب في خسارة كل ما معي من نقود داخل الأمتعة،

وليس من المؤكد أن القنصلية قد تعيد لي ما سأفقده حتى لو تقدمت هي بالشكوى باسمها وأنا نفسي أشك في هذا؛ لأن القنصلية الفرنسية اعتادت حماية أبناء فرنسا الأصليين فقط؛ لذلك لم أستطع أن أعتمد على القنصلية، وحزنت على سفري كأحد رعايا إحدى الدول العظمى؛ لأني رأيت بنفسي كيف يعبر المواطنون الأتراك مرحلة التفتيش على جوازات السفر بكل سهولة وبلا مضايقة، ويُطلق سراحهم بعد أن يدفعوا مبلغًا صغيرًا فقط كبقشيش. كنت أنا الوحيد باعتباري أحد رعايا "الأمة الكبرى" الذي خضع لإجراءات فحص جواز السفر البشعة تلك. اصطحبني موظف الجمارك وعدت إلى ضابط الصف الذي أجريت معه في بادئ الأمر نقاشًا هزليًا، تحوّل بعد ذلك إلى حديثٍ جاد. كان الشق الهزلي بخصوص الجنسية المثبتة على جواز سفري، فتناقشت مع الأونباشي أني لا أفهم كيف أكون من حاملي جواز سفر إحدى أهم الأمم على مستوى العالم وأخضع لتلك الإجراءات الشكلية بينما يُسمح للمصريين أصحاب الملابس الرثة بالدخول إلى المدينة. رد عليَّ الأونباشي بمزيد من التهكم بأنه لا يشك البتة في أن جواز سفري ذا قيمة عظيمة أكثر من أي جواز بلد أخرى؛ لكنه عملًا بالمثل الشعبي: "من يملك الكثير، يُطلب منه الكثير"؛ لذلك يُطلب منك أنت حامل هذا الجواز القيّم التزامات لا يمكن طلبها من الآخرين.

إن المغزى الحقيقي من كلمات الأونباشي الخبيث كما يأتي: "أنتم الزنادقة الملعونون القادمون من الجزائر تعتقدون أنه لكم الحق في الحماية الفرنسية؛ لكننا سوف نريكم أن هذا الحق بعيد عنكم، وسنذيقكم المزيد من العذاب أكثر مما يتكبده أيّ حاج لا يتمتع بحماية دولة عظمى له، ويمكنكم مساعدة أنفسكم فقط بدفع ما معكم من نقود." هذه الكلمات التي لم يتفوه بها الأونباشي؛ لكني استخلصتها من قسمات وجهه، كانت هي الحقيقية الكاملة. الأسوأ في كل هذا هو أن هؤلاء الأوغاد كانوا يستندون حتى الآن على خلفية قانونية، فيما عدا المطالبة بالرشوة، ولم تتقدم القنصلية حتى الآن بأيّ شكوى ضدهم؛ لأنهم لم يفعلوا شيئا سوى أن أمروني بمجاملة القنصل الذي أظهر هؤلاء الأوغاد احترامهم لفرنسا أمامه في هذا اليوم. دار نقاش جاد بيني وبين هذا الأونباشي عن إعفائي من دفع الرشوة، واتضح لي الآن أنه لا مناص من دفعها له. كانت المبالغ

التي طالب بها هذا الموظف الكبير في البداية مضحكة جدًا، حتى أنه ساورني الشك في أني سأستطيع الاتفاق معه. وبعد شدٍ وجذب في المفاوضات بيني وبينه وصلنا إلى اتفاق أنه سيكون راضيًا لو دفعت حوالي مائة قرش (كان هذا المبلغ يعادل آنذاك حوالي اثنين وعشرين فرنكا). أمّا باقي الحجاج الذين كانوا من الرعايا الأتراك فكان عليهم أن يدفعوا عشرين قرشًا عن كل حاج، وأنا بفضل جواز سفري الفرنسي كان عليَّ دفع خمسة أضعاف ما دفعوه من رشوة.

ما حدث هذا لم يكن سوى المقدمة، أمّا الآن فقد وصلت لمصلحة الجمارك حيث دار الحدث الأساس للقصة. انقضّ حوالي عشرة موظفين على حقيبتي (عبارة عن صندوق خشبي لونه أحمر مصنوع في الجزائر واخترته بالذات لأنه يخلو من أي صلة بالحقائب الأوربية) وعلى الصُّرَر الأربع التي ملأتها بالملابس والبضائع (حتى أبدو بمظهر الحاج الثري، الذي يمارس التجارة بشكلٍ مؤقت في موسم الحج). أفرغ الموظفون كل محتويات حقيبتي وبعثروا كل متعلقاتي الشخصية على الأرض فأحدثوا أكبر فوضى يمكن تخيلها في المكان، ولم تنته هذه المضايقات بذلك فحسب. يعتبر العبث بمحتويات حقائب المسافرين وإخراجها من مكانها هو ذروة التعذيب التي يتعرض لها الضحايا من المسافرين عند موظفي الضرائب الأوربيين الذين يتقاضون الرشوة أيضًا أحيانًا، بينما كان هؤلاء الموظفون البرابرة هنا أكثر براعةً في التعذيب، فقد ابتكروا ضربًا جديدًا من وسائل الابتزاز كي يجبروا المسافر على دفع المزيد من البقشيش. فبمجرد أن انتهوا من إخراج محتويات حقيبتي وإلقائها على الأرض تظاهروا جميعا بأنه يجب عليهم القيام حالًا بمهام أخرى في مصلحة الضرائب الجمركية، وجروا جميعا وتركوني بمفردي وسط أشلاء حقيبتي المتناثرة في كل مكان، والتي لم يكن مسموحًا لي بجمعها لحمايتها من اللصوص الذين كانوا منتشرين حولي في كل مكان أو على الأقل حمايتها من الضياع؛ وذلك بسبب أنها لم تكن فُحصت بعد. لم تكن توجد طريقة أكثر جدوى لابتزاز الحجاج هنا أكثر من هذه المناورات؛ لأنه بالطبع في مثل هذه الظروف لن يتمنى الحاج الذي يرى أشياءه الخاصة به ظلت طويلًا مشتتة متناثرة على الأرض والتي لم تُسرَق بعد، سوى أن يُسمح له بجمعها

مرة أخرى، وهذا لن يحدث إلا إذا حصل موظفو الضرائب الجمركية، الذين يجب عليهم فحص هذه الأشياء، على ما يريدون من بقشيش. للأسف لم أستطع أن أجري بنفسي وراء الموظفين؛ لأنه كان يجب عليَّ أن أحمي أشيائي من الحجاج أنفسهم الواقفين حولها. لكن لحسن الحظ كان معي عليّ، فأرسلته وراءهم وأمرته أن يعد كل موظف على حدة بمبلغٍ من المال وأن يجعل الجزء الأكبر من نصيب أكبرهم رتبة والمبالغ الأقل للموظفين الأصغر في الرتبة. عاد عليّ بعد نصف ساعة، وقال إنهم موافقون على المبالغ التي ذكرتها لهم؛ لكنهم لا يريدون المماطلة في تحقيق الوعود. أعطيت عليّا المبالغ المطلوبة على الفور لرشوة موظفي الجمارك والتي بلغت قيمتها مائتي قرش (حوالي واحد وعشرين جيندر) (Gulden). عاد هؤلاء البرجوازيون المنافقون وشتتوا أغراضي مرة أخرى، وسرقوا مني عمامة ووشاحًا ومنديلين من الحرير وزوجا من النعال المغربية، وكل ما أعجبهم من أشيائي أخذوه، ثم أطلقوا سراحي وسمحوا لي بجمع أغراضي من على الأرض؛ حيث اكتشفت سرقة بضائع تُقدر قيمتها بخمسمائة قرش قام بعض الموظفين أنفسهم بسرقتها وجزءا آخر من الحجاج الأتقياء ومن ساكني جِدّة الذين كانوا في المكان. لم أستطع طبعًا أن أطالبهم بأن يعيدوا لي أشيائي المنهوبة؛ لأن اللصوص أنفسهم كانوا من الأعيان والوجهاء وكبار الموظفين. لذلك كان يجب على أن أشعر بالسعادة لخلاصي من هذا المكان ومن موظفي الجمارك بعد خسارة ثمانمائة قرش (ما يعادل آنذاك في جِدّة ٨٤ جيندر).

أخيرًا أصبحت حرًّا، تنفست الصُعداء وتناسيت خسارتي الفادحة التي كنت أتوقعها على أيّة حال. حمل عليٌّ حقيبتي وحمل أحد الهنود ذو الملابس الرثة، الذي يعمل أهل بلدته هنا حمالين للأمتعة، الصُّرر وتحركنا ببطء من هذا المكان صوب داخل المدينة حيث تمنيت أن أجد مأوى لي في أحد النُزل التي تشبه الحظائر حيث لا يوجد فيها سوى أربعة جدران.

في طريقي بحثًا عن السكن تمكنت من ملاحظة الشوارع والبيوت وموقع جِدّة على وجه الدقة. تقع مدينة "الأم الكبرى" على الخريطة كما يأتي: تقع جِدّة في شرق أحد الخلجان الرملية، ترتفع عليه أربع جزر صغيرة أو على الأصح شعاب مرجانية تمتد من

الشمال للجنوب؛ أي تمتد هذه الشعاب في اتجاه الشوارع الرئيسة، من بين هذه الشوارع هناك شارعان جديران بالذكر؛ أحدهما هو الرصيف البحري الذي ذكرته آنفًا والذي يبلغ طوله ألف وأربعمائة خطوة بامتداد الميناء، والشارع الآخر هو الموجود خلف البيوت الواقعة على هذا الرصيف. تعتبر البيوت في هذين الشارعين فخمة جدًّا على الأقل بالنسبة لوجودها في بلدٍ عربي. شُيد بعضها من الأحجار المرجانية والبعض الآخر أعتقد أنه بُني من الجرانيت الخشن الذي تعرفت عليه؛ على الرغم من الطبقة البيضاء فاقعة اللون التي تغطي البيوت، ويتكون معظمها من طابقين، وبها شرفات جميلة بدلًا من الأسقف و نوافذ كبيرة نوعًا ما؛ مما كان له ضرر في الصيف وهو السماح بدخول القدر الأكبر من القيظ إلى داخل البيوت. لاحظ بوركهاردت أن هذه البيوت تنقصها للأسف الحجرات الباردة التي توجد في كل بيوت سوريا ومصر؛ حيث يوجد ما يُسمى بوسط الدار (Us-du-Dar) (وهو عبارة عن فسحة كبيرة مفتوحة للسماء وسط الدار يظللها البيت المرتفع دائمًا) وبالتالي يتوزع الهواء البارد على باقي الغرف المحيطة بها. حكى تقريبًا كل الرحالة المشهورون عن هذه الغرف الباردة. ولكن هنا بدلًا من هذه الغرف الباردة في قلب الدار كانت توجد الصالة حيث يجلس سيد البيت، بينما تجلس النساء في لهيب الغرف الداخلية حيث يقضين حياتهن كما لو كنّ في السجن مثل سائر النساء في البلاد الإسلامية. كان التكوين الداخلي لهذه البيوت يتطابق مع شكلها الخارجي، كما اكتشفت ذلك بنفسي من خلال زياراتي المتكررة لهذه البيوت. لقد ذكرت سابقًا أنَّ جِدّة تختلف عن باقي الدول العربية بعدة مزايا ليس فقط لأنها حققت توقعات المشاهد السطحي وملاحظاته الدقيقة؛ بل لأنها تخطتها بمراحل. توجد على وجه الخصوص هنا هذه الغرفة الباردة؛ أي صالة البيت، فقد كانت في جِدّة مؤسسة جيدًا ونظيفة للغاية لدرجة أن من يُسمح له بالإقامة فيها يكون محظوظا. فُرشت الأرض بحصائر هندية جميلة؛ لأن السجاد كان سيجعل المكان أكثر قيظًا، وطُليت الجدران بأكملها وفي بعض البيوت حتى منتصفها بالصدف الذي ربما تبلغ تكلفته ثلث التكلفة في أوربا، ولا يندر وجود منضدة صغيرة من الصين مطلية بطلاء فاخر، ومزهرية ورد من اليابان تقف على أحد الأرفف،

وزُيِّن المكان ببعض التحف المصنوعة من العاج، وباختصار كان يبدو الأمر وكأن الشرق بأكمله قد ساهم في تزيين وزخرفة علبة الحلوى هذه. هذا الثراء والترف الحقيقي في العيش في الشرق، والذي لن تراه في أيّ مكان (لأن الباشاوات الأتراك الأثرياء يقلدّون فقط الثراء في أوربا ويستخفون بكل ما هو محليّ) يمكن إرجاعه لثراء أهل جِدّة الذي يعتبر حقًا ضخما بالنسبة لظروف هذه البلدة الصغيرة. يعيش في جدّة مالا يقل عن اثني عشر مليونيرًا؛ أي كائنات كادت أن تصبح أسطورة الشرق، من بين هؤلاء يوجد اثنان يمتلك كل منهما سفينة بخارية، وهذا أمر يُدهش كل مَن يعرف أحوال المسلمين، فما كنت سأصدق وجود المسلم الذي يمتلك سفينة بخارية والمسلم المليونير الذي يسكن في بيتٍ فخم مُزين بأثمن التحف قبل مجيئي إلى هنا ورؤية ذلك بنفسي.

كان كل أثرياء جِدّة الذين كانوا جميعا تجارًا يقطنون في هذين الشارعين الرئيسين ويمتلك كل واحد منهم بخلاف بيته خزانًا للمياه الصالحة للشرب، ويوجد في نفس الشارعين عدد من المخازن اسمها باللغة العربية جيلانية (Dschilania)؛ وهي عبارة عن مباني كبيرة مُشيّدة مثل الحظائر مُحاط فناؤها الداخلي الفسيح بأقبية وصالات تُستخدم أيضًا لتخزين البضائع أُعدت جيدًا لهذا الغرض. كان للرصيف الكبير الممتد بطول الميناء أو بالأحرى للرصيفين؛ لأن هذا الرصيف كان مقسومًا عند منتصفه إلى قسمين بسبب مبنى الضرائب الذي برز حتى الماء، منظرٌ مهيبٌ إلى حدٍّ كبير؛ نظرًا لخزائن البضائع والبيوت الخاصة الفخمة وقصر الباشا، الذي يقع شمال الرصيف، وبوابة الباشا الشريف المزوّدة بسور ذي فتحات، والقلاع وإحدى البطاريات[1] الموجودة في الجنوب وإحدى قلاع الحصن (كان مهدّمًا بطبيعة الحال). كانت الحياة على هذا الرصيف حيوية للغاية وتتميز بالتنوع، ولم يكن مسموحا سوى للسفن الصغيرة بالرسو مباشرة على هذا الرصيف؛ أمّا البضائع التي ظلت في الميناء الخارجي فقد كان يتم إنزالها هنا، وكانت تُصنف إمّا إلى مكة أو جِدّة. بخلاف هذا الميناء الكبير الذي يمتد الرصيف البحري بطوله كان يوجد في جِدّة ميناءان آخران؛ أحدهما يقع شمال الرصيف البحري عند باب

١ البطارية أو السرية هي أصغر وحدة نارية تكتيكية، وتتألف من عدة فصائل رمي ووحدة قيادة، ويمكن أن تعمل مستقلة أو تدخل في قوام كتيبة المدفعية (المترجمة).

الشريف مباشرة والآخر اسمه "ميناء القادس" (Galeeren-Hafen)، ولم يكن به في وقت نيبور أيّ قوادس[1]، وكان يصلح في الشتاء لصيد البط عندما يكون منسوب المياه به مرتفعًا. أمّا الآن فقد أصبح مغمورًا بالرمال حتى صار من الصعب تأكيد هذه المعلومة الأخيرة عنه. هذان الخليجان جعلا الجزء الذي يقع بعد الميناء وهو الرصيف البحري كأنه شبه جزيرة محاطة من ثلاث نواحي بالماء. لم يكن ارتفاع منسوب المياه واحدًا في كل أوقات السنة. وبوجه عام كان منسوب المياه في البحر الأحمر أعلى في الشتاء عنه في الصيف بسبب الرياح الشمالية التي كانت سائدة في الموسم الماضي والتي ساعدت على تدفق المياه من خلال مضيق باب المندب والمحيط الهندي؛ بينما في الشتاء تسببت الرياح الموسمية التي هبت من اتجاه الهند جنوبًا في حدوث العكس تمامًا. لاحظ نيبور في وقت وجوده (قبل مائة عام) أنّ الطريق بين الميناء الكبير وميناء القادس في الجنوب، الذي قلّما يرتفع لقدم واحد، يكون جافًا في الصيف حتى في وقت الفيضان ويكون مغمورًا تمامًا بالماء في الشتاء. أمّا الآن فهذا الطريق لم تعد تغمره المياه وبالأخص في أوقات السنة الباردة كما سمعت من بعض شهود العيان (لأني أنا شخصيًا لم أكن موجودًا في جِدّة في فصل الصيف)؛ بل تلامسه فقط.

أمّا ما يخص المدينة نفسها ووصفها فسوف نتناوله الآن. تتكون جِدّة من شارعين رئيسين كبيرين، تتوالى بعدهما دستة من شوارع صغيرة توجد في بعضها المتاجر الكبيرة وفي بعضها البيوت الخاصة المُشيَدة من الحجارة. ولأن كل الشوارع الكبرى تمتد في الاتجاه من الشمال إلى الجنوب، بينما تصطف الأزقة الصغيرة من الشرق للغرب؛ ولأن أطوال الشوارع الطولية تقريبًا متساوية وكذلك العرضية، يتضح لنا لماذا تكون جِدّة على هيئة متوازي الأضلاع. يبلغ عرض متوازي الأضلاع هذا الذي يكاد يكون مربعًا حوالي نصف طوله. أحد أضلع الطول هو الرصيف البحري الذي تكرر ذكره هنا والضلع الآخر هو سور المدينة الشرقي الذي نُقل إليه باب مكة (وهو الباب المؤدي إلى مكة). أمّا ضلع العرض في جهة الجنوب فهو ميناء القوادس بينما يمتد الضلع الشمالي من عند

1 هي نوع من السفن المزودة بمجاديف لدفعها حيث نشأت في إقليم البحر المتوسط واستُخدمت في الحرب والتجارة والقرصنة منذ الألفية الأولى قبل الميلاد. (المترجمة)

الخليج الموجود أمام "الباب الشريف" ويوجد عند منتصفه الباب الجديد الذي يصل من خلاله الحجاج إلى قبر أمنا حواء أم البشرية كلها والذي يبعد حوالي ثلث ميل عن أبواب المدينة المذكورة هذه في اتجاه الشمال الشرقي. أُحيطت الجوانب الثلاثة المقابلة للمدينة بأسوار فخمة يبلغ ارتفاع كل منها ٢٥ خطوة، ويوجد بين كل ٤٠ خطوة نقطة حراسة يبلغ طولها ٦٠ خطوة تقريبًا وبه ثلمات ومزاغل حربية[1]. شُيِّدت بعض أجزاء هذه الأسوار في حرب الوهابيين ورُممت الأجزاء الأخرى، ويُعزى الفضل لمدينة جدة في إنقاذها في عام ١٨١٧م، عندما حاصر الوهابيون الهمج البرابرة الذين يقطنون الصحراء العربية ويدّعون إصلاح الإسلام وهم لا يقومون بشيء سوى هدم كل ما هو موجود والذين يمكن مقارنتهم بجحافل زيسكا (Horden des Ziska)، بجيش بلغ تعداده ستة آلاف مقاتل، ولولا تلك الأسوار لاستولى هؤلاء على جدّة. ولأنه كان يوجد نقص آنذاك في القوات النظامية، كُلفت كل أسرة في جِدّة بحماية جزء من السور، وتذكرنا بذلك الأحجار الصلدة البارزة التي نجدها بين كل عشر خطوات؛ لأن هذه الأكوام البارزة أمام السور الممددة على طوله كانت مكان نقطة حراسة كل عائلة. محمد علي نائب حاكم مصر، الذي لم يكن مشهورًا والذي يُعرف اسمه بيننا نحن الأوربيون بصيغة التصغير مِحمد (Mehmed Ali) أضاف أثناء حكمه لبلاد العرب إلى الحصون السابقة لجِدّة قصرًا محصنًا في الجنوب وبطارية للزود عن الميناء، واللذين - القصر والبطارية - تدهور حالهما بشكلٍ واضح في عصر الحكم التركي المهمل المهين لكل شيء، والذي ساد مجددًا منذ عشرين عامًا، وأصبحا من الحطام الأثرية الحديثة الموجودة بوفرة في كل مدينة تركية.

كان المكان بين أسوار مدينة جِدّة - في حال التعبير برقم صحيح - عبارة عن الجزء الثالث عشر من الميل المربع الألماني. كانت هذه المساحة المتواضعة يكتظ نصفها أو أكثر من النصف بالبيوت الفخمة المُشيّدة من الحجارة؛ لأن جِدّة لم تكن بأيّ حال مدينة كبيرة حتى وإن كانت مدينة مزدهرة، ولا أعتقد أن تعداد سكانها يتعدى خمسة عشر ألف نسمة؛

[1] المزغل بالفارسية بمعنى منفذ وهو عبارة عن فتحة ضيقة في الجدار تطلق منها السهام أو القذائف، كما تستخدم منفذا لإدخال الضوء. (المترجمة)

على الرغم من أن روبل[1] (Rüppell) ذكر أن عددهم اثنان وعشرون ألف نسمة، وقدّر بوركهاردت عددهم بثمانية عشر ألف نسمة.

أمَّا باقي المساحة التي لم تُشيَّد عليها البيوت فكانت تعج بالأكشاك والسقائف المشيدة من جريد النخل، التي تصطف فيها هنا وهناك بعض الخيام المفتوحة، حيث يسكن فيها البدو الذين جاءوا للتجارة في جِدّة وبعض الذين اتخذوا منها موطنًا دائمًا لهم، وكذلك عدد لا حصر له من الزنوج الذين إن لم يكونوا عبيدًا يعودون إلى حياتهم الأصلية الهمجية ويعيشون في وسط المدينة على طريقة الحياة البدوية. في هذه الحجرات الفقيرة كانت توجد غالبية المقاهي والدكاكين بشكل عام؛ بخلاف الدكاكين التي يمتلكها التجار ميسوري الحال والموجودة في الطوابق الأرضية من البيوت الفخمة.

يوجد في جِدّة حوالي نصف دستة من المعابد الصغيرة ومسجدين كبيرين رئيسين، وهما المبنيان الوحيدان القديمان في المدينة؛ لأن تجوية الأحجار المرجانية والكلسية التي بُنيت منها فقط أتاحت لها البقاء لفترة أطول تتعدى نصف قرن، ويرجع الفضل في بناء المعابد لعصر الحكم المصري. يقع هذان المسجدان في مركز المدينة على مسافات متقاربة من بعضهما، وقد شُيّدا من الأحجار المرجانية الصلدة كبيرة الحجم مما جعلها تقاوم التجوية والتآكل. ولكن يمكن على الفور معرفة أنهما سيتعرضان للسقوط قريبًا. على أيّة حال يتشابه هذان المسجدان في بنائهما مع المساجد السورية والمصرية؛ لذلك لم أتعرض بالتفصيل للطرز المعمارية لهما.

أثناء سيري من مصلحة الضرائب بحثًا عن أحد النُزل أخذت فكرة عامة عن طبيعة المدينة ورصيفها البحري وشوارعها وسورها وبيوتها وأكشاكها، وكذلك عن مينائها؛ لأني لم أجد مأوى في ستة نُزل كانت جميعها ممتلئة؛ فمشيت من نُزل لآخر حتى وصلت أخيرًا لأحد النُّزل الذي استطعت أن ألقي فيه بجسدي المتعب، ويتخلص عبدي الزنجي والهنود الذين استأجرتهم من أحمالهم الثقيلة، التي حملوها ما يقرب من ساعة في الشوارع والأزقة وحواري جِدّة وهم يلعنون أرضية الشوارع السيئة (لم يكن رصف الشوارع

١ Rüppell, E., Reise in Abyssinien. 2 Bde. Mit 10 Tafeln Abbildungen. Frankfurt a/M 1838، 40. Gr. 8. (المؤلف)

معروفا هنا أبدًا). إن موسم الحج المقبل إلى عرفة، والذي يجب على المسلمين مرة واحدة في السنة في التاسع من ذي الحجة ساعد على توافد أعداد هائلة إلى جِدّة، فقد تزايدت رحلات الحج عبر جِدّة سنويًّا التي تعتبر ميناءًا بحريًّا؛ بسبب قربها من السويس عند مقارنتها بالسفر برًّا بواسطة قوافل الحج من دمشق وبغداد التي بدأت أعدادها تتقلص. أدى توافد الحجاج بأعداد غفيرة إلى جِدّة إلى امتلاء النُّزُل وارتفاع أسعار الغرف بها لدرجة أن الحجاج البخلاء و كل الفقراء لم يريدوا السكن بها أو لم يستطيعوا بل فضلّوا النزول عند البدو والعبيد في خيامهم وأكشاكهم السيئة؛ لكن ذات الإيجارات الزهيدة. فضَّل جميع المصريين رفقائي في الرحلة النزول عند البدو والزنوج في الخيام والذين كنت قد انفصلت عنهم نظرًا لبقائي بعدهم ما يقرب من ساعة أطول في مصلحة الضرائب؛ وبسبب إجراءات فحص جواز السفر. لهذا وجدت نفسي وحيدًا مع عليّ الزنجيِّ وأمتعتي في أزقة جِدّة، وقادني أحد الهنود الخبثاء من نُزُل إلى آخر حتى وجدت هذا النُّزُل الذي ذكرته أخيرًا، والذي كان غاليًا سيئًا للغاية بالنسبة لي؛ لكن لم يبق لي أيّ اختيار غيره نظرًا لعدم وجود أماكن خالية في باقي النُّزُل؛ لذا استسلمت لهذا المأوى. حينما دلفنا إلى داخل هذا المكان لفت نظري واندهشت أنه كان خاليًا تمامًا (عرفت فيما بعد سبب هذا المكان الخالي من الناس وضرر هذا لي). كان هذا المكان يتكون من فناءٍ داخلي قذر نظافته مُهملة، ومملوء بالجمال والبغال والحمير، يحيط به في الطابق الأرضي على شكل قوس حوالي عشرين غرفة أصغر أو أكبر منه. نجحت في تأجير إحدى الغرف الصغيرة بعد كثير من الفُصال بخمسة وعشرين قرشًا (حوالي نصف جولدن) في اليوم وهو سعر مبالغ فيه جدًا بالنسبة لظروف الحياة في بلاد العرب وبسبب ارتفاع الأسعار في موسم الحج، ومن خلال ذلك يمكن تفسير أني لم أجد أمور الفصال والمساومة؛ لأني لم أكن أجرؤ أبدًا على أن أكون بمثل هذه الفجاجة والوقاحة، وأعمد إلى استخدام هذا السيل من ألفاظ السباب مثل العرب؛ بسبب طبيعتي الرافضة لذلك، أو لخشيتي من أن أبدو شاذًا في هذا المظهر المستبد فيثير ذلك الشبهات ضدي. لو كنت عربيًا حقًا أي من ساكني الجزيرة العربية لكان استسلامي وتساهلي في مسألة الفلوس إحدى الشبهات ضدي؛

لكني مغربيٌّ؛ أي أحد أفراد الشعب المشهور بالبلادة الفطرية التي يُضرب بها المثل (كانوا يُشبهون المغربي في الغالب بالحمار ذي الآذان الطويلة، وكنت أسمع مَن ينادي عند رؤية الحمار: أيها المغربيّ، أنظر إلى أخيك!)، ويصفون المغربي بالجاهل الخام وبالسذاجة بسبب أخلاقهم غير المألوفة عند العرب، ونوعًا ما بسبب أخلاقهم العالية؛ أي أنهم الشعب القرويّ الساذج في بلاد المسلمين. ولن تجد هذا القدر الكبير من الغباء عند المغربي بطريقة متكلفة. فالمغربيٍّ حينما يكون معه المال يكون لكل العرب، الذين يعيشون من التجارة في موسم الحج، البقرة التي يحلبونها. وخير دليل على ذلك ما آل إليه حال كل الجزائريين الذين تركوا وطنهم في عام ١٨٣٠ ومعهم ثروات هائلة وهاجروا إلى البلد الحرام وخسروا جميعهم بدون استثناء هناك كل ما معهم من مبالغ نقدية وصاروا شحاذين يعتمدون على شفقة العرب الأصليين البخلاء المشكوك في أمرها. ولحسن حظي أني أنتمي الآن لهؤلاء المغاربة؛ ولكن لسوء الحظ أنهم يعتبرون أنه لهم الحق بسبب صفات السذاجة والغباء هذه في مطالبتي بهذا الإيجار الباهظ مقابل هذه الغرفة؛ بل أعطوني إحدى أسوأ الغرف التي لم أكتشف عيوبها بشكل واضح على الفور، والتي اتضحت لي حقيقتها بعد مرور نصف ساعة. أمرت الهندي أن يضع أمتعتي في هذه الغرفة، وودعته بعد أن أدهشني لسروره بمبلغٍ ضئيل من البقشيش؛ لكن سرعان ما انتهت دهشتي من كرمه؛ لأني اكتشفت سرقته أشياء كثيرة كانت في الصُرر.

أخيرًا أصبحت بمفردي في هذه الغرفة التي استأجرتها. كان هذا بالنسبة لي متعة لم أحظ بمثلها منذ أن كنت في القاهرة؛ حيث لن يحظى الحاج المسكين المُجهَد بلحظة استرخاء واحدة بسبب وجوده بين مئات الحجاج الآخرين المزعجين الذين كان أغلبهم جواسيس. أرسلت عليًا سريعًا إلى السوق بحجة أن يشتري لنا الماء للشرب، وقررت القيام بشيئين يحرم على الحاج المرتدي لملابس الإحرام القيام بهما ويستحق العقوبة على ذلك، ولو رآني أحد وضبطني متلبسًا بهما لاعتقد أني كافر وافتضح أمري بأني غير مؤمن. هذان الأمران اللذان يستوجبان العقوبة كان أولهما أني اصطدت كل الحشرات التي نقلها لي رفقائي في الحج ضاربًا بالقرآن عرض الحائط وقضيت عليهم كلهم حتى آخر واحدة،

وثانيهما أني اغتسلت من رأسي حتى قدمي، وهذه متعة تحرم على الحاج؛ لأنه ربما يقتل أيّ طفيليات حشرية بسبب سكب الماء على جسده، وهذا يعتبر إثمًا قام به الحاج. مَن يعرف إغراء هذه المحرَّمات سيكون بإمكانه تخيُّل جزء من المتعة التي شعرت بها عند فعل هذين الأمرين؛ على الرغم من أنه طبقًا للإسلام أكون قد اقترفت إثمًا. أمَّا الآن فقد استحممت وصرت نظيفًا وأشعر كأني وُلِدت من جديد، وارتديت شيئًا غير مسموح به وهو ملابس إحرام جديدة، وأخفيت ملابسي القديمة؛ وهما قطعتا الإحرام الإزار والرداء القذرين بحيث لا يراهما أحد؛ ولكي لا يعتقد أحد أني غيرت ملابسي نثرت بعض الرمل فوق ملابس الإحرام الجديدة دون أن ألوثها؛ فقط لكي تبدو بالية.

عاد علي الزنجيّ وأعدَّ لنا وجبة خفيفة على كانوني الصغير (موقد الطبخ) أنعشتنا إلى حدٍ كبير نحن الحاجان المُعذبان. قبل أن ننتهي من طعامنا اكتشفت بطريقة مزعجة نوعية الجيران بجانبي ومساوئ سكني في هذا النُّزُل لي ولغرفتي فيها بعد. ففجأة ارتفع صوت الضجيج والصخب بجواري، واكتشفت بعد ذلك أنه في الغرفة المقابلة لي، ولم أصدق ما سمعته أذناي واعتقدت أن أذناي حدث بهما خلل ما بسبب مؤثرٍ لا يمكن تفسيره، وأنصتُّ السمع لكل صوت بعشرة أضعاف الحِدَّة العادية. سمعت صوت زغردة وصراخًا وعواءً ونحيبًا وبكاءً وضجيجًا وحشرجة أنفاس ونداءا لصوتٍ يستغيث ويصرخ بالتبادل مع غناء بصوتٍ مخنخن تحول سريعًا إلى صوت صفير عالي الطبقة مزعج، ثم همهمات أصوات جهورة. ماذا تكون هذه الضوضاء والفوضى وفي أي حي للشياطين دخلت؟ لا يجوز أن يظل الأمر بالنسبة لي لغزًا هكذا. إذا أنصت المرء لهذه الضجة جيدًا سيدرك أن فيها أصواتًا مدّوية يمكن اعتبارها لبشر، وعندما أجهدت نفسي تمكنت من تمييز بعض الكلمات منفردة على الرغم من نطقها وغنائها وهمهمتها ونعيقها وصياحها بألحانٍ متعددة. كانت هذه الكلمات هي الكلمات المشهورة جدًا "لا إله إلا الله" و"لا شريك له" بالتبادل مع "محمد رسول الله". لقد كانت الشهادة في الإسلام يتفوّه بها هؤلاء المتعصبون الدراويش الأتراك أتباع طريقة الدراويش الرفاعية أي "الدراويش النوَّاحين" وهل يمكن الاعتراض على وصفهم "بالنوَّاحين"، هذا ما عرفه القاريء

بالفعل مما ذكرته آنفًا. لقد ساقتني نجمة حظي السيئ إلى هذا المكان. لقد كنت مرغمًا على أن أسمع هذه الضجة في الصباح والمساء بجواري؛ لأن الدراويش كانوا يؤدون صلواتهم فكانوا يتغنون بجزءٍ منها في النَّهار والباقي في الليل وفي الفراغات بين الحجرات عندما كانوا يأكلون أو يشربون. لقد كان هذا السبب في وجود أماكن شاغرة في هذا النُّزُل. لم تكن الضجة التي يحدثها الدراويش هي السبب في ابتعاد الناس عن النزول في هذا المكان؛ لأنه لا يوجد شرقيّ يستاء من الضوضاء؛ بل بسبب سمعتهم السيئة التي لازمت هؤلاء الدراويش؛ على الرغم من تدّينهم؛ بسبب رفقاء السوء الذين ينجذبون إليهم.

كان دراويش هذه الطريقة الرفاعية عبارة عن (refugium peccatorum) وهم ليسوا دائمًا الخُطاة التائبين الذين تكونت منهم هذه الطريقة، ويعتقد الكثيرون من أعضائها أنهم ينتمون إلى هذه الطريقة الدينية مما لا يستوجب عقابهم؛ بل يُسمح لهم باستكمال هذا النمط من الحياة الماجنة بلا اعتراض عليهم. وبالتالي فهم يتطهرون من كل الذنوب التي شهَّر بها جوفينال[1] في هجائيته التاسعة، التي وصلت عند هؤلاء الدراويش لنسبة مدهشة كما رأيت بنفسي في نفس المساء تدفق الشباب في هذا النُّزُل الذي استأجرت غرفة فيه. فبينما كانت مجموعة منهم تصلي، استسلمت مجموعة أخرى منهم لأفعال الظلام، والذين لم يبذلوا أي جهد كي يحتجبوا عن الأنظار. لقد خطر على بالي عند رؤيتهم الكاهنة سيبيل (Cybele) التي وصفت (Lucian) أو "الحمال" كما يأتي: "نفس الرياء، نفس الدنس أو على وجه الدقة نفس العيوب."

هذه الأبيات لجوفينال كانت ردي على هذا الصراخ الذي كان غرض هؤلاء الدراويش منه الرياء والذي كنت مرغمًا على أن أسمعه طوال المساء؛ حيث لم أستطع مغادرة غرفتي بسبب اقتحام هؤلاء الرعاع للنُّزُل، كما أن الغرفة لم يكن بها قفل محكم، وخوفًا من أن أفقد كل ما أملك. هكذا قضيت المساء وحيدًا، وفي الليل بقيت مستيقظًا أستمع رغمًا عني لهذا الصراخ الجنوني لهؤلاء الدراويش المزعجين، الذي امتزج بأصوات

---

١ جوفينال (بالإنجليزية: Juvenal) إسمه الكامل ديسيموس يونيوس يوفيناليوس (باللاتينية: Decimus Iūnius Iuvenālis) هو شاعر روماني قديم عاش في القرن الأول والثاني الميلادي، المعلومات عنه غير واضحة حيث أنه يرجح غالبًا أنه عاش في أواخر القرن الأول وبدايات القرن الثاني الميلادي في أكينو، عرف بأشعاره الهزلية. (المترجمة)

رنانة وصاخبة للنوق والحمير صدرت من الفناء، لقد قضيت المساء مابين هذا الصراخ وبين لدغات عدد لا حصر له من الحشرات القافزة التي زحفت على من كل صوبٍ وجهة في غرفتي التي استأجرتها، والتي ساهمت بشكلٍ كبير في عذابي في هذه الليلة.

كان الشيء الجميل في هذه الليلة هو أني اتخذت القرار بترك هذه الغرفة بمجرد أن تَسنح لي الفرصة، وبمجرد بزوغ ضوء الفجر قررت ما سأقوم به. لم يكن في استطاعتي مغادرة النُّزُل بنفسي لأن عليًّا ليس في إمكانه أو بالأحرى لأني لم أرد أن يحرس هو أمتعتي، فكلفته بأن يذهب لأحد أصدقائي المصرين بالأخص الشيخ الجدير بالاحترام الشيخ مصطفى ويدعوه إلى أن يأتي إليَّ هنا علّني أجد عنده المشورة وأجد نُزُلًا آخرَ يكون أفضل من هذا المأوى السيئ.

مضت ساعتان قضيتهما في حفظ بعض آيات القرآن قبل أن يظهر عليٌّ وفي صحبته الشيخ مصطفى وأولاد أخيه الثلاثة مما أسعدني جدًّا. لقد اعتقد هؤلاء الناس الطيبون أني مفقود؛ لأن الشيخ مصطفى قد بحث عني مساء أمس في كل مقاهي جِدَّة؛ ولأنه لم يحدث من قبل أن يقضي أي حاج ليلته في مثل هذه الأكشاك، اعتقد الشيخ مصطفى بسبب غيابي أنَّه أصابني مكروه. أحزنه غيابي جدًا؛ لكنه انزعج للغاية حينما وجدني في نُزُل الدراويش الأتراك الذي يشعر حيالهم بمزيج من الخوف والكراهية والهيبة لأنه عربيّ وبسبب أنهم أتراك، هذا هو حال أي مصريّ تجاه هؤلاء الدراويش الأتراك. طالما كان باب الغرفة مفتوحًا كان يعتقد الشيخ مصطفى أنَّ الدراويش يتصنتون عليه، لذا كان يظهر احترامه وتبجيله لهؤلاء المنافقين؛ لكن حينما أغلقت باب الغرفة ووقف ابن أخي الشيخ مصطفى الأكبر حارسًا على الباب، لم يستطع الشيخ مصطفى التحكم في مشاعره فدنا مني وطوّقني كالأب الذي وجد ابنه المفقود وصاح:

"يا أخي، في أيّة حانة وجدتك فيها! لقد وقعت في مغارة اللصوص. إنّ سُمعتك الطاهرة هنا في خطرٍ كبير. يجب أن تبذل ما في وسعك، كي تخرج من هذه المغارة!"

لولا أنَّ سُمعتي وحرمة ممتلكاتي أضحتا في خطر بسبب هذا المكان، ما كنت طلبت من الشيخ مصطفى أن يساعدني للانتقال إلي نُزُل آخر؛ لأن كل ممتلكاتي كانت في الحقيقة

ليست في مأمن بسبب هؤلاء الرعاع وبسبب عدم نومي في الليل؛ لذا أصررت على أن يأخذني الشيخ مصطفى معه إلى مسكنه حتى أجد مأوى آخر لي. نزل الشيخ مصطفى على رغبتي وقرر الآن نقلي ومتاعي إلى مسكنه المؤقت. حمل أولاد أخيه أمتعتي على أكتافهم وتقدمنا هو بنفسه وتبعته أنا وكان عليّ في المؤخرة، وبذلك أكون قد شرعت في انتقالي من هذا المكان الملعون الذي لو كنت أطلت البقاء فيه لجُننت. ولكن كانت لا تزال تنتظرني إحدى المضايقات على باب غرفتي وهو صاحب النُّزُل الذي كان يريد إيجار ثلاثة أيام وادّعى أنها المدة التي كنت سأسكنها. نصحني الشيخ مصطفى الذي كان خوَّافًا مثل باقي المصريين، أن استسلم لطلبه وأدفع له ما يريده من نقود؛ ولكني لم أستوعب كل هذا الابتزاز لأموالي دون أن أقاوم أن أقع ضحية هكذا. لقد قاومت هذا الرجل بأن أجبت على صياحه العالي بصياحٍ أعلى مما شجع المصريين أيضًا على الصياح معي، حتى صرنا أعلى من صاحب النُّزُل نفسه، الذي لم يأت أحد من الدراويش ليشد من عضده. ولمَّا وجد المالك نفسه وحيدًا أمام صياحنا المضاد له لم يكن في وسعه أخيرًا سوى أن يستسلم ويكتفي بالقليل الذي دفعته له ويتركنا طلقاء. كان أبناء أخي الشيخ مصطفى حقًا جبناء مثل باقي المصريين، فأخذوا يصيحون من على بعد بألفاظ السباب والشتائم مثل "كلب" و"خنزير" اللذين كانا أقلها بذاءة؛ وبذلك كانوا مثل الكلاب الصغيرة التي طالما ابتعد عنها العدو تصبح أكثر شجاعة. ولأن صاحب النُّزُل لم يتحرك للجري وراءنا ولم تثره هذه الشتائم، ظل المصريون الثلاثة في حالة الشجاعة واستمروا في وصلة مكثفة من ألفاظ السب والقدح التي لا تُسمع سوى بين العرب. وبعد جهد كبير بذلته مع الشيخ مصطفى استطعنا وقف هذه التظاهرة، ثم اتجهنا إلى أحد أكشاك القهوة الذي أقامه أحد المصريين؛ حيث أقام رفيقي الشيخ مصطفى.

كان كشك القهوة هذا مبنيًّا من جذوع النخيل الخام وبالتالي كان أفضل من عدد كبير من أكواخ الخوص التي تقع في جِدَّة، والتي كان بعضها عبارة عن مقاهي وبعضها أكشاك حلاقة وبعضها مخازن للبضائع. كان صاحب كشك القهوة المولود في القاهرة، من المعارف القدامى للشيخ مصطفى، قد استقبلني بحفاوة أنا أيضًا وكأني من أصدقائه.

كانت الإقامة في هذا المقهى فيها فوائد كثيرة لأن مالكه المصريَّ لا يدع أحدا ينام داخله سوى الشيخ مصطفى وأولاد أخيه وأصدقائهم، كانوا كلهم حوالي عشرة أشخاص والذين أصبحت من الآن أنتمي إليهم؛ لأنه بالمقارنة بعدم وجود أماكن في نُزُل أخرى لن أجد مأوى آخر لي سوى هنا، وبالمقارنة بما عانيته من قبل فهنا منتهى الراحة وأنا سعيد للغاية بالنوم على أحد الأرائك في هذا المقهى. هذا المأوى الليلي الذي لن أستمتع فيه بميزة البقاء منفردًا، التي لا تُقدر بثمن ولكن على الأقل كانت توجد ميزة أخرى وهي أني لن أضطر للبقاء دائمًا في ضوضاء وصخب دائمين؛ لأنه حتى إن كان هؤلاء الأشخاص الذين في المقهى غير متحضرين؛ إلا أني موجود وسط مجموعة من الأصدقاء الذين تعوّدت عليهم بالفعل، وكان لهذا فائدة كبيرة أثناء الرحلة يعرف قيمتها مَن يسافر بمفرده إلى إحدى البلاد غير المتحضرة؛ إذ أن السفر إليها يعتبر غير لطيف، وفيه تكون المساوئ مُضاعفة أو ثلاثة أضعاف وهذا من واقع تجربتي المرة. أخذت عليًّا معي لسبب واحد وهو ألاَّ أكون وحدي ولو للحظة واحدة في الحياة العامة. وأقول في الحياة العامة لأني أُقدر البقاء منفردًا في البيت جدًّا دون أي إنسان. لا يجوز للمسافر أن يظهر وحيدًا أمام الناس إن لم يصلح أن يكون من المتشردين؛ وبالأخص في المقاهي وباقي الأماكن العامة عندما يريد احترام مَن يرافقهم؛ لأن الناس تأخذ دائمًا انطباعات سيئة عن الشخص الوحيد بلا صحبة ويبتعدون عنه، فهو بالنسبة لهم كالملك آحاز (Ahaz)[1] الذي هاج وماج في الأرض بلا أصدقاء.

أصبحت الآن في مأمن طيلة الأيام الثلاثة أو الأربعة التي يجب عليَّ أن أقيمها في جِدَّة لدرجة أني كنت أخرج من المقهى عدة ساعات كي أتجول في المدينة وأشاهد معالمها؛ لأن أمتعتي وما أملكه في حراسة آمنة. بالطبع كان يجب أن تكون أول جولة لي إلى أحد المساجد، وباعتباري من الحجاج الورعين كان ينبغي عليَّ الصلاة هناك. ثم سرتُ مع

١ هو مختصر اسم "يهوآحاز" الذي معناه " قد حازه الرب " أو أمتلكه الرب، ويُطلق على شخصين في الكتاب المقدس:
١ - آحاز الملك ابن يوثام ملك يهوذا . وفي كتابة مسمارية من عهد تغلث فلاسر (٧٣٢ ق.م) يظهر اسم "يوحزي ملك يهوذا" بين الذين أخذمنهم ملك أشور الجزية. ولعل كتبة الوحي اختصروا اسمه إلى "آحاز" بحذف اسم "يهوه" منه، لشره .
٢ - آحاز بن ميخا : من نسل يوناثان بن شاول الملك، ولا نعرف عنه شيئــًا أكثر من ذلك (١ أخ ٨ : ٣٥ و ٣٦، ٩ : ٤٢). (أنظر قاموس الكتاب المقدس، المترجمة)

عليٍّ واثنين من أبناء أخي الشيخ مصطفى في الطرق العادية في هذه المتاهة من عُرُش الخوص وجذوع النخيل على السواء داخل أسوار المدينة. هنا راقت لي ملاحظة ساكني هذه المدينة وتنوع أجناسهم والاختلاف الكامل في ملامح وجوههم والأشكال المتعددة لطرق حياتهم وتعاملهم وكذلك ملابسهم الملونة التي تعبر عن أذواق مختلفة متنوعة، باختصار ملاحظات عن كل شيء يثير اهتمام علماء الدراسات الإثنية لدراسة المظهر الخارجي للشعوب غير المعروفة لهم تمامًا. كان شعب جِدَّة عبارة عن بطاقة عينات تحوي أجناسا شتى لشعوب الشرق المتعددة؛ بالأخص في موسم الحج لتواجد كل شعوب العالم الإسلامي فيها، حيث لم يتبق فيها أحد من السكان الأصليين لهذه البلدة العربية القديمة. من المحتمل أن يكون السكان الأصليون قد هاجروا في وقت حكم الوهابيين حينما توقف الحج إلى مكة وظل ميناء جِدّة لا يُستخدم، وعاد منهم عدد قليل جدًا إلى موطنهم، وقد استطعت التعرف على أحد هؤلاء المواطنين الأصليين وهو محمد الريّس (Mohamed Rais) الذي يدل اسمه على أنه كان أحد رُبان السفن وربما كان من قراصنة البحر. أمَّا الآن فهو يعمل تاجرًا للعبيد، وذاع صيته أنه ثريٌ جدًا، وكان يسافر بين الفينة والفينة إلى مصر، وتعرف أثناء رحلاته على الشيخ مصطفى وأبناء أخيه الذين قابلهم هنا الآن وأنا معهم؛ حيث رحب بي بحفاوة ودعانا إلى منزله. ذهبنا إلى منزل القرصان القديم كي نحتسي هناك القهوة التي ناولها لنا العبيد الزنوج صغار السن في فناجين كثيرة مصنوعة من البورسلين الصيني وتحتها أطباق فضية رائعة مزركشة مُزَّينة بتقنية الزخرفة بالتفريغ المنتشرة في شرق الهند. كان يقع بيت محمد الريس في الشارع الكبير، ويتكون من طابق واحد؛ لكنه فخمٌ إلى حدٍّ كبير، ويقيم معه في هذا المنزل العبيد الذكور فقط، أمَّا الإماء ونساؤه هو فقد كنّ في بيت آخر؛ لذا كان مسموحًا لنا أن ندخل جميع حجرات المنزل ونشاهد زخارفها الرائعة. كانت جدران إحدى الغرف الصغيرة مطلية بالصدف والتي استحقت إطلاق اسم "البدوار" عليها لوجود المرايا الصغيرة في أركانها اللامعة وآيات القرآن مكتوبة بألوان على ألواح مُذهَّبة معلقة فيها. كان يوجد في هذه الغرفة المحببة حصيرة من أوراق النخيل على الأرض هندية رقيقة ومُزينة بمصباح صيني بديع

وديوانٌ مكسوٌّ بأبسطة من الكشمير الثمين. دعانا الرجل للجلوس على هذا الأثاث الفاخر وأشار لي بالجلوس على أحد أماكن ضيوف الشرف وهذا أمر لم أندهش له؛ لأن هذا الرجل الماكر أدرك سريعًا أني لست حاجًا عاديًا، لقد سافر وجاب بقاع الأرض وتعرف على ناس كثيرين؛ مما جعلني أنتفض داخليًّا خوفًا من أن يكتشف شيئًا من أمري وأصلي وجنسيتي وديني. مثلت دوري كمغربي جيدًا أمامه بمنتهى الطبيعية، وحاولت أن أكسبه في صفي عن طريق إبداء رغبتي في شراء أحد الزنوج لاحقًا عند عودتي من مكة، وبالطبع لم أكن أنوي ذلك حقًّا؛ لأني رأيت ما يكفي من عليٍّ؛ لكن من خلال هذه الكذبة أصبحنا أنا ومحمد الريس أصدقاء.

كما ذكرت سابقًا كان أصل ثروات هذا الرجل تجارة الرقيق والنخاسة، التي تعتبر طبقًا للمعايير الأوربية تجارة مصدرها قذر غير مشروع، وأنه في العصر الحديث بذلت كل من الحكومة الإنجليزية والفرنسية أقصى جهدهما لكبح تجارة الرق ولا يزالان، كما أن الحكومة التركية قد أصدرت قانونًا واجب التنفيذ يحرّم هذه التجارة. لكن الحكومة التركية نفسها لم تلتزم بجدِّية تطبيق وتنفيذ هذا القانون، وخير دليل على ذلك أن هذه التجارة لا يزال يتم تداولها بشكلٍ واضح في السر. في الغالب يُترك هؤلاء التجار بائعو البشر يفعلون ما يريدون بكامل حريتهم، ومن وقت لآخر يتظاهر الباشا كما لو أنه يريد تحريم هذه المهنة فيتغلب بائعو الرقيق على تنفيذ العقوبات بدفع الرشوة. أمَّا إذا ازداد الأمر سوءًا وأمرت القنصليات الأوربية الباشا بتفتيش بيوت بائعي الرقيق فيخبرهم متعاطو الرشوة خُدَّام الباشا وأعوانه مسبقًا، فيخفي التجار عبيدهم في بيوت أصدقائهم حتى أن أفراد الشرطة المرتشين أيضًا عندما يأتون للتفتيش يحضرون معهم موظفين من القنصليات لإثبات حسن نواياهم، فلا يجدون العبيد في بيوت التجار. لم يستح محمد الريس من أن يعترف لنا بالرشوات التي يدفعها والحيل والألاعيب المتنوعة التي يقوم بها في سبيل تجارته هذه؛ لأنه ولله الحمد اعتبرني من المسلمين؛ ولأن رفاقي كانوا أيضًا مسلمين؛ لذا لم يكن في حاجة للخوف من إفشاء أسرار مهنته لأن المسلم قلَّما عمل جاسوسًا في أمر تجارة الرقيق، فالمسلمون لا يرون شيئًا أكثر ظلمًا من تحريم تجارة الرقيق

التي ذُكرت نصًّا في القرآن، وهم يعلمون أن هذا التفتيش يكون فقط بناءًا على طلب ورغبة السلطات الأوربية التي يزعجها أن الحكومة التي تتبع بلدا متشددا دينيًا كهذا تتساهل مع المسلمين في الأمور التي تستلزم العقوبة. يعتبر الإنجليز من أكثر الشعوب التي يكرهها المسلمون؛ لأنهم كانوا يحاربوا تجارة الرق في جميع أنحاء العالم بكل حماس وبدون هوادة دون مراعاة الدين أو العادات والتقاليد المقدسة للشعوب المختلفة. حتى محمد الريس لم يكن يحب هؤلاء الكفار ذوي الشعر الأحمر كما كان يطلق على الإنجليز. فقد حكى لنا بوجهٍ بدت عليه الفرحة وشعت منه البهجة، إحدى الحيَل التي فعلها مع أحد المبشرين الإنجليز قبل عدة سنوات والذي كان مميزًا لظروف هذا البلد والتي لا يمكن أن أحكيها هنا للحفاظ على اللون المحليِّ؛ بل سأترجم كلماته هنا بالحرف:

"على ساحل زنجبار - هكذا كان يحكي الريس محمد - كان يعيش قبل حوالي خمسة عشر عامًا أحد الإنجليز الملعونون، وكان يزاول إحدى المهن التي كسب منها المال الكثير وهي تنصير كل الأطفال حديثي الولادة الذين كانوا كلهم زنوجًا من قبيلة السواحلية وجعلهم على دين الشرك بالله. لو كان هؤلاء الزنوج مسلمين لذهبت كل جهود هذا الرجل هباءً ولكنهم كانوا في الحقيقة كفارًا على الرغم من بقاء أغلبهم على دين أسلافهم وقبيلتهم. كذلك كان يوجد منهم من كانوا يقبلون أن يصبحوا مسيحيين في مقابل المال أو الأكل أو التبغ. جعل الإنجليز الأذكياء بين هؤلاء المتحولين للمسيحية من يتعلمون بعض الحِرَفِ، وصنعوا منهم أناسا نافعين جدًا لأنفسهم ولمجتمعهم. وفي أحد الأيام نصَّر هذا المبشر الإنجليزي اثنين من الشباب الزنوج وجعلهما يحترفان اثنتين من الحرف النافعة، فصار الأول نجارًا والثاني قفَّالًا وبرهن كلاهما على إجادة هاتين الحرفتين، مما جعل الإنجليز يقررون أن يرسلوهما إلى الوطن إنجلترا كي يتما تعلُّم هاتين الحرفتين. أرسلهما الرجل إلى عدن حيث توجد مستعمرة لهؤلاء الكفار ومن هناك سافرا إلى الإسكندرية ومالطا، ومن هناك سيتجهان إلى انجلترا. لحسن حظي نما إلى سمعي هذا الخبر بأن سفينة شراعية ستصل إلى جِدَّة، وقررت على الفور أن أمتلك هذين الشابين عن طريق إحدى الحيل وأن أبيعهما كعبدين، وبالطبع سأحصل على ثمنٍ جيد بسبب احترافهما لهاتين

المهنتين. كتب لي أحد أصدقائي في نفس المهنة أنَّ هذين الشابين الزنجيين سيسافران وحدهما أي بدون حراسة من الإنجليز من عَدن كي يتأقلما على ظروفهما فيما بعد. كانا لا يعرفان سوى ربان السفينة البخارية وهو من مدمني الخمر مثل باقي الإنجليز. لم يهتم هذا الصعلوك بأمر الشابين، فكان من السهل عليَّ إغراؤهما فور وصولهما جِدَّة للخروج للبر، فتسللت لهما على ظهر السفينة بحجة التجارة وإعطائهم فكرة عن الحياة الفاخرة المترفة في مقاهي جِدَّة وعن الراقصات وباقي لذَّات العيش هنا التي تنتظرهما؛ لدرجة أن الشابين لم يستطيعا المقاومة، وأبحرا معي على القارب الذي أرجعني إلى المدينة؛ لكي يتمتعا بالحياة في جِدَّة لعدة ساعات. كان أول شيء قمت به بعد رسونا على البر هو دعوتهما إلى منزلي وأجلستهما بين المزلاج والقفل ومن الآن فصاعدا اعتبرتهما عبدين لي. تبقى لي شيءٌ يجب فعله وهو خداع القبطان الإنجليزي، ولم يكن ذلك أمرًا عسيرًا كما يمكن للمرء أن يتصور. لقد تفحصت كل العبيد الزنوج عندي، واكتشفت عبدين يشبهان إلى حد كبير هذين الشابين اللذين سرقتهما. حاولت مضاعفة هذا التشابه بينهم فقصَّرت لهم شعرهم بنفس طريقة العبدين الحرفيَّن، وألبستهما حلقان في أذنيهما مثل زنوج زنجبار، وبعد ذلك كان يجب عليهما ارتداء ملابس عبدي زنجبار اللذين سيقومان بدورهما، ثم أرسلتهما على متن السفينة الشراعية الإنجليزية بعد أن أمرتهما وشدَّدت عليهما ألاَّ يتحدثا كلمة واحدة حتى تبحر السفينة من جِدَّة، وأن يأخذا حذرهما أيضًا فيما بعد؛ لأن الحظ سيحالفهما فقط في حال التزامهما بهذه التعاليم وهو وصولهما إلى إنجلترا، وأوهمتهما أنهما سيعيشان هناك حياة الرّغد والنعيم. لعب هذان الشيطانان الفقيران دورهما بإتقان؛ لأني لم أسمع بعد ذلك شيئًا عن اكتشاف أمر هذه الخدعة، ولم يندهش المراسل الإنجليزي في لندن حينما رأي بدل العاملين المدربين المتحضرين شابين صغيرين لا يزالان على فطرتهما ولا يعرفان شيئا عن هاتين المهنتين. أمَّا بخصوص العبدين الزنجيين اللذين سرقتهما فقد استفدت منهما جدا وبعتهما بأربع أضعاف ثمن العبدين اللذين أرسلتهما بدلًا منهما، ولم يكتشف أيُّ إنجليزي شيئًا؛ لأنه لا يُسمح لأي كافر أن يطأ هذه البلدة المقدسة."

هكذا حكى محمد الريس وسط هتافات الإعجاب والاستحسان من المصريين، بينما كنت لا أستطيع كبح فزعي مما حكى؛ لأنه قلَّما داهمني شعور السخرية كرد فعل على هذا الخُبث المؤذي. لكني كنت ألعن داخلي تاجر الرقيق النخاس هذا، وظاهريًا كنت مُرغمًا على أن أنافقه وأهتف له مع الباقين. تحمَّس قرصان البحر بسبب هتافنا له وحكى لنا حكايات أخرى عن حياته السالفة كانت جميعها مثيرة مثل القصة السابقة؛ لكنها لم تكن دائمًا بيضاء غير ملطَّخة بالدماء. فذات مرة أثناء تفتيش بيته بواسطة أحد الباشوات الذي لم يأخذ الرشوة والذي كان بصحبة أحد موظفي القنصلية الإنجليزية اضطر إلى حبس ثلاثة عبيد زنوج في حقيبة وإلقائهم من شباك البيت حيث كُسرت رقابهم.

"كانت خسارة فادحة - هكذا تنهد وزفر كلماته - كنت سأكسب من بيعهم ألف تالر على الأقل."

وفي مرة أخرى اضطر أن يذكر سبب وجود إحدى الإماء البيض في بيته أنها زوجة أحد عبيده. "لقد كانت هذه المرة أيضًا خسارة كبيرة؛ لأنه على الرغم من أني أخذتها فيما بعد من عبدي وبعتها؛ إلا أني لو كنت بعتها عذراء لكنت قد كسبت أكثر من ألفي قرش."

كان يشتكي كثيرًا من أنَّ تجارة البيض، التي كانت تدر عليه الربح الأكثر، لم تعد الآن على ما يُرام مثلما كانت قبل ذلك؛ فالشركسيات أصبحن نادرات جدًّا، ولم تعد توجد الجورجيات، وتربية الفتيات العربيات والتركيات لبيعهن كإماء في السر لم أستطع القيام به لأنه من اختصاص النساء. أمَّا بيع العبيد البيض من الذكور فلم يكن يجلب له الكثير من المال؛ إلا أنَّه كان يوجد طلب عليهم من الأتراك الأثرياء؛ لكن محمد الريس لم يعد يريد الاستمرار في هذه التجارة؛ لأنه يتعرض للكثير من الخداع بسببها؛ فعلى سبيل المثال جاء ذات مرة أحدهم إليه يريد شراء غلام أبيض واكتشف في النهاية أنه طفل لأبوين أحرار أرادا بيعه فقط كي يحصلا على المال ثم يستردا ابنهما؛ لأن الغلام الصغير كان مُرَّوضًا على أن يترك مالكه عند أول فرصة ويعود لوالديه، ولم يستطع اتخاذ أي خطوة قضائية ضدهما لأنهما كانا حقًّا متشردين يغيران مكان إقامتهما دائمًا. تكرر هذا الأمر معه

عدة مرات، فذات مرة اشترى أحد الغلمان في أزمير فهرب منه بعد ذلك، وسمع أنه ابن صاحب أحد المقاهي هناك الذي هاجر على الفور بهذا المال المكتسب بغير وجه حق. وفي مرة أخرى وقع حظه في أحد الضباط الشباب الذي اشتكاه للباشا وبالكاد هرب الريس محمد من العقوبة هذه المرة. كانت تجارة الأغوات هي الأكثر ربحًا بالنسبة له، وهؤلاء أصبحوا أيضًا نادرين؛ لأنَّهم ليسوا أغنياء بالقدر الكافي لدفع الثمن.

بعد أن أمضينا ساعة كاملة نصغي فيها لشكاوى بائع لحوم البشر هذا، غادرنا بيته وودعنَا هذا الجِدَّاويِّ الأصيل الذي يمثل مع عشرين أسرة أخرى غالبية أربابها من الصَّرَّافين السكان الأصليين لمدينة جِدَّة. تَرَجَّلنا في شوارع جِدَّة حيث استكملت ملاحظاتي عن سكانها، الذين يتكونون إلى حدٍّ كبير من الأجانب المهاجرين من كل أنحاء البلاد العربية المسلمة مثل مصر والنوبة وعدد كبير من الهنود. لم يعد يوجد يهود في جِدَّة، وكان تغيير النقود والصرَّافة مقصورًا عليهم فقط قبل أن يرحلوا إبان الحروب الوَّهابية ولم يعودوا مرة أخرى. احتل مكانهم في التجارة قليل من أهل جِدَّة الأصليين الذين كانوا يتمتعون بمهارات عالية في مزاولة التجارة وبعض من مسلمي شرق الهند من بومباي واحتلوا مكانة الصدارة في هذا الأمر؛ لدرجة أن كل حجرات الصرافة التي كان لها أهمية كبيرة جدًا هنا كانت حكرًا على أصحاب هاتين الجنسيتين. كانت التعاملات البنكية الحقيقية تتم عن طريق الهنود، وفي غرف الصرافة كانت توجد كل أنواع العُملات المعدنية لجنوب أوربا وشرق آسيا مثل الليرة التركية التي تعادل مائة قرش والعملة الفرنسية التي تبلغ قيمتها عشرين فرنكا والدوكاتية[1] النمساوية الإيطالية في مدينة البندقية والدبلون الإسبانية والجنيه الإنجليزي؛ على الرغم من أنَّها كانت كلها عملات ذهبية مقارنة بالعملات الفضية كانت كل الشعوب الشرقية تحبها جدًّا ويبحثون عنها. كان أغلب الحجاج يحاولون تغيير عملاتهم الذهبية إلى فضية في جِدَّة؛ لأن هذه الأخيرة الفضية لها شعبية كبيرة في مكة. إن أكبر عملتين فضيتين في أوربا هما العملتان

١ لدوكاتية اسم عُمْلة أصدرها رودجر الثاني من صقلية وكان دوق أبوليا في نفس الوقت وذلك في منتصف القرن الثاني عشر. وأُطلق اسم الدوكاتية على هذه العملة لأن سلطة الدُّوقية هي التي أصدرتها. (المترجمة)

غير المشهورتين تالر ماريا تريزا[1] وليس التالر الذي على شكل التاج؛ بل التالر الذي تبلغ قيمته غيلدران وأربعة وعشرون كرويتسر، أي حوالي خمسة فرنكات. ونظرًا لكثرة الطلب عليه تصل قيمته إلى ستة فرنكات، أمَّا التالر الأسباني المرسوم عليه أعمدة هرقل وليس التالر العادي بدون هذه الأعمدة فقيمته لا تتعدى الورقة النقدية التي قيمتها خمسة فرنكات فرنسية. كان العرب يطلقون على تالر ماريا تريزا اسم "أبو النسر" بسبب شعار النمسا الموجود عليه، ويطلقون على التالر الأسباني المرسوم عليه الأعمدة "أبو مدفع"؛ لأنهم يعتبرون الأعمدة مدافع. ويسمي العرب كلا العملتين "الريال" الأول الريال أبو النسر والثاني الريال أبو مدفع. ويرى العرب البخلاء في كلمة "ريال" معنى النعيم ومنتهى الترف في الدنيا. بخلاف هذين الريالين كانت توجد عملات قيمتها خمسة فرنكات فرنسية والمجيدي التركي[2] وعملات فضية قيمتها أصغر مثل البشليك التركي والقرش، بينما العملة الوحيدة المصنوعة من النحاس فقد كانت القرش التركي الذي كانت تتضاعف قيمته أثناء الحج أيضًا نظرًا لبحث الحجاج عنه. لا يوجد في أيِّ مكان آخر في العالم مثل هذه التقلبات في أسعار العملات مثلما يحدث في تركيا، ويحدث التغيير أيضًا في قيمة الذهب والفضة والنحاس خلال الأسبوع الواحد بنسبة عشرين أو أربعين في المائة فيحدث الفرق في قيمة العملات المختلفة. عند وصولي جِدَّة كانت قطعة الخمسة فرنكات الفرنسية بحوالي خمسة وعشرين قرشا، والمجيدي التركي باثنين وعشرين قرشا، وبعد ذلك بشهر بلغت قيمة الأول ثلاثين والثاني ستة وعشرين قرشًا. أمَّا البارة المصرية فكان يمكن الحصول عليها قبل موسم الحج مقابل عشرين قرشًا، بينما في موسم الحج بخمسة وثلاثين، وكان وصول السعر الرسمي أربعين قرشًا ممكنًا بكل سهولة. يرجع هذا السبب في اختلاف أسعار العملات إلى تزييف العملات الذي تقوم به الحكومة

١ هي صكوك وعملات فضية كانت تستخدم في التجارة العالمية بشكل مستمر منذ الإصدار الأول لها في عام ١٧٤١. وسمي باسم الملكة ماريا تيريزا التي حكمت النمسا وهنغاريا وبوهيميا من عام ١٧٤٠ إلى ١٧٨٠. وبتاريخ ١٩ سبتمبر ١٨٥٧ أعلن الإمبراطور فرانز جوزيف إمبراطور النمسا بأن دولار ماريا تريزا هو العملة الرسمية للتجارة بالنمسا. (المترجمة)

٢ المجيدي عملة عثمانية مسكوكة من الفضة، ضربت في عهد السلطان العثماني عبدالمجيد الأول "ت ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٢م" وباسمه سميت. ويعادل المجيدي ٢٠ قرشا عثمانيا. وينقسم المجيدي إلى أربع فئات هي : نصف مجيدي وربع مجيدي وسدس مجيدي وثمن مجيدي. (المترجمة)

نفسها، وأحيناً يكون السبب مضاربات الرِّبا بين الصرَّافين، وفي بعض الأحيان يكون ذلك نتيجة التدابير التعسفية للحكومة، التي عادةً مَّا تسمح بحبس سعر العملات المختلفة حسب رغبتها وتجني أكبر الميزات من جرَّاء ذلك. وقد حكى لي أحدهم أنَّ باشا جِدَّة يرفع كل مرة سعر كل أنواع العملات قبل موعد دفع الضرائب، واعتاد أن يرفع السعر أعلى بعد عدة أيام من دفع الضرائب. فعلى سبيل المثال كان يقرر قبل الضرائب أن المجيدي التركي تبلغ قيمته عشرين قرشًا فقط في خزانة الدولة وهذا أكثر من القيمة الاسمية للمجيدي؛ لكن أقل بكثير من سعره. وحينما يدفع كل أهل جِدَّة الضرائب بالمجيدي الذي اشتروه بسعرٍ يتراوح بين اثنين وعشرين وستة وعشرين قرشًا؛ ليعطوه للحكومة فقط بعشرين قرش، ثم يصدر الباشا فجأة مرسومًا يحدد فيه سعر المجيدي وتكون النتيجة وصول هذه العملة سريعًا لسعرها السابق. هذا ما كان يحدث مع باقي العملات؛ ولأن القرش هو الوحدة النقدية، ولا يعتني أحد بالقيمة الاسمية للعملات التي قيمتها خمسة وعشرة وخمسة عشر قرشا؛ بل يُترك أمر سعرها لهذا التقلب التعسفي، وينتج عن كل هذا الارتباك الكبير في أسعار العملات. ومثال على ذلك البشليك أي العملة التي قيمتها خمسة قروش التي قد تصبح أربعة أو ستة أو سبعة قروش؛ لكنها لا تكون خمسة قروش؛ على الرغم من أن القيمة الاسمية لها خمسة.

على أيّة حال تتحمل الحكومة التركية الذنب الأكبر في هذا التدهور لقيمة كل أنواع العملات، التي كانت تصك منذ قرون القروش السيئة كل عام، لدرجة أن قيمة الوحدة النقدية التي كانت في العصور الوسطى قيمة أحد القروش الأسبانية (اثنان ونصف جولدن) ولهذا السبب أطلق عليه التجار هذا الاسم الأوربي، والذي انخفضت قيمته للجزء الخامس والثلاثين للتالر الأسباني (من أربعة لخمسة كرويتسر). يُعّد تاريخ القرش التركي بمثابة تاريخ الإمبراطورية التركية التي فقدت ولا تزال تفقد معناها وقيمتها عامًا تلو الآخر مثل قيمة وحدتها النقدية.

كان لعرب حضرموت الباع الأكبر في التجارة في جِدَّة. فقد كان الحضرموتيون القدامى (die alten Chatramotiten) كما يطلق عليهم ديودور (Diodor) وبلينوس

(Plinius) وبطليموس يهاجرون من موطنهم في جنوب شبه الجزيرة العربية في جماعات إلى جِدَّة ومكة؛ حيث احتلوا مكانة عظيمة عززت من شأنهم هناك بسبب ذكائهم ومهاراتهم العالية. وبالتالي فقد كانوا يقومون هناك بدور الخادم وحمَّال الأثقال والتابع الأمين وكانوا يخدمون حتى في محلات غيرهم، وحينما ينجحون في ادِّخار مبلغ صغير من المال بسبب تدبيرهم لأمورهم وقناعتهم التي لا مثيل لها، وبخلهم المتأصل في كل العرب، لا يفضلون الرجوع إلى وطنهم ومعهم هذا المبلغ من المال؛ بل يفتحون دكانًا صغيرًا يبدأون به تجارتهم والذي سرعان ما يتحول إلى متجر كبير ويصبحون أخيرًا أثرياء، ومن الآن فصاعدًا يتوسعون في تجارتهم الكبيرة. أمَّا بخصوص المظهر الخارجي لهؤلاء الناس الأذكياء فقد كانت ملامحهم الزنجية وبشرتهم الداكنة تكشف عن أصلهم العربي الأصيل، والأنف الطويل المعقوف كالنسر الجريء يكشف بشكلٍ واضح عن انتمائهم للأصل الساميّ، والشعر الأسود غير المُهذب الناعم ينسدل على شكل خصلات غجرية على أكتافهم، وقلَّما يقصونه طبقًا لتقاليد البدو، كما لا حظ ذلك أيضًا بلينوس عند أسلافهم.

فلديهم قَذَالٌ صغير وجبهة صغيرة جدًا تكاد تكون قوسًا صغيرًا وقلّما كان لأحدهم لحية والبالغون من الرجال لديهم شارب صغير وأحيانًا لحية صغيرة على أذقانهم تشبه الماعز. ومن المعروف كما ذكر بلينوس أن العرب يتركون لحيتهم تنمو على شفاههم العليا، ربما كان السبب في هذا الاعتقاد الخاطئ أن العرب يتركون لحيتهم تنمو كاملة باستثناء الشباب في المدن، سواء كانت خفيفة أم غزيرة، وقلّما يقصرونها حتى لا يتشبهون باليهود، وعلى هذا الشكل كانوا أيضًا في الوقت الذي زار فيه بلينوس جزيرة العرب؛ لأن هذا الشعب لم يتغير أبدًا عبر آلاف السنين.

أمَّا السلع التي كان يتاجر فيها أهل حضرموت فقد كانت السكر والفول والخبز الصلب الذي يؤكل في الرحلات البحرية، وكل من السمك واللحم المدخن والفاكهة المجففة والتوابل، باختصار كل السلع التي تُباع عند بائعي التوابل والعطَّارين في باقي المدن، ما عدا القهوة التي كانت تقتصر على اليمنيين (عرب اليمن)؛ حيث تُزرع حبوب

القهوة العربية في موطنهم. كان من المعروف أن البضائع الهندية كانت في أيدي المسلمين القادمين من شرق الهند، الذين كانوا يأتون في كل موسم حج في سفينة تجارية إلى جِدَّة، يحملون معهم السكر وصبغة النيلة والقطن والتوابل بكل أنواعها والحناء والمرجان والأحجار الكريمة، وأقمشة مصنوعة من الحرير الخالص وبعضها يدخل الحرير في تركيبها وأوشحة من الكاشمير، وحصائر مصنوعة من جريد النخل الناعم والخشن، ومصنوعات من العاج، وباقي المواد الثمينة الصينية المختلفة، التي كان يشتريها الناس من التجار الصينيين الأثرياء، الذين يجلبون بضائعهم هذه إلى جِدَّة على السفن البحرية وتُدفع أثمانها بالتالر الفرنسي والأسباني، وكان يتم البحث كثيرًا عن مكان هاتين العملتين؛ ولهذا السبب كان ثمن شرائهما غالٍ جدًا؛ لأن الهنود كانوا يفضلون النقود الجاهزة فقط، ولا يأخذون سوى الفضة من التالر الأسباني.

لا يزال الهنود الذين استقروا هنا في جِدَّة يحافظون على ملابسهم التقليدية الهندية؛ مثل البنطال الواسع الفضفاض الطويل الذي يشبه ملابس الأوربيين أكثر من ملابس الشرقيين، التي تتكون من القفطان المصنوع من القطن والأوشحة ويعتمرون العمامة المميزة لهم، وهم يُعرفون في جِدَّة من خلال ملابسهم وبملامحهم الجميلة وبشرتهم داكنة اللون؛ لأنهم يمكن تمييزهم من الزنوج بسبب عيونهم الواسعة المعبرة وأجسادهم النحيفة الرشيقة. وينتمي إليهم أغنى الناس وكان كرويسوس (Croesus)[1] جِدَّة منهم. فهذا المليونير الذي أراني إياه أحدهم كان في أول حياته من العبيد وأصبح اسمه الآن (El Jesra) أو (El Oeldsch) أي العبد أبيض البشرة بخلاف المملوك والزنجيّ. لقد أتى إلى جِدَّة من شرق الهند قبل خمسين عامًا، فأعتقه مالكه، وبدأ يكون ثروته شيئًا فشيئًا والتي بدأت تتضاعف حتى أصبح مالكًا لمليون تالر. كما كان يملك سفينتين بخاريتين أو ربما ثلاث. كان مظهره الخارجي بسيطًا جدًا؛ فقد كان يرتدي ملابس قديمة قذرة وبقى قنوعا، ويسكن في منزل حقير للغاية، ولم يكن يستمتع بامتلاكه مخدعًا للحريم،

١ كرويسوس هو ملك ليديا من الأسرة الميرمنادية، وحكم بين عامي ٥٦٠ - ٥٤٦ ق م وكان قد خلف والده الياتس الثاني بعد حرب مع أخيه غير الشقيق، وأكمل فتح أيونيا بالسيطرة على إفسوس وميليتوس وأماكن أخرى، ومد الإمبراطورية حتى نهر هاليس. وجمع ثروة من التجارة كانت مضرب الأمثال واستخدم جزءا منها في تأمين التحالفات مع الدول الإغريقية التي مدت جيشه بأساطيلها. (المترجمة)

فقد أخبرني محمد الريس متذمرًا أن هذا المليونير البخيل يشتري الزنجيات فقط وليس الروميات، التي يبلغ ثمن الواحدة منهن من خمسة إلى عشرة آلاف قرش. أعربت للريس محمد عن ملاحظتي بأن كرويسوس هذا البالغ من العمر سبعين عامًا لا يمكن أن يمتلك الجارية البيضاء الرومية، فأجابني بالمثل الشعبي العربي الذي يقول: "مَن لديه المال، يظل شابًا دائمًا." فقد كان يرى هذا النخَّاس أن الحريم تصبحن ثروة لمالكهن، وقد كان محقًا في رأيه هذا؛ لأنه كان شيئًا غريبًا لي معرفة أنَّ قيمة الرجال تزداد في نظر الأتراك والعرب حينما يُقال عنهم أنهم يمتلكون جارية بيضاء رومية. لا يُسمح لأحد برؤية هذه الجارية البيضاء سوى النساء؛ ولكن مالكها يُعرف بين الجميع، الذين يقدّرون ويبجلون هذا المالك السعيد بسبب هذا الشيء الثمين، الذي يكون غالبًا من التجار ويحصل دائمًا على قروض؛ لأن التجار الذين يقتربون من الإفلاس يعيدون لأنفسهم اعتبارها ومكانتها من خلال شراء جارية بيضاء جديدة تساعدهم في اقتراض مبالغ جديدة من الآخرين. كان نفس الشيء يحدث مع مالكي العبيد البيض الغلمان؛ لكني قد ذكرت سابقًا أنهم لم يعد لهم وجود. لكن ربما انتعشت تجارة الرقيق والجواري في العصر الحديث بسبب هجرة الشراكسة الجماعية إلى تركيا بعد انتصار روسيا في عام ١٨٦٤ والذين كانوا قد اعتادوا بيع أولادهم للنخَّاسين. عندما قمت برحلة حجي إلى مكة كانت لا تزال هذه التجارة يعتريها الركود.

بخلاف الهنود المسلمين يوجد في جِدَّة كما في باقي البلدان العربية، ودون استثناء مكة، البراهمة الكافرون، الذين لم يكن لهم هنا مأوى ووطن دائم؛ بل اعتادوا البقاء هنا عدة أشهر فقط من الربيع حتى آخر فصل الصيف ثم يرجعون إلى وطنهم؛ كي يعودوا من جديد إلى هنا في بداية العام مع السفن التجارية القادمة من الهند. كان المسلمون يحتقرونهم بصورة عدوانية، والسبب في ذلك يرجع إلى عبادتهم للأوثان ونفاقهم؛ ولكي يتمكنوا من زيارة البلد الحرام مكة كان عليهم أن يمثلوا أنهم مسلمون ظاهريًا فقط، وأن يقوموا بكل عبادات وعادات المسلمين مثلهم، حتى يحققوا أهدافهم التجارية في مكة ثم يعودون إلى ملتهم القديمة في وطنهم. وقد أكدَّ لي بعض الناس هنا أنَّه توجد في مكة

مستعمرة كاملة من البراهمة الهندوس والبارسيون الزردشتيون (عبدة النار) يقيمون فيها بسبب التجارة ويتصرفون كما لو كانوا مسلمين، وإلا لم يكن ليُسمح لهم بالبقاء في البلد الحرام؛ لكنهم يظلوا في أعماقهم الوثنيين العنيدين.

أمَّا الزنوج فقد كانوا فرقة كبيرة من سكان جِدَّة، ويمثلون الطبقة الدنيا العاملة المكونة من العبيد الأحرار في الغالب أو العبيد الهاربين من أسيادهم، الذين لا يطيقون العمل الجاد، ويعيشون على بواقي وفضلات الأطعمة والمأكولات التي يلقي بها أصحابها في القمامة، وعلى السرقة أو الصدقات التي يعطيها لهم الحجاج؛ لأنهم لا يحصلون على شيء من العرب الأصليين البخلاء، الذين لا ينفذُّون ما أمرهم به القرآن، ويقومون بباقي الأوامر التي لا تكلفهم دفع المال. يكاد يعيش الزنوج في جِدَّة مثل البدو، يسكنون الخيام والعُرُش المُشيدة من البوص ويربون الماعز والدواجن؛ لأنه لا يُسمح في المدينة بتربية حيوانات أكبر منها، ويرتدون ملابس تشبه ملابس ساكني الصحراء البدو الأصليين الذين يحتقرونهم بشكلٍ مزري.

يمتلك البدو في هذه العُرُش دكاكين صغيرة يبيعون فيها ما تنتجه الحيوانات التي يربونها وما يزرعونه في المراعي مثل ألبان الأبقار والجمال وأعلاف الخيول والدواجن والبيض والثمار المختلفة ومن بينها أجود أنواع التمر؛ ولذلك يُطلق على دكاكين البدو اسم تميرة (أكشاك التمر). كذلك يبيعون الزبدة بكميات كبيرة، والتي لا تزال تُستخدم في المطبخ العربي حتى الآن بشكلٍ رئيس، وقد ذكر القائد الروماني (Starbo) أنه وقواته كانوا ينفرون من استخدامهم الزبدة بدلًا من الزيت في طهي الطعام حينما كانوا في الجزيرة العربية.

لا يتزاوج البدو مع الزنوج أبدًا؛ لكن باقي سكان المدن العربية يفعلون ذلك، مما أدى إلى أن كل سكان المدن أصبحوا بالكاد من جنس المولاتو على مر القرون، بينما ظل أصحاب الريف هم الجنس العربي الأصيل. فمن الممكن أن ترى في جِدَّة وجوها كثيرة مولاتو وذوي بشرة ملّونة، ويوجد في مكة أيضًا الكثير منهم، فكل الأشراف (نسل الرسول) أي أعظم وأشرف الأجناس ينحدرون من زنوج مكة وجِدَّة، وبالتالي فإنهم

يكونون أقل بكثير من البدو فيما يتعلق بنسبهم وجنسهم؛ على الرغم من أنهم ينتمون لأعظم وأرقى نسب من ناحية الأب.

بالطبع لا ينتمي هؤلاء التجار - الذين ذكرتهم آنفًا القادمون من الهند وحضرموت وقلَّما عاشوا طيلة حياتهم في جِدَّة - لسكان جِدَّة؛ بل يتكون السكان أساسًا؛ بجانب عدد قليل من أهل جِدَّة الأصليين والمواطنين القادمين من مصر وسوريا وفلسطين ومقدونيا الذين استوطنوا جِدَّة وأصبحوا من أهلها وكذلك مجموعة صغار التجار، من أسيا الصغرى وروميليا وأخرى من أصحاب البيوت والأراضي وعدد لا بأس به من أصحاب الحِرَف. كانت طبقة الحرفيين تلقى احترامًا وتقديرًا عند العرب وساكني المدن وليس عند البدو؛ حيث أنَّهم يُعدون طبقًا لتقاليد المسلمين من الناس المتعلمين وربما من العلماء الذين يحفظون القرآن كاملًا، ونظرًا لكثرة عدد العلماء في الشرق وقلة الوظائف في المساجد والمدارس والجامعات، كان من الضروري أن يكسبوا لقمة عيشهم بطريقة تعتبر مهينة طبقًا لأيِّ عالم أوربي. أمَّا عند الأتراك فقد كان من المعروف أن الحرفيِّ يحظى بمكانة أعلى وتقدير أكبر؛ لدرجة أنه كان من الواجب فيما سبق على أيِّ تركي أن يتعلم حرفة حتى أعالي الناس والوجهاء، ولا يستثنى السلطان نفسه من هذا الأمر، فقد كان السلطان محمود نجارًا، والسلطان عبد المجيد طباخًا والسلطان الحالي أعتقد أنه كان عنده مصنع للجعة، مما جعلني أتذكر ملوك فرنسا لودفيج الخامس عشر(Ludwig den Fünfzehnten) الخبَّاز ولودفيج السادس عشر (Ludwig den Sechzehnten) القفَّال. أنا شخصيًّا أعرف في القسطنطينية أحد الباشاوات الذي تعلَّم مهنة الإسكافيِّ وكان يصنع أحذية الشتاء بنفسه في أوقات فراغه، واعتاد أن يهديها لأصدقائه وهو في غاية السرور. في جِدَّة لم تعد لهذه المهنة قيمة فهي لا تسد جوع مَن يقوم عليها؛ لأن غالبية الناس يمشون حُفاة دون أحذية مثل الحجاج وهذا أمر واجب عليهم، والبعض الآخر مثل الزنوج والبدو وحضارمة جِدَّة بسبب الفقر. أمَّا التجار الأغنياء فقد كانوا ينتعلون غالبًا الصنادل، وإذا احتاج أحدهم حذاءًا فقد كان يشتريه جاهزًا من مصر؛ حيث توجد جميع أنواع الجلود.

كان الخيَّاطون في جِدَّة ينحدرون من القاهرة وسوريا إلى حدٍ كبير، وقد كانوا يخيطون الملابس العربية فقط؛ لأن كل المصريين والأتراك المقيمين هنا كانوا يرتدون زيهم الأصلي في موطنهم، ولم يكن لهم زبائن من الحجاج الذين لا يرتدون سوى قطعتي الإحرام. كانت ثياب أهل مدن وسط الجزيرة العربية كالحجاز وتهامة أخَّاذة جميلة وتستحق مني أن أخوض في وصفها بالتفصيل؛ فقد كانت تتكون من القفطان الطويل المصنوع من القطن أو من أقمشة سورية يدخل في تركيبها الحرير مثل الآلاجا (منسوجات من الحرير والقطن مخططة) والدامسكو (منسوجات من الحرير والقطن مزركشة ومتعددة الألوان)، وهما من أشهر أنواع المنسوجات وأكثرها انتشارًا، وفي بعض الأحيان كان يُخاط القفطان من قماش الحمصي (وهو عبارة عن الكتَّان الذي يأتي من مدينة حمص)، بالإضافة إلى السروال الطويل الفضفاض الذي يصل حتى الكاحل ويغطي القدمين وتُلبَس فوق القفطان كوفية أو شماغ من الحرير أو الكشمير، والفقراء يرتدونه مصنوعًا من القطن أو الصوف، وفي كل طرف في نهايته تتدلى زخارف من القماش الملون تُثبَت في النهايتين، وفوق القفطان يرتدي الفقراء لباس البدن وهو عبارة عن لباس طويل واسع مفتوح من الأمام وبدون أكمام، بينما يرتدي الأغنياء الجبة أو البنش؛ وهو عبارة عن سترة طويلة تشبه البدن في كثير من أجزائها وتختلف عن البدن في أن أكمامها أوسع وأطول، وتُخاط غالبًا من خامات غالية الثمن، ولها ألوان أخَّاذة لافتة للنظر. في بعض الأحيان تُزَيَّن بقطع من الفرو باهظ الثمن، ويعتبر هذا رفاهية فاخرة بالنسبة لظروف المعيشة العربية. كانت الرأس تُغطى بالطربوش وتُلف حوله العمامة من الكشمير أو القطن. كان هذا الزي باهظ الثمن لدرجة لا تمكن الكثيرين من ارتدائه كاملًا بجميع أجزائه. لكني رأيت في جِدَّة حوالي مائة شخص يرتدونه بحالة جيدة وغير مهلهل مما آثار دهشتي، حيث اعتاد الناس في مدن الشرق على لبس الثياب الرَّثة. وفي مكة راقت لي رؤية المزيد من الناس مرتدية ثيابا أخَّاذة في حالة جيدة، وكان أكثرهم في المدينة حيث كنت أتمنى زيارة هذا المكان ولم أنجح في تحقيق رغبتي هذه، وسوف يعلم القاريء فيما بعد لماذا لم تتحقق رغبتي. أمَّا ما يخص ثياب البدو فقد كان شيوخ القبائل ووجهاء القوم يرتدون

مثل الثياب التي وصفتها عند البدو أهل يَنبُع. لم يكن الرجال في حاجة للذهاب لخيَّاط يحيك لهم ملابسهم؛ لأن هذه الثياب كانت تتألف من قطع منفصلة يؤتى بها جاهزة من الخارج؛ فالكوفية (الحرير الحمراء) من سوريا والعباءة أيضًا من هناك والقميص القطني من مصر. كذلك النساء لم يكنَّ في حاجة للذهاب للخياط، بينما في بعض البلاد الإسلامية مثل الجزائر وتونس كان النساء يذهبن للخيَّاط لحياكة ثيابهن، أمَّا هنا في جِدَّة فكانت القطعة الوحيدة التي يحيكها الخيَّاط للنساء هي الصدرية؛ وهي عبارة عن قميص صغير يُستخدم لتغطية وشد ثديي المرأة، يُلبس مفتوحًا ثم يُلف حول الجسد بشرائط من الأقمشة بطريقة مشدودة جدًّا؛ وهو بهذا الشكل يؤدي نفس الغرض الذي يقوم به المشد الذي يُربط بأشرطة من الظهر في أوربا بغرض إبراز جمال المرأة التي ترتديه، وهذا أمرٌ يقدره جيدًا كل رجل يرى صدر المرأة البدوية الذي يشبه صدر المعزة؛ لأنها لا تستخدم حمالة الصدر المناسبة، ولذلك يترهل صدرها كما لو كان "مادة رغوية". كانت تُخاط صدرية الفقراء من القطن المصري، بينما تُصنع صدرية الأثرياء من الحرير، وفي بعض الأحيان تكون مذهَّبة. أمَّا باقي أجزاء الزي النسائي فقد كانت عبارة عن: الثوب وهو سترة واسعة بيضاء ذو ثنيات لها أكمام طويلة جدًا مُسدَلة على الصدرية، والسروال ويشبه ما يرتديه الرجال، والملاية البيضاء الطويلة المقلمة باللون الأزرق المصنوعة من القطن وترتديها النساء فقط في الشارع حيث تلف النساء أجسادهن بها ولا يظهر من جمالهن أي شيء. كان الشيء الوحيد الظاهر من هذه الملاية هو برقع الوجه المصنوع من قماش القطن السميك أبيض اللون وبالتالي لا يتحلين بأيٍّ من مظاهر الجمال.

أمَّا فيما يتعلق بجمال نساء جِدَّة فأكاد أجزم أني لا أستطيع أن أحكم على هذا الأمر بشكلٍ قاطع؛ لأني لم أر وجه أيِّ امرأة كريمة واحدة؛ لأن النساء اللواتي لا يصح وصفهن بلقب "الكريمات" كثيرات العدد في ظل هذا الوضع الأخلاقي المفكك، كما كنت أشعر بالرغبة في عدم رؤية نساء جِدَّة؛ بل كنت أركز على الأجنبيات كالبدويات والزنجيات والمصريات اللواتي عثرت على شيء من الجمال عندهن. كانت البدويات غالبًا نحيفات ولهن سحرٌ مؤقت من سن الثانية عشر حتى الرابعة عشر، سرعان ما يخبو ويذبل بعد

بلوغهن الخمسة عشر ربيعًا، وكذلك الزنجيات والحبشيات لهن نفس الوضع. أمَّا المصريات فلهن وضع مختلف؛ حيث يلقيَن هنا تقديرًا، فهن غالبًا لسن جميلات ولكنهن بارعات في فنون الغناء والرقص والموسيقى، مما يجعلهن محبوبات. كان للبدويات والمصريات طقوسهن الخاصة التي يعتقدن أنها تزيد من جمالهن وسحرهن مثل خضب كعوبهن وأيديهن باللون الأسود من حجر الإثمد، والذي تُصنع منه أيضًا أدوات الزينة المعروفة للنساء التي تُسمى الكُحل وتستخدم أيضًا في الجزائر. تلون المصريات كفوفهن باللون الأسود ويرسمن الوشم على جباههن ووجناتهن، ولكل قبيلة الوشم الخاص بها، ومن خلاله يُعرف إلى أيِّ قبيلة تنتمي المرأة صاحبة الوشم. علاوة على ذلك يستخدمن نبات الحناء في صبغ أذرعهن وسيقانهن بدرجة جميلة من اللون البرتقالي ويستمر هذا اللون حوالي أربعة عشر يومًا. وأخيرًا فهن يفضلن استخدام أدوات الزينة التي تغير لون بشرتهن للون الأبيض أو الأحمر والتي يجلبنها غالبًا من أوربا؛ لأن مستحضرات التجميل وبودرة الوجه الشرقية لا ترضيهن.

بالطبع كنَّ أغنى النساء فقط هنَّ مَن يستطعن شراءها؛ أي اللواتي يقمن بأعمال تجارية جيدة، واللواتي بالكاد يبلغن الجزء العشرين من مجموع النساء؛ لأن أجور النساء غالبًا منخفضة جدًّا. أمَّا البدويات الأصيلات فقد كنَّ يبغضن فنون ومستحضرات التجميل الأوربية؛ بخلاف البدويات اللواتي نَشأن وترعرعن في المدن أو أقمن فيها فترة طويلة، فهنَّ يُقدِّرن هذه المستحضرات الأوربية جدًّا، ويستطعن تسديد الضربات لأيِّ امرأة باريسية في هذه اللعبة. لكنهنَّ قلَّما كنَّ يفهمن أدق تفاصيل وفنون تلوين الوجه وظلاله؛ لذلك يستعملن هذه المساحيق بشكلٍ مذري، فيلونَّ وجوههن بأكملها بالمساحيق البيضاء مما لا يتناسب مع عيونهن وشعورهن السوداء، فيظهرن بشكلٍ يدعو للسخرية والضحك، ويضعن طبقة سمكية من مساحيق الزينة الحمراء على وجناتهنّ فيبدُنَّ كأنهن ألصقن زهرات خشخاش عليها. بالإضافة إلى ذلك يلصقن غالبًا أوراق مُذهبة على جباههن وبين حواجبهن وفي تلك الفترة يوصِّلن الخط الواصل بين الحاجبين باللون الأزرق وبعضهن يدهنَّ هذه الطبقة من الألوان بالزبد السائل مما يعطي بشرتهن مظهرًا

لامعًا وناعمًا تفضله الشرقيات جدًا. لذا كنَّ يبدُنَّ كأنهن الإغريقيات عشيقات لوسيان (Lucian) اللواتي سخر الناس منهنَّ وقال أحدهم أنَّ وجوههنَّ تشبه الخَزَّاج أكثر من كونها وجوهًا للبشر؛ وذلك بسبب كمية المساحيق الكبيرة من مستحضرات التجميل البيضاء والحمراء. على أيَّة حال لن أكون منصفًا إن لم أذكر أن القلة القليلة منهنَّ برعن في تزيين الوجه وبرهنَّ على رُقيهنّ في هذا الفن ومحاكتهن للطبيعة في تزيين وجوههن مثل باقي أخواتهن من الأم حواء في عواصم الدول الأوربية الكبيرة.

عرَّفني أكبر أولاد أخ للشيخ مصطفى، الذي كان يميل بشكلٍ خاص دائمًا للجنس الناعم ويقدرَّه، على إحدى العوالم (Almeh) المشهورة والمحبوبة جدًا بين أقرانها في هذه الطبقة. كانت تسكن في أحد أحياء المدينة الأكثر حيوية في بيت مُشيَّد بالحجارة، وهذا شيء يُعد من الترف ورَغد العيش بالنسبة لأمثالها. كان بيتها مُكوَّنا من غرفتين صغيرتين جميلتين اعتادت على استقبال صفوة العديد من مُحبيها ومعجبيها فيهما. نعم أقول هنا صفوة مُعجبيها لأنها كانت دقيقة الاختيار وتختلف عن باقي أقرانها في هذه الطبقة اللاتي كنَّ يتوددن للجميع سواء كانوا أثرياءً أم فقراءً؛ فقط مَن يستطيع دفع النقود، ولم تكن لهنَّ تسعيرة محددة، فقد كان أحدهم يدفع لهن خمسة كرويتسر والآخر يدفع لهن تالر، كلٌّ حسب مقدرته وكانت هذه ظاهرة مميزة غريبة جدًّا في الشرق. أمَّا حنيفة الحسناء فقد كانت استثناءًا بين هؤلاء جميعًا؛ حيث لم تكن تكتفي بأول رجل يدفع لها أيَّ مبلغ من المال مثل سائر النساء؛ بل كانت تفرض تسعيرة محددة ليست قليلة على من يرغب في الاستمتاع بها. فهي الوحيدة بين أقرانها التي استطاعت أن تعيش في رَغَد من العيش وفي مستوى معيشي عالٍ؛ مما جعلها موضع حّسد من باقي النساء. كانت هذه المرأة تهتم بالمزيد من المال أكثر من المعاملة الحسنة، وقد كان هذا سبب سعادتها؛ لأنها كانت شابة جميلة تتزَّين بطريقة أخَّاذة، وبلغ عدد المُتيَمين بها كتيبة بأكملها.

قادني رفيقي في رحلتي الشاب الساخر إلى حنيفة وذهبت معه بكل تؤدة وصبر. ففي الرحلات يجب أن تفعل أيَّ شيء كي تكتب دراسات عن العادات والتقاليد. تبلغ حنيفة من العمر خمسة عشر ربيعًا، كانت شابة يافعة قصيرة فاتنة، ريانة ممتلئة الجسد،

ولها وجه طفوليٌّ مستدير جميل. كانت ساقاها ممتلئتين ويداها مبطنتان بالشحم. لم يكن جسدها الممتلئ يبدو سيئًا؛ بل كان في استدارته يشبه جسد الطفل الرضيع السليم الذي يتغذى جيدًا؛ فكانت مختلفة تمامًا عن البدويات النحيفات؛ لأن حنيفة كان أصلها بدويًّا؛ ولكنها وُلِدَت وتربت في جِدَّة. لكن ما سبب هذا الاختلاف اللافت للنظر؟ اكتشفت حل هذا اللغز قبل مغادرة بيتها. فقد كانت أمها تسبقها في هذه المهنة؛ لكنها الآن لم يعد لها معجبون؛ لذا فإنها تعرف جيدًا أذواق الأتراك والشرقيين في مسألة النساء؛ فهم يفضلُّون المرأة المستديرة الجسد الممتلئة المثيرة؛ ولهذا عملت على تسمين ابنتها منذ أن كانت في العاشرة من عمرها. لم يكن أمر تسمين الفتيات في الشرق غريبًا، فقد كانوا يستخدمون لهذا الغرض اللبن والقشطة، التي تتناولها الفتيات بكميات هائلة. ولأن بعضهن يعترضن على الاستمرار في شرب هذه الكميات من اللبن الدّسم، كُنَّ يُرغَمن على ذلك كل يوم على شُرب مقدار من اللبن، وكانت تلعب عصا إحدى الزنجيات ضخمة البنية دورًا كبيرًا في هذا الأمر. وإذا لم تؤد العصا الغرض المطلوب كنَّ يوثِّقن الفتيات ويُصب اللبن غصبًا في أجوافهنَّ. وبذلك يُصبح شكل أجسادهن كالإوزة السمينة. ولكن كل ذلك يحدث لصالحهن، كما يدَّعي الشرقيون. في الحقيقة بعد مُضي سنة أو سنتين من تجرع هذا اللبن الدسم يحصلن على هذا القوام الممتلئ الجميل، الذي يجعلها محبوبة وفاتنة في أعين الرجال الشرقيين الخبراء في أمور النساء. بذلك كانت الأمهات يأملن أن يجدن ثريًّا مسلمًا يأخذ أيًّا من هذه الحزمة من البنات السمينات زوجة شرعية، وكنَّ ينجحن في معظم الأحيان في ذلك، وتتقاضى الأم في المقابل مبلغًا كبيرًا من المال. لم يكن غالبية الرجال المسلمين يدققون في مسألة اختيار أصل ونسب زوجاتهن؛ فقد كانوا يتزوجون الفتاة الأقل منهم اجتماعيًّا عن طيب خاطر إذا كانت شابة جميلة، لاسيَّما إذا كانت لا تزال بكرًا. لماذا لم تنجح حنيفة إذن في الزواج من أحد هؤلاء الأثرياء؟ هذا الأمر حالت الأم دون وقوعه والتي تعرفت عليها شخصيًا. باختصار لم تتزوج حنيفة من أحد هؤلاء الأثرياء بسبب تربيتها الجيدة؛ أي تربية جسدها وتسمينه التي جلبت لها المنفعة، وهى امتهان حرفة العالمة التي احترفتها بسرعة، وحظيت بشهرة وسمعة،

فأصبحت أكبر نجمة بين باقي عوالم جِدَّة، وتميزت عن غيرها بكثير من المزايا. فقد كانت غالبية العوالم من المتشردات بلا أصل، اللواتي يكبرن كالنبت الشيطاني، وليس كحنيفة التي ربتها أمها وسمَّنتها، وكأنها ابنة أحد الأعيان لتصلح كإحدى الإماء البيض في حريم السلطان. لكن بالإضافة إلى هذه التربية للجسد السمين تلقت حنيفة تدريبًا من نوعٍ آخر؛ فقد كانت تغني وترقص وتلقي الأشعار، باختصار كانت امرأة مثقفة. كذلك لم يكن سلوكها وأخلاقها مثل باقي المتشردات المنبوذات من الجميع؛ فقد كانت تفتح ثغرها بكل رقة وتحيي الآخرين بأدبٍ جم، وتجلس في وضعٍ فني، وترفع رأسها الصغير بكل رشاقة. وحينما تحتسي القهوة كانت تأخذ الفنجان بأطراف أناملها وتمسكه بطريقة ربما تدَّربت عليها؛ لكنها تبدو طبيعية للغاية؛ فقد كانت ترتشفها من حافة الفنجان المصنوع من البورسلين الصيني بهدوء وهوادة حتى تصل لنصف الكمية التي به وهو أمر يدل على الأرستقراطية والوجاهة عند الشرقيين. كانت عندما تدخن، وهو ما قامت به أثناء تواجدي عندها، تستخدم شيشة رقيقة طويلة مصنوعة من خشب الياسمين ولها مبسم من حجر الكهرمان يبرق كالذهب، لا تكاد تقرّبه من ثغرها لتسحب منه كميات ضئيلة من تبغ اللاذقية ذي الرائحة الجميلة، وفي بعض الأحيان كانت تسمح له بالمرور إلى ثغرها؛ بَل تجعله يلامس شفتيها قليلًا ثم يتبدد الدخان حولها، وفي بعض الأحيان حسب حالتها المزاجية تسحبه وتخرجه مرة أخرى من فتحتي أنفها الأفطس الرقيقتين. وكما كانت لا تشرب فنجان القهوة بأكمله، كانت تدخن الشيشة أيضا حتى منتصفها، وقد كانت تسود هذه العادة بين الوجهاء والأعيان الشرقيين، ويدَّعون أنَّ الطبقة السفلى من التبغ لها مذاق غير جيد؛ لكني أرى أن السبب في هذا هو التفاخُر بالبذخ والإسراف الذي يمارسه الشرقيون حينما تسمح ظروفهم المادية بذلك. بدا لي أنَّ حنيفة كانت تلعب بالشيشة كي تخلق حركات تفصح بها عن حركات رشيقة مثيرة لجسدها.

كان لحنيفة بجانب جسدها المستدير، الذي يمكن تسميته السمين وليس الضخم، وجهٌ رقيق للغاية. كان أنفها مسطحًا رقيقًا مثل آلهة الغابة على جبل الكابيتول وجبهتها قصيرة مثل أفروديت الإغريقية، ولها ذقن صغير مستدير، وكان ثغرها تحفة من الطبيعة؛

صغير ولين كما لو كان ثغر طفلة صغيرة. لم يكن رأسها عريضا ولا نحيلا مثل باقي البدويات. باختصار كان وجه حنيفة يمزج بين حلاوة وروعة الطفولة والأنوثة الراقية. إنَّه خسارة كبيرة أن تضطر لوضع هذه المساحيق التجميلية على هذا الوجه، الذي كان لونه الطبيعي لا يُكتشَف إلا بعد التدقيق الشديد. كان لون وجهها الحقيقي بُني يميل للصفرة؛ أي أفتح من لون وجه باقي البدويات والمصريات؛ لكنه أغمق من لون وجه أيٍّ امرأة من جنوب أوربا. لكن بسبب وضع كميات كبيرة من مسحوق الوجه (blanc de Perles) (مستحضر تجميل لونه أبيض يُصنع في باريس وقد دُهشت للغاية حينما وجدته موجودًا في هذا المكان (شبه الهمجي) أصبح لون وجهها أبيض، ولون الوجه هذا لا يُرى في جِدَّة بأكملها سوى عند حنيفة. ولكني يمكن أن أمتدح الطريقة التي كانت تضع بها هذا المسحوق؛ حيث لم يظهر غير طبيعي على وجهها؛ لأنها كانت تُجيد وضعه بشكلٍ بدا طبيعيًّا للغاية، وأضافت فوق هذه الطبقة البيضاء ظلالًا ناعمة وردية اللون، فصارت وجنتاها تشبه وجنتي امرأة تأتي من مدن الشمال، وليس وجنتي امرأة ريفية تعيش في الشمال اعتادت الظهور بمظهرٍ كما لو كانت تضع زهور خشخاش حقيقية على وجنتيها. كذلك أيضًا كانت حواجبها وأهدابها ملونة برقة، وبرقت الحافة الداخلية لجفني عينيها بسبب الكحل الذي أحدث سُمرة عميقة في عينيها أبرزت بياض عينيها اللامع. كان كل وجه حنيفة في مجمله على شكل حبة اللوز، برزت فيه جاذبية العيون الشرقية؛ على الرغم من كونه ليس طبيعيًا؛ بل كله اصطناعيّ بفضل هذه المساحيق. تميزت حنيفة عن باقي أقرانها من العوالم بموهبتها في وضع هذه المساحيق بصورة طبيعية، بينما لا يزال باقي العوالم يرون أن ذروة الجمال تكمن في وضع طبقات سميكة وغير مُنسقة من مستحضرات التجميل. حينما تُتقن المرأة الباريسية وضع هذه المستحضرات بطريقة طبيعية وباحتراف فلا عَجب في ذلك لأنها تعلمت ذلك؛ حيث توجد في باريس مُعلمات محترفات يُعلمن هذا الفن. لكن حينما تقاوم إحدى البدويات عادات النساء السائدة هنا بوضع كميات هائلة من مساحيق الزينة بلا تنسيق كرسوم الكاريكاتير وتبذل الجهد في محاكاة الطبيعة بكل ظلالها الرقيقة وأدق تفاصيلها، فلن يتحقق هذا إلا بسبب حَدسٍ سليم وذوقٍ فطريٍّ

جيد تجاه الجمال وإدراك مواضعه. لكن كان حريًّا بها بسبب إدراكها للجمال ألاَّ تستعمل هذه المساحيق الاصطناعية؛ لكن لا يجرؤ أحد على أن يطلب هذا الشيء من امرأة شرقية؛ فالرجال في الشرق اعتادوا على النساء اللواتي يستخدمن هذه المساحيق لدرجة أنهم لا ينظرون للمرأة التي بدون هذه المستحضرات، تمامًا مثل الإنجليزي الذي لا يستطيع شرب النبيذ الأصلي. عادة يُفضل الرجال في الشرق طريقة التزين الفجَّة، أمَّا حنيفة التي تستخدم مساحيق التجميل برقة وطبيعية فكانت لا تعجبهم كثيرا في بادئ الأمر؛ لكن بمرور الوقت انتصرت حنيفة وأضحت - بالنسبة للمعجبين بالجنس الناعم الذين يأتون إلى مكة - لونًا فريدًا لا مثيل له من ألون الجمال النسائي الشرقي والآن له المرتبة الأولى بين كل عوالم مدينة الأم الكبرى جِدَّة. يعلل البعض السبب في هذه الشهرة الكبيرة وهذا الكم الكبير من المعجبين بجمال حنيفة إلى حواء أم البشرية، التي تزور حنيفة قبرها دائمًا.

بذلك أصبحت أم البشرية حواء التي لا يشك أيٍّ مسلم في قداستها، شفيعة للنساء صغيرات السن الطائشات. مَن منكم أيها القُراء يرى في مثل هذه الخرافات والعادات القديمة لتانيت الفينيقية (der phönicische Thanit) التي عبدها العرب باسم (Khabar) وأفروديت الإغريقية (die griechische Aphrodite) وفينوس الرومانية (die römische Venus).

تعاملت حنيفة معنا بمنتهى الأدب وبكياسة رقيقة؛ لكن في نفس الوقت بشيء من التحفظ والفتور، باختصار لم يكن سلوكها أفضل من ذلك. ربما لأنها كانت تعرف جيدًا أننا لم نكن زبائن لها؛ لأننا كنا نرتدي بالفعل ملابس الإحرام، والقرآن يُحرِّم بشكلٍ قاطع على الحاج الذي ارتدى ملابس الإحرام الاستمتاع بتفاح الجنة. لقد كانت جرأة كبيرة منا التسلل عندها بملابس الإحرام؛ لكننا كنا قد أخذنا حذرنا لحظة دخولنا، وأثناء خروجنا أرسلنا أحد الخَدم إلى الشارع كي يعطينا إشارة حينما يخلو الشارع من المارة. حينما حانت لحظة الخروج غادرنا بيت حنيفة دون أن يرانا أحد، ولمَّا غادرنا الشارع الذي فيه بيت حنيفة شدني رفيقي الشاب واستحلفني بكل شيء مقدس؛ فاستحلفني بقبر حواء وبجبل عرفات وبالكعبة وبأهم شيء مقدس وهو لحية سيدنا محمد، بألا أحكي لأيٍّ شخص عن

مغامرتنا هذه، وبالأخص عمه الشيخ مصطفى، الذي كان حازمًا بشدة في هذه الأمور. وعدتُ الشاب بما أراد؛ لكنه لم يصدقني؛ لأن المسلمين وبالأخص المصريين لا يثقون كثيرًا في الوعود والعهود. ولأنه كان شبه متأكد أني سوف أفضح سره؛ على الرغم من أني أعطيته كلمة ولم يصبر أن يمر على هذا الحدث يوم واحد حتى قرر بحجة تقواه وورعه أن يحكي القصة لعمه هو بنفسه، وهذا كان في صالحه هو أكثر مني؛ كي يسامحه عمه بسبب توبته السريعة المزيفة وندمه الممزوج بالرياء. فبمجرد وصولنا البيت اعترف لعمه بكل خضوع بذنبه ووشى بي في هذه الفرصة.

الآن انصَّب غضب الشيخ مصطفى عليَّ أنا البريء؛ فقد أصبحت في نظره الكافر وغير المؤمن ومثالا لكل الموبقات وحليفًا للشياطين، لقد أغويت الشاب البريء ابن أخيه كي يأتي معي إلى بيت حنيفة. لقد سمعت كل هذه الاتهامات من فم صديقي الشيخ مصطفى. كان في استطاعتي أن أرد على هذه الاتهامات بألفاظ السباب والشتائم مثل أيِّ عربي. لكن ماذا سأجني من جرَّاء رد فعل مثل هذا؟ لم أكن لأجني شيئًا سوى خسارة مرافقة المصريين في رحلتي، الذين استفدت جدًا من صحبتهم، فلو تركتهم وبقيت بمفردي لن أكون مستقرًا في جِدَّة وسأهيم على وجهي بمفردي، وهذا أمر لا أريده ولا أستطيع أن أكون بمفردي. كان بإمكاني أن أروي الحقيقة كلها وأرمي بالذنب كله على كاهل الشاب الذي اشتكاني وجعلني أنا المذنب؛ لكن لن يصدقني أحد، وحتى لو صدَّقني الشيخ مصطفى نفسه، فسوف يستجيب لنداء مصلحة ابن أخيه ولن يصدقني. فقد فهمت من الموقف برمته أن المصلحة هي التي حسمت الحكم لغير صالحي؛ لأن كل المصريين رفقاء رحلتي كانوا في انتظار وجبة من الطعام لذيذة قيمة كتكفير عن الإثم الذي اقترفته ودخولي بيت حنيفة. لم تكن توجد طريقة للتكفير بها عن ذنبي سوى ذبح الكبش. "اذبح كبشًا"، كانت مقطعًا متكررًا دائمًا في رحلة الحج يسمعه مَن يقترف أدنى شيء ضد تعاليم الحج سواء في الحقيقة أو من المفترض أن يكون قام بذلك، ومَن يشك أنه قتل قملة أو ما شابه ذلك من آثام كبيرة. "اذبح كبشا!" سوف تُقال لكل مَن يرتدي ملابس الإحرام ويغطي رأسه ولو حتى ساعة

واحدة، ولكل كافر يتمخّط في منديل الجيب بدلًا من أن ينظف أنفه بإصبعه الذي لا يصلح سوى لهذه المهمة.

"إذبح كبشًا" هكذا أخذ جميع المصريين يصيح حولي بعد أن أعلنت توبتي من الذنب أمام الجميع قائلًا تلك العبارة:

"اللهم إني اقترفت ذنبًا وتبت منه، فاقبل توبتي يا رحمن يا رحيم."

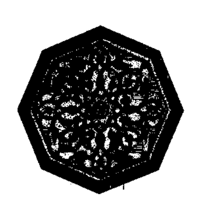
لم أكد أنتهي من اعترافي بذنبي حتى صارت ملامح الشيخ مصطفى ودودة من جديد وابتسم بلطفٍ وعذوبة وقال لي:

"يا مغربيِّ لقد اقترفت إثمًا كبيرًا ولكن الله رحمن رحيم. سوف يغفر لك الله حينما تذبح الكبش وتكفر عن ذنبك. اذبح كبشًا!"

صاح جميع المصريين من حولي "اذبح كبشًا!" يا مغربي وليكن حقًا كبشًا كبيرًا سمينًا، وبذلك ستحصل على رضا ربك.

سألت نفسي هل بذبح الكبش أكون وجدت الطريقة المريحة والصائبة للتكفير عن الذنب، ثم أمرت عليًا أن يشتري الكبش، فوجد عليٌّ كبشًا جميلًا سمينًا تكلفته عشرة فرنكات وذبحه قائلًا "بسم الله الرحمن الرحيم"، وبعد مُضي حوالي ساعة أكله المصريون الذين كانوا يعانون من الجوع الشديد، وهو في حالة مازالت شبه نيئة حتى عظامه. شكرني الجميع بعد ذلك على هذه الوجبة ولأني اقترفت هذا الذنب.

بذلك كنت قد تصالحت مع رفقائي في رحلة الحج وصفحوا لي عن ذنبي ونسوه، وأعتقد أني صرت مشهورًا بسبب هذا الذنب الذي كانت عاقبته افتراسهم للكبش.





الفصل الثامن
جِــدَّة

زيارة قـبر أمنا حواء - باب المدينة - ضواحي مدينة السواقم (Suakim) - فجور أفراد هذه القبيلة - المشروبات المُسكرة - خطبة الوعظ للشيخ مصطفى وعقاب السواقم - الشاب المُحرض لي على ارتكاب محرمات الحج - صحراء حول جِدَّة - خلو المكان من الغطاء النباتي الأخضر - أكواخ وأكشاك مصنوعة من ألواح الخشب - المغاربة الموجودون هنا - نجوت من خطر اكتشاف أمري من خلال إحدى الحيَل - حارس قبر أمنا حواء - البقشيش - الأنف المعبرة للحارس - خادم الحارس - شاب شديد الجهال - نهب أموال المسلمين - الدخول للقبر - النسب الخرافية لجسد أمنا حواء - سُرتها والتجويف السري - رأسها وصدرها وقدماها - قبر الخليفة عثمان - ضرب سيدنا آدم لحواء - تاريخ القبر - العودة لجِدَّة - سوق السمك.

في اليوم التالي بعد انتقالي من النُّزُل إلى كشك القهوة مع المصريين عقدت العزم مع كل المصريين على زيارة قبر أم البشر حواء، الذي يقع على بعد حوالي ثلث ميل شمال شرق جِدَّة، تلك المدينة التي معنى اسمها "الأم الأقدم". يُطلق على الطريق المؤدي إلى هناك "الباب الجديد" وكذلك باب المدينة (نسبة إلى المدينة المنورة لأنها تقع في هذا الاتجاه). رأيت هناك أحد الحجاج الورعين، الذي تزوَّد لزيارة قبر أمنا حواء بكمٍ هائل

من الأدعية والأذكار جعلته غارقًا في حالة من النشوة الصوفية؛ لكن فجأة ارتطم أمام هذا الباب الشيء لم يكن يبحث عنه أو يتوقعه بجوار هذا المكان المقدس، فأفاقه ونزعه من حالة الروحانية الدينية التي كان يهيم على وجهه منتشيًا بسببها. لقد شُيدَت هناك أمام الباب الجديد حوالي خمسون سقيفة وكوخ من البوص والألواح الخشبية، أُتخِذ من بعضها مقاهي، ويمكن تصور ما هو أسوأ من ذلك، فقد كانت تدوِّي هنا ليلًا ونهارًا أصوات الصخب والضوضاء التي تصم الآذان؛ حيث تُقرع الطبول ويُنفخ في المزمار وتتعالى الأصوات الجهورة يتخللها نحيب ونشيج من حناجر نسائية صاخبة. أمَّا نحن فلم نكد نغادر الباب الجديد حتى وجدنا أنفسنا في هذا الجو الصاخب وهذه الأصوات المدَّوية المتداخلة التي تؤدي إلى القضاء على الجو العام الروحانيِّ، الذي كان من المفترض أن نهيم فيه في هذا المكان. لم يفوِّت أبناء أخ الشيخ مصطفى ولا هو نفسه فرصة احتساء القهوة في أحد هذه الأكشاك مما أدهشني جدًا أن يحذو الشيخ مصطفى حذوَهم. جلسنا ننصت إلى هذه الضوضاء التي يطلق عليها العرب الاسم الإستعاري "موسيقى"، وإلى هذا الصخب الذي أعجبهم واستحسنوه وأسموه "غناءا". كان أكثر الناس الذين يسكنون في هذه الأكشاك والسقائف أمام "الباب الجديد" ينتمون لقبيلة السواقم (Suakim) التي ينحدر منها غالبية المتشردين من العرب، الذين يمكن مقارنتهم بالغجر في أوربا، والذين يمتد نسبهم وأصلهم إلى الشواطئ الإفريقية، ويتساوون مع زنوج السودان مع الفرق أن لون بشرتهم ليس أسود فاحمًا، وملامح وجوههم أخف شراسة من الكلب البولدوج. كان يوجد أفراد قبيلة السواقيم تقريبًا في كل المدن الكبيرة في شبه الجزيرة العربية، ويعيشون مثل هنا في السقائف والأكشاك البائسة أمام أبواب المدينة، وأعتقد أنهم يستحقون هذه السمعة السيئة التي لحقت بهم؛ لأنهم سلكوا طريق الحيلة الماجنة الداعرة ويمتهنون أقبح وأفظع المهن. أمَّا ما يجعلهم في نظر المسلمين الورعين كفارًا فليس فقط فجور أولادهم واحترافهم الدعارة فحسب؛ بل حبهم للمشروبات الروحية المسكرة وشربهم لها بلا حياء في النهار وعلى الملأ، خاصةً مشروب البوظة وهو مشروب مُسكر يشبه النبيذ المصنوع من العنب المتخمر، ويحظى بشعبية كبيرة ربما بسبب رخص

ثمنه الذي لا مثيل له (ثمن زجاجة من أجود أنواع البوظة يتكلف خمسة كرويتسر) فبقرش واحد يمكن للإنسان أن يصل لحالة الثمالة وهذا أمر لا يتكرر مع أي مشروب شعبي آخر. أمَّا المشروب التركي الراكي (العرق) فيشربه عبدة باخوس الهمجيين؛ ولكن لأن سعره في جِدَّة مرتفع نوعًا ما فقد كان يشربه فقط الباشا وموظفوه، وكذلك أفراد الجيش التركي، وبعض الحجاج الورعين؛ كي يصلوا لنشوة الثمالة والسُكر؛ لأنه لم يكن أفراد قبيلة السواقم الفقراء هم الوحيدون الذين خالفوا أمر الرسول في جِدَّة. فقد رأيت بنفسي أُناسا كثيرين يغرقون في السُّكْر أكثر ممن يمكن رؤيتهم في أمريكا وانجلترا يوم الأحد وهما بلاد الثمل والسكارى بامتياز؛ فتقريبًا كل الأتراك وبعض الأولياء الورعين والعلماء؛ باستثناء بعض الناس الذين يعيشون على الطراز القديم، يشربون المشروبات المُسكِرة. لكن كان بعضهم يتناول هذه المشروبات في السر ولا يفصح عن ذلك، بينما البعض الآخر لا يخفي هذا الأمر من شدة حبه لهذه المشروبات، وكانوا يغرقون في الثمل على الملأ. حتى الباشا التركي نفسه كان يثمل أحيانًا أمام شعبه. وكنت أرى في جِدَّة بنفسي عبيد الأتراك الأثرياء يحملون آنية بها مشروب الراكي في الشارع أمام الجميع. كذلك كان يوجد بعض الحجاج الورعين يشترون المشروبات المُسكرة على الملأ ويأخذونها معهم إلى النُّزُل ولا يخجلون من اكتشاف أمر حبهم لهذا المشروب المحرَّم. أما الصِنف الأخير من الناس الذين يحتسون هذه المشروبات فقد كانوا فقراء السواقم الذين كانوا يشربون البوظة؛ لأنهم كانوا يريدون نسيان حياتهم الفقيرة البائسة ولو لبعض لحظات.

أمَّا رفقائي في الرحلة الذين كانوا ورعين وأتقياء للغاية، أو تظاهروا بذلك، فقد كانوا يمقتون هذا المشروب المُحرَّم وآثروا الابتعاد عن هؤلاء الشياطين الفقراء السواقم وحاربوهم بكل ما أُوتوا من قوة في حناجرهم وبأفظع عبارات السباب والشتائم. بالأخص الشيخ مصطفى الذي عُرف بنقده اللاذع، فقد وجد من الضروري إلقاء خطبة لوعظ أفراد السواقم وعقابهم، الذين كانوا حوالي أربعين رجلًا وشابًا وتقريبًا عشرة نساء من العوالم (الراقصات)، تجمعوا حولنا، فألقى الشيخ مصطفى على مسامعهم هذه الخطبة لعقابهم على إثمهم:

"أنتم النموذج المثالي لكل الموبقات. أيها المتشردون الكفار! يا حطب جهنم، ألا تستحون أن ترى الشمس وجوهكم الكافرة هذه؟ أنت تسكنون على أعتاب أطهر وأقدس أرض؛ وعلى الرغم من ذلك تقترفون هذا الإثم الفظيع في حياتكم! أيها الكلاب والخنازير! أنتم حقًّا كفار ونصارى وتستحقون أن يُطلق عليكم اليهود"... وهلّم جرا.

كان الشيء الغريب في هذه الخطبة أن السواقم كانوا يصغون إليها وينصتون لكلمات الشيخ في دعة وهدوء وبشيء من التقديس للشيخ مصطفى؛ لأن أهم ما يميز المسلمين أنه لا يوجد بينهم المفكرون الأحرار الذين يستطيعون تجميل الآثام والذنوب وتلطيفها من خلال التحايل على المبادئ وتزويرها، مثلما الحال في أوربا حينما لا يجد المذنبون الضرورة في الاعتذار عن أخطائهم؛ ولكنهم يكذبون على الفور، وينكرون أن ما يقومون به يُعَد من الذنوب، أو ينكرون أساسًا وجود الذنوب. لو كان جمهور الشيخ مصطفى من أوربا، وألقى على مسامعهم هذه الخطبة الرادعة لكانت أقصى عقوبة له هي الضرب المبرح حتى الموت، ولكان كل سكيّر سيعترض عليه على الأقل ويقول له:

"ماذا يقول هذا الكهل الأحمق؟ هل يرانا حقًّا سكارى، حينما نشرب كأسًا من النبيذ بسبب العطش، وهل يُعد ذلك إثمًا!"

سيكون الوضع بخلاف ما هو عليه الآن هنا. أمَّا السواقم فقد كانوا يعرفون حقًّا أنهم مذنبون ولا ينكرون ذلك؛ لذلك أنصتوا للشيخ على الرغم من ألفاظ السباب والشتائم التي كان يتفوَّه بها، في حالة من الهدوء والاستسلام، وحينما انتهى من خطبته، سُمعت بعض الهتافات هنا وهناك:

"ما شاء الله هذا الرجل من الصالحين".

لا أعتقد أن هذه الخطبة قد أتت أُكلها؛ لكني سُررت أن وجدت فيها دليلًا على أن كل شيء طيب وجميل في الإسلام قد اضمحل واندثر[1]. فكل مَن له صلة بالشرق يقول أن كل شيء في الإسلام أساسه الرياء والنفاق، ولديهم الحق في ذلك إلى حدٍّ كبير؛ ولكن

---

١ لا يخفى على القارئ حقد المؤلف على الإسلام وحضارته. (المراجع).

حتى هذا الرياء يُعد دليلًا على أنَّ فكرة الأخلاق لا تزال قائمة؛ فحينما تنعدم الأخلاق لن يبذل المرء جهده كي ينافق الغير.

على أيّة حال كانت نتيجة هذه الخطبة للشيخ مصطفى أنّ السواقم كفوا تمامًا عن الرقص والغناء أثناء وجودنا، وخفت صوت الموسيقى وصمتت الراقصات ولم يتحركن من أماكنهنّ. اقترح علي ابن أخ الشيخ مصطفى، الذي قادني إلى بيت حنيفة من قبل ثم وشى بي عند عمه الشيخ مصطفى، أن نذهب إلى خيمة أخرى نحتسي فيها القهوة بدون علم عمه؛ لكني رفضت طلبه على الفور؛ لأنه بدا لي أن هذا الشاب مهمته فقط هي كونه "عميلًا محرضًا" كي أقوم بأيٍّ ذنب يحرم على الحاج المُحرم القيام به؛ كي يحصلوا من جديد على وجبة الخروف.

أخيرًا غادرنا خيام السواقم، ودلفنا الآن إلى قبر ستنا حواء، الذي كان يوجد في منطقة صحراوية قاحلة مجدبة تحيط بجِدَّة من جميع النواحي. لم يكن يوجد هنا أيّ حدائق أو أشجار ولا أيّ مساحات خضراء، فقط هنا أو هناك كانت تصادفنا إحدى أشجار السنط، مما كان يجعلنا نخمن وجود بئر قريبة منها، وأحيانًا كانت تصادفنا إحدى أشجار الفربيون والحلاب. لقد رأيت بنفسي هناك شجرة الفربيون الكليلة، ولمحت أزهارها الصغيرة ممتدة من كأس عميق مُغطى بأوراق طويلة خشنة تشبه الصبار الأمريكي.

ترجلنا في هذه الأرض الخراب حوالي نصف ساعة، حتى مررنا بمجموعة متداخلة من الأكواخ البائسة وخيام قهوة ترتفع وسطها إحدى القباب. اقتربنا من هذه الأكواخ والخيام وكنت آمل أن أرى الآن المسجد الذي كان يجب أن يكون خلفية تعانق قبر أم البشر حواء كما كنت أتوقع. لكني لم أر أيّ مبانٍ معمارية فخمة. وكلما اقتربنا من المكان، اتضحت لي أكثر الثكنات الفقيرة والقبة الصغيرة، ولم يعد يبق لي حيلة سوى التسليم بأن هذه المباني الخالية من الفخامة المعمارية هي الأماكن المقدسة، التي نقصدها في رحلة الحج هذه.

بالتأكيد ما كنا سنجد المكان الذي به قبر ستنا حواء بدون مساعدة مجموعة من الحجاج، الذين جاءوا إلى هنا لنفس الغرض الذي جئنا من أجله، وساعدونا في اكتشاف الطريق. كان يقف بعض مئات من الحجاج أمام باب أحد الجدران ينتظرون حتى يُفتح

لهم. أدركت من لغة بعضهم أنه كان يوجد بينهم مغاربة، مما جعلني أشعر بالوجل والفزع لأني ادّعيت أني مغربي أيضًا، فماذا عساه أن يحدث إذن حينما أرتدي الزي المغربي ويجب عليّ حينها أن أتحدث مع أهل بلدي بلغتهم ويكتشفون حتمًا حقيقة أمري، وهو أني مغربي مزيف. لكن لحسن حظي كنت أرتدي ملابس الإحرام التي يبدو الجميع فيها متشابهين؛ وعلى الرغم من هذه الملابس التي أنقذتني من هذا المأزق، كان لا يزال وجود المغاربة حولي أمرًا يشكل خطرًا كبيرًا عليّ؛ لأنه بمجرد أن أدرك الشيخ مصطفى أنهم مغاربة بسبب لهجتهم، نادى مسرعًا:

"**يا مغربيّ، تعالى هنا إخوانك.**"

رفضت طلبه وأجبته مسرعًا بما يأتي:

"**يا شيخ مصطفى، أنا لست تونسيٍّ، وهؤلاء المغاربة ليسوا من الجزائر، وطني؛ بل قادمون من تونس. كما أني أشك في أنهم مسلمون أتقياء. ألا ترى كيف تبدو علامات تدخين الكيف على ملامح هذا الرجل؟ أنا على قناعة تامة، أنهم من مدخني الكيف والحشيش.**"

كان لحجة تدخين الكيف والحشيش، اللذين لهما أثر الخشخاش على مدخنه، فضلًا كبيرًا؛ لأن الشيخ مصطفى كان يبغض جدًا كل أنواع المخدرات كالحشيش والكيف والخشخاش. لذا لم يعد يحثني على التعرف على هؤلاء المغاربة المفترض أنهم من تونس؛ بل حرّضني على ألاّ أكلمهم وأن أتجنبهم. فقال لي:

"**يا مغربيٍّ لو كان الأمر هكذا، فسوف يعمل هؤلاء الناس على إفساد دينك؛ لذا تجنب الحديث معهم يا أخي!**"

كان هؤلاء الناس حقًا من الجزائر كما علمت من لهجتهم؛ لأن المصريين لا يمكنهم التمييز بين لهجات بلاد المغرب المختلفة (شمال غرب إفريقيا)، وبذلك استطعت أن أوهم الشيخ مصطفى أنهم من تونس، وأنه يوجد في هذا البلد الكثيرون من مدمني الكيف.

أخيرًا بعد أن وقفنا حوالي نصف ساعة أمام باب قبر أمنا حواء، قرعنا على جدرانه؛ كي ينتبه لوجودنا الحارس الذي يجب أن يفتح لنا الباب. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة

التي استطعنا من خلالها إحداث صوت؛ لأننا كنا حُفاة ولم نستطع إحداث أصوات بأقدامنا. فبعد أن كدنا نُصاب جميعًا بضربة شمس بسبب القيظ الشديد، خطرت على بال الشيخ مصطفى فكرة لإيقاظ هذا الحارس ثقيل السمع. بدأ الشيخ مصطفى يهتف بكلمة "لبيك" المدويَّة وتبعه مائتان آخرون من الحجاج في الهتاف في صوتٍ واحد ونغمة واحدة، حتى أصبح لابد للحارس ثقيل السمع أن يفتح لنا الباب.

لم يكن ثقل سمع هذا الرجل - كما توقعت - إلا تمثيلية يقوم بها كي يحصل على المزيد من البقشيش من الحجاج.

أخيرًا ظهر الحارس وبدا ثقل سمعه لنا مثيرًا للضحك، فلم يفتح الباب إلا حينما أعطاه كل الحجاج، الذين يزيد عددهم على المائتين، البقشيش الذي تتراوح قيمته بين الخمسة والخمسة وعشرين قرشًا. أمَّا طالما يعد الحاج بالبقشيش ولا يعطيه له، فيمثل بملامحه أنه لا يكاد يسمعه؛ لأنه لم يكن يثق في الحجاج الورعين. لكن بمجرد أن دفعوا جميعهم البقشيش، فهم الحارس فجأة كل ما يُقال؛ لأنه لم يكن يريد فتح الباب قبل أن يدفع جميع الحجاج ما يريد. كانت عدم ثقته في الحجاج لها أسبابها؛ لأنه فقد ذات مرة نصف البقشيش الذي أراد جمعه بسبب فتحه للباب مبكرًا قبل أن يدفع جميع الحجاج. كان يقف الآن يتصبب عرقًا بجانب الباب المغلق ويجمع البقشيش من الحجاج كل على حدة من خلال كوة في الباب؛ حيث يأتي كل حاج منفردًا يعطيه النقود ثم يقف على اليمين بينما يظل الحجاج الذين لم يدفعوا بعد على جهة اليسار.

استمر جمع البقشيش حوالي نصف ساعة تمكنت فيها من ملاحظة الحارس جيدًا وتأمله والإمعان في وجهه، ذلك الأمر الذي كان بالنسبة لي شيقًا للغاية.

كان الحارس كهلًا، يبلغ من العمر تقريبًا السبعين عامًا، وكانت أنفه كبيرة جدًا تغطي على باقي ملامح وجهه وتمثل الشخصية الرئيسة في دراما الوجه التي كان يقوم بها. الغريب فيها أنها كانت معبرة جدًا بطريقة لم أر مثيلا لها من قبل؛ فقد كانت طويلة وكبيرة وبها سنامين بدلًا من واحد فقط، وزوج من جناحي الأنف العريضين كانا أشبه بالمنفاخ وفيهما كانت تكمن كل تعابير الوجه. فقد كانا مرآة روح هذا الرجل وليس عينيه اللذين

يُطلق عليهما الناس أنهما مرآة الروح؛ بل كانت عيناه عبارة عن تجويفين أسودين قابعتين في تجويف عميق قلَّما تلحظ وجودهما. في حالة هذا الحارس كانت أنفه على غير المعتاد هي منبع كل التعابير والبلاغة؛ فسرعان ما تتلاشى المسافة بينهما وتتلاحمان وتشبهان الجدار الوحيد بجانب الأطلال، وهذا معناه أن هذا الحارس كان منهمكًا في جمع البقشيش. وأحيانًا سرعان ما تتضخم ويزيد حجمها ويعمل النسيم العليل المنبعث منها على إنعاش جدرانها المطاطة فتتمدد وتصبح كالبالون الصغير، الذي يطير صوب السماء بكل فخر وزهو بالنصر، وهذا يدل على أن هذا الحارس تغمره سعادة هائلة؛ أي أنه حصل على مبلغ كبير من البقشيش. وفي بعض الأحيان كان جناحا أنفه يتذبذبان كالقارب المتأرجح فوق الموجات العاصفة، فينتفخ فجأة ثم ينكمش سريعًا، ويفتح فتحتيه ويغلقهما في الدقيقة مائة مرة، وهذا كله دلالة على الحنق والغضب بسبب البقشيش القليل. مَن يستطيع إذن تفسير كل هذه المراحل والحركات المعبرة لأنف هذا الحارس؟ أنا لم أستطع بالفعل تحليل كل حركات أنفه؛ لكني أريد أن أذكر شيئًا آخرًا وهو أن إحدى فتحتي أنفه كانت حمراء ومشعرة، بينما الأخرى كانت بيضاء وخالية تمامًا من الشعر.

لم تكن باقي قسمات وجه هذا الرجل ذات أهمية. كان فمه كبيرًا؛ لكن بالمقارنة مع الأنف التي طغت على كل معالم الوجه، كان يعتبر قزمًا بجانبها، كما كان خاليًا من الأسنان. أمَّا لحيته فكان لها مظهر خاص؛ فقد نمت في مواضع ليس من المألوف عند باقي البشر أن ينمو شعر اللحية فيها، بينما كانت تلمع بشرته في باقي أجزاء الوجه التي خلت من الشعر. بصورة ما كان هذا الرجل بالنسبة لي من أهم الظواهر المثيرة للاهتمام، التي عاصرتها في رحلتي. لقد حزنت لعدم وجود آلة التصوير معي كي أنقل صورته لأوربا وأهلها الذين سيندهشون لها.

كان العبد الذي أرسله هذا الحارس لنا كي ينظمنا، أو بالأحرى كي يراقب عملية دفع الحجاج للبقشيش، يستحق مني أيضًا التأمل والإمعان في هيئته والاستفاضة في وصفه. فقد كان طبقًا للمعايير الشرقية جميلًا جدًّا؛ على الرغم من أنه ليس الجمال الذي يتحلى به الرجال؛ فقد خلت ملامحه من الصفات الذكورية وخلا جسده من قوة العضلات. لا

أود أن أهين الجنس الناعم الجميل بأن أقول إن هذا الرجل كان يشبه المرأة، بل بالأحرى كان يشبه الخنزير السمين. هذا الشاب الذي يعتبره الشرقيون جميلًا جدًا، كان عبارة عن طبقات من الشحم مرصوصة فوق بعضها؛ لأن مفاصله التي تربط الأعضاء ببعضها كانت ضعيفة للغاية و بدت مثيرة للشفقة عليه، لدرجة تجعلك تريد انتزاع هذه الكتل الدهنية عنه بكل سهولة. هذا الشاب النضر، الذي استحق أن يكون طير الرسول (Ter er Rasul) أي الزوج الشاب لحور العين في الجنة، كان جسده مستدير الشكل حتى لا يكاد يوجد خط واحد مستقيم في جسده. أمَّا أنفه فقد كانت عبارة عن كتلة دهنية صغيرة مستديرة منتفخة كحبة البطاطس. كان فمه يشبه ثمرة الرمان ولكنها ليست ثمرة طازجة لم تنضج بعد؛ بل ثمرة عتيقة فات أوان قطافها وكادت تنفجر من نضجها التام. كانت وجنتاه عبارة عن وسادتين وثيرتين ناعمتين بلون الياقوت الأحمر القرمزي، يمكن أن يجلس صاحبهما عليهما بكل راحة. كانت توجد عينان أيضًا في وجهه لا يمكن رؤيتهما بوضوح؛ ولكن يمكن تخمين موضعهما مكان تجويفين يكسوهما الشحم قابعين تحت الجبهة، ينساب منهما أيضًا سائل دهني رطب، وهذا النوع من العيون يعتبره الشرقيون جميلًا. كان وسط هذا الجسد مستديرًا لدرجة أنه يمكن أن نقول عنه مثل رئيس دير سانت جالين (St. Gallen) "يكاد ثلاثة رجال الإحاطة بهذا الكرش."

كان هذا الشاب المتوحش، كما علمت فيما بعد، خادمًا وفي نفس الوقت ابن هذا الكهل النحيف ذي الأنف المتضخمة، وهذا أمر قلما عاصرته بنفسي.

بينما كنت أتأمل الحارس الكهل وابنه "الجميل" استمر دفع البقشيش من خلال الكوة التي في الباب. أخيرًا جاء الدور عليَّ. لو كنت مرتديًا ملابسي التي تبدو أنظف وأجمل من ملابس رفقائي في الرحلة لطلب مني الحارس أربعة أضعاف البقشيش الذي طلبه مني ولم يكن ليرضى بأقل من مئة قرش؛ لكني كنت أرتدي ملابس الإحرام مثل باقي الحجاج مع الفرق أن ملابسي كانت جديدة وأن لون بشرتي كان أفتح قليلًا من باقي رفقائي في الرحلة. لهذا السبب لم يتمكن الحارس من استغلالي، ولم أدفع أكثر من الخمسة وعشرين قرشًا وهي أقصى بقشيش دفعه أيٍّ حاج. دفع الشيخ مصطفى وأولاد أخيه فقط عشرة

قروش، أمَّا أنا فلم يتركني هذا الذئب الماكر إلا بعد أن دفعت الحد الأقصى من البقشيش؛ لأنه لاحظ أني لست حاجًا عاديًا مثل باقي الحجاج، فقد اعتقد أني فارسي ربما بسبب لحيتي الملونة؛ ولأن الفرس كفار؛ ولهذا السبب يجب أن يدفعوا الضعف، فأراد استغلالي؛ لكنه أُصيب بخيبة الأمل عندما علم أني مغربيٌّ. والآن طلب مني خمسة وعشرين قرشًا وقد حصل عليها بالفعل.

لا يستطيع الحارس التمييز بين الفقراء والأغنياء طالما يرتدي كل الحجاج نفس ملابس الإحرام؛ ولأنه يستولي على مبالغ البقشيش الكبيرة والصغيرة من الحجاج حسب حالتهم المادية، لذا كان لزامًا عليه أن يميز بين الغني والفقير منهم. كان الكثير من الحجاج لا يزورون قبر حواء إلا بعد أن يعودوا من مكة ويخلعوا عنهم ملابس الإحرام، وهؤلاء هم المفضلون للحارس؛ لأنه يستطيع التمييز بين الفقير والغني بسبب ملابسهم. فقط مَن يرتدي ثيابًا جميلة ويبدو منها ثراء مرتديها يعتبره الحارس أحد الباشوات الأتراك أو الأثرياء الهنود أو ميرزا فارسي، أو على الأقل كريسوس من طبقة التجار ويجب أن ينزف نقودًا بسبب وضعه المالي.

انتهت الآن طقوس جمع البقشيش وفُتح الباب ودلفنا إلى داخل المكان المقدس. كان يقع قبر أمنا حواء في سياجٍ محاطٍ بجدارٍ، ولم يكن مغطى بأيِّ سقف. كان المكان يحتاج مسجدًا ضخمًا كي يتناسب مع حجم المرحومة العملاقة، التي يقول عنها المسلمون أن النصف العلوي من جسدها يبلغ حوالي ثلاثمائة قدم والنصف السفلي حوالي مائتي قدم. لكن حتى الآن لم يفكر أحد في تشييد هذا المسجد الضخم.

كان يوجد فوق سُرة أم البشرية حواء ضريح مُشيَّد من الصخور المرجانية الخام المطلية باللون الأبيض الساطع، يبلغ ارتفاعه حولي خمسة أقدام وعرضه أربعة، تقبع خلفه قبة يبلغ ارتفاعها حوالي عشرة أقدام. من خلال الباب الوحيد المفتوح في هذه القبة نحو الاتجاه الغربي دلفنا ببطء إلى الداخل. كانت جدران هذا المكان المقدس خالية تمامًا من أيَّة زخارف ومجردة من أيَّة صور. على أيَّة حال لم يكن يوجد في الضريح شيء يمكن رؤيته سوى حجر مربع الشكل يقع في منتصفه ويبلغ ارتفاعه حوالي قدم ونصف

وعرضه نصف قدم. هذه الأبعاد للحجر هي نفس أبعاد سُرة أم البشرية حواء، ووضع في نفس المكان الذي توجد تحته سرة حواء الحقيقية.

من المؤكد أن أم البشر حواء تتميز بتجويف سُري عميق. يقول البعض أنه في الحقيقة يجب أن يناسب هذا الحجر تجويفها السُري، كما يعتقد آخرون أن حواء قد قاست طول هذا الحجر بنفسها.

كان حجر السُّرة مُشيدًا من الجرانيت ومُغطى بنقوشٍ وكتابات تبينت بعد جهد كبير أن بعضها نُقش بالخط الكوفي. كان هذا الحجر مثل سائر الأحجار المقدسة في مكة ملطخًا بالشحم والقذارة بسبب تقبيل الحجاج له بشفاههم الملطخة بالشحم فأصبح قذرًا هكذا عبر القرون، لدرجة أنه لم يعد في الإمكان تمييز النقوش والكتابات المحفورة عليه أو حتى معرفة نوع حجر السُّرة.

يوجد الكثير من الخرافات الدينية عن هذا الحجر لتصديق وجود مثل هذا الشكل المربع للسُرة وهذا العمق الكبير للتجويف السري لحواء. على أيَّة حال ربما يستطيع أخصائي علم وظائف الأعضاء تقرير ما إذا كان الشخص الذي يبلغ طوله خمسمائة قدم لديه سُرة يبلغ عمق تجويفها قدما ونصفا. كان لزامًا علينا تقبيل هذا الحجر المقدس وإقامة صلاة قصيرة عنده كما أمرنا بذلك الحارس ذو الأنف الطويل المتضخم.

بعد أن أديت العبادة المطلوبة عند سُرة أمنا حواء، كان ينبغي عليَّ التنقل إلى مواضع أخرى لجسدها للصلاة عندها. في الأول ترجلت حتى موضع رأسها الذي يبعد عن السُّرة حوالي ٢٤٠ قدمًا، وكان معلومًا لنا بواسطة أحد الألواح الحجرية الموضوع في الأرض ولكنه ليس بحجم الرأس كلها.

حُدد محيط الرأس بواسطة سياج من الأحجار الصغيرة التي تبتعد عن بعضها البعض بمسافات صغيرة. وطبقًا لإحدى الصور كانت رأس حواء تقريبًا كروية الشكل ويبلغ قطرها ٣٠ قدما. بعد أن انتهيت من الصلاة هنا مررت بطول الجسد الذي كان عرضه أقل من طوله؛ لأن السورين المتوازيين اللذين يشكلان العرض يبعد كل منهما عن الآخر

حوالي اثنا عشر قدم. ومن ثَمَّ يمكن افتراض أن أمنا حواء كانت نوعًا ما نحيفة ونحيلة؛ لأن طولها كان خمسمائة قدم وعرضها اثنا عشر فقط.

في طريقي من الرأس إلى القدمين مررت أولًا بالكتفين المُثبت عليهما شاهدي قبر كُتب عليهما كلمات إهداء لبنَّائي الضريح المُشيَّد فوق سُرة حواء. كان أحد القبور للخليفة عثمان ثالث الخلفاء الراشدين، وأحد صحابة النبي والذي يوقره ويقدره أتباع السنة من المسلمين، بينما يوقر الشيعة عليًّا فقط رابع الخلفاء ويقللون من شأن الثلاثة الأوائل أبو بكر وعمر وعثمان. كان يجب عليَّ أن أردد هذا الدعاء عند هذا القبر:

"السلام عليك يا عثمان! يا خليفة الله في شعبه! عليك السلام مني يا صاحب رسول الله، يا مَن اختفيت معه في الغار وهاجرت معه. السلام عليك يا عثمان، يا عادل يا تقي!"

بعد هذا الدعاء رجعت المسافة التي تبلغ ٤٥٠ قدم التي تفصل كتفي حواء عن قدميها. في الطريق مررت بأحد الأماكن وهو عبارة عن نتوء أو ورم تقول الروايات بأنه كان يوجد في جسد حواء. سألت الشيخ مصطفى عن هذا الشيء فأكد لي بكل جدية أنها آثار ضرب وتعذيب سيدنا آدم لها، سيدها وزوجها. هذه القصة الشائعة بين المسلمين تظهر كيف أن ضرب النساء في الإسلام يُعد مباحًا، وفي الحقيقة يوجد في القرآن (آية ٤، سورة ٣٤) أكدت على أن الرجل ينبغي أن يضرب زوجاته.

حتى النهدين المقدسين لأمنا حواء مررنا بهما وزرنا موضعهما. لقد بلغ طول حلمة الثدي حوالي قدم واحد وهذا يعتبر نوعًا ما أمرًا مقبولًا بالمقارنة بعمق تجويف السُّرة. كان مكان الحلمتين محددًا بواسطة حجرين موضوعين عندهما، والآن فقد جئنا عند أحد المواضع، التي قال عندها الشيخ مصطفى ما يأتي:

"هنا مهد ومهبط الجنس البشري، المكان الذي خرج منه جميع البشر. صلّ يا أيها المغربي ولكن لا تنظر إلى هذا الموضع لأن الحياء يستوجب ذلك."

أخيرًا وصلنا لموضع القدمين، وقد قررت من محيطهما أنَّ أمنا حواء كانت قدماها كبيرتين جدًا. لقد كان الحظ حليفها؛ لأنه في الوقت الذي عاشت فيه لم تكن توجد مهنة

الإسكافيِّ، وإلا كانت تعذبت قدماها في الحذاء ولأصبح سيدنا آدم فقيرًا. قبلنا موضع القدمين وصلينا عنده وبذلك نكون قد انتهينا تمامًا من هذه الشعيرة.

رمم الخليفة عثمان المدفون أيضًا هنا عام ٦٠٠ قبر أمنا حواء. والبعض يشككون في هذه الرواية ويدَّعون أنَّه هو الذي بناه. كما يعتقد كل مسلم ورع أنَّ أولاد حواء بنوا القبة قبل ستة آلاف عام وتم إصلاحها بعد فيضان نوح بعدما أصابها بعض التلف. ولأني عند كل رأي ديني كنت أميز بين وجهين لهذا الرأي؛ أولهما الجانب المتشدد الذي يرى إمكانية حدوث المعجزة غير القابل للإنكار، وثانيهما الجانب التاريخي الذي يسمح بشيء من النقد دون التوغل في أفكار الإلحاد والسماح به؛ ولكنه يسمح ببحث عن تاريخ وكيفية نشأة المذاهب وأصول التقاليد والأعراف، مما أتاح لي الفرصة أن أستبعد الرواية التي تقول بأن قبر أمنا حواء قد شيده ابنها سيث قبل حوالي ستة آلاف عام، وبحثت بنفسي عن تاريخ وأصل أسطورة قبر أمنا حواء. في هذا البحث سوف نستغني للأسف عن كل وسائل المساعدة. قلَّما ذكر بوكوك (Pocock) في (Oxford 1716) (Specimina historiae Arabum) الذي ناقش فيه أساطير الحج هذه الأسطورة عن قبر أمنا حواء، وكذلك (Assemanus) في (Rom 1728) (dissertation de Syris Nestorianis) وهو الذي جمع تقريبًا كل الفقرات التي يناقش فيها الكتاب البيزنطيون خرافات العرب. لم يُذكر في القرآن شيء عن قبر أمنا حواء وما يرتبط بها من تقاليد. لهذا السبب لا يمكن اكتشاف أي رأي جدير بالتصديق عن تاريخ أسطورة قبر أمنا حواء؛ لأن تقاليد السُّنَّة في هذا الشأن لا تقدم لنا سوى الحكايات التي تثير البلبلة، والتي لا تصلح لتفسير حكاية وأسطورة أخرى. ولكن بشكل عام يمكن اكتشاف متى تسللت الروايات الإنجيلية إلى بلاد العرب، وهناك اعترتها بعض التحريفات وباتت تراثًا شعبيًا تتناقله الأفواه. هذه الحقبة يمكن أن تكون في القرن الثاني أو الثالث؛ حيث كان يوجد اليهود الذين طُردوا من فلسطين وكونوا مملكة في بلاد العرب، وكذلك المسيحيون الذين كان لا يزال يوجد بعض من يعتنقون دينهم في بعض المدن الساحلية العربية المتفرقة، والتي نشرها العرب مع الروايات والحكايات التاريخية المتعددة عن قصة الخلق والسلطة الأبوية. سوف أتناول بالتفصيل وبشكلٍ أوضح فيما بعد موضوع التأثير

الخرافي للإنجيل وحكاياته في بلاد العرب والقصص العبثية عن نشأة العرب وأصولهم من إسماعيل وعن إقامة إبراهيم في مكة وما شابهها من قصص. الآن أريد أن أعرض الرأي الذي توصلت إليه ومن خلاله أنفي أن العرب قد سمعوا شيئًا عن أمنا حواء قبل مجيء محمد بعدة قرون وأنهم عرفوها وقصتها فقط من خلال إسماعيل، وأن هذه المقبرة ليست قديمة جدًا، بل ربما بُنيت في القرن الثامن أو التاسع بحساب عصرنا هذا. بالإضافة إلى أن بناءها أو ترميمها على يد الخليفة عثمان يُعد أمرًا مشكوكًا في صحته، تمامًا مثل مسألة وجود قبر عثمان نفسه في نفس هذا المكان.

كان المسلمون الورعون يصرفون جل اهتمامهم في كل من القرن الأول والثاني بالرسول وبكل ما يتعلق به، ولا يعيرون اهتمامهم لأي وليٍّ فيما عداه. لذلك لم تصل إلينا أيَّة أخبار عن قبر أمنا حواء، والذي ذكره الإصطخري فقط في عام ٨٠٠ أو ٩٠٠ بتقويمنا ولكن ليس حرفيًا؛ بل ذكر الاسم "جِدَّة" "بمعنى والدة الأب أو الأم"، وفيه تلميح لأمنا حواء، ومن هنا نستخلص أن هذا الجغرافيَّ كان يعرف هذه المقبرة. كما أنه من المعروف أن البطريرك (Euthychius) قد ذكر أيضًا هذا الاسم (Dschedda) في وقت سابق قليلًا. مما سبق يتضح لأيِّ إنسان عاقل لديه حاسة النقد ويستخدمها قليلًا أنه ليس ثمة سبب واحد يحثه على تصديق أن عمر هذا القبر أقدم بكثير من عصرنا هذا؛ لأنه لم يرد إلينا مصدر واحد معلوم عن قِدم هذا القبر.

أمَّا بخصوص المكان المحيط بالقبر فقد كانت منطقة قحط بوار مستوية الأرض من جميع الجهات فيما عدا جهة الشمال الغربي، حيث ارتفعت عن الأرض بعض التلال من الأحجار المرجانية. لاحظ نيبور (Niebuhr) أن هذه التلال العامرة بالأصداف الحجرية والشعاب المرجانية لها نفس الشكل المعتاد رؤيته على السواحل من شعاب وصخور مرجانية، ويرى أن هذه التلال والبروز عند القبر كانت تقف فيما سبق في البحر وانحسر البحر عند سواحل جدة عبر القرون، وهذا ما يحدث أحيانًا حتى الآن؛ لكن بشكلٍ ضئيل قلَّما يلحظ أثره أحد. بناءًا على ذلك فإنه ليس من الصواب افتراض أن هذه التلال والبروز ازداد ارتفاعها عبر الزمن، ولا يزيد حجمها إلا بسبب الحمم البركانية؛ لأن النمو العضوي المعتاد للشعاب

المرجانية يتوقف حينما يقترب مستوى سطح البحر من ثمانية أقدام في حالة الجزر ولا يمكن للشعاب أن تنمو بعد ذلك. وبناءًا على ذلك يكون ارتفاع هذه البروز المرجانية حاليًا وهي في البر هو نفس ارتفاعها فيما مضى، ويكون البحر قد استغرق آلاف السنين كي ينحسر عن هذا المكان حيث كانت توجد هذه المنحدرات المرجانية سابقًا، فالثوران البركاني هو السبب الوحيد الذي يحول الشعاب المرجانية إلى صخور وتلال مرجانية، ربما حدث ذلك في فجر التاريخ أو في أحد العصور عندما كانت البراكين في الجزيرة العربية لا تزال نشطة. لم يذكر التاريخ أي شيء عن أيَّة ثورة بركانية في الجزيرة العربية. ويبدو لي الأمر مبالغًا فيه جدًا حينما يستخلص نيبور من انحسار البحر عند الشواطئ أنَّ جِدَّة في العصور القديمة سواء كان اسمها (Regia) أو(Badeo) أو(Centus vicus) أو(Makorba) لم يكن مكانها هنا بل في قلب الجزيرة العربية، وذلك لأنه كما ذكرت آنفًا أن انحسار البحر يتم ببطء شديد للغاية، ويمكن إرجاء تكوين الصخور والتلال المرجانية إلى عصر ما قبل التاريخ، بينما (Badeo regia) قد ذُكرت بالفعل في العصور التاريخية القديمة، كما أن هذه الصخور المرجانية ليست بعيدة الآن عن البحر.

احتفظت لنفسي في هذا اليوم بآرائي عن هذه الحقيقة المزيفة لقبر حواء، وكنت أضحك على الأبعاد الهائلة المبالغ فيها لجسدها، وعلى المفارقة التاريخية المثيرة للشفقة؛ وهي أنها مثل باقي المسلمات الحقيقيات مُسجى جسدها هنا في اتجاه مكة، ولم يكن في وسعي فعل شيء سوى التظاهر بالورع والتقوى والاستغراق في العبادة. كذلك امتنعت في هذا اليوم عن إظهار أي نقد ساخر أو لاذع كما فعل بورتون (Burton) حينما قال لرفقائه المكيين: "لو أن أمنا حواء يبلغ طولها من عند الرأس حتى الجزء السفلي لجسدها ثلاثمائة قدم ومن بداية الجزء السفلي حتى نعليها مائتان كما نرى هنا، لكانت أمنا حواء تبدو كالبطة." أجد هذا التشبيه طريفًا؛ لكنه لا يحترم قدسية أمنا حواء، علاوة على أنه غير صحيح؛ فالبطة (لتسامحني أمنا حواء، على هذا اللفظ) تكون عريضة وكذلك طويلة، ولكن قبر أمنا حواء كان ضيقًا، فقد بلغ ارتفاعها خمسمائة قدم وعرضها اثنا عشر قدمًا فقط، لذا يكون من الأجدر تشبيهها بالمسلة، إذا كانت توجد مسلات تبلغ هذا الارتفاع.

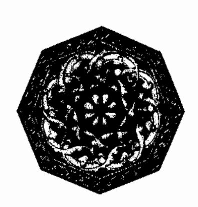
لقد كان يبلغ ارتفاعها مئة قدم أعلى من أعلى هرم؛ وهذا معناه أن نضع حوالي أربع مسلات فوق بعضها البعض حتى نكاد نقترب من طول حواء.

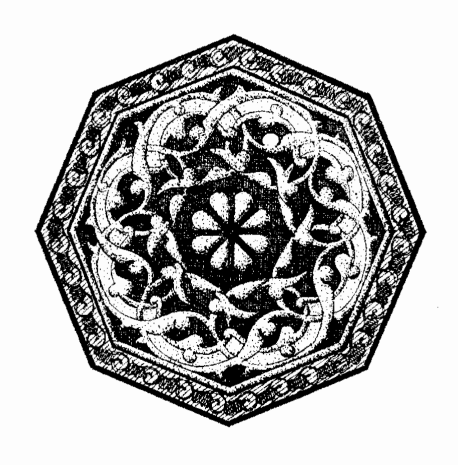
انتهينا من زيارة قبر أمنا حواء واتخذنا طريقنا للعودة إلى جِدَّة، وتقابلت مع رفقائي من جديد بعد فراق دام خمس ساعات؛ كي نتخذ استعداداتنا لرحلة الغد إلى مكة. استأجرت لهذا الغرض ثلاثة جمال، واحد لي لأركبه والثاني لعليٍّ العبد والثالث لحمل أمتعتي. أمَّا باقي المصريين فسوف يكملون الرحلة إلى مكة مشيًا على الأقدام، القليل منهم فقط استأجر حمارًا صغيرًا. في المساء ذهبت مع عليٍّ إلى السوق لشراء الزاد الذي سنحتاجه في رحلتنا بكميات وفيرة تسمح لإطعام أصدقائي المصريين معي أيضًا وأخبرتهم بذلك.

في بادئ الأمر توجهنا إلى سوق السمك الذي كان مجهزًا بأنواعٍ متعددة من الأسماك مثل سائر أسواق المدن الساحلية. بخلاف الأنواع التي وصفتها سابقًا عند سوق ينبُع، والتي كانت توجد جميعها هنا، رأيت بعض الأنواع الأخرى التي لم أرها هنا من قبل، وهما نوعان من الماكريل، أولهما (Scomber Samsun) ويلقبه العرب بأبي سمسون (Abu Samsun) وهو عبارة عن سمكة فضية اللون ناصعة، والنوع الآخر (Scomber falcatus) وأطلق عليه العرب (Höckel) وهو عبارة عن سمكة مربعة الشكل عريضة ولها طرف مدبب وزعانف حادة على جانبيها وذيلها. كانت توجد أيضًا عدة أنواع من سمك السلطان إبراهيم (Mullus) في هذا السوق؛ من بينها (Mullus auriflamma) التي يطلقون عليها هنا أنبير (Anbir) ولونها ذهبي لامع، و يوجد كذلك السمك أبو ذقن (Vater des Kinnbartes) وسبب هذه التسمية هو وجود بعض القشور الطويلة البارزة تحت رأس السمكة والتي يقارنها العرب بالذقن. كما رأيت سمكة (Silurus ba-jad) التي تعيش في النيل وتُسمى في هذا السوق سمكة البياض؛ على الرغم من أن لونها الحقيقي ليس أبيض بل رمادي، وتشبه سمكة (Charderonnet) التي رأيتها في مرسيليا، وأعتقد أنها هي سمكة البياض التي تعيش في المياه العذبة فقط، بينما (Distelfink) أو (Silurus cornutus) تعيش في مياه البحر المالحة. ولأن العرب الذين يعيشون على سواحل البحر الأحمر لا يعرفون هذين النوعين الآخرين، يطلقون عليه بطريقة خاطئة

اسم سمك البياض. بعد أن اشتريت بضع عشرات من سمك الماكريل وهو أغلى أنواع السمك التي يفضلها العرب هنا غادرت السوق. لم أكن أريد أن أجرب بعض الأنواع التي لا تهضمها معدة الأوربيين بينما يأكلها العرب مثل (Chaetodon) و(Scabrus). اتجهنا بعد ذلك صوب سوق الزبدة، حيث اشتريت الزبدة (ذات المذاق الحلو) والسمنة (ذات المذاق المالح) بأثمان زهيدة لا مثيل لها، خمسة كرويتسر لرطل الزبدة وثمانية للسمنة. أنهينا شراء زادنا من عند القصَّاب ثم الخباز وبذلك أصبحنا جاهزين للرحلة المقبلة.

لم أكن أعلم أنه في هذه البلاد لا تُقام الرحلات إلا ليلًا، وإلا كنت أجلت شراء السمك لصباح اليوم التالي. لم يكلف أحد رفقائي نفسه مشقة إخباري بذلك؛ لذا وجدت نفسي بصحبة عدة مواد غذائية طازجة سوف تفسد بفعل الحر والقيظ. استطعت حفظ بعض الأسماك في الملح واضطررت لإهداء الباقي لرفقائي.







الفصل التاسع
الانتـقال من جِـدَّة إلى مكـة

معسكر الحجاج في جِدَّة :

حينما وقفت في مساء يوم الخامس والعشرين من ذي القعدة عام ١٢٧٦ (١٥ يونيو ١٨٦٠) أمام باب منزلي، أي كشك القهوة الذي دلفت إليه، والذي كنت أريد أن أقوم فيه بالقيلولة كي أستريح واستعد لرحلة الليل المقبلة، وقع نظري على حشد هائل متنوع لأجناس متعددة من الحجاج؛ حيث ربض هنا آلاف الحجاج في الساحات المفتوحة للمدينة وفي الأماكن الفاصلة بين الأكواخ والسقائف، فتحول المكان إلى متاهة من الخيام يربض فيها آلاف من الحجاج مختلفي الأجناس والأشكال، متبايني اللغة وألوان البشرة أيضا؛ وعلى الرغم من ذلك ارتدوا جميعًا نفس ملابس الإحرام، وتحلّقت حولهم الجمال والنوق، برك بعضها وبعضها وقف يمسك زمامها البدو في ثيابهم الملونة المهلهلة وبشرتهم المحترقة بسبب أشعة الشمس. في تلك الأثناء كان يظهر حمار صغير خفيف الحركة يبدو عليه عدم الصبر والضجر من انتظاره الطويل لنقطة بدء الرحلة، وأحيانًا كان يخرج بين الحجاج أحد البغال المحملة بالأمتعة، وقلَّما كان يوجد بين هذه الحيوانات جواد عربي أصيل من سلالات خيول نجاد النبيلة، موطن كل الخيول الجميلة الأصيلة ذات الرؤوس الصغيرة الرقيقة الناعمة والأجساد الممشوقة قوية العضلات والأعراف المتموجة الممدودة والسيقان النحيلة و الذيل الطويل المكسو بالشعر الناعم الكثيف. كانت بعض هذه الخيول يعلوها السرج العربي المُزيَّن بخطوط مُذهَّبة بديعة واللجام ذو الألوان الرائعة المتعددة وكذلك ركاب

السرج، وبدا أن أحد رؤساء قبائل البدو فقط كان ينتظر ركوب فرسه كي ينطلق في هذه الرحلة ويركض به سريعًا.

لم يكن كل الحجاج يريدون القيام بالرحلة في هذه الليلة معنا، فقد كان يفضل الكثيرون منهم البقاء في جِدَّة عدة أيام أخرى؛ لأنهم يشعرون فيها بالراحة أكثر من مكة المزدحمة بالحجاج، بالإضافة إلى أنه كان لا يزال يوجد متسع من الوقت حتى يوم الحج؛ أي التاسع من ذي الحجة، الذي يجب أن يتواجد فيه كل حاج في مكة على جبل عرفة، لا يزال لدينا أربعة عشر يومًا، وكنت أود أن أظل أسبوعًا آخرًا في جِدَّة؛ لكنني آثرت أن أظل بصحبة رفقائي المصريين والشيخ مصطفى، الذي أوضح لي أنه من الأفضل الرحيل إلى مكة مبكرًا قبل وصول قافلتي الحج الكبيرتين من دمشق وبغداد؛ كي نجد بسهولة مسكنًا مناسبًا في البلد الحرام، وبذلك نتغلب على أصعب مشكلة قد تقابل الحجاج في موسم الحج.

تكونت القافلة التي غادرت جِدَّة في الخامس والعشرين من ذي الحجة ونحن معها من رفاقي المصريين وأنا منهم وحوالي خمسمائة حاج آخر، كان يركب حوالي مئة منهم النوق ومئة وخمسون يركبون الحمير الصغيرة، والباقي كان يمشي على الأقدام وهم من وجهة نظري أكثر الحجاج ورعًا وإيمانًا لأنهم يمشون الطريق على الأقدام في هذا القيظ الشديد. كانت هذه القافلة غير منظمة وليس لها رئيس وغير مترابطة معًا. باختصار لم تكن قافلة بالمعني الحقيقي لقوافل الشرق التي تعتاد السفر لشهور طويلة فتكون منظمة وهدفها هو الحفاظ على أمن الحجاج وحمايتهم في حال السير معًا، وهذا أمر هام جدًا وضروري في حال السير قبالة قبائل البدو التي يكثر فيها اللصوص وقاطعو الطرق. لكن في هذا الطريق المؤدي من جِدَّة إلى مكة، والذي يسلكه عدد كبير من الحجاج، كان كل شيء آمنًا في هذا العام وقلة الخطر به أدت إلى عدم الحاجة إلى التنظيم المعتاد لأي قافلة. لذلك لم تكن قافلتنا شيئًا سوى حملة غير منظمة من الحجاج المسافرين يسيرون بدون نظام أو خطة، فقد كان كل واحد يستريح أو يواصل المسير وقتما يشاء، فقط في المساحات الواسعة كانوا يسيرون خلف بعضهم. كان يتبعنا هنا مجموعة من الحجاج راكبي النوق

والخيول وبعض عشرات الحمير وحوالي ثلاثون حاجًا يمشون على الأقدام، و جملان مزينان بدت على أصحابها مظاهر الثراء، يحملان بينهما محفّة مربعة الشكل ذات سقف مدور ويمكن من خلال فتحة صغيرة بها رؤية النساء يرتدين ملابس الإحرام، واللاتي بدين فيها مثل الأشباح؛ لأن ملابس إحرام النساء كانت سيئة جدًا تتكون فقط من قطعة قماش واحدة من القطن الأبيض تسدلها المرأة على جسدها من عند الرأس على باقي الجسد، وقطعة أخرى مربعة الشكل من القطن السميك تلصقها المرأة على وجهها، كان يترجل معنا أيضًا بعض المتشددين نصف عراة، والدراويش من طرق مختلفة، ملابس إحرامهم رثة، هلاهيل بالية قذرة تسمح برؤية أجسادهم الملطخة بالوسخ، كما كانت تتبعنا أيضًا مجموعة من المصريين ينساب الصديد من أعينهم، ويركبون الحمير الصغيرة النحيفة ولكنها نشيطة في الشرق وتسبق النوق التي تحمل أوزانًا ثقيلة، كما رأيت بعيدًا عنا حوالي عشرين حاجًا يتأرجحون على سفن الصحراء، التي تنقل قدمين في جانب واحد في نفس الوقت مما يجعل السنام الذي يجلس عليه الحاج يتحرك سريعًا تارةً من الخلف للأمام وتارةً أخرى من الأمام للخلف، مما يجعل الجزء العلوي للحاج الراكب دائمًا في حالة من الاهتزاز مثل البندول المقلوب. لم يُطلق على الجمال لقب سفينة الصحراء عبثًا؛ لأنه بخلاف الصفات الكثيرة للجمل التي تجعله يستحق إطلاق هذا اللقب عليه، فإنه يتأرجح هبوطًا وعلوًا في مشيته كالسفينة التي في البحر والتي تسبب لَمن يركبها أجمل أنواع دوار البحر. من بين هؤلاء الحجاج كان يظهر بين الحين والآخر أحد رؤساء القبائل يركب حصانًا عربيًّا أصيلًا من خيول نجاد النبيلة، وهو مختال بنفسه، يرتدي ملابسه العربية الجميلة التي تتكون من جبة بيضاء طويلة وغطاء على رأسه من الحرير الأحمر؛ لأنه لم يكن حاجًا، وبالتالي لم يكن من الواجب عليه ارتداء ملابس الإحرام. كان شعر الحصان يحيط به ومُلتفًا حوله، وتلمع أسلحته ذات الشكل الرائع الموجودة في حزام جلدي حول خصره، وبذلك بدا مختلفًا تمامًا عن باقي الحجاج الذين يرتدون زي الإحرام الموحَّد ولا يحملون أيّة أسلحة.

كانت هذه المجموعة من الحجاج التي كنت أنتمي إليها، تتكون بمحض الصدفة من جميع المسافرين الذين كانوا معي على متن الباخرة "أم السلام" التي أبحرت من القُصير إلى جِدَّة. كنت مع خمسين حاجًا تقريبًا كلهم من المصريين، ما عدا أنا المغربيِّ الوحيد فيهم واثنان من الأتراك. من بين هؤلاء جميعًا كان يجلس حوالي عشرة حجاج على الجمال وعشرون على الحمير الصغيرة والباقي كان يسير على الأرض بأقدام حافية؛ لأن عددا قليلا جدًّا منهم قد اشترى صنادل من جِدَّة، حيث يعتبر ذلك الأمر هناك من أكثر أشكال الرفاهية ورَغد العيش.

ركب الشيخ مصطفى المصريُّ الأصيل حمارًا صغيرًا، بينما ترجَّل أولاد أخيه الطريق، أمَّا حسن أفندي فقد ركب جملًا، وأما الحاج عمر ممتلئ الجسد المستدير الشكل الذي كان كسولًا جدًّا فلم يتَرجَّل أو يركب الناقة؛ بل جلس في أحد المحفات المحمولة بين جملين أحدهما في المقدمة ويتبعه الآخر خلفه. كما ركب كل من سيدي منصور وسيدي عبد الله وحامد أفندي سفينة الصحراء. أمَّا مصطفى باي[1] ذو الرتبة العسكرية فلم يكن يريد أن يركب الحصان الهزيل كبير السن؛ إلا أنه كان سريعًا وجريئًا جدًّا مع هذا الفارس السيئ. لقد كان من المضحك رؤية هذا الجواد الذي كان يخطو ببطء وبسرعة أقل من النوق، كيف أسرع فجأة خطواته بتحريض من أولاد أخ الشيخ مصطفى، فظهرت ملامح وجه مصطفى باي توحي بأنه في خطرٍ كبير بسبب خطوات جواده السريعة. وحينما أدخل ابن أخ الشيخ مصطفى الأكبر الذي كان مرحًا يتمتع بروح الدعابة، عصا في مؤخرة هذا الحصان الهزيل، قذفها بعيدًا عنه ورفسها وطار مسرعًا، هنالك أخذ مصطفى باي في الصراخ والصياح وطلب منا أن نساعده في النزول من على الحصان، فساعدناه في ذلك وأخذ أولاد أخ الشيخ مصطفى يتناوبون ركوب هذا الحصان الخطر. أمَّا الرجلان التركيان البدينان فقد كانا معًا، وأجرا جملًا ليركباه سويًّا، فقد تخيلا أنه بإمكان الجمل أن يحملهما معًا ولكنهما لم يحسنا الظن لأنه بمجرد أن جلس كلاهما على الجمل، برك (تبرك الجمال على ركبها حينما تنوء بالأثقال التي على ظهرها) ولم يقف مرة أخرى مطلقا، ولكن

١ الباي: لقب كان يطلق على حكام بعض الدول التي ارتبطت بالحكم العثماني. (المترجمة)

بمجرد أن ينزل أحدهما من عليه، يقف الجمل سريعًا. بذلك كان من الضروري ألا يركبا الناقة معا ويترجلان الطريق بالتبادل. كان العرب الأصليون يحتقرون راكبي الحمير وكذلك البدو مالكي هذه الحيوانات التي كنا نستأجرها منهم، وكانوا يسخرون أمامنا من هؤلاء، الذين يركبون الحيوان ذا الآذان الطويلة. فيما مضى كان الحمار يوجد في جِدَّة بأعداد قليلة جدًّا، ولكن منذ بضع سنوات فقط أصبح ذو الأذن الطويلة متواجدًا بكثرة، ويفرح أيضًا لهذا العدد الكبير الحجاج وبالأخص المصريون وكل الحجاج الطيبون. باختصار كان كل من العربيِّ الحقيقي والبدوي وكثير من الأتراك وكل مَن يستحق لقب محارب يزدرون هذا الحيوان المسالم ومَن يركبه.

كان هؤلاء هم الشخصيات الرئيسة التي رافقتني في رحلتي. لا زال يوجد آخرون سوف أذكرهم؛ على الرغم من أنهم لم يمثلوا لي أيَّة أهمية في رحلتي. على سبيل المثال أحد المكيين الاثنين اللذان سافرا من القاهرة بحرًا، ثم برًّا في الصحراء وأخيرًا بحرًا في البحر الأحمر معنا. لحسن حظنا أننا تخلصنا من أحد هذين المكيين الذي سرق الحاج عمر في جِدَّة، حيث لم يعد يرانا البقرة السمينة التي يحلبها، فقد نهب منا ما يكفيه، فقد قام برحلته كلها دون أن يدفع من نقوده شيئًا، والآن يتوق إلى مسافرين جدد لا يزالون لا يعرفون حظهم الذي سيكلفهم الكثير عندما يصطحبهم أحد أبناء البلد الحرام. أمَّا الرجل المكيِّ الآخر فقد كان أيضًا مؤذيًا ومخادعًا؛ ولكن لم يصل لدرجة اللص بالمعنى الحقيقي للكلمة. حاولت دائمًا كسبه في صفي عن طريق الهدايا الكبيرة والصغيرة، ونجحت في دفع أجرة جمله من جِدَّة إلى مكة، وبذلك استطاع مواصلة رحلته معنا مجانًا. قمت بذلك وأنا آمل أن أحصل من هذا المكيِّ على معلومات أكثر عن البلد الحرام، وحتى يساعدني حينما نصل إلى مكة في إيجاد نُزُل أسكن فيه بدلًا من الحانات العامة، التي كنت أود أن أتجنبها. كان يجب عليَّ أن أحقق هذين الهدفين. عثرت في مكة على أحد المكيين يُدعى حسن ابن صادق وهو ابن لوالدين ميسوري الحال. تعرفت فيما بعد على أبيه صادق الذي لم يكن سوى واحد من المتسولين المتعلمين الذين يكثر عددهم، ويستغلون بعض آيات القرآن لجمع الصدقات من باقي المسلمين من جميع أنحاء العالم. ولكن صادق على

الرغم من كونه متسولًا؛ إلا أنه كان من عائلة طيبة أو من "بيت كبير"، كما يقول العرب وكان نافعًا لي بسبب علاقاته الأسرية.

كانت المسافة من جِدَّة إلى البلد الحرام تبلغ حوالي تسعة أميال؛ ولأن القافلة تحتاج ساعتين كاملتين لتقطع مسافة قدرها ميل واحد، كنا نضع في الحسبان أننا سنقضي حوالي ثماني عشرة ساعة بالجمل أو بالحمار. لم يكن من الممكن بالنسبة لنا قضاء كل هذا الوقت مرة واحدة؛ على الرغم من أنَّ كثيرا من الحجاج اعتادوا القيام بذلك سواءا كانوا فرادى أو في جماعات صغيرة يركب أفرادها الحمير الصغيرة؛ ولكن ليس بصحبة المترجلين على الأقدام؛ لأنهم يسيرون ببطء، أو القوافل التي يركب أفرادها سفن الصحراء الأبطأ سيرًا. كان هدفنا في رحلة هذه الليلة (ليلة الخامس عشر لصباح يوم السادس عشر من شهر يونيو) أن نقطع نصف المسافة بين جدة ومكة حتى نصل لنقطة اسمها (Hadda) وتقع تقريبًا في منتصف الطريق بين هاتين البلدتين.

في الساعة السابعة مساءًا حينما خُضبت مياه البحر الأحمر بلون أشعة الشفق، بدا أنه يستحق إطلاق اسم البحر الأحمر عليه، على الأقل في هذه اللحظة. غادرنا جدة من باب مكة، الذي يقع قبالة اتجاه الشرق مباشرةً.

لأنها كانت ليلة الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة، ومن المعلوم أن الشهور العربية كلها شهور قمرية؛ لذا كان طور التربيع الثاني للقمر (das letzte Mondviertel) قد انتهى، وكنا ننتظر ظهور القمر بعد بضعة سويعات من منتصف الليل. لذلك أوشكت رحلتنا الليلية أن تنتهي في الظلام، وبالطبع كان الوضع العام غير مريحً على الإطلاق؛ ولكني كنت أواسي نفسي بأن رحلة العودة من مكة إلى جِدَّة ستكون في حال اكتمال القمر. ولكن لن يكون نور القمر في هذه الحالة مفيدًا لي في تدوين ملاحظاتي وتأملاتي؛ لأن وهج القمر سوف يكون مضيئًا وكاشفًا في النواحي التي تعرفها أعيننا جيدًا وتعتاد عليها، بينما الأماكن التي لم نرها أبدًا ستؤدي رؤيتها لأول مرة تحت ضوء القمر المعتم إلى الكثير من الأوهام والضلالات، وقلَّما استطاعت العين الناظرة تمييز الصورة الحقيقية واكتشافها.

لم يكن من الممكن بدء الرحلة في النهار؛ لأنه في الجزيرة العربية لا تسافر القوافل نهارًا؛ لأن النوق تستريح وترعى في النهار فقط، فأصبح لا يمكن الفصل بين الترحال في الليل والاسترخاء في النهار، واعتاد الناس على هذا التقسيم للوقت بالنسبة للحيوانات التي يربونها في بيوتهم، وأضحت طبيعة للبشر أنفسهم أيضًا في الرحلات. بسبب الظلام لم أتمكن من التأمل وإمعان النظر في المنطقة الواقعة بين جِدَّة ومكة؛ فوصفي للأماكن هنا ظاهريٌ فقط وفي حالة الضرورة القصوى.

وجدت خلف باب مكة على الفور حالة من الفوضى، وارتفع صوت الصخب بسبب أكشاك وخيام القهوة التي كانت تتجمع بجانبها القوافل. هنا كانت تتقابل أيضًا المجموعات صغيرة العدد مثل التي كنت أنتمي إليها، وبعد احتساء القهوة (كانت تقريبًا المرة العشرين في هذا اليوم) جلسنا على مهلٍ. كان بجانبي حسن بن صادق الذي ركب الجمل الذي دفعت أجرته، وأمامي أو بالأحرى تحتي وبين ساقي الجمل كان يوجد الشيخ مصطفى على حماره المتواضع.

في التو وجدنا أنفسنا في مكان فقر جدب، وبقدر ما استطعت رؤيته في الظلام لم ألمح أيّة نباتات هنا، حيث كانت تقبع الطبيعة في سكون تام، ولا يوجد أي مظهر من مظاهر الحياة عليها، ويسودها صمت تام، فلم نسمع حتى صوت أحد طيور الليل ولا صوت أزيز العثث حولنا، ولم تبرق الخنافس المضيئة في هواء الليل هذا. كان مصدر الحياة الوحيد في هذا الوضع الكئيب في الليل هم الحجاج وما أحدثوه من أصوات. لكن حتى هؤلاء الحجاج لم يكن في استطاعتهم تقديم صورة نشطة مفعمة بالحيوية مثل التي كان سيقدمها هذا العدد الكبير المماثل من الأوربيين في هذا المكان لو كانوا هنا. فقد كان الشرقيون يتطبَّعون بطابعٍ آخر مغاير لطبيعتهم الأصلية يتسم بالجدية والهدوء المزوج بالوقار، وكان دافعهم الحقيقي لهذا التصنُّع هو الوصول للتشدد الديني، الذي كان ينعش نبضهم ويحثهم على الحماس الكبير، الذي كانوا يعبرون عنه في صورة هتافات التلبية الصاخبة المدويَّة والتي تصم الآذان في كل وقت.

كان لهذه الرحلة الليلية سحر خاص بها؛ على الرغم من رتابة الجو العام فيها، فقد كانت طبيعة الخلاء من حولنا مصدرًا للخيال الخصب، الذي أُجبرت على الغوص فيه بسبب الضوء الخافت ذي الطابع الصوفي، الذي أنعش مُخيلتي وإلهامي. ففي أسرع وقت ممكن داهمتني الأحلام الجميلة، بينما كان جسدي يتأرجح على ظهر سفينة الصحراء المهتزة. وفي نفس الحين تحدثت مع حسن بن صادق عن البلد الحرام هدفنا المقدس، والتي يحرم على أيِّ أوربيٍّ دخولها، ومضت الساعات الأولى في هذه الرحلة بمنتهى السرعة بسبب الجدالات والمناقشات الدينية أو الحوار الصوفي الهادئ مع الشيخ مصطفى.

بعد مسيرة مع القافلة استمرت حوالي ثلاث ساعات وصلت القافلة إلى عين رحيمة (Ain Rahama) التي يدل اسمها على بئر مياه بُني بجانبه أحد أكشاك القهوة. وفي أثناء طريقنا إلى هناك مررنا بأحد الوديان الصخرية الذي كانت به حجارة صغيرة لم أر مثلها من قبل في الجزيرة العربية، وربما لم أعاينها جيدًا بسبب الظلام.

استرحنا في عين رحيمة قليلًا، ثم عاودنا المسير، وبدأنا في صعود أول الهضاب المؤدية إلى الأرض المرتفعة التي تقع عليها البلد الحرام. في حوالي تمام الساعة الحادية عشرة وصلنا إلى قهوة تركي، وكما هو واضح من اسمها أنها إحدى المقاهي التي يملكها رجل تركي. هنا استرحنا بعض الوقت في هدوء وسكينة. أمَّا المصريون الذين كانوا يسيرون على الأقدام فقد كاد الجوع والعطش يفتكان بهم، بالأخص العطش؛ لأن القيظ كان شديدًا، ولم تهب علينا في الليل أيَّ رياح لطيفة من جهة البحر مثلما كان الحال في الليالي التي قضيتها على السواحل، بينما في النهار يسود نسيم البحر المكان. أنعش المصريون أنفسهم بشرب الماء واستمتعوا بأكل خبز الذرة وأهديتهم بعض الأسماك المملحة فتعززت صداقتي بهم، وأغدقت على كل من الشيخ مصطفى وأولاد أخيه ومصطفى باي والمكيِّ وعشرات آخرين من المصريين بالقهوة واحتسيت أنا أيضًا معهم القهوة مستمتعًا بذلك.

حكى لي المكيُّ أن هذه المنطقة لم تكن فيما مضى آمنة مثل اليوم بسبب أفراد قبيلة عسير (Assir) وهي إحدى القبائل البدوية ذات النفوذ تقطن بين الحجاز واليمن وتتبع

السلطان بالاسم فقط. أمَا الآن فقد أضحى طريق الحجاج من جِدَّة إلى مكة أكثر أمانًا إلى حدٍ كبير؛ لكن الأشخاص الذين من المفروض أنهم هم أنفسهم الذين يساعدون على استقرار الأمن والطمأنينة في هذا المكان وبالأخص الجنود الأتراك قاموا بكثير من التجاوزات التي كانت لها أسوأ عاقبة على الحجاج والعرب الذين يمرون في هذا الطريق دائمًا بسبب الحج واعتادوا الاستراحة فيه. كانت توجد في هذا الطريق أعداد كبيرة من المقاهي وخيام المرطبات لم تعد موجودة الآن؛ لأن الجنود الأتراك كانوا يقتحمونها بكل قوة وينهبون ما فيها من مشروبات وقهوة غصبًا دون أن يدفعوا أثمانها، فلم يبق لأصحابها شيء سوى ما يسترهم من ثياب، فكفوا عن التجارة المربحة في هذا الطريق، وقلّما يُقدم أحد العرب حاليًا على فتح أحد المقاهي هنا في هذا الطريق الواقع بين مكة وجدة. لهذا السبب أصبح الأتراك حاليا هم أصحاب هذه المقاهي هنا؛ لأنهم ينتمون إلى هذه الجنسية ولا يستطع جنود السلطان مضايقتهم ونهبهم، ويُسمح لهم بمنتهى الأمان والراحة بممارسة التجارة الرابحة في هذه الأكشاك والخيام. من بين هؤلاء الأتراك كان يوجد رجل فظ له ولدان وقحان؛ ولهذا سُمى هذا المقهى بالقهوة التركي. كان لمالك هذا المقهى التركيِّ الفظ البربريِّ ولدان سرعان ما تستشف أصلهما التركي؛ لأنهم يسبون كل العرب وبالأخص العرب المصريين اللطفاء بأبشع ألفاظ السباب والشتائم على سبيل المثال: ابن القحبة (Sohn eines gewissen Frauenzimmers) التي تتنافى عندي مع حدود الأدب العام. لكنهما كانا يتعاملان مع عرب المدن بشيءٍ من الأدب، ولم يجرؤ أيٌّ منهما على فتح فمه مع البدو الذين لا يمكن سبهم مثل المصريين. في مكة وفي أي مكان؛ حيث توجد أعداد هائلة من العرب الأصليين يشكلون كتلة سكانية كبيرة لا يهاب أحد من العرب أو حتى السوريين والمصريين من الأتراك، ولا يُسمح لهم بسب وشتم العرب؛ ولكن في بعض المناطق التي يكون للأتراك نفوذ فيها مثل طريق الحجاج بين مكة وجدة، حيث توجد أيضًا أعداد كبيرة من الحاميات التركية يزداد نفوذهم ويدفع الحجاج المساكين الثمن.

تحدث التركيان اللذان كانا معنا في رحلتنا مع صاحب المقهى ومع نجليه ومع بعض الجنود الأتراك واستفاضا معهم في حديث طويل فرحبوا بهما بودٍّ، فأحضر بعد ذلك أحد نجلي صاحب المقهى سلطانية كبيرة مملوءة بالبيلاف؛ وهي وجبة تركية شعبية مكونة من الأرز والزبد ولحم الضأن، وجلس بين هذين التركيين، اللذان بدأ كل منهما على الفور معركة افتراس ما في السلطانية من طعام. لم يكن غير المقبول بالنسبة لي هو طريقة أكلهم بنهم وشره للأرز فحسب؛ بل ما حدث بعد الأكل، وهو الحفلة الموسيقية الصاخبة من التجشؤات. كنت أعلم أن الأتراك يتجشأون دائمًا بعد الوجبات بأصوات عالية جدًا؛ لكن هذه الأصوات التي صدرت من هذين التركيين اللذين ينحدران من آسيا الصغرى، ولم يتأثرا بعد بالثقافة التي في القسطنطينية، لم أسمع مثلها أبدًا في رحلتي.

لحُسن الحظ أن هذه الحفلة الموسيقية لم تستمر طويلًا؛ لأننا تحركنا من المكان سريعًا وغادرنا هذه الحفلة القبيحة. بعد مسير مرة أخرى استمر ساعة ونصف وصلنا البيادية (el Bejadija) حيث توجد خيام لبيع القهوة وبئر مياه. هنا لم ننزل لنسترح، بل واصلنا طريقنا الذي كان يتجه دائمًا لأعلى حتى وصلنا في الرابعة صباحًا إلى مكانٍ صغير اسمه بحرة (Bahra). في تلك الأثناء ظهر القمر وأضاء المكان بنوره الخافت، الذي يختلف تمامًا عن ضوئه المعتم في جدة. لم تكن في المكان أيّة نباتات غريبة كوجود منطقة استوائية مثلًا؛ ولكن كان يوجد غطاء نباتي كالمعتاد في أي وادي. كانت تتكاثف هنا وهناك أشجار الكاسيا وتتغذى الإبل على أشجار السنط وبعض أنواع السمسم. هنا كان ينتشر الحنظل ذو الأوراق البديعة على هذه الأرض الرملية، هناك ارتفعت إحدى أشجار الأكاسيا بأفرعها الرقيقة التي تشبه الريشة، كما رأيت بعض أنواع قصب السكر العالية. كانت هذه المنطقة حول جدة تفتقر أيضًا إلى المياه وكل شيء يتوقف نموه على هذا العنصر الهام؛ لذلك كان ينقصها الغطاء النباتي المثمر ذو الروائح العطرة.

كانت بحرة مكانًا صغيرًا بائسًا يتكون من حوالي ثلاثين كوخ فقط بُنيت من اللبّاد المصنوع من شعر الماعز والإبل. أُقيم هنا أحد الأسواق الصغيرة يبيع فيه البدو ساكني الجبال المجاورة منتجات المراعي التي تخصهم، بالإضافة إلى بعض التجار الذين يبيعون

أنواعا متعددة من الأطعمة، من بينها اللحوم والأسماك، كانوا يأتون تباعًا إلى المكان هنا ويعرضون منتجاتهم على الحجاج بأضعاف الثمن أو بثلاثة أضعاف تكلفته في جدة؛ على الرغم من أنها كانت كلها سيئة أو تالفة ومغطاة بالهوام والحشرات الضارة، التي ظهرت بسبب بعض الإضاءات التي كانت في السوق. حتى الذباب أفسد علينا سويعات الراحة في الليل وتكوم في جماعات على المواد الغذائية، وحمدت خالقي أني لم أكن مضطرًا لشراء أيٍّ منها.

استرحنا في بحرة في أحد المقاهي واشترينا اللبن الرائب الذي شرب منه الحجاج كميات كبيرة فأفسدوا معدتهم، وأكلوا كميات كبيرة من التمر، وأشعلوا نارًا استفدنا منها كثيرًا؛ لأننا كلما ابتعدنا عن الوادي زادت البرودة في الليل التي تأثرنا بها سريعًا: أولًا بسبب أجسادنا شبه العارية في ملابس الإحرام التي كان يجب علينا لبسها (ملابس الإحرام ليست ملابس تصلح للتدفئة)، وثانيًا لأننا كنا اعتدنا على الدفء في المناطق الساحلية. لقد كان مشهدًا غريبًا حقا رؤية كل هذه الأعداد من الأجسام نصف العارية تتجمع وتتحلق حول النار. لم يكن منظرًا جميلًا، فأجساد بعض الحجاج، التي كان يكسوها الشعر الكثيف، بدت كإنسان الغاب، والبعض الآخر ظهر كالأشباح بسبب أجساده النحيلة وألوان بشرته الصفراء المترهلة. أمّا الحاج عمر البدين فقد كان يشبه أحد شخوص الأساطير الإغريقية سيلينوس[1] (Silen) ولم ينقصه إلا البرميل كي يؤدي دوره.

كانت توجد هنا أيضًا إحدى نقاط خفر الحراسة التركية لحماية الحجاج؛ بيد أن الجنود الأتراك لم يهتموا بحماية الحجاج وأمنهم، ولم أر وجه أيٍّ منهم أبدًا؛ لأنهم كانوا ينامون في الليل وهو ذلك الوقت الذي يجب عليهم العمل فيه وحراسة الحجاج، وفي النهار لم يكن يوجد في هذا الطريق حجاج؛ لأن القوافل لا تسير سوى في الليل. أمّا في النهار فلم يكن يوجد أيٌّ من الحجاج في هذا الطريق؛ لذا كان يجب على هؤلاء الجنود الأتراك البواسل حماية طريق الحجاج هذا. لكن الأمر كان يبدو كما لو أن هؤلاء الجنود موجودون هنا لردع اللصوص، وكذلك لدرء أية مخاطر قد تلحق بالقافلة ليس فقط من اللصوص؛

١ عجوز على هيئة نصف إنسان ونصف حيوان تابع للإله ديونيسوس. (المترجمة)

ولكن أيضًا من قُطاع الطرق والقتلة المجرمين، الذين كانوا يُتركون بلا عقاب؛ لأنهم كانوا يسمحون هنا وهناك بمرور مجموعة من الحجاج، ويفتحون باب الجنة لعدد قليل جدًا من الحجاج الورعين؛ لأننا كنا نسمع كل شهر عن عشرات جرائم القتل، وهذا العدد يُعتبر قليلًا جدًا.

انعطفنا من بحرة صوب الشرق، وكان الطريق نوعًا ما ممهدًا ويسهل السير فيه، وبعد ساعتين من السير وصلنا حدا (Hadda)، وهي المحطة الوسطى بين جدة ومكة، في ساعة شروق الشمس التي كانت رؤيتها مشهدًا بديعًا أعجبني جدًّا؛ لأنها تفتح أمامي الطريق للبلد التي لم يزرها سوى عدد قليل جدًّا من الأوربيين، والتي تبرز دائمًا من مخيلتي على أنها بلد العجائب التي لا يمكن الوصول إليها. كنت أتوق على وجه الخصوص إلى المنطقة الواقعة بين جدة ومكة أكثر من مكة نفسها، التي وصفها عدد قليل من الأوربيين، وغفل الرحالة عن وصفها وتوضيح الطريق إليها، حتى أني قرأت في كتب كثيرة تناولت مكة عن حدا، التي لم أكن أعرف عنها شيئًا. وأنا هنا الآن أقف على مشارفها في وضح النهار، وليس على ضوء القمر المعتم في الليل. لكني لا أستطع أن أقول أن حدا توافقت مع توقعاتي وانطباعاتي عنها، التي لا أعرف سببها ولا من أين نشأت داخلي.

يبلغ عدد البيوت في حدا حوالي مائتين، ثلثهم أكواخ من ألواح الخشب والباقي عبارة عن خيام وأكواخ الأجمة، التي كانت تتشابه جميعها في شكلها الخارجي. فقد كانت تتكون جميعها من فروع صلبة لأشجار مختلفة تضافرت مع بعضها البعض على شكل قفص. كان هذا الشكل للأكواخ يشبه أكشاك حيوان السمور، حتى أنه كان من الممكن تخيل أن هذه الحيوانات ذوات الأربع تعيش هنا بكل سهولة. هذه الأكواخ ذات الجزء العلوي المستدير كانت مرصوصة في مجموعات صغيرة أو كبيرة بجانب بعضها البعض، مما يمكن أن يشير إلى أنه في أوقات غير موسم الحج حينها لا تُستخدم هذه الأكشاك كحانات اعتاد أفراد كل عائلة أن ينعزلوا في هذه الأكواخ.

أُعدت بعض هذه الخيام والأكواخ بشكلٍ مؤقت لتكون أكشاكا لبيع القهوة، والتي كانت بمثابة حانات ونُزُل يُدفع الكثير من المال من أجل الإقامة فيها. لحسن الحظ وجدنا

هذا المأوى، ولم نكن مضطرين مثل باقي الحجاج المساكين إلى النوم على الأرض العارية في مدينة الأكواخ البائسة، التي كان يجب قضاء اليوم فيها. كانت لدى رغبة عارمة في مواصلة الرحلة مباشرة إلى مكة؛ لأني لم أعد أحتمل الصبر على دخول البلد الحرام. ولكني حتى لو كنت قد وجدت بدويًّا يصطحبني في الطريق إلى مكة ما كنت قد قبلت ذلك؛ لأني لم أكن أريد الانفصال عن رفقائي المصريين، ربما أفعل ذلك لاحقًا؛ ولكني يجب عليَّ ألا أقدم على هذا الأمر الآن. لهذا واسيت نفسي برؤية مشهد بزوغ ضوء النهار ورجعت إلى خيمة القهوة التي استأجرناها والتي سأستريح وأغفو فيها من ست إلى سبع ساعات.

حينما استيقظت من غفوتي كانت الشمس في اتجاه الغرب، وبدأت أول ساعات ما بعد الظهيرة، التي يطلق عليها المسلمون الظهر، والتي يجب فيها على كل حاج ورع وتقي أداء صلاة الظهر، التي تتكون من أربع ركعات وقد صليتها أنا أيضًا.

بعد الصلاة والانتهاء من وجبة الطعام ذهبت مع المكيِّ للتنزه قليلًا في أزقة الحدا ذهابًا وإيابًا. كانت الطريقة التي شُيدَت بها أكشاك وأكواخ الحدا مشهدًا غريبًا وفريدًا من نوعه، لم أر مثلها أبدًا في كل الرحلات التي قمت بها في جميع أنحاء العالم. لم يكن منظرًا بديعًا فقط؛ بل مميزًا وذا طابع خاص لهذه البلدة؛ حيث كان من السهل الاعتقاد أنك انتقلت توًا إلى إحدى قرى الزنوج في وسط السودان. اكتظت فجأة هذه المجموعات الصغيرة من خلايا النحل الضخمة أو أكشاك السمور، التي من الصعب تسميتها منازل تصلح للبشر، بجيوش الحجاج ذوي الأجساد نصف العارية الذين كانوا يبدون كالوحوش. من حينٍ لآخر كان يظهر لنا من بين هؤلاء الحجاج الذين يكسوهم الوسخ؛ لأنهم منذ أن أحرموا في رابُغ وارتدوا ملابس الإحرام لم يحلقوا رؤوسهم ولا اغتسلوا ولم يقصوا أظافرهم، وبالتالي كست أجسادهم والخرقة التي كانوا يضعونها القاذورات والحشرات، بعض البشر كانوا يرتدون ملابس يصح حقا إطلاق مسمى ملابس عليها؛ لكني كما ذكرت آنفًا أن ملابس الإحرام ليست حقًا ملابس.

كان من النادر جدًّا رؤية أحد الأشخاص في حدا مرتديًا ملابسه؛ لكننا رأينا أحدهم. لقد كان رجلًا في الخمسين من عمره تقريبًا، نحيل الجسد، تبرز عظامه، فيبدو كهيكلٍ عظمي مثل أيّ بدوي، وله لحية غير كثيفة يكسوها الشيب، وعينان كبيرتان تلمعان وأنف مقوسة، وظهر بمظهرٍ خارجي جدير بالاحترام بشكلٍ عام، وكان هذا الجسد الذي بدا لنا نحيفًا؛ ولكنه في الحقيقة مفتول العضلات قوي البنية، ملفوفًا بثوبٍ نظيف إلى حدٍ كبير. لم يكن هذا الرجل يرتدي حذاءًا؛ لأن الأحذية كانت في بلاد العرب السعيدة من مظاهر الثراء والرفاهية التي لا يقدر عليها سوى كروسوس وأعوانه. كان هذا الرجل الذي رأيته في أول نصف ساعة أثناء جولتي في الحدا مرتديًا ملابسه، جديرًا أن أُوليه اهتمامي. لقد أمعنت النظر فيه؛ ولكني اندهشت لرد فعله، حيث توجه صوبنا في التو وألقى علينا تحية السلام بكل أدب، ثم دنا من المكيِّ رفيقي حسن ابن صادق وعانقه بإيماءات تمثيلية بوجهه. لقد كان أحد المعارف القدامى لحسن بن صادق وسُر جدًا برؤيته مرة أخرى.

قدم لي رفيقي المكيِّ مرتدي الملابس هذا على أنه عبد العزيز، رجل من أصلٍ بدوي، وبدا من ملامح وجهه أنه ينتمي لقبيلة الحدايلة (Haddeila) الذين يشكلون السكان الدائمين والأصليين في الحدا، وأُطلق عليهم هذا الاسم على الأرجح نسبة إلى بلدة الحدا. كان عبد العزيز يقيم بشكل دائم في الحدا؛ أي أنه كان في وطنه، فكان مختالًا مزهوًا بذلك مثل حال سائر العرب الذين يفخرون بأوطانهم حتى لو كانت تلك الأوطان هي تلك العشش البائسة بالنسبة لنا نحن الغرباء. كان عبد العزيز يجني مكاسب ليست بالقليلة في موسم الحج عن طريق تأجير هذه البيوت البائسة للحجاج، وبدت على وجهه معالم الرضا والسعادة التي تكسو وجه التاجر الذي يكسب جيدًا. لقد كان يتمتع اليوم بحالة مزاجية جيدة، وكان لطيفًا معنا، ودعانا لزيارة بعض العشش والأكواخ التي يمتلكها، فذهبنا معه.

كان عبد العزيز يمتلك ثماني عشش بُنيت من القش والخوص، وبذلك كان رجلًا ميسور الحال؛ لأن باقي رجال الحدا يمتلكون ست عشش فقط وأحيانًا خمس أو أربع عشش فقط. كان لكل عشة استعمال خاص، كأن تصلح كمطبخ وأخرى كغرفة خزين

أو لاستقبال الضيوف أو للنوم أو كحريم للنساء، باختصار كانت أجزاء البيت مقسمة بشكلٍ مرتب بين هذه العشش على مدار العام فيما عدا في موسم الحج، فقد كان هذا الترتيب الجميل يختل وتحدث الفوضى؛ حيث يخلي عبد العزيز ست عشش من الثمانية كي يؤجرها للحجاج الذين يدفعون أغلى الأثمان مقابل هذه الأماكن البائسة الصغيرة التي يطلق عليها بيوت جميلة. هنا كان يرقد الحجاج بجنب بعضهم البعض في هذا المكان الضيق، وعندما كانوا لا يشعرون بالراحة ويضيق بهم الحال، كانوا يشعرون سريعًا بالرضا حينما يرون الوضع الأكثر صعوبة لأسرة صاحب الأكواخ المكونة من أربع زوجات شرعيات، وثلاث إماء والعشرات من الأطفال متسخي الملابس يصيحون ويحدثون ضجة، كانوا جميعهم يسكنون كسمك الرنجة محشورين في كوخٍ واحد، فهم في حالٍ أحسن منهم بكثير.

كان الصغار يلهون في الخارج أمام هذه الأكواخ ماعدا ثلاث فتيات لم يبلغن بعد، كان الأطفال الصغار جميعهم بدون ملابس على أجسادهم العارية إلا ما يستر عوراتهم كما كان الزى الرسمي لآدم، كذلك كان يُسمح أحيانًا للإماء الزنجيات بالتنزه خارج الكوخ، كان من المضحك رؤية إحدى الزوجات الشرعيات الأربع حينما تخرج للخارج لتتنفس بعض الهواء النقي والابتعاد عن القاذورات والحشرات لبرهة، ربما كان لعزيزي القارئ أن يرى بنفسه كيف ينقض عبد العزيز بكل رشاقة وخفة بعصاه الغليظة على زوجته الحبيبة ويعطيها قسطًا وافرًا من الضرب. بكت الزوجة وصرخت قائلة أنها لم تقم بأي شيء غير مباح لها؛ حيث أنها لم تبدأ أي علاقات حب مع الحجاج. لم تكن هذه المحاولات لتبرئة نفسها ذات جدوى؛ بل كانت تزيد الطين بِلَّة وتزيد الضربات عليها بالعصا.

في نصف الساعة التي قضيتها في استراحة عبد العزيز رأيته أيضًا يوجه الصفعات والضربات لزوجتيه الأخريين مما جعلني أعتقد أنه يعامل جميع نسائه بنفس الطريقة. كنت أرى أحيانًا وجه هذه الزوجات الأربع حين يُضربن؛ لأن غطاء وجوههن كان يقع أثناء الضرب، يمكن تسميتهن طبقًا للمفاهيم العربية بشرًا؛ ولكنهن كن طبقًا للمعايير الأوربية قبيحات للغاية، تبرز عظام أجسادهن، فقد كنَّ حقًا طويلات هزيلات الجسد،

كأنهن هياكل عظمية تكسوها بشرة شاحبة صفراء اللون، ولن يكون الأمر كذلك إلا مع رجال ونساء البدو الأصليين. على الرغم من ذلك كانت الشبهات تحوم حولهن أنهن يقعن في حب الحجاج. كان هذا الأمر غريبًا جدًّا لي. لقد رأيت بنفسي إحدى هذه الحسناوات التي تشبه الأشباح تتحدث مع أحد الحجاج الورعين، فبدا الأمر أنهما اتفقا على هذا اللقاء ورتبا له؛ لأن المسلم لا يجوز له التعامل مع الجنس الآخر بنية حسنة بريئة مطلقا. كيف يمكن إذن للحاج أن يتحاشى أخيلة المآتة هذه في الساحة المقابلة للعشش؟ ربما لا يكون توضيح هذا الأمر في غاية الصعوبة أكثر مما يفكر فيه المرء؛ فبمجرد أن يرتدي الحجاج ملابس الإحرام يجب عليهم الامتناع تمامًا عن الاختلاط بالنصف الجميل الآخر، كان الحجاج يبذلون قصارى جهدهم لتحقيق هذا الغرض؛ ولكن يصعب عليهم ذلك؛ لأن عفة الحاج لا يمكن الوصول إليها. وأخيرًا تكون محصلة هذا التعفف عن النساء ومخالطتهن، التي يُجبر الحجاج عليها، زيادة رغبة هؤلاء الرجال وسهولة إثارتهم نحو ما مُنعوا منه، سواء كانت التفاحة التي سيأكل منها آدم فاسدة أم مرة، فطالما أغوته سيقضمها في أقرب فرصة بكل اشتهاء. لكن لو كان هذا الحاج تقيًا وورعًا للغاية، فسوف ينجح في الإبقاء على عفته والتحكم في شهواته طالما ارتدى ملابس الإحرام، ولكن بمجرد الوصول إلى مكة بعد الطواف الأول حول الكعبة، يخلع الحجاج ملابس الإحرام ويطلقون العنان لملذاتهم؛ فيتزوجون الأرامل الشابات أو النساء الحرائر على سبيل المتعة لفترة مؤقتة، أو يلجأون إلى النساء صغيرات السن اللواتي يتواجدن بأعداد غفيرة في الليل والنهار في رواق المسجد الحرام. كانت توجد في مكة أعداد هائلة من العاهرات اللواتي يعقدن صفقات جيدة هناك؛ لكنهن كن جميعًا قبيحات الوجه نحيلات الجسد مثل زوجات عبد العزيز.

غادرت عشة هذا الصعلوك بعد نصف ساعة من مكوثي فيها بعد أن لاحظت عليه مثل باقي المسافرين في الرحلة عبوس وجهه وحالته المزاجية السيئة التي كان عليها، وقد أوضح لي حسن بن صادق فيما بعد سبب عبوسه وغضبه. هل يمكنك أيها القارئ تخمين هذا السبب؟ لن يستطع أحد منكم تخمينه. هذا السبب مضحك للغاية لدرجة أني أخجل

من ذكره؛ لكني سأفعل ذلك حتى لا يعتبرني البعض أني ثرثار يفشر فقط. كان عبد العزيز غاضبًا لأنه اعتقد أني أردت غواية زوجاته. هذا هو الشك عند العرب الذين لا يرون أننا نحن الأوربيين نؤمن بالأخلاق.

كانت تدور الأحاديث مع عبد العزيز المتزوج من الأربع نساء في الغالب عن مكة ونُزُل الأجانب هناك، وكان من الواضح من كلامه أنه في موسم الحج توجد أزمة سكن كبيرة في مكة؛ على الرغم من وجود عدد هائل من الأماكن التي يمكن للأجانب السكن فيها؛ لأن كل المكيين يؤجرون الغرف؛ إلا أن عدد الحجاج كان دائمًا أكبر من الغرف. كنت في حيرة كبيرة بشأن المكان الذي سأنزل فيه في مكة؛ لأن الشيخ مصطفى لم يستطع تقديم النصيحة والعون لي في هذا الأمر؛ بخلاف حسن بن صادق وعبد العزيز الذي كان معروفًا في مكة فقد استطاع كل منهما تزويدي بأفضل المعلومات عن هدف رحلة حجي. لم يبخل هذان الصعلوكان عليَّ بأيِّ نصيحة؛ لأنه كان من الواضح أن هذين المحتالين يبحثان عن مصلحتهما فقط من خلال النصائح التي كانا يوجهانها لي. لكن ماذا كان ينبغي عليَّ أن أفعله، فقد كان كلاهما أو على الأقل حسن بن صادق يريد أن يجني أيَّ مكسب في حال توجيهي إلى أحد النُّزُل. كنت أعلم هذا الأمر جيدًا و كنت مستعدًا له؛ لكن على الأقل كنت معتقدًا أن هذه النُّزُل ستكون في حالة جيدة؛ لذلك سألت البعض عن منزل أرستقراطي يمكنني النزول فيه، وهنالك نصحني الجميع بنُزل السليمانية الذي يمتلكه حمدان بن حميدو الذي يُعد أمفيترون حقيقي يسكن عنده المرء في مكانٍ رائع ويتناول أشهى وأجود الوجبات الشرقية. حقًا يعتبر الإيجار الذي يدفعه الحاج عنده مُغالى فيه؛ إلا أن ذلك لا يعتبر شيئًا في مقابل وسائل الراحة وحياة النعيم والبذخ التي يتمتع بها الحاج عنده. فنُزُل السليمانية يُعد جنة عدن على الأرض؛ حيث يحصل الحاج على فراش ووسادة للسرير وتوجد غرفة رائعة يمكن التدخين فيها، كما يوجد ديوان عربي للجلوس عليه وسجاجيد مفروشة على الأرض، وتُقدم القهوة طول النهار يشرب الحاج منها كما يشاء، ومَن يدري ربما توجد وسائل أخرى للمتعة كثيرة لم أعرفها بعد. للأسف لم يكن جميع النُزلاء من المتشددين، ففي بعض الأحيان كان يأتي إلى هنا بعض الإيرانيين،

المعروف عنهم أنهم ينتمون للشيعة؛ ولكن يقل وجود المغاربة (الحجاج من الجزائر وتونس والمغرب) في هذا المنزل، الذي كان يقع في حي السليمانية وسمِّيَ بذلك نسبة إلى الأفغان والبلوج[1] كما اعتاد حجاج الهند أيضا النزول فيه، وهم جميعهم ليسوا من الحجاج المتشددين دينيًّا مثل حجاج قندهار وكشمير وبخارى وسمرقند وباقي المناطق المشابهة من كل بقاع العالم.

يمكن للمرء أن يعتقد أني لم أهتم كثيرًا بشأن دين النزلاء في هذا البيت، وأنَّ هذا التنوع السكاني ومجموعات الشعوب المختلفة التي كانت هناك كان أمرًا مقبولًا جدًا عندي. قررت اختيار هذا النُّزل خاصةً أنه كان خاليًا من أهل بلدتي المغاربة؛ وبذلك تأكَّد قراري هذا بالسكن في بيت حمدان بن حميدو في مكة مهما تكلفت إقامتي هناك ؛لأني كنت متعبًا للغاية وأبدو كالمتسولين مع هؤلاء المصريين المعدمين، أي بسبب سكني وأكلي معهم؛ ولكني لم أفكر أبدًا في هجرهم والانقطاع عنهم؛ لأني كنت أستفيد منهم كثيرًا في نواحٍ أخرى. لكم تمنيت ألا يكون نُزُل حمدان بن حميدو وكرًا للصوص! يجب أن أعترف أني أتوجس خيفة قبل النزول في هذا البيت بسبب مَن نصحني به؛ لأني لم أعرف مكيًا سوى حسن بن صادق المؤذي. لم يستطع الشيخ مصطفى والمصريون، وهم الجانب الطيب في رحلتي، مساعدتي في هذا الشأن. لم يكن حسن بن صادق لصًّا بالمعنى الحقيقي للكلمة؛ ولكني اعتقدت حدوث الأسوأ لي في البيت الذي نصحني بالسكن فيه، وهو أنه على الأرجح سأتعرض لأيِّ نصب أو غش دون أن أفقد كل ما أملكه. سوف ترى عزيزي القارئ لا حقًا أنه لم يخيب ظني وأنَّ عمليات النصب والخداع تمت بنسبٍ متفاوتة.

تعتبر الحدا الواقعة في الجانب الشرقي لمكة أول حد من حدود الحرم؛ أي هنا بداية حدود البلد الحرام مكة. هنا يجب على جميع الحجاج الذين لم يرتدوا ملابس الإحرام ارتداءها. أمَّا أنا فقد ارتديتها بالفعل في رابُغ؛ لذا لم يجب عليَّ فعل شيء في حدا سوى أداء بعض الصلوات الطويلة.

1 البلوج أو البلوش إحدى كبرى القوميات التي تسكن بين باكستان وإيران وأفغانستان في إقليم بلوشتان. (المترجمة)

يُسمح لغير المسلمين والمسيحيين بالوصول حتى أيِّ حد من حدود الحرم المكيِّ، ومن هناك يوجد طريقان للوصول حتى داخل الحرم: الأول عبر الطائف وهي بلدة عربية ذات طبيعة جبلية، وبها توجد قصور الشريف ومقره معظم أوقات السنة، والتي يُسمح لغير المسلمين أيضا بزيارتها، والطريق الآخر هو عبر مكة، البلد الحرام.

في تمام الساعة السابعة مساءًا كنا جميعنا على أهبة الاستعداد، كنت مع رفقائي في الرحلة وبدأت معهم آخر مسافة في رحلة الحج، وهو الطريق عبر حدود الحرم. أراد الشيخ مصطفى أن يحكي لي شيئًا مثيرًا مبهجًا، فأخبرني أنه من المستحيل أن يدلف مسيحيٌّ إلى داخل الحرم دون أن يُقتل على الفور. كنت أود أن أقنعه ببطلان هذه القصة التي تنضح بالورع؛ ولكن حالي ازداد سوءًا بعد دخولي هذه المنطقة المحرمة، وكدت أن أسقط مكاني من فرط الإعياء والإرهاق من الرحلة، وخاصة بعد أن ارتديت ملابس الإحرام المزعجة هذه. كما أني تنازلت عن التهور كي لا يخمن أحد أني كافر.

على أيِّ حال كان من الملاحظ أنه يوجد سوران لحدود الحرم، أحدهما خارجي والآخر داخلي، يقسمان المنطقة المحيطة بمكة إلى مكان مقدس وآخر قدس الأقداس الذي يحيط مباشرة بالبلد الحرام، بينما الآخر يشكل النطاق الأكبر الخارجي المحيط بمكة. أمَّا الحد الذي يقع على بعد حوالي أربعة أميال من مكة فهو النقطة الفاصلة من جهة الغرب لحدود الحرم الخارجية، التي يُطلق عليها "المقدسة"، بينما نقطة الحد الفاصلة للحد الداخلي أي "لقدس الأقداس" والتي تبعد ميلين عن شرق حدا، فتُسمى سبيل أغا العالم (Sebil Agha el Alem).

لم أتمكن من رؤية أي شيء في الشارع أو في المنطقة بأكملها بسبب الظلام الحالك. كنا نمر بعد كل نصف ميل ببعض أكشاك القهوة المتراصة بجانب بعضها البعض، يقوم على حراستها مجموعة من الجنود الأتراك. كان هذا المشهد غريبًا حقًّا، خاصة منظر الحجاج الجالسين حولها على الضوء الخافت للمصابيح الصغيرة. كان الطريق من الحدا صاعدًا لأعلى، وشعرنا ببرودة الليل على الهضاب والتلال التي كنا نصعدها؛ على الرغم من فصل الصيف الذي كنا فيه، فارتجف الكثير من الحجاج كأوراق الشجر؛ لأن ملابس

الإحرام لم تكن معطفًا ولا رداءًا، وأصبحوا أكثر حساسية لكل التأثيرات الحرارية بسبب بقائهم فترة طويلة في الأراضي الساحلية الساخنة، حيث يكاد المرء في الصيف أن يستحم في عرقه. بالإضافة إلى ذلك علمت أن نصف الحجاج تقريبًا، إن لم يكن أكثر من النصف، قد أُصيبوا بالفعل بنزلات البرد وبآلام في الصدر والحلق والبعض عانى من الأسوأ وهو آلام بالنصف السلفي في أجسادهم حتى أنهم لم يعد في مقدورهم احتمال البرودة التي تسري في أجسادهم العارية أو نصف العارية. هنا جلست الأجساد التي يُرثى لأصحابها، تصطك أسنانهم، وقد أحيوا في ذاكرتي جحيم دانتي، حيث كانت توجد منطقة باردة للعذاب والآلام. أمَّا أنا فلم يكن حالي أفضل منهم، فقد كنت أعاني منذ عدة أيام من ملابس الإحرام المؤذية هذه؛ لكن شيئًا واحدًا كان سيتحقق مع صياح الديك في الصباح يجعلني أحتمل كل شيء وهو دخول البلد الذي دخله من قبلي اثنا عشر أوربيًّا فقط. كان تحقيق هذه الأمنية يبعث في نفسي الأمل والمثابرة حينما تفتر همتي وعزيمتي بسبب حالتي الصحية السيئة وانعدام الراحة الذي كنت أعاني منه.

في الحادية عشرة مساءًا وصلنا إلى ضريح صغير لأحد الأولياء الذي يرقد رفاته تحته في هدوء ويحمل الضريح نفس اسمه. كان هذا الوليِّ من بلدٍ بعيد، كما حكى لي أحد المكيين الخبثاء، ولم يذكر لي اسم بلده، وقد أصابه الوهن والضعف بسبب الإفراط في الصيام، واستطاع القيام برحلات قصيرة في النهار فقط، فكرَّث حياته كلها للقيام برحلة الحج من موطنه إلى مكة، فقد كان يمشي كل يوم ساعة أو ساعتين حسبما تسمح له حالته الصحية الضعيفة هذه، وقد تكون وسيلة التنقل هذه عكس النذر الذي نذره. حينما يسافر المرء بهذه الطريقة سيصل بالتأكيد ببطء شديد؛ ولكن بمرور السنين الكثيرة استطاع سبيل أغا العالم أن يصل بالقرب من البلد الحرام، أيّ إلى هدف رحلة حجه التي قضى عمره في سبيل تحقيقها. بذلك يكون سبيل قد وصل إلى حدود الحرم ولم يتبق سوى سويعات ويصل لأمنيته التي قضى عمره من أجلها؛ ولكن سهام القدر قد طالته وقضى نحبه. لقد مَنَّ الله عليه بسبب ورعه وإيمانه، فنُقل بطريقة خفية في آخر لحظة في حياته إلى مكة، حيث طاف بالبيت الحرام سبعة أشواط. لكن هذه المعجزة لم تحدث فقط سوى لروحه،

أمَّا جسده فقد ظل هنا عند حدود البلد الحرام، ودُفن هنا وأُطلق اسمه سبيل أغا العالم على المكان.

استرحنا في هذا المكان عدة ساعات، قضينا أولها في العبادة والصلاة. إدَّعى غالبية الحجاج أنهم يرون مكة بالفعل من هذا المكان، وهذا أمر ليس ممكنًا؛ لأنه من هنا حتى في وضح النهار لا يمكن رؤية البلد الحرام. كان هذا في الحقيقة أثر الخيال الورع والتقي على هذه النفوس الملتهبة تعصبًا وتشددًا في الدين؛ فجعلهم هذا يعتقدون أنهم يستطيعون تمييز الأسوار والقلاع والمساجد في هذا الظلام الدامس الذي كنا غارقين فيه. كانت عاقبة هذا الوهم أنهم بدأوا جميعهم في تنفيذ وإقامة شعائر فريضة الحج كما لو أنهم الآن في قلب البلد الحرام. كي لا تحوم حولي الشبهات أو يظن أحد أني أقل إيمانًا منهم، كان يجب عليَّ أنا أيضًا أن أشرع في تنفيذ الشعائر الدينية التي تجب على الحاج الذي يرى البلد الحرام لأول مرة.

كان من المستحيل بالنسبة لي أن أتعلم في هذه الأثناء كل الشعائر الدينية والأدعية والصلوات التي يجب عليَّ أن أقوم بها في هذه المناسبة، كذلك لم أكن قد استأجرت بعد أحد المطوِّفين أو العامل بأجر لغرض ديني، الذين تعج بهم مكة ويمتهنون مهنة الطوافة، وهي إرشاد وتعليم الحاج كل ما يجب عليه القيام به في الأماكن المقدسة. كنت أنوي استئجار أحدهم فور وصولي مكة؛ لذلك طلبت من حسن بن صادق مقابل إعطائه بعض البقشيش أن يعلمني ما يجب على أن أفعله.

كان يجب عليَّ أن أبدأ هذه الشعائر بأداء صلاة العشاء؛ حيث تجب قراءة سورة الفاتحة وسورتين أخريين من قصار السور. بعدها يُسمح لي من على الأرض التي كنت ساجدًا عليها. وقف حسن بن صادق أمامي الآن متجهًا صوب مكة، التي لم نكن نراها بالفعل؛ ولكن كان من المفترض أننا نراها، وهنا رددت وراءه هذا الدعاء:

"يا إلهي! هناك يوجد ملاذنا ومأوانا وحصنك المنيع! هنا حيث يوجد قدس الأقداس! اللهم حرِّم وجوهنا ولحمنا ودمنا وعظمنا وجلدنا على النار واعتق رقابنا! اللهم إني ألوذ

بك وبرحمتك يا إلهي! يا أرحم الراحمين! أشهد أنه لا إله إلا أنت وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وذريته وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين".

بعد ذلك يجب على كل حاج بمفرده ذكر عبارات الحمد والشكر لله، وحسب حالته الروحانية يتلو صلواته[1]، التي يختارها بنفسه. كنت بطيئا جدًا في اختيار الصلوات أولاً في عقلي قبل أن أتلوها كي أبدو متأثرًا بها ولا يشك أحد في إيماني، فعرض علي حسن بن صادق أن يساعدني ويتلوها هو أمامي حسب ما يراه مناسبًا لحالتي العقلية والروحية. لأني كنت فضوليًا أن أسمع كيف يفكر هذا المكي المخادع في أمري، فوافقت على اقتراحه بمساعدتي وتلى على مسامعي هذا الدعاء التالي:

"يا رب السماء الثالثة! أنا مغربي فقير إليك، من أرض الجهل والقسوة، جئت هنا ألوذ بك يا إلهي، في أرضك المقدسة حيث يوجد العلماء والحكماء والعارفون بكلماتك السماوية الربانية؛ كي أنقذ نفسي من هذا الظلام الحالك بداخلها، وأنهل من منبع حكمتك الأزلية! أفض علي من نورك الرباني كي يضيء داخلي وأصبح أكثر ورعًا وأحسن خلقًا وحكمة كأي واحد من أبناء بلدك الحرام. يا إلهي، بارك في بلدك الحرام ومكة ألف مرة، وبارك في عبدك ووالدي اللذين يقدسانك وأدخلهما جنتك".

رأيت كيف أن حسن كان عنده نصيب وافر من الغطرسة القومية، فوثق في خضوعي وعبوديتي لله، التي كنت بعيدًا جدًا عنها. لكنه لم يكن يدرك كيف كانت غطرسته القومية هذه في دعائه، مضحكة بالنسبة لي. كل مكي مقتنع تمامًا بتفوق وغلبة جنسيته وعرقه، ويعد هذا بالنسبة له أمرا غير مشكوك في صحته، وهو أن أبناء البلد الحرام لا يساويهم أحد على وجه الأرض في حصافتهم، فليس لديهم أدنى شك أنهم من نوعٍ آخر من البشر مختلف وأرقى من باقي البشر الأقل منهم منزلة على الأرض؛ فأفقر شحاذ مولود في مكة يعتبر أحسن وأعلى درجة من أي رجل متعلم من الوجهاء أبناء أي بلد آخر.

كما أن كل البلدان ليست لها نفس المنزلة المتدنية عند المكيِّ، فهي درجات متفاوتة عنده. لو أردنا إذن عرض درجات سلم وجهات النظر الاجتماعية والثقافية التاريخية كما

---

١ المقصود دعواته. (المراجع).

يراها المكيّ، سنجد إذن فجوة كبيرة لا يُسمح لأي أحد على درجات هذا السلم بالصعود عليها، وعلى بعد كبير يجب البحث عمن يستحق الصعود عليها، فالمدني (ساكن المدينة المنورة) ربما يجد مكانه أسفل منه بحوالي مائة درجة. أسفل هذه الدرجات بحوالي خمسين درجة يقف البدو وليس الوهابيون والإسماعيلية وباقي المتشددين في الجزيرة العربية ومن العراق ومن البلاد المجاورة لبغداد، وفي آخر السلم يوجد المصريون والسوريون؛ لأنهم ليسوا من أصحاب الدم العربي النقي، أمَّا أدنى درجة في هذا السلم فكانت من نصيب المغاربة المفترض أنهم أهل وطني؛ ولكنهم أعلى قليلًا من الزنوج الذين يُعد جنسهم من أكثر السلالات والشعوب والأجناس البشرية انحطاطًا ودناءة، حتى لو كانوا مسلمين. خارج هذا السلم كان يوجد الأتراك، الذين يعتبرهم المكيون من الهمج الذين لا يعرفون اللغة العربية فيكرهونهم ويحتقرونهم. الكلام هنا بالطبع عن المسلمين المتشددين أي أهل السنة، الذين يتبعون أحد المذاهب الأربعة الحنبلية والشافعية والمالكية والحنفية، فهؤلاء فقط مَن ينالون احترام وتقدير المكيين الذين يبالغون في تشددهم وتعصبهم. أمَّا ما يتعلق بالشيعة من بلاد الفرس وباقي بلاد الشرق، وأتباع طائفة المتوالي في سوريا والوهابية من الجزيرة العربية، والميزابية في الجزائر وباقي الطوائف غير السنية التي يعتبرها أبناء البلد الحرام من الهراطقة الكفار حطب جهنم، الذين لا يستحقون حتى إطلاق لقب إنسان عليهم، فيلقبونهم بالكلاب وأبناء الكلاب، والخنازير أولاد الخنازير، والأدهى من ذلك والأشد مرارة أنهم يُلقبون المسيحيين واليهود بهذه المسميات، ولا يعتبرونهم من المخلوقات التي خلقها الله.

كان صديقي العجوز الطيب الشيخ مصطفى، يراقبني وأنا أؤدي صلواتي بالطريقة التي أشار عليّ بها المكيِّ، فجاء صوبي بعد انتهائي من آخر صلاة، وأقبل على ثم بدأ بالثناء عليَّ وعلى إيماني مما حفَّزه على إلقاء إحدى خطبه الطويلة المملة على مسامعي مثلما اعتاد على ذلك. ولكن خاب ظنه هذه المرة بطريقة لم يكن يتوقعها، فقد كان جميع رفاقي في الرحلة يجلّونه ويوقرونه على أنه شخصية دينية هامة؛ فقد كان يصغي الناس إلى أحاديثه الطويلة حينما يتحدث ووقتما يشاء بكل احترام، حتى المكيِّ المولود في البلد الحرام الذي

يرى الشيخ مصطفى في منزلة أقل منه باعتباره من المصريين البرابرة، كان قد عبر بملامح وجهه عن أن الشيخ مصطفى يصلح أن يكون واعظًا. والآن لأننا وصلنا إلي موطنه، اختال المكيِّ على أعتاب البلد الحرام وازدادت غطرسته فتوقف عن الاعتراف بالشيخ مصطفى الغريب بأنه شخصية دينية، قاطع حسن بن صادق الشيخ مصطفى أثناء خطبته فجأة وصاح:

"أنت أيها الحمار! أيها الأحمق المغرور! ماذا تفعل هنا، حيث يوجد أبناء البلد الحرام الذين يعرفون عن الإسلام أكثر منك، ومن خطبك البلهاء هذه! ماذا تفهم أنت وأهلك عن الدين؟ اغلق فمك الوقح أو استخدمه فقط لتلتقط فتات الطعام الذي يسقط من مائدة المكيين على الأرض، والتي يجلس عليها المكيِّ بمفرده، بينما أنتم ومن على شاكلتك من الجهلاء تجلسون تحت أقدامهم على الأرض."

مضي بعض الوقت، واستمرت كلمات السباب والشتائم موجهة للشيخ مصطفى وأبناء وطنه، ولكن المكيِّ تجنب استخدام الألفاظ التي ينعت بها المسيحيين واليهود وأتباع الشيعة مثل الكلاب والخنازير، واقتصر على كلمة "حمار" للتعبير عن جهل وفظاظة الشيخ مصطفى ورفاقه المصريين، والتي اعتاد على استخدامها كل المسلمين حتى الأتقياء منهم؛ لأنها تدل على الهرطقة والكفر مثل باقي ألفاظ السباب عندهم، فلا يوجد أي لفظ في العالم بأكمله أكثر إهانة وإساءة من تهمة الكفر.

ترك الشيخ مصطفى هذا السيل من ألفاظ السباب تنهال فوق رأسه الجليلة في هدوء، لم يكن السبب في ذلك هو الجبن الذي يتصف به المصريون، أو أن الدافع إلى تصرفه هذا أنه لم يرد الرد على هذه الألفاظ الفظة للمكيِّ؛ ولكنه تنفس بعمق وقال في هدوء ودعة وهو ينظر صوب السماء: "فليسامحك الله على سوء خلقك هذا!" حتى هذه الكلمات قالها الشيخ مصطفى حينما صرف المكيِّ نظره عنه لبرهة، ولو سمعها لكان رد عليه بوابلٍ أشد فظاعة وقسوة من الشتائم. من خلال هذا المثال الوحيد الذي ذكرته الآن وتحاشيت سرد المزيد من هذه القصص، التي ستكون تكرارًا واستطرادًا لنفس الأمر، سيتضح لقارئي العزيز أنَّ الحجاج الورعين في أثناء موسم الحج يظهرون حالة العفو والتساهل

والمسالمة التي من الواجب أن يتحلى بها الحجاج. لكن في الحقيقة لم يكونوا جميعهم بهذا السوء مثل هذا المكيِّ؛ بل على النقيض من ذلك يجب أن أُدلي بشهادتي أنهم كانوا يحاولون التحكم بشكل أفضل في عواطفهم كما في حياتهم العامة. ولكن بين هؤلاء العامة كان يوجد البعض الذين يظهرون مزاجهم السيئ وإزعاجهم وأمراضهم النفسية للآخرين، فيصبحوا من الشخصيات المؤذية لباقي الحجاج.

قبل أن نرحل من عند ضريح سبيل أغا العالم، كان علينا دفع جمارك تبجيل وإجلال هذا الولي الذي وقفنا بجوار ضريحه، دلف عدد قليل من الحجاج إلى قبر هذا المرابط؛ لأنه بالقرب من مكة يوجد عدد آخر من الأضرحة المتواضعة لا يهتم بها الكثيرون ولا يجلونها مثل هذا. قادنا المكيِّ إلى الضريح الذي اكتظ بالحجاج بسبب صغر مساحته وضيقه وليس لكثرة عددهم.

لم يأمرنا أحد هذه المرة بخلع النعال عند عتبة الضريح؛ لسبب بسيط وهو أننا لم نكن نرتدي أحذية، فقد خلعنا الصنادل بمجرد دخولنا حدود البلد الحرام، ومنذ ذلك الحين أصبحنا حفاة الأقدام. كانت أرضية المكان مفروشة ببساط هندي بديع مصنوع من قش النخيل، وعُلقت بعض القناديل في السقف المقوس فأضاءت المكان بضوءٍ خافت أشاع روحا صوفية في الضريح، فيما عدا ذلك كان الضريح في الداخل خاليا من أيِّ زخارف أو نقوش، ولم يكن به سوى قبر الوليِّ، الذي كانت توجد فوقه مُشيدة معمارية كالسرير الثقيل الكبير، الذي كان يستخدم في المواكب الملكية في أوربا. أطلق المسلمون الورعون لخيالهم العنان، فاعتقدوا أن هذا الوليِّ ينام فوق هذا السرير حتى يوم البعث، بينما قدماه توجدان في قبرٍ مُشيد من الحجر أسفل السرير. أُسدل غطاء حريري أخضر اللون فوق هذا السرير الملكي لسبيل أغا العالم، وعند الموضع الذي اعتقدوا أنه مكان رأسه وُضعت عمامة ثقيلة سميكة من صوف الكشمير غالي الثمن، وقد كانت هدية من أحد الحجاج الأثرياء. عند القوائم الأربعة للسرير التي ارتفعت حتى غطاء القبر وحملت سقف السرير، ثُبِّتت أربعة أعلام صغيرة مثلثة الشكل وهي أيضًا من الحرير الأخضر اللون.

وكالمعتاد كان يجب علينا هنا أداء المزيد من الصلوات لكي نظهر تقديسنا لهذا الحاج الذي أمضى حياته من أجل فريضة الحج حتى قضى نحبه ودُفن هنا.

أخيرًا انتهينا من زيارة هذا الضريح، ثم رجعنا إلى محل إقامتنا أي المقهى؛ كي ننضم من جديد إلى رفاقي في الحج، الذين اتجهت بصحبتهم من سبيل أغا العالم صوب مكة. كان الطريق الذي سنقطعه إلى مكة يبلغ حوالي ميلين. مكثنا عن عمد في سبيل أغا العالم مدة طويلة حوالي ثلاث ساعات كي نصل مكة مع بزوغ فجر اليوم أو بعد ذلك بقليل.

في السابع من ذي القعدة في الساعة الثانية صباحًا كان يجب علينا أن نبدأ رحلتنا في قطع آخر مسافة لنا في رحلة الحج، صاحبتنا في المسير نداءات التلبية المستمرة المدويّة عاليًا "لبيك" دون توقف. هكذا كان يصيح كل الحجاج في القافلة "لبيك" بصوت مجلجل ينبعث صداه من كل الصخور والجبال والهضاب، حيث صدحت الحناجر المتحمسة المتعطشة لرؤية بيت الله الحرام بأقصى قوتها في القافلة، سواء الذين تقدمونا في المسير أو الذين ساروا بعدنا، بالنداء المقدس "لبيك".

حينما بزغ القمر وأضاء العتمة التي كنا نسير فيها بضوءٍ خافت، استطعت على إثره رؤية الجهة التي كنا فيها إلى حدٍ ما. كنا ننتقل هنا وهناك في صحراء صغيرة بها شجيرات قصيرة، ورأيت بالقرب منا إحدى الأشجار تقف وحيدة مرتفعة في الأفق، وعلى الأرض صادفنا الرمل والحصى، وأحيانًا كانت تركض الدواب بنا في أحد التلعات المملوءة بالحجارة، كنا نستند على جدرانها بشكل رأسي، ثم صادفنا من جديد قطعة أرض مستوية أو ربما كان واديًا، وأحيانًا كنا ندلف أيضًا إلى إحدى النواحي، التي خمنت أنها صحراء جرداء لم ينم فيها شيء غير أشجار السلبين المريمي، التي ذبلت ثمارها منذ أمدٍ طويل. أفصح بصيص ضوء القمر في الأفق البعيد عن سلسلة من الجبال؛ يمينًا جبال الطائف ويسارًا سلسلة الجبال التي تؤدي إلى المدينة. كنا نتجه دائمًا لأعلى، وقد رطبت نسمات الصباح الجو حولنا.

ركبنا حوالي نصف ساعة في هذا الضوء الخافت، حتى بدا لنا ضوء وردي اللون رقيق من جهة الشرق. لقد كان وقت السحر وهو أول الفجر؛ ذلك الوقت الذي يعتبره المسلمون ليس ليلًا وكذلك ليس نهارًا بعد، وهو الوقت الذي لا يستطيع المرء تمييز

الخيط الأبيض من الأسود فيه، والذي يُسمح في رمضان بالأكل حتى أوله. استمر هذا الضوء الخافت الوردي الذي لا يعتبر حقًا الفجر لمدة دقيقة فقط؛ لكنها كانت كافية لرؤية كتلة رمادية اللون غير محددة المعالم، التي بمجرد رؤيتها صدحت آلاف الحناجر حولي من جديد بالتلبية "لبيك"، تهليلًا وابتهاجًا بمكة، الأرض المقدسة التي يشتاق إليها كل المسلمين، والتي يُعد كل حجر فيها مقدَّسًا، مكة التي بها الكعبة، أقدس مكان على الأرض، والتي بها أثر أقدام النبي، مكة مهد الديانة الإسلامية وحصن الله المنيع على الأرض.

حيا جميع الحجاج دون استثناء مكة في صوتٍ واحد وبنغمة واحدة، وانطلقت الحناجر ولهجت بأقصى صوت في نفس الوقت مرددة التلبية، فهذه مكة المدينة المقدسة التي لا تقل أهمية عن القدس للمسيحيين. كان الأقوياء والأصحاء يلهجون ويصدحون بالأصوات المُدَوِّية والهتاف الخالد ملء الحناجر والقلوب، بينما كان يبذل الضعفاء والمرضى آخر نفس حتى يخرج النداء المقدس في هذه اللحظة المقدسة على هيئة حشرجات متقطعة. هوى كثير من الحجاج على الأرض إمّا راكعين أو ساجدين في خضوع كامل، يغطون رمال الصحراء بصدورهم ويقبلونها. بكى بعض الحجاج وانتحب البعض الآخر وخرجت الزفرات من أعماق الصدور، باختصار أظهر الجميع تأثرهم العميق بالأجواء الإيمانية كلٌّ حسب طريقته، مثل الأوربيين حينما يغمر الفرح أرواحهم ويحاولون إظهاره عن طريق الأحضان المتبادلة التي لا يعرفها المسلم أبدًا ليعبر عن عواطفه الجياشة. في هذه اللحظات المقدسة اعتاد المسلم على أن ينسى العالم كله وبالتالي كل مَن معه، ويفكر فقط في الآخرة والغيب والمكان المقدس الذي يقف على أعتابه.

في هذا الطقس الاستوائي مضى وقت السحر بسرعة كبيرة وبزغ ضوء الفجر الصادق. أُضيء المكان حولنا شيئًا فشيئًا حتى رأينا مكة بوضوح أمامنا، حاولت التحكم في عواطفي الجياشة التي اجتاحتني في هذه اللحظة، لكنها كانت لأسباب أخرى غير تلك التي لدى المسلمين؛ كي أوجه جلَّ حواسي وعقلي للتمعن في هذه البلدة القابعة أمامي، والتي كانت محط اهتمامي وأشواقي المتقدة، والآن أقف أخيرًا أمامها وأراها

بعيني بعد كل هذا الجهد الشاق والتعب. لم أترك شيئًا لم أتخيله عن هذه المدينة؛ وعلى الرغم من أن بورتون (Burton) قد مهَّد لي بالفعل أن تصوراتي وتصورات غيري عن مكة لن تتطابق مع الواقع؛ إلا أني لم أقلل من قيمة خيالي وأفكاري عنها، بأني لن أرى إلا مدينة مثل سائر المدن. لا! يجب أن تكون مكة مختلفة عن غيرها، لا يمكن أن تكون مجرد مدينة عادية مأهولة بالبشر. لم أخطئ في تصوري هذا؛ لأن مكة بلد الإسلام والمسلمين وصفها الكثيرون من كل أنحاء العالم بأنها فريدة في نوعها ولا تضاهي أي مدينة أخرى. لكن أحيانًا خيالنا يجعلنا نقع ضحية للخديعة؛ حيث نتخيل أشياء جميلة وعظيمة بشكل مبالغ فيه. أمَّا الآن فقد عاصرت خيبة أملي بنفسي؛ حيث رأيت مكة بصورة أوضح بعيدًا عن خيالات الغيب، ولم تكن لا جميلة ولا عظيمة، سوى رؤية المسجد الكبير ذي السبع منارات والقباب غير متناهية العدد والأعمدة، بالإضافة إلى الكعبة التي تقع في المنتصف؛ لكن فيما عدا ذلك لا يوجد أي شيء يستحق المشاهدة.

ساهم في غياب الفخامة والعظمة عن مكة عدم وجود السور المحيط بالمدينة ذي قلاع الحراسة والثلمات، الذي يوجد على مشارف وحدود كل البلاد الشرقية فيضفي عليها طابع الوقار والفخامة؛ لذلك كانت مكة أقل فخامة وعظمة من القدس المحاطة بالسور والحصون وقلاع الحراسة، والتي من الداخل كمدينة لا يمكن مقارنتها بمكة. كانت المباني الوحيدة التي من الواضح أنها بُنيت من بقايا وحطام مباني أقدم هي البديل للسور الغائب عن حدود المدينة، كما كانت بمثابة قلاع الحراسة، بجانب المداخل الأربعة الرئيسة لمكة، التي لا يمكن إطلاق مسمى بوابة عليها، بالإضافة إلى القلعة الكبيرة الخربة التي شُيِّدت على إحدى الهضاب المرتفعة.

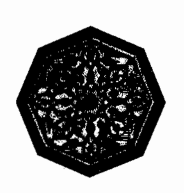
لم تكن المنطقة المحيطة بمكة أحسن حالًا، فقد كانت تفتقر أيضًا إلى الوجاهة والفخامة. كانت المدينة تقع في سرير نهر جاف يُطلق عليه وادي مكة (في الحقيقة نهر مكة؛ على الرغم من عدم وجود نهر بهذا الاسم). كانت بعض المرتفعات التي يبلغ ارتفاعها من أربعمائة إلى سبعمائة قدم تحيط بهذا الوادي. لم تصادفنا أشجار؛ ولكن قلَّما كانت هنا وهناك بعض الشجيرات والزروع الخضراء التي أمدت هذه الصحراء الجدباء بشيء من

اللون الأخضر. هنا في هذا الوادي الذي لا زرع فيه ولا ماء، لم يكن ليخطر ببال أحد أن تؤسس هنا مدينة أو مجتمع جديد إلا مَن يميل إلى التعصب الديني، ويستطيع رئاسة جماعات من البشر في الصحاري والقبور والأودية العميقة، وينتقل إلى طور أفضل، حينما تصمت الطبيعة وتسكن فيترك العنان لخياله لتشكيل مزاجه الخاص به. لقد اتضح لي بمجرد رؤية البقاع المحيطة بمكة، أن الفضل في وجودها يجب أن يرجع إلى أحد الزُّهاد المتقشفين، أو ربما إلى ناسكٍ من عصر ما قبل الإسلام أو ما قبل المسيحية. أُشيعت كثير من الحكايات عن عمر مكة وكذلك عن تاريخ نشأتها، ومن خلالها يتضح لكل من يهتم بالشرق وتاريخه تفسير نشأة هذه البلدة على هذا النحو التالي. لا يصح التسليم بأن السبب الرئيس لتجمع واستيطان العرب هنا حول بئر زمزم بمياهه المرة وغير الصحية على الإطلاق، والذي اعتبر شريان الحياة الرئيس هنا؛ لأن العرب أنفسهم يفضلون المياه العذبة ذات الطعم الحلو والأفضل كثيرا من مياه هذا البئر. لا، فالسبب الرئيس لا يصح إلا أن يكون التعصب الديني. كان أحد النُّسَّاك الذي كان زاهدًا في العالم وملذاته راضيًا بمياه بئر زمزم المرة، فبنى كشكًا له حول هذا البئر وانتشرت سمعة قداسته بين الناس فجذبهم إليه، وأصبح له عدد هائل منهم يقدسه، وأرادوا تقليده واتِّباع مذهبه في الزهد والتقشف فرضوا واكتفوا بماء زمزم التي أصبحت مقدسة يتبارك بها الناس، وبنوا الكعبة للعبادة بجانب نبع الماء التي أضحت مكانًا قوميا للعبادة يأتي إليه الناس من كل حدب وصوب. أمّا ما يتعلق بالوقت فتوجد معلومات ضئيلة، فلا نعلم في أيِّ قرن، أو أيِّ ألفية أسس هذا الزاهد الحياة وبدأها هناك. وأمَّا ما يتعلق بالقصة الحقيقية والأساطير عن تاريخ نشأة الحياة هناك، فسوف أتناوله فيما بعد بالتفصيل. ولكن لأنه كما يوجد في الفقه القانون الطبيعي بجانب القانون العرفي والشرائع، كذلك يوجد بجانب التقاليد التاريخ الموثق بالحجج والأدلة، ويمكن تخمين تاريخ أي مكان بالفطرة اعتمادًا على الحدس، الذي يتفوق على النظرات المتمرسة القائمة على ملاحظة السياقات التاريخية والثقافية، ونستدل من خلاله على الظروف الطبيعية لأي مكان؛ لهذا تظل الأساطير والحكايات التاريخ الموثق عن نشأة الحياة هنا ليست إلا حكايات يمكن إثباتها أو نفيها.

وصلت أخيرًا إلى مدخل مكة الرئيس من ناحية الغرب، حيث كان يوجد بجانبه معسكر للبدو أغلبهم من قبيلة حرب، الذين ينتمون لإحدى ضواحي مكة اسمها الجرول (Dscharual). عند حدود هذه الضاحية من جهة الشرق دلفنا إلى حارة الباب، التي يدل اسمها على أن مكة لها باب عند هذه الجهة، الذي رآه بوركهاردت في مطلع هذه الألفية؛ ولكن قد اختفى أيّ أثر له.

هنا رأيت أول بيوت في مكة، معظمها بدت فخمة مُشيدة من الحجارة ومكونة من طابقين أو ثلاثة، ولها شرفات مغطاة برواشن كبيرة تشبه شرفات أوربا. عبرنا حارة الباب التي امتدت من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، ثم مباشرة من الغرب إلى الشرق، وأخيرًا من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، ثم مررنا بأحد البيوت الفخمة الذي كان أحد قصور الشريف غالب، ثم مررنا بحي العمرة، وأخيرًا بالحمامات العامة، ووصلنا إلى أحد الشوارع الطويلة المتعرجة اسمه شارع الحمامات، الذي يمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي لحي السويقة والشامية. يتفرع من نهاية هذا الشارع شارع آخر واسع جميل اسمه الإحساء الذي اتجهنا فيه جنوبًا كي نصل إلى المسجد الحرام.

على بُعد حوالي سبعين خطوة كنا نقف أمام الباب الرئيس للمسجد الكبير، يُدعى باب السلام وبالأحرى كنا نقف في رواقه؛ لأنه يجب على الحاج أن يزور أولًا المسجد والكعبة بمجرد وصوله مكة. وقبل أن نفكر في البحث عن نُزُل وقبل أن نتأكد من أن أمتعتنا قد وصلت معنا بسلام، وقبل أن نستريح قليلًا من رحلة الليل أو نستمتع بدخولنا مكة، كان يجب علينا أن ندخل الحرم المكي ونشرع في أول شعائر الحج وهي الطواف سبعة أشواط حول الكعبة قبل أن نفكر في فعل أيِّ شيء آخر.





الفصل العاشر
مكة - الزيارة الأولى للمسجد الحرام

تهافت الناس على باب السلام - المُطوِّفون أو الخادمون الذين يتقاضون أجرًا مقابل تقديم خدمات للحجيج -أدلاء الحجيج أثناء الطواف حول الكعبة - قزمٌ عجوزٌ يبدو غريبًا - وقاحة الأدلاء - مشهد لقاء حسن بن صادق وأبيه - اخترت لنفسي أحد المُطوِّفين - رفاقي المصريين في رحلتي - ودَّعت حسن وتواعدتُ مع صادق بن حنيفة - الدخول إلى المسجد - نقص في التصميمات المعمارية المتكاملة المتجانسة - صحن المسجد - رواق المسجد - أشكال الأساطين المتعددة - خامات فنية من العصور القديمة - الفن المعماري الساراكينوسي - إعمار المسجد الحرام - طرز القباب ذات الأقواس - عدد الأساطين - نقوش الكتابة والرسومات - الحصول على نسخة من هذه النقوش بشق الأنفس وبتكاليف قليلة - قباب الرواق - المآذن السبعة للمسجد - رفع الآذان على المآذن السبعة.

أمَّا حسن بن صادق الذي لم يغب عن عيني لحظة واحدة، فقد نزل من على الجمل الذي يمتطيه في نفس الوقت الذي نزلت فيه أنا وعليّ في حي الجرول وترَّجل معنا في طرق وشوارع بلده وتركنا الدواب لدى أصحابها البدو وسار خلفنا جمل محمل بأمتعتنا حتى وصلنا بالقرب من المسجد، حيث عمت حالة من الفوضى واكتظ المكان أمام المسجد بالناس في هذه الساعة المبكرة؛ وبخلاف عدد كبير من الحجيج الذين ترك

بعضهم أمتعتهم ودوابهم هنا أمام المسجد سواء في ساحةٍ خاليةٍ واقعة في شمال شرق باب السلام أو في الطرقات الواسعة في شارع الإحساء، توافد هناك عند باب السلام المئات من أهل مكة، كان أغلبهم من المُطوِّفين.

المُطوِّف (مفرد مُطوِّفون) هو خادم الحجيج، ويقتصر وجوده فقط في مكة؛ وهو دليل أو خادم لغرضٍ ديني يتقاضى أجرًا في مقابل أن يقود الحجاج إلى الأماكن المقدسة التي يجب أن يزوروها وفي بعض الأحيان يتعيَّن عليه أن يشرح، بل ويُريهم ما يتّوجب عليهم من شعائر دينية؛ والطَوَاف عبارة عن سبعة أشواط يقوم به الحاج حول الكعبة وهو أول شعيرة يتعين على كل حاج أداؤها بمجرد وصوله إلى مكة؛ ولفظة مُطوِّف مشتقة من الفعل الثلاثي المتعدي "طوَفَ" وتُتَرجم حرفيًا إلى: "الشخص الذي يُمَكِّن الآخرين من أداء الطواف حول الكعبة واستكماله كما ينبغي"؛ لذا فهو الدليل الذي لا غنى عنه لكلِ حاج يريد إتمام الطواف وهو أيضًا بذلك يمارس عمله الذي يتقاضى عليه الأجر، ليس فقط أثناء الطواف؛ بل أيضًا عند أداء كل الشعائر المفروضة على الحاج، التي يُعَد الطواف أهمها وأولها، لذلك أُشتق اسمه من هذه الشعيرة.

لكنَّ المُطوِّف لا غنى عنه ليس فقط في الطواف؛ ولكن أيضًا عند السعي (شعيرة أخرى أثناء الحج)، وعند أداء العمرة. وأثناء الحج عند صعود جبل عرفات يعتبر المُطوِّف رفيقًا لا ينفصل عن الحاج ولا يفارقه في حياته المدنية؛ فهو الذي يُريه غرائب مكة وشعابها ويقوده إلى المقاهي ومحلات الحلاقة ويكون بالنسبة للحاج سمسارًا في المتاجر ويبحث له عن المسكن ويصطحبه إلى أماكن الاستحمام، ولا يندر جمعه بين اختصاصٍ آخر ووظيفته تلك متعددة المهام؛ فقد يكون من مهامه أيضًا التي تتعارض مع وضعه الديني؛ قيامه بدور القوَّاد الذي يبحث للحاج عن الرفيقة المؤقتة التي تؤنس الحاج في رحلته وتعينه على تحمل ملل أداء الشعائر الدينية في فترة الحج.

بين هذا الحشد من المُطوِّفين الذين يتقاضون أجرهم لغرضٍ ديني على باب المسجد الحرام والذين تفحصتهم بعيني بمنتهى الدقة لأختار أحدهم كي يرافقني؛ وقف قزم تبدو عليه علامات الشيخوخة والضعف ويعاني من آلام المفاصل وله بشرة صفراء

رقيقة؛ تكسو وجنتيه لحية خفيفة بيضاء شعثاء لها لون أعواد القش الصفراء، تلمع عيناه السوداوان الصغيرتان وكأن الشرر يتطاير منهما والقابعتان في تجويفين عميقين؛ كان ملتحفًا بخرقةٍ باليةٍ؛ لم تكن لديه القدرة الجسدية الكافية كي يزاحم المُطوِّفين الآخرين زملاء العمل الأقوياء الأوفر حظًا منه ويتخطاهم كي يحظى بفرصة للعمل، واستشعرت تعذر ظهور أيَّة بارقة أمل في أن يختاره أحد الحجاج ليعتمد عليه. وقف في الخلف وعليه علامات الرضا وفي نظراته شجن، مترقبًا المطوِّفين الآخرين وهم يلتفون بأعدادٍ غفيرة حول الحجاج؛ حتى أنهم أحاطوا بهم وحاولوا إجبارهم على اختيارهم مرشدين لهم. لكن ربما في هذا اليوم كان الحظُّ حليف هذا الرجل الكهل ليتحسن وضعه ويصير أحسن من الآخرين الوقحين المتهافتين على طلب العمل بالإكراه؛ حيث أني لم أكن الوحيد الذي رمقه واكتشفه ولكن أيضًا صديقي ورفيق رحلتي حسن بن صادق الذي بمجرد أن وقع نظره على المُطوِّف الكَهل الضعيف حتى أخذ يزيح بذراعيه القويتين وقبضتي يديه هؤلاء الوقحين يمينًا وشمالًا وشق طريقه صوب هذا الكهل وعانقه بكل حنانٍ ورقة. أعقب ذلك حديث أقبل عليه الاثنان بكل شغفٍ أظهر فيه الكهل ملامحه المتقدة التي لم أتوقعها منه أبدًا في لحظات يأسه، بدا الأمر وكأن الاثنين لديهما كثير لحكيه، ولكنهما أسرعا في إنهاء حديثهما لأنه بعد مرور دقائق قليلة اضطر حسن بن صادق إلى أن يزيح بيده التي سلم بها على الكهل مجموعة جديدة من الأدلاء اكتظوا حولي، وعندما لم تفلح صيحاتهم المتعالية كي يلفتوا نظري إلي أحدهم؛ شدوا من عليَّ إزار الإحرام حتى تعرى جسدي من هذا الإزار الذي لم يحجب الكثير من جسدي عن أنظارهم، وأدخلني حسن في المسجد للحفاظ على حرمة جسدي. كان يرمقني هؤلاء الحمقى كأني حيوان بري أُصطيد أو كفريسة تكاثروا حولها لكي يقرروا أيا منهم يفوز بي أو بحافظة نقودي. لكن الكهل قد سبقهم وعليهم أن يجروا أذيال الخيبة.

بالرغم من تزاحم هؤلاء الدخلاء حولي، لم يكن على صديقي أن يبذل جهدًا كي يبعدهم عني؛ لأنهم بمجرد أن رأوا صديقي وفي يده القزم الكهل ابتعدوا عني من تلقاء أنفسهم لأنهم أدركوا أني قد اخترت الدليل الذي سيصاحبني في رحلتي.

عرفني حسن بن صادق على والده الكهل صادق بن السيدة حنيفة؛ تلك التي حكى عنها حفيدها بنبرةٍ لا تخلو من الفخر أنها كانت لها قدسية بين الناس من نوعٍ خاص، وتركت بعد انتقالها للرفيق الأعلى سيرة يُضرب بها المثل، وغدت تعتبر قدوة، ولم تذهب فضائلها تلك سُدىً؛ فقد ورثها عنها حفيدها صادق الكهل الضعيف الذي وقف أمامي واخترته دليلًا لي.

سلَّم على صادق بودٍ وحفاوة وكأنه أحد معارفي القدامى، و أعجبني ذلك جدًا لأني شعرت بوحدة حقيقية وبالريبة بين هذا الحشد الغفير من الأدلاء والحجيج، وتزاحم رفاقي المصريون أيضًا في وسط هذا الحشد من الحجيج أمام باب السلام ماعدا الحاج عمر ضخم الجثة، الذي لم يكن في حاجة إلى دليل؛ لأنه أدى فريضة الحج قبل ذلك عدة مرات؛ ولذلك قرر أن يستعين أحيانًا بدليلي وأن يرافقني في الرحلة برمتها.

قبل دخولي المسجد سمعت حديثًا ساخرًا حول الزنجيّ عليٍّ الذي تركته عند الباب يحرس أمتعتي حتى لا تُسرَق، ووجد عليٌّ ذلك شيئًا غير عادل؛ لأن الطواف أمر واجب على كل فرد يدخل مكة؛ ولكنه بالرغم من ذلك استجاب لرغبتي وأجل الطواف لوقتٍ لاحق.

ودَّع حسن أباه صادق سريعًا ووعدنا أن نتقابل في غضون ساعتين أو ثلاث في الشارع الرئيس المسمى الإحساء بمكة مع عمر الحمصي الذي سيوصلني إلى الفندق الذي تسكن فيه الشخصية المشهورة حمدان بن حميدو.

دلفنا الآن إلى بهو المسجد الحرام، أول مسجد في الإسلام[1]، المسجد الذي يحتل مكانة عالمية والذي لا يزال يقترن اسمه باللفظ العربي مسجد الذي اشتُقت منه الكلمة الإسبانية (Mesquita) والفرنسية (Mosquee) والألمانية (Moschee)؛ بينما غدت لفظة مسجد قديمة لا تُطلق على باقي المساجد وتداول الناس كلمة جامع (التي تعني تجمع) ؛ وعلى أية حال يعرف العلماء في مكة في هذه الأيام كلمة مسجد والبعض يطلق عليه المسجد الحرام (أي المقدس) أو لفظ الجامع فقط.

---

١ أول مسجد في الإسلام هو مسجد الرسول عليه وعلى آله الصلاة والسلام في المدينة المنورة (المترجمة).

لقد أعطاني بعض المسلمين انطباعا أن مَن يرى المسجد لأول مرة سيراه حقًا عظيمًا؛ وأدت مبالغاتهم في وصف المسجد إلى أني اعتقدت أنه فعلًا مسجد بديع مثل باقي الأعمال المعمارية المشهورة في بلاد المسلمين؛ ولذلك أُصبت بخيبة كبيرة بمجرد أن وقع نظري على مكة ودخلت المسجد، لأن الطراز المعماري للمسجد لا يتطابق مع تصوراتنا عمّا نتخيله عن مبني له شكل يشبه المعبد ومخصص لعبادة الله. كما أنه لا يمكن اعتباره فعلًا مسجدًا بالمعنى الحقيقي للكلمة؛ على الأقل من ناحية الطراز المعماري للمبنى، وذلك مقارنةً بباقي العمارات الإسلامية مثل مسجدي السليمانية والبايزيدية (ولا مجال للكلام هنا عن مسجد آيا صوفيا الذي كان في الأصل كاتدرائية قبل أن يُحول إلى مسجد) في القسطنطينية أو الجامع الأموي في دمشق وجامع عمر في القدس، حيث يشكل كل منهم طرازًا معماريًا فنيًا متجانسًا وكلًّا متآلفًا. ومن ناحيةٍ أخرى يمكن اعتبار المسجد الحرام بمكة كلًّا متكاملًا يستمد تكوينه من الرواق (البورتيكوس) المحيط به، والذي يتكون من فناء رحب لأداء شعائر الحج، تتناثر فيه الأماكن المقدسة؛ لكن من الوهلة الأولى ندرك الغياب الكامل لخطة البناء المعماري. فالمبنى بأكمله ليس إلا محصلة الصدفة ونتيجة لأذواق الأمراء المسلمين المتباينة، الذين أمروا ببناء أجزائه بشكلٍ منفصل على مر القرون. لا يتميز فيه بالأصالة سوا مركزه؛ وهو الكعبة قبلة المصلين في الإسلام، وهو فيما عدا ذلك ليس إلا أجزاءً زِيدت عليه لاحقًا. هذا ما يتميز به المسجد الحرام ظاهريًا عن باقي المباني الإسلامية في جميع أنحاء العالم، التي بُنيت جميعها بلا استثناء وفقًا لخطة معمارية كبناء متكامل؛ بينما شُيِّد هذا المسجد في مكة من وحدات عشوائية منفصلة ضُمت إلى بعضها عن طريق الصدفة لتصير بناءًا واحدًا.

يتكون أكبر أجزاء ما يُطلقون عليه مسجدًا من الصحن؛ وهو المساحة المكشوفة غير المسقوفة مربعة الشكل، التي يبلغ طولها سبعمائة قدم وعرضها حوالي خمسمائة قدم؛ والتي يوجد بها مع الكعبة مركز البناء مرافق المسجد الحرام وأماكن المناسك المقدسة، التي يبلغ عددها عشرة أو اثني عشرة يجب على الحجيج زيارتها. ويكتسب هذا الصحن المكشوف شكله المربع من الرواق المحيط به من الجوانب الأربعة. إن هذا البورتيكوس، الذي هو

عبارة عن رواق أي ممر مُغطى يعقد سقفه بالأعمدة، لا يُعتبر عملًا معماريًّا كبيرًا؛ حيث يكاد ينقصه الطابع المعماري الإسلامي كليةً في تنسيق تفاصيله؛ لأنه ليس إلا نتاج عمل قائم على الصدفة، وهي الصفة التي تميز كل شيء في هذا المسجد؛ إلا أنه بالرغم من ذلك قد يجد عالم الآثار متعة كبيرة في النظر لهذا البناء الخيالي القديم والغريب ومختلف الأذواق بعين الباحث؛ لأنه يتمتع بشيء من الروحانية رغم عدم النظام والفوضى المعمارية التي تغمره. نعم أنا أريد هنا أن أصيغ رأيي المتناقض وأقول أن هذه الفوضى أكثر إثارة لي من الدقة الباردة الخالية من الروحانية الموجودة في أي رواق صناعته الفنية محكمة.

وللأساطين الكثيرة لهذا الرواق تاريخ حافل؛ فهي تتباين جميعها بدرجة كبيرة من حيث الشكل والخامة وطريقة صفها، حيث تصطف بعض الأساطين الكورنثية ذات الطراز المعماري المميز للعصر الإغريقي التي تتخذ هيئة أوراق نبات الأقنثة الرقيقة بجانب الأساطين الأيونية المستوحى شكلها من شكل قرني الخروف، وعلى جانبيهما عدد كبير من الأساطين البيزنطية ذات التيجان غير المزخرفة التي شُيدَت بشكلٍ بديع؛ لكن على الرغم من ذلك كانت تفتقر إلى الطابع المميز للساراسين (للطابع الشرقي)[1]. وكما هو الحال في بيوت العبادة الإسلامية وبالأخص القديم منها، التي شُيدَت في وقت لم تكن تحددت فيه العمارة الإسلامية بطرازها الخاص بها، بُنى هذا المسجد أيضًا بدون عناصر البناء التي كانت تتوافر لدى الكهنة اليونانيين أو لدى البيزنطيين على شواطئهم أو في سواحل مجاورة مثل المدينة العربية البتراء، وعندما كانوا يحتاجون إلى الأساطين استخدموا الأعمدة السليمة التي بقيت من حطام معابد الكفار، أو التي كانت تُسرَق من كنائس المستضعفين.

لم يأخذ المعمار العربي في المراحل الأوليَّة التاريخية والثقافية لأمته في عين الاعتبار سوى ما يحتاجه من الخامات الفنية؛ فالحظ كان حليفًا له عندما يتفوق المبنى، الذي يجب عليه بناؤه في أرض الوطن أو على حدوده، على مستعمرات الشعوب التى أتقنت فن المعمار في العصور القديمة، التي أضحت آثارها المعمارية مستودعًا فنيًا خصبًا

١ مصطلح استخدمه الرومان للإشارة إلى سكان الصحراء في إقليم البتراء الروماني ثم أصبح يطلق على العرب وفي العصور الوسطى وخلال الحروب الصليبية توسع المصطلح ليشمل كل الذين يدينون بالإسلام. وانتقل الاسم إلى اللغات الأوروبية وقيل أن أصل الكلمة اشتُقت من الكلمة العربية «شرقيون» لوصف العرب بالمشارقة. (المترجمة)

لأعمال العرب كما كان حال بدايات فن المعمار في بعض الأمم. لم تشكل هذه المواد القديمة المكون الأساسي للمسجد فقط؛ بل أضحت نموذجًا يُستكمَل لاحقًا. ومن خلال ذلك نشأت العمارة العربية التي حرص فيها البنّاء في بداياتها على محاكاة الآثار المعمارية القديمة إلى حدٍ ما؛ مما جعله يصل إلى هذه المنزلة المتعمقة في تاريخ الفن على نحوٍ رديء وسطحي وكانت المحصلة هذه المباني القبيحة والبشعة في بدايات العمارة العربية، مثل الطرز المعمارية التي سبقت محمدًا ﷺ بقرون، ولقد نتج عنها لاحقًا طفرة كبيرة في تاريخ الفن المعماري العربي، أدت فيما بعد إلى ظهور فن العمارة العربية في العصور الوسطى بطرز شتى. لهذه الأسباب لا يصعب عليَّ تعليل لماذا لا يتمتع هذا المسجد الحرام في مكة بطرزٍ معمارية رائعة مماثلة لكافة المساجد في باقي الدول الإسلامية؛ لقد احتفظ هذا المسجد بطرازه القديم ونوعًا ما بخاماته الأولية، وعندما كان يُهدم غالبًا أو تتلف بعض أجزائه أو يُعاد بناؤه أو يُجدد ويُجمل فإنه لم يتغير طرازه أبدًا أي لم يحل محله مسجد جديد غير القديم؛ بل حوفِظ علي البناء القديم مع إجراء تغييرات طفيفة للحفاظ على طابعه الأصلي.

لم يظل المسجد على حالته تلك طويلًا بعد موت محمد ﷺ؛ ففي عام ستمائة وخمسة وثمانين بتأريخنا (يقصد ميلادية) وبناءً على أمر الحجاج بن يوسف الثقفي أحد القادة الأمويين في عهد عبد الملك بن مروان تمت توسعة المسجد، ونظرًا لأنه لم يكن قد تكوّن بعد فن عربي معماري مستقل، فإن الرواق في طرازه الذي كان عليه عام ١٦٣٠ يُعزى إلي فضل هذا الإعمار. ولا يزال يطغى على المسجد حتى العصر الحالي الطابع الذي أمر به أمير الحجاز بن يوسف الثقفي. والآن لا يصعب تعليل سبب عدم تجديد الطراز المعماري الخاص بالمسجد الحرام أثناء هذه التعديلات وعمليات الإعمار التي اعترته؛ على الرغم من أن تاريخ الفن المعماري الإسلامي كان يشهد في هذا الوقت ازدهارًا عاليًا؛ فقد كانت مكة آنذاك هي مقر المسجد القديم، واعتبر المتعصبون في الأراضي المقدسة أن أيّ تغيير في الطراز القديم جريمة، حتى الفنون الإسلامية الراقية في باقي الدول الإسلامية نظروا إليها على أنها زندقة؛ لأنها صُممت طبقًا لنموذج النصرانيين.

ولقد لعب الحظ دورًا آخر في مراحل تطور فن العمارة الإسلامية بسبب الاستفادة من الموقع الجغرافي لهذا المسجد، الذي ساعد في الحفاظ على الخامات القديمة التي تواجدت آنذاك أو ما شُيِّد من معمار بناءًا على محاكاة فنون العصور القديمة؛ أقصد بذلك الأساطين والأروقة التي تُعد من أهم الآثار الفنية المتبقية من هذه العصور. لقد جعل المناخ المعتدل في مكة أنه من المستحب بناء مسجد بلا جدران، وذلك لأن السور الخارجي حمى المسجد بالفعل من انتهاك حرمته، بالإضافة إلى أنه لم يتوّجب اتخاذ أيّة إجراءات وقائية ضد عوامل الطقس؛ لأنه تم تسقيف الرواق باستخدام عناصر مُستوحاة من الفن البيزنطي مثل القباب والمقرنصات.

إنَّ الأروقة التي تُستخدَم في الكنائس الأوربية القديمة؛ على سبيل المثال صحن المعابد في العصور الوسطى (يتشابه صحن المسجد الحرام بطريقة ملحوظة مع صحن دير مونريال في باليرمو) كانت تمنع المنظر الخارجي القبيح للأثر. وهنا بالنسبة للمسجد الحرام في مكة إذا ما قلنا أنه لم يتمتع بقيمة فنية معمارية عالية؛ لكنه أبعد من أن يسقط إلى مرتبة الفن الركيك الرتيب؛ بل على النقيض من ذلك أود أن أصفه بالشاعريَّة؛ فصحن المسجد والأروقة التي يسري فيها الهواء تبدو لي كأنها صُممت على هذا الحال كي تستوعب في تأمل وسكينة كل البشر الذين يقصدونها. فلن يكون المرء حالمًا، ولن يستمتع بالوحدة بين هذه الجموع الغفيرة من البشر في أي بقاع الأرض سوا هنا، وعندما تود الهروب منهم والبقاء منفردًا لن تجد جمهورًا بهذا الرقي سوى هنا، كما أن للبعد الدنيوي حظًا وافرًا هنا فحيثما تنظر تجد الناس باختلاف أذواقهم وطباعهم.

ويبدو لي أن هذا الصحن بالأساطين التي به قد صُمم هكذا لخدمة هذا الغرض الروحاني خارجيًا، حيث تشعر أنك في مكانٍ مقدس وأنك على مقربة من المكان الأكثر قداسة (وهو الكعبة)، وفي نفس الوقت يجعلنا الهواء المنعش هنا نستمتع بالسماء والأرض فلا نشعر أننا محبوسون في جو خانق بين أسوار سجن، كما لو كان الهواء يتدفق من قبو. وكلما أمعنتُ النظر في المسجد وفي طرازه المعماري ازدادت قناعتي الداخلية أن كل المآخذ التي أُخذت عليه بسبب طبيعته ليس لها أسباب وأنه لن يتناسب مع الغرض الديني

والروحاني لهذا المسجد سوى هذا التصميم؛ على الرغم من بنائه على أساس الصدفة وعدم التخطيط لكل أجزائه.

ربما كان تشييد مسجد مركزي كما هو الحال في باقي المساجد قد يؤدي إلى التقليل من قيمة باقي المقدسات التي تنتشر متفرقة حول المسجد الحرام، وربما لهذا السبب أيضًا لم يحاول أحد سقف المسجد بقبةٍ تحول بين الحجيج وبين النظر للسماء، حيث ينتقل المسلم لحالة روحانية تلزمه أثناء أدائه لمناسك الحج. وفي مثل هذا الطقس في مكة أي مكان للعبادة يحتاجه المرء سوى الأرض والسماء؟ فالمسجد الحرام ليس إلا مرصدًا ينظر منه كل منا للآخر.

حتى في اختلاف وتنوع الأساطين في شكلها وخاماتها أرى لها أهمية، فهي تعمل في المقام الأول على تقليل حدة الرتابة التي نستشعرها نظرًا لتشابه جميع الأروقة في الصف الأول المنتشرة حول صحن المسجد والبالغ عددها ثمانين رواقًا. وتتمتع هذه الأساطين بارتفاع كبير يصل طولها إلى ثمانية عشر قدما أو أكثر قليلًا، بينما يتراوح قطرها من واحد إلى واحد ونصف قدم، وذلك طبقًا لقياس قمت به بواسطة إحدى العصي في أحد الأمسيات التي شعرت فيها بالوحدة نوعًا ما. فالرواق الذي بُنِيَ يعلوه قوس مدبب فوق تيجان الأعمدة قد تصل إلى عشرة أقدام ولكن ليس مع زوايا ضيقة جدًّا، يمكن تقسيمها إلى مجموعات بنسبة أربعة إلى أربعة عن طريق أعمدة من الجرانيت مثمنة قد يصل ارتفاعها إلى ثلاثين قدمًا، وتختلف مساحات الأروقة ولكن يبتعد كل رواق عن الآخر في المتوسط بحوالي من أحد عشر إلى اثني عشر قدمًا. يوجد على الجانبين الطوليين في الصف الأول ستة وثلاثون رواقًا وعلى الجانبين العرضيين أربعة وعشرون. وبخلاف الصفين الأماميين يوجد في كل صف من الجوانب الأربعة للصحن عمودان آخران، حتى يُحاط المسجد كله بصف من الأعمدة يبلغ ثلاثة أضعاف الرواق. كما أنه يوجد صف رابع من الأعمدة على الجانب الجنوبي الشرقي والجانب الجنوبي الغربي؛ لكنها لا تمتد بطول جانب المسجد. وفضلًا عن هذا الرواق الثلاثي والرباعي والعقود التي تحيط بالمسجد كان يوجد موضعان في الشمال الشرقي على بوابة الزيادة وفي الجنوب الشرقي عند باب إبراهيم وأُضيف بهوٌ مُحاطٌ بالأساطين على جميع الجوانب الأربعة كما في فنون العصور القديمة لا تفصله الجدران عن

الرواق؛ مما يعطى المرء الانطباع عندما يقف على باب الزيادة كما لو كان الرواق سداسي العقود. ويغلب على هذه الأساطين التي يتراوح عددها من أربعمائة وخمسين إلى خمسمائة عمود والتي يتكون منها هذا الرواق من النوع المُسمى بالشرقي، حوالي ثلاثين منها من الطراز الكورنثي، وخمسة عشر منها من الطراز الأيوني الفخم وحوالي خمسين من الطراز البيزنطي. من بين هذه الأخيرة يوجد على تيجان أربعة أعمدة نقوش طبقًا للفن البيزنطي لأشخاص أو حيوانات، ولكن هذه النقوش لم يعد يمكن التعرف عليها؛ لأن المسلمين الحقيقيين كانوا يرون هذا التجسيد للأشخاص والحيوانات في أماكن التعبد بدعة كبيرة وكفرا بالله؛ ولهذا حطموا هذه التماثيل بالمطرقة وسمحوا ببقاء التماثيل التي على هيئة نباتات أو مجموعة من الأوراق النباتية. ونُقِشت على تيجان بعض هذه الأساطين ذات الطراز الشرقي كتابات قديمة جدًّا، معظمها بالخط الكوفي، ولقد رأيت أربعة منها منقوشًا عليها بأحرف الخط الكوفي المربع، وهو عبارة عن تصميم فني خاص للأحرف، كما كانت توجد عشرة أساطين منقوشة تيجانها بالخط الكوفي المائل. وبالرغم من شغفي الدائم بنسخ هذه النقوش بخطي؛ إلا أني كنت أتجنب أي شبهة قد تلحق بي لو رآني أحد المسلمين وأنا أدون ملاحظاتي في المسجد. وبالطبع لم يفكر أي من المسلمين في نسخ هذه النقوش التي لم تكن لها قيمة لديهم، فقد كانوا يعتبرونها طلاسم والطلاسم لا تُفَسَر.

مرة واحدة فقط، عندما كنت وحدي تمكنتُ فيها من تدوين النقوش التي رسمت بحروفٍ مكتوبة بالخط الكوفي المربع وكانت موجودة في مكانٍ ناءٍ في الرواق، حيثما كنت متكئًا على أحد الأعمدة الذي نُقشت عليه الكتابة، وقمت آنذاك بعملٍ بطوليّ، نعم ما قمت به من نسخٍ للكتابة كان عملا بطوليا بالمعنى الحقيقي للكلمة؛ لأنه لو كشفني أحد المسلمين وقتها لأثار ذلك شبهات كثيرة ضدي. وخاصةً لأنه في الوقت الحالي لا يوجد بين المسلمين باحثين في العصور القديمة، لذلك فهم يعتبرون محاولات نسخ النقوش القديمة نوعًا من أنواع عدم الإيمان، كما يعتبرون النسَّاخ مدنسا للتعويذات المقدسة. فهم يعتقدون على سبيل المثال أن مثل هذه النقوش تحتوي على وصفة سحرية قد تقود إلى أماكن الكنوز أو تؤدي إلى تحقيق المعجزات، كما أن انتهاك حرمة هذه النقوش المقدسة

في المساجد، على وجه الخصوص في المسجد الحرام، يُعَد إثمًا كبيرًا. علاوةً على ذلك فإنه ليس من الحق أن ينشغل المرء بشيء داخل المسجد ليس دينيًّا صارمًا أو أمرًا ضروريًّا للحياة، أو على الأقل إذا وجد احتياج طبيعي، وليس دائمًا أمرًا مقدسًا يقوم به مَن في المسجد، فتقريبًا يأكل ويشرب جميع الحجاج في المسجد طالما يشعرون بالرغبة في ذلك وذلك عندما ينتهون من أداء مناسك الحج. ولكن لن تجد هنا من يعترض على انغماس الحجيج في شهواتهم سواء عن طريق الصدفة أو إذا حدث ذلك بعد ترتيب، وخير دليل على ذلك كاهنات الحب اللاتي تواجدن هنا ليتواعدن مع عشاقهن. لكن ليس ثمة أي اعتراض على رفض نسخ النقوش! ذلك لن يخطر على بال أي مسلم أبدًا لأنه تدنيس لقدسيتها كما لو بصق أحد على الحجر الأسود، حسب فهمي.

أما الكتابة الوحيدة التي نسختها بالرغم من كل الأحكام المسبقة التي كوَّنتها، لم توافق للأسف كل توقعاتي. لم يكن من السهل عليّ قراءتها في نفس مكانها على العمود لأن الكتابة بالخط الكوفي لا تُفَك طلاسمها إلا بعد دراستها ومقارنتها من قِبَل المتخصصين في هذه الخطوط. لذا كنتُ كَمَن يشتري السمك في الماء، لقد نسخت الأحرف وحملتها إلى البيت دون معرفتي معناها وهل كانت ذات قيمة أم لا. ولكن كيف لي أن أصف خيبة أملي عندما رجعت إلى أوربا بعد عدة أشهر ومعي كتبي واستطعت أن أفك رموز هذه الكتابة بعد مقارنتها مع كثيرات غيرها، والنتيجة التي تمخَضت عن جهدي في نسخ هذه النقوش؟ ماذا كانت نتيجة إقدامي على هذا الشيء وما هي المعلومات الجديدة المذهلة عن تاريخ مكة الذي تقدمه لي هذه النقوش؟ لقد حوت هذه النقوش أهم المستجدات في تاريخ مكة وهو أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا، عليه السلام، رسول الله. هل يستحق هذا كل جهدي، وهل يستلزم ذلك أن أتبع التدابير الوقائية أو ألعب الاستغمابة كي أصل لمثل هذه المعلومة الجديدة التي هي في نفسها قيمة ولكن بالنسبة لي فأنا أسمعها يوميًّا ألف مرة، مما جعلني أفقد شغفي بهذه النقوش، ذلك الشغف الذي يمتلكه أيّ أوربي جاهل.

بالرغم من ذلك فأنا لا أشك أن بعض النقوش الأخرى التي نُقِشت على الأعمدة والأساطين قد تدلنا على أحداث تاريخية تؤدي إلى اكتشافات هامة. ولكني لا أجرؤ

أن أنفي إمكانية حصولنا على نسخة من هذه النقوش في يوم من الأيام؛ لأنه لم يسبق أن استعصى شيء صعب الوصول إليه على حماس الباحثين الأوربيين؛ ولكن الحظ سيكون حليفًا لِمَن يصل لهذا الكنز الأثري، وليست لدي أدنى فكرة عن صاحب هذا الحظ، الذي لن يكون مسلمًا بكل تأكيد؛ لأن تعصبه سيحول دائمًا بينه وبين تحقيق هذا الغرض، أما المسيحي الذي ينسَل متخفيًّا في المسجد الحرام فيجب عليه أن يحتاط جيدًا كي لا يكشفه أحد، ويجب عليه أن يتجنب دائمًا أن تختلف تصرفاته عن المسلمين الحقيقيين.

أمَّا ما يخص الخامات التي بُنِيَت منها الأساطين فهي متنوعة، كذلك الأشكال الزخرفية لتيجانها. فخُمس هذه الأساطين من مادة الجرانيت العادي الذي يتواجد في ناحية الطائف وفي ضواحي مكة، وحوالي عشرين من الأساطين تتكون من الرخام السماقي الموجود في مصر، أما باقي الأساطين فمن المرمر وغالبًا المرمر الأبيض.

وبخصوص سيقان الأساطين فمنها أعمدة من ذوات البدن الأسطواني والمضلع والأملس؛ أما قواعد الأعمدة فلها طرز معمارية متنوعة وألوان شتى تُصَف بجانب بعضها، وأحيانًا تكون في وضع عكسي. وفي بعض الأساطين تكون القاعدة فوق والتاج في الأسفل، طبقًا للحالة المزاجية للبنَّاء وما يعجبه.

وتجلت روح العشوائية التي يتسم بها طراز المبنى كله، أيضًا في بناء أبواب كثيرة تتفرع من الشوارع والميادين العامة في مكة وتؤدي جميعها إلى المسجد الحرام، والتي يبلغ عددها إجماليًّا ثمانية عشر بابًا موزعة بلا خطة على الاتجاهات الأربعة لصحن المسجد. ففي الجهة الشمال غربية توجد خمسة أبواب: باب العتيق وباب الهجلة وباب الكتبة وباب الزيادة وباب الضربة. وفي الجهة الشمال شرقية توجد أربعة أبواب: باب السلام الذي ذكرته سابقًا، وباب النبي، وباب العباس (عم الرسول) وباب عليّ صهر الرسول. أمَّا في الجهة الجنوب شرقية فكانت توجد على الأقل سبعة أبواب: باب الزيت وباب البغلة وباب الصفا وباب الرحمة وباب الوصول وباب الشريف وباب حواء، وفي الجهة الجنوب غربية يوجد بابان هما باب إبراهيم وباب العمرة.

كان سقف المسجد الحرام مكسوًا بمجموعة من القباب الصغيرة مدورة الشكل ناصعة البياض، على كل جانب من جوانب صحن المسجد كان يوجد ثلاثة أضعاف هذه القباب الصغيرة والتي كان يبلغ عددها في الجانب الطولي خمس عشرة قبة على ثلاثة صفوف من الأعمدة (أي الإجمالي خمس وأربعون قبة)، وفي الجانب العرضي عشرة (أي الإجمالي ثلاثون). وبذلك نجد قبتان فوق كل خمسة أروقة، صُنِعَت هذه القباب من المعدن المطلي بالذهب على شكل نصف كرة، وتُضفي هذه القباب على المنظر الطابع الشرقي الأصيل الذي يندر أن نجده هنا سوى في هذا المكان، على الجانب الشمال شرقي لصحن المسجد يتخلل صف القباب الصغيرة ثلاث قباب كبيرة في الناحية الشرقية من باب الزيادة والتي تحتل كل منها مساحة قبتين صغيرتين، وزاد هذا التنوع في القباب من رونق وجمال المنظر هنا؛ مما جعلني أتمنى لو أن صفوف القباب المنتظمة هذه تخللتها أشكال متنوعة في أماكن أخرى غير هذا المكان أيضًا، ولكنه كما ذكرت آنفًا أن كل شيء مبنيّ على عدم التخطيط وأن كلًا من التنوع والنظام لم يكن مُخططًا لهما من قبل.

تتجلى هذه الفوضى في الطراز المعماري للمسجد بصورةٍ واضحة في طريقة صف المآذن التي يبلغ عددها سبع مآذن، لا تتطابق أي منها مع الأخرى سواء في الارتفاع أو في الشكل. في الركن الشمالي الشرقي توجد أربع مآذن فقط من هذه السبعة إذا ما أخذنا في الاعتبار المئذنتان الجانبيتان. وللمآذن هذه التي نُودِي من عليها للصلاة الأسماء التالية: منارة باب السلام، ومنارة باب الزيادة، ومنارة الكاتب ومنارة باب العمرة. وفي الركن الشمال شرقي للمسجد تقع منارة باب النبي، أما في الركن الشرقي للمسجد فتوجد منارة باب عليّ وفي الركن الجنوبي مئذنة باب النهر أو الوضوء. وكان لإطلاق الأسماء على المآذن وأبواب المسجد الحرام أسباب منطقية أكثر من كونها لها أصل، فمثلًا باب محمد وعباس وعليّ سُميَت هذه الأبواب بأسماء هؤلاء الأشخاص لأنه عند هذه النواحي كانت تقع بيوت النبي وعائلته، وباب الزيت لأنه من هذا الركن كان يُؤتى بالزيت لإنارة قناديل المسجد، فيما عدا ذلك فإن الأسماء مُتَخيلة وفي الغالب تدعو للسخرية مثل باب البغل وباب الضرب.

تعتبر المئذنة الثانية هي أكثر المآذن ارتفاعًا والتي تتكون من ثلاثة أدوار فوق بعضها، والتي كان ينادي من عليها المؤذن للصلاة، أما أصغرهن وأكثرهن رونقًا وجمالًا فكانت المئذنة الخامسة التي كانت فوق باب النبي، وبُنيَت كل هذه المآذن على دورين، أي لهن شرفتين دائريتين تحيطان بعصب المئذنة فيما عدا المئذنة الثانية. وكانت هذه المآذن مدورة ما عدا اثنتان، الخامسة والسادسة فكانت لهما شرفة واحدة كانت إحداهما مضلعة ذات خمسة أضلع والأخرى مربعة؛ أي أن قاعدتها أعرض من غطاء المئذنة. ووُضِعت على هذه المآذن السبعة أهلة مذهَّبة وكان يرفع عليهنّ في كل وقت من أوقات الصلوات لواء أبيض ويوم الجمعة اللواء الأخضر في نفس ذلك الوقت الذي يقف فيه المؤذن في شرفة المئذنة لينادي للصلاة، الذي هو عبارة عن ترديد الشهادتين بطرق تختلف في المقامات وحسب المذاهب الفقهية الأربعة: الحنفية، والمالكية والحنبلية والشافعية؛ لأنه فيما عدا ذلك من مذاهب لم يُسمَح لأصحابها بخدمة المسجد. أمَّا أتباع مذهب الحنفية فكان أكثرهم من الأتراك الذين كانوا يرددون الآذان بطرق مختلفة أكثر من باقي المذاهب الثلاثة الأخرى، فقد كانوا يجعلون من الآذان أنشودة حقيقية بينما تميز أتباع المذهب المالكي ببساطة طريقتهم في الآذان. كل ذلك أعطى لأوقات الصلاة هنا طابعًا مميزًا عندما يقف المرء في أحد أوقات الصلاة في صحن المسجد وفجأة ترفرف الألوية البيضاء السبعة على قمة هذه المنارات ويقف المؤذنون في شرفاتها ويُسمع الآذان منهم بطرق مختلفة طبقًا للمذاهب الأربعة في نفس الوقت. كنت أدخل إلى المسجد لأشهد هذه المسرحية الفريدة من نوعها.

ولسوف يلتمس القارئ لي العذر أني لم أصرف جل اهتمامي بالمكان المقدس مكة وصرفته إلى المسجد الحرام بملاحظاتي المفصلة تلك، ولكي لا أكرر الكلام مرة أخرى فإني قد وجدت من المناسب أن أعمل كل جهدي لرصد كل ما وجدته هامًا عن المسجد الحرام وفنه المعماري في تدويناتي أثناء زيارتي الأولى للمسجد، بينما أخص الفصول التالية بوصف الكعبة ونزهتي حولها وباقي الأماكن المقدسة المنتشرة في صحن المسجد.



الفصل الحادي عشر
مكة - نُزهة حول الكعبة

الانتقال إلى الحرم - رؤية الكعبة لأول مرة - انطباع غريب انتابني لرؤيتها - مقام إبراهيم - تحية المسجد - الشرب من ماء زمزم - حشود الحجاج المنيعة حول الحجر الأسود - كمية من الحشرات - الصلاة على بعد مسافة من الحجر الأسود - الوصول إلى الحجر الأسود بواسطة خدعة من دليلي - روايات شتى عن الحجر الأسود - آراء الكتاب المسيحيين والعرب عن هذا الحجر - قصته - شكله - الشعائر والصلاة بجانب الحجر - مما يتكون الحجر؟ - أبواب الكعبة - مقام إبراهيم - الميزاب - قبر إسماعيل - الركن السوري - الركن اليماني - الحجر الأبيض.

ألقيت نظرة واحدة عند دخولي المسجد الحرام لأول مرة ومكثت على مرأى منه؛ لأن كل ما كتبته في الفصل السابق لم يكن محصلة للمرة الأولى البتة؛ ولكن كان نتيجة لعدة مشاهدات متتالية للمبنى تكررت كلما زرت المسجد من جديد.

قبل الدخول إلى بهو المسجد كل مرة حيث تُوجَد الكعبة وباقي الأماكن المقدسة كان يجب على التملص من شرط أن أصلي ركعتين واجبتين على كل حاج كتحية للمسجد بوجه عام، بينما يجب على الحاج أن يصلي فيها بعد ركعتين تحية للكعبة في مكان محدد لذلك، قبل أن يُسمح له بالتجول بالقرب منها. بعدها أمسكني دليلي صادق بن حنيفة من يدي اليمنى والحاج عمر السمين من يدي اليسرى ودخلا بصحبتي على الفور إلى منتصف بهو المسجد حيث تتسيّد الكعبة أشرف بقاع الأرض وأشرف مكان هناك.

هنا كانت تقع الكعبة[1] في وسط المسجد الحرام على شكل حجرة كبيرة لها أربعة أضلاع مظلمة كئيبة مقطوعة بشكل رديء، تخلو من الذوق الفني المرهف، لها طابع قاس وجاف كما كان الحال في البدايات البربرية للفن المعماري[2]. هنا تقع الكعبة الهدف الأساس من رحلتي للحج ومركز العالم الإسلامي، مرتفعة عن كل ما يحيط بها، أكثر ارتفاعًا عن المسجد والصحن المحيط به وأعلى من كل الأماكن المقدسة المنتشرة حولها؛ على الرغم من أنها في حد ذاتها ليست عالية جدًّا، فارتفاعها يبلغ أربعين قدما؛ لكنها تبدو شاهقة عما حولها بسبب انخفاض مستوى باقي أجزاء المسجد الحرام حولها عن عمد، مما يجعل الكعبة ظاهرة للحاج دون بذل جهد ولا تكبد عناء للبحث عنها، وكأنها ترحب الكعبة بالحجيج الذين يأتون إليها وتحثهم على الانحناء أمامها وتحية هذه الكتلة الحجرية التي تدعو رؤيتها إلى الشعور بالكآبة.

إنَّ الكعبة التي سُميت كذلك لأنها على شكل مكعب، هي في الحقيقة ليست مكعبًا؛ لأن ارتفاعها يكاد يبلغ ضعف طولها وعرضها؛ لكنها بالرغم من هذا الشكل الغريب البسيط تثير دهشة من يراها للمرة الأولى. إن هذه الحالة التي عليها الكعبة، حيث ترتكز على قاعدة قصيرة وضيقة نسبيًا في حالة مقارنتها بأماكن التعبُد الأخرى، يجعلها تختلف بشكلٍ واضح عن باقي المقدسات الدينية التي بُنيَت على طراز الفن البربري في العصور القديمة والتي تتسم غالبيتها بالذوق الفني المبتذل[3]. هذه الغرابة في شكل الكعبة بالإضافة إلى شكلها الخارجي الكئيب وموقعها المميز في وسط الحرم المكي وباقي المقدسات التي تنتشر حولها، والحشود الكبيرة من المتعصبين العارية أنصاف أجسادهم، الذين سيركعون حالًا أمامها بحماسٍ محموم ثم ينتفضون واقفين كي يقبلوها هي

١ تقول بعض الروايات أن سبب تسمية البيت الحرام بالكعبة لتربيعها، والعرب تُسمى كل بيت مربع بالكعبة، وقال ابن الأثير في النهاية أن كل شيء علا وارتفع فهو كعبة. (المترجمة)

٢ كان يتميز عصر الرسول عليه الصلاة والسلام بالبساطة والخشونة والتقشف، ولم يكن المجتمع وقتذاك مرتعًا خصبًا للفنون بأنواعها، وقد نشأ الفن البربري في المغرب القديم وتأثر هذا الفن بالطراز الفرعوني في هندسة البناء وبالتأثيرات العربية السابقة على الإسلام في التصميمات المعمارية. (المترجمة)

٣ كانت من عادة العرب قبل الإسلام أن يقوموا ببناء ضريح حول الشهاب الساقط من السماء ويقدّسون ذلك الشهاب وعادة ما يكون مكعبًا وبالتالي كانوا يدعونه بالكعبة. ومن المعروف أنه كانت هناك العديد من الكعبات في الجزيرة العربية تم بناؤها جميعًا كأضرحة لشهب ساقطة من السماء، ومن أشهر تلك الكعبات كعبة نجران وكعبة شداد الأيادي وكعبة ذي الشرى وكعبة رحيم وبيت ذي الخلصة (الكعبة اليمانية). (المترجمة)

والأماكن المقدسة حولها بأفواههم وقلوبهم ويطوفون حولها في سباقٍ جنوني، كل ذلك لا يقلل من الانطباع الهائل أو ما أقصده المرعب الذي يثيره هذا الشكل الغريب. حتى أنا أيضًا لم أسلم من تأثير هذا الفزع على نفسي، فقد تأثرتُ جدا بهذا المشهد الذي يُعرَض أمامي، وفي هذه اللحظة نسيت نفسي تمامًا، ولم أفكر البتة في الحظ الذي حالفني وبلوغي هدفي لكوني واحدًا من الأوربيين القلائل الذين سُمِح لهم برؤية الكعبة المشرفة. فقد كان هذا المشهد الفريد من نوعه هو كل ما يشغل عقلي وفكري، بل سيطر عليهما تمامًا. فقد بدت لي هذه الكعبة كقلعة مظلمة للشياطين، أو كأنها كائن خرافي قزم يزيد الأعباء على الديانة الإسلامية ويمنع أي محاولة ازدهار في هذا الدين. ولكن حدسي ساعدني فجأة أن أستشف هذه المكانة القاتمة لمعبد الأصنام هذا، فكل ما يخص الكعبة وعبادة الحج بعيد تمامًا عن التوحيد الخالص لأنها كلها مما لاشك فيه ليست إلّا مكانًا تُمارس فيه الطقوس الوثنية، ولهذا يمكننا أن ندرك بسهولة أن محمدًا ﷺ قد أدرج هذا العنصر الوثني في دينه لكي يضم إلى دينه المزيد من أتباعه العرب الوثنيين المتعصبين وبذلك يكون ختم دينه بطقوس العبادة الوحشية البربرية.

وعن انطباعاتي لرؤية أكثر الأماكن المقدسة في العالم الإسلامي رأيت أنه يتوجَّب على أن أدع تلك الرهبة التي اجتاحتني في ذلك اليوم جانبًا، وساعدني المُطوِّف على أن أبتعد عن تأملاتي حول ذلك المكان التي أمعنتُ فيها في هدوء قبل أن ينبهني إلى واجبات الحج التي يتعين على كل حاج إتمامها. أول هذه الواجبات أن أصلي ركعتين تحية للبيت الحرام عند باب السلام (لأنه يوجد باب عند المدخل والآخر في وسط صحن المسجد)، ثم دلفت من باب السلام الذي هو عبارة عن قوس مدور منفرد بذاته تمامًا، ويبلغ ارتفاعه عشرين قدما تقريبًا، إلى مقام إبراهيم الذي يقع في الطريق من باب السلام إلى الكعبة، وهناك سمعت "الله أكبر" والتي يُطلق عليها التكبير، والتهليل "لا إله إلا الله".

وبمجرد أن شرعت في ترديد هاتين العبارتين أتى لي اثنان من خُدَّام الحرم بإناء ملآن بماء من بئر زمزم الذي يقع على شمال مقام إبراهيم وأعطوني ماءا للشرب من هذه البئر المباركة، كل ذلك بالطبع في مقابل مبلغ من المال؛ لأنه لا يوجد شيء في المسجد الحرام

بلا مقابل، حتى الهواء الذي نتنفسه يجب أن ندفع ثمنه. وهذا الماء الذي يعتقد المسلمون في خصائصه المباركة ليس مستساغًا لشاربه ولا يساعد على الهضم، بل له مذاق مر وينزل ثقيلًا على المعدة، كما أنه يحتوي على مكونات معدنية كثيرة لا توجد في أي مياه أخرى صالحة للشرب. ولكنهم يعتبرونه معجزة، فَمَن يشربه سوف يدخل الجنة، ويتمتع في الدنيا بالمزيد من الكرامات التي كان يجب أن ينهل البعض منها؛ لكني لم استشعر أيا منها البتة، فالنساء اللاتي يشربن الماء ينعمن بشباب دائم والعاقر منهن سوف تنعم بالذرية من الأولاد ولن يقف أي عائق أمام الزيجات الكثيرة المؤقتة التي تُعقَد هنا.

بيد أني لم أتمكن من الوصول إلى بئر زمزم؛ لأنه كان يتوَّجب على تقبيل الحجر الأسود وإتمام الطواف حول الكعبة، واقتربنا صوب الكعبة من الركن الشرقي حيث يوجد الحجر الأسود مُحاطًا بجدار يبلغ ارتفاعه عن الأرض حوالي خمسة أقدام، في بادئ الأمر لم أتمكن من رؤيته نظرًا للزحام الشديد حوله وصدَّقت كلام صادق أنه يوجد هنا، ولكن لأن الحجاج الذين أحاطوه من قصار القامة، تمكنت من حينٍ لآخر من إلقاء نظرة عليه خاصةً عندما كان يقف أمامه حاج قصير، وبمقدار ما استطعت من تمييز يمكن أن أقول أن طول هذا الحجر ثمانية بوصات وكذلك عرضه، كان لونه متسخًا يجمع بين الأسود والبني؛ لذا بدا هذا الجدار الذي يحيطه مبالغًا فيه.

لم يكن ممكنًا أن أمسحه بيدي نظرًا لهذه الجموع الغفيرة من الحجاج الذين كانوا يطوفون حوله وآخرين يركعون وحشد آخر يقبلونه، كما لو أن أجساد هؤلاء الحجيج كانت جدارًا آخرَ حول الحجر لا يمكن زحزحته. ولأنهم توجهوا جميعهم بوجوههم صوب الحجر الأسود لم أر سوى عظام أكتافهم والرؤوس الصلعاء والخرق القذرة التي تظهر لي من ملابس الإحرام لهؤلاء الحجيج، ولم يكن هذا الحجر الأسود نقطة تلاق لأتباع محمد ﷺ من جميع أنحاء العالم فقط؛ بل للحشرات أيضًا من كل صوبٍ وحدبٍ. فهنا تواعد هذا الوحش مع الحشرات الزاحفة والقافزة. فلم يغب عنا هنا الحيوانات الخضراء الصغيرة النشطة جدًّا والتي لن يذكرها أي أوربي مهذب سوى عند الضرورة، ولا الحشرات البيضاء التي من نفس الفصيلة، بالإضافة إلى ذلك البعوض البني المدور

الذي عرفناه أحيانًا من الأسِرة في هذه الفنادق القذرة. تحتفي هنا البعوضة الحلقية المصرية على وجه الخصوص بانتصاراتها البارعة وتتغذى باقي الأنواع المختلفة من البعوض بشكل رئيسي على دماء الحجيج الضعفاء، التي تفتقر دماؤهم إلى الحديد. باختصار بدا الأمر لي كما لو أن هذه الحشرات والحيوانات قد أجلت رحلة حجها إلى مكة والحجر الأسود وكأنها حيلة قُمن بها حتى يحملها هؤلاء الحجيج على أجسادهم، وعلاوةً على ذلك يقدمون لها دماءهم طعامًا. كانت كل هذه الوحوش التي تقفز وتركض على دراية وعلم بهذه الحشرات؛ لكنها كانت فطرة مترسِّخة في هذه الجموع أنها في أكثر الأماكن أمانا في العالم، ولن يتمتعوا بحصانة ومناعة مثلما يجدوا هنا، حيث لم يُسمَح لأي أحد بلي شعرة لأيٍّ من هذه الحشرات؛ لأنه يَحرُم على الحاج لمس الحشرات الطفيلية وإبعادها لأنه بذلك قد يؤذيها، وإلا فعليه الفدية والإثم.

لذلك استمتع هؤلاء الطغاة الصغار بانتصارهم كليةً وعاشوا في رغد وسرور على دماء الحجيج، وكاتب هذه الكلمات ليس أحسن حالًا من هؤلاء الحجيج؛ فإذا كان قد استطاع أن ينجو من هذه الحشرات الشيوعية، شيوعية الملكية الوحيدة الممكنة على الأرض، فإن كل محاولات الوقاية بعد ذلك قد أخفقت. لقد هاجمني جيش كامل من الحشرات الواثبة والقافزة وتسلقت على ظهري وصدري وصالت وجالت في لحيتي وشعري، وأحدثت انتعاشًا في الإحرام، وتعالت صيحاتها أثناء احتفالها بالفوز.

ولأنه كان أمرًا مستحيلًا الوصول إلى الحجر، فقد سألت المطوِّف عن إمكانية تأجيل تقبيل الحجر لوقتٍ لاحق والشروع الآن في الطواف حول الكعبة؛ لكن صادق أوضح لي وكان على حق أنه سيكون الأمر أصعب بعد ذلك، وأنه ينبغي أن ننتظر هنا بعض اللحظات؛ لأنه سيتعين علينا في وقت لاحق بذل المزيد من الجهد لنصل لهذا الوحش الأسود وأنه من الأفضل الانتظار هنا حتى يقل عدد هذا الجمع بعض الشيء ونجد منفذًا للوصول إلى الحجر. وانتظرنا حوالي ربع ساعة بجانب الحجر الأسود في وسط معركة الحشرات هذه التي وقفنا فيها مغلوبين على أمرنا. استغل المُطوِّف هذا الوقت لكي يردد أمامي هذا الدعاء الذي كان يتوَجَّب على ترديده:

"لبيك اللهم وحدك لا شريك لك. صدقت وعدك ونصرت عبدك، لا شريك لك وحدك والملك لك. لك الحمد يا رب العالمين.[١]"

وبعد أن انتظرنا حوالي ربع ساعة بلا جدوى حتى يقل عدد الحجيج حول الحجر أو تظهر بارقة أمل كي أصل إلى الحجر، بدأ ينفد صبري ولعنت هذا التعصب الأعمى الذي جعل هؤلاء يصرون على الوقوف أمامه ويستحوذون عليه وكأنه سلطانية مملوءة بأرز البيلاو أو بالكسكس يريدون أن يلتهموها، وسألت المُطوِّف متلهفًا عما إذا كانت توجد طريقة تجعل هؤلاء الحجاج ينصرفون عن الحجر، فأجابني كي يريحني بأنه توجد طريقة، بالأحرى طريقتان؛ الأولى هي شق الطريق بين هؤلاء الحجيج إلى الحجر بالقوة ولكننا لن نستطع فعل ذلك وأشار صادق إلى ذراعيه النحيلتين الضعيفتين وقال إذن لا مناص من الحيلة والدهاء.

سألتُ المُطوِّف:

"أية حيلة إذن تقصد؟"

أجابني المطوِّف:

"إنها خدعة بريئة ولكنها ستكلفك ريالًا لو أردت أن ننفذها."

بكل شغف أعطيته ما طلب كي أتعرف على خدعة المُطوِّف الذي ابتعد عني برهة وتركني وحدي، وعلى بعد حوالي عشرين خطوة من بئر زمزم ظهر مرة أخرى ولكن بصحبة أربعة من الرجال الأقوياء من بينهم اثنين من المولاتو[٢] وقد دفعهما للوقوف خلف هذه الجموع من الحجيج وخلف الحجر الأسود نفسه.

وبعد أن أعطاهم صادق إشارة البدء شرع الرجال الأربعة في الصياح بأعلى قوة لطبقات صوتهم العميقة:

١ لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك. لا شريك لك. (المراجع).

٢ لتمييز الأجناس والأعراق، كان يتم تصنيف الإنسان في أوروبا بين أبيض وهندي وأسود وما اختلط بينهما مولاتو بحكم خصائص الوجه واللون. والمولاتو هو نتاج اختلاط «الأبيض» مع «الأسود». وأصل كلمة مولاتو (بالإسبانية: Mulato يعود إلى مولو «mulo» بغل). (الموسوعة الحرة ويكيبيديا). (المترجمة)

"أيها الحجاج لقد تبرع أحد الحجاج الأتقياء بارك الله فيه اليوم لكي تشربوا جميعًا من ماء زمزم المبارك بدون مقابل، هلموا إلى هنا جميعًا. مَن يريد منكم أن يشرب من ماء زمزم بلا مقابل فليأت! إنه هدية الله لكم..." وهكذا دواليك!

كانت هذه هي الخدعة التي اقترحها صادق على وقد نجحت تمامًا لأن غالبية الحجيج الذين يحيطون الحجر الأسود كانوا فقراء وطبقًا للتصور الأوربي نصف شحاذين، ولم يكن ليضيِّعوا فرصة الشرب من ماء زمزم بدون مقابل، وبذلك استمتعت بمشاهدة كيف ركض أغلبيتهم وتبعوا هؤلاء الرجال، وكانت توجد جماعة أخرى من الحجيج اكتظت في نفس اللحظة وشرعت في التوافد صوب الحجر الأسود؛ لكن لأني كنت أقف في مقدمة الصفوف خلف المجوعة الأولى من المتعبّدين تمكنت الآن بعد إزاحة الرجل الواقف أمامي أن أقف قريبًا جدًا أمام الحجر، وبسبب دفع الحشود المتوافدة لي من الخلف سرعان ما لبثت أقف في أول صف من المحيطين بالحجر الأسود.

لقد تمكنت من لمس الحجر مباشرة، الذي يُعَد من أشرف المقدسات في الإسلام، الذي عكفت على دراسة قصته وتاريخه لعدة سنين، وكنت أعرف تقريبًا قصته وما حُكي عنه عبر السنين: لقد كان هذا الحجر في الأزل عبارة عن كائن حي، وبالأحرى ملاك حارس في الجنة، وجاء إلى الأرض مع آدم على هيئة حجر، ترك جنات النعيم واستقر هنا أمام البيت الحرام الكعبة وصار من المقدسات حتى هُدِمت الكعبة بسبب السيول، ثم اختفى هذا الوحش الأسود تمامًا حتى بنى إبراهيم وولده إسماعيل الكعبة من جديد فأحضره جبريل من السماء إلى الأرض على الرغم من قوانين الجاذبية ليضعه هنا في هذا الركن في اتجاه مدينة البصرة، حيث استقر هناك بعد عدة تنقلات أعقبت حادثة القرامطة الذين سرقوه لعدة سنين. ومن الشائع بين المسلمين أن هذا الحجر كان أبيض مثل الحليب ولكنه اسودَّ بسبب ذنوب البشر وأصبح أسودًا مثل الحبر.

وذكر الكاتب العربي أحمد بن يوسف في كتاب (Specimina historiae Arabum) لمؤلفه (Pococke) أن هذا الحجر لونه الخارجي فقط أسود، وقد تحول لهذا اللون بسبب تقبيل الحجيج، الذين تكون شفاههم متسخة؛ بينما داخله مازال حتى يومنا هذا شديد

البياض مثل اللبن كما كان قبل ذلك، وأطلق عليه الحجر البرّاق (وأوضح السمعاني[1] أنه سُميَ بذلك بسبب شدة لمعان الحجر وسطوعه) والمبارك (من الفعل بارك) ومن أسمائه أيضًا "اللامع" (Assemanus de Manuscriptis bibliothecae Clementi-no-Vaticanae. Rom 1728)

ولقد عارض مفسر القرآن سنجر الرواية التي قيلت بشأن الحجر الأسود أنه كان موجودًا في السماء (الجنة) في الفترة ما بين الطوفان وبناء إبراهيم للكعبة، حيث شدد سنجر في تفسيره لسورة البقرة على أن الحجر وُجِد في مكة في مكان الكعبة؛ لذلك أُمِرَ إبراهيم ببناء الكعبة في هذا المكان.

كما أُطلِقت على الحجر عدة ألقاب مبالغ فيها نوعًا ما مثل "أمين الله في الأرض"، ثم نجد بعض المسلمين يدَّعون أن الدين الإسلامي كان يحرم عبادة الأصنام. لا لم يكن ذلك صحيحًا؛ فالإسلام لم يأت بشيء جديد سوى أن جاء بهذا الوحش البربري الأسود الأخرق، الكتلة الحجرية الصمّاء، لتحل محل المباني المعمارية ذات الطراز الفني الجميل في العصور القديمة.

لقد نُسِبت للحجر الكثير من صفات المعجزات؛ على سبيل المثال عندما اختفى الحجر ظهرت علامات إعجازية لا تشوبها شائبة استدلوا بها عليه. ومن بين الخصائص المذهلة التي يتميز بها الحجر أنه يطفو على الماء ولا يهبط للقاع أبدًا، وأخبر احمد بن يوسف أنه عن طريق هذه الخصلة استدلينا علي الحجر الأسود الأصلي بعد أن سرقه القرامطة واستعاده أهل مكة مرة أخرى.

ولم يتخل الحجر عن صفاته التي كان عليها في الجنة كملاك آنذاك، فقد قَبل أن يكون حجرًا على الأرض في هذه المدة الوجيزة تعزيةً للمؤمنين، الذين يعتقدون أن هذا الحجر سوف يستعيد هيئته تلك يوم القيامة، وسيظهر له أنف وفم وعينين ويدين ورجلين، وسيقف أمام العرش يشهد لِمَن حج إليه في الحياة الدنيا ولِمَن قبله بحفاوة ولِمَن وقره وقدسه.

---

[1] المقصود به يوسف بن سمعان السمعاني كان أسقف وعلامة ماروني عرف بنشاطه بجمع وترجمة المخطوطات المسيحية السريانية في الشرق الأوسط كما كان أول مشرف على مكتبة الفاتيكان. (المترجمة)

أمَّا ما يتعلق بباقي قصة الحجر الأسود فإنه أمر مفروغ منه أن الحجر كان موجودًا هنا منذ العصور القديمـة؛ لكني أعتقد أنه منَ الخطأ لو اعتقدنا أن أمر عبادته قد بدأ قبل محمد ﷺ بعدة قرون. كما أنه من الواضح أن حكاية بقاء إبراهيم في مكة وبناء الكعبة ووضعه الحجر ستظل علامة استفهام لكل مؤرخ ولا يمكن تأكيدها. ولكن متى بدأت عبادة هذا الحجر؟ تاريخيًا لا نعلم وقتًا محددًا للإجابة على هذا السؤال؛ فالكتاب المسلمون الذين أخبرونا بتاريخ العرب قبل محمد اتفقوا جميعًا على أن الناس قد عبدوا هذا الحجر قبل الإسلام؛ لكنهم لم يتبيَّنوا التوقيت الصحيح لبدء هذه العبادة، وتضاربت الآراء فيما بينهم بشأن هذا الأمر. ونجد هذه البلبلة عند قراءة آراء الكتاب المسيحيين بهذا الصدد، الذين كتبوا عن الإسلام بعد الهجرة بعدة قرون. وبالرغم من غياب الأخبار التاريخية المضمونة عن الحجر الأسود فإني أريد أن أسرد هنا باختصار أهم ما كُتِب عن أهم مقدسات الإسلام الحجر الأسود.

يُعَد عالم اللاهوت كليمنس اليكسندرينووس (Clemens Alexandrinus) أول مَن كتب عن الحجر الذي عبده الوثنيون وذكر بالحرف: "العرب عبدوا الحجر في الجاهلية" (Olim Arabes lapidem adorabant).

وتحدث ماكسيموس تيريوس (Maximus Tyrius) في خطبة تتكون من ثمانمائة صفحة عن إله العرب الذي لا نعرف الكثير عن عبادته، الذي يرمزون إليه بحجر مكعب كدليل على سلطته في السماء، والذي رآه ماكسيموس تيريوس بنفسه، ولكنه خلط هنا بين الحجر الأسود والكعبة ذات الأربعة جدران؛ لأن الحجر ليس مربع الشكل، والكعبة عبارة عن بيت وليست تمثالا، ويعتري الشك مزاعم ماكسيموس أنه كان في مكة ورأي الحجر.

وذكر سفيداس (Svidas) في أحد تعليقاته أن صنم العرب عبارة عن حجر أسود رباعي الزوايا وشكله الخارجي غير منتظم يبلغ ارتفاعه أربعة أقدام بعيدًا عن الأرض وعرضه قدمين ويرتكز على قاعدة من الذهب.

مما سبق يتضح لنا أن العرب قد عبدوا وثنًا على شكل حجر؛ أما بخصوص معتقداتهم عن هذا الحجر فقد حاول أويتيميوس تسيجابينوس (Euthymius Zigabenus) أن

يوضح لنا ذلك في سلسلة الأعمال (Panopila) فادعى أن هذا الحجر ليس إلا رأس آلهة الجمال فينوس التي عبدها الإسماعيلية في العصور القديمة.

لكنها فكرة غريبة جدًا؛ فكيف لهذا الحجر غير المنتظم الشكل أن يكون رأس آلهة الجمال فينوس؟!

وقد ذكر أويتيميوس نفسه أيضًا أن العرب كانوا يفضلون صنمين رئيسين بين سائر الأصنام، وأراد أن يبرهن على أن هذين الصنمين هما باخوس وفينوس، وقد أطلقوا عليهما اسمي الله وأكبر، ومنها جاءت عبارة التكبير "الله أكبر" والتي أساسها "الله وأكبر" أي باخوس وفينوس. وبناءًا على ذلك يكون التكبير القائم على التوحيد منبثقًا من أصلٍ وثني خالص. سوف أتناول لاحقًا قصة الكعبة وعبادة الأنصاب لدى العرب قبل الإسلام بشيء من التفصيل، ولأننا هنا بمعرض الحديث عن الحجر الأسود أريد أن أذكر ملاحظتي أن أويتيميوس الذي كان يرى الحجر رمزًا لأكبر أو فينوس أو كما لقبه العرب أيضًا بالزهرة والعزة، قد زعم أنه على الحجر الأسود نفسه كان يوجد نحت غائر لفينوس. ويعطى لنا أويتيميوس سببًا مأخوذًا من الخرافات الوثنية لتعليل لون الحجر الأسود؛ فالرواية التي يعتمد عليها تقول أن الحجر كان في الماضي القديم لونه أبيض ولكنه اسودَّ من مس الحيض في الجاهلية. أي أنه كان هناك طقس لدى الجاهليين تؤديه النساء في الحجر، وهو الحج إليه ومس الحجر الأسود بدماء الحيض وأجسادهن، وبذلك اعتدن على تلويث الحجر (كما كانت تفعل الشعوب السلتية القديمة بصخور الدولمن في منطقة بريتاني بفرنسا)، ويحاول أويتيميوس أن يوضح كيف فقد الحجر لونه الأصلي بسبب لمسه وتقبيله. ولابد من الاعتراف بأن هذه الاحتكاكات بالحجر يتبعها شهوة قوية في تقبيله.

وبقدر ما بذله اويتيميوس من مجهود في تناول هذه الرواية الوثنية، فقد بدأ أيضًا في تناول الأساطير التي وردت في الإنجيل وعلى لسان المسلمين وبذلك يعلل سر قدسية هذا الحجر بأنه كان سرير الزوجية لإبراهيم وهاجر وعليه أُنجِب البطريق إسماعيل.

يجب أن أعترف هنا أن البطريق لم يكن لديه أدنى معرفة بالوسائل العصرية بشأن الراحة عندما اختار لنفسه مهادًا صلبًا وصغيرًا مثل هذا الحجر.

نستطيع أن نستخلص من كل هذه الشهادات السابقة أن العرب قد عبدوا الحجر بالفعل قبل مجيء محمد؛ لكن لا نستطيع أن نقدم إجابة دقيقة عن المدة التي استمرت فيها عبادته؛ لكنه من المؤكد أن محمدا عاصر عبادة العرب للأنصاب في عز انتصاراته؛ لكنه لم يجرؤ على استبعاد هذه الطقوس الوثنية من دينه، والذي تتعارض دعوته للتوحيد مع عبادة الأوثان. لكن محمدًا كان يعلم ذلك تمامًا.

إن العبادة التي أساسها الحنيفية وهو التوحيد الخالص لا تستوعب هؤلاء الوثنيين العنيدين كما كان حال العرب في الجاهلية، والذين لن يكونوا راضين عن عبادة الله بالروح والحق؛ لأن التوحيد سينزع عن الكعبة قدسيتها وسيلغي مكانة مكة المفضلة على سائر بقاع الأرض؛ ولذا قرَّر محمد أن يجعل من هذه الضراء فضيلة والإبقاء على هذا المعبد أي الكعبة والأماكن المقدسة المتناثرة حولها، وأضفى عليها قدسية التوحيد من خلال لي عنق نص قصص الإنجيل عن إبراهيم وإسماعيل، التي حُكيت في القرآن بطريقة مختلفة تتناقض كثيرًا مع الإنجيل.

اكتسب الحجر الأسود طابعه القدسي عن طريق ذكره في سياق قصة إبراهيم، ولهذا الغرض زُعم في القصة أن جبريل أتي بالحجر من السماء وأعطاه لإبراهيم.

محمد نفسه كان قدوة في تقديس هذا الحجر، فقد قبله وضمه إليه وتبعه في ذلك بعض أتباعه من الشباب المتحمسين الذين لا يمنعهم التوحيد من رؤية ما هو أقدس وأهم وهو اتِّباع نبيهم، وقيل أن عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء المسلمين وقف أمام الحجر وقال: **"إني لأعلم أنك حجر أصم لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت محمدا رسول الله يقبلك ما فعلت ذلك"**.

إنَّ هذا الحجر الذي يزعم المسلمون أنه غير قابل للتدمير قد فقد هذه السمة المميزة له وابتعد عن مكانه الهادئ في ركن البصرة عندما سرقه القرامطة في عام ٩٢٦ م وأخذوه معهم حتى عاد من نفسه مرة أخرى إلى مكانه في عام ٩٥٠م، وبعد مرور قرن على هذه الحادثة أمر الخليفة المجنون الحاكم بأمر الله بتحطيمه بواسطة صولجان من الحديد. علاوةً على ذلك عاصر الحجر الأسود على مر عدة قرون المزيد من الكوارث مثل السيول

والحرائق لأن الكعبة قد أُحرقت وهُدِمَت بسبب الأمطار الجارفة، وأعتقد أن ما حدث له بسبب هذه الكوارث أمر هين بالمقارنة بوابل قبلات الحجيج له؛ لأنه من المعلوم أن الخام والحديد تفقدان كتلتهما بمرور القرون بسبب التقبيل والاحتكاك المتكرر مثلما حدث في تمثال بيتر في روما الذي كان يقبله الناس حتى أصابع القدم.

وفي كل مرة كان يُحطم فيها الحجر؛ لأن المرة التي أمر فيها الحاكم بأمر الله بتحطيمه لم تكن الأولى، كانت تُجمَع أجزاؤه بعناية وتحفظ في إطارٍ معدني قوي.

وأرى الآن مباشرة نصب عيني هذا الحجر الأسود أو الحجرة السوداء بصيغة المؤنث كما يسميه البعض هنا، لونه يجمع بين الأسود والبني، وتعلوه طبقة من الأسمنت لها نفس اللون، وفي المقدمة توجد فتحة يمكن من خلالها رؤيته، وقد بدا لي شكل الحجر إهليجي، ويبلغ طوله حوالي تسع بوصات وعرضه ربما يصل إلى ست بوصات. ويتكون الحجر من عدة أجزاء جرَّاء ما اعتراه من محاولات لتحطيمه على مر الزمن. وقد جُمعَت هذه الأجزاء جنب بعضها البعض وتم تثبيتها على حجر من الإسمنت، وعلاوةً على ذلك أُحيط بإطار من المعدن المتين سطحه الخارجي مصقول بسبب تقبيله بشفاه الحجيج المتسخة وحك أيديهم فيه، ومُغطى بطبقة دهنية حتى بدا لي كأنه قطعة من الرخام لونها أسود أو بني يميل للسواد.

بالرغم من أن كل شيء بدا لي مقززًا في البداية؛ إلا أنه توجَّب على الآن أن أقبل هذا الوحش الأسود بدون تردد كبير، ثم مسحت يدي وجبهتي ووجنتي ثم ذقني، كما كان يريني صادق ماذا يجب على فعله، مرددًا هذا الدعاء:

"اللهم إيمانًا بك وتصديقًا بكتابك ووفاءً بعهدك وإتباعًا لسنة نبيك محمد ﷺ. اللهم إني مددت لك يدي اليمنى وكلي شوق إليك، فاستجب لدعائي واحفظني من كل شر، جئتك نادمًا فاغفر زلتي!"

بعد الانتهاء من هذا الدعاء قبلنا الحجر الأسود مرة أخرى ومسحنا جبهتنا وأيادينا فيه وانصرفنا أخيرًا لكي نبدأ الطواف، وتكبدنا عناء الخروج من صفوف هذه الحشود التي اكتظت وأحاطت بالحجر مثلما دلفنا إليه أيضًا بعد عناء كبير.

وقبل أن أترك الكلام عن الحجر الأسود أريد أن أجيب على سؤال بخصوص ماهية الحجر الأسود ومن أي مادة يتكون. يجب أن أقر أني في حيرة كبيرة عند الإجابة على هذا السؤال؛ لأنه من الصعب جدًا تعيين هذا الأمر خاصةً ان الحجر موجودة حوله طبقة من الوسخ ومادة دهنية. لقد قال عنه بوركهاردت (Burckhardt) أنه حجر بركاني لسببين: أولهما لأنه يحتوي على مكونات بيضاء وصفراء كتلك التي توجد في الأحجار البركانية وكذلك لأن سطحه الخارجي مسامي، والسبب الثاني هو خفة وزنه غير العادية، التي لم يختبرها أحد من المسلمين من قبل؛ لكنهم يؤمنون بذلك عن ظهر قلب. هذا اللون الذي يجمع بين البني والأسود الذي ذكره بوركهاردت لا يمكن رؤيته الآن على الحجر، وهذا الأمر ينسحب أيضًا على الخاصية المسامية للحجر فقد أضحت أمرًا عليه خلاف. وعلى النقيض من ذلك يزعم بورتون (Burton) عن قناعة أن الحجر الأسود حجر نيزكي. لا أريد أن أرفض هذا الرأي قطعيًا؛ بالرغم من أني أراه غير صحيح كليةً. فمن المعروف أنه توجد ثلاثة أنواع لهذه النيازك وهي المعدنية والحجرية والجيرية، ولو قلنا بأن الحجر الأسود من النوع الأول وهو المعدني الذي يتكون من عنصر واحد فقط وهو الحديد، فذلك أمر مرفوض تمامًا؛ لأنه لو كان كذلك لكان قد ذاب وتفتت بكل سهولة. أما قصره على النوع الثالث وهو الجيري فسيكون مخاطرة كبيرة؛ لأن هذا النوع نادر جدًا ولا يوجد حتى الآن سوى حجر نيزكي جيري واحد. أما النوع الثالث أي الحجري الذي يتكون أيضًا من الحديد إلى جانب النيكل، وعلى الرغم من ذلك فاسمه حجري؛ أي لا يحتوي على أي مكونات معدنية، فهذا النوع من الأحجار أعرفه بسبب زياراتي المتعددة لمتاحف أوربا لدرجة أني أستطيع أن أعطى رأيًا جازمًا بشأن الحجر الأسود في مكة. ولذا أبرز من جديد رأي بوركهاردت الذي يقول بأن الحجر من النوع البركاني؛ لأنه توجد أحجار بركانية سوداء وأخرى تجمع بين البني والأسود، ولن يكون اللون هو المشكلة الآن، فالحجر البركاني تكسو المسام سطحه الخارجي التي قد يكون التقبيل المستمر للحجر من الحجيج ساعد على محوها واختفائها وتسبب في الملمس الأملس للحجر وأفقده مظهره الأصلي المسامي. إن الحجر الأسود على أية حال ليس معدنيًا،

ربما يكون بازلتا من ضمن الأحجار التي سقطت من السماء ووجدها العرب وقدسوها. ومن خلال الاعتقاد بأنه حجرًا نيزكيٌّ سقط من السماء يمكن تفسير الرواية التي تقول بأن الحجر الأسود من السماء؛ لكن العرب يستمتعون بخيالٍ خصب جعلهم يفرغون هذه القصة من الحقيقة المؤكدة، التي اعتمدت عليها أساطير الشعوب الأخرى التي لا تتسم بهذا القدر العالي من صياغة الخيال بشأن معابدها الدينية.

بعد أن لامستُ هذا الحجر الأسود أو الوحش الأسود المقزز بشفتاي متظاهرًا بالورع والشوق إليه، بدأت الطواف حول الكعبة. تقدمني المُطوِّف الذي معي إلى طريق مرصوفٍ بالجرانيت يمتدُ حول الكعبة يُسمى المطاف. يوجد حول المطاف جسر خارجي يمتد حوله مبتعدًا عنه قليلًا؛ أي يوجد بينه وبين الصحن الخارجي للمسجد الحرام متفاديًا الكعبة على هيئة هلال مكون من مائتين وثلاثين اسطوانة من البرونز مطلية بالذهب، تُعَلق بينها المصابيح في المساء. مَن يكون ملمًّا بمظلات المسجد الحرام، تلك الوسيلة المعروفة في أوربا، سوف يميل إلى الاعتقاد بأن هذا الهلال هو طريق الطواف. والمطاف قريب جدًّا من الكعبة، ويبعد عنها عدة خطوات في بعض المواضع؛ لكنه يكاد يكون ملاصقًا لها.

وتوجَّب على أن أردد أحد الأدعية التي لن أذكرها هنا لأنها تقريبًا نفس الدعاء الذي ذكرته آنفًا وكنت رددته عند الحجر الأسود، ثم وصلنا لمكان يُسمى المقام يقع بين الحجر الأسود ومدخل الكعبة. هنا يوجد الحجر الذي وقف عليه إبراهيم عندما بنى الكعبة وفقًا لبعض الروايات. وهنا كان يُعِد إبراهيم الطين اللازم لبناء الكعبة ويساعده ولده إسماعيل. كان لزامًا على أن أردد أحد الأدعية هنا أيضًا.

"اللهم إنك أنزلت إلينا عهدك فاغفر لنا إن قصرنا في طاعتك."

والآن قد وصلنا أمام باب الكعبة التي ترتفع عن الأرض بحوالي سبعة أقدام، لدرجة أني كدت أن ألمس عتبة الباب بيدي الممدودة، ولا توجد سلالم على بابها؛ لكن يوجد سلم خشبي بجانب بئر زمزم ويندر أن يؤتى به إلى جانب الباب؛ لأن زيارة الكعبة لا تنتمي لمناسك الحج التي يجب على الحاج أداؤها. يطوف الحاج سبع مرات حول الكعبة، ويقبل الأحجار على جدرانها ويوقرها هي والأماكن المقدسة من الظاهر فقط. أمَّا إذا ما دلفنا

إلى قدس الأقداس فكل ذلك غير ضروري للحاج. لكن كلمة قدس الأقداس بالمعني الحقيقي للكلمة ليست في السياق الصحيح هنا، فداخل الكعبة نفسه ليس أكثر قدسيةً من قبر أحد الزاهدين وأقل بكثير من مكانة الحجر الأسود وباقي المقدسات، التي يجب على الحجيج لمسها. وعندما تكون أبواب الكعبة مفتوحة في بعض الأيام ويدلف الحجيج إليها للداخل يكون ذلك نابعًا من فضولهم لاكتشافها وليس منبثقًا عن عبادة خالصة. وتُفتح أبواب الكعبة للجميع ثلاث مرات في السنة، وفيما عدا ذلك تكون زيارتها من الداخل ممنوعة، وتقتصر فقط على بعض الأمراء ذوي السلطة عندما يريدون ذلك وهو بالمناسبة لم يحدث أبدًا.

طلب مني صادق على باب الكعبة أن أردد أحد الأدعية المخصص لهذه المناسبة:

"اللهم هذا حَرَمُكَ وَمكانك المقدس، ملاذ أهل الحق، يهرع إليه كل مَن يهرب من اللعنة الأبدية."

ثم مررنا مرة أخرى على مقام إبراهيم الذي يبعد حوالي عشر خطوات عن الحائط الشمالي للكعبة، وهنا رددنا دعاءًا آخرًا:

"اللهم إن هذا المكان الذي هرع إليه سيدنا إبراهيم هربًا من النار، ألوذ إليك أنا أيضًا فيه. فحرِّم وجهي ولحمي ودمي وجسدي وجلدي على نار جهنم."

يحتل مقام إبراهيم مكانةً خاصة بين الأماكن المقدسة، هكذا يُطلق على هذا العمق الغائر العظيم والذي يقع على بعد عشر خطوات من الباب الشرقي للكعبة كما ذكرت آنفًا موضوعًا في تابوت على الأرض هناك. قال البعض إن عمقه عدة أقدام وذكر البعض أن طوله ستة أقدام وعرضه ثلاثة أقدام. وقد أكد لي صادق هذه الأبعاد الأخيرة للمقام. وهذه الفجوة الكبيرة غير المنتظمة ليست إلا أثار أصابع وقدم البطريرك، وللحق ما كان ذلك ليحدث لولا المعجزة؛ حيث يلين الحجر ويتشكل بشكل قدمي إبراهيم ويتركان هذا الأثر الغائر عليه عندما انتهى إبراهيم أمام الكعبة من الأضحية بكبشٍ عوضًا عن ابنه إسماعيل، بينما يقول البعض أن مكان الأضحية كان وادي منى على جبل عرفات.

ومن ثمَّ سوف يتعجب المؤمنون فيما بعد من أثر قدمي إبراهيم وبالأحرى مقاسات هذه الأقدام التي تضاهي قدمي فرس النهر. لكن المسلم الحق يجب أن يصدق ذلك بلا شك لأنَّ هذا الأثر في الأرض مُغطى بغطاء خشبي عليه سجادة من الحرير الأحمر، ولا يُسمَح للحجيج بالدخول إلى داخل المقام؛ وإنما ينظرون إليه من الخارج فقط عبر حاجز شبكي خارجي يحيط قبة هذا المقام بالكامل والمحفوظ فيه أثر القدمين.

هذا المقام الذي يحوي أثر أقدام إبراهيم له سقف يرتكز على ستة أعمدة من الرخام يبلغ ارتفاعها عشرة أقدام، ومن خلال الشباك الحديدي المزخرف بشكلٍ جميل في منتصف القبة اعتاد الحجاج على النظر إلى أثر قدمي إبراهيم المباركتين، أو ربما النظر إلى السجادة التي تغطي الأثر، وبذلك يعتقدون أنهم يمارسون العبادة. ويطلق العرب على هذا المكان مقام سيدنا إبراهيم أي مكان إبراهيم.

وينسب المسلمون المتمسكون بصحيح المعتقد (الأرثوذكس) إلى مقام إبراهيم ثلاث معجزات، بالإضافة إلى العديد من الروايات الأخرى وهي:

المعجزة الأولى: أن الحجر الذي عليه آثار الأقدام حجر صلب ولكنه حين وقف عليه إبراهيم غارت آثار القدمين فيه؛ وهذا مالا يحدث أبدًا في الطبيعة.

المعجزة الثانية: أن أثر القدمين غار عميقًا في الحجر حتى كاد أن يصل إلى الركبة.

المعجزة الثالثة: أن أثر هذين القدمين ظل محفورًا حوالي أربعة آلاف سنة وسيستمر حتى يوم القيامة.

يبعد مقام إبراهيم عن الركن العراقي؛ أي ركن الكعبة في اتجاه العراق بخطوات قليلة، ويواجه شمال الكعبة، وهنا عُلِّق قرنا الحمل الذي ضحى به إبراهيم بدلًا من ابنه، طبقًا للتقاليد في هذا الوقت. وقد أمر محمد بإزالتها من هذا المكان؛ لأن ذلك يُعد من عبادة الأنصاب، وهنا كان يجب أن نردد دعاءًا يبدو أنه للحفظ من عبادة الأنصاب:

"اللهم إني أعوذ بك من عبادة الأوثان ومن النفاق ومن الأفكار السيئة ومن السرقة ومن طعن الأطفال والقسوة عليهم".

هذه الكلمات الأخيرة فهمتها تلميحًا للعرب الوثنيين أن يكفوا عن عادة وأد البنات المولودة حديثًا؛ حيث كانوا يفعلون ذلك ولا يعتبرونها ذنبًا، وعندما نزل القرآن حرم هذه العادة الوثنية لأول مرة.

والآن وصلنا إلى الجانب الغربي، أو على وجه الدقة إلى الجهة الغربية الشمالية للكعبة؛ حيث يوجد سور شكله نصف دائري يمثل الباحة الأمامية لصحن المسجد. هذا السور يبعد أربعة أقدام عن حائط البيت الحرام ويطلقون عليه الحطيم. ويُطلق على هذا المكان بين هذا السور والكعبة حجر سيدنا إسماعيل، ويزعم بعض العرب أن النطاق المكاني للكعبة كان يمتد حتى الحطيم سابقًا؛ لكن يبدو أن هذا الوضع قد استمر فترة وجيزة بالأخص في الفترة مابين عبدالله بن الزبير حتى الحجاج بن يوسف الثقفي، اللذين قاما بإعادة إعمار الكعبة؛ لأنه بعد مرور عدة سنين على توحيد بن الزبير الكعبة مع الحطيم جاء الحجاج بن يوسف الثقفي وفصلهما عن بعضهما وأرجع البيت الحرام إلى حالته التي كان عليها في سابق عهده والتي عليها منذ آنذاك حتى الآن.

لذلك فإنه من الخطأ أن نزعم أن الحطيم جزء مكمل للكعبة القديمة؛ بل هو مكمل لكعبة بن الزبير. إن سور الحطيم لا يبلغ ارتفاعه خمسة أقدام بالضبط وكذلك ليس العرض خمسة أقدام تماما، وقد نُقشت كتابات وزخارف بحروف عربية فوق الرخام الذي يغطى الحطيم والتي استطعت أن أقرأ أغلبها. ليست هذه النقوش في الغالب إلا صيغ صلوات وأدعية. وذكر المؤرخ العربي كتب الدين[1] (Katab el Din) أي كاتب الدين الذي عاش في مكة، أن هذا السقف من الرخام المنقوش مزركش بكتابات قد بُني بناءًا على أمر من السلطان المصري محمد الروري[2] (Mohamed el Rhuri) (في عام ١٥٣٩ بالتقويم الميلادي).

وفي حجر إسماعيل يوجد مكانان مقدسان أو حتى ثلاثة كما يقول البعض يتقوقع عندهم الحجيج وتجب الصلاة فيهما. أول هذه البقاع المقدسة الميزاب وهو عبارة عن ذراع مكسية بالذهب لتصريف مياه الأمطار من على سطح الكعبة. يبلغ طوله خمسة

١ أغلب الظن أن المقصود بهذا المؤرخ النَّهروالي قطب الدين والمشهور بـ (محمد بن أحمد). (المترجمة)

٢ أعتقد أن المقصود هنا السلطان معز الدين محمد الغوري وقد سمعها المؤلف بطريقة خاطئة فكتبها كما سمعها. (المترجمة)

أقدام حتى يصرف الماء من ارتفاع خمسة وثلاثين قدم (الكعبة يبلغ طولها أربعون قدم). في نهاية الذراع يوجد ما يُسمى بلحية الميزاب أو ما يسميه البعض بذقن الميزاب والتي هي عبارة عن لوحة معدنية مكسوة بصفائح الذهب. والميزاب الموجود حاليًا بالشكل الذي هو عليه قد أُحضر من القسطنطينية عام ١٦١٥. وليس لدي أيُّ علم هل هو من الذهب الخالص أم هو ممزوج ببعض المعادن الأخرى. بالطبع يزعم أهل مكة أنه من الذهب الخالص. ولكن اسرَّ لي ذات مرة بن حميدو صاحب الفندق الذي أبيت فيه وصادق بن حنيفة المُطوِّف الملازم لي أن هذا الميزاب ليس الأصلي الذي احضروه عام ١٦١٥ المطلي بالذهب؛ لأن الوهابيين مجددي الإسلام الذين استباحوا حرمة كل الأماكن المقدسة قد سرقوه في بداية هذا القرن. لكن قد غُض الطرف عن هذه السرقة من قبل غالبية الناس وبالأخص من أهل مكة؛ لأن الشريف غالب قد أمر بصنع ميزاب جديد مكسوٍّ بالذهب يشبه الأصلي تمامًا في نفس الليلة وتثبيته في المكان الفارغ للميزاب الأصلي المسروق، وظل هذا الأمر سرًا حتى يومنا هذا، ولا يعلم بأمر هذا الميزاب البديل الذي حل محل الأصلي المسروق منذ ستين عامًا سوى قليل من الناس. وبخصوص صحة هذه الواقعة أترك الأمر هنا سجالًا، ولكن من الملفت للنظر أن بوركهاردت الذي زار مكة في عام ١٨١٥ أي بعد مرور خمسة عشر عاما على هذه الواقعة لم يسمع شيئًا عن أمر السرقة؛ بل اعتقد مثل سائر الناس أن هذا الميزاب هو الأصلي المصنوع من الذهب الخالص.

عند الميزاب ردد صادق على مسامعي من جديد أحد الأدعية:

"اللهم إني أعوذ بك من أن يقل إيماني بك وأدعوك أن تجعلني على نهج سيدنا محمد، وأن تظلني تحت عرشك يوم لا ظل إلا ظلك، وأن تسقنا من يده الشريفة شربة لا نظمأ بعدها أبدًا." (هذه الكلمات من الأقوال المأثورة عن النبي).

آخر جملة في هذا الدعاء تشمل تلميحًا إلى الماء الذي ينزل من الميزاب من أعلى الكعبة على الأرض، كباقي سائر الأدعية التي ترتبط بأحد الأماكن المقدسة المتناثرة أثناء مراسم الحج.

ويوجد أسفل الميزاب مباشرةً حجر دَفن المسلمون تحته إسماعيل[١] ويزور المسلون حجرًا آخر بجانبه عبارة عن قبر هاجر. يسمى النصب التذكاري الأول قبر سيدنا إسماعيل، بينما والده دُفن في مدينة الخليل في فلسطين كما ذُكر في الكتاب المقدس، أما بخصوص مكان دفن ولده إسماعيل فلم يُذكر في الإنجيل أي شيء عن ذلك، لذا يستغل نبي الإسلام ذلك لصالح أغراض دعائية فيذكر مكان قبر إسماعيل في أي مكان يفضله هو. وقد استغل قصة بناء إبراهيم للكعبة وكل ما يتعلق بها من أجل نشر دعوته عندما أبقى على المعبد الوثني القديم الذي لم يستطع أن يثني العرب عن عبادته عن طريق هذا الاستخدام الذكي لهذه القصة وتغيير أماكن الأحداث عن حياة إسماعيل التي أكدها الإنجيل. ولأن مكان قبر إسماعيل لم يُذكر في أيّ موضع، ولأن كل العرب يتفانون في تقديس هذا البطريرك الوهمي، الذي أضحى أبا العرب والمسلمين حتى أنه أصبح أساسيًّا في كل الملاحم الإسلامية، ومنه تنحدر كل سلالات وقبائل العرب؛ ولهذا أُعطيت للنبي محمد فرصة عظيمة أن يصبغ الكعبة بروحٍ من الإنجيل حينما نقل قبر إسماعيل بن إبراهيم هنا.

يوجد ثقب في منتصف شاهد القبر ينساب من خلاله الماء المنهمر من الميزاب، وبذلك يظل مثواه الأبدي رطبا للغاية؛ لكن صلاة المسلمين غير مستحبة هنا نهائيًّا، هذا إذا سلمنا أنه دُفن هنا بالفعل. وهنا أيضًا كان يجب أن أردد وراء المُطوِّف هذا الدعاء:

"اللهم هنا يرقد سيدنا إسماعيل فاحفظنا من الأرواح الشريرة ومن عبادك الأشرار ومن الشيطان الذي يوسوس لنا في آذاننا، السلام على إبراهيم وإسماعيل اللهم بارك عليهما وعلى لأني أتحدى وسوساته."

وبعد قبر إسماعيل انتقلنا إلى الركن الشامي أو الركن السوري للكعبة وهو الركن الذي في الاتجاه الجنوبي الغربي، وهنا أيضًا رددت هذا الدعاء:

١ إسماعيل بن سيدنا إبراهيم شخصية مذكورة في كل من التوراة والقرآن. يؤمن المسلمون بنبوته، بينما يعتقد اليهود والمسيحيون أنه شخصية تاريخية ورد ذكره في العهد القديم. كان عرب الحجاز يؤمنون أنهم من ذرية إسماعيل، ولهذا فقد ذكروه في أشعارهم وأخبارهم ويُذكر في العديد من المصادر انه أبو العرب. (المترجمة)

"اللهم تقبل حجي! تقبله كعملٍ يقربني إليك ويبعدني عن وسوسات الشيطان، لك المجد والحمد يا رب العالمين"

هذا الدعاء يُطلق عليه على وجه الخصوص دعاء الحج، وهو في نفس الوقت دعاء وقت الحج ونظرًا لقدسيته يجب أن يُردد ثلاث مرات.

ثم وصلنا إلى الجانب الجنوبي أو بمعني أدق الجنوبي الشرقي للكعبة حيث لا توجد هنا مقدسات، وهذه الجهة اسمها الركن اليماني وهو ركن الكعبة الجنوبي الشرقي. ولكن يوجد به حجر مقدس يطلق عليه البعض الحجر الأبيض انطلاقًا من أن لونه ليس رماديًا ولا أسود على النقيض من تسمية الحجر الأسود، وهو محاط بسور يبلغ ارتفاعه مثل الذي يحيط بالحجر الأسود، والحجر نفسه طوله قدم واحدة وعرضه نصف قدم، ويتكون من نفس المادة التي بُنيت منها البيوت في مكة.

ولا يتفق المسلمون فيما بينهم على أهمية هذا الحجر الذي في الركن اليماني، فطبقًا لروايات البعض قيل إنه بعدما هاجر محمد إلى المدينة لتأسيس مكان دعوته، وعندما أراد أن يعود مرة أخرى إلى مسقط رأسه مكة لكي يطوف حول الكعبة زعم أعداؤه أن محمدا قد خارت قواه؛ فأراد أن يعاقب خصومه على أكاذيبهم فقطع الثلاثة أشواط الأولى حول الكعبة مشيًا على الأقدام، وفي هذه اللحظة نطق هذا الحجر وشهد بأن محمدا رسول الله وأن أعداءه هم الخاسرون. وربط البعض هذه القصة بإبراهيم فزعموا أن البطريرك قد ربط جملًا في هذا الحجر عندما ذهب للتضحية بولده إسماعيل (وليس إسحاق).

على أية حال يحظى هذا الحجر بدرجة أقل من التقديس عن نظيره الحجر الأسود، حيث يتم لمسه فقط باليد اليمنى وتُقَبَل الأنامل من موضع ملامستها للحجر، وبعد أن قلَّدت المُطوِّف في هذه الشعيرة رددت معه هذا الدعاء:

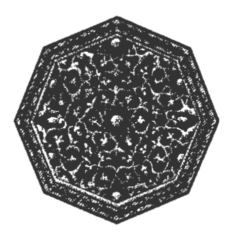
"اللهم إني أعوذ بك خوفًا من الموت والشقاء، ساعدني ضد عذاب الحياة والموت، احفظني الآن وإلى الأبد، اغفر ذنبي الآن ودائمًا، ساعدني على أن أجد راحتي في الحياة الدنيا وفي الآخرة وقني عذاب النار"

والآن رجعنا مرة أخرى إلى الحجر الأسود بعد أن طفنا مرة كاملة حول الكعبة، والآن نحن نلتف حول الحجر الأسود من جديد كما حدث في المرة الأولى، وبذلك نكون قد أنهينا الشوط الأول من الطواف، الذي هو عبارة عن سبعة أشواط كاملة حول البيت، وعادة ما تتم الثلاثة أشواط الأولى بخطوات سريعة، بينما الأربعة الأخرى تتم بخطوات وئيدة متعمدة. وتستحب السرعة في الثلاثة أشواط الأولى أسوةً بالرسول وصحابته، وقيل في ذلك أنهم عادوا إلى مكة بعد سنوات طويلة في المدينة وكانوا ضعفاء متعبين وبدا عليهم الهزال واعتقد أهل مكة أنهم مرضى وسخروا من مظهرهم الهزيل، فأراد الرسول أن يبرهن على أنه ليس مريضًا وأنه مازال قادرًا على مقاومة أعدائه فأتم الثلاثة أشواط الأولى بسرعة فأيقن بعدها كثير من خصومه أن الله قد أمده بالقوة حتى وإن بدا جسده هزيلًا وضعيفًا.

وللعلم فإنه لا يكفي أن يتم المرء الثلاثة أشواط الأولى بسرعة؛ بل يجب عليه أيضًا تحريك الأكتاف صعودًا وهبوطًا؛ ليرى الناس الحيوية والقوة التي يتمتع بها الحاج كما فعل النبي ليعاقبَ أعداءه.

ولقد أتممت أنا أيضًا السبعة أشواط حول الكعبة، وبذلك أكون قد تحررت أخيرًا من عبءٍ طالما أثقلني، والآن سأتوجه لزيارة بعض الأماكن المقدسة المتناثرة في صحن المسجد ومن ثَّم أُعطي ظهري للبيت الحرام.

قبل أن أتناول وصف هذه المقدسات يجب أن أفرد فصلًا كاملًا عن الكعبة وتاريخها، التي تُعَد أهم جزء في الحج إلى مكة، وقلب كل المقدسات، والمحور الذي تدور حوله كل شعائر الحج، وهذا ما لم أستطع سرده وتناوله في هذا الفصل.





الفصل الثاني عشر
مكة - البيت الحرام وتاريخه

الكعبة بدون الكسوة - كسوة الكعبة - الخرافات حول كسوة الكعبة - روايات عن الكعبة - أقدم كعبة - إبراهيم - إسماعيل - سبع معجزات للكعبة - الكعبة كمعقل لعبادة الأوثان - الأوثان التي عبدها العرب - باخوس وباكوس - أورانيا أو اللات - السبع معابد لعبادة الأوثان عند العرب القدامى - القليل من شهر رمضان في اليمن - هُبَل إله الشمس - تعظيم إبراهيم كأحد الآلهة - تمثال مريم العذراء في الكعبة - إعادة إعمار آخر كعبة وثنية - تحطيم محمد للآلهة - الحمامة المقدسة - بحث من العرب حول عمر الحنيفية أو التوحيد - أرض الله أو أرض الآلهة - المقدسات الوثنية التي أبقاها محمد – تاريخ الكعبة بعد محمد - تجديد عبد الله بن الزبير للكعبة - إرجاع الكعبة إلى شكلها الحالي - تغطية الكعبة.

كنت أتمنى أن يصادفني الحظ وأري الكعبة ذات مرة كما هي في الحقيقة، عارية وبدون الكسوة، ذلك الغطاء الأسود الذي يكسوها طول السنة ما عدا أربعة عشر يومًا فقط.

تبدأ هذه الأربعة عشر يومًا في الخامس والعشرين من ذي القعدة حتى العاشر من ذي الحجة.

يقول العرب بلغتهم العربية الغنية بالتشبيهات والاستعارات إن الكعبة في هذه الأيام الأربعة عشر تكون "عريانة" أي مجردة من ملابسها. وعندما تكون في العاشر

من ذي الحجة عارية تمامًا فهم يقولون: "أرسل الخيَّاط ثوب الكعبة"، واستعملوا لفظ "الإحرام"[1] للدلالة على تعرية وتغطية الكعبة، فعندما تُرفع الكسوة من على الكعبة يقولون خلعت الكعبة ثوبها وأحرمت. فالإحرام لفظ يستخدمه الناس عندما يرتدون ملابس إحرامهم. وعلى الكعبة ألا تخجل من كونها عارية تمامًا.

ولأني وصلت مكة في السابع والعشرين من ذي القعدة للمرة الأولى، أي أن الكعبة قد أحرمت منذ يومين، تمكنت لذلك من رؤية بيت الله (وهو ما يُطلق أيضًا على الكعبة) حتى مغادرتي إياها قاصدًا رحلتي إلى عرفة، التي رُفعت خلالها الكسوة على الكعبة. لقد أثلجت هذه المدة صدري وأرضت شغفي وتطلعاتي؛ لكنها لم تكن متعة بفن معمار هذا المبنى، فهو أبعد ما يكون عن أن يكون قطعة فنية. فهي بيت مربع الشكل له وقع الكآبة على النفس، تصل أبعاده إلى أربعين قدمًا ارتفاعًا وثمانية عشر طولًا وثلاثة عشر عرضًا كما ذكرت سابقًا، ويُحسَب مع هذا الارتفاع للبيت ارتفاع القاعدة المائلة بعض الشيء وهو حوالي ثلاثة أقدام ونصف يرتكز عليها بيت الله الحرام.

لقد بُنيت الكعبة من حجارة بنية اللون كسائر باقي بيوت مكة التي بُنيت من نفس هذا النوع من الحجر، وبالتالي فإن خامة بنائها ليست مميزة. إن هذه الحجارة المخصصة للبناء كانت في بدايتها الأولى بجميع الأشكال والأحجام، وكانت غالبًا خامة مربعة الشكل غير منتظمة الحواف، وقد رُصت بجانب بعضها البعض طوليًا، ورُبطت مع بعضها البعض بواسطة الطين. على بعض الأحجار نلحظ أثرا لنقوش أغلبها غير واضحة حتى أني نفسي لم أستطع أن أميز ما إذا كانت بالخط الكوفي القديم أم بحروفٍ عربية حديثة.

عندما تُرفَع الكسوة على الكعبة تبدو عليها الهيبة؛ لكنها تصير في نفس الوقت أكثر كآبة، أريد أن أقول أنها تُرعب من ينظر إليها. فهذا المبنى الذي يبلغ ارتفاعه أربعين قدمًا والمكسوّ بالسواد يعتقد من يراه أنه نعش ضخم. تُصنع الكسوة من الحرير الأسود، وقد اختار هذا

[1] ليس هناك شرعًا ما يُسمى بإحرام الكعبة؛ فما هو إلا إجراء وقائي للحفاظ على كسوة الكعبة الرئيسة من التلف بسبب شدة الزحام، ومن محاولات بعض الجهلة الذين يقطعون جزءا من الكسوة بغرض التبرك أو للذكرى أو نحو ذلك؛ لهذا يُرفع الثوب فوق مستوى إمكانية الوصول إليه بالأيدي، وظن الناس عبر التاريخ أن إحاطة الجزء السفلي من الكعبة بثوب أبيض أشبه ما يكون بإزار المحرم، وأن ذلك له علاقة بالإحرام؛ ولذلك درجت هذه التسمية الخاطئة؛ لأن ذلك ليس إحرامًا للكعبة، فالكعبة جماد لا تُحرم ولا تؤدي نسكًا، وإنما يكسوها المسلمون تعبدًا لله عز وجل، وشكرًا له على منته أن جعلها قبلةً يستقبلونها، وألّف بها بين قلوبهم على اختلاف الديار وتنائي الأقطار. (المترجمة)

اللون العباسيون خلفاء بغداد آخر الخلفاء الحقيقيين، وتبعهم من بعدهم في هذا التقليد السلاطين الأتراك، الذين استمدوا حقهم في هذا التقليد من آخر أسرة مصرية حاكمة؛ على الرغم من أنه ليس لهم حق في ذلك بسبب أصلهم العرقي. يعتبر إهداء كسوة الكعبة السوداء شرف وتعظيم لمن يقوم بذلك بصفته حامي وراعي مكة. في عصر ما قبل الإسلام كُسيت الكعبة بأقمشة ليست سوداء؛ بل كانت ألوانها مختلفة ومبهرجة.

كانت هذه الكسوة مصدرًا لكثير من الخرافات الغريبة؛ فأحيانًا عندما كانت الكسوة تبدأ في الحركة - وذلك أمر طبيعي بسبب الرياح - كان كل المسلمين الورعين يرون أن السبب في ذلك هم السبعون ألف ملكٍ الذين يحرسون الكعبة؛ فهم عندما يحتفلون بأعيادهم أو يمارسون طقوسهم الدينية فإنهم يحركون أجنحتهم بشدة لدرجة تجعل كسوة الكعبة تتماوج وتهتز.

أخبرني صادق أنه كان شاهد عيان ذات مرة لمثل هذه الوقائع والذي حكي لي هذه الخرافة التي ذكرتها بطريقة ساخرة لاذعة. لم يشك هذا المُطوِّف الجيد قيد أنملة في صحة هذه الخرافة، فقد كان ينقل لي أحيانًا بعض هذه الخرافات والعادات في بعض المناسبات عن قومه وأصحابه المسلمين بطريقة تجعلني أتساءل هل يسخر هو نفسه من أتباع نفس ديانته.

أنقل هنا مثالًا آخر لهذه الخرافات، وهو عبارة عن واقعة حكاها لي صادق، وأنقلها هنا بنفس كلماته. حرَّكت رياح شمالية عاتية الكسوة التي كانت آنذاك لا تُثبَّت على سطح الكعبة؛ لأنه في العصور الأولى كانت تُسدَل الكسوة الجديدة على الكعبة دون تثبيت من أعلى، وبفعل هذه الرياح تحركت الكسوة يمينًا وشمالًا كما لو كانت شراعًا كبيرًا أسود اللون، ربما كان مثل هذا المنظر يثير الكآبة في نفس مَن يراه؛ لكن أثره على هؤلاء المتعصبين كان مختلفًا، فقد صاحوا فجأة من أقصى حناجرهم "لبيك" و"ملايكة"، فسجد آلاف الحجيج على وجوههم على الأرض وصلوا وبكوا وتصاعدت زفراتهم. لقد كان مشهدا مليئا بالانفعالات العنيفة؛ لأنه من الطبيعي أن يُظهر المسلم الحق تأثره بوجود الآلاف من الملائكة. حتى بوركهاردت (Burkhardt) عاين مثل هذا المشهد بنفسه الذي لم أصادفه أنا، لقد رأيت فقط الكعبة عارية.

إنَّ تاريخ البيت الحرام يكتنفه الكثير من الغموض؛ لكن كلما قلَّ اعتمادنا في معلوماتنا على مصادر موثقة كلما زادت الروايات والحكايات عن تاريخه.

قبل أن أُقدم على عرض الروايات الهامة والمشهورة عن الكعبة هنا، أريد أن أذكر القصة التي دونها بوركهاردت ونقلها عنه بالحرف بورتون (Burton) عن أقدم كعبة. ذكر بوركهاردت (الله وحده أعلم من أين أتي بهذا الهراء الذي لا يعلم عنه أي عربي صادق شيئًا) أن أول كعبة قد بُنيت قبل خلق العالم بألفين عام وكانت ترتكز على أربعة أعمدة من العقيق وسقفها من الياقوت الأحمر، وعظَّمها آنذاك الملائكة الذين كانوا يطوفون أيضًا حولها (تتعارض هذه القصة مع علوم الدين الإسلامي الأصولية التي ترى أن الملائكة لا ترقى لعبادة الكعبة).

من المحتمل أن تكون هذه القصة التي أوردها بوركهاردت، و أيضًا حكاية إعادة بناء الكعبة عشر مرات، ليست إلا عادات غامضة ليس لها أهمية تُذكر حتى تتناقلها الشعوب وتستمر. لذلك لا أريد أن أنسب لها أهمية الحكاية الشعبية أو أتخطاها مستندًا على مصادر مضمونة للأساطير، حيث نجد القليل من الهراء ولكن على الأقل هراء قابل للتصديق.

وورد في كتاب (Tarich Montecheb) (von Pocoke in seinen Specimina historiae Arabum, Oxford 1720) أنه كان يوجد في عصر آدم مكان الكعبة خيمة كان يصلي فيها آدم وذريته. ويندر أن يُقال أن آدم قد عبد إلهًا واحدًا اسمه الله أكبر أي الرب في الإسلام؛ وليس كما يدعي البعض أنه عبارة عن إلهين هما الله و أكبر كما فسره العلماء المسيحيون في الشرق بأن الله أكبر عبارة تحتوي إلهين هما الله وأكبر، وبذلك يكونون قد أضفوا علي الكعبة معنى وثنيًا. لم يقم البشر ببناء خيمة آدم هذه؛ بل هبطت عليهم من السماء؛ لكي يقيم الناس فيها شعائر عبادتهم في معبد الله الوحيد على الأرض.

ثم قام ولد آدم الثالث شيث - كما ذُكر في (Tarich Montecheb) - ببناء معبد للتعبد من الحجارة مكان الخيمة التي نزلت من السماء، والذي ظل يعبد فيه آدم وذريته الله الأحد حتى مجيء الطوفان.

حطم الطوفان إذن أول كعبة بناها شيث، وظلت ركامًا من الحطام حتى مجيء إبراهيم، وفي هذه الأثناء لم يُبن أي معبد لعبادة الله على الأرض.

نزل الوحي على إبراهيم خليل الله بتكليف جديد بضرورة بناء الكعبة؛ لأن ذرية نوح كانت قد بدأت تركن إلى عبادة الأوثان. استطاع إبراهيم تخطى الصعاب الجمة من أجل إعلان وحدانية الله، فحُكِم عليه بالموت حرقًا في النار؛ لأنه حطم التماثيل التي عبدتها عائلته، وحاول إقناع والده بالعدول عن عبادة الأوثان. في النهاية اضطر إلى الهجرة، فجاء إلى مكة؛ حيث بدأت فترة جديدة في حياته. قبل تكليفه بالرسالة أي أن يصبح رسولًا (أي بالترجمة الصحيحة مؤسس الدين على النقيض من النبي التي لا تعنى سوى نبي أي درجة أقل من التكليف التي يحظى بها الرسول)، خضع إبراهيم في نفس المكان هنا لابتلاءٍ عظيم؛ حيث أمره الله أن يذبح ابنه (القصة المشهورة في سفر التكوين). يزعم المسلمون أن هذا الابن ليس اسحق وإنما هو إسماعيل، الذي يحتل لديهم مكانة عظيمة أكثر من أخيه، ويزعم عدد كبير من العرب أنهم بل والرسول محمد أيضًا ينحدرون من نسله، هذه القصة التي يجب على كل واحد على دراية بتاريخ العرب الصحيح أن يبرز بطلانها، ففي السورة رقم ٣٧ في القرآن التي تحكي قصة وجوب تضحية إبراهيم بابنه لم يُذكر فيها كلمة واحدة تدل على أن المقصود هو إسماعيل وليس اسحق.

ويشيع بين العرب ما ادعاه محمد من أنَّ اثنين من أسلافه قد نجوا من التضحية بهم عن طريق وفاء والدهم بالنذر، ومن خلال تدخل العناية الإلهية على وجه الخصوص لإنقاذهم من الموت. الأول هو عبد الله والد الرسول محمد نفسه، الذي وفى عنه عبد المطلب بالنذر بدلًا من ذبح ابنه عندما أُوحي إليه أن يذبح ابنه عند مياه بئر زمزم المنهمرة، والذي أراد أن يلبي طلب الله؛ لكن الله الرحيم سمح له بذبح مائة ناقة عوضًا عن ولده. أمَّا الثاني فهو إسماعيل النبي صاحب الرسالة الذي تنحدر منه شجرة نسب سيئة للغاية مملؤة بالفجوات، ويزج به العرب في كل شجرة نسب؛ بل في العديد من علاقات النسب التي تتعارض مع بعضها البعض.

وسواء كان الابن الذي تحدثت عنه السورة رقم ٣٧ في القرآن هو إسماعيل أم اسحق يبقى شيئًا ثابتًا لدى جميع المسلمين هو أن مكان تنفيذ التضحية بالابن كان مكة أو بالقرب منها، وأن الابن الذي كان يجب ذبحه كان موجودًا أيضًا في هذا المكان. وطبقًا لما يراه العرب بخصوص المكانين المقدسين اللذين شهدا حادث الأضحية إما مكة أو وادي مِنى القريب جدًا من مكة، فإنه من المعروف عند الإسرائيليين أنَّ إبراهيم أراد أن يذبح ابنه على جبل موريا في القدس.

ولكي تظل ذكرى هذا العون الرائع من الله لنبيه إبراهيم خالدة علق إبراهيم قرني الحمل الذي ضحى به عوضًا عن ابنه على الكعبة، هذا ما تناقلته بعض الروايات التي تشوبها مفارقة غريبة؛ لأن إبراهيم شرع في بناء الكعبة طبقًا لكل الأعراف الإسلامية عندما كان ابنه إسماعيل شابًا والذي ساعده في بناء الكعبة؛ بينما ضحى هو بالحمل عندما كان إسماعيل لا يزال طفلًا. على كل حال فقد عُلق قرنا هذا الحمل الذي ضحى به إبراهيم، أو ربما قد يكون زوج آخر من القرون اختارهما إبراهيم وادَّعى العرب أنهم القرنين الأصليين، بعد أن طُليا بالذهب، وتم تزيينهما، ثم عبدهما الناس حتى جاء الرسول محمد الذي رآهما في شبابه هنا. وقد أُزيل القرنان في عهده لأنهما كانا من الأوثان التي حرم الإسلام عبادتها؛ لكن لازالت توجد العديد من الأماكن حتى الآن للتذكير بقصة إبراهيم وإسماعيل ويعظمها المسلمون مثل مقام سيدنا إبراهيم؛ أي أثر القدمين الغائر في الحجر، ثم المكان الذي كان يجهز فيه إبراهيم وولده إسماعيل الطين لبناء الكعبة، بالإضافة إلى بئر زمزم؛ وهو عبارة عن نبع انفجر منه الماء في الأرض من بين قدمي إسماعيل عندما كان طفلًا، ثم آخر مكان هو قبر إسماعيل، وكل هذه الأماكن الأربعة إما ملاصقة للكعبة أو تقع بالقرب منها.

علاوة على ذلك نلحظ أن المسمى العربي "الحجر الأسود" المُحاط بسورٍ بجانب الكعبة والذي يعتبر من المقدسات الإسلامية، وكلمة "حجر" هي اسم أم إسماعيل "هاجر" لأن كلمة حجر مطابقة لهاجر، وللتذكير بهرولة هاجر ذهابًا وإيابًا بحثًا عن ولدها بلا جدوى حتى وجدته ينهمر الماء من بئر زمزم من تحت قدميه، وقُدِّرت هذه المسافة التي مشتها هاجر بسبعة أشواط بين الصفا والمروة.

وتوجد أسطورة عربية أخرى انتقدها بوكوكيه (Pococke)؛ وهي أن خيمة الصلاة التي كانت موجودة في عهد آدم وتحولت إلى معبد للتعبد على يد ابنه شيث، والتي ظلت مكانًا خاليًا بعد تحطيمها تُسمى "السرَّة" أو سارَّة وهي اسم زوجة إبراهيم. وبهذه الطريقة تؤدي كل الأساطير التي تتناول الكعبة كموضوعٍ أساس إلى إبراهيم.

إذن فقد بنى إبراهيم وإسماعيل الكعبة معًا وأكد القرآن ذلك في السورة رقم ٢٢. وظلت الكعبة التي بناها إبراهيم على حالها حتى اليوم؛ فقط أُعيد إعمارها وتم تحسينها ولكن لم تُبن أبدًا من جديد كما يدعي المسلمون المتشددون الذين يعارضون أي تجديد للمباني وتغيير في طرازها.

أعتقد أنه لا توجد معلومات دقيقة ثابتة حاليًا عن الحقبة التي نشأت فيها الأسطورة عن أقدم كعبة وبناء إبراهيم لها ومتى أضحت حكايات سفر التكوين معروفة في بلاد العرب تتشعب وتتداخل في دوائر الأساطير لسكان البلاد الأصليين. ربما نشأت هذه الأسطورة في القرون الأربعة الأولى للمسيحية من خلال عاملين: أولهما تأثير الإسرائيليات وثانيهما بسبب تأثير من الديانة المسيحية. فالعامل الأول قد ثبتت صحته بسبب هجرة العديد من القبائل اليهودية إلى شبه الجزيرة العربية وكوَّنت ممالك يهودية في اليمن والحجاز نشرت الكثير من قصص الإنجيل في نفس الوقت مع دينهم اليهودي الذي ارتد عنه الكثير منهم. أما العامل الثاني فقد استحق بعض الاعتراف به عندما نشأت في بداية القرن الثالث العديد من الطوائف المسيحية في شمال بلاد العرب وبالأخص على شواطئ اليمن والتي كانت تعرف قصة إبراهيم وربما شاركت في انتشارها.

مهما يكن الأمر فأنا لا أعرف قصة موثوقا فيها عن طقوس العبادة التي بدأها إبراهيم داخل الكعبة، الأكثر من ذلك أن البيت الحرام كان دائمًا مكانا لعبادة الأوثان، ثم نجح محمد في تأسيس دين الحنيفية؛ على الرغم من أن الإسلام لم يقم بشيء سوى استعادة دين التوحيد المفترض أنه كان سائدًا هنا منذ القدم. حتى المسلمون أنفسهم ليس بإمكانهم إنكار أن الكعبة قبل مجيء محمد كانت معبدًا لعبادة الأوثان التي كانت تبلغ حوالي ثلاثمائة وستين صنمًا كما اتخذ العرب إبراهيم إلها لهم، وربما كان ذلك لدى البعض دليلًا على ربط أي شيء

يخص العرب بإبراهيم حتى وإن لم يكن الأمر كذلك في الحقيقة لأن اسم إبراهيم لم يُذكر أبدًا بين أقدم أصنام الكعبة. إذن عبادة إبراهيم قد بدأت قبل مجيء محمد بوقتٍ قصير، مما أدي إلى هذه الوثنية المثيرة للاشمئزاز، التي فتح معبدها بابه لكل إله ولكل بطل، هذا ما قام به العرب (لم يكن ذلك قبل القرن الثالث أو الرابع الميلادي) بأن اعتنقوا إبراهيم في البانثيون[1] الخاص بهم، مثلما حدث في روما في القرن الثالث عندما ضم القيصر ألكسندر سيفيروس (Alexander Severus) تماثيل لإبراهيم وللمسيح إلى آلهة معبده.

يزعم المسلمون أن إبراهيم قد دعا ربه في الكعبة ألاّ تعبد ذريته الأوثان، وأن تتخلص الكعبة من كل ما يجعلها معقلًا لعبادة الأوثان، وقد استجاب الله له كما يعتقد علماء الإسلام التافهون؛ على الرغم من أنه من المعلوم أن العرب كانوا يعبدون الأوثان حتى تكليف محمد بالرسالة، وأن الكعبة كانت دائمًا معبدًا لعبادة الأوثان؛ لكن المسلمين الورعين يغضون الطرف عن مثل هذه الأشياء بكل شجاعة عندما ينقصهم الدليل.

يبدو لي أن العرب لم يكونوا كلهم يعتقدون أن هذه الكعبة هي أقدم كعبة على الأرض، على سبيل المثال لم يصدق الخليفة عليٌّ، صهر محمد، هذه الخرافة. عندما سأله أحدهم عما إذا كانت الكعبة هي أقدم وأعظم معبد لعبادة الله، أجاب بكل وضوح: لا، يوجد أقدم منها الكثير من الكعبات ويجب إدراج معبد سليمان بينهم، وبناءًا على إجابة عليٍّ هذه نفهم أنه من المستحيل أن يكون إبراهيم قد بناها لأنه عاش ألف سنة قبل سليمان. لذا ندرك أن خرافة أقدم كعبة على الأرض تعتريها أخطاء وتناقضات وتثير البلبلة.

ولكي أنهي حديثنا هذا عن الخرافات التي تدور حول البيت الحرام أريد أن أعرض عليكم الوضع الحالي للروايات التي تبلورت على مر القرون إلى هذه الخرافات المربكة وخرجت لنا من تحت عباءتها. تتمتع الكعبة بسبع معجزات تميزها عن سائر بقاع الأرض.

---

١ البانثيون عبارة عن مبنى في روما كان أصلا مبنيا كمعبد لجميع آلهة روما القديمة. وهو أفضل مبنى روماني أثري من ناحية الحفظ، وربما يكون أفضل مبنى محفوظ من ذلك العصر في العالم. (المترجمة)

المعجزة الأولى: تنجذب قلوب كل المؤمنين إلى الكعبة كما لو كانت بتأثير قوى مغناطيسية، وليس المقصود هنا المعنى المجازي؛ بل إن الكعبة تشع قوى جذب حقيقية صوفية مذهلة.

المعجزة الثانية: الكعبة هي قبلة المسلمين التي يتوجهون إليها في صلاتهم ويعرفها كل مسلم حق بالفطرة (غالبية المسلمين لا يعرفون اتجاه القبلة بفطرتهم ولكن يستخدمون القبلة لمساعدتهم في ذلك ويصدقونها؛ ولذا فهم لا يصدقون هذه المعجزة الثانية).

المعجزة الثالثة: من المستحيل هدم الكعبة وتحطيم الحجر الأسود الموجود فيها. (كشف التاريخ هذا الكذب لأن القرامطة هدموا الكعبة في عام ٩٢٩، وأمر الخليفة الأحمق الحاكم بأمر الله بتحطيم الحجر الأسود في عام ١٠٢٢ بصولجان من حديد).

المعجزة الرابعة: حتى الطيور تعظم الكعبة وتتورع عن أن تهبط على سطحها. (أنا نفسي مقتنع بعدم صحة هذه المعجزة؛ لأني رأيت بعيني حَمام بيت الله يطعمه الحجاج ولا يُسمح لهم بقتله، كما أنه من الطبيعي أن تهرب الطيور بسبب الضوضاء المحيطة بالبيت الحرام).

المعجزة الخامسة: تسع الكعبة عددا لا حصر له من الحجيج على الرغم من صغر حجمها وذلك بسبب الملائكة الذين يصغرونها أو يكبرونها حسب أعداد الحجيج.

المعجزة السادسة: كل مَن يرى الكعبة تفيض عيونه بالدمع لتأثره بالمشهد داخليًا (لم يكن لرؤية الكعبة أي تأثير عليَّ أنا نفسي).

المعجزة السابعة: يأتي القديسون والبطاركة من العالم الآخر ليطوفوا حول الكعبة، ورغب الملائكة أيضًا في ذلك بشكلٍ ملح ولكن حُرِّم عليهم ذلك؛ لأنه طبقًا للإسلام تعتبر الملائكة كائنات أقل درجة من البشر ولا يُسمح لهم بالصلاة في نفس الأماكن التي يصلي فيها المسلمون.

(أما بخصوص الأشباح التي تزور الكعبة، فهم أشباح أحياء، وهم الشحاذون المعدمون الذين يبدون مثل هياكل عظمية من شدة الهزال والجوع، أغلبهم من الهنود، يطلبون الصدقات من الحجيج بأصوات ضعيفة تكاد لا تُسمع).

إن تقارير الكتاب سواء المكتوبة باليونانية القديمة أو اللاتينية أو البيزنطية أو هؤلاء الكتاب العرب أمثال العسكري (Askari) وأبو الفدا (Abu-ul-Feda) وأسامي (Asa-mi) وغيرهم، ليست أكثر مصداقية من الأساطير الوارد ذكرها آنفًا؛ حتى وإن اشتملت على ثمة شيء من الحقيقة في خضم هذه الفوضى من الأساطير، وذلك لأنها غالبًا مستمدة من عصور تاريخية ورد ذكرها فيها باختصار شديد.

هذا لا يدع أدنى مجال للشك في أن العرب كانوا من عبدة الأوثان، ولا يوجد كاتب من العصر القديم يعرف شيئًا عن ديانة الحنيفية الوهمية تلك، التي يزعمها العرب، والقلة القليلة منهم يعرفون حكاية انحدار نسلهم من إبراهيم وإسماعيل التي ترتكز عليها تلك الديانة. وقد ذكر هيرودوت (Herodot) أهم إلهين عند العرب وهم باخوس وأورانيا (أو ربما فينوس وأورانيا). وقد أطلق العرب على باكوس اسم أوراتال (Urotal Orataal, Ollataal) كما ورد عند أبو التاريخ هيرودوت، وقال بوكوكيه عنه ان اسمه "الله تعالى" (Allah Taal) وهو معناه إذن الله الأكبر. وأطلق العرب على أورانيا اسم آليات (Ali-at)، أو الأكثر من ذلك صيغة الجمع كما ذكر بوكوكيه فأسموها آلهة (Aliaha) أي جمع إله، وبالتالي يكون معنى الإسمين معًا أوراتال وآليات "الإله الأكبر والآلهة" (الملائكة ؟)، ولكنني يجب أن أقر هنا أنه بالرغم من تقديري لعلم بوكوكيه إلا أنه يبدو لي أن تحليل الأسماء بهذه الطريقة أمر بعيد الاحتمال، لأنه من الواضح أن المستشرق الكبير قد ركن إلى القياس على أسماء الآلهة في اللغة العبرية مثل يهوه (Jehova) وأدوناي (Adonai) وإلوهيم (Elohim)، فكما يرى بعض علماء اللغة العبرية في كلمة إلوهيم معني الآلهة أو صيغة الجمع للآلهة قاس بوكوكيه أيضًا على ذلك في كلمة (Aliat) ونسب إليها معنى الملائكة أو الآلهة. وبناءًا على رأي علماء اللغة العبرية هؤلاء قد تحتوي الكلمات العبرية

يهوه وإلوهيم على معاني وثنية مثل الإله الأكبر والآلهة الثانوية والملائكة، ولذلك اختفت معاني الشرك بإله واحد في العهد القديم.

ويساهم بوخارت (Bochart) في (Liber 1. Cap.2) في إيجاد معنى آخر لاسم الإله باخوس عندما قسم الكلمة إلى مقطعين (Bar-Chus) واشتق منها معنى جديدا هو "ابن خوس" ، وتحدث بلينوس (Plinius) عن أحد ملوك العرب كان اسمه سابا (Saba) الذي عبده العرب كإله لهم. وقد يكون هذا التأويل بارعا؛ لأن العرب أطلقوا على إلههم اسم باخوس؛ لكن هيرودوت أكد أنهم أسموه أوروتال وأنه يتطابق مع الاسم الاغريقي ديونيسيوس (Dionysios).

ويري البعض أن اسم هذا الإله المحتمل العربي باخوس قد أُشتق من الاسم القديم مكة الذي كان في الأصل اسمه بكة، الذي ظهر فقط في عهد محمد وذُكِر في القرآن في السورة الثانية. لكن هذا التفسير لاسم مكة خاطيء مثل اشتقاق اسم ابن - خوس؛ لأنه من الواضح أن العرب لم يعرفوا اسم باخوس. عندما أطلق هيرودوت اسم أورتال على إله العرب، الذي قد سمعه وكتبه بطريقة خاطئة، وفسره على أنه باخوس الإغريقي وزوجته هي أورنيا بطلا الأسطورة اليونانية، فقد وقع في الخطأ الذي وقع فيه كل أهل بلدته الذين يرون عدم الأصالة ومحاولة تقليد اليونانيين في كل أمة عداهم. فلا توجد أدنى علاقة تربط أقدم آلهة العرب بآلهة الأساطير اليونانية، ولو سلَّمنا أن العرب قد نقلوا طريقة معبد جميع الآلهة (البانثيون) من شعوبٍ أخرى، فسيكون ذلك من الأولى من الشعوب السامية مثل سوريا وبلاد ما بين النهرين والفينيقيين أكثر من أخذهم من أجناسٍ مختلفة تمامًا عنهم مثل اليونانيين. وتوجد أدلة لتأكيد رأيي هذا عند كتاب آخرين.

وطبقًا لما أورده العسكري[1] (Asraki) كان عمر بن لحية ملك الحجاز أول من أدخل عبادة الأوثان في الكعبة، بينما يعتقد كل العلماء العرب أنه في قديم الزمان عبد العرب

١ ذكر المؤلف الاسم Asraki واعتقد أنه سمعه بطريقة خاطئة وكتبه كذلك خطأ لأني أعتقد أنه يقصد بهذا الاسم العسكري وليس الأسركي. وهو الحسن بن علي الهادي الإمام الحادي عشر للشيعة الإثنى عشرية، ولُقِّب بالعسكري نسبة إلى مدينة العسكر وهي مدينة سامراء الحالية حيث أقام بها. (المترجمة)

الله فقط في البيت الحرام. ولكن عامر قد أحضر من بلاد مابين النهرين الإله هُبَل الذي عبده الساميون، وهو ليس إلا الإله بَعل في بلاد الشام وعند الفينيقيين والذي تسبق اسمه الأداة (Ha) ومعناها "البَعل" وهو إله الشمس عند الفينيقيين وفي قرطاجة وربما ورد ذكره في الكتاب المقدس.

وُضع تمثال هُبَل في مقدمة الكعبة؛ وبذلك أصبحت معبدًا مخصصًا لعبادة الإله هُبَل. ويرى العسكري أنه من ذلك الوقت بعد الشروع في عبادة بَعْل بدأ انتشار عبادة الأوثان بين القبائل العربية التي كانوا يعتبرونها في العصور القديمة ديانة الحنيفية. ومع مرور الوقت رغبت كل قبيلة عربية أن يكون لها إله خاص بها. فعبد بنو خزاعة النخلة وأطلقوا على هذا الإله اسم "العُزَّى"، وعبد بنو مناف صخرةً أسموها اللات التي يتشابه اسمها مع اليهات طبقًا لتحليل هيرودوت، واحتفى القرشيون بشجرة كبيرة وأطلقوا عليها ذات العروات، وعلى الصفا والمروة عبدوا أسافة ونائلة؛ أما في الكعبة نفسها فمن المحتمل أنهم عبدوا الحجر الأسود في نفس الوقت مع هُبَل وأطلقوا عليه الإله أكبر. وقد تبرع أحد ملوك الفرس بغزالتين من الذهب لُيعبَدا في البيت الحرام. واشتملت مقدسات الكعبة آنذاك على حمامة مصنوعة من الخشب وزوج من قرون الحمل مذَّهبين ومجموعة من السهام اعتقدوا في معرفتها بالحظ عند تصويبها. وبمرور الوقت تزايد عدد الأوثان حول الكعبة حتى وصل إلى ثلاثمائة وستين وثنًا، أي بمعدل كل يوم في السنة وثن جديد يستقبله بيت الله.

طبقًا لما ذكره العسكري كانت الكعبة أكثر الأماكن تقديسًا لدى القبائل العربية، وإذا جاز التعبير كانت ملاذهم الوطني، اعتادوا أن يحجوا إليها وهم ذرية إسماعيل كما يدَّعون، كما حجت إليها القبائل المجاورة لمكة. ولقد علمت من مصادر جيدة أنه كانت توجد بقاع مقدسة مثل مكة في باقي البلدان العربية حظيت بالتقديس والتعظيم من شعوب هذه المناطق. أحد أهم هذه المقدسات التي نافست الكعبة في مكانتها كان معبد فينوس في صنعاء في الجنوب، وهو ما أُطلِق عليه بيت رمضان[1] (Bit Rhamadan) الذي حطمه الخليفة

١ من الراجح أن المقصود هنا بيت همدان وليس رمضان لأن صنعاء تقع ضمن ما يُشار إليه في النصوص السبئية القديمة بـ«أرضم همدن» (أرض همدان). (المترجمة)

العثماني. ونشأت طبقًا لشهرستان(Schahristan) فيما بعد سبعة بيوت حرام، أُعتبر كل منها مكانًا للحج، ففي كل قضاء كان يوجد بيت تقدسه وتزوره القبائل المجاورة مثلما كان يحدث في الكعبة والشعوب المجاورة لمكة. ووُهبت هذه المعابد السبعة للكواكب السبعة، تلك الأجرام السماوية التي اعتبرها القدامى كواكب سبعة وهي: الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل. وعُبِدَ زُحَل في الكعبة، ويرى آخرون أنها الشمس التي عُبِدت؛ وهذا لأن الإله هُبَل أي بَعْل ومعناه إله الشمس هو أشهر إله عُبِد في الكعبة. إذا ما أخذنا ذلك في الاعتبار فسيكون العسكري محقًا عندما زعم أن هُبَل كان إلهًا لكل العرب؛ لأنه في عصر الجاهلية كانت الآلهة للجميع وكلما عظَّمها الجميع كان ذلك من الأفضل. في مقابل ذلك أصبح لكل شعب إله خاص به، وتعددت الآلهة لكل أمة بعدد شعوبها. وانتشرت عبادة إله الشمس بسرعة كبيرة لدرجة أن أُطلق على الرجال اسم "عبد الشمس" و"عبد الكعبة" و"عبد الدار" (أي البيت الحرام) والجزء الأول من الاسم ليس إلا إعادة صياغة طبقًا لنطقها بالعربية "عبد".

من المعلوم أن هذه الوثنية الانتقائية قد أتاحت قبول كل الآلهة الغريبة في معبدها وتقديس الملوك والأبطال والآباء لدرجة التأليه، وعندما انتقلت قصص الكتاب المقدس إلى أسماع العرب واستحسنوها سريعًا اعتقادًا منهم في أصالتها، ضموا إلى معبد جميع آلهتهم (بنثيونهم) كثيرا من شخوص هذه القصص. فوُضِع تمثال إبراهيم في الكعبة وبنفس الطريقة أُطلِقت عليه نفس الصفات التي كان يتصف بها الإله هُبَل، كما حدث مع السيدة مريم العذراء والمسيح يجلس على حجرها التي رُسِمَت على أحد الأساطين بجانب أحد أبواب الكعبة أو مُثِّلَت وأُسنِد التمثال على هذا الباب. ويحمل إبراهيم (التمثال) في يده سبعة أسهم يستقسم بها للتنبؤ بالغيب، حيث كانت لعبة رشق السهام والاستقسام بالأزلام[1] عادة شائعة للتنبؤ بالحظ والتكهن به آنذاك في الجاهلية. و يحكي المؤرخ العربي

١ كان أهل الجاهلية من عاداتهم الاستقسام بالأزلام، والأزلام سهامٌ تكون في كنانة، وكلُّ سهم منها مكتوب عليه ما يدل على أمر معين، فيستقسمون بها أي يعرضون عليها أفعالهم، فيأتون من يتعود على هذه الحرفة فيعطونه مالًا، فيُخرج سهامه فيرميها، فإذا وقع سهمٌ على شكل معين فذلك أمرٌ للإنسان أن يفعل الفعل الذي يريد، وإن وقع سهمٌ آخر فذلك نهيٌ له عن فعل ذلك الفعل، فإن وقع السهم على جهةِ الكتابة مثلاً قرأوا ما كُتب فيه فعملوا على أساسه، وهذا من التطلع على الغيب ومن الطيرة، وكل ذلك من أمر الجاهلية. (المترجمة)

الجناب[1] (el Dschenab) أنه عندما فتح محمد العربيُّ مكة في العام الثامن الهجري ودخل الكعبة، وجد تمثال إبراهيم الذي كان يحمل سهام التكهن بالمستقبل في اليد اليمنى بجانب باقي التماثيل فصاح بكل سخط وحنق: "لعن الله من صنع هذه التماثيل، لقد جعلتم أسلافنا كهنة وسحرة. ما دخل إبراهيم بالسحر؟" ثم حطم محمد كل التماثيل.

وإذا اختلفت الآراء بشأن الوقت الزمني المحدد الذي بُنيَت فيه الكعبة وخُصِصت لعبادة الأوثان، فقد نتفق إذن بخصوص آخر مرة عُبِدَت فيها الأوثان والأنصاب، وقد حدث ذلك في شباب النبي محمد. وقد تولت قريش ولاية مكة وسدانة الكعبة آنذاك بدلًا من بني قصي الذين ينحدرون من قبيلة الجراهمة التي طردها أولاد إسماعيل. وألقى آخر حاكم لمكة من قبيلة جرهم بالحجر الأسود والغزالتين الذهبيتين في بئر زمزم عندما غادر المدينة. أُريقت مياه البئر وطُمرت حتى اكتشفها من جديد جد محمد ؛ الذي نذر أن يذبح ابنه إذا ما أوحى الله له بمكان بئر زمزم، وقد احترقت الكعبة كاملة في عهد شباب محمد واحترق معها عدد كبير من التماثيل معظمها كانت تلك التي صُنعت من الخشب.

أعادت قريش بناء الكعبة من جديد؛ ولكن من الخشب بأبعادٍ أصغر من كعبة الجراهمة التي كانت لها أبعاد هامة؛ إلا أننا لا نعرفها. ارتكزت هذه الكعبة الجديدة على ستة أعمدة وثُبِّتَ على سقفها الإله هُبل إله الشمس. في هذه الظروف دخلت الكعبةَ مجموعةٌ جديدةٌ من الآلهة، من بينها مجموعة تمثل الملائكة. ومن المرجح أن تقديس إبراهيم وتعظيمه قد تزايد آنذاك؛ لأن القرشيين عظَّموا إبراهيم أباهم المفترض. هذه السهولة في اعتناق الوثنيين لكل إله جديد جعلت محمدًا يفكر في تأسيس دين جديد يقوم على الدعوة إلى التوحيد؛ ولهذا واجه صعابًا كبيرة في سبيل الدعوة إلى هذا الدين الحنيف.

ولأن قصة نبوة محمد معلومة بالطبع لغالبية القراء؛ لذا أقتصر هنا في سرد تاريخ الكعبة على ذكر مؤسس الدين الإسلامي محمد فيما يخص علاقته بالبيت الحرام فقط.

بعد مضي ثمانية أعوام على هجرة محمد من مكة إلى المدينة فتح مكة المكرمة ودخل الكعبة منتصرًا، فوجد فيها مجموعة من تماثيل للملائكة وصور للبشر والحيوانات من

١ أعتقد أن الشخصية المقصودة هنا زهير بن جَناب بن هُبل بن عبد الله من شعراء الجاهلية القدماء وهو من المعمرين آنذاك. (المترجمة)

بينها تمثال على هيئة حمامة نوح تلك الحمامة المقدسة التي أطلقها نوح من سفينته (يُعد ذلك مرة أخرى استعمال وثني لقصص الإنجيل). وبعد أن حطمها هو بيده تبعه مريدوه وكسروا باقي التماثيل، وأمر تلميذه المحبب إليه وصهره عليًّا أن يصعد لأعلى الكعبة وينزل الأصنام التي على سطحها. وقد عرض النبي على عليٍّ كتفيه ليستند عليهما وهو يصعد لسطح الكعبة، ومن هنا نستنتج أن الكعبة آنذاك كانت أقل انخفاضًا مما هي عليه اليوم. ويذكر المؤرخ العربى الجناب (el Dschenab) اسم الصنم الذي هوى به عليٌّ لأسفل أنه خوزاية (Chosaja) ربما يكون اسمًا آخرًا لهُبَل أو ربما يكون تمثالًا آخر فوق الكعبة. وأعلن محمد، الذي كان يدأب على بقاء العادات الوثنية للعرب مع إضفاء طابع مقدس جديد من خلال دينه الحنيف[1]، أن ثلاثة من هذه الأصنام التي كانت تُعبد في الكعبة هم خدم وملائكة الله الأحد. هذه الأصنام كانت اللات ومناة والعُزى، وهي عبارة عن آلهة وثنية ذكرهم القرآن في السورة الثالثة والخمسين، والذين هم الآن عبارة عن ملائكة طبقًا للدين الإسلامي كما ورد في كتاب بوكوكيه (specimina historia Arabum).

لَّمح محمد في السورة الثالثة والخمسين أن العرب كانوا يؤمنون بديانة الحنيفية بخلاف عبادتهم للأوثان[2]، ويعتقد علماء الدين الإسلامي أن لواء التوحيد قد شمل العرب قبل تفشي عبادة الأوثان التي سادت البيئة الحجازية بعد إبراهيم ودعوته للتوحيد. وارتكز هذا الاعتقاد القائل بأن دين التوحيد كان أقدم ديانة للعرب على مبدأ النبوة المستمرة من سلالة شيث ومن بعده إبراهيم الذي ينحدر من نسله كل الرسل ومن ولده اسحق بينما

---

١ في البيت الحرام بعد الفتح وجد المسلمون ما كانوا قد وجدوه في عمرة القضاء من أصنام حول الكعبة وقد تركها الرسول ﷺ آنذاك لا باسم المهادنة أو المساومة أو الحل الوسط، ولكن باسم التخطيط، والتدرج، وأسلوب المراحل. (المترجمة)

٢ دخَلَتْ عبادةُ الأصنامِ والأوثان في مكة بعد إبراهيم الخليل عليه السلام على يد عمرو بن لحي، ولكنها لم تكن في بداية أمرها بتلك الصورة التي وصلت إليها فيما بعد فقد كانوا يعتبرونها في بداية الأمر شفعاء إلى اللهّ ووسطاء بينه وبينهم، فقد كان مشركو العرب في عصر البعثة يؤمنون بأن الله تعالى هو رب العالمين، وخالق الخلق ومدبر أموره، وإنما كانوا يشركون بعبادته غيره من الملائكة والجن والأصنام، ولكنهم تجاوزوا هذا الحد فيما بعد حتّى صاروا يعتقدون شيئًا فشيئًا بأنها أصحاب قدرة ذاتية مستقلة، وأنها بالتالي آلهة وأرباب. وباتت الوثنيّة بمرور الوقت العقيدة الرائجة في الجزيرة العربية، وقد تفشَّتْ فيهم في مظاهرَ متنوعة ومتعددة وكانت الكعبة الشريفة في الحقيقة محطَّ أصنام العرب الجاهلية وآلهتهم المنحوتة، فقد كان لكل قبيلة في هذا البيت صنم، وبلغ عدد الأصنام الموضوعة في ذلك المكان المقدس (٣٦٠) صنمًا من مختلف الأشكال والهيئات والصور. (المترجمة)

ينحدر نسل الرسول الأخير والمفترض أنه الأعلى منزلة محمد من نسل إسماعيل. أراد محمد مؤسس الدين الإسلامي أن يجد إذن مرتكزًا يستند عليه في دعوته لدين التوحيد وإفراد العبادة لإله واحد ودليلًا تهتدي إليه القبائل العربية، فاعتمد على أن العرب كانوا يعلمون بوجود ذات سامية في الكون تستحق التفضيل على سائر الآلهة وإن كانت هذه المعلومة مضللة وخاطئة. حاول محمد أن يوظِّف هذه الفطرة الطبيعية في العرب وهي خلقهم على ملة التوحيد، التي ثبتت في تاريخ ديانات العرب الوثنيين حينما أشار إلى أن التوحيد كان الدين الحقيقي للعرب قبل الولوغ في الوثنية وانتشارها بمرور الزمن، وبذلك يكون قد تودد محمد إلى العرب وحاول استمالتهم بالإطراء على شعورهم القومي بالفخر ومغازلتهم بأنهم باعتناقهم الإسلام يكونوا إذن قد عادوا إلى دينهم القديم المُرَجَّح أنه أُوحيَ به للعرب، وترتب على ذلك تبلور هذا الوهم الذي لا يزال قائمًا حتى اليوم عند كثير من المسلمين وهو اعتقادهم بأزلية إيمانهم بإلهٍ واحد، نعم لا يُعد ذلك إلا وهمًا؛ لأنه لو كانت تكونت عند بعض الشعوب العربية القديمة مبادئ التوحيد كمكون أساس لدياناتهم لظلت إذن مستترة بشكلٍ طبيعي تحت ضغط الهراء الوثني، كما أنه ثَبُت من خلال أبحاث تاريخ الأديان الدقيقة عند كل الشعوب بدون استثناء حتى عند اليهود الذين يعتنقون التوحيد أن الوثنية هي أصل وبداية كل الديانات. إن الأفكار التوحيدية التي يعتقد البعض أنها تشكل قاعدة لبعض التعاليم ترتكز فقط على بعض التقاليد التي نشأت في مهد هذه التعاليم وعلى تَذكُر النشأة والتطور التدريجي لتعدد الآلهة؛ لأنه قد يكون من المفهوم ألا تكون عبادة كل هذه الآلهة قد بدأت في نفس الوقت؛ بل بعبادة واحد تلو الآخر، وذلك الإله الذي بات الأول عن طريق الصدفة كما شاع فقط في تصورات الشعب الذي عبده، سواء كان هذا الإله هو إله الشمس عند الفينيقيين أو بلوتو أو المشترى أو المريخ أو آمون راع عند المصريين أو حتى هُبَل عند العرب، يُنظر إليه نوعًا ماً على أنه الإله الأسمى، وكل الآلهة فيما عداه والتي شرعت الشعوب في عبادتها تباعًا ليست إلا كواكب صناعية مقارنة به. لهذا السبب فقط لا غير ظهرت الأفكار التوحيدية عند العرب؛ بينما يرى علماء الدين أن أصول الحنيفية تكمن في النبوة والوحي

الذي استمر في النزول منذ زمن آدم إلى محمد. ومن الأرجح أن يكون هذا الإله السامي الأول الذي قدسه العرب هو هُبَل الوارد ذكره هنا كثيرًا. وأُهملت بشكلٍ غريب عبادة هذا الإله الذي أطلقوا عليه "الرب" بالمعنى الحصري للكلمة وباتوا ينظرون لهذا الإله المتسامي على أنه لا قيمة له مثلما كان يظن أبيقور بأن الآلهة لا تضر ولا تنفع، ومثلما تعامل الهنود مع "الروح العليا" في شمال أمريكا حينما رأوا أنه لا جدوى من عبادتها ووجهوا دعاءهم لآلهة العالم السفلي والشياطين. وخير مثال على تقليص قيمة الآلهة الرئيسة عند العرب القدامى وانحسار العبادة على آلهة أقل رتبة هو التقرب إلى الآلهة بما يزرعونه في حقولهم، فقد اعتادوا تقسيم محصولاتهم لقسمين كما ذكر المؤرخون ميرخوند وخوندمير (Mirchond und Chondemir) (كما ورد عند بوكوكيه) فيعطون النصف الأول للإله هُبَل والباقي لباقي الآلهة الفرعية، وعندما يكتشفون أن شيئًا من الجزء الخاص بالأصنام قد ضُم عن طريق الخطأ مع قربان الرب هُبَل فسرعان ما يعوضونه بمنتهى الضمير حرصًا منهم ألا تعاني هذه الأصنام من أية خسائر. أما إذا ما حدث العكس وذهب شيء من نصيب الرب إلى الأصنام فلا يُسترد ويبقى في حيازة هذه الآلهة الأقل رتبة، وطبق العرب هذا المبدأ في ري الأراضي حيث رُويت أراضي الأصنام بعناية فائقة وزُوِّدت بقنوات صغيرة كي تظل الأرض رطبة دائمًا مما يضمن خصوبتها، على النقيض من ذلك ظلت أرض الرب جافة وتُرك أمرها لملاكه الحارس الذي يترك ذلك الأمر إلى الأمطار التي تقرر ري أرض هذه الآلهة الفرعية من عدمه. ولندرة سقوط الأمطار في الجزيرة العربية التي تجعل الأرض خصبة، حصدت أرض الرب أسوأ المحاصيل وقلل ذلك من شأنه وهيبته بين الناس التي اعتادوا إظهارها للإله المتسامي المُفترض وجوده. كما ذكر محمد في السورة الثالثة والخمسين أن العرب كانوا يقدمون للآلهة قربانًا من الإناث فقط؛ وبالأخص من الإناث حديثي الولادة؛ لأنهم كانوا يحتقرون كل ما جنسه أنثى بشكلٍ كبير، فكل مولودة أنثى اعتبروها نذير شؤم، واتضح ذلك أكثر من خلال إهمال عبادة الإله السامي. يجب أن نعزي الفضل ونعترف بشجاعة الرسول محمد أولًا لأنه استشعر الأفكار التوحيدية هذه في معترك عبادة هذا الإله (الكعبة) الذي صار في الظل مُهَمَّشًا،

وأخيرًا لأنه أقدم على تطهيرها من الخبث الذي تراكم عليها آلاف السنين بسبب عبادة الأوثان والأصنام. على أيّة حال فقد كان شديد الذكاء عندما أقر الأفكار التوحيدية كفطرة أزلية عند قومه أو تظاهر بهذا الاعتراف؛ لأن الشخص الذي لا يبحث سوى عن الشهرة سوف يحاول الادعاء بأن أفكاره الخاصة أفكار جديدة للغاية لم يسبقه أحد إليها.

من ناحيةٍ أخري يستحق محمد منا تمام الاعتراف بفطنته بسبب محافظته على كل ما أمكن بقاؤه من المعالم الوثنية لحياة العرب، كما ندينه بشدة بسبب خداعه وتفريطه في أمانة المبادئ التوحيدية؛ فقد أبدى استياءه وهو محب الدنيا عندما أظهر بعض مريديه الشباب مثل عليٍّ وعمر تعظيمًا أقل للحجر الأسود. كان ذلك العامل الأساس في كثرة عدد أتباعه في الدين الجديد، فقد كان بإمكانه القضاء على عدد كبير من المقدسات الوثنية؛ لكنه أطفى عليها نوعًا جديدًا من القدسية وأبقاها كما هي، وهذه المقدسات هي:

١- الكعبة التي كانت معبدًا للأصنام والأوثان. فقد ادعى محمد أنها أول بيت لله بناه إبراهيم وبذلك يكون أزال عنها شبهة تعظيم معبد وثني التي تتعارض مع اعتقاد الوثنيين الحق.

٢-الحجر الأسود: أقدم رمز للإله أكبر وزُعِم أنه حجر مقدس نزل من السماء.

٣-بئر زمزم.

٤-الصفا والمروة.

٥-وادي منى.

٦-جبل عرفات.

سوف أتحدث بشيء من التفصيل عن المقدس الثالث والرابع في الفصل القادم وعن الخامس والسادس في موضع الحديث عن الحج بعد ذكر الجبل المبارك.

في السنة الثامنة بعد الهجرة، أي في عام ٦٣٠ بعد الميلاد انتهى تاريخ الكعبة كمعقلٍ لعبادة الأوثان والأنصاب، منذ ذلك الحين باتت الكعبة مركز الإسلام على الأرض تمامًا مثل معبد اليهود في القدس، وصارت قِبلة المسلمين في صلاتهم أي النقطة المركزية لتحديد اتجاه الصلاة. وأُطلق عليها في هذه الأثناء الاسم الصوفي "بكة أسماكيش"

(Bekka Ismakesch) والذي ربما يكون حَرَّفه البيزنطيون طبقًا لأحد الكلمات العربية. يرى أويتيميوس (Euthymius) الذي يرجع كل شيء (حتى عبارة الله أكبر) إلى أصلٍ وثنيّ في الاسم "بكة إسماكيش" اسم إلهين، أولهما باكوس وثانيهما يجب أن يكون ماكيش (Makesch). أما بوكوكيه فقد جرد ذلك الاسم من معناه الصوفي عندما فسر هذا الاسم على أنه "بكة اسم مكة" أي بكة هي اسم بلد لمكة، مثلما فسر أويتيميوس وقلدّه في ذلك يوسف بن سمعانا السمعاني في تفسير كلمة أكبر، كما ذكرت ذلك سالفًا: "الله أكبر" كانت في عصر الجاهلية الوثنية "الله و أكبر" أي "الإله الله والربة أكبر". لقد أبقى محمد الطابع الوثني لبعض الأماكن ولكن صلوات المسلمين ودعوتهم كانت على ملة الحنيفية.

أعتقد أنه لا يمكن تحديد مركز القبلة في الكعبة بأكملها أي في هذا المبنى ذي الجدران الأربعة؛ لأنه من المفترض أن النقطة المركزية هي الحد الأدنى في الصغر، ويترتب على ذلك استحالة تبينها في الكعبة وفقًا لعلم الرياضيات، كما أنه من الطبيعي أن نبحث عن هذه النقطة نفسها في أي موضع آخر في الكعبة. ولو صح أن الكعبة هي القبلة، فأين إذن قبلة القبلة؟ أي في أي اتجاه نتوجه عند الصلاة في الكعبة؟ سوف يفكر أي أوربي بالطبع في التوجه صوب مركزها. لا يتفق المسلمون فيما بينهم على رأي بخصوص هذا الأمر؛ لأنه لا يُسمح للكثيرين منهم بدخول الكعبة؛ لذا فهم لا يشعرون بأهمية تحري واكتشاف مكان هذه النقطة، كما أنه لا يجب أن نطلب من المسلمين أي استنتاجات رياضية، كما أن النقطة المركزية للبيت الحرام لا تُعتبر أكثر قداسة من جدرانه، وقد أكدّ لي بعض العرب أنهم لم يسجدوا في الكعبة مرة واحدة لأنهم لم يعرفوا إلى أيّة جهة كان عليهم أن يتجهوا في صلاتهم، ربما كان السبب في ذلك تدافع الناس وتزاحمهم في الأيام الثلاثة التي تُفتح فيها أبواب البيت الحرام. فقط القلة القليلة من الحجيج أقدمت على صلاة الثماني ركعات التي تستلزم السجود ست عشرة مرة في داخل الكعبة، أي سجدتان في كل ركعة.

أما الحجاج الذين يصلون خارج الكعبة فلن يخطئوا في تحديد الاتجاه الصحيح بسهولة الذي سيسجدون صوبه. ربما يكون هذا هو السبب الرئيس في تقليل السماح بزيارة الكعبة من الداخل، وقلّما تُفتح أبوابها؛ لأن تكرر دخولها سيؤدي حتمًا إلى صحوة دينية ونزاعات بين المتشددين.

لقد ترك محمد مبنى الكعبة على الحالة التي وجده عليها، حتى في عهد أتباعه لم تعتر البيت الحرام أيّة تغييرات أساسية، حيث اكتفوا فقط بتجميله من الخارج وبنى عمر بن الخطاب أول مسجد حول البيت الحرام ووسّعه عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين.

ليس من المعلوم المدة الزمنية التي ظلت الكعبة فيها معقلًا وثنيًّا؛ لكنها احترقت بالكامل في عام ٦٨٥ بعد الميلاد بعدما حاصرها حاكم دمشق يزيد بن معاوية ورماها بالمنجنيق؛ لكن عبد الله بن الزبير نجح آنذاك في طرده من مكة وأعاد بناء الكعبة وسمح لنفسه بالقيام بتجديدات مما أثار حفيظة الكثيرين من المسلمين المحافظين المتمسكين بالقديم. فقد ضم الحطيم، ذلك المكان الذي حول قبر إسماعيل، إلى البيت الحرام، وأمر بحفر بئر هناك مكانه أسماه بئر حاصف (Bir Hasef)، وبدلًا من الستة أعمدة في البناء القديم صاروا ثلاثة فقط، وأما السطح الذي كان يتكون من دور واحد فقد صار مزدوجًا، بالإضافة إلى ذلك كان أكبر تجديد قام به هو إنشاء عدة أبواب للكعبة، فقد قام بزيادة باب آخر أو بابين على مستوى الأرض بدلًا من الباب الوحيد القديم الذي كان مرتفعًا عن الأرض ويصعب فتحه وقفله.

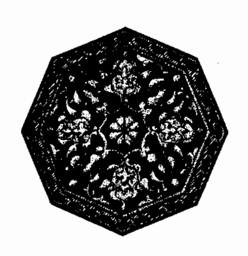
بعد مرور حوالي عشرين سنة بعدما مات مجدد الكعبة عبد الله بن الزبير وبناءًا على رغبات عامة للمسلمين الورعين أُرجعت الكعبة إلى شكلها القديم أو على الأقل غدت تضاهيه، حيث عمد الحجاج بن يوسف أمير الحجاز، الذي أمره الخليفة الأموي بتولي مهام مكة آنذاك، إلى تقليل أبعاد الكعبة عن طريق استبعاد الحطيم مرة أخرى، وترك فقط ذلك السور الذي يحيط الآن بقبر إسماعيل على شكل نصف دائرة. كما أحاط كل المداخل التي أنشأها عبد الله بن الزبير بأسوار وترك بابًا واحدًا فقط مفتوحًا، وهو الموجود في وقتنا هذا ويرتفع عن الأرض سبعة أقدام.

ظلت الكعبة على هذا الشكل حتى يومنا هذا، وبالرغم مما عانته من تصدعات وهدم جرَّاء الحروب والحرائق والسيول إلا أنه كان يُعاد بناؤها طبقا لشكلها القديم. توجد قصة تخبرنا بحادثة هدم الكعبة بالكامل في عام ١٦٢٦ بعد الميلاد، عندما داهمت مكة آنذاك أمطار غزيرة أدت إلى سيلٍ عارم انحدر من فوق جبل النور وأغرق صحن المسجد بالكامل وبه خمسمائة حاج كانوا يؤدون الصلاة وجرف معه ثلاثة جدران من الكعبة، وتصَدَّع الجدار الرابع حتى صار هدمه واجبًا قبل الإقدام على إعادة بنائها، والتي ظلت على أيَّة حال على شكلها القديم وتلك هي أيضًا الكعبة التي جدَّدها بن يوسف الثقفي.

منذ تلك الآونة ظلت الكعبة على هذا الحال بلا أي تغيير فيها، واسم "بيت الله" قد ألحقه بها من قام على سدانتها بعد محمد، أمَّا اسم الكعبة فهذا لأنها مكعبة الشكل، وفي عصر عبد الله بن الزبير طابق شكلها اسمها في الحقيقة؛ لأن طولها وعرضها فيما مضى كانا بالكاد متطابقين؛ ولكنها بالرغم من ذلك كان يُطلق عليها كعبة. استمر تطابق شكل الكعبة مع اسمها أي كما بناها عبد الله ابن الزبير عشرين عامًا فقط لأن بن يوسف الثقفي بناها من جديد بعد عبد الله ابن الزبير وجعل ارتفاعها يكاد يبلغ ضعف طولها.

لم يكن من المعهود لدى العرب في العصور القديمة عدم تغطية الكعبة، ولمَّا كانت معبدًا لعبادة الأوثان والأصنام شاع تغيير كسوتها المصنوعة من الأقمشة المزركشة آنذاك مرتين في السنة، وكانت الكسوة القديمة تُترك وتوضع الجديدة فوقها، حتى صارت في أحد الأوقات ثقلًا يشكل خطرًا على الكعبة، وظل هذا العُرف قائمًا معمولًا به حتى القرون الأولى في صدر الإسلام، حتى عام ٧٨٢ بعد الميلاد حين أمر خليفة بغداد المهدي بتجريد الكعبة من كل الكِسا القديمة خوفًا من أن يؤدي ثقل الأغطية الكثيرة فوق سطحها إلى سقوطه مع مرور الوقت، ومنذ ذلك الحين تُكسى الكعبة بكسوة واحدة ظلت على شكلها منذ عهد محمد لم تتغير حتى يومنا هذا. أمَّا ما يخص لونها فلم تكن الكسوة دائمًا لونها أسود؛ لقد استعمل الوثنيون كسوات بألوانٍ مزركشة ومتعددة، وكانت تُكسى الكعبة آنذاك مرة في الربيع وأخرى في الشتاء، وكلا الكسوتين كانتا ملونتين. وزاد الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي الشقيِّ الذي استمرت خلافته عامًا واحدًا

بطانة بيضاء تحت الكسوة. كما اعتاد الخلفاء الأميون إرسال كسوة الكعبة مرة كل عام؛ حيث كانت تُصنع من الديباج الأحمر وتُرسل إلى مكة من دمشق؛ لأن شرف إهداء كسوة الكعبة اقتصر فيما مضى على سادة مكة. وفي بداية القرن الثامن حينما تولى العباسيون الخلافة اختاروا اللون الأسود لكسوة الكعبة، وتبعهم في ذلك باقي الحكام في مكة حتى سلاطين مصر أبقوا على ذلك اللون، وتبعهم منذ القرن السادس عشر الأتراك في ذلك اللون.





الفصل الثالث عشر
مكة - أماكن مقدسة أخرى حول المسجد الحرام

سرد أهم الأماكن المقدسة في صحن المسجد - ذكر الأماكن المقدسة الأقل رتبة في صحن نفس المسجد - أماكن صلاة الطوائف الأرثوذكسية (المذاهب) الأربعة - المكتبة - وقفة عند بئر زمزم - الاكتشاف العظيم لبئر زمزم - هاجر الأم تؤسس العرف الديني للسعى - المعجزات الأربعة لبئر زمزم -الاستشفاء بمياه البئر بطريقة بربرية - المنظر المضحك للحجيج المبتلين بالماء - منبر محمد - الصلاة الأخيرة - الخلاص الأخير من عذاب أول شعيرة في الحج - شارع الإحساء.

بخلاف الكعبة يحتوي صحن المسجد الكبير على هذه الأضرحة والأماكن المقدسة التالية والتي يجب على الحاج أن يقدسها ويظهر ورعه لها:

١- **مقام سيدنا إبراهيم**: الذي غالبًا ما يُعرَّف بأنه أثر أقدام إبراهيم. ذكر (Echeliensis) في (Saracenis a Sylburgo editis) أن هذا الحجر الموجود هنا والذي يمكن رؤية أثر قدمي سيدنا إبراهيم الكبير والغائر هو نفس الحجر (in quo Abrahamus cum Agare coivit.). كما يطلق عليه آخرون الحجر الأسود الذي وقف عليه إسماعيل. فيما عدا ذلك فقد ذكرت سابقًا كل ما يتعلق بمقام إبراهيم.

٢-**المنبر**: هو ذلك المنبر الذي كان يقف عليه محمد لإلقاء خطبته.

٣-**باب السلام**: عبارة عن قوس قائم بذاته يمر من تحته الحجيج الذين يزورون الكعبة لأول مرة.

٤-**الدرج**: عبارة عن سلم متنقلٍّ يساعد على الدخول إلى داخل الكعبة ويُوضع عادةً بجانب باب السلام، على بعد ما يقرب من عشرين خطوة من الكعبة. وفي بعض المناسبات عندما يُفتح باب الكعبة يُوضع الدرج على الحائط الشمالي لبيت الله تحت باب الحرم الشريف.

٥-**بئر زمزم؟**

بخلاف هذه الأماكن المقدسة بالمعنى الدقيق للكلمة (لن أتناول هذه المقدسات الآتية: الحجر الأسود، المقام، قبر إسماعيل، الركن اليماني والميزاب مرة أخرى؛ لأني ذكرتهم بالتفصيل في باب الكعبة لأنه لا ينفك ذكرهم عن الكعبة) يوجد عدد من المقامات[1] في صحن المسجد ليس لها وجود في شعائر الحج؛ لأنها ليست مقدسات، أو لا تحتوي على آثار. من هذه المقامات ما يأتي:

١- **المقام الحنبلي**: يقع ملاصقا لبئر زمزم مستقبلًا الحجر الأسود وهو عبارة عن مصلى جميل بلا جدران مظلل بسقفٍ مدبب يشبه معبد (Pagode)، تحمله أربعة أعمدة رفيعة حلزونية الشكل، ويشبه حصن كابيلا (Capellen) الذي شيده المرابطون في الصحراء الجزائرية. الحنابلة هم أحد المذاهب الأربعة التي لكل واحد منهم في مكة مفتي وإمام وعلماء خاصين بهم، والغرض من بناء هذا المقام أن يؤم الإمام الحنبلي أتباع هذا المذهب في وقت كل صلاة لتأديتها؛ ينوب عن الإمام المفتي في الصلاة بالحنابلة في المناسبات الرسمية، ولكن في الحقيقة يمكن لكل مسلم أن يتولى الإمامة في الصلاة إذا كان حافظًا للجزء الأول من القرآن. ولأن الحنابلة كانوا أقليَّة، ولَمَّا كانت المذاهب الأربعة لا تركن إلى التحريض على التعصب فيما بينها؛ ولكن يعتبر أتباع كل المذاهب الأربعة متساويين لا فضل لأتباع مذهب

١ تستعمل كمحاريب للصلاة وكل مقام عبارة عن مصلى لأتباع كل مذهب من المذاهب الأربعة (المترجمة).

على الآخر، تواجد في المقام الحنبلي كثير من الحنفية، وفي أوقات محددة يكون المقام الحنبلي مصلى لأفراد السلطات التركية الأرستقراطيين.

٢- **المقام المالكي**: يقع في الجانب الجنوبي للكعبة. يتماثل بناؤه مع المقام الحنبلي الذي ذكرته في الفقرة السابقة. المالكية هم أتباع المذهب المالكي الذي يسود في منطقة المغرب العربي (شمال غرب أفريقيا) من تونس حتى المغرب ويتبعه أيضًا تقريبًا كل الجزائريين مع وجود استثناءات قليلة. ولأني تنقلت في رحلتي بجواز سفر باسم جزائري كان حريًا بي أن أتَّبع أنا أيضًا هذا المذهب؛ لكني حميت نفسي من الانضمام إلى المالكيين. لأنه لو كنت فعلت ذلك واتبعتهم لكان عليَّ أن أؤدي الصلوات في المقام المالكي وخلف الإمام، متأخرًا ساعة عن باقي المذاهب كلما زرت المسجد الحرام، على الأقل خوفًا ألا يكتشف أحد عدم حضوري للصلاة، وحرصًا على ألّا يكتشف أحد هويتي المزورة؛ لأن التعامل مع الكثير من الجزائريين، أهل بلدي المفترضين، كان سيؤدي حتمًا إلى اكتشاف الشخصية غير المقدسة التي تتخفى في ثياب الحاج التقي عبدالرحمن بن محمد. حتى ذلك الحين كنت أتبع طقوس المالكية كلها لسبب رئيس وهو أن عدد ركعات الصلاة طبقًا للمذهب المالكي أقل بكثير وأقل مشقة عن الصلاة في باقي المذاهب؛ فالمالكية يصلون نصف عدد الركعات التي يصليها الحنفية.[1] ولكني وقعت بسبب ذلك في مأزقٍ صعب نوعًا ما؛ فلو أردت أن أكمل مع المالكية كان سيؤدي ذلك إلى مخالطتي مع الجزائريين، ولو عدلت عن هذا المذهب إلى غيره فسوف يلفت ذلك أنظار رفاقي القدامى إليَّ، ولطالما تجنبت مخالطتهم لتوقي أقل الضرر. لذلك كذبت وأخبرت المُطوِّف المرافق لي صادق بن حنيفة وكذلك كل الناس الذين سألوني، أني وُلدت في الجزائر ولكني لم أكن أتبع مذهب المالكية بل الحنفية. لم تكن حيلتي هذه ملفتة للنظر لأنه يعيش هناك ذرية من الأتراك التي كانت تحكم الجزائر، وكانوا يعتنقون المذهب الحنفي. لقد بُني كل من

١ يخلط المؤلف الصلاة المفروضة بصلاة السنة والمستحب بعد الفروض لجهله. (المراجع).

المقام المالكي والحنبلي المذكورين آنفًا بشكلهما الحالي في عام ١٥٩٧ بتكليفٍ من السلطان بايازيد الثاني.

٣-**المقام الحنفي**: يقع في الجهة الغربية للكعبة في نفس اتجاه حجر إسماعيل والحُطيم اللذين أُشير إليهما في مواضع سابقة. ويتميز عن سائر المقامات بأنه أكبرهم، فيبلغ طوله ثلاثين قدمًا وعرضه خمسة عشر، وهو عبارة عن بناء مربع الشكل؛ ولكن بلا جدران من جميع النواحي مثل باقي المقامات. يتكون من دورين يحتوي أولهما على اثني عشر عامودًا والثاني ستة أعمدة. يقف المفتي الخاص بهذا المذهب ومعاونوه في الدور السفلي في أوقات الصلاة، ويؤذن المؤذن في الطابق العلوي معلنًا دخول وقت الصلاة. بُنِيَ المقام الحنفي الأصلي في عام ١٥٤٥م بتكليف من السلطان سليم الأول، وأمر بترميمه في عام ١٥٨٩ رئيس الإسطبل الملكي مصطفى باشا، الذي كان حينذاك حاكمًا لجدة، بتكليفٍ من الوالي العثماني، ويعتبر المذهب الحنفي المذهب الأكثر انتشارًا وتميزًا بسبب إتباع كل الأتراك تقريبا والسلطان العثماني نفسه لهذا المذهب، ويشكل أتباع هذا المذهب العدد الأكثر بين سائر المذاهب الأخرى؛ بينما يُعد كل من المذهب الحنفي والمالكي الأكثر انتشارًا عن الشافعي والحنبلي. أمّا ما يتعلق بالمذهب الرابع وهو الشافعي، فليس لأتباعه مقام خاص بهم؛ فقد اعتاد الإمام أن يقيم في المقام القائم على ستة أعمدة الذي يقع فوق مقام إبراهيم، هذا المقام مُحاط من أحد جوانبه بحاجز شبكي وبالتالي لا يمكن دخوله؛ لكنه مفتوح من الجانب الآخر المقابل للكعبة. بالإضافة إلى هذا المقام الصغير كان للشافعية مقام آخر يقيم فيه الإمام والمفتى إذا ما اقتضى الأمر التشاور في شيء والبت فيه، لأن هذا المكان فوق مقام إبراهيم صغير جدًا عن أن يفي بغرض سد مطالب أتباع المذهب فيه. هذا المقام الثاني يُوجد في الطابق الثاني للبناء الذي يحوي بئر زمزم، الذي سنتحدث عنه لاحقًا بالتفصيل. بذلك يكون للشافعية مكانين يقومون فيهما بالإجراءات القانونية والدينية الخاصة بأتباع مذهبهم؛ لكن ليس لديهم مكان خاص بهم للصلاة مقصور عليهم فقط؛ ولهذا

السبب قال العرب: "أتباع الشافعية لهم مقامان ولكنه بالفعل لا يوجد شئ." إن أتباع هذا المذهب ليسوا كثيرين؛ لكنهم ينحدرون من أعرق العائلات في شبه الجزيرة العربية وفلسطين وسوريا.

٤-و ٥- **القبتان**: حُسِم عدد الأبنية الدينية في صحن المسجد في مكة من خلال القبتين. فكلاهما عبارة عن مبنى كئيب مربع الشكل تعلوه قبتان يحوطهما سور، ومن ثَمَ يشكلان في طغيانهما الفج على المكان تناقضًا واضحًا مع شكل المقام الأنيق المفتوح بلا جدران المكون فقط من سقف وأعمدة. أمر السلطان محمد الثاني، فاتح القسطنطينية، في عام ١٥٤٠ ببناء هاتين القبتين على هذا الشكل الحالي. تقع هاتان القبتان بمنظرهما الكئيب خلف بئر زمزم، في شمال شرق صحن الطواف، وعلى مساحة كبيرة أكبر من مساحة المكان المنخفض المحيط بالكعبة، الذي يجب النزول إليه من جميع النواحي، وعندما يدلف الحاج إلى صحن الطواف بالمسجد من باب النبي الواقع في شمال المسجد فإنه يمر بهاتين القبتين.

هاتين القبتين استُخدِمت كغرف مستودعات لحفظ الآنية التي يؤتى بالماء بها وفيها من البئر، فضلًا عن وجود مكتبة تحتوي على كتب دينية جلبها بعض الحجيج إلى هنا وأسسوا بها مكتبة الحرم، وتُحفظ غالبية الكتب التي لا تُقرأ وغير المعروفة في الخزانة (دواليب المكتبة)؛ وللإطلاع على هذه الكتب يستلزم الأمر الرشوة والمحاباة، أما قراءتها فلم يفكر أحد في ذلك. من المؤكد أن بين هذه الكتب توجد كتب نادرة قيمة، على وجه الخصوص ذكر أحدهم وجود نسخة من القرآن عمرها ألف سنة ونموذج لنقوش مكتوبة بخط صغير جدًا لا يُرى إلا بالمجهر. ومن المحتمل أن تكون نسخة القرآن هذه مكتوبة على لوحٍ واحد يبلغ طوله قدمين.

ولَمَّا انتهيت من الطواف سبعة أشواط حول الكعبة برفقة المطوّف صادق بن حنيفة ورددت وراءه كل الأدعية الواجبة في كل مكان على حدة، لم يبق لي إذن سوى زيارة باقي الأماكن المقدسة في صحن المسجد؛ لذلك قبل أن أودع الكعبة نهائيًا، زرت الملتزم ولامسته الذي هو عبارة عن حجر وقف عليه إبراهيم عند بنائه للكعبة، وألصقت بطني

وصدري والخدين به، ثم رجعنا إلى مقام إبراهيم ودعونا الله أن يغفر ذنوبنا وصلينا في النهاية ركعتين يُختم بهما الطواف دائمًا.

بعد ذلك توجهت مع صادق إلى بئر زمزم الذي لم أدخل البناء الذي يعلوه من قبل؛ لأن الماء الذي كنت أشربه منه عند دخولي المسجد، كان يُحضر لي حتى عند مقام إبراهيم. يعلو بئر زمزم مبنى مربع ضخم الحجم، اُستعملت في بنائه حجارة من النوع الشائع في مكة التي تُكسر في جبل أبي قُبيس في شرق البلد الحرام، أما خارج البناء قد تتناثر بعض ألواح من الرخام هنا وهناك؛ لكن من الداخل كان كل البناء من الرخام. إن بئر زمزم الذي يعلوه هذا البناء مُحاط بسورٍ عالٍ يبلغ ارتفاعه من أربعة إلى خمسة أقدام ويسمح عرضه الكبير بشكلٍ غير عادي لخُدّام البئر الذين نالوا هذا الشرف أن يقفوا عليه.

تولى مهام السقاية من بئر زمزم المكيون الأصليون والشرفاء (الذين ينحدرون من نسل النبي) وأُطلق عليهم الزمزميّة وأصبحت مهنة متوارثة في بعض العائلات، ووصل الأمر ببعض الحجيج الذين يعتنقون الخرافة إلى تقديس هؤلاء الزمزميّة، الذين عرفوا كيف يحولون هذه البئر ليدر عليهم الربح الوفير وكأنه منجمٌ للذهب؛ حيث إنهم لم يسقوا نقطة ماء واحدة دون مقابل مادي. كما تقاضى هؤلاء سنويًا مبالغ كبيرة جدًا من المال لكي يعطوا الماء مجانًا للفقراء ولكنهم قلما فعلوا ذلك.

كان السقاة يدلون جرادل مصنوعة من الجلد من على السور المحيط بالبئر ويعطوا الماء للحجاج، الذين يدفعون المال في مقابل الماء، كلٌّ حسب مكانته الحقيقية والمال المُتاح معه. لكن بسبب سقوط السقاة في البئر الذي تكرر عدة مرات؛ ولصعوبة إنقاذهم أُحيط البئر بدرابزين من الحديد لحماية السقاة من الغرق في البئر.

عندما انتهيت من الطواف والسبعة أشواط حول الكعبة، كدت أسقط مغشيًا عليّ من التعب، بسبب أشعة الشمس التي تسلطت على رأسي العارية وجسدي شبه العاري لمدة ساعة، الذي سخن حتى الحمى وجف حلقي وريقي من كثرة الأدعية التي رددتها كلها تقريبا، اشتد ظمأي وبحثت عن الظل وبمجرد أن دخلت بئر زمزم امتلأت ببرودة المكان وشعرت بالراحة، ثم وقف أمامي أحد الشباب من أهل مكة على سور البئر،

ربما أحد المعالجين المبتدئين ولكنه بدا لي من مظهره فلاحًا صرفا، وتبرع بمساعدتي؛ ربما بسبب حالتي الواهنة التي كنت عليها؛ ولشفقته بي أظهر المزيد من الاهتمام، فسألني عمّا إذا كنت أريد أن أشرب من ماء زمزم فأجبته بالموافقة طبعًا. وبسبب ظمأي الشديد شربت كمية كبيرة من هذا الماء الذي امتدحه المسلمون؛ لكني وجدت طعمه سيئًا، وفي مقابل البقشيش الذي دفعته لهذا المكيِّ أراد أن يسعدني بطريقة خاصة، فاستسقى من البئر مرة وراء الأخرى وغمرني بالماء وأهاله عليّ من فوق رأسي عدة مرات دون أن يسألني إذا ما كنت أريد ذلك أم لا، حتى تحممت بالكامل كما كنت أتمنى، مما كان له أثر طيب على صحتي وحال دون إصابتي بالحمى أو ضربة شمس (نتيجة التعرض المستمر للشمس لمدة ساعة). رأيت بعيني كيف يستحم الآخرون وكيف أني تميزت عنهم بوفرة الماء المسكوب عليَّ، لقد سكب الرجل على حوالي عشرة جرادل، بينما اقتنع الآخرون بجردلين فقط. فأي شيء لا يمكن تحقيقه إذن بالبقشيش؟

يرتبط تاريخ بئر زمزم لأسباب مفهومة بتاريخ مكة والكعبة، كما أنه من الممكن أن يكون قد ذُكِر في الإنجيل مثل الكعبة والحجر الأسود والدرج وقبر إسماعيل ومقام إبراهيم والله وحده يعلم عدد الأضرحة التي قد تكون موجودة ولا أعلمها. إن قصة نشأة البئر مؤثرة جدًا، وبها شيء من السذاجة الطفولية، لمّا طرد إبراهيم الأب الفظ هاجر التي أنجب منها ابنه إسماعيل، حملت الملائكة أم العرب إلى مكة، يبدو أن ذلك أمرًا خاصًّا بها فقط؛ لأنه بالرغم من أن الولادة حدثت في مكة فقد جاءت هاجر إلى مكة من مكان يبعد عنها جدًّا في فلسطين. أما سارّة الزوجة الغيورة، فلم تتحمل هاجر الشابة الجميلة التي أعجبت إبراهيم وفضلها على السيدة العجوز البالغة من العمر تسعين عامًا التي أصبحت فيما بعد أم ولده اسحق، وقالت لإبراهيم: "خذ هذه الملعونة إلى صحراء قفر بلا ماء." لم يرد إبراهيم أن ينزل على رغبة سارة لأنه أحب هاجر ولو استطاع لأرسل سارة نفسها إلى الصحراء وليست هاجر. وما كان ليقدم إبراهيم على نبذ هاجر في الصحراء لولا وقوف جبريل إلى جانب سارة حينما أمر إبراهيم: "ارسل أم إسماعيل وولدها بعيدًا، أنا سوف أبحث لهما عن صحراء بلا ماء بنفسي!" ولهذا طرد إبراهيم زوجته الثانية هاجر وولدها

إسماعيل. لم توجد بالقرب من مكان إقامة إبراهيم صحراء قاحلة لا زرع بها ولا ماء كما تمنت سارة لضرتها؛ لذا بذل جبريل جل جهده ليحمل هاجر وولدها في الهواء بعيدًا في أحد أودية مكة؛ لكنهما وصلا على أيّة حال سالمين. لم يكن من المُتخيل آنذاك أنه توجد حياة في هذا المكان، فعلى بعد أميال لا يُرى أي جدول ماء ولا واحة ولا حتى بئر ماء. فرحت سارة لأن جبريل أحضر ضرتها هاجر حقًا في صحراء قاحلة تذوق الشقاء فيها، وتتضور جوعًا، ولا يمكن أن تنجو إلا بمعجزة. بحثت هاجر هناك كثيرًا عن بئر ماء؛ لكنها لم تجد، فقطعت أشواطًا حول الكعبة التي لم تكن بُنيت بالفعل آنذاك؛ لكي توفر الوقت، يا لها من عقبة صغيرة جدًّا! ومن ثمَّ أسست هاجر شعيرة السعي سبعة أشواط بين جبلي الصفا والمروة في شارع الإحساء في مكة، لمَّا جرت سبع مرات وهي يائسة ذهابًا وإيابًا في المكان الذي يشكل أهم أحياء مكة، وفيه يحافظ الحجيج على إقامة هذه الشعيرة. بعدما انتهت هاجر من السعي ووضعت حجر الأساس لأحد أكثر الشعائر الوهمية والمخبولة في الإسلام، رجعت إلى رضيعها إسماعيل الذي تركته في تلك الأثناء على الأرض بعيدًا عن الكعبة التي بُنيت بعد تلك الحادثة. حينما رجعت لوليدها وجدت أن حاجتها هي ووليدها للماء قد لُبيت، وتفجر نبع الماء بين قدمي إسماعيل مما أثار دهشة لهاجر لم تنته، فرفعت ابنها وتأكدت أن الماء المتدفق هذا ليس من إسماعيل نفسه ولكن بسبب نبعٍ من الماء تفجر تحته. فيا لها إذن من معجزة! وأيّ حظ هذا لهاجر! تلك المطرودة المنبوذة، وجدت في صحراءٍ قاحلة نبعًا للماء، تلك البئر التي اسمها زمزم والمشهورة عالميًّا، أو الزمزمة لأن مياه البئر تفور وتمور بعذوبة محدثة صوت الخرير الرقراق، وأعتقد أن ذلك بسبب المياه الجارية في البئر، كما عرف ذلك بوركهاردت من جميع الذين زاروا البئر.

يمكن للمرء أن يتخيل أن سارة حينما علمت بخبر بئر زمزم في الصحراء، التي يُفترض أنها جرداء لا زرع فيها ولا ماء، لامت جبريل بشدة وقالت له: "جبريل، أيها الخائن، لماذا لم تتركها تتضور جوعًا في الصحراء؟" فأجابها جبريل بالجواب الذي يقوله المسلمون وفقًا لعقيدتهم وهو: "يا سارة، هذا قدرها، لأن ابنها سيصبح رسول الله." عندما سمعت سارة هذا، غضبت جدًّا وصاحت: هل ستصبح هذه الفاجرة أمًا لنبي؟ وماذا سيصبح

أولادي؟ لكن جبريل هدأ من روعها وأجابها: "كل الأنبياء، وعددهم كثير، سيصبحون من نسل سارة، أما أكبرهم وآخرهم فسيكون هو فقط من نسل هاجر." لكن القصة لا تخبرنا عمّا إذا اكتفت سارة بهذا العزاء لها أم لا. فقط نعلم شيئًا واحدًا أنها حاولت دائمًا أن تثني زوجها عن شوقه وعشقه لهاجر، في يومٍ من الأيام تركها إبراهيم ورحل فجأة إلى جزيرة العرب السعيدة، وزار حبيبته هاجر، وسرَّ باللعب مع ولده إسماعيل. منذ ذلك الحين بقى إبراهيم في مكة؛ حيثما بنى الكعبة وترك أثر قدميه هناك. مرة واحدة فقط ترك مكة واتجه صوب الشمال بعيدًا حتى وصل إلى فلسطين، في مكان يُدعى الخليل حيث قرر أن يترك جثمانه هناك.

هذه هي قصة نشأة بئر زمزم طبقًا لما يراه المسلمون المتدينون، أمَّا وفقًا لآراء المؤرخين الدنيويِّين فلهذا البئر قصة أخرى؛ فهؤلاء لا يعتقدون في خاصية إعجاز هذا البئر؛ بل يرونه نبع ماءً كسائر ينابيع الأرض الأخرى التي اعتادت قبائل شبه الجزيرة العربية أن تنزح إليه.

فاستوطنت الجراهمة وبنو قصي هذا الوادي وسكنوا فيه، واستولوا على المكان هناك حتى القرن السادس واستقروا حول البئر، وبنوا الكعبة وبلدة مكة؛ حيث استقر فيها فيما بعد الإسماعيلية أي نسل إسماعيل والقرشيون. طُمست البئر من آخر فرد من الجراهمة حينما توجب عليه الرحيل من مكة، واختفى البئر حتى عثر عليه جد النبي كما ذكرت ذلك سابقًا. ألقى القرامطة الزنادقة، الذين سرقوا الحجر الأسود، جثث الكثير من الحجاج الذين قتلوهم في البئر، حتى تطلب الأمر معجزة لاكتشاف مكان البئر مجددًا. منذ ذلك الحين لم يتعرض البئر لأية حادثة سوء؛ بل على العكس ازداد مهابة وقدسية في نفوس المسلمين، واهتم كثير من الأمراء بتجميل البناء الذي يعلوه حتى نراه على وضعه الذي هو عليه الآن منذ عام ١٦٩٤.

مياه بئر زمزم لها معجزات متعددة، لا يشكك في صحتها سوى مروِّجي البدع المتعنتين. وحرصًا على إطلاع القارئ على كل شيء سوف أسرد هنا أهم هذه المعجزات:

المعجزة الأولى: مياه البئر لن تنضب أبدًا. شرب منه الملايين من البشر ولم يُكتشف أيّ نقص في مياهه. (هذه المعجزة نجدها في آبار أخرى كثيرة).

المعجزة الثانية: يمكن شرب أي كمية من مياه البئر دون حدوث أية أضرار؛ حتى لو وصل الأمر مثلًا إلى شرب جردل كامل، ولو ضوعفت الكمية إلى ألف مرة فلن يحدث أي ضرر.

المعجزة الثالثة: مياه البئر شافية من كل الأمراض. فكلما شرب المرء منه، تحسنت الصحة؛ لذلك ينصح المسلمون المتشددون المرضى بالاستشفاء بماء زمزم كوسيلة علاج عالمية، لا ينبغي أن تفوت أي مسلم. وقد يحصل الشفاء بعد شرب كمية كافية من الماء، وإذا لم يُشف المريض أو توفى فهذا لا يعتبر بأية حال عجز في القوة العلاجية لمياه البئر؛ ولكنه دليل على عدم شرب كمية وافية من الماء. وتختلف كمية المياه التي يجب شربها من مريض لآخر، فلبعضهم يكفي كوب ماء وللآخرين لا يكفي ضعف الكمية آلاف المرات، فقط على المريض أن لا يفقد ثقته في هذه المعجزة، فَمن يؤمن بتلك المعجزة يمكنه أن يضاعف الكمية إلى ألفي ضعف، الأمر برمته يتوقف على كمية الماء الواجب شربها. لاحظ إذن أيها القارئ، فربما أصبحت لديك أنت أيضًا الرغبة في الاستشفاء بماء هذا البئر.

المعجزة الرابعة: لا يُستخدم ماء زمزم لأغراض منزلية كالطبخ وغسيل الملابس، كما لا يمكن تسخينه حتى درجة الغليان بأيّة حال من الأحوال. أمّا مَن يفعل عكس ذلك، فسوف تلحق به حالًا أضرار فعلته هذه؛ لأن مجموعة من الجن تسكن هذه البئر، تتحول إلى كائنات ضارة في حالة غلي الماء أو استخدامه لغرض الطبخ، تؤذي هذا الشخص الآثم وتضره. يُحكى أن امرأة عجوزًا قد أصابتها هي وحفيدها لعنة هؤلاء الجن الضار الذي استشاط غضبًا، عندما صب حفيدها ماء زمزم في أواني الطبخ، فمُسِخت إلى خنزير هي والطفل.

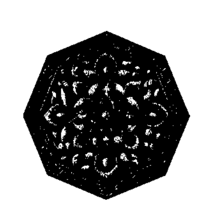
بعد أن انتعشتُ بسبب الشرب والاستحمام من بئر زمزم، عكفت على استكمال جولتي في صحن المطاف، وأنا في حالة جيدة. حولي تواجد عديد من الحجاج، كانوا جميعهم كما

لو كانوا أسماك رنجة أُصطيدت للتو من البحر. كانت رؤيتهم على هذا الحال مثيرة جدًا للضحك كما تمنيت لنفسي أن أضحك ذات مرة. فكانت هناك مجموعة من شباب البدو النحفاء الذين يتغذون غالبًا على الألبان، الآن في الصيف بدا عليهم الهزال والوهن؛ لكن بالرغم من هذا المظهر الضعيف، كشفت أجسادهم عن قوة عضلاتهم. دلفت إلى هناك مجموعة من المصريين ذوي البشرة السمراء، يجرون أجسادهم المبتلة المتثاقلة. كما كان هناك أحد الأتراك البدناء، الذي بدا تحت حمام الماء المسكوب عليه من ماء بئر زمزم، كأنه فرس النهر يلعب في بركة مخصصة له في حديقة حيوان. في موضعٍ آخر وقفت مجموعة من الزنوج البارزة عظام أجسادهم، ذوي الأكتاف العريضة والسيقان الطويلة الرفيعة والأجساد المستديرة البدينة، التي لا تتناسب مع باقي الأعضاء مما يجعل هذا الشخص وهو مبتل يبدو مشابهًا للملك الضفدع في ألف ليلة وليلة. أما الشحاذون الهنود الفقراء فقد بدوا ضعفاء، هزلاء، لهم قامة طويلة نحيفة، كان نصيبهم من الماء ضئيل جدًا لأنهم لن يدفعوا الكثير من البقشيش؛ فالماء لا يُعطى لهم بدون مقابل، وحينما يُسكب عليهم بعض الماء هنا وهناك، يكون بأمر أحد الحجاج الأغنياء الذي تبرع لهم بثمن الماء القليل. أعتقد أنهم أصبحوا غير متحفزين لهذا الحمام؛ لأن أجساد هؤلاء الشياطين المساكين ارتعدت من البرد بعد هذا الحمام من الماء كما لو كانوا في فصل الشتاء. أنا نفسي لم أشعر بأية برودة بالرغم من أن نصيبي من الماء يبلغ عشرة أضعاف أي حاج ولم أفقد فرحتي بالماء. على أيّة حال جف جسدي بعد ربع ساعة من الحمام تمامًا.

أخذني بعد ذلك صادق بن حنيفة إلى المنبر، الذي كان يلقي من عليه النبي خطبه، كان مصنوعًا في الأول من الخشب حتى أكلته النار ذات يوم منذ وقت طويل، هذا المنبر الحالي أمر بصنعه الخليفة البغدادي المقتضي، خليفة العباسيين الحادي والثلاثين، ورد المسجد له الجميل لمّا سُمِح له بخلع باب المسجد الأصلي وصنع منه نعشًا له، وقد أهدى الكعبة بابًا آخر ومنبرًا للمسجد مصنوعًا من الخشب مثل الأصلي ومزخرفًا بنقوشاتٍ نُحتت عليه.

من على المنبر قيل أحد الأدعية التي تلوتها بإخلاص لدرجة أني لا زلت أحفظها حتى الآن؛ لأنها كانت لي بمثابة صلاة شكر لله لإنهائي هذا الطواف المفزع وكل الشعائر المجهدة المرتبطة به.

أخيرًا تحررت من عبء هذه الشعائر، أتنفس، وأتبع المطوِّف بخطوات مشبعة بالفرحة، أدخلني بسرعة إلى صحن المسجد المرتفع عن الأرض قليلًا؛ لأن الكعبة والأضرحة المنتشرة حولها منخفضة عن صحن المسجد بحوالي ستة أقدام والصحن منخفض عن الشوارع المتفرعة منه صوب مكة. خرجنا من باب النبي إلى خارج المسجد ومشينا في أكبر وأجمل شوارع مكة الإحساء، حيث يؤدي الحجاج شعيرة السعي؛ أي الهرولة سبعة أشواط بين الصفا والمروة. أما أنا فقد استغنيت عن هذا الركض؛ لأني كنت مجهدًا جدًّا ولشعوري ببداية المرض، وتعهدت بذبح خروف عوضًا عن هذه الشعيرة التي تركتها، تلك هي الأضحية التي يقوم بها الحاج في حال فعل مخالفات في تعاليم الحج. مشيت بعد ذلك مع صادق إلى المقهى، حيث ينتظرنا ابنه ومن هناك سنتجه إلى النزل حيث أقيم.





الفصل الرابع عشر
مكة - محل إقامتي والمكان المحيط به في البلد الحرام

مقهى مكيّ - عمر الحمصيّ - الحلاقون المتفرقون في أرجاء المكان - القهوة الرهيبة - نزهة بعد مشاهدة المنزل - مغامرة في الشارع الرئيس - حادثة مضحكة لعليّ - أرباع مؤتة والمعلاة- حي الأفغان - بيت مضيفي - حمدون بن حميدو - النمط المكيّ - استقبال ناعم غريب - النُّزُل في مكة - البطل المثالي - بعض الرؤى حول السياسة الأوربية - الفزع من الغول - باقي الضيوف معي - حاجان من بخارى - الهراطقة الفرس - فخر الفرس بدولتهم - المعاملة السيئة للفرس - نفاق المُضيف - الكهل من خرسان - وجبة الطعام - الطعام غير مقبول لي - غرفتي - الاكتشاف المضحك - شجار مع صاحب النّزُل - المنزل الجديد.

كان المقهى الذي انتظرنا فيه كل من حسن بن صادق وفقًا للاتفاق بيننا وعليّ الزنجي ومعه جزء من أمتعتي في نفس الوقت دكانًا للحلاقة، يمتلكه عمر الحِمصيّ مشاركةً مع أحد المكيين اسمه بابالي البابوتشي. وُلِد عمر في مكة واعتُرِف به بين أفراد الطبقة المتوسطة كفرد مكيَ مساوٍ للمكيين الأصليين، كسائر المكيين الغرباء المولودين في مكة، بينما المكيون الأرستقراطيون لا يساوونه بمرتبة المكيين الأصليين؛ ذلك بسبب الحالة الغريبة السائدة من أن الطبقة المتوسطة برمتها في مكة والطبقة الدنيا تتكون من أبناء الغرباء ونسلهم بلا استثناء، الذين يدّعون أنهم مكيون وأبناء آخرين يُسمح لهم بلقب

المكيين بسهولة طبقًا لأصولهم، والأرستقراطيون هم بكل دقة الأشراف؛ أي الذين ينحدرون من نسل النبي الذين يمثلون الطبقة الأرستقراطية ويرون في أنفسهم السكان الأصليين الوحيدين.

ولأنَّ أبا عمر من مدينة سورية اسمها حمص، اختار لنفسه لقبًا يُفصح عن أصله غير المكيِّ؛ لكنه على أيّة حال لم يحب أن يناديه به أحد؛ لأن المكيين المولودين في مكة يسخرون من كل ما هو أجنبي، أحيانًا كان يحدث في الساعتين اللتين قضيتهما في دكانه أن يأتي أحد الحجيج على الباب ويصيح: "أليس هذا محل الحلاقة الذي صاحبه عمر الحمصي؟" في هذه الحالة كان يتظاهر عمر بأنه لا يسمع شيئًا وكأنه لا يفهم السؤال، وعلى الرغم من أن السؤال وُجِّه له بلغة عربية سليمة يتظاهر بأنه لم يسمع السؤال مطلقًا ولم يعرف أن أحدهم سأل عنه هو شخصيًا. كانت تحدث هذه الملهاة كل مرة وتسبب حالة من الضحك العارم لدى كل الحاضرين. لم يكن يتفاعل عمر مع هذا الضحك كالباقين؛ لأنه كان يشعر بالإهانة بسبب هذا الموقف. على أيّة حال لم يقل فخر المكيين بأصلهم قيد أنملة، حيث لم يعتد أصحاب المقاهي والحلاقون وأصحاب الدكاكين أن يعاملوا الغرباء بأساليبٍ مهذبة البتة؛ فهم يعلمون جيدًا أنّه طبقًا لأعراف المسلمين يعتبر المكيّ الأصلي الواحد أفضل من عشرة غرباء. لم تتسم المعاملات بين المكيين والحجاج الذين يترددون على دكاكينهم بالشكل الفج وبطريقة مباشرة؛ بل تعاملوا معهم كما لو كانوا يمنون عليهم بأي خدمة يقدمونها؛ على الرغم من تقاضيهم أجرهم في مقابل خدماتهم. فهم يتفضلون ويمنون على الحجاج عندما يحلقون لهم رؤوسهم، وعندما يحتسي الحجاج القهوة في دكاكينهم، وبالأحرى عندما يتحدث المكيون مع هؤلاء الغرباء. أمّا أنا فقد حرصت لمَّا دخلت دكان الحلاقة على أن يرى عمر الحمصي بعض قطع النقود الفضية تلمع في يدي؛ حتى يصيبني فضله ومنته، فيزيد اهتمامه بي، وبالأخص عندما بدا عمر موافقًا على ما همس به المطوِّف المرافق لي صادق في أذنيه، والذي يعرفه عمر جيدًا؛ لكنني أدركت لاحقًا معني هذه الإشاعات المضحكة التي خمنتها عائلة صادق، الأب وابنه، ونشرتها عني وعن حالتي المادية، فهؤلاء الأدلاء الذين يتقاضون أجورهم مقابل خدمات دينية مهووسون

باستغلال الحجاج الغرباء الذين يكونون في خدمتهم. على أيّة حال يُعامل الحاج الغريب سواء بالتقدير أو بالإهانة بناءً على تخمينات هؤلاء الأدلاء عن حافظة نقوده. لأول مرة هنا في دكان عمر استطعت أن أفهم كيف ينظر إليَّ الناس الطيبون على أني شخص ذو مقامٍ عالٍ؛ مما جعلني بعد ذلك أدرك أيَّ نوع من الفخامة ألصقوها بي، بالإضافة إلى خسائر وأضرار كبيرة أثرت على أهداف رحلتي التي خططت لها. لم أكن سوى ابن أحد باشاوات الجزائر، ويبدو أن الحقيقة التي مفادها عدم وجود باشاوات منذ حوالي ثلاثين عامًا لم تُثن هؤلاء الناس عمَّا يظنونه، لم يحدثني صادق وأبوه بخصوص هذا اللقب البهي في البداية، اللذان وجداه طريقة جيدة لاستغلالي. فقد همسا في أذني كل من اضطررت للتعامل معهم بأني ابن أحد باشاوات الجزائر، لدرجة أنه انتشرت شائعة في نصف بلدة مكة على أني "أمير الجزائر"، وإن لم أكن أنا شخصيًا ذلك. سوف ترون بأنفسكم لاحقًا العواقب الوخيمة عليَّ التي لهذا الوضع المُفترض أن أكونه، فلم أكن أعلم لماذا يعاملني عمر الحمصي بكل حفاوة وفخر بخلاف ما هو معتاد عليه بين المسلمين؛ لكنّي أدركت ذلك فيما بعد.

كان يبلغ عمر الحمصي من العمر حوالي ثلاثين عامًا، تميز وجهه بالطابع الشرقي الأصيل بشكلٍ مبالغ فيه، قلّما رأيت مثله، في أوربا قد ألمح ملامح مثل هذه بين نخاسي اليهود، هذه الأنف التي تشكل الجزء الأكثر بروزًا في الوجه، والتي تلتهم باقي أجزاء الوجه، ولا تسمح لها بالظهور، هذه الأنف التي تميل بزاوية قدرها حوالي خمسة وعشرين درجة على الفم كأنه أنف الصقر القوية المقوسة، تعلوها عينان سوادوان بهما حَول، تلمعان بشكلٍ مخيف. يقبع تحتها فم له شفتان مكتظتان؛ لكنهما ليستا مدورتين؛ بل كأنهما فقاعة برزت على الفم بطوله، إنهما حقًا تشبهان شفاه اليهود، التي تجمع سمات شفاه الزنوج والأوربيين، يحوطهما خدان نحيفان طويلان، أو بمعنى أدق، هما تجعيدان طويلان في نفس المكان الذي من المعتاد أن تكون فيه الوجنتان عند سائر الناس، بالإضافة إلى ذلك توجد أذنان كأنهما للملك ميداس، لبسهما بعدما قطعهما من حمار، كان فمه خاليًا من

الأسنان، له لحية طويلة، خفيفة شعثاء، هذا هو عمر الحمصي، خير مثال للعرب، الذين اعتدنا رؤيتهم فقط على خشبة المسارح.

ارتدى هذا الرجل "الجميل" ملابس فاخرة، قفطانًا من الحرير غير الخالص، وعمامة من الكشمير وخاتمًا من الألماس في إصبعه. لكن للأسف لم تتطابق خصاله مع هذه الملابس الفخمة التي كان يرتديها، فعلى سبيل المثال كان ينظف أنفه بإصبعه كما كان يفعل تقريبًا كل العرب، حتى وإن كان معهم، كما هو الحال أحيانًا، هذا الشيء الذي يُعد من الكماليات واسمه منديل الجيب، الذي لا يستخدمه العرب سوى للزينة، وفي بعض الأحيان يكون مطرزًا بالذهب، ومن ثمَّ سيكون استعماله في غرضه الأصلي خسارة، فقطعة القماش القطنية المزركشة بورود صغيرة، الشكل المعتاد لكل مناديل العرب، نادرًا ما تلمس أُنوفهم. أحد الأوضاع الأخرى لعمر الحمصي جعلت تودده لي أمرًا غير مقبول دائمًا، فعمامته الكشمير وملابسه المصنوعة من الحرير وقبل كل شيء ملامحه الجميلة، لم تكن فقط محل إعجاب البشر، بل عدد هائل لا حصر له من الحشرات الخضراء التي استوطنتها، ولعبت بكل سرور وحيوية فوقها، تلك الحيوية التي لم تكن مقبولة ممن يَمُن عليهم عمر الصادق بالحلاقة.

أما صاحب عمر، بابالي البابوتشي، فقد كان مكيًا أصيلا، ينحدر مباشرة من نسل هاجر. يجب أن أعترف حقيقةً أن شجرة العائلة التي ينتسب إليها والتي طالما أوضحها لي، لم أفهمها ألبتة؛ لكنه لم يهتم بذلك. فقد كان يشعر بالفخر حينما يرى أحد الحجاج غارقًا في عرقه مهرولًا أثناء السعي مارًّا بدكانه؛ لأن أمه هاجر هي أول من قام بالسعي في شارع الإحساء، فيبتسم برقة ورضا قائلًا: "هم يقومون بذلك تكريمًا لأمنا هاجر." هذا النسب المُفترض، بالإضافة إلى المظهر الجدير بالاحترام جعل الحجاج الغرباء يوقرونه بشكل أو بآخر، أما المكيون الأصليون فلم يرونه إلا دجالًا.

لم يكن بابالي يشبه صديقه عمر في أشياء كثيرة سوى في الجسد النحيل وزوايا أجزاء الجسم، فيما عدا ذلك كان وجهه يميل إلى الطابع الزنجي أكثر من الطابع العربي، كان بوزه يشبه بوز الكلب البولدوج؛ لكنه كان عندما يبتسم، ينفرج هذا البوز عن اثنتين وثلاثين سنة

حادة، أجمل ما أراه فيه حينما يكشر عن أنيابه، كان عنده عيب، هو في الحقيقة خطأ بريء؛ لكنه كان له أثر كبير عند زبائنه، لقد كان مشتتًا مُهملًا، لا يركز في عمله مع الزبائن، فقد يجرح الحجاج الغرباء في وجوههم؛ حتى أنه قد قطع جزءًا من أنف أحدهم ذات مرة، أما أثناء الحجامة التي اعتاد العرب عليها عند الحلاقين، وكذلك عند خلع الأسنان، فقد بلغ الضرر بزبائنه أشده. حكى لي صادق انه نسي مرة أن يضمد ذراع أحد الحجاج الغرباء بعد أن أجرى له الحجامة ثم اختفى، وظل الرجل وحده في الدكان ينزف حتى كاد يموت؛ لكنه أُسعِف لحسن حظه في وقت حرج. أما خلع الأسنان السليمة بدلًا من التالفة فقد تكرر يوميًا. حقًّا كانت بالنسبة لي معجزة أنه لا يزال يزوره الزبائن؛ لكنهم كانوا من الغرباء الجدد دائمًا في مكة، الذين جهلوا سمعته السيئة التي اكتسبها من عمله كحلاق وجراح. فالمكيون الأصليون لا يذهبون إليه سوى لشرب القهوة في دكانه، وهذا لا يحدث كثيرًا؛ لأنهم يعتبرون المقاهي أماكن غير محترمة ومن الأفضل تجنب التواجد فيها.

بسبب مَّا حكاه لي صادق عن حكايات إهمال بابالي وكيف يتعامل مع مرتادي الدكان، تصلبت يداي وقدماي وقاومته بشدة عندما أقدم تجاهي ذات مرة مسلحًا في يده شفرة حلاقة كبيرة وعبرّت ملامحه عن أنه يريد حلاقة شعر رأسي، فقد آثرت أن أنتظر حينما يكون لدى عمر وقت ليحلق لي هو شعري بواسطة شفرة حلاقة.

لأني لم أقرر القيام بالحج الأكبر، بل الأصغر وهو العمرة، يُسمح لي الآن بعد الانتهاء من الطواف بأن أحلق شعري، وأستحم وأرتدي ملابسي العادية وأخلع ملابس الإحرام المقززة هذه، وأكف عن المشي كحيوان بري عاري تكسوه الحشرات والوسخ، أخيرًا مسموح لي أن أكون إنسانًا وأظهر بمظهري العادي. كان في إمكاني أن أخلع ملابس الإحرام بعد الخروج من المسجد؛ لكن لأن كل الحجاج أصبحوا يفعلون ذلك بعد الطواف، أصبحت هذه العادة الخاطئة هي القاعدة؛ لذا أجلت العمرة كما أجلت السعي لأيام تالية، ولم يعترض أحد على ذلك أو يعتبره كفرًا.

بعد أن انتهي عمر من حلاقة شعري وحَمَّمَني، أمرت عليًا الزنجيَّ بإحضار ملابس لي، ارتديتها بكل سرور، كانت عبارة عن بذة جزائرية مريحة، كنت أبدو فيها حقًا جميلًا

كأحد الباشوات، كما أخبرني صادق الفقير المتملق وابنه، بالطبع كنت لدى هؤلاء الناس "أميرًا من الجزائر" فاحش الثراء، ففي الشرق يجاملون كل غنى، حتى لو كان كبير السن وقبيحا، وينسبون له الشباب والوسامة.

أحضر لي بابالي الآن فنجانًا به مشروب بنى تشتهر به بلاد العرب. لا يمكن لأحد أن يصف فزعي بمجرد أن لامست شفتاي هذا المشروب ورشفت أول رشفة منه وشعرت بالنار التي ألهبت حلقي، كما لو أني شربت مجموعة من الدبابيس. لو كان هذا المشروب هو القهوة، إذن سأستغني عنه في البلد الحرام. ناولت الفنجان لصادق ورجوته أن يتذوق طعم هذه القهوة الغريب، وبمجرد أن لمس صادق الفنجان بشفتيه أزاحه عنه بعيدًا وصاح بكل حرج: "إنه مقلب آخر من مقالب بابالي البابوتشي. الله وحده أعلم بما استخدمه في فنجان القهوة هذا."

"لكني ربما أعرف ذلك": أردف عمر. "إنه الفلفل الأسود، الذي اشتريت منه اليوم كيسًا كاملًا ولم أجده بعد ذلك."

وكان بالفعل هذا المشروب من الفلفل الأسود، فقد وضع الفلفل الأسود الذي اشتراه صديقه بدلًا من القهوة وصنع منه هذا المشروب، الذي ألهب فمي. لكم أن تتخيلوا أني لن أحاول مرة أخرى مستقبلًا أن أشرب قهوة عنده.

بعدما انتهيت تمامًا من الإحرام، واسترحت لمدة ساعتين في دكان عمر من الركض المجهد حول الكعبة، تاقت نفسي أخيرًا إلى التخلص من حياة المتشردين هذه وإلى البحث عن نزل للحياة المنتظمة. لقد ذكرت آنفًا بيت حمدان بن حميدو في حي السليمانية، الذي أوصاني به عمر بن الصادق وامتدحه. ولأني كنت غريبًا تمامًا في مكة، ولا أعرف أحدًا سوى رفاق رحلتي المصريين، هؤلاء الشياطين الفقراء، لم يبق لي حيلة سوى أن أثق في صادق وعائلته، الذين كانوا طماعين وخبثاء؛ لكنهم علي أية حال لم يرتكبوا أيّة سرقات، وهذا في حد ذاته ميزة.

تركنا بعد ذلك المقهى واتجهنا نحو حي السليمانية، كان لزامًا علينا في الأول أن نمر على شارع الإحساء الجميل، طبعًا لم يخل الأمر من الصعاب؛ لأنه مازال المئات من المتعصبين

يقيمون شعيرة السعي هنا؛ أي الهرولة سبعة أشواط من بداية الشارع حتى نهايته، كانت رؤيتهم على هذه الحال مشهدًا لا يمكن رؤيته خارج مكة سوى في مستشفى المجانين، فهذه المخلوقات العارية أنصاف أجسادهم، يلهثون غارقين في عرقهم، يتأوهون، أصابتهم حمى بسبب حرارة الشمس نتيجة لتعرض رؤوسهم لها لساعات طويلة، مثقلون حتى الموت بهذه الشعائر الدينية، وفي نفس الوقت متحمسون لها، جرى كل هؤلاء الناس، يهذون بسبب هوسهم الديني، ويقطعون الشارع ذهابًا وإيابًا بينما تتعالى صرخاتهم. لم يفكر أحد منهم أبدًا في تجنب المارين بالصدفة في هذا الشارع؛ بل الأكثر ضراوة هو أنه كان على المارة أنفسهم أن يفسحوا الطريق لهؤلاء المتعصبين؛ وعلى الرغم من أننا بذلنا قصارى جهدنا في توسعة الطريق لمرورهم؛ إلا أننا لم نستطع تجنب العديد من المصادمات، فعليّ، خادمي الزنجي، استطاع في بادئ الأمر تجنبهم تمامًا، ولكن حلت عليه إحدى ضربات سوء الحظ، فقد كان هناك أحد الحجاج الأقوياء، ضخم الجثة، مارًا في هذا الطريق ولم يلحظ أن وراء هذا الثور حاجًّا آخرًا اختفى تمامًا وراءه. هذا الأخير خرج فجأة من مكمنه؛ أي من خلف الحاج الضخم الذي توارى خلفه، واتجه بخطاه نحو عليٍّ، الذي لم يره في الوقت المناسب فتجاوزه وداسه. وقع عليٌّ المسكين على الأرض وداسه باقي الحجاج، الذين يهرولون في سعيهم، بأقدامهم. واستطعنا بأعجوبة مساعدة الزنجي كي ينتصب واقفًا على رجليه، وفي هذه الظروف تعرضنا لكثير من المخاطر، حيثما أصبحنا حجارة للطريق؛ فبينما كنا نساعد عليًّا، داهمنا نحن الثلاثة أحد الحجاج، أقبل علينا مسرعًا جدًّا، مما أدي إلى تكومنا فوق بعضنا على الأرض أنا وعليّ وعائلة صادق بطريقة عشوائية. لحسن الحظ لم يستمر ذلك طويلًا، لقد استطعنا أن ننهض واقفين ونسحب عليًّا معنا، بعد أن أصابه السوء بسبب أقدام هؤلاء الحجاج المتدينين؛ حيث كست الجروح والكدمات الزرقاء جسمه كله؛ ولكن لأن خطوات الحجاج الذين يقومون بالسعي تعتبر مباركة رضي عليٌّ بما حدث له من أضرار وتفاخر فيما بعد بما حدث له طبقًا لمعتقدات بعض المسلمين على أنه فضلٌ كبير أصابه، تمامًا مثلما يفرح الدراويش في القاهرة عندما يقعون على ظهورهم من على الحصان، في أحد الأيام المحددة والمقدسة عندهم.

أخيرًا استطعنا الخروج من هذا الشارع الذي تحفه المخاطر في وقت قيام الحجاج بالسعي، واتجهنا للجزء العلوي في المدينة بطولها؛ لأن حي السليمانية، الذي كنت أقصده، يقع خارج المدينة، في نهايتها من الجهة الشرقية، بالقرب من بئر مياه هناك. وصلنا تقريبًا عند نهاية شارع الإحساء، ليس بعيدًا عن المروة، أحد أهداف الحجاج عند السعي، بجانب أحد آبار المياه، التي يقف عندها الحجاج دائمًا ليستقوا منها مياها لغرض الطبخ والنظافة، لأن مياه الشرب يستقونها فقط من بئر زمزم المشهورة.

عرجنا بعد ذلك إلى شارع جميل عريض اسمه (el Mota)، مؤتة ويعتبر امتدادًا للشارع الرئيس الإحساء. هذا الاسم هو اسم مكان، سُمي هكذا لأن الحجاج القادمين من الشمال يبدأون شعائرهم من هنا ويتلون صلواتهم، إنه مكان للشعائر المقدسة.

يمتد شارع مؤتة من الشارع الرئيس والكعبة مباشرة في اتجاه الشمال، المباني في هذا الشارع لا تتبع الدولة وليست مرتفعة مثل سائر الأحياء الأخرى؛ بيد أن هذا الشارع يُعد من أهم شوارع المدينة، يكتظ جانباه بصفين من الدكاكين المزدحمة، يزاول فيها تجار التجزئة والعطارين وأصحاب المهن اليدوية مثل الخيَّاطين ونساجي الحرير حرفهم.

مررنا في وسط الشارع بمبنى ضخم كان جامعة من قبل؛ لكنه الآن يُستخدم كمستودع لأسلحة الجيش، وفي أيام بوركهاردت كان صومعة للغلال، ولا يزال يُستخدم حتى الآن لهذا الغرض، مما يتطابق مع الذوق العام حاليًا.

في نهاية هذا الشارع؛ حيث ترتفع الأرض أكثر عن هذا الشارع شديد الانحدار، وصلنا إلى شارع المعلاة (el Maale) الذي يعتبر امتدادًا لشارع المؤتة في نفس اتجاهه. هنا شاهدنا مسجدًا صغيرًا، وقد نما إلى علمي أنه مكان للاجتماعات الدينية، وهو الوحيد الموجود في مكة بخلاف المسجد الحرام. وعلى بعد عدة خطوات في شارع المعلاة، الذي معناه المكان المرتفع؛ لأنه الشارع الأكثر ارتفاعا في مكة، وصلنا إلى النهاية في اتجاه الشمال من مكة؛ حيث يوجد شارع القافلة الذي يقع بعد جبل عرفات. هنا يبدأ شارع طويل رملي، توجد على أحد جانبيه صهاريج وعلى الجانب الآخر مجموعة من الدكاكين المصنوعة من الخشب تصلح لإقامة الرعاع بها. بالتوازي مع طرق الحجاج التي تنفذ من

خلالها، بالقرب من المدينة، ونوعًا ما بعيدًا عن الطريق، تقع على جانبي نفس الطريق بعض المساكن التي تتبع الدولة. أحد هذه المساكن، الذي كنا نتجه نحوه حاليًا، كان يبعد عن نهاية الشارع المعلي، في الاتجاه الغربي لمبنى السليمانية بحوالي مائة خطوة، هو النُزل الذي يملكه مضيفي حمدان بن حميدو:

يقع نُزل السليمانية[1] في نهاية مكة في الجهة الشمالية الغربية؛ أي خارج مكة على منحدر جبل هندي في الغرب وجبل الزنابق المحاط بحصن رباعي الزوايا في الجنوب؛ بينما توجد في الشمال الصهاريج وفي الشرق شارع الحجاج الذي يؤدي إلى عرفات. أُطلق عليه هذا الاسم نسبة إلى قاطنيه من أفغانستان وباكستان الذين يُدعون السليمانية جمع السليمانيّ. وعلى الرغم من أن هؤلاء السليمانية اعتادوا السكن في هذا الفندق فقط، والذي أُطلق عليه الاسم نسبة إليهم، لم يكن هذا الفندق مخصصا لهم وحدهم. فقد كان يسكن فيه حجاج غالبًا من البلاد الإسلامية في شرق آسيا، مثل قندهار وبخارى وسمرقند وكانت أبوابه مفتوحة أيضًا لكل الحجاج الغرباء من جميع دول العالم عندما يمتلكون نفقات إقامتهم، التي تعتبر أهم شيء في مكة.

كنت سعيدًا جدًّا باختياري لهذا الفندق؛ لأني كنت متأكدًا أنه لا أحد من المغاربة (الجزائريين)- المفترض أنهم أهل وطني - سكن هنا؛ لأن الفندق سيكون غاليا جدًا عليهم. كان الفندق الذي يمتلكه حمدان بن حميدو يقع في أحد الشوارع العريضة وكان الوصول إليه سهلًا، ولمَّا ولجنا من الباب شممت روائح طيبة لأطعمة مختلفة، تذكرت على إثرها كلمات موليرن الذي كان يقول أن المضيف الحقيقي هو مِن يجد زائره فور دخول منزله المائدة جاهزة.

كانت رؤية مضيفي حمدان بن حمدون لا تبعث السرور في نفس الضيف الجائع أكثر مما تثيره رائحة التوابل المنبعثة من بيته في النفس. لقد اعتمدت في غذائي تمامًا على ما يقدمه لي في بيته من طعام صحيٍّ، الذي كان باديًا أثر حسن التغذية على وجنتيه المكتظتين وكرشه المدور، كان لزامًا عليّ أن أعمد إلى ذلك بسبب حالة الهزال التي ألَّمت بي. لقد

١ انقسمت فرقة البهرة في أواخر القرن العاشر الهجري إلى قسمين داودية وسليمانية ويعرفون أيضا بالمكارمة وعقيدتهم عقيدة باطنية كالإسماعيلية. (المراجع).

ساءت صحتي وهزلت حتى أصبحت حقًّا هيكلًا عظميًا بسبب الإجهاد من الرحلة ودرجات الحرارة العالية التي عانينا منها؛ وبالأخص بسبب التعرّق المستمر والتغذية السيئة كنت أبدو في حالتي الهزيلة تلك مناقضًا تمامًا للرجل الشرقي الجميل مثل حمدان بن حمدون طبقًا لتقاليدهم. قابلني هذا الرجل البرجوازي بحفاوة عالية وفي نفس الوقت باعتزاز بالنفس شديد، وهذه سمة الرجال البدناء، فسلَّم عليّ بطريقة رائعة، مد لي يده وقبلّني على الجهة اليسري قرب شحمة أذني، ربما لأني لم أعتد على مثل هذا الود والترحاب مددت له وجهي بطريقة غير مهيأة لهذه التحية.

كان حمدان بن حميدو يبلغ من العمر حوالي خمسة وعشرين عامًا، لا ينحدر من أصلٍ مكيّ؛ على الرغم من أنه وُلد في مكة؛ لكنه كان يُخفي أصله الحقيقي بسبب أمورٍ عقائدية، استشففت ذلك بنفسي من دلائلٍ عدة، كانت القلة القليلة من زبائنه تعرف أن والده حميدو كان شيعيًا زنديقًا، على أيّة حال لم يفكر أحد في أن يسأله عن نسبه؛ لأن في ذلك ثمة إهانة له بكل تأكيد. كيف يجرؤ أحد على إهانة شخص له وجه جميل مدور كالبدر، بهي يشع نورًا ووسامة، وكأن فمه صُمم فقط ليبتسم برقة وعذوبة، وأخلاقه لا تنم إلا عن أعلى درجات الرحمة الأبوية والمودة الأخوية. كان حمدان طبقًا للمعايير الشرقية أيضا رجلًا جميلًا؛ ولكنه أيضًا طبقًا للذوق الأوربي لم يكن قبيحًا. فوجهه متناسقة ملامحه؛ عيناه الواسعتان البنيتان، اللتان تلمعان دائمًا، بهما شيء من اللهفة والولع كعيون النساء، وكعيون كثير من البدناء، أنفه صغير؛ لكن ليس كالبطاطا، فمه عذب به أسنان صغيرة بيضاء، خلا وجهه من أيّة تجاعيد أو هالات حول عينيه تعكر نعومة وصفو وجهه، لم تكن لحيته كثيفة ولا خفيفة؛ بل بالقدر الذي يسمح بوجود سكسوكة (عثنون) لونها بني داكن جميل، اكتشفت فيما بعد أن هذا اللون بسبب أحد المواد التجميلية. كان يرتدي دائمًا ملابس فخمة أنيقة، يبدو عليها الثراء؛ لكنها راقية غير مبالغ فيها؛ على الرغم من أنها صُنعت من أغلى أنواع الأقمشة. كانت قدماه عاريتان، أعتقد أنه كان يزهو بهما وله العذر في ذلك، فقد كانتا متوافقتان مع المعايير الشرقية، كانتا حقًّا تحفتان من روائع الطبيعة، صغيرتان مستديرتان كقدمي طفل صغير حديث الولادة أو رضيع متعافٍ يتمتع بصحةٍ

جيدة. حتى يداه كانتا أيضًا صغيرتين وناعمتين، يعطرهما عادةً. هذا هو حمدان بن حميدو نموذجٌ شرقيٌّ ونموذجٌ للإسلام في أزهى عصوره. لقد كان حقًا خير مثال للتناغم بين تكوينه الداخلي ومظهره الخارجي، اجتمعا معًا في جسمه بطريقة طبيعية، زاده بهاءًا وروعةً الذوق والفن في ملبسه، كانت حركاته كلها؛ وبالأحرى حركات هذا الجسم الممتلئ الثقيل، تنم عن خفة ورشاقة، وهو الذي لم يكن لديه في يوم من الأيام مدربٌ للرقص يعلمه الأوضاع الخمسة.

كان يوجد شيء واحدٌ فقط شوَّه ملامح وجهه الجميلة؛ فقد كانت على وجهه ثلاث ندبات كبيرة وطويلة على وجنتيه، هي عبارة عن ثلاثة شقوق طولية على وجه كل مكيّ أصيل، يقومون بشقها على الوجه منذ الطفولة؛ لتكون دليلًا على أن هذا الطفل من أهل مكة يتميز عن غيره بذلك النسب العريق و بفخر الانتماء "للدم الأزرق". كان لهذا القبح قيمة أكبر من جمال الشكل الخارجي للجسد، والذي اعتادوا أن يفعلوه أيضًا في أجساد أصحاب الأصل الوضيع.

تقدمني حمدان إلى صالة على أرضٍ مستوية، مفروشة على أرضها بعض السجاجيد الجميلة، على الجانبين امتدت على الحوائط مقاعد الديوان العربي، دعاني بن حميدو للجلوس عليها، ثم جلس هو بنفسه إلى جانبي، وعائلة صادق التي أصبحت من الآن فصاعدًا محجوزة لمرافقتي لا تتركني لحظة واحدة، بعد ذلك بدأنا نتجاذب أطراف الحديث. سألني حمدون بابتسامة رقيقة عن حالي فأردفته أني أعاني حاليًا من حالة هزال وضعف وأشعر بجوعٍ عارم. كنت أتمنى أن يدرك مضيفي حالي ويُعجّل بإحضار الطعام الذي فهمت أنه قد طاب بسبب الروائح المنبعثة من المطبخ؛ لكن خاب ظني. لم يكن حمدان غير متكلفٍ في استقباله لي؛ ففي بادئ الأمر امتد حديثنا الممل حوالي نصف ساعة كما يتطلب الأمر وفقًا لآداب الضيافة، وبعد ذلك يُسمَح بالتفكير في الطعام. سوف يعتقد بعض القراء: "أنه في حالة وصول الأكل يحتاج المرء الهدوء وعدم الإزعاج من صاحب الفندق الذي يأخذ أجره، وأنه من الممكن أن تطلب الطعام وقتما تشاء، وترسل هذا المضيف الثرثار إلى حيث أتى؛ حتى لا يمنعنا حديثه الممل عن الأكل." الأمر في

الشرق مختلف تمامًا؛ فصاحب المطعم أو الفندق ليس كعندنا في أوربا؛ فهو ليس ماكينة تقدم الطعام للرحال الجوعان أو المتعب مقابل المال دون أن يقول كلمات طيبة، لا، فصاحب النزل هذا شخص يجب أن تحترمه؛ على الرغم من أنه يتقاضى أجرًا كبيرًا مقابل استضافته لنا؛ إلا أنه يعتبر استقبال الغرباء عنده دائمًا مَنٌّ وفضل منه. فبالرغم من مهنته التجارية هذه إلا أنه يجب احترامه، وكأنه المضيف الذي يؤوي ويطعم ضيوفه كرب العائلة. لذلك كان من المحال حث حمدون على تقصير مراسم الاستقبال الواجبة هذه بأيّة طريقة؛ لأنها عند الشرقيين أهم من أي شيء آخر، فعلى الضيف أن يتضور جوعًا وتخور قواه طالما أعرافهم تسمح بذلك.

بعد الانتهاء من الإجابة عن أول سؤالين بشأن صحتي ووالديّ، اللذين من المفترض أنهما في أيّ عشة في إفريقيا، هكذا جاوبت على السؤال الذي أتحاشى الإجابة عليه دائمًا، ثم أدار الحديث عن الحج وأخيرًا عن السياسة، هواية كل العرب. أمّا ما يخص الحج، فقد أعلمني مضيفي أنه في بعض الأيام ستصل قافلتي الحج الكبيرتين من دمشق وبغداد، ويعتبر هذا من الأحداث العظيمة الذي يمكن أن يشهدها مع كل عشيرته. هل يجب أن أشرفهم بحضوري وبالذهاب إلى الباب في هذا اليوم بعينه؟ لقد قبلت ذلك فعلا، وكان كل شيء على ما يُرام.

الآن جاء الدور على السياسة، وعليكم قرائي أن تنصتوا إلى الأفكار المخبولة، التي تلوكها ألسنة هؤلاء العرب. في الأول لم أفهم شيئًا من حكاياتهم السياسية؛ لكن عندما أطرقت السمع بدقة لفت انتباهي اسم تكرر دائمًا، ربما كان الحديث عن الأعمال البطولية لأحد الأشخاص المشهورين. ففي كل أحاديثهم ذُكر هذا الاسم الذي لا أعرفه Kaliwalli بشكلٍ لافت للنظر، والذي لم أسمع عنه أبدًا طيلة حياتي. لقد كان ذلك جهلًا لا عذر له؛ لأن هذا الشخص كان بطلًا مشهورًا قام بالعديد من البطولات. لكني اعتقدت انه قد يكون زعيم أحدى قبائل البدو، وحقق بطولات خارقة للعادة؛ ولكن صيته لم يتعد شبه الجزيرة العربية. من منكم يمكنه أن يصف دهشتي عندما سألت من يكون حقًا هذا البطل المغوار الذين يتكلمون عنه، فأجابوني أنه أوربيّ. مرة أخرى

حالة من الجهل تنتابني يُرثى لها. لم أستسلم لفزعي وسألت مرة أخرى، في أيّ قرن عاش هذا البطل، فأدهشوني مجددًا عندما أجابوني أن هذا البطل الكبير مازال على قيد الحياة وأنه شخصية هذا القرن. فنهضتُ واقفًا كما لو كنت حيوانًا على جبل، كيف لي ألّا أعرف أيّ شيء عن أهم بطل أوربي في القرن الذي نعيش فيه، وبعدما استعدت أنفاسي وأزحت عني دهشتي، خطر ببالي أن يكون السبب في عدم معرفتي به ربما يكون بسبب خطأ في الاسم الصحيح، كأي تحريف يلحق بالأسماء الأوربية. دارت في عقلي أسماء كل هؤلاء الذين كانوا محط الأنظار على وجه الخصوص في الثلاثين عامًا الأخيرة في أوربا، وأخيرًا اهتديت لأحد الأفكار النيّرة، فصحت بسبب اكتشافي هذا مرتعدًا: "جاريبالدي (Garibaldi)، أليس هذا هو الشخص الذي تقصدونه؟" لكنهم نظروا بتعجبٍ إلى بعضهم البعض بسبب الحيوية التي حلّت بي بمجرد أن تذكرت هذا الاسم الذي طالما بحثت عنه، فقد كان ذلك لهم دليلا على الاضطراب العقلي. لكن حمدان أكد لي بكل جدية أني أخطأت وأنهم يتحدثون عن (Kaliwalli) وليس (Garibaldi).

تحليت بالعقلانية وبرود الأعصاب بالقدر الكافي كي يكون الصواب بجانب مضيفي حمدون؛ لأن معلوماتي الدقيقة بالأسماء والسياسة الأوربية سوف يكون لها أثر سيئٌ على عروبتي التي أمثلها. فقدت صوابي ونسيت حقيقتي للحظة واحدة ويجب أن تظل الوحيدة. تنبهت وتظاهرت أني مازلت جاهلًا بهذا البطل؛ على الرغم من أني اهتديت إليه، وتأكدت أن (Kalliwali) لم يكن في الحقيقة سوى قائد الفرقة الإيطالي المشهور. لزمت حالتي بالتظاهر بالجهل بهذا البطل وأنا في غاية السعادة عند ما بدأ العرب الآن في سرد بطولات هذا الرجل فرادى، وبالغوا في حكاياتهم حتى غدا هذا الرجل أحد أبطال الأساطير. جلست فاغرًا فمي، وهذا دلالة على التعجب عند جميع الشعوب، مستمعًا إلى ما يسردونه من بطولات لهذا الرجل العظيم. أي شيء باقٍ إذن لم يفعله! لقد وصل إلى إحدى الجزر بالحديد والنار، وأمطره أعداؤه بوابلٍ من القذائف بواسطة المدافع عند أحد ضفتيها؛ لكنه استطاع وحده الاستيلاء على هذه المدافع ولاذ أعداؤه بالفرار رهبةً من مظهره الوحشي المخيف. أدركت أنهم يتحدثون عن وصول جاريبالدي إلي جزيرة

صقلية. في مكة لم يعرفوا بعد شيئًا عن هذا الأمر؛ فكل ما استطاعوا فعله هو المبالغة في وصف الحدث لدرجة الأسطورة.

أُختتمت هذه المحاورات بالكلام عن ماهية هذا البطل المرعب، فقال أحدهم أنه ليس بشرًا؛ بل هو جن مُخيف أو روح شريرة؛ ولكنه حاليًا يظهر في صورة البشر؛ لكي ينفذ أحد المهام الغامضة على الأرض. لكن حمدون كان أكثر دراية بالأمر منهم، فقد كان يعرف رئيسًا لإحدى السفن في الإسكندرية شاهد هذا الوحش بعينيه وأخبره أن كاليوالي (جاريبالدي) إنسان؛ ولكنه قبيح جدًا لدرجة أن أعداءه يلوذون بالفرار منه بمجرد رؤيته؛ له لحية طويلة حمراء تصل إلى الأرض، وفمه كبير جدًا بداخله أسنان تبدو كأسنان ذكر الخنزير، علاوةً على أنه ضخم الجثة، لا يستطيع أحد أن أن يلمس رأسه بأطراف أصابع اليد الممدودة. كان يرتدي دائمًا قميصًا لونه أحمر، ينقعه في دماء أعدائه يوميًا وهذا هو السبب في لونه الأحمر، كان أيضًا السبب في فزع أعدائه وهروبهم لمجرد رؤيته؛ لعلمهم مسبقًا بالمصير القاسي الذي ينتظرهم في حال وقوعهم بين يديه، فهذا الغول لا يحتاج أسلحة، إذ لا يحتمل أحد نظرته المرعبة؛ فعيناه متقدتان كشرر اللهب، وفمه أحد أبواب جهنم، حاجباه يشبهان فرو الخنزير البري الخشن، بالإضافة إلى أنه يلتهم صغار الأطفال ويقوم بفعل كل ما هو وحشيّ.

بهذه الطريقة ألحق الخيال الخصب لهؤلاء الأناس الطيبين بقائد الفرقة البحرية كل صفات آكل لحوم البشر والأطفال الصغار؛ فبينما كنت أُنصت لهذه الأحاديث الخرافية، اكتظت غرفة الطعام رويدًا رويدًا بالضيوف؛ من بينهم ناس من المفترض أن يشاركونا الطعام، بينما انضم آخرون إلينا فقط لأسباب دينية، إلى المجموعة الأولى ينتمي أحد التجار من بخارى، اسمه مراد أوغلو خان، وابنه سليم، تعرفت عليهما وتقربت منهما بحكم إقامتي في مكة، للأسف لم نتحدث سويًا كثيرًا؛ لأن مراد لا يعرف التحدث بالعربية جيدا، كما أني لا أعرف من التركية، لغته الأم، سوى خمسين كلمة تقريبًا. كان مراد ضخم البنية قويًّا، بارزة عظامه، كان وجهه نموذجًا حقيقيًا للتتار، قصيرًا وعريضًا، تبرز منه عظام الخدين، له عينان غائرتان صغيرتان تلمعان وفم كبير به أسنان غير سليمة،

ولحية خفيفة رمادية اللون، كساه اللون الأصفر كاللَّيمون؛ لكنه كان أكثر اصفرارًا من سائر أهل بلده الذين يتمتعون بصفرة عادية؛ لكنه على أيّة حال ليس أكثر اصفرارًا من ابنه سليم الذي يجسد فعلًا مرض الصفراء. كان سليم شابًا أهوجاَ، صغير السن لكنه مُحَنَّك، له شفاه بارزة متدلية وبشرة وجه مترهلة، علاوةً على لون بشرته الصفراء التي تدل على مرض بالكبد والمزاج الصفراوي؛ لأن سليم كان يتمتع بالفعل بنشاط وحيوية بدرجة كبيرة اتضحا في المشاجرات الدائمة بينه وبين أبيه مراد، فهذه الطاقة الكامنة فيه لم تجعل أيامه دائمًا تنتهي بالنهاية الأجمل، وفي الغالب لن ينج نسله من آثار هذا السلوك العدواني.

لم يكن مراد شيعيًّا، وبالتالي فهو ليس زنديقًا؛ على الرغم من أن غالبية أهل بلده كانوا شيعيين. لقد كان مشهورًا جدًا في مكة، لأنه اعتاد السفر إلى هناك كل أربعة أو خمسة أعوام للحج لأسباب ترجع إلى تدينه كما ادعى؛ لكنه اعتاد السفر في الحقيقة لأسبابٍ تتعلق بمصالحه في مكة، فقد كان يدير هناك تجارة الفرو، التي كانت نوعًا ما مربحة، كان يستأجر هناك أحد الدكاكين كسائر تجار الفرو في أحد أهم الشوارع في مكة وأكثرها رواجًا لمدة شهر؛ مثلما يفعل كبار التجار في معرض لايبتزيج. تتشابه التجارة عامة في موسم الحج مع مواسم الشراء في المعارض الألمانية، فكما تعني كلمة فى الألمانية معرض (Messe) أى قداس أيضًا عندما تكون إحدى المناسبات الدينية هي السبب الرئيس في توافد التجار، فكذلك هي أيضًا كلمة الحج، لها مدلول تجاري بخلاف المعنى الديني. توطدت علاقتي بعد يومين مع مراد أوغلو خان حتى أنه دعاني أن أزوره في دكانه، ولبيت دعوته بسرورٍ إرضاء لفضولي. أما سليم، فقد كانت علاقتي به في بادئ الأمر سيئة؛ لكني عرفت بعد ذلك كيف استميل هذا الفتى الظريف عن طريق بعض الهدايا التي أحضرتها معي.

بخلاف هذين الرجلين، نزل عند حمدان ثلاثة رجال كبار السن من أفغانستان، سليمانية أصليون، كانوا ضيوف حمدون في نفس الوقت معي. كان لهم أيضًا مكان هنا في مسكن الأفغان، الذي أُطلق عليه هذا الاسم لأنه كان مخصصًا فقط لسكن السليمانيّة؛ لأن وطنهم بعيد جدًا عن مكة، ويأتي القليل منهم كل عام للحج، ولو قصد أصحاب

النُّزُل أن يكون ضيوفهم أفغان فقط لظلت فارغة بدون ضيوف يسكنونها. كان هؤلاء الثلاثة متعصبين مغالين في عقيدتهم، فقد عاملو الفرس، الذين يسكنون هنا (أغلبهم كانوا من الشيعة؛ ولذا فهم في نظرهم زنادقة) بأعلى درجات الإزدراء، يرشقونهم بأفظع ألفاظ السبِّ عندما يقابلوهم مصادفةً؛ لأنهم لم يحتملوا أن يجلس هؤلاء الملحدون معهم على طاولة طعام واحدة، وبالمناسبة كان السليمانية رجال يبدو من مظهرهم أنهم ميسورو الحال، يلبسون ثيابًا جميلة مزينة بأسلحة أشكالها بديعة ومختلفة، يحملون الأنواع السهل عليهم حملها في حزام بنطالهم. كان تعصبهم هذا فطرة متأصلة فيهم يستطيع المسلم الحق من غيره تمييزها بالحدس وإلى حد ما استشعارها. فسريعًا أقر ثلاثتهم فيما بينهم أن الأرثوذكسية التي حاولت الثبات عليها لا تليق بي، ولم تثمر كل محاولاتي باحترامي وتقديري لهم عن شيء، فقد أصدروا حكمهم أن بي شيء من الزندقة وظلوا ثابتين على رأيهم. ولأني كنت أتحاشى أن أظهر لهم أدلة يستشفون منها أني كافر، سواء في تصرفاتي أو كلامي معهم؛ لذا لزموا الصمت معي واعتبروني ملحدًا في قرارة أنفسهم، وكنت لهم على الأقل في الظاهر فقط مسلمًا متشددًا، لا يجلسون معي على طاولة واحدة، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، حيث كانوا يتحدثون إلى بعباراتٍ مهذبة من حينٍ إلى آخر كالعادة في أحاديث العرب.

كان هؤلاء هم الأشخاص الرئيسيون في هذه المجموعة الأرثوذكسية المتشددة، بالأخص في بيت حمدون بن حميدو وانضم إليهم لا حقًا نصف دستة من المواطنين، الذين يستحقون الكلام عنهم. هذه الصحبة التي تضم معتنقي ديانات مختلفة تكونت في الوقت الراهن فقط من ثلاثة رجال وكهلٍ من خراسان. هذه الفرقة المتزندقة من نزلاء البيت الذي نسكن فيه جميعًا، التي انفصلت عن باقي المؤمنين المتشددين بسبب تلك الفجوة التي لا يمكن التغلب عليها لهذا التعصب الديني، وأصبح لا يُسمح لهم بالجلوس معنا نحن المسلمون حقا على طاولة واحدة، ووجب علي أتباع الشيعة دائمًا الجلوس في أحد زوايا الصالة بمفردهم، حتى في خلاف أوقات الطعام، أثناء المحادثات والمشاورات كانوا يجلسون على الأرض على بساطٍ مفروش عليها، لأن زاويتهم تخلو من

مقاعد الديوان، ولكن لحفظ أقل قدر من كرامتهم، كانت أماكنهم على الأرض مزخرفة بألوان بديعة؛ لكنها أخفت وجودهم المزعج وغير المقبول كزنادقة في بيت أحد السنيين وبين أتباع آخرين للمذهب السنيّ. من الواضح أن بيت حمدون لا يصلح لسكنهم، وكان عليهم ألاّ يبقوا ولو ثانية واحدة في هذا البيت إذا وجدوا مكانًا آخر يقيمون فيه. لكن لا توجد نُزُل مخصصة لهم، فعلى الحجاج منهم أن يقيموا في مساكن خاصة مقابل المال الكثير، ولكن الآن توجد بعض البيوت التي اعتاد أصحابها استضافة أتباع المذهب الشيعي الزنادقة فقط والفرس فقط، أصحابها المضيفين لهم إمّا من الشيعة الذين استوطنوا مكة أو من أهل مكة الذين تشوبهم شائبة الزندقة. يوجد في مكة سكن خاص بالفرس؛ لكنه يقع بالقرب من أحد أحياء المدينة يسكن فيه نساء فقط؛ لذا لا يحبذ أحد من الأعاجم (الفرس) أن ينزل فيه. هذا هو السبب الأول لعدم تفضيل الفرس السكن في النُزُل المخصصة لهم، أما السبب الثاني فهو أن جزءًا كبيرًا من هذه البيوت مكتظ بساكنيه ولا توجد أماكن فارغة، والجزء الآخر محجوزة الأماكن فيه لحجاج القافلة الآتية من بغداد، وبناءًا على ذلك لم يتبق لأتباع عليٍّ سوى أن يسكنوا في منزل هذا الرجل الذي يكرهونه أكثر من أيِّ سُنيّ عادي (لأن حمدان كان شيعيًا مرتدًا).

تشابهت ملامح هؤلاء الفرس الثلاثة، الذين يسكنون معي في منزل حمدون، لدرجة أن يعتقد المرء أنهم أخوة؛ لكنه في الحقيقة لم تكن تجمعهم أيّة صلة قرابة، كان لهم جميعًا نفس الوجه ذي الملامح العادية المميزة لهم، نفس الأنف المستقيمة، الطويلة نوعًا ما والمحفورة بدقة، لهم نفس اللحية السوداء أو المصبوغة باللون الأسود (يصبغ كل الفرس لحيتهم باللون الأسود) والكثة، لهم نفس العيون السوداء، والرموش التي يسوّدونها بالكحل، والحواجب المرسومة بدقة، ونفس الفم الصغير والشفاه الرقيقة. كما بدا أن لهم جميعًا نفس العمر، بالرغم من أني علمت أن الأكبر منهم عمره خمسون عامًا، والأصغر منهم يبلغ خمسة وثلاثين عامًا، ولكن اللحية المصبوغة ولون البشرة الزيتوني الخادع، ساعدا على إعطاء الرجل سنا أقل بكثير من سنه الحقيقي اعتمادًا على مظهره. بالإضافة إلى ما سبق كانوا ثلاثتهم يرتدون تقريبًا نفس الملابس، فقد كانوا يرتدون قفطانًا داخليًا من

الحرير لونه أحمر، تشبه قَصَّة القفطان الشركسي الجميل، وعليه آخر خارجي داكن اللون، وحزامًا من الكاشمير الغالي وبلغة جميلة من الجلد. أما غطاء الرأس فكان عبارة عن قبعة مدببة مصنوعة من صوف الخراف على شكل أقماع السكر، من أشهر ما يتزينون به وأهم ما يميز المسلم السيئ من على بعد، والذي بمجرد أن يراه أحد أتباع السُّنَّة المتشددين ما يفتأ أن يصب عليه لعناته. خلاصة القول كان يتمتع الثلاثة رجال من الفرس بدرجة عالية من الأناقة والوقار. لم أر مطلقًا بين الآلاف المؤلفة من الحجاج الذين قابلتهم أثناء رحلة حجي إلى مكة رجالًا أكثر أناقةً ووقارًا من هؤلاء الرجال الأعاجم المفترى عليهم، والذين منهم الرجال الثلاثة الذين يسكنون معي في نفس المكان وكانوا بالنسبة لي على سبيل الاستثناء نماذج جيدة؛ فبين كل الشرقيين الذين تفحصتهم، بدا لي إجماليا وبغض النظر عن التفاصيل، أن هؤلاء الفرس هم النموذج الأصلي للرجل بالمعني الحقيقي للكلمة. علاوةً على ما سبق فهم يتمتعون بأعلى الدرجات فيما يتعلق بالقوة الجسدية والصفات الذكورية، وسمعت البعض يحكي عن القدرات الخارقة للعجم التي تخطت كازانوفا أو أغسطس القوي، وقد ذُكرت حكايات المكيين التي اعتادوا أن تلوكها ألسنتهم بكل حرية وبمنتهى العلانية عن هؤلاء العجم الثلاثة وعن الآخرين، والتي تُعد بالنسبة لنا أمرًا بغيضًا، في أحد الكتب الفريدة الذي يُطبع في أوربا.

من السهل أن تستشعر كيف يتمتع هؤلاء الرجال، الذين تبدو عليهم الفخامة والوقار، بجرعة عالية من تقديرهم لأنفسهم، الناتج عن فخرهم بما هم عليه. لكنهم في مكة ينبغي عليهم أن يتنازلوا عن ذلك كليةً، فبحكم كونهم من الكافرين عاصروا أقذع أنواع الشتائم، حيث لم يتورع المتشددون من رميهم بالروث والبصق في وجوههم ووطئهم بأقدامهم. فسابقًا في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٥٠) كان محرمًا عليهم زيارة المسجد الحرام في مكة تمامًا؛ أما الآن فقد سُمح لهم بزيارته؛ ولكن يجب عليهم أن يخضعوا لكثيرٍ من المهانات إذا أرادوا أداء فريضة الحج. عندما ينوي أحد الأعاجم المُبتلى؛ على الرغم من كل التجاوزات التي تنتظره، السفر إلى مكة لأداء فريضة الحج، فهذا أكبر دليل من ناحيته على شجاعته الأخلاقية وبذل النفس الحقيقي، أو على الأقل الإيمان بالمعنى الذي

كان سائدًا في القرن الأول الميلادي. لقد حُقَّ إطلاق وصف "مؤمن" على كل أعجمي أراد أن يؤدي فريضة الحج؛ لأنه يؤدي الفريضة على الرغم من الذل الذي يتجرعه، ويكاد يصل إلى أعمال تعذيب؛ لم تكن ناتجة فقط عن سوء أخلاق من يقوم بها. ففي القرون السابقة أُجبِر الفرس على اعتناق المذهب السني، وقُتِل من امتنع منهم عن ذلك. وحتى الآن لا يزالون يُجبرون على القيام بأشياء تتعارض مع معتقدهم الديني؛ خاصةً عندما يزورون المدينة، تلك البلدة التي يقع بها قبر النبي؛ فعلى سبيل المثال ألزموهم بالوقوف على أضرحة كل من الإمامين أبو بكر وعمر، اللذين يرقدان تحت الثري، كلما مروا بهما والدعاء لهما، ومن المعروف أن الشيعة يكرهون هذين الخليفتين؛ لذا كان الفرس يرددون الأدعية بشفاههم فقط؛ أما في داخلهم فقد صبوا اللعنات على تابعَي محمد المدفونَين هنا. في كل مرة كنت أري العرب يستقوون على أحد رجال الفرس المحترمين ويقهرونهم في أيّ تعامل بينهم، دون أن يظهر على وجهه ثمَّة تعبير واحد للثأر لنفسه، خالجني إحساس لم استطع مقاومته هو عبارة عن قدر كبير من الشفقة والإجلال لهذا الأعجمي. كان سب العرب، الذين يتفوقون في العدد والقوة على الفرس، يشبه الركلات التي وجهها الحمار للأسد الميت في الأسطورة التي تحوي الكثير من الجبن الأخلاقي؛ مما يجعل كل إنسان يحمل في جوفه قلبًا تمتلئ أعماقه بالاشمئزاز والتقزز.

كانت طريقة تعامل صاحب النُزل الذي أسكن فيه مع العجم الثلاثة الذين يسكنون عنده معي غريبة جدًا؛ فقد استقبلهم في بيته وآواهم وأطعمهم في مقابل ما يدفعونه له من مبالغ وفيرة؛ لكنه لم يظهر لهم ثمَّة تقدير أو احترام، على الأقل طالما يوجد أحد المسلمين المتشددين في محيط تواجدهم ويراهم. وبمجرد أن يخرج آخر واحد من هؤلاء المتشددين من المكان ويغادر السُّنِّيون، وأنا منهم بالطبع؛ لأني كنت من أهل السُّنَّة، سرعان ما تتغير لهجة حمدان بن حميدو فجأة وطريقته في التعامل معهم. نظرًا لأن الحجرة التي كنت بها في السويعات الأولى كان يفصلها عن القاعة الخارجية حائط خشبي به العديد من الشقوق، التي من خلالها استطعت أن أراقب كل ما يحدث بين حمدان والشيعيين أثناء وجودهم بمفردهم وما يخفيه سرًّا.

كانت تصرفات حمدان معهم أجمل عرض مسرحي يمكن للمرء أن يشاهده حينما يتخلى حمدان فجأة عن أفعاله تجاههم بعد مغادرة المتشددين للمكان كاللامبالاة والتجاهل الصامت إزاءهم كما لو كان ذلك بأثر عصا سحرية. أعطى وجهه فجأة انطباعًا بالمودة كما لو كان أبًا محبًّا للخير لهم ريثما توجه إلى الأعاجم في أحد زوايا الصالة حيث كانوا يجلسون. ألقى عليهم التحيات والسلامات مهللًا، ورد عليه الأعاجم بصمتٍ أعرب عن اعتزازهم بأنفسهم، وبخشونةٍ تدل على نبلهم. فهؤلاء الشجعان كانوا يحتقرون حمدان جميل المظهر والملبس، ليس فقط بسبب نفاقه ولكن أيضًا لسببٍ آخر؛ وهو أن حمدان نفسه شيعيٌّ زنديقٌ وأن أباه من الفرس وينحدر من بغداد كما علمت من أصدقائه الثرثارين، والآن ينافق أتباع السنة المتشددين ويتملقهم بكل مهارة وكياسة، وادعى أنه ينتمي لأتباع المذهب الحنفي، الذين يوجدون بكثرة في حي السليمانية؛ أما بخصوص ما إذا كان حمدان حنفيًا حقا أم زنديقًا، فهذا أمرٌ لم أستطع أبدًا أن أهتدي إليه، فكل ما أعرفه، أنه طالما كان وحده مع الفرس، تصرف كما لو كان شيعيًا، فيسب أهل السنة والمذاهب المتشددة الأربعة، وينعت الأئمة الأربعة بأنجس الحيوانات، يلعن أئمة أهل السُّنَّة الثلاثة، أول خلفاء المسلمين، الذين أطاحوا بعليّ الطيب لفترة طويلة من خلافة النبيّ. لكن الفرس لم يرونه الشيعي الحق بالرغم من هذا التحول في معاملته معهم؛ لأنه بمجرد أن يدخل الصالة أحد أتباع أهل السُّنَّة يرجع حمدون لأصله مرة أخرى، وسرعان ما يقدح بالسب والشتم في أتباع علي ويطلق عليهم: الوثنيون عبدة الأصنام؛ لأنهم يقدسون الحسن والحسين، أبني علي، لدرجة العبادة. لهذه الأسباب الواضحة لم يستطع العجم اختلاق درجة كبيرة من التعاطف مع هذا المنافق؛ إلا أنهم لم يصدوا تعامله المهذب معهم أحيانًا، لأسباب تتعلق بأمنهم، تركوه يقوم بكل شيء جميل وطيب معهم كلما كانوا وحدهم معه، فقد كانوا مضطرين لقبول هذا الحنان الزائف، وسماع كلمات الإطراء المشوقة وهو يشبههم بالأسد وبلدهم بالشمس وكلمات أخرى من هذا القبيل. في اللحظات التي كان لا يخشى فيها حمدان من وجود السنيين، كان لا يسمح للشيعيين بالجلوس في الزاوية المخصصة لهم؛ بل يسمح لهم أن يدخلوا أولًا؛ كي يحوزوا على أماكن

الجلوس تشريفًا لهم على الديوان العربي، وكان يحضر حمدان لهم بنفسه أفضل أنواع القهوة، وابنه، شابٌ يبالغ في زينته له مظهر أنثوي، يقدم لهم أفخر أصناف النرجيلة التي يفضلها الفرس، فقط لأوقات قصيرة كان يحظى العجم على كلمات الإطراء والمداهنة، هل كان يشعر العجم إذن بالرضا إزاء هذا الحال، سوف أخوض فيه لاحقًا.

كان على الكهل الذي أتى من خرسان، وتزامن وجوده مع العجم، أن يجلس أيضًا في الزاوية المحددة لهم في قاعة الطعام، ضخم الجثة وقوي البنيان، لم يؤثر عليه كبر السن، ولكنه كان ساذجًا، يصدق كل ما تحكيه عائله صادق من حكايات وأكاذيب، وغالبًا ما كان مرتعًا للسخرية من الجميع. فقد ارتدى هذا الرجل طيب القلب، الساذج بالرغم من الحر القائظ غير المحتمل في صيف مكة، قفطانًا من القماش السميك ومبطن بالداخل بفرو حيوان السمور، لأن بعضهم أقنعه أنه سيحتل مكانة سامية بين علية القوم طالما ارتدى هذه الملابس الفخمة، التي تجعله يبدو في عيون الآخرين رجلًا أرستقراطيًّا، ولكنه في الحقيقة كان أضحوكة لهم. على أيّة حال كان المكيون يحبون السخرية من الغرباء، والتندر عليهم، خاصة عندما يجدون من يتمتع بالسذاجة. كانت الألاعيب التي قام بها حمدون وعائلته حيال هذا الرجل لا حصر لها، وأنا كنت بنفسي شاهدًا على بعضها.

هؤلاء هم أهم الشخصيات التي كانت ضيوف حمدان في الوقت الذي دخلت فيه بيته، وريثما توقف عذب الحديث بينهم عن البطل المغوار (Kaliwalli) في العصر الحديث، أحضر لنا أخيرًا ثلاثة من الزنوج الطعام في ثلاثة سلطانيات كبيرة، إحداهن مملوءة بالأرز والثانية بلحم الضأن والثالثة بالحلويات، وضعوها على إحدى الركائز الكبيرة الخشبية في وسط الجائعين، ملاصقة للديوان، حيث جلست أنا وسليم ومراد، بينما جلس القرفصاء كل من صادق وحمدون قبالتنا على البساط المفروش على الأرض. كان الطريف في جلستنا أن ثلاثتنا على مقاعد الديوان كنا أعلى من أواني الطعام والآخرون جلسوا على الأرض أسفل الطعام، فكنا نمد أيدينا لأسفل وهم لأعلى كي نتصيّد الطعام ونمسك به.

في البداية تسارعت الأيادي نحو البيلاو بالملاعق الخشبية؛ وهو عبارة عن أرز مملح به كمية كبيرة من الفلفل والتوابل مطبوخ بالزبد. كانت أحيانًا تتوقف هذه المناورة بأن

يمد أحدنا يده في سلطانية اللحم ويأخذ قطعة منه ويزج بها في فمه بيديه. بين الحين والآخر كان يحضر لنا أبناء حمدون الثلاثة الصغار سلطانيات أخرى صغيرة، بها قشطة محلاه بالسكر، مشمش محفوظ في السكر ومربى الورد. ظل هؤلاء الغلمان واقفون بجانبنا يحملون هذه السلطانيات بالقرب من أنوفنا، كما لو أنهم يريدون أن يضعوا ما بها في أفواهنا بأيديهم، البعض من الحضور أعجبهم ذلك، وتركوهم يطعمونهم بأيديهم؛ ولكني تعلمت في أوربا كيف أطعم نفسي بنفسي منذ كنت في الثانية من عمري، وقررت أن أقوم بذلك في المستقبل؛ لأن خالقي أتاح لي استخدام يدي لهذا الغرض؛ لذلك استهجنت المساعدة السخيفة من هؤلاء الغلمان غير المؤدبين مثل سائر أطفال العرب، الذين يسمحون لأنفسهم بممارسة جميع أنواع الهزار مع الحجاج الذين يضعون الطعام في أفواههم؛ مثل تلطيخ وجوههم بالمربى ودهن وجوههم بالقشطة وأشياء أخرى من هذا القبيل يمكنني الاستغناء عنها.

حتى الآن كان كل شيء على ما يُرام، انتهينا من الطعام بكل أدب، وألاعيب هذه الغلمان لم أنل نصيبي منها على الإطلاق، محتفظًا بنظافتي، مع وقارٍ رسمي خاص بي، ولمَّا نضب اللحم والأرز وجاء الدور على الحلويات، رأيت شيئًا جديدًا معهم. فكل الشرقيين مولعون بأكل الحلوى تمامًا كالأطفال، فهي فقط بالنسبة لهم أطيب الطعام، كان يسعدهم أكل الحِلو ويفضلونه على سائر الأطعمة، حتى لو كانوا قد أكلوا من قبل كميات كبيرة من أي طعام، فهم دائمًا قادرون على أكل كميات كبيرة لا تُعقل من الحلويات بنهمٍ. ولذا انقضَّ الآن رفاقي على الطاولة على الحلويات بنهمٍ وشراهةٍ مفرطة، بكلتا اليدين في نفس اللحظة وليس بيدٍ واحدة بأدب وذوق كما سبق، وغمسوا أياديهم تقريبًا حد الكوع في وعاء الحلوى، الذي طفت على سطحه المخبوزات الحلوة طبقًا للتقاليد العربية في سائل وافرٍ كالبحر لونه أصفر من العسل والزبد السائل، الذي تقاطر وتساقط من الأيادي المتصارعة في الوعاء على أجساد جميع الموجودين، على وجوههم وملابسهم وعماماتهم، كل شيء أصبح ملطخًا وملوثًا بهذا السائل. تفجرت هذه المادة اللاصقة الدهنية البشعة كما لو كانت في نافورة مياه، ولم يكن في وسعي فعل شيء سوى الابتعاد عنها كي أتفادى

هذه المادة الرغوية؛ إلا أن رد فعلي جاء متأخرًا، فقد تشبّعت بدلتي ببقع الزبد والعسل، فهرعت إلى غرفتي لتغييرها، أما الآخرون الذين شاركوني الطعام فلم يزعجهم البتة هذا الدهن والوسخ على ملابسهم، فظلوا يرتدونها متسخة، والتي ازدادت اتساخًا ببقع زبد وعسل أكبر، ليس ليومٍ واحد فقط؛ بل للأسبوع التالي ولم يغيروها إلا ريثما رجعوا من الحج الأصغر، أي من العمرة.

من بينهم حافظ حمدان المختال بنفسه وابنه الأكبر، ذلك الشاب الذي ذكرته آنفًا الذي يزين بشرته باللون الأحمر الوردي، على نظافتهما الخارجية، ربما يكون لهما خبرة سابقة في التندُّر على طريقة الأكل الشرهة لهؤلاء الحجاج الذين يأكلون بنهم؛ لذا انسحبا قبل الهجوم على العسل وكتل الزبد، وشاهدوا من على بعد فن ابتلاع الطعام الفريد من نوعه حقًا، الذي قامت به عائلات صادق ومراد. أما أتباع المذهب الشيعيّ، الذين كانوا يجلسون في زاوية أخرى من الغرفة، فقد كانوا يحصلون على نفس الوجبات التي قُدِمت لنا؛ لكنهم تناولوا الحلويات بطريقةٍ أكثر أدبًا من الضيوف السنيين المتشددين، حيث كان من الواضح أن طريقة الأكل النظيفة هي إحدى فضائلهم، التي لا يتحلى بها السنيّ القوي الإيمان.

عندما طال بعض الزبدة والعسل ملابسي، طلبت من مضيفي حمدان أن أذهب إلى غرفتي، فأعطاني إشارة أفهم من خلالها ألَّا أتحدث بصوتٍ عالٍ عن غرفتي؛ لأنه كي أحصل على غرفة وحدي في أحد النُزُل العربية، فهذا شيء يُعد ترفا لم يُسمع عنه من قبل، فقد اعتاد جميع الحجاج الذين يسكنون في أيّ نُزل مكيّ النوم على سجاجيد مفروشة على الأرض في قاعة الاستقبال، ويرجع سبب حصولي على غرفة وحدي لعناية حسن بن صادق بي وإفشائه منزلتي العالية المفترضة وهي أني "أحد أمراء الجزائر"، إذ أنه من غير المعقول بأيّة حال من الأحوال أن ينام الحجاج الذين تفوح منهم الروائح الجميلة مع هؤلاء الحجاج الملوثة ثيابهم بالدهن، على الأرض. كذلك كان يتعين عليهم حماية أحد المسلمين المتدينين مثلي من الاحتكاك بالشيعيين. لقد نلت غرفةً وحدي، سوف أخبركم لاحقًا عن تفاصيلها، كانت بعيدة عن مكان نوم باقي الحجاج، مما كان لذلك الفضل في

عدم إثارة غيرة الآخرين وحقدهم؛ لذا نُصحت أيضًا أن يظل خبر حجرتي هذه سرًا كلما أمكن.

تقدمني أحد العبيد الزنوج إلى الغرفة التي خُصصت لي، والتي بدت لي من الوهلة الأولي صغيرة جدًا؛ لكنها كانت جميلة ومناسبة للغاية، جدرانها الثلاثة كانت عبارة عن ستار من نسيج القطن مطبوع، كأنه ورق الحائط، والجدار الرابع كان عبارة عن باب خشبي ضخم به شقوق كثيرة مكنتني من مراقبة كل ما يحدث في القاعة. لم يوجد في الحجرة أثاث؛ لكن كانت معي أمتعة كثيرة تكفي لملئها. بعدما استيقظت من القيلولة التي طالما تقت لها، شرعت في مراقبة ما كان يدور في قاعة الأكل، ودونت آنفًا ما رأيته. مكثت في هذه الغرفة حوالي ثلاث ساعات إلى أن باغتني أحد الزوار، الذي جعلني أكتشف حقيقة هذه الغرفة. كان الزائر ديكًا روميا شكله جميل، دلف إلى الحجرة فجأةً من تحت الجدار القماش وأخذ يصيح بشدة بجوار أذني، ثم تبعه، منبه البيت هذا، سريعًا عدد كبير من الحريم، فأصبحت غرفتي مرتعًا لجيش من الدواجن، لم أستطع طرده من الغرفة البتة؛ لأنه كان يوجد هنا في مكانه الطبيعي الذي تركه فقط منذ بضع ساعات، دون أن يقتنع بالتنازل عنه لأحد أمراء الجزائر. هنا أدركت أن غرفتي لم تكن سوى "حظيرة للدجاج" نظفها حمدان مؤقتًا كي أسكن فيها. لم يكن خلف ستار القطن المزركش سوى ألواح من الخشب، لتكون حاجزًا شبكيًا لم يصل حتى إلى سقيفة من ألواح خشبية متجاورة. هذه الغرفة لم تكن إلا قفصًا حقيقيًا سكنت فيه؛ بل بالأحرى كان من المفروض أن أسكن فيها؛ لأن شلة الدواجن جعلتني أُسرع في الرحيل منها.

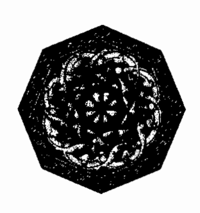
بمجرد الانتهاء من تغيير ملابسي، هرعت إلى حمدان في قاعة الطعام وأسمعته من الكلام ما جعله يندهش لحالة الغضب التي تملكتني، فصحت فيه قائلًا: يا حمدان، هل تعتقد أننا الحجاج حيوانات حسنة النية، لدرجة أننا نرضى بأي شيء؟ هل حسبت أني ربما أكون إنسانًا همجيًا أو حيوانًا وحشيًا يرضى أن يعيش مع الدواجن؟ هل تجرؤ أن تُسكن أحد السنيين الحق في حظيرة الدواجن؟ فبالرغم من الحيَل التي قمت بها لتخفي حقيقة هذه الغرفة، فإني اكتشفت ما لم تقدم أنت على الإفصاح عنه.

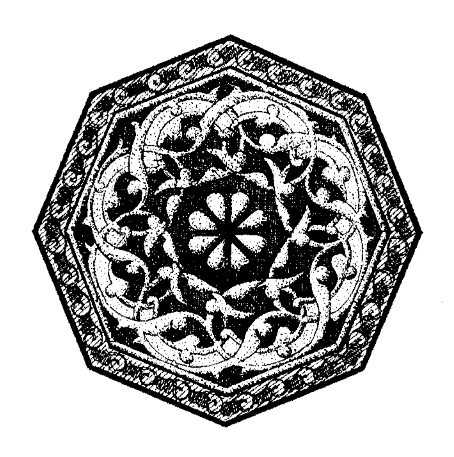
تأثر حمدان كثيرًا لأني اكتشفت سر الغرفة سريعًا هكذا، ولأني أعلمته بذلك بطريقة مخجله له، فقد سمع كل الحضور في قاعة الأكل لومي له وتغامزوا وضحكوا على حمدان وحظيرته، حيث غدا حمدان مضيفنا فجأة مصدرًا للسخرية من جميع الضيوف وظل الحال هكذا طيلة الثلاثة أو الأربعة أيام التالية، حيث وجهت له أسئلة مثل هذه:

هل وجدت حاليًا ضيفًا جديدًا لحظيرتك يا حمدان؟" كيف يتعامل الحاج الجديد مع الديك الحاج؟ ألا تعلم أنه لا يصح أن تجعل رجلًا غريبًا يدخل على حريم غيره؟ ونكات أخرى كثيرة على نفس المنوال استحقها مضيفنا حمدان.

لكي يهدئ حمدان من روعي ساقني إلى غرفة أخرى في الطابق الأول، كانت نوعًا ما جميلة وبها بعض الأثاث، قال حمدان إنه أعدها وجهزها لأحد أمراء الهند، وسأتناوله في الفصل التالي.

هكذا سكنت بشكلٍ مؤقت في مكة، بدأت في أن أستأنس الغرفة فأفرغت متاعي، وشددت على علي ألا يترك الغرفة عندما لا أكون في البيت، احتياطات أمن واجبة، فتدين الحجاج سيمنعهم من السرقة حتى وإن واتتهم الفرصة. بالرغم من هذه الاحتياطات فقد فقدت بعض أمتعتي.







الفصل الخامس عشر
الأسرة المكيَّة والمفسدون

بيت السليمانية - منزل سكن فيه بورتون (Burton) في مكة - منازل سيئة - الموقع العام للمنازل - تحديد الغرف - بيت حمدان - غرفة الحريم - عدد هائل من الحريم - الزوجات الثلاث المسموح بهن طبقًا للشرع - الزوجة الرئيسية - الزواج بين أبناء العم وبنات العم - بنت العم - مكانتها المفضلة - الزوجة الثانية الشرعية - رجل في زي النساء - نمو الشعر الخانق - معشوقتي - الزوجة الثالثة الشرعية - نبلاء النسب - مشهد يدور بين أصغر زوجة وإحدى الجواري - الزوجات الأخريات - المحبوبة السمراء - قسوتها - مشهد مرعب - جلد حمدون لإحدى زوجاته السمراوات - الجَلد الدامي من حمدون لزوجته السمراء - دعابة كافرة من أحد الغلمان.

كان نُزل السليمانية الذي سكنت فيه هو نفس المكان الذي أقام فيه قبل ثماني سنوات كابتن بورتون (Burton)، سلفي في الرحلات إلى مكة. لقد كان محقًا بالفعل أن يسكن هنا، لأنه ادَّعى أنه درويش أفغاني، بعدما خلع عن نفسه صفته كطبيب هندي و أمير فارسي، كان هذا الحي في المدينة المخصص لسكن الأفغان هو الصحيح له، أكثر من كونه مناسبًا لي أنا المغربي، أمير الجزائر الوجيه، كما صرّح صادق وابنه في كل مكان، كي يكتسبا أهمية لنفسيهما شخصيًا لأنهما أدلاء الأمير. ولكن بالنسبة لي كان هذا المكان أكثر أمانًا للسكن فيه من بورتون بالرغم من أن غرفتي لم تكن في هذا البيت. ذلك بسبب

تعريفه لنفسه على أنه أفغانيّ، فقد كان الخطر محدقًا به في كل لحظة أن يقابل أحد أهل بلدته المفترض أنه منهم، ومن ثَّم كان من السهل أن يفضح أحدهم أمر خداعه لهم، لأن بورتون لم يسافر مرة واحدة في حياته إلى أفغانستان ولن يستطيع الحفاظ على دور الأفغاني الحقيقي أمامهم. إن الحالة التي عليها وطن السليمانية الآن أي أفغانستان، التي تشهد القلاقل الدائمة ساهمت في تقليل عدد الحجاج الذين يسافرون إلى مكة، ولعبت دورًا في إنقاذ بورتون وذلك بتقليل حدة الخطر الذي قد ينجم عن احتكاكه بأبناء وطنه الأصليين المفترض أنه واحد منهم. أما أنا فقد كان الأمر بالنسبة لي مختلفًا، فقد عرفت المغرب (شمال غرب إفريقيا) والمغاربة سكانها، تقربت من عاداتهم ولغتهم وتقاليدهم لأمدٍ طويل، لأُجيدَ تمثيل دور أحد المغاربة بشكلٍ مقبول تمامًا، بالرغم من ذلك كنت أتحاشي الاحتكاك مع أيٍّ من أهل بلدي المفترضين، وهربت من أي فرصة تجمعني مع هؤلاء البرجوازيين. بناءًا على ذلك اخترت أن أسكن في الحي الأفغاني، حيث لا تجد أيّ مغربي، لأنهم اعتادوا أن يسكنوا في حي خاص بهم يقع بعيدًا جدًّا عن الأفغاني الذي أنا فيه، كما قمت بتغيير مذهبي من المالكي إلى الحنفي، فقد كنت حتى ساعة دخول جدة من أتباع المالكية، لأن كل الجزائريين تقريبًا يتبعون هذا المذهب، فوجدت أنه طالما بقيت على هذا المذهب سوف أضطر للصلاة معهم في نفس المكان في المسجد، لذا زعمت أني من الآن من أتباع المذهب الحنفي ولم يكن ذلك أمرًا غير عادي، فقد كان هناك بعض الأفارقة من غرب إفريقيا من أتباع المذهب الحنفي، حتى وإن كانوا قلة.

ربما يستخلص القارئ من الحقيقة التي مفادها، أن الأوربيين الوحيدين اللذين سافرا إلى مكة في العشرين سنة الأخيرة وظهرت تقاريرهما للجماهير، سكنا في نُزل السليمانية؛ لأنه يُعد أشهر الأحياء الجميلة والمميزة في مكة، أو على الأقل أكثر الأحياء قابلية للسّكنى؛ لكن هذا سيكون استنتاجًا خاطئًا، فالصدفة المحضة هي التي جلبت كلانا إلى نفس المكان، فبورتون دخل مكة بصفته أفغانيّ، وأنا صدفة معرفتي بحسن بن صادق، الذي اكتشفت فيما بعد أنه كان سمسارًا يعمل لحساب حمدان بن حمدون، يجلب الغرباء لنزله.

لم يتمتع الحي الذي يسكن فيه السليمانية بطرازٍ معماري فني جميل، فالبيوت كانت صغيرة ومنخفضة، شكلها قبيح، وغالبًا ما تكون متهالكة قابلة للسقوط، حيث كان من المعتاد في مكة ألّا تصمد البيوت طويلًا، حيث لا يوجد نصب تذكاري واحد يرجع تاريخ بنائه إلى أربعمائة سنة مضت، فقط نجد المسجد الذي لا يزال يخضع لعمليات إعادة الإعمار والتجديد، الذي كان بمثابة ما يقرب من المبنى الجديد ويشبه القديم. ففي حي الأفغان كانت توجد بقايا مسجد صغير لم يتعد عمره مائتي عام، كان عبارة عن حطام عندما زار بوركهاردت مكة، وحاليًا هو عبارة عن فوضى من الدبش والحجارة. يرجع السبب في قصر عمر الأبنية في مكة إلى التعرية السريعة للصخور والحجارة، والتغير السريع في درجات الحرارة من الحر القائظ إلى برودة نسبية، ومن الرطوبة إلى جفافٍ غير عادي، عمرها قصير عند مقارنتها بعمر باقي الأبنية في سائر البلدان الشرقية.

كانت الأبنية في الحي الذي كنت أسكن فيه تتكون من طابقٍ واحد أو من طابقين كحد أقصى، بينما في مكة كانت الأبنية في أحسن الأحياء نادرًا ما تكون أقل من ثلاثة طوابق؛ ولكنها كان لها جميعًا نفس الشكل، شكل الصندوق مكعب الشكل، لونه أسود، ذو منظر كئيب. لا يزيد عدد الحجرات في معظم هذه الأبنية عن أربع حجرات، أكثرهن فخامة توجد في الدور الأرضي، غرفة مقببة تُستخدم كقاعة كبيرة لاستقبال الحجاج وكغرفة طعام لهم ثم ينامون فيها، يمكن أن نسمي هذه الغرفة "حظيرة الحجاج"؛ لأن الحجاج الورعين يُعاملون بطريقة مماثلة أو تختلف قليلًا عن ساكني الحظيرة ذوي القرون والآذان الطويلة، يُقدَّم العلف لهم مرتين في اليوم، وبعد الظهر تُنظف الحظيرة، وفي المساء ينام الحجاج على أرضيتها، وصباحًا تكون مكانًا لسقي وتنظيف ساكني الحظيرة.

كان الدور الأول مقسمًا إلى حجرتين غير متساويتين في المساحة، الكبرى منهما كانت قفصا للنساء، محبوسة فيه كما هو المعتاد زوجات الرجال في البيت، ينضم إليهن في موسم الحج عدد غير محدد من الحاجّات، عجائز وأرامل شابات، ونساء أخريات، يتزاحمن بجانب بعضهن البعض بسبب هذا المكان الضيق في جوٍ تسوده ألفة جميلة، قلّما وجد فيه نزاع أو شقاق، لكن به قذارة ووسخ.

الغرفة الأخرى الأصغر في الطابق الأول، كانت تخص سيد البيت، أي احتفظ بها لنفسه؛ لكنه لم يكن ينام فيها أو يسكنها، نادرًا ما كان يدخلها، كان يؤجرها أحيانًا مقابل المال لأحد الحجاج الذي يريد أن يختلي في هذه الغرفة مع إحدى ساكنات قفص الحريم القريب من هنا، في هذا الوقت صرت أنا ساكن هذه الغرفة في بيت حمدان.

الغرفة الرابعة كانت موجودة فقط في تلك البيوت التي لها طابق ثانٍ مثلما كان الحال في بيت مضيفي. لم يكن الطابق الثاني سوى غرفة مربعة الشكل، بُنيت على شرفة على السطح، تُؤجر عادةً للمحظوظين المميزين وهم الحجاج الذين تكتظ حافظات نقودهم بالمال، أو لحالات خاصة من الحاجّات الأرامل صغيرات السن، اللاتي لهن عدد كبير من العاشقين.

ما ذكرته سابقًا، هو الوصف الدقيق لبيت حمدان بن حميدو؛ ولأن حمدان صاحب النُزل كانت لديه عروض كبيرة، لم يكن هذا الصندوق الذي يتكون فقط من أربعة غرف كافيًا ليسع كل الحجاج، استأجر بيتين متجاورين، أحدهما يشبه في تكوينه نفس البيت الأول، فيه استقبلت غرفة النساء في الطابق الأرضي النساء الأجنبيات، بينما في البيت الذي كنت أسكن فيه كانت تسكن في قفص النساء مع الحاجّات حريم حمدان مالك النُزل.

لم يكن عدد الحريم ضئيلًا، فقد كانوا عبارة عن مجموعتين، الأولي تضم زوجاته الثلاثة طبقًا للشرع ولسن أربعة كما سمح له القرآن بذلك، فقد تنازل حمدان عن الزوجة الرابعة وتعفف عن حقه في معاشرتها صابرًا على ذلك؛ ولكننا سنرى فيما بعد كيف قلت درجة احتماله وصبره على هذا، ونعي السبب الحقيقي في عزوفه عن الزوجة الرابعة. المجموعة الثانية تضم زنجيتين أو ثلاثة من الجواري، كانت بمثابة زوجات إضافيات، لم يعتد حمدان الذي وُهب الكثير من الجمال، أن يعطيهن مكانة مبالغا فيها بين نسائه، مما جعله مميزًا عن سائر المكيين الذين يفضلون البشرة السمراء والمفاتن الشرسة. أمَّا العنصر الثالث في فقص النساء فقد كان يتكون من عدد كبير من النساء ينحدرن من نسل أمفيتريون (Amphitryon)، عش حقيقي للفتيات العذراوات، لم أستطع أن أحصي عددهن أبدًا، كن يبذلن أقصى جهدهن ليلًا ونهارًا في التحدث فيما بينهن عن طريق صراخ

صاخب بأصوات واضحة، يخترق مسامعي لم أسمعه من قبل مطلقا في حياتي، والذي من المؤكد أن نغمته أعلى درجتين من الصوت الذي يخرج من حنجرة أيّة امرأة أوربية.

أصبحت جارًا للنساء اللاتي يسكنّ في القفص بسبب قرب غرفتي منه، واللاتي لم يحللن أحدًا مطلقًا، فطالما يتواجد الزوج المتزمت بقربهن تظل أبواب السجن موصدة؛ لذلك استطعت أن أرى وجوه كل زوجات حمدان الدائمات والمؤقتات والجواري وبناته والرضع واستطعت أن أراقبهن بكل شغف.

في الأول راقبت الزوجات الثلاث لحمدان، لهن أعمار متفاوتة، تزوجهن حمدان بالتتابع في عشرة أعوام، أكبرهن يقدر حمدان عمرها بين الأربعين والخمسين، والثانية تبلغ ثلاثين عامًا والثالثة تتمتع بربيعها الخامس والعشرين. من الطبيعي أن المرأة العربية تذبل وتفقد حيويتها عندما تبلغ الأربعين، إلا أنَّ زوجة حمدان الأولى كان لها مظهر يجعلني أتطلع لها بكل سرور؛ على الرغم من أنها لم تثر في نفسي أية رغبة تجاهها، ليست سمينة لكنها ممتلئة ريانة، مما جعلها لا تزال تحتفظ ببشرة وجهها الناعمة إلى حدٍ ما، ولم تشوه التجاعيد ملامحها الجميلة، لها أنف مستقيمة بها انحناءة واضحة، ليست كبيرة ولا صغيرة، وعينان واسعتان جدًّا سوداوان، كأنما يتطاير منهما الشرر، شعرها لم يعد كثيفًا ولكنه أسود فاحم كسواد الغراب، ربما يكون مصبوغًا، حاجباها مرسومان كخطٍ مستقيم، وذقن صغيرة مستديرة، وأذنان صغيرتان فاتنتان، يدان وقدمان لينتان رقيقتان شكلوا معًا كلًا متجانسًا، تؤدي إطالة النظر إليهم إلى تخمين مدى الجمال الكامل المثالي الذي كانت تتمتع به هذه السيدة في ريعان شبابها. كانت تحتل الزوجة الأولى لحمدان بشكلٍ واضح المنزلة الأولى في البيت، إن لم يكن أيضًا في قلبه، ويبدو أنها ستظل تحظى بهذه المنزلة وذلك لأنها كانت ابنة عمه، فدرجة القرابة هذه علاقة خاصة جدًا، تكاد تصل عند العرب إلى درجة التقديس. فعندما يتزوج أحد رجال العرب ابنة عمه، يكون ذلك حظًا سعيدًا وشرفا له، حتى ولو لم تتمتع ابنة العم تلك بأيّة ميزات جمالية خاصة بالجسد. فاستعمال كلمة "بنت العم" كمرادف للزوجة في أفضل لهجة عربية، لم يكن عُرفًا سائدًا فقط بين عرب المدن؛ ولكن أيضًا بين البدو، ودائمًا ما يكون المقصود من

لفظ "بنت العم" الزوجة الأولى المفضلة، وإن لم يستطع الرجل العربي أن يتزوج من ابنة عمه، فيكتفي في بعض الأحيان "ببنت الخال" كزوجة، التي تأخذ نفس الحقوق والمكانة التي تتمتع بها بنت العم، لكن طالما وُجدت بنت العم فلا بديل عنها لأن قرابة النسب من جهة الأب أقوى وأفضل عند العرب عن تلك التي من جهة الأم. فلم يحدث أبدًا أن طلق أحد الرجال العرب زوجته ابنة عمه، لاسيما إذا كانت أمّا لأولاده الذين لا يزالون أحياءً صغارًا لم يكبروا بعد. أمّا في حال عدم وجود أطفال، فيتم الطلاق عادةً بكل سهولة دون الحاجة إلى ذكر حجة سوى عدم وجود أطفال. لذا فإن زوجة حمدان ابنة عمه التي أنجبت له ستة أطفال، قد تمتعت بحصانةٍ ضد الطلاق من حمدان لكونها ابنة عمه وأم أولاده، وهذا الوضع الذي يجعل أيّ مسلمة في مأمن بعيد عن الطلاق؛ لأن الرجل العربيّ هو الوحيد الذي يملك حق الطلاق إذا ما أراد ذلك وأعجبه. فقط خوفه من السمعة السيئة قد يُثنيه أحيانًا عن التعسف في روابط الزواج، وهذا ما لا يحدث كثيرًا بين رجال العرب. أصغر أبناء بنت العم كان بنامين، شاب يرد ذكره كثيرًا له وجنتان بلون الورد الأحمر، المدلل من قبل أمه والذي يحتل منزلة الأب في المنزل في غيابه ويتحكم بصورة مستبدة في باقي أخواته، واستباح لنفسه الطغيان والجور في التعامل مع كل سكان النُزل، أمّا باقي نسل "بنت العم" فكانوا جميعًا متزوجين ويسكنون بعيدًا عن بيت أبيهم.

زوجة حمدان الثانية كانت أصغر من بنت العم بحوالي من عشرة أعوام إلى اثني عشر عامًا؛ لذا لم تكن لها ميزة على بنت العم سوى الصبا والشباب، كانت هذه المرأة كجندي يقذف اللهب، يرتدي ثوب امرأة، كائن خارق للعادة قوي البنيان يحمل اسم امرأة، كانت طويلة القامة كالرجال الطوال، من حُسن حظها أن موضة قفازات اليد لم تكن موجودة في مكة آنذاك، لأنها لن تجد بأيّة حال من الأحوال مقاسًا يناسب كفي يديها الضخمتين. كانت تقف على قدمين لهما سمات مضحكة، فحينما وقفت يومًا أمام باب غرفة الحريم، لم أر من هذه المرأة سوى قاعدة ارتكازها تلك التي تقف عليها كما التمثال، فاعتقدت أن عملاق خرسان سمح لنفسه أن يطأ قفص الحريم ويقف على بابه، لكنه لم يكن العملاق الأخرق؛ بل كانت الحسناء حبيبة الزوجة الثانية لحمدان الوسيم، اسمها

معناه "محبوبتي الصغيرة"، ذلك الاسم الذي بمجرد أن أسمعه من النساء الأخريات ينادين به هذا الجندي قاذف اللهب، تجتاحني نوبات من الضحك لا أملك التحكم فيها. لم تكن ملامح وجه وقسمات هذه "الحبيبة" قبيحة في حد ذاتها، فقد كانت متناسقة، منحوتة بشكل مستقيم، لم يكن فمها كبيرًا جدًا بل متناسبا مع مجمل الوجه، والأنف ليست في حجم وشكل حبة البطاطا، لم تتساو عيناها تمامًا مع كرة البلياردو، لا، فكل هذه القسمات في وجهها كانت في مجملها لا تناسب امرأة؛ بل بالأحرى ملامح أحد الفلاحين الفلمنكيين[1] الأقوياء، حيث يُعرفون بالفراسة. أما أهم ما يميز هذه "الحبيبة" ويشكل فخرًا لها فهو شعرها الأسود الكثيف المتشابك الغليظ والقاسي، كانت كالمهرة التي لا يكفيها رطل زبدة كل أسبوع تدهن به شعرها كي تصنع منه أيّة تسريحة شعر، فقد حافظت تلك "الحبيبة" ذات الخمسة والثلاثين ربيعًا أو الثلاثة والثلاثين على قطعة المجوهرات الرئيسية التي تمتلكها بطريقة جيدة، مما جعلني أفكر بدون انزعاج كيف كان يبدو شعرها إذن حينما كانت في الثامنة عشر من عمرها. لقد كانت تختال بكثافة شعرها غير العادية، وكيف لا تزهو به وهو سبب استحسان زوجها لها، الذي كان لا يرى هو الآخر في جسدها الممتلئ القوي أيّة نقيصة؛ لأن الكثير من الرجال الشرقيين يحبون المرأة ذات الجسد الممتلئ القوي البنية كالرجل. واستمر هذا الذوق في تقدير "الجمال" لأمدٍ طويل عند الشرقيين.

الزوجة الثالثة لمضيفي حمدان كانت كعود برسيم تكاد لا تُرى من الوهلة الأولى لمن يراقبها دون تركيز النظر عليها مما سواها، فقد كانت امرأة صغيرة السن نحيفة، لكنها لم تصل لدرجة الهيكل العظمي كنساء البدو، ولكنها كانت بعيدة تمامًا عن كل معايير وأذاوق الجمال الشرقي. كانت ملامح وجهها عادية ولكنها على أيّة حال تفتقر إلى نموذج الجمال ذي القسمات البارزة اللافتة للنظر، لها قامة نحيفة وليّنة، ولكن عينيها لا تلمعان، لا يرى الناظر إليهما شيئًا مميزًا كروعتهما مثلًا؛ إلا أنها تمثل للإنسان العادي الذي ينظر لها لأول مرة أكثر من كونها قامة نحيفة شفافة، أمّا مَن يدقق ويمعن النظر إليها

١ هم سكان المنطقة الشمالية من بلجيكا ويتحدثون اللغة الهولندية ويبلغ عددهم أكثر من ستة ملايين نسمة. (المراجع).

عن كَثبٍ فسيعرف بالفراسة عالمها الداخلي. فقد كشفت ملامحها لحدٍّ ما أن بها شيئًا مما نجده عند أبناء وبنات الأسر الأرستقراطية القديمة، شيئًا يصعب على توضيحه؛ ولكن يسهل التعرف عليه ممن لديه ذائقة فهم النبلاء والأرستقراطيين. إذا نظرت إليها تحسبها مهرة سباقات عربية أصيلة، في كثير من الأحيان تبدو ضئيلة جدًا، أو قبيحة بلا جدال ككلاب السوقي العربية التي تُعد من أرقى أجناس الكلاب وأنقاها، لكن لن يخطر ببال أحد النسب الأصيل الذي يحويه هذا الثوب اللامع الجميل مظهره، فكأن نفحات من النبل والرقة الفطرية قد أُريقت على هذا القوام النحيل، تلك الميزات التي لن تجدها عند العوام من الناس، فهؤلاء من الممكن الارتقاء بهم وتهذيبهم عن طريق التربية ووسائل التعليم المتعددة ولكنك لا يمكن أن تصل بهم إلى الأناقة الأرستقراطية. فالأرستقراطية الفطرية قد تفتر وتفقد بعضا من حدتها بسبب الإهمال والتواجد في مكان أقل ملاءمة مما يستحق صاحبها؛ ولكن ستظل روح صاحبها مغمورة بالنبل حتى تكشف عن نبلها وأصلها في أحلك لحظات المهانة والذل، هكذا كانت بالفعل تلك المرأة الشابة العربية. فقد حُرمت من الحياة في بيئة ملائمة لطبيعتها النبيلة، ولم تنعم بالتعليم، فقط ينقصها ما نطلق عليه نحن الأوربيون التهذيب الحضاري. فالبرغم مما بدت عليه هذه المرأة في أول مرة وقع ناظري عليها، إلا أني خمنت أنها تنحدر من أحدى سلالات النبلاء. فالأدب الطبيعي، النبيل، من محض إرادتها، غير المتكلف فيه، والحقيقي، والرزانة الراقية بالرغم من الحرية المتاحة في التحرك لا ينبع إلا من شخص يتحلى بالوقار الفطري فيه، هذه الثقة في التصرفات التي لا تصلح إلا لمن ورث التفوق العرقي عن أسلافه، هذا الذوق الذي تميزه البساطة وينبذ كل ما هو فج يهوى بصاحبه إلى الضآلة، كل هذه الخصال بالإضافة إلى غيرها التي تسكن وجدان الإنسان النبيل استشففتها عند هذه الزوجة الشابة. كما أني أعتقد أنها تنحدر من نسل إحدى السلالات العربية القديمة وأنبلها والأصيلة غير المختلطة، بسبب طبيعتها وجوهرها وطريقة ظهورها وسلوكها، حتى لو لم يخبرني أحد رفقائي في النُزل بذلك. فقد كانت تنحدر من ناحية نسب أبيها من عائلة الأشراف بمكة، ومن ناحية أمها من البدو الذين ينتسبون إلى قريش، تلك القبيلة التي من المعروف أن

النبي ينتسب إليها. كيف لحمدون أن يتزوج من امرأة لها مثل هذا النسب الطيب، وهو ابن الغريب في مكة ونصف الزنديق؟ فلو كانت نشأت عند أقارب أمها، البدو الأحرار أصحاب الكبرياء والفخر بأنفسهم، فما كان يجرؤ أحد العوام من أمثال حمدان أن يطلب يدها منهم للزواج. ولكن لا عجب فعرب المدن أقل صرامة في مسألة الحفاظ على نقاء العرق والنسب الأصلي لهم من الاختلاط بالعوام والسوقية، فأشراف مكة أنفسهم يتزوجون من الزنجيات اللواتي يعتبرن من أحط النساء العربيات طبقًا لمعايير الأنساب. فمن يتزوج بهذا الوحش الأسود يجب أن يتخلى عن كل الأفكار المتعلقة بوضع العائلة بين النبلاء. كما يبدو أن والد هذه المكية لم يعول كثيرًا على مصاهرة النبلاء فقط، وبذلك استطاع حمدان السوقي الذي ينحدر من الزنادقة الشيعيين أن يتزوج هذه الشابة العربية الأصيلة ابنة النبي. فبالرغم من أن جمالها لم يكن أخّاذًا ولم يكن لها المظهر الرائع إلا أنّ ملامح وجهها عندما تألفها ستطيل النظر إليها. كانت خدودها شاحبة نحيلة، يرتخي شِدقيها لأسفل بكل سهولة، وجهها تكسوه صفرة ذابلة، كل ذلك أوحي لي بقلة النشاط والحيوية، ومع ذلك هل خلت عيناها من عبراتٍ تفضح حالها؟ فهاتان العينان كانتا واسعتان بارزتان، سوداوان لامعتان، كما تكون أعين أخرى كثيرة، لكنهما تميزتا عن باقي أعين النساء العربيات اللواتي رأيتهن، أن عينا تلك المرأة تنضحان بنبل الروح والتسامي بالنفس وتقديسها. ففي ذاكرتي أحد المشاهد الذي لن ينمحي منها أبدًا، عاينته عن بعد من أمام باب غرفة الحريم، والذي تصرفت فيه هذه المرأة النبيلة بطبيعتها التعبيرية بمنتهى الحذق واللطف، حيث سقطت من إحدى الجاريات الزنجيات الخرقاء اللخمة، كما هو الحال في هذه السلالة السوداء غير الماهرة، صّينية القهوة بما عليها من فناجين وأباريق ملآنة، فانسكب أغلب القهوة على ثوب سيدتها النبيلة. خافت الجارية السوداء من غضب سيدتها عليها فخرت راكعة على ركبتيها متوسلة منها الصفح، ووضعت وجهها القبيح عند قدمي سيدتها. والآن أعزائي القراء كم أتمنى لو كنتم رأيتم رد فعل هذه العربية الرائعة الذي بان على قسمات وجهها، فبدلًا من الحنق والغضب الذي كان من الممكن أن يظهره أي إنسان دنيء في مثل هذا الموقف، ارتسمت على وجهها فقط

الشفقة والعطف والإزدراء؛ فالشفقة لحال تلك الزنجية التي تمسح وجهها في قدميها، والإزدراء بسبب المبالغة في تقدير هذه الحادثة. لكن كيف عبرت هي عن ذلك؟ لقد رفعت عيناها الواسعتان الداكنتان إلى أعلى بكل عظمة وفخر، إذا جاز التعبير كما لو أنها لمحت بذلك إلى أن هذا الاتجاه إلى أعلى هو ذلك الذي يجب على المرء أن يكون فيه في هذه الغرفة. ثم أشارت بيديها إلى الزنجية كأنها تأمرها أن تهب من على الأرض واقفة هي بنفسها، وكأن تلك النبيلة لا يليق بها أن تفعل ذلك. كان رد فعلها مزيجًا من أحاسيس الشفقة والرحمة والفخر والكبرياء، عكسته تعبيرات وجهها. كم كانت تعابير هذا الوجه النبيلة مختلفة تمامًا عن كل الشرقيين والشرقيات الّذين رأيتهم حتى الآن، ففي حالة هذه المرأة اتحد كل من نُبل الأصل والروح. لقد كان حريًا لأصغر زوجات حمدان هذه أن تعيش في أزهي عصور الإسلام، مع المميزات من نساء المسلمين، فهي ليست جديرة بهذا الحظ الغادر الذي جعلها تحيا في أكثر عصور الانحطاط للمسلمين ويجعلها زوجةً لأحد الرجال الأوغاد، كحمدون هذا! فهذه الزوجة على شاكلة عائشة زوجة النبي وزبيدة زوجة هارون الرشيد.

للأسف لم تأخذ هذه الزوجة الشابة المكانة التي تليق بها في بيت حمدون، فقد كان حمدون إنسانًا حقيرًا للغاية، ماديًّا لا يمكنه أن يفهم هذا الجمال النبيل في زوجته ولا حتى يدركه. لكنه أحبها جدًا في أول زواجهما قبل ثمانية أعوام، ربما كانت أحداث الغيرة مع الزوجتين الأخريين، أو ربما أيضًا الوقار والرزانة اللذان احتفظت بهما الزوجة الشابة قد رميا بها على أعتاب البرود والجفاء في العلاقة، أو قد أدي إلى عدم تمتعها بما تحظى به الزوجتين الأخريين، التي تمتلك من بينهما "بنت العم" الفضل الأكبر. كان يبدو أنها وجدت سلواها في حالة التبلُّد هذه التي وصل لها زوجها حمدان، فهو لا يرقى لمستواها كي يكون جديرًا بها، وهي وجدت بديلًا عنه في ابنتيها، طفلتان صغيرتان فاتنتان في السادسة والسابعة من عمرهما تعيش فقط من أجلهما، يشكلان لها كل السلوى والنعمة.

أمّا ما يتعلق بنساء حمدان اللاتي لم يتزوجهن طبقًا للإسلام، فقد كن كثيرات ولكن بالكاد يمكن ذكرهن، فمعظمهن نساء زنجيات اشتراهن حمدون من السودان، وجوههن

لها نفس ملامح كلاب البولدوج، لهن أجساد ممتلئة وأعواد ثقاب بدلًا من الذراعين والساقين. إحدى هؤلاء الحسناوات القبيحات من نساء حمدان أصبحت أمًا وأنجبت منه طفلة صغيرة قمحية اللون، كانت تأتي غالبًا إلى غرفتي وتلعب كالقطة في كل زواياها. اكتسبت هذه الجارية السوداء بذلك حقًا بألّا تُباع أبدًا لأن الرجل العربي لا يبيع الجارية التي تنجب منه أطفالًا. كانت تتمتع برتبة وسطى بين الزوجة الشرعية والجارية العادية، هذا الوضع المزدوج أتاح الفرصة لكشف حقارة شخصيتها. كانت صاغرة وخاضعة لزوجات حمدان الثلاثة، فلا تعترض على أي شيء مهين يفعلونه تجاهها، فعندما تناديها "بنت العم" بالكلبة السوداء أو تركلها حبيبة بقدميها الضخمتين، تتقبل ذلك بنفسٍ شاكرة وهادئة؛ ولكنها كانت بالنسبة لباقي الجاريات الزنجيات سلطانتهن، تسبهن بأقدح ألفاظ الشتائم وحيث تكون تجلجل اللكمات المدوية وجلدات السياط. كانت تنتقم هذه السوداء، إنها تنتقم لنفسها من أقرانها اللواتي لهن نفس لون البشرة بسبب الظلم الذي ألحقته بها زوجات حمدان ذوات البشرة البيضاء. غالبًا ما كنت أسمع في غرفتي أصوات تألم إحدى هؤلاء الجواري السوداوات يستغثن من بطش وضربات هذا الوحش الأسود. كان يعرف حمدان كيف تعامل هذه السمراء المحببة له باقي الجواري الزنجيات بوحشية، فقط حينما كانت تصل أصوات استغاثات النساء اللواتي تضربهن إلى قاعة الطعام، كان يهز كتفيه لا مباليًا ويقول مبتسمًا:

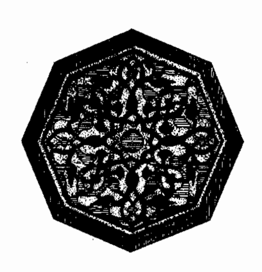
"إنه لشيء جيد عندما تلحق الكلاب الضرر ببعضها البعض."

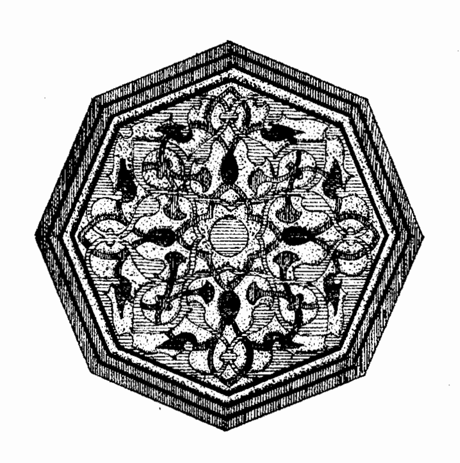
بالرغم من أن هذه الجارية السوداء كانت لها مكانة مميزة بين سائر الجواري، إلا أنها لم تحظ بحب سيدها الآمر الناهي حمدان، فحمدان أبقى عليها في بيته فقط بناءً على التقاليد والأعراف العربية، أي لأنها أصبحت أمًا، وعلى الرغم من سوء معاملتها لباقي الجواري الزنجيات، ظل حمدان غير مكترثٍ لما يصدر منها. لكن الويل لها عندما تقترف مثل هذه الأفعال العدوانية تجاه ابنته منها! لقد عاينت بنفسي أحد هذه المشاهد من على بعد.

في أحد الأيام بعد الظهيرة، كنت نائمًا بعمق في وقت القيلولة في غرفتي، أفزعتني بغتةً الضوضاء الجهنمية التي كانت عبارة عن صراخ طفل صغير يعاني من تعذيب بدني.

فنهضت ووقفت أمام باب غرفتي وتمكنت من رؤية ما يحدث؛ لأن باب الحريم كان مفتوحًا وحمدان كان غائبًا، فرأيت تلك الجارية الزنجية تقف بكلتا قدميها على الطفل المسجي على الأرض وهو ابن حمدان البالغ من العمر عشر سنوات وتجلده بالسوط. تصبب وجهها عرقًا وتطاير الشرر من عينيها وسال الزبد من فمها، وحولت تجاعيد الغضب الحيوانية المميزة لسلالة الزنوج، التي كست وجهها إلى وحشٍ معادي للإنسانية. باءت كل محاولات الزوجات الثلاث هباءً، لَمَّا حاولوا زعزعة قدمها من على الطفل وإيقافها عن تعذيبه. آلمني جدًّا في أعماق روحي هذا الطفل المسكين؛ لكنني لم أتمكن من مساعدته لأنه كان يُجلَد في غرفة الحريم وعقوبة دخول غرفتهن تستوجب الموت. لكن النساء عرفن كيف يساعدن هذا الغلام، فقد أرسلن أحد الأطفال يستدعي حمدان من الطابق السفلي؛ لأنهن أنفسهن لا يُسمح لهن بالنزول إلى أسفل؛ لأن الرجال كانوا في قاعة الطعام، ولم تجرؤ جارية من الزنجيات على استدعاء حمدان خوفًا من أن ينالهن انتقام هذه السوداء المميزة. أخيرًا ظهر سيد الحريم، ماذا حدث الآن؟ لم أتمكن في باديء الأمر من رؤية كل شيء؛ لأني هرولت عائدًا إلى غرفتي كي لا يكتشف حمدان أني كنت أراقب نساءه لأدون ملاحظاتي عن أخلاق المسلمين، ومن ثّم تفسد متعتي الأساسية في مكة. إذا كنت رأيت في البداية قليلًا مما حدث على قدر ما سمحت لي به ثقوب الباب، فإن ما سمعته كان أعظم. انقضَّ عليها حمدان وانتزع السوط من يدها وطرحها على الأرض، فالتفت جميع الحريم الآن حول هذه البائسة. جردها حمدان من كل ملابسها وساقها عاريةً إلى ممرٍ في البيت ملاصق لغرفتي، ربما كان يعتقد أني لست موجودًا وقتذاك في غرفتي، مما مكنني أن أرى مجددًا كل ما يحدث، وهناك أُلقيت على لوحٍ خشبي وجلدها حمدان حوالي مائة جلدة أسفل ظهرها. كاد صراخها وعويلها يمزق أذني، مما جعلني أعتقد أني لن أستطيع البقاء في غرفتي. في كل مرة كان ينزل فيها السير المشدود في طرف السوط على جسد هذه المسكينة كان يدميه. لم ينزعج حمدان لرؤية الدم، كما لم يكن ذلك سببًا له في تغيير طريقة جلده، كان يزداد عنفًا حتى أنه كان يوجه لها بين الجلدات بعض الركلات برجله على رأسها، مما جعلها تصطدم بكل قسوة على الأرض الحجرية. وأخيرًا

فقط ريثما تكونت بركة حقيقية من دمائها على الأرض، توقف عن جلدها وسمح لهذه المسكينة أن تزحف إلى غرفة الحريم، حيث لم تقو على المشي وقتها واستمرت هكذا طيلة فترة بقائي في مكة. سمعت فيما بعد سبب ضربها للغلام. فقد سمح الغلام لنفسه أن يداعبها بطريقة غير لائقة للغاية، لكني سمعت وشاهدت الكثير من ذلك في مكة ولا يمكن أن أكررها على مسامعكم. لذا كانت هذه الزنجية يُرثى لحالها في الحقيقة أكثر من توبيخها ولومها، بسبب هذه الطريقة الظالمة التي عاملها بها سيدها ونصف الزوج الذي لم يكلف نفسه توبيخ أو ردع الغلام بأي عقاب بسبب مزاحه الفاحش والبذيء؛ بل على النقيض من ذلك دلله وأعطاه الحلوى كي ينسى الضرب المبرح الذي وقع عليه من هذه الزنجية.







الفصل السادس عشر
أحوال الآداب في مكة

لماذا تزوج مضيفي ثلاث نساء فقط؟ - الحاجّات - الأرامل الشابات - المطلقات - الاستخدام الغريب لزواج المتعة - أزواج فقط أمام القانون - تجارة الأدلاء - الزوجة الرابعة لمضيفي - الأرملة السوريّة الجميلة الغنية - نهب الأرملة الغنية - الأم ذات العين الزرقاء - الجواهر الثمينة - صائغ شرقي - ثوب أنثي فاخر - الملكة المؤقتة للحريم - انهيار الرفاهية الشرقية - الحكم على النساء العربيات من ثيابهن - أولاد مضيفي حمدان - الشاب ذو البشرة الوردية - زهوه بنفسه ومظهره النسائي - الذوق الخاص بالنساء الشرقيات - رواية قصيرة - فاطمة ومهدي - التطور المريب لقصة حبهما - الزوجة الهندية الجديدة لحمدان.

عندما اكتفى حمدان بن حمدون مضيفي في مكة بثلاث زوجات فقط، بينما القرآن أباح لكل مسلم الزواج من أربعة نساء، لم يكن ذلك بسبب عفة حمدان بأيّة حال من الأحوال، ولكن كان له أسباب أخرى مختلفة، سوف تؤدي مناقشتها إلى إلقاء الضوء على أخلاق المسلمين وآدابهم في مكة في مواسم الحج. إن المكان الرابع للنصف الآخر لأمفيترون[١]

١ أمفيترون هو شخصية من الميثولوجية الإغريقية. كان قائدًا عسكريًّا في ثيفيا وابن الملك الكايوس ملك التيرينس. وكان صديقًا لبانوبوس. بعد أن قتل عمه «الكتريون» ملك الميسينيين عن طريق الخطأ، طرده عمه سثينليوس فهرب مع ابنة عمه «الكمن» إلى ثيفا حيث طهره خاله «كريون» ملك ثيفا من خطيئة القتل. (مقتطف من مقال أمفيترون من موسوعة ويكيبيديا الحرة. المترجمة)

لا يظل شاغرًا دائمًا، خاصةً في موسم الحج؛ بل بالعكس يُسد فراغ هذا المكان الجدير بالحسد بأربعة أو خمسة زيجات متعة في موسم الحج. أعتقد أن مؤسسة الزوجات المؤقتة هي الظاهرة المميزة لمكة المكرمة، التي لن تبلغ نفس الدرجة في الانتشار في باقي الدول الإسلامية.

طبقًا لقوانين الإسلام لا يُسمح للنساء بأداء فريضة الحج إلا بصحبة أزواجهن الشرعيين، ولأن كل النساء لم تطلهن هذه النعمة، أو لأنه في الشرق يوجد عدد من الأرامل والمطلقات اللواتي أردن تأدية فريضة الحج، لذا غالبًا ما كان يحدث أن بعضهن لا يلتزم بقوانين الإسلام ويسافرن إلى مكة لأداء الفريضة بدون صحبة الزوج الشرعي، أو حتى ظله. طالما كانت هذه النساء في الطريق أثناء الرحلة إلى مكة، كان كل شيء على ما يرام، فهن يمكنهن التجول في جميع أنحاء العالم على كل حال بدون الزوج الشرعي، حتى يصلن إلى مكة، فيباغتهن الإحساس بالاحتياج إلى الزوج الشرعي. ففي مكة المكرمة المرأة التي لا يمكن أن تسكن في أحد أحياء البلد الحرام أو تخطو خطوة واحدة بدون المرافقة الشرعية، لا يُسمح لها بدخول المسجد الحرام، فالنساء اللاتي يرتدين ملابس الإحرام يُعرفن إذن أنهن يردن أداء فريضة الحج، ولكن عندما لا يأتين بصحبة أزواجهن يُستبعدن من الحاجّات، بينما يُسمح "لبعض النساء" الأخريات بدخول المسجد الحرام بمنتهى الأمان، لأغراضٍ شتى من بينها التجارة، كبائعات للشربات والمربى والحلوى وفي الحقيقة ربما لديهن نية أخري غير التجارة. كانت الحاجّات المحتشمات، والأرامل الشابات والعجائز، والمطلقات المثيرات للاهتمام يتمنينّ بالفعل أن يُرون في بعض الحالات النادرة على أنهنّ من هؤلاء الرعاع، أي من "بعض النساء".

لهذا السبب غدا من المعتاد أن تبحث الحاجّات الورعات بمجرد دخولهن مكة عن رجلٍ يوافق على تمثيل دور الزوج الشرعي لهن، طالما بمقدورهن تأدية الحج على نحوٍ لائق بهن كمسلمات. لم تكن لديهن فرص كثيرة للاختيار من رجال مكة، لأن الكثير من المكيين تزوج القدر المسموح به من النساء الأربع ولا يريدون الزواج من نساء غريبات؛ لذلك يعتمدن أكثر على الحجاج، ولكنهم أيضًا عندهم في أوطانهم عدد كبير من

الزوجات المؤقتات؛ ولذلك يريدون في مكة إقامة علاقات عابرة فقط، كما يفعل بعض المكيين الذين يريدون أن يتحرروا من زيجاتهم الأربع. بناءًا على تلك الأوضاع نشأت الارتباطات المؤقتة التي يرى البعض أنها زيجات معقودة وطبيعية جدًا؛ لأن الطرفين المعنيين يرتبطان بدون عقد لا يُشترط وجوده دائمًا في بعض الحالات. هذه الزيجات المؤقتة التي لم ير أي مسلم أنها غير أخلاقية، تُعد طبقًا للمفاهيم الأوربية من أشد المحرمات، ومثل هذه الزيجات يرد ذكرها في فصل فساد الأخلاق، ولكن في بعض الحالات تعتبر طبقًا لقانون الأخلاق الأوربي الصارم لا شيئًا؛ لأن هذه الزيجات لا تتعدى أحيانًا كونها فاصلًا كوميديًا؛ فالزوج المزعوم يتنازل عن حقوقه ويمثل فقط دوره، حيث يصطحبها في الأزقة إلى المسجد.

من المؤكد أن الأرامل والمطلقات الثريات يستطعن إيجاد الزوج الذي ليس له غرض شخصي في الزيجة والذي يستغني عن حلاوة شهر العسل مقابل المال. كذلك نادرًا ما يجدن رجلًا شابًا وقويًا يبدي استعداده للعب هذا الدور المهين الذي يحقِّر من شأنه في عيون العرب، ويمثل فقط دور الزوج الشرعي. ولكن الرجال كبار السن، الفقراء والضعفاء لا يجدون غضاضة في كسب قوتهم من مثل هذه الزيجات غير الأخلاقية والتي تفتقر إلى معنى الرجولة الحقيقي؛ خاصةً الشياطين الفقراء من الطوّافين، أي المأجورين الذين يتقاضون أجرًا مقابل خدمات دينية وقد ذكرتهم سابقًا، فهم يشكلون المصدر الرئيسي للعدد الوافر لمثل هؤلاء الأزواج. حتى الطوّاف الذي أعرفه شخصيًا صادق بن حنيفة، ذلك البرجوازي الذي يحتفظ بلقب أرمل طيلة تسعة أشهر في السنة، بينما يسعد الثلاثة أشهر الباقية بموسم الزوجات الشرعيات، التي عادةً لا تستمر أطول من أربعة عشر يومًا. في تلك الأثناء كانت الحاجّة التي أهداها يده مقابل مالها، تؤدي العبادات المختلفة كما هو المعتاد ثم تُطلق بعد فراغها منها، وهو أمر سهل جدًا، فهذا زواج كاثوليكي أبدي وكما يعرف الحقوقيون أنه ينحل من نفسه في حال تقديم ما يثبت ذلك شرعيًا.

مرة واحدة في العام، بالأخص في موسم الحج إلى عرفة، تمكن صادق فيه من حقه الشرعي في الجمع بين أربع زوجات. ولأن الحج يكون في يوم واحد تحديدًا هو التاسع

من ذي الحجة؛ لذا لم يكن مع الحاجّات اللاتي أردن إتمام الحج، في سرير الزوجية الوهمي، بل كان لزامًا أن يتواجد معهن فقط. لقد كان حقًّا مشهدًا كوميديًّا رؤية هذا الكهل القزم في الحج وراء جبل عرفات وزوجاته الأربع يحطنه، واللاتي ظهرن بجانبه كالأشباح الطويلة يتدثرن بملابس الإحرام، وجوههن مغطاة بشريط لاصق، أضعفهن كانت قادرة على طرحه على الأرض بتسديد لكمة لأنفه. نادرًا ما عاصرت تهكمًا وسخريَة من اسم سيد الخلق، الصادق، وعلى أحد الأزواج الذي يملك أربعة نسوة، مثلما كان الحال مع هذا الكائن العتيق الخالي من معاني الرجولة. كان صادق يتربح من مثل هذه الصفقات، وكذلك من كل حاجٍ يصحبه أثناء الطواف حول الكعبة، فيعيش على هذا العائد باقي التسعة أشهر، وهو الموسم الميت في مكة المكرمة وتكسد فيه التجارة والحرف ريثما يرجع جميع الحجاج. فطالما تواجد الحجاج في مكة، عاش هو وابنه كالعادة مجانًا على نفقة الحاج الذي ينهبه كل مرة مجددًا، فيصطحبه طول الوقت حتى في سكنه، كما فعل معي بالضبط، فقط أتاح لي بعض سويعات للاستراحة منه في يوم عرفة، لأنه كان مشغولًا مع زوجاته. أما ابنه حسن بن صادق، الذي لم يكن بعد متزوجًا، فقد أقنعه بالشروع في صفقات الزواج من الحاجّات، وبمجرد أن مضي على وجودنا في مكة ثمانية أيام، كان حسن بن صادق قد احتفل بزواجه مرتين، ولكني أراهن أن زيجات حسن لم تظل أفلاطونية مثل أبيه.

لنفس هذا السبب كان يترك مضيفي في مكة مكان الزوجة الرابعة دائمًا شاغرًا، كي تحظى به من حين لآخر أيّة حاجّة شابة حسناء. كان حمدان يضارب بنفسه في هذه الصفقات الزوجية ليس فقط من أجل عيون الحاجّات الحسناوات، ولكن من يحالفها الحظ وتصبح زوجته المؤقتة، يجب أن تدفع له المال، والحق لم تكن مبالغ صغيرة. في نفس الوقت كان حمدان رجلًا يأبي أن يكون مجرد زوج صوري فقط، فقد كان يستمتع بشهر العسل كما يريد أي زوج عادي؛ ولأن الرجل الشرقي بعد حوالي شهر من معاشرة المرأة، يكون قد اكتفى منها ولم يعد يرغب فيها؛ لذا وجد حسابه هو أن ينتهي الزواج بعد هذه المدة. على أيّة حال لم يستمر لحمدان زواج أطول من ذلك، فقد كان متقنًا لهذه المهنة، حيث أنه شرع في مثل هذه الزيجات منذ حوالي ثلاثين عامًا. كان أيضًا يدقق

في الاختيار، فإذا ما اكتشف أخطاءً كثيرة بعد ارتباطه عدة أسابيع بإحداهن، كان ينهي الزواج ويرغب في واحدة أخرى، وتُطلق تلك بلا شفقة وتدفع المبلغ المتفق عليه بغرض إمتاع حمدان وتعود إلى وطنها دون أن يكون لها الحق في الحصول على لقب حاجّة، الذي لن تحصل عليه طالما أنها لم تصعد بعد على جبل عرفة؛ لأن حمدان أصبح يتحرك الآن بصعوبة. فلو أصرت هذه الزوجة المؤقتة على حصولها على اللقب، تنازل عنها حمدان لصادق الكهل أو أيّ مطوف آخر متخصص في زواج الأرامل. وغني عن القول أن حمدان كان يقدم نفسه كزوج للنساء الحسناوات الشابات فقط، وأنا شخصيًّا شاهد على أنه لم يخطئ الاختيار في أي مرة ، فأثناء إقامتي في بيته غيّر زوجته، وسنحت لي الفرصة أن أرى وجه كل من الزوجة القديمة والجديدة.

طالما كانت الزوجة المؤقتة موجودة في بيت حمدان، كان يعاملها بكل اهتمام ويجعلها أهم شخص في المنزل، جعل كل الغرف في البيت تحت تصرفها، طبعًا ماعدا قاعة الطعام في الطابق الأرضي، التي كانت عبارة عن حظيرة الحجاج ولا يُسمح لأيّة امرأة بدخولها. لكن في غرفة الحريم في الطابق الثاني كانت لها صلاحيات مطلقة، فبسبب موقع غرفتي بجانب مخدع الحريم كانت لا تُرتب غرفتي إلا بإذن تلك الزوجة المؤقتة. كانت تجلس عادةً في غرفة على سطح المنزل، حيث كانت تلتقي هي أيضًا بزوجها المؤقت ويحتفلان بشهر وأسابيع العسل. لمَّا كان حمدان يدير أشغاله وتجارته في قاعة الحجاج وبالأحرى حظيرة الحجاج، كانت تنزل تلك الحسناء إلى مخدع الحريم وتجلس على العرش المُعد لها، وهو عبارة عن وسادة كبيرة غير عادية من السُّنْدُس المُذَّهب، تتمدد عليها وتصطف حولها خادماتها المؤقتات، زوجات وجواري زوجها. كن جميعًا مُسخرات لخدمتها؛ فالجواري الزنجيات أصبحن جاريات مخصصات لها وحدها، يحضرن لها الحمام، يحممنها، يدلكنها ويدللنها ويطلعنها على أسرار الحمام ويساعدنها في تلوين رموش عينيها ووضع مساحيق التجميل على وجهها. أمَّا أترابها المؤقتات، زوجات حمدان الشرعيات، فكن يُسدين إليها بعض الخدمات إذا وجدن ما يسرهن في ذلك، حتى "بنت العم" التي كان يفخر بها حمدان لم تكن مُستبعدة من هذا المشهد الإقطاعي، عمومًا كان يبدو أن الزوجات الثلاث

أبدين رغبتهن عن طيب خاطر إلى حدٍّ ما في لعب هذا الدور المؤقت. كان وجود الزوجة الرابعة مرحبًا به من قبلهن على سبيل التسلية والخروج من الحياة الرتيبة في مخدع الحريم، حيث وفرت لهن سُبلا شتى للتسلية، من الطبيعي أن تزهد عنها النساء البائسات في مخدع الحريم، فقد كانت لهن بمثابة المقهى والمسرح والرواية والجريدة، باختصار كانت مصدرًا لكل أنواع التسلية. علاوةً على ذلك كنّ يدركن تمامًا أنها لن تظل متربعة على العرش طويلًا؛ لأنهن يعرفن مزاج حمدان المتقلب جيدًا لدرجة أنهن لم يفكرن لبرهةٍ واحدة أنه سيجعل من تلك الزوجة المؤقتة زوجة رابعة دائمة.

وقتما استضافني حمدان في بيته كان قد مضى على زيجته الرابعة عشرة أيام فقط، واقترب شهر العسل من نهايته وسريعًا سيستبدل هذه الحسناء بأخرى، لكنّها استمتعت بشكلٍ مؤقت بكل مزاياها وسُبل إمتاعها، أمّا الزوجة الجديدة فكانت أرملة حسناء من سوريا وُلِدت في حلب، أرملة أحد الضباط الأتراك، الذي كان في شبابه من أهم المنتفعين من الباشا الثري في بغداد، وعلى هذا النحو جمع ثروات كبيرة ورثتها عنه تقريبًا كلها هذه الأرملة الشابة؛ لأن زوجها هذا كان لقيطًا وبالتالي لم يكن له أيّ أقارب وكذلك لم تنجب منه، لهذا السبب أصبحت ميسورة الحال طبقًا لوصف العرب لحالها.

بمجرد أن دفنت زوجها التركي الثري وحصلت على الثروة، استشعرت هذه الأرملة السورية رغبتها المُلحة في التديُّن وأداء فريضة الحج، فشدت الرحال إلى البلد الحرام، مثلما يفكر أي شرقي يحصل على ثروة عن طريق الحظ السعيد، فبمجرد أن تنال يده هذه الثروة لا يفكر في أيّ شيء سوى في السفر إلى مكة لأداء فريضة الحج. لقد كان ذلك ظاهرة فريدة جدًّا كشفت عنها الغرائز البدوية لتلك الشعوب بشكلٍ جلي. كان من طباعها أنها كريمة جدًّا فأخذت معها كل ما استطاعت حمله معها من ثروتها، والذي خسرته فيما بعد في بيت زوجها المكيِّ، وتبقى معها فقط بعض المال والحُلي لئلا تموت جوعًا أثناء عودتها إلى وطنها. لكن لحُسن حظها أن باقي ثروتها كانت عبارة عن عقارات وأراضي يصعب تحويلها إلى مال في الشرق، وإلاَّ كان حمدان أبقاها مدة أطول واستولى على كل شيء، فممتلكاتها التي في سوريا لن يستفيد منها الزوج المكيِّ كثيرًا، فهي بالنسبة

له كالمعاشات التي لن يحصل عليها؛ لذا غدت تلك الأرملة السورية تثير اهتمام حمدان ووجب عليها العودة إلى وطنها بكل هدوء.

هذه الشابة السورية كان اسمها فاطمة بنت الأمير؛ لكن ليس عندي أدنى علم أيّ أمير كان هذا الأب، الذي لديه ابنة جميلة كهذه المرأة التي رأيت جمالها بعيني. فقد كانت تعاني تلك الحسناء من جفافٍ قاسٍ؛ لذا كانت تخلع عنها حجابها خارج غرفة الحريم عندما يكون زوجها غير موجود في البيت. كانت في عمرٍ تُحسد عليه، في الثامنة أو التاسعة عشر، كان جسمها ضئيلًا، نحيفة عن كونها بدينة، ربما يكون سنها هو الأول ولكن شبابها حال دون ظهور الضعف والوهن على ملامحها. كانت تبدو حقًا شابة مثل أترابها الأوربيات اللاتي لهن نفس العمر، على الرغم من أن هذا الزعم حالة خاصة جدًا، فالنساء في الشرق يعجزن أسرع من الأوربيات دون استثناءات. أمّا النساء في الريف مثل البدويات والفلاحات فيظهر عليهن العجز أسرع؛ لأنهنّ يتعرضنّ للشمس والرياح والمطر ويجب عليهن إنجاز أصعب الأعمال تحت ظروف التغذية السيئة. على النقيض من ذلك تقيم نساء الحضر في بيوت بها رفاهية، ليست بها أعمال منزلية شاقة، ولا يتعرضن لحرارة الشمس وليس لديهن أيّة مشاكل أو أعباء، ويحصلن على الطعام الصحي المُغذي، وفي بعض الأحيان تكون أعمارهن طويلة مثل الأوربيات، ففي مكة توجد بين النساء سيئات السمعة نساء ذوات صولات وجولات عندما يبلغن الثلاثين عامًا؛ لكن فاطمة كانت بعيدة كل البعد عن هذا العمر، أمّا فيما يتعلق بكيفية تقدير النساء العربيات والقلائل من الرجال العرب الذين رأوا وجهها، فكانوا يرون أن سر جمالها يكمن في التفاوت بين اللون الأسود الفاحم لشعرها المموج المنسدل على كتفيها حتى صدرها وقفاها ولون عينيها الفاتح، ذلك التفاوت الذي قلما يحدث عند الأوربيات ويُعد ظاهرة غريبة عند نساء العرب. أطلق العرب على عينيها "العيون الزرقاء"؛ على الرغم من أنهما كان لونهما في الحقيقة رمادي، فالعرب يطلقون على أي ملامح وجه فاتحة صفة "زرقاء". العيون الرمادية ليست جميلة طبقًا للمعايير الأوربية ولكن في الشرق كان لهذا اللون تقدير خاص عند النساء فقط نظرًا لندرته في العيون؛ لأن الرجال لا يحبونه ويعتبرونه علامة على لون مزيف.

إنَّ القارئ يعرف من خلال جواز سفري الذي أوضحته في الجزء الأول أنه لدي نفس لون العيون التي يطلق عليها العرب زرقاء؛ لذا أطلقوا على لقب "أبو عين زرقاء"، حيث كان يميل العرب إلى إطلاق الكنية على الأفراد وتبدأ تقريبًا جميعها بـ "أبو"، فالمرء أبو كل شيء يملكه أويوجد فيه. فلقب أحدهم بورتون (Burton) "بأبي شارب" وليون روخيس (Leon Roches) "بأبي أنف طويلة" وهلم جرا. أمّا النساء فهنّ أم للخصال المختلفة التي تتميزن بها، فإحداهن "أم ضفيرة" مثل زوجة حمدان الثانية، والأخري "أم العيون الغائرة" مثل بنت العم التي كانت تعاني من هذا النوع الشرير، الثالثة كانت "أم وجه الكلب" والمراد هنا الجارية الزنجية المحببة عند حمدان التي ذكرت قصة جلدها بقسوة في الفصل السابق. أمّا الإنجليزية الليدي إيلينبروف (Ellenborough) التي كانت متزوجة من شيخ مدينة تدمر في سوريا التي اعتادت أن تعيش في دمشق في الشتاء، سمعتهم يطلقون عليها "أم الحليب الأبيض"، ربما بسبب لون بشرتها الناصعة البياض كاللبن مما زادها جمالًا، حتى أن صورها عُلقت في معرض الجمال في ميونيخ. حتى فاطمة نفسها لم تنج من تسميتها بكنيةٍ خاصة بها.

كانت كنية فاطمة مناظرة لكنيتي، "أم عين زرقاء"، فقد ذكرت النساء تلك الكنية كثيرًا في أحاديثهن في المخدع، وقد سمعتها بوضوح أكثر من مرة؛ ولكن مع "أبي عين زرقاء" بطريقة ساخرة، وأطلقن على كلينا النكات الضاحكة، التي جعلتني أنا "أبو عيون زرقاء" أستحي منها إذا ما أخذتها مأخذ الجد.

اعتادت فاطمة على لبس ثياب غالية جدًا، والتزين بكمية كبيرة من قطع الحُلي. لم تكن مجوهرات النساء الشرقيات تلمع بسبب ذوق جمالها الفني، الذي ينذُر أن تعتني هذه الشعوب بتلك المسألة. على النقيض من ذلك كان جلّ ما يعنيهم عند صناعة المجوهرات أن تبرق وتلمع في عين مَن يراها، دون التركيز بشكل كبير على شكلها. في العادة مَنْ يريد تصنيع قطعة مجوهرات، يحضر الذهب إلى صائغ الذهب ويظل عنده يراقبه كي لا يُضيِّع منه شيئًا أو يسرقه. كان يُستخدم حوالي ١ أو ٢ ٪ من قيمة الذهب لصناعة المجوهرات، التي تحتفظ بالتالي بنفس القيمة دائمًا، وذلك الفارق الكبير بين الشرق وأوربا، حيث لا

يكتفي الصائغ بأقل من ٢٠٪ وفي بعض الأحيان ليس بأقل من ٣٠٪ من قيمة المعدن لتشكيل قطع الحُلي. لكن أشكال المجوهرات الشرقية تتطابق بالفعل مع الذوق الهابط لتصنيعها، فالأساور والخلاخيل التي تمتلكها النساء الشرقيات عبارة عن حلقات مدورة كبيرة الحجم بشعة الشكل، كانت تُري في أوروبا فقط في العصور الوسطى على هذا الشكل الخام. هذا الذوق ينسحب أيضًا على الأحجار الكريمة التي تظل خشنة الملمس بعد الصقل، ويظل الماس مطفيًا غير لامع، لذا تبدو قطع الحُلي تقريبًا مثل تيجان الكنيسة القوطية والكنوز الكنسية في المراحل الأوّلية لنشأة الفن، التي تختلف عن أمثالها في عصور الفن الراقية المتطورة. لم تتمتع الحلي أبدًا بأيّة قيمة إبداعية، مثل التحف الفنية في أوربا المصنوعة من الذهب أو الفضة؛ ولكن تكمن قيمتها بالنسبة لأصحابها في أنها رأس مال آمن، في الواقع رأس مال ميت لا يخسر صاحبه شيئًا منه أبدًا، مثلما الحال بالنسبة للمجوهرات في أوربا. كذلك فاطمة كان في حوزتها في فترة إقامتها في مكة قطع من المجوهرات مرصعة بأغلى الأحجار الكريمة بالرغم من أشكالها بدائية التصنيع، مما جعلها أجدر بأن تُحفظ في الخزائن كأنها من عجائب العصور القديمة.

استغل حمدان الزوج الماكر المؤقت تأثير شهر العسل عليها كي ينهب معظم ممتلكاتها الثمينة. وأذعنت الزوجة الطيبة لمطالبه لأنه يندر أن تعارض الزوجة الشرقية زوجها، فاستولى على ما تملك قبل أن تعود إلى وطنها، فقد كان لزامًا عليها أن تدفع ثمن زواجها من حمدان وتتويجها ملكة مخدع الحريم في بيته لمدة أربعة عشر يومًا غاليًا جدًّا. ربما تفكر النساء الأوربيات في أنَّ الثمن الذي دفعته كان أغلى مما حصلت عليه، الشيء الذي لن يخطر أبدًا على بال الشرقيات، فهنّ عبارة عن أطفال كبار، يبدأ معهنّ الرجال الماكرون فقط بما يتبقى معهن.

عندما رأيت فاطمة الحسناء لأول مرة، كانت لا تزل تمتلك بعض قلاداتها الذهبية والأساور والخلاخيل؛ على الرغم من أن الأحجار الكريمة قد تساقطت من أماكنها؛ ولكن كانت عندها على وجه الخصوص ثياب جميلة جدًا وباهظة الثمن. كانت ترتدي في الصباح ثيابا تجعلها تبدو كالعروسة، مصنوعة من السندس به خطوط مُذّهبة، وتقمط

رأسها بمناديل ذهبية اللون رقيقة هندية، وتلف جسدها بشالٍ غالٍ جدًّا من الكشمير. انتعلت في قدميها حذاءًا جميلًا مدبب المقدمة من الجلد لونه أحمر وردي؛ ولكن بالكاد استطعت أن أراه لأنه كان مرصَّعًا بكثافة بالخرز. كانت عندما تمشي تجلجل السلاسل في رقبتها بسبب العملات الذهبية التركية المركبة فوق بعضها البعض. كان هذا الضجيج الساحر يجذبني كلما سمعته للخروج من غرفتي؛ لأن هذه الجلجلة تنذر بحدوث أمرين: أولهما أن حمدان قد خرج، وأنه لن يزعجني أحد الآن أثناء مراقبتي للحريم، وثانيهما أن تلك الحسناء قد غادرت غرفتها الخاصة بها وتوجهت إلى مخدع الحريم في الطابق الأول حيث تحتفي بانتصاراتها على طريقتها الخاصة. وهناك كانت تتكئ على الوسادة المكسوة بالسندس المُذَهَّب وتلتف حولها الأرواح التي تلبي طلباتها في التو واللحظة، فأحضرت الجارية الزنجية لها أرجيلة طويلة مصنوعة من خشب الياسمين لها خرطوم طويل يصل للفم، مقدمته من حجر الكهرمان الأبيض الناصع، وملأت رأس الأرجيلة بتبغ اللاذقية الأسود له رائحة زكية ثم وضعت فوقه فحمًا مشتعلًا، فتصاعدت سريعًا من الأنبوب الثمين سحب الدخان محمّلة برائحة التبغ حتى وصلت لسقف حجرة الحريم على هيئة أشكال حلزونية رائعة. ثم أحضرن لها مشروب القهوة المطحونة الطازجة المحتفظة برائحتها الأصلية في كنكات صغيرة لونها فضي تسع كل منها مقدار فنجان واحد، ثم صببنها في فناجين رقيقة يابانية وقدمنها لفاطمة الحسناء وللزوجات الثلاث الأخريات على حوامل فضية مصنوعة بدقة فنية مطعمة بنقوش هندية محفورة مفرغة.

أعطتني رؤية هذا المشهد في مخدع الحريم فرصة لتكوين صورة شرقية أصيلة عن حياة الحريم في الشرق لم أرها من قبل في حياتي. فقد كانت حياة الحريم الحقيقية في المشرق تسرق أنظاري بكل شغف طالما سافرت إلى بلاد المسلمين؛ لكن ما رأيته في الجزائر عن حياة الحريم كانت انطباعات باهتة بلا ملامح محددة، لا تحمل السمات الشرقية الأصيلة دون تزييف في واقع حقيقي صرف. لقد بحثت طويلًا عمّا يُدعي ترف وفخامة الشرق بلا جدوى؛ لكن لم أر شيئًا منه؛ لأنه في نواحي تركيا وإفريقيا الأقرب وصولًا لأي أوربيّ اختفت فخامة الشرق وحلت محلها الفخامة الأوربية، أو بمعنى أدق صارت هجينًا قبيحًا من كلتيهما. حتى في

حريم السلطان في القسطنطينية سادت تلك الثقافة المخنثة التي تجمع بين فخامة باريس وبربرية الأتراك، كما أكدته لي إحدى الألمانيات التي تعرف الحريم جيدًا. أمّا هنا في مكة، آخر مأوى لي في الشرق بعيدًا عن المراوغات الأوربية والإصلاحات التركية، هذه المدينة الفريدة من نوعها، التي لم تؤثر فيها قط محاولات السلطان محمد الإصلاحية، وحيث يمكن للمرء التفكير في العودة إلى زمن الفوضى الجميل والإنكشارية، هنا فقط استطعت رؤية قطعة حقيقية خالصة من الشرق؛ بل من زاوية ممنوع علينا في الشرق أن نراها أو نراقبها وهي حياة الحريم، التي تجلت فيها فخامة الشرق، إذا فهمنا هذا التعبير على أنه ليس غُلُوّا مفرطًا؛ بل نكهة للشرق مميزة له تزدري كل ما هو غريب.

قد يعتقد المرء أن صورة الحريم هذه في الشرق خالية من أيّة نقيصة أو عيب بالمعني الحقيقي للكلمة. ففي الشرق لا توجد صورة إلا ولها جوانب مظلمة صارخة، فبجانب القصور يقبع الحطام والخيام التي يقطنها البائسون، وإلى جانب السُّندُس المُذَهَّب واللآلىء يجد المرء الخيش والقاذورات، نعم كان كل ذلك ممكنًا في الشرق. لم ينظر مؤلفو العصور السابقة إلى هذه الصورة مكتملة؛ لأنهم زاروا بلاد الشام فقط، وتحدثوا فقط عن "فخامة وترف الشرق"، وذلك لا يُعد دليلًا على أن الخيش والخرق لم تكن موجودة آنذاك بأشكالها غير المتناسقة الخلابة ولكنها لم تجد مَن يصفها. أمّا في الوقت الحاضر حيث توجد "فخامة الشرق" الأصيلة دون أن تطغى عليها نظيرتها الأوربية الزائفة، كما في القسطنطينية والقاهرة، فقد غدت أكثر فقرًا ووهنًا واحتلت الخرق صدارة المشهد، فالظروف تغيرت والأحوال تبدلت؛ ولكن من المؤكد أن الترف والخرق كانا موجودين معًا في عصر ذروة ازدهار الإسلام، كما هو الحال الآن، فقط غدت الخرق أكثر انتشارًا. أنا لا أفهم بالفعل التواجد المتوازي لكل من الرفاهية والفقر الذي يوجد في كل البلاد على أنه سكن الفقراء بجانب الأغنياء في نفس المكان، لا لم يكن هذا التجاور سببًا للغرابة بالنسبة لي، ففي الشرق فقط يحدث أن تجد في نفس البيت وفي نفس العائلة امرأة تمشي تتبختر وتختال بالأحجار الكريمة والمجوهرات والأخرى تلتحف الخيش، وبالنسبة لنا نحن الأوربيون فالشيء الذي يلفت انتباهنا أكثر هو أن غالبًا نفس الشخص يحمل سمات هذا الهجين من

الفخامة والفقر. فعندنا في أوربا على سبيل المثال لَّما تمتلك امرأة وشاحًا ثمينًا من الكاشمير الأصلي، فهي لا تضعه على جسدها إلا ريثما ترتدي معه ثوبًا غالي الثمن أيضًا يتلائم مع الوشاح، وقبعة جميلة، وعندما لا يتوفر لها مثل هذا الثوب الثمين في الوقت الراهن، فلن ترتدي ثوبًا رثًا باليًا لكثرة استعماله يتعارض مع رونق هذا الوشاح ويسلبه قيمته. لكنّ الأمر مختلف تمامًا في الشرق. فإذا أهدى الزوج الثرى زوجته هديةً ثمينة مع شال من الكاشمير به خطوط مُذهَّبة أو من الحرير الهندي، فلن تجهد تلك الحسناء نفسها في أن تتزين وتكمل لبساها بما يتلائم مع هذا الشال القيّم، بل ترتدي قطعا رثة مهترئة تبدو فيها تمامًا كسندريلا، وبذلك تكون حوت الهدية الجديدة القيّمة الثوب البالي ووفرت لنا نحن الأوربيين أكبر لغز في التزيّن والتجميل يمكن أن نراه.

بعض القارئات ربما يحركن أكتافهن تعاطفًا مع مثل هذه الزوجة في الشرق، لأنهن سيعتقدن أنهن ليس معهن المال الكافي لشراء الثياب والزينة الملائمة للهدية الثمينة؛ ولكنهن سيكن قد أخطأن والشفقة ليست في محلها الصحيح. نعم، سكان الحريم عندهن مال قليل؛ ولكن في مقدورهن تدبير ثياب نظيفة بيضاء رخيصة الثمن من الخيش، لا تتعارض مع رونق وفخامة الهدية الثمينة، فالإهمال المذهل للنساء الشرقيات هو وحده السبب في هذا التضارب الصارخ في ملابسهن. علاوةً على ذلك تفضل المرأة الشرقية دائمًا الثوب الغالي المهلهل الرث على الرخيص السليم الخالي من القطع والشقوق؛ لذا تغدو سريعًا الخرق البالية نفسها هي أجمل الثياب لدى هؤلاء النساء، اللاتي لا يكلفن أنفسهن جهد الاعتناء بها، فينمن في نفس الخرقة التي ارتدينها في النهار والتي ستظل على أجسادهن حتى الغد، والتي تُصبغ ببقع الوسخ والقاذورات التي تتبقي على أصابعهن بعد الأكل بالأيدي، والتي قد تصل إلى سقوط قطرات قهوة عليها وتطاير شظايا فحم ملتهبة من الأرجيلة على تلك الخرق التي يرتدينها وينمن بها ليلًا ونهارًا على الأرض، وقد تتمزق أحيانًا بسبب اللعب مع الأطفال، ويشرعن في العويل والنحيب عند كل قطع وشق يحدث في الطرحة الشفافة الرقيقة، لكنهن لا يعرفن التصرف مع البقع مثلًا بأن يغسلن خرقهن.

لقد كثرت الشكوى في الآونة الأخيرة من غلاء ملابس المرأة في أوربا؛ لكنّي أعتقد أن الأمر سيكون أكثر كلفة إذا أردنا أن تلبس المرأة الشرقية دائمًا ثيابًا نظيفة وسليمة بغض النظر عن كونها ثمينة؛ حيث يجب شراء ثوب جديد لها كل صباح.

لقد أتاحت لي فترة إقامتي في بيت حمدان والصورة التي كوّنتها عن الحريم من خلال مراقبتي لهن هناك، رؤية العديد من المشاهد المتنافرة التي تؤذي عين الإنسان الأوربي ولا يلحظها الشرقي البتة. الحق كانت فاطمة الحسناء لا تشوبها شائبة بخصوص الحفاظ على سلامة ونظافة ملابسها، فقد كانت عروسًا والعرائس في الشرق هن الكائنات الوحيدة التي تبدل ثيابها يوميًّا وهذا شرط لا عوض عنه لبقاء الثياب نظيفة لأن النوم في الثياب يقلل من نظافتها وانتعاشها في اليوم التالي، فقد كانت تلمع كنجمة ناصعة في سماء الحريم؛ ولكن كم عدد البقع التي كانت في ثوب غيرها؟ فبنت العم، الزوجة الأولى والرئيسية لحمدان كانت تتزين بقطع مجوهرات ثمينة جدًا، وتقمط رأسها بشال هندي مُقصَّب بخيوط الذهب، ولكن لا يناسبا ثوبها نهائيًا، فالصَّدْريَّة التي كانت ترتديها كان بها عدة فتحات وشقوق وعلى ملابسها الداخلية ارتسمت بقع الزبد البشعة وهنا يبدو أن فنجان قهوة كاملًا قد سُكب على وشاحها. أمَّا الزوجة الثانية فقد كان مظهرها مقززًا للغاية من كثرة القذارة والوسخ على خرقتها وللأسف أيضًا الحشرات. ولم تخل الزوجة الثالثة النبيلة أيضًا من الخرقة البالية، ولكن خرقتها كانت تتسم بالذوق الفني الرائع حيث تماوجت البقع في شكل فني رائع مما جعلها تبدو كملكة سقطت. أمَّا الزنجيات فقد كن عبارة عن لفافات من خام القطن تكسوها التقوب وبقع الوسخ، وتزيّن بأساور من الذهب في أذرعهن وسلاسل من اللؤلؤ على شعورهن غير الممشطة المشبعة بالدهن وقبل كل شيء المسكونة بالحشرات. أمَّا بنات حمدان فقد كانت البنتان الكبيرتان حقًا حسناوان، كأنهما أُختيرتا لتجسيد أمنا حواء في ثوب الجنة في لوحة أزياء، ارتديتا على أجسادهن فقط القطع اللازمة وكان لهما الحق في ذلك لأن جسديهما النحيلين الرقيقين لم يكونا يحتملان هذه الخرق من الخيش. الأكثر هندامًا وروعةً كانوا أبناء حمدان الّذين لا يسكنون مع الحريم بشكل منتظم، فقد يغيبون عن بيت الحريم لأيام أو لساعات.

كانوا يرتدون قفطانًا جميلًا عليه وشاح من الكشمير، ويخلعون الجِبَّة والبنش في أشهر الصيف القائظة، لذا بدت ثيابهم أكثر بساطة وأناقة. لم أتعجب للسماح للأولاد الصغار منهم بالدخول والخروج لبيت الحريم بمنتهى الحرية، ولكني عجبتُ من حرية ابن "بنت العم" في الدخول إلى مخدع النساء والخروج بالرغم من بلوغه الثامنة عشر، فعاقبة هذا ليست ببعيدة، حيث أعقب ذلك قصة بين الشاب ذي البشرة وردية اللون والأرملة السورية الشابة وأريد أن أحكي تلك القصة لأني كنت تقريبًا شاهدًا عليها.

هذا الشاب ابن حمدان من زوجته الأولي "بنت العم" اسمه مهدي، وعمره حاليًا تقريبًا ثمانية عشر عامًا، وكان ابن أمه المُدلل جدًا بطريقة لم أرها من قبل، كان ظهوره أكثر فائدة من ظهور امرأة جميلة وسط الرجال، بغض النظر عن أنه كان يبدو كامرأة، أي مظهره الخارجي كان يناسب أكثر كونه امرأة، كان طويلًا رشيقًا، قوي البنية ولكن من الظاهر أن أعضاءه قد استغنت عن الثبات والتصرف بوقار الرجال، ربما السبب في ذلك طريقته المكتسبة في المشي كالنساء، فقد اعتاد أن يتلوى في مشيته محركًا أردافه يمينًا وشمالًا كالأفعى، ولمّا يجلس يهز جزأه العلوي بين الحين والآخر، لدرجة جعلت مَن حوله يعتقدون أن نصفه السفلي منفصل عن العلوي ولكنه فقط معلقّ عليه. كان وجهه رقيقًا وليس هزيلًا في كل أجزائه، له فم صغير وأسنان بيضاء ناصعة، أنف مستقيم، عينان سودوان غائرتان قابعتان، شعرٌ طويل أسود قاتم، لا ينقصه شيء يمكن أن تمتلكه أيّة صبية جميلة. بجانب هذا الجمال الطبيعي فيه، كان يتصّنع أحيانًا زينته، إذا صح إطلاق كلمة زينة على ذلك، كان يطلق شعره المموج الرائع طويلًا منسدلًا على كتفيه بخلاف تقاليد الرجولة، مما جعلني أعتقد أنه صنع هذا الشعر المموج فقط بواسطة المكواة، بالرغم من أن هذا الجهاز لم يكن معروفًا عند العرب آنذاك، ولكن مكة عبارة عن بوتقة لكل البضائع الغريبة، لذا لا عجب في ذلك أن تجد هنا الأشياء الغريبة على المكان. كان يُزيِّن وجنتيه بمسحوق تجميل رقيق لونه أحمر وردي بطريقة فنية ماهرة جدًّا حتى بدت تلك الحُمرة على وجهه كأنها طبيعية تمامًا، كما أني لم أر مطلقًا أحدًا من قبل في شبه الجزيرة العربية تكسو وجهه الحُمرة الطبيعية، وإلا فقد كان لون

بشرته فاتحا نوعًا ما بالنسبة لمواليد مدن الحجاز، أي كانت تعتبر قمحية في حال المقارنة بلون بشرة الأتراك أو الموريين في الجزائر؛ لكنَّها كادت تكون بيضاء في وسط أصحاب البشرات السوداء والقمحية.

كانت ملابس هذا الفتى مصنوعة من خام مزيج من القطيفة الحمراء والحرير يُصنَع في إحدى المدن السورية اسمها (Garmasut) مثلما يُطلق على القماش نفس الاسم، والذي يكون له لون واحد، أمّا إذا تعددت الألوان فيه وتكون في الغالب على شكل خطوط طولية في الثوب، فيُطلَق عليه (Aladscha)، ويُعد كلاهما من أحب الخامات لرجال مكة تُحاك منها ثياب الصيف. أما العباءات الفضفاضة من الحرير الخالص فكان يرتديها رجال مكة أيضًا ولكنها كانت من علامات الترف إلى حدٍ ما، وتُجلب إلى مكة من بغداد ومعظمها من إيران. كان مهدي يبدو جميلًا في قفطانه الأحمر القطيفة، كأنه أنثى بشكلٍ واضح، وساعد شكل القفطان المكيِّ على ذلك لأنه كان يشبه ملابس النوم النسائية في عصر ما قبل ظهور البطانة السلك. في البيت كان يلف جسده بوشاحٍ ذهبي لا تستعمله سوى النساء؛ ولكنه كان يخلعه في الشارع وإلا اعتبره الناس من سكان أحد الأحياء التي يمارس فيها كلا الجنسين نفس التجارة. أمّا ما يتعلق بشخصيته فلم يكن مهدي متكبرًا متعجرفًا؛ على الرغم من أنه كان مختالًا بنفسه، على أيّة حال كان صديقًا ودودًا لكل الحجاج الغرباء وبالأخص عاشقًا متيَّما لكل الأرامل الشابات، اللاتي أقمن في منزلي والده، أيضًا كان مهدي محل اهتمام من المطلقات الشابات، ونما إلى مسامعي أنه أقام مغامرات عاطفية مع الحاجات المتدينات عندما كان في الثالثة عشر من عمره.

من ناحية أخرى لم تُعجَب الحاجّات بمهدي كثيرًا، في حال أنه كان شغوفًا بهنّ، فالكثير من النساء الشرقيات يفضلن شيئين عند الرجال، لا تكترث بهما النساء الأوربيات وهما المظهر الشبابي للرجال وبعض خصال الأنوثة. يبدو أن كلا الصفتين متناقضتين ولكنه أمر حقيقي أن بعض النساء العربيات لا يُجبذن المظهر الرجولي الخشن للرجال، أي الرجال الشغوفين والمولعين الذين يشبعن رغباتهن، وهذا أمر مفهوم وطبيعي من النساء

اللاتي يعشن في سجن الحريم كأنهن مثل أي شيء من ممتلكات الزوج، ككائنات مسلوبة الإرادة، ولا يمثل الرجل في حياتهن سوى طاغية يفعل معهن ما يشاء ويعاملهنّ كأنهنّ محض أشياء. أمّا النساء العربيات اللواتي يستمتعن بشيء من الاستقلالية التي قلّما تحصل عليها النساء في هذه البلاد، مثل الأرامل الشابات اللواتي كُنَّ ضيفات في منزل حمدان، فلم يكنّ شغوفات بالرجال صغار السن ولا يتلذذن بالبحث عن رجالٍ لم تنضج بعد. أمّا ما تحبه النساء العربيات في الشباب من الرجال فهو عدم وجود اللحية إطلاقا. ففي أغاني الحب تمتدح النساء محبوبهن الأملس بلا لحية، ويقارنّ بينه وبين أيّ عاشق ملتحي يصفونه بانه كدبٍ كبير كثيف الشعر.

لهذه الأسباب شغفت فاطمة الحسناء رويدًا رويدًا بحب هذا الشاب ذي البشرة الوردية اللون، والذي لاقى كل من بشرته الملساء بلا لحية ومظهره الأنثوي وشبابه استحسانًا في نفسها. في البداية ألقت إلى كلام حمدان السمع واستطاع أن يقنعها أن تصبح زوجةً له، ولكن شهر العسل لم يستمر أكثر من أسبوعٍ واحد، وعندما طالبت بالرحيل من بيت حمدان الذي نهبها وسلبها فيه، كان ذلك فقط من أجل حبها لمهدي.

الغريب في قصة مهدي وفاطمة تلك أن كل الحريم كانت تعرف بسر بونيشينيل[1] هذا، فكلهنّ اطلعن على ما بينهما، إن دل ذلك على شيء فليس إلا على فن الرياء الفطري للنساء العربيات، حيث من الملاحظ أنه ولا واحدة منهنّ كشفت هذا السر لحمدان ولو حتى بغمزة عين. لم يعرف حمدان بقصة عشق ابنه التي تستوجب العقاب طبقًا لقوانين الإسلام، ليس لأن حمدان استشعر المزيد من الحب تجاه فاطمة أو الغيرة على عروسه بعد مُضي أسبوع العسل؛ لا فقد كان يوجد سبب آخر فقد شبع حمدان من تلك الزوجة الرابعة المؤقتة ولم يعد يرغب فيها وبحث في تلك الأثناء عن أخرى تحتل ذلك المكان الرابع الذي أضحى فارغًا في مخدع الحريم المكون من أربع زوجات، ولم يكن حمدان الأب وراعي هذه الأسرة والذي يعتبر على الأقل مسلمًا جيدًا ليسمح لابنه أن يحب زوجة أبيه، هذا الحال الذي صارت إليه فاطمة زوجة مضيفي حمدان كان نقطة التورُّط المصيرية في هذه القصة.

١ (Punchinella) دمية متحركة انتشرت فى كل مسارح العالم فى القرن السادس عشر وعرفت باسم البونشينيل وهى تشبه ما يعرف بمسرح خيال الظل لدى الاتراك والعرب. (المترجمة).

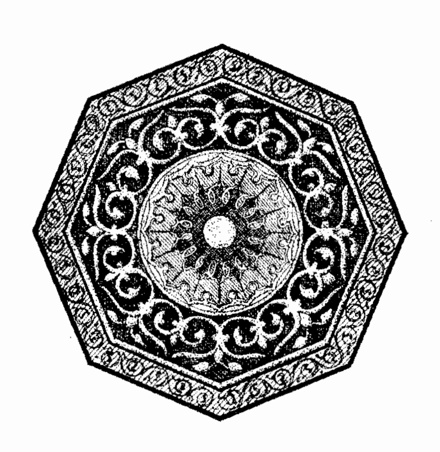
حقًّا لقد كان هذا المشهد رائعًا، والذي استطعت أن أتابعه في مخدع الحريم كل صباح وفي فترة ما بعد الظهيرة عندما يغادر حمدان البيت، حيث يأتي الفتى ذو البشرة الوردية إلى حجرة النساء ويجلس على البساط المفروش في الأرض، أمام الوسادة المصنوعة من السندس المُذهَّب التي تتكيء عليها فاطمة. ودون أدنى شعور بالضجر لوجود أمه وأخواته وكذلك باقي الحريم في نفس الغرفة كان يعرب مهدي عن حبه لفاطمة، يضع رأسه في حجر تلك الحسناء ويحدق بعينين متيمتين دامعتين في وجهها الجميل قمحي اللون. أمَّا فاطمة فقد مدت أصابع يديها المغطاة بالخواتم في خصلات شعر الصبي الطويلة السوداء وملست على ذقنه الملساء وعانقته حتى سُرت أساريره، ثم كانت تتعمد مغازلته بألاعيب صبيانية كما كانت تفعل كل النساء العربيات عن طيب خاطر.

انتهت تلك القصة سريعًا على الأقل طالما كانت أحداثها في مكة ومدى ما عرفت منها. لقد عثر حمدان على حاجة جديدة ثرية ستحتل مكان فاطمة في بيت الحريم؛ لذلك طلّق فاطمة في أسرع وقت ممكن. لو لم يكن زوجها المؤقت ذلك هو والد مهدي لاستطاع أن يتزوجها. لكنّ مهدي ذا البشرة وردية اللون لم ييأس مطلقًا من أن يصل بعشقه لفاطمة إلى مراده.

عندما غادرت فاطمة الحسناء في مطلع شهر ذي الحجة بيت حمدان ورجعت إلى سوريا، اختفى فجأة الفتى ذو البشرة الوردية ولم يعرف أحد بخلاف نساء الحريم إلى أين ذهب. فقد زعمت إحداهُنّ أنه سافر هو أيضًا إلى سوريا وتزوج فاطمة باسم مستعار ولم يعرف أحد أن العروسة هي نفسها زوجة أبيه. لو كان هذا قد حدث بالفعل فسيكون مهدي بن حمدان قد ارتكب جُرمًا كبيرًا طبقًا للشريعة الإسلامية. لم أعرف حقًّا نهاية هذه القصة؛ لأنه حتى مغادرتي مكة لم يظهر الفتى ذو البشرة الوردية، ولم يذكر أحد شيئًا عنه، واختفت فاطمة وأضحت في طي النسيان. على أيّة حال لن يكون مصير مهدي تراجيديًا بحتًا مثل البرنس الأسباني الذي أشار إليه شيللر (Schiller) حينما وقع في غرام زوجة أبيه.

في غضون ذلك وصلت زوجة حمدان المؤقتة الجديدة، كانت شابة هندية لها ملامح متوسطة الجمال وقامة نحيلة؛ ولكنها كانت سوداء كالفحم وغنية جدًا وسلبها حمدان أموالها بكل مهارة في أسبوع العسل.

بالنسبة لي بعد رحيل فاطمة فقدتُ أيّ اهتمام بالحريم، ولم أستطع أن أتابع عن قرب خليفتها السوداء.





الفصل السابع عشر
التجوال في أنحاء مكة

التجول في البلد الحرام - خطة مكة - تقسيم البلد إلى أربعة أحياء - المناطق العليا والسفلى في المدينة - السويقة والشامية - حجر النبي - طريق الصينيين - حي الخزَّافين - السوق الصغير - المدينة المنخفضة - الخان المُحطم - قلعة مكة - قصر الشريف الأعظم - شوارع مكة - المواصلات المزدحمة - حياة الغرباء - شارع القشاشية - دكان أحد معارفي تاجر الفرو - مراد التتاريّ وابنه - مشاهد ضاحكة في دكان الفرو - زعيم قبيلة نجد - الولع بالخيول - مغامرة سليم - زيارة مقهى مدخني الأفيون - الأثر السيئ لانتشائهم بالأفيون - النُزل السوري - تقابلت مرة أخرى مع معارفي المصريين - كشك الحلواني - المهلبية - شارع الإحساء - خصيُّ المعبد - أشراف مكة - زيارة أحد مقاهي البدو - مسكن الشاب عامر - ظواهر نسائية حزينة - القرشيون - كبرياء أحد النبلاء الشحاذين - سوق الدواجن بمكة - البدو في المنطقة - الخيل في بلاد العرب.

يندر أن يدرك بعض متصفحي هذه الذكريات عن رحلتي لماذا لم يبدأ المؤلف مباشرة بمجرد وصوله إلى مكة بوصف البلد وشوارعها وقصورها وساكنيها، وعوضًا عن ذلك أسأم القارئ بثلاثة فصول عن المسجد الحرام ثم عرض الحياة في بيوت مكة وصخبها، بينما كان الجدير به أن يتعرض أكثر للحياة العامة في مكة. ولكنه عملًا بمبدأ عرض

الأحداث طبقًا لترتيب حدوثها الذي عرضت له، فقد بدأ المؤلف بها يجب على كل مَن يصل مكة القيام به تجاه المسجد الحرام والطواف حول الكعبة والأماكن المقدسة في صحن المسجد الحرام. ثم بدأ فورا في وصف البلد نفسه إذ كان غرضه التعرض للمفارقات التاريخية لهذا البلد. ولكنه بعد زيارة المعبد لم تخوّل له نفسه استكشاف المدينة بعد لعدة أسباب أولهم حالة التعب والإجهاد التي لازمته بسبب الرحلة وما تبع ذلك من التوعك والضعف الذي ألَّم به، مما جعله يهفو إلى البقاء في البيت عدة أيام، ولقد أشار في الفصول الأولى إلى كل ما رآه وراقبه أثناء هذه الإقامة الطَّوعيَّة في البيت، وأخيرًا ريثما استعاد عافيته استطاع أن يبدأ تجوالاته في المدينة التي سيصطحب فيها القارئ فقط. ربما يبدو هذا التقسيم لمادة الكتاب الذي يعتمد على محض الصدفة للقارئ بهذه الطريقة على درجة عالية من عدم التناسق والترابط، لقد انشغلت في الفصلين السابقين بالدين والحياة الأسرية؛ لأنهما يشكلان أساسيات الحياة العامة، وبالتالي يمكن للقارئ أن يرى فيما سبق عرضه تمهيدًا هامًا لما سيأتي في الفصول التالية.

قبل أن أشرع في عرض جولاتي في البلد الحرام للقارئ، كان يجب عليّ أن أضع خطة قصيرة لحواري وأزقة مكة تخدم التوجه الصحيح للقارئ، واخترت المسجد الحرام مركز الإسلام وقلب البلد الحرام الذي تنبض فيه كل حركات مرور واتصالات العالم الإسلامي والذي يعتبر أيضًا نقطة تلاقي شبكة مواصلات البلد الحرام الأصغر، ليكون نقطة انطلاق لجولاتي ومشاهداتي في مكة.

تكاد تتجه زوايا المسجد الأربع مباشرة صوب الاتجاهات السماوية الأصلية، حتى أن جهاته الأربع تستدير نحو الجنوب الغربي والجنوب الشرقي والشمال الغربي والشمال الشرقي. ففي كل من الاتجاه الشمال الغربي والجنوب الشرقي للمسجد تمتد المدينة عرضًا، وفي الاتجاهين الشمالي الشرقي والجنوبي الغربي تمتد مكة طولًا، ويبلغ طولها حوالي أربعة أضعاف عرضها. وأقدر أطول خط طولي لمكة بحوالي أربعة آلاف وثمانمائة قدم، بينما لا يتجاوز أطول خط عرض ما بين ألف وثلاثمائة إلى ألف وأربعمائة قدم. لم يكن من الصعب عليَّ القيام بهذه المقاييس؛ لكنها أيضًا ليست دقيقة وإنما تقريبية.

في الجهة الشمالية للمسجد التي يقع عندها باب السلام، تقريبًا عند في الجهة الشمالية الشرقية للكعبة، والذي دلفت منه لأول مرة إلى المسجد، تمتد تلك الجهة إلى شارع المؤتة الذي ذكرته آنفًا مباشرةً صوب الشمال، والذي يشكل شارع المعلاة امتدادًا له فقط، هذان الشارعان المؤتة والمعلاة يفصلان النصف الشمالي لمكة إلى جزءين غير متساويين، أطلق عليهما الحي الأول والثاني لمكة، حيث يمتد الأول إلى الشمال الغربي والثاني إلى الشمال الشرقي. لمزيد من الإيضاح يجب تقسيم مكة إلى أربعة أحياء، اثنان منهما يحدان المسجد من جهة الشمال، أمّا الثالث والرابع وفقًا لخطتي فيقعان جنوب المسجد الحرام ويعتبران الحدود الشمالية للكعبة، ويفصلهما عن بعضهما شارع الـمَسْفَلَة[1] الطويل، الذي يمتد من عند باب إبراهيم جهة الجنوب حتى طريق حجاج اليمن، ويكاد الحي الثالث في الجنوب الغربي أن يمتد غربًا حتى جدة، والرابع في الجنوب الشرقي يكاد يقترب منه جنوبًا.

من المعلوم قطعًا أن هذا التقسيم لمكة إلى أربعة أحياء ليس المقصود منه أحياء المدينة الاثنى عشر التي تتكون منها مكة، ولكني أريد استعمال الكلمة الألمانية (Viertel) هنا في معناها الأصلي وهو الرُّبع، كما أني أرفض تمامًا أن يعتقد البعض أن مقصدي من هذه الطريقة في التقسيم اعتمادها لدى العرب بدلًا من طريقتهم في تقسيم مكة، ولكن مرادي من ذلك هو الراحة والتيسير على مَن يتابع جولاتي. إذا ما نظرنا إلى طريقة العرب في تقسيم مكة نجد الحسابات الرياضية التي تقضي بأن مكة تتكون من نيف وعشرين حي، وهذا أمر قلّما يلفت انتباه أحد في مكة، تلك المدينة الغنية بالعجائب. لذا قررت استعمال الكلمة الأجنبية في اللغة الألمانية (Quartier) للتدليل على ما أقصده وهو حارة أو زقاق من حواري أو أزقة المدينة التي لها نفس معنى الكلمة الألمانية (Viertel)؛ ولكنها ستساعد على تلاشي الانطباع الكوميدي الذي قد يحدث نتيجة الخلط بين المفردتين.

سوف أبدأ هنا إذن بالربع الشمالي الغربي والذي أسميته الأول، وهذا الربع يبدأ ببيت القاضي الحنفيّ أول قاضي في مكة في الجانب الشمالي الغربي الملاصق تمامًا للمسجد. هنا

١ الـمَسْفَلَة: هي حارة من حارات مكة التاريخية، وسُمِّيت كذلك بحكم نزول مستواها الجغرافي عن المسجد الحرام. فكل ما نزل عن المسجد الحرام جنوبًا يسمونه أهل مكة بالمسفلة، وما ارتفع عنه شمال شرق يسمونه بالمعلاة. (المترجمة).

نجد في الجوار حارة السويقة، وهي تصغير لكلمة السوق، حيث توجد دكاكين الهنود الذين يبيعون المرجان والمجوهرات والذهب والأعمال الفنية المزخرفة بتقنية التفريغ وما شابه ذلك، كذلك كان يُقام سوق الجواري في أكشاك صغيرة مغلقة في هذا السوق وليس مفتوحًا على الملأ كما كان الحال في الوقت الذي زار فيه بوركهاردت (Burkhardt) مكة. كان أحد أجزاء هذه السويقة مسقوفًا مما يجعل الجو في هذا الشارع باردًا. في الجهة الشمالية للمسجد بجوار السوق الصغيرة مباشرةً كان يوجد حي السوريين. كان الشارع الرئيس في هذا الحي الفارغ دائمًا طول العام يتحول في موسم الحج إلى سوق من الأكواخ الخشبية يبيع فيه السوريون بضاعتهم وصناعتهم المحلية مثل الأقمشة التي يدخل الحرير في مركباتها التي تُصنع في (Aladscha) و (Garmasut) والقطن من حمص الذين يطلقون عليه القطن الحمصي، والبَزّ (الكتان الناعم) من فلسطين والسجاجيد من دمشق والأهم من كل هذا الكوفية المخططة باللون الأحمر والذهبي. هذا الحي السوري يحد من الشمال الشرقي شارع الإحساء الشهير، الذي كان يمتد حتى منتصف الحي الأول الذي نحن الآن بصدد الكلام عنه. وفي نهايته التي تقع في هذا الحي يوجد جبل المروة، أحد أهداف شعيرة السعي، أي الهرولة بين الصفا والمروة تذكرةً بهاجر الأم. بجانب جبل المروة يوجد سوق الدلالين، أي سوق المزاد العلني لسلع متعددة؛ ولكن معظم المزادات كانت باللغة التركية. لم تكن الآبار العامة بعيدة عن جبل المروة، وكان الحي الذي يقع في نهايته شارع الإحساء من أجمل وأغنى أحياء المدينة، حيث تتكون البيوت كلها من ثلاثة طوابق فقط ومزوَّدة بالرواشين الحجازية الجميلة التي تسمح بالتهوية، وتشبه إلى حدٍ كبير أبنية المدن في أوربا. أما في أحد أحياء مكة التي يُطلق عليها اسم القرارة، الذي يظل معناه لغزًا بالنسبة لي، يقع أحد بيوت شريف مكة الكثيرة التي يبلغ عددها اثنا عشر في المدينة وستة أخرى بالقرب من المدينة على الأطراف. في مقابل بيت صاحب المقام الرفيع هذا يوجد حي الجمال الذي يكاد يوجد على أطراف المدينة، مما يشكل وضعًا متناقضًا يدعو للحزن؛ لأن هذه الأطراف كانت مهدمة ويسكنها الفقراء. في جهة الشمال الغربي كان يوجد "جبل المولد"، يحده من الشمال وادي النجا، كان سابقًا مجرى لنهرٍ قد جف،

والآن محاطً بالبيوت. وبهذه النقطة نكون قد وصلنا إلى نهاية الجهة الشمالية لهذا الربع حيث يكاد يقع حي السليمانية الذي أسكن فيه خارج المدينة على منحدر جبل الزنابق الذي يعلوه حصن صغير، حيث يوجد الشارع الذي ينتهي إلى جبل عرفة، وخزانات مياه السوريين والمصريين ومقبرتان كبيرتان والشارع المرصوف المؤدي إلى ضريح أحد الشيوخ اسمه الشيخ محمد الذي يزوره عدد كبير من الحجاج، ولكنّي لم أقم بزيارته؛ لأن تلك الزيارة لم تكن واجبة وكنت قد اكتفيت بما يجب على أن أقوم به من واجبات في مكة.

بذلك أكون قد انتهيت من معلومات كثيرة عن الربع الأول وأشرع الآن في الثاني وهو أهم وأكبر من أي ربع آخر، نظرًا لوجود شارع الإحساء به الذي ذكرته كثيرًا هنا والذي يحد هذا الربع من الجنوب ويفصله عن الجهة الشمالية الشرقية للمسجد الحرام والذي يمتد موازيًا له. تقع نقطة نهاية السعي عند جبل الصفا وهو نقطة بدايته في جنوب هذا الربع، ومنه يبدأ الشارع الرئيس الذي ينتهي بالمروة. يفصل الشارع الطويل الممتد من الجنوب إلى الشمال والمتفرع من الإحساء هذا الربع إلى نصفين غير متساويين، أولهما عبارة عن حي تجاري حيوي والآخر أهدأ ولكنه أوسع، يطلقون على هذا الشارع حارة القشاشية عند نهايته من ناحية الجنوب وحارة الرهسة عند نهايته من الشمال. ولأن شارع القشاشية يكاد يكون متوازيًا مع شارع مؤتة، ويلتف مكونًا انحناءة فقط في الشمال ليلتقي الشارعان معًا؛ لذا ترتب على ذلك أن اندمج نصف هذا الربع بالكامل بين هذين الشارعين باستثناء نهايته من ناحية الجنوب المواجهة للإحساء. في الأول سنجد هنا من ناحية الجنوب حارة "سوق الحجر" وسُميت هكذا نظرًا لوجود حجر من المقدسات كان يحيي النبي كل يوم أثناء رجوعه من المسجد قائلًا: السلام عليك يا رسول الله. هذا الحجر الذي تكلم آنذاك وصمت الآن يلمسه الحجاج ويقبِّله البعض. في الجهة الشمالية لهذا الحجر يوجد بيت صغير متهالك؛ لكنّه يُعد أيضًا من مقدسات المسلمين، فهو ليس أقل مكانةً من بيت الرسول، ولكن ليس البيت الذي وُلِد فيه، بل الذي عاش فيه مع أول زوجاته خديجة ووُلدت فيه ابنته الشهيرة فاطمة زوجة علي.

هنا توجد منازل جميلة اعتاد أن يسكن فيها الحجاج، وسلسلة من الأزقة على هيئة زوايا، كانت عبارة عن متاهة حقيقية تصطف فيها الأكشاك بجانب بعضها البعض بكثافة. أحد المناطق في فوضى الأكشاك هذه كان اسمه "سوق المصريين" حيث يزاول المصريون أنشطتهم هناك، وبجانبه كان هناك آخر للمغاربة، زقاق الناس الذين من المفترض أنهم أهل بلدي، وهذا هو الزقاق الوحيد الذي لم أطأه بقدمي لأسبابٍ وجيهة، لذلك لن أتمكن من وصفه، كما كان هناك زقاق صغير متسخ كان اسمه "الدرب الصيني"، ربما يستنتج البعض هنا على سبيل الخطأ أنه سُمي هكذا لأنه كان يوجد سابقًا هنا عدد كبير من الصينيين؛ لذا أطلقوا اسمهم على زقاق خاص بهم حيث أقاموا. لا، فقد كان يوجد في الصين عدد قليل جدًّا من المسلمين ومن بين هذا العدد القليل كان يأتي إلى مكة كل عام اثنين أو ثلاثة فقط منهم. وفي أثناء إقامتي في مكة لم يأت أحد منهم إلى هناك؛ لكن ربما أُطلق على درب الصينيين هذا الاسم لأن أحد التجار الصينيين كان له كشك يبيع فيه بضاعته منذ حوالي سبعين أو ثمانين عامًا.

يمتد النصف الثاني للربع الثاني من شرق حي القشاشية إلى أسفل الجبل المشهور أبو قُبيس الذي كان يظهر عليه جبريل للنبي. يصافحنا هناك أيضًا شِعب عليٍّ الذي سُمي على اسم صهر النبي، الذي يعرض مكان مولده على هيئة حصن صغير، كما يوجد زقاق مولد النبي حيث يُعرض موضع مولده في أحد السراديب التي لم أزرها؛ لأني أجلت زيارتها إلى ما بعد الوقوف بعرفة، ثم حدث ظرف طارئ جعلني أغادر مكة فجأة، أمّا زقاق الليل فقد كانت تُقام أسواق تلمع أنوارها في الليالي الرمضانية، وزقاق الرهسة حيث كان يُقام سوق الدواجن. كانت البيوت في هذا الربع عالية وبالأخص في النصف الثاني، وعندما نتجه صوب الشمال والشمال الشرقي ترتفع الأرض شيئًا فشيئًا حتى أن الجزء الشرقي لهذا الربع يكاد يقع تقريبًا على جبل أبو قُبيس. هذا الجزء اسمه المعلاة ويشتمل على أكبر ورش صناعة الخزف، حيث تُحرق هنا الجرَّات الكبيرة الثقيلة على وجه الخصوص، التي يملأها الحجاح بماء زمزم ويأخذونها معهم أثناء رحلة الحج، على الرغم من أن غالبية الحجاج يجدون مثل هذه الجرّات الفخارية ثقيلة في حملها ويكتفون

بزجاجات معدنية تُصنع لهذا الغرض بكميات هائلة في شارع الإحساء. في نهاية هذا الربع يصافحنا شِعب عامر الأسوأ سمعةً في مكة حيث كانت تُمارس فيه الدعارة.

أمّا الربع الثالث في مكة وهو الغربي وأصغرهم فقد أشرت إليه إلى حدٍ كبير في أول مرور لي من باب جدة إلى المسجد الحرام فور وصولي البلد الحرام، وأريد أن أذكر منه الآن فقط حارة الشبيكة والسوق الصغير وباب العمرة ومقابر خان دارسا (Chan - Darsa). يسكن حارة الشبيكة المكيون الأصليون وأغلبهم من الأشراف؛ ولذا فهم مميزون عن باقي سكان مكة بكرههم للغرباء، وكان لتجار التجزئة دكاكين في السوق الصغير. أمّا في زقاق باب العمرة فيسكن المطوِّفون. كانت غالبية البيوت في هذا الربع مكونة من طابقٍ واحد أو طابقين، وهنا يوجد أيضًا قصر أحد الأشراف والحمام الرئيس الكبير في مكة الذي زرته في آخر يوم في فترة بقائي في مكة، مما كان له الآثار المزعجة والمعرقلة لرحلتي فيما بعد.

أمّا الربع الرابع فهو أكثر أجزاء المدينة انخفاضا ولذلك أُطلق عليه اسم المسفل بحكم نزول مستواه الجغرافي، هذا الجزء الجنوبي لهذا الربع هو أكثر الحواري انخفاضًا ويصل إلى شارع حجاج اليمن. هنا يسكن البقَّالون الذين يعبر مظهرهم عن الفقر، معظمهم عرب من اليمن وحضرموت الذين يزاولون تجارتهم في دكاكين صغيرة متواضعة. يحد هذا الربع من الشرق أحد أجزاء المدينة الذي يشبه الخرائب، حيث يوجد الفندق الوحيد في مكة وهو خان اليمنيين أي فندق للعرب من اليمن؛ بالأحرى لم يعد يوجد منه سوى أكوام من الحطام. أما الجهة الجنوبية الشرقية فقد احتلتها قلعة ترتكز عاليًا فوق جبل أبي قُبيس، وهي عبارة عن كتلة ثقيلة من العصور القديمة، ويعتقد العرب أنها محصّنة، كما يعتقد المكيون أن هذه القلعة عبارة عن حامية تسع حوالي عشرين ألف رجل. أمّا الآن فبها عدة آلاف من الجنود المشاة الأتراك وبها مدفعان قديمان وربما غير صالحين للاستعمال. يصادفنا أسفل الجبل أحد قصور الأشراف الكبيرة الجميلة، لا يشبه المباني الأوربية الكبيرة تمامًا، بالرغم من أنه تعلوه شرفة على سطحه. عندما نخرج من هذا القصر إلى المسجد يصادفنا ميدان مفتوح واسع هو الميدان الوحيد في المدينة، بدايته قريبة جدًا من المسجد وتنبع في منتصفه بئر كبيرة مياهها غير قابلة للشرب، ويحيط بهذا الميدان

بيتان كبيران يملكهما أيضًا الشريف. في الجهة الشمالية الشرقية لهذا الربع توجد حارة الجياد التي كانت تسكنها العائلات التي كانت تخدم الشريف.

قصدت في جولاتي في البلد الحرام -لأسباب مفهومة - الأزقة والشوارع العامرة بالناس والأسواق التي يسهل الوصول إليها بالمواصلات. بينما يتمركز الجانب الديني لحياة الحجاج بشكلٍ خاص في المسجد وشارع الإحساء الذي يحيط به، تتوزّع المواصلات التي يستعملها الحجاج لأغراضٍ تجارية واجتماعية على أربعة شوارع هي: شارع المؤتة الذي يُطلق على امتداده المعلاة، والشارع الموازي له وهو القشاشية الذي يصادفنا في نهايته من جهة الشمال سوق الليل، والرهسة أهم شارع لمواصلات الحجاج الذي يوصلهم إلى مكان الحج؛ والذي ينتهي عنده كل من الشارعين السابق ذكرهما، وأخيرًا الشارع الرابع الذي يقع غرب المسجد الحرام والمتعرج كثيرًا، الذي يتغير اسمه غالبًا.. ففي الأول أُطلق عليه الشامية لأنه يقع جنوب جبل المروة ويفضي إلى شارع الإحساء، ثم أُطلِق عليه اسم السويقة أي شارع السوق الصغير، وأخيرا سُمي شارع الحمامات، وقد كان يصب فيه كل من شارعي الشبيكة والعمرة وهما من أكثر الشوارع حيوية. تعتبر هذه الشوارع الأربعة الأكثر حيوية وأهمية، وتتمركز فيها أماكن التجارة الرئيسة التي يحضرها الحجاج معهم إلى مكة، بينما تبلغ التجارة المكيّة ذروتها في شوارع المسفلة والسوق الصغير والشبيكة، أمَّا تجارة البدو فقد اقتصرت على الأسواق التي تُقام أسبوعيًا في نهاية الجهة الشمالية للمدينة مكان أسواق الدواجن والحبوب الكبيرة. أمَّا التجارة المكية بمعناها الدقيق فقد كانت لا تمثلها البيوت التجارية المحلية الكبيرة قليلة العدد، والتي مُورست من خلالها التجارة في الأحياء التي يسكنها الحجاج، كانت تقتصر على المستهلك والدكاكين الصغيرة ولم تتعد كونها تقليدًا طبق الأصل لأسواق البلدان الشرقية، مع الفارق الوحيد وهو أن التجار هنا لم يكونوا سوريين أو مصريين.

من المثير للاهتمام حركة مرور البدو التي سأتحدث عنها لاحقًا عند وصف السوق الكبير، التي تتوحد بشكل رئيس في الشوارع الأربعة التي ذكرتها أعلاه، فلن يستطع أيُّ أوربي أو شرقي لم يزر مكة مرة واحدة أن يصوغ لنفسه مُتخيلًا تقريبيًا عن تلون

وتنوع واختلاف الصور التي سيراها المراقب للمشهد هنا؛ لأنه في البلاد الأوربية تعيش الشعوب في درجة عالية من الرتابة، بينما في بلاد المشرق نجد عادةً ما بين خمسة إلى ستة عناصر سكانية تجذب الانتباه، وتتمثل في الدين والعادات ولون البشرة والأزياء والمظهر وطريقة المشية وتعبيرات الوجه والرتب الاجتماعية المتعددة وتدرجها وغالبًا التناقضات الاجتماعية النادرة، وتختلف تلك العناصر عن بعضها البعض بشكلٍ صارم. أمَّا ما يتعلق بالدين فلن تجد في مكة سوى المسلمين، إذا لم نأخذ في الاعتبار الذين لا يجاهرون بعدم اعتناقهم الإسلام أو مَن هم على شاكلتهم من المذنبين كالهنود. ويترتب على ذلك سيادة الجانب الكلاسيكي الإسلامي للسكان؛ لأن الأقليات الشرقية المسيحية واليهودية في الشرق قد تأوربت حتى فقدت كل طابعٍ للأصالة، وصارت رمزًا للتنافر والخروج عن القاعدة، بحكم كونهم البقعة الأوربية السيئة في كل لوحة فنية شرقية.

الشيء الوحيد الذي أسعدني في مكة هو أني لم أر في مكة أيّ يوناني أو أرمني أو قبطي أو مارونيّ أو أحد أفراد الشعوب المسيحية المنبوذة في الشرق، يسلبهم أحد الشرقيين شاعريتهم أو ما تبقى لهم على الأرض. لا يمكن في أي مكان على وجه الأرض ماعدا مكة أن يجد المرء كما في وقتنا الحالي شعبًا يسمح بهذا التدفق الوافر للغرباء إلى أرضه؛ لكن في نفس الوقت لا يمتزج ولا يختلط بهم تمامًا. فالمسلمون في كل بلاد المشرق هم هؤلاء الذين يرتاحون بصعوبة للتقاليد الأوربية، فعندما قبلوا الإصلاحات التي قام بها السلطان محمد بخصوص الملبس كانوا قد عرفوا كيف يخلقون من ذلك طابعًا نصف شرقيّ قبيحً لكنه مميز لهم.

لم يترك هذا الإصلاح نفس الأثر في كل الشرقيين، فقد اتبعه أحدهم بكل صرامة، وآخرون لم يبالوا به، وبعضهم نال القليل جدًا منه، وبذلك نشأت مجددًا مجموعة من التناقضات التي لا يمكن أن تحدث إلا في الشرق، أرض التنوع والتعدد. كذلك طريقة فهم الدين في الشرق، الذي هو في الأساس أكثر الأديان رتابة على وجه الأرض، والذي يرنو في كل سورة من سور القرآن إلى توحيد جميع البشر والزج بهم في نموذجٍ واحدٍ، صنعت هذه الطريقة في هذه الشعوب المتقلبة المزاج في تناقض ساحر مجموعة أخرى من

التنوعات والتغايرات، لدرجة أن محمدا عندما يُبعث به من جديد إلى الأرض فإنه قلما يستطيع تحري التوجه الصحيح في وسط هذا الزخم الفوضوي للطوائف والخلافات العقائدية والطقسية وسيصعب عليه إدراك أتباع الدين الحنيفي الصارم الذي دعا إليه وبشر به بين كل هذه الطوائف المختلفة.

أي فرق يوجد بين الشيعة والوهابيين وأهل السنة والمتواليين (المرابطين) والإسماعيليين وباقي المذاهب الأخرى، إنّ اختلاف هذه الفرق والمذاهب من ناحية التي أدت إلى ظهور أشكال متعددة من العبادة تفرض نفسها على مُراقبي الحياة العادية، ومن ناحية أخرى فإن اختلاف أجناسهم التي تتمثل في لون البشرة والعادات وقبل كل شيء طريقة ملبسهم (لأن الملابس في الشرق تعتبر أهم ما يميز نسب الفرد أكثر من الشعائر المقدسة)، فضلًا عن التنوع الكبير في الحرف والمهن وأفرع التجارة، كل ذلك جعل الإقامة في أكثر شوارع مكة حيوية شيقة للغاية، والتي نرى فيها الشعوب المختلفة متداخلة مع بعضها البعض كما لو كنا ننظر إليهم من خلال مشكال (كاليدوسكوب) على أنهم مكعبات صغيرة في اللعبة متعددة الألوان هذه.

ففي دكان الفرو الذي يملكه التاجر التتاري مراد أوغلو خان الذي كان يسكن معي في بيت حمدان، والذي قررت أن اتخذه مكانًا تُعرض عليَّ من خلاله الحياة في شوارع مكة كما لو كنت أجلس كمشاهد على مقعد في أحد المسارح. كان يقع هذا الدكان في أحد أكثر الأزقة حيوية واسمه زقاق القشاشية ومعناه مدخني الأفيون وقد ذكرته آنفًا ضمن الشوارع الرئيسة في مكة. لم يكن دكان مراد سوى زاوية صغيرة مفتوحة تسع فردين فقط، بينما تكدست البضائع على دكة أمام الدكان تكاد تحجب التاجر الجالس خلفها وابنه الجاثم بجواره على الأرض.

كان دكان مراد من أكثر الدكاكين حيوية وانتعاشًا، وذلك طبقًا لما يفهمه المسلم لكلمة "حيوية"، أي أنه كان يبيع شيئًا واحدًا كل نصف ساعة، ولكنه كان يُسأل بين الحين والآخر عن أثمان البضائع، وكان أحيانًا يتحدث معه أحد الكائنات الغريبة المضحكة طويلًا لشراء شيء ولا يثمر ذلك عن أي بيع، خاصة الفرس الذين كانوا ولعين

بمنتجات الفرو؛ لكنهم لم يكن لهم مثيل في البخل لدرجة أن القصة كانت تنتهي عادةً بأنهم يتحدثون فقط عن البضائع والتتاري يسبهم، وبالطبع يُضاف إلى ما سبق كفر هؤلاء الشيعة. فالعرب لا يشترون منتجات الفرو هذه؛ سواء كانوا من جزيرة العرب نفسها أو من سوريا أو مصر، وقلَّما اشتروه لغرض الزينة والزخرفة للنساء والأطفال. وكان من المعتاد أيضًا أن نجد عنده أتراكًا وزوارًا لدكانه من دول الشمال.

اعتاد مراد أن يتحدث باللغة التركية وأن يدخل في أحاديث طويلة مع زبائنه الأتراك بينما هم يشربون فنجانًا من القهوة ويدخنون التبغ قبل أن يتفقوا على أسعار الصفقات. وبالمناسبة فقد كان من الصعب جدًا الاتفاق مع هذا التاجر التتاريِّ على ثمن؛ لأنه كان يبالغ في أثمان بضاعته بطريقة غير معقولة، كأن تبلغ مثلًا قيمة السلع الفاخرة عنده ثلاثة أضعاف قيمتها في مكة. ولكن في الحقيقة لم يكن في هذا المشهد أمر غريب يثير الضحك أكثر من تجارة الفرو نفسها في مكة، في تلك البلدة التي لن يستشعر أحد في شتائها الدافئ جدًا حاجة لهذه الملابس من الفرو. أعتقد أن مراد كان التاجر الوحيد في مكة الذي يدير تلك التجارة المتناقضة. كان الحجاج يتوقفون كثيرًا عند دكانه؛ بالأخص البدو الذين أحرقت الشمس بشرتهم فيضحكون ساخرين منه ومن تجارته. لقد سمعت أحدهم يصيح فيه قائلًا: "ألا تُعرني فرو قطة فألبسه كثوب حاج؟"

جرى فجأةً ذات مرة أحد الحجاج الأقوياء الآتين من حضرموت، كان فتى داهية خبيثًا، مثل دور أحد الأولياء المخبولين بعد أن خطف قطعة من فرو المنك الأسود، وعندما تبعه ابن التاجر التتاري، سليم ذو الوجه الشاحب الأصفر وانتزع منه قطعة الفرو دون بذل مجهود كبير، لطخها ذلك الرجل بالوسخ وعلقها على ابن التاجر، وجعل هذا الهزار غير اللائق الناس ينفجرون ضاحكِّين على هذا المجنون. لم تكن تجارة الفرو شائعة في مكة، لم ينظر أحد إلى هذه الملابس من الفرو في هذا الجو القائظ دون أن يقشعر جسده. فالعربي الوحيد الذي رأيته يشتري من مراد كان رئيس إحدى القبائل في نجد، من قلب شبه الجزيرة العربية، حيث كان يقف بجانب أحدى قطع الفرو لدبٍ مما جعل مَن يرافقونه ينظرون إليه متعجبين ماذا عساه سيفعل بمثل هذا الفرو.

كان رفقاؤه من نفس قبيلته ومن بينهم بعض خدمه ومرؤوسيه الذين ظلوا ينظرون إليه مذهولين ولسان حالهم يعتقد أن رئيس قبيلتهم قد جُن فجأة؛ لأنه الجنون وحده هو ما يفسر لهم كيف يستشعر رئيس قبيلة نجاد الرغبة في شراء فرو الدب هذا. وأخيرًا تجرأ أحدهم وبادره بالسؤال: "يا شيخنا، ماذا ستفعل بفرو الدب هذا؟"

هُنا أدرك الشيخ أنه أقدم على شيء، جعل الآخرين يتهمونه بالجنون؛ لأنه في عرف العرب يُعد أي شخص يحيد عن تقاليدهم وعاداتهم ولو قليلًا مجنونًا، أو إذا خطر ببال أحدهم أمر غير عادي يعتبرونه مختلًا عقليًا بل وأسوأ من ذلك زنديقًا. لذا رأى الشيخ أنه من الضروري أن يعتذر لأبناء قبيلته من خلال خطبة طويلة ألقاها، أقسم فيها أنه لم يرد شراء الفرو كي يرتديه، لا، حاشا لله أن يرتدي شيخ نجد فرو الدب! فمثل هذه الزندقة لا يمكن أن تحدث منه.

خطب الشيخ فيهم قائلًا:

> **"أريد أن أخبركم يا أبنائي لماذا أريد أن أشتري هذا الفرو. كلما مررت بدكان هذا التاجر الآتي من الشمال (مراد التتاري)، وقع نظري على فرو الدببة هذا الجميل السميك، فاعتقدت أنه من المؤكد أن هذا الفرو سيكون وثيرًا ناعمًا، وليس لأني أنا شخصيًا أو أحد من أفراد أسرتي قد تخنث ويريد أن ينام على هذا الغطاء الوثير. لا، لم يحدث ذلك، ففي البيت عندي مهرة من أجود السلالات النجادية، فرس كحيل أصيل، يحفظ كل عربي شجرة نسبه، وأردت أن يستريح هذا الحيوان الجميل الرقيق سليل الحسب والنسب على هذا الغطاء الناعم لأن أغلى أنواع السجاد لن تكون غالية على هذا المهر الأصيل."**

قَبِلَ أفراد قبيلته العرب منه هذا الاعتذار الغريب مع كامل احترامهم وتوقيرهم له. وفجأة تحول الموقف؛ حيث لم يستعد شيخ القبيلة هيبته ووقاره فقط مرة أخرى بين أفراد قبيلته؛ بل زاد احترامهم وتبجيلهم له؛ لأن العربي الأصيل لن تكون رعايته والاهتمام به أمرًا مبالغًا فيه مثل تلك التي يستحقها الحصان العربي الأصيل. كان رد

فعل أفراد القبيلة مع شيخهم أكثر من كونه مجرد تعاطف معه؛ لأن العرب يعتبرون الحصان العربي الأصيل ولدًا لأبوين من أصلٍ عريق، ويدللونه كما يُدلل الطفل، ويلبون له طلباته المزاجية، ويزينونه بأبهى الثياب المزركشة وأغلاها ويفعلون كل شيء ليجعلوه يعيش حياة الترف والنعيم، بالمثل يعتني العربي الأصيل بمهرته الأصيلة، يجعلها أحب ما يملك، يعتني بها ويفكر فيها ليلًا ونهارًا، ويقوم بكل ما في وسعه لجعل حياتها أحلى.

تُعد نجد من أفضل بلاد الخيول العربية في شبه الجزيرة العربية وهي مسقط رأس شيخ القبيلة الذي ذكرته توًا، حيث توجد معظم الخيول في هذه البلدة، والتي ليست دائمًا جميلة، وفي أغلب الأحيان ضعيفة وحساسة للغاية؛ لكن مثلما ينحدر الأمير الضعيف من بيت أمراء عريق؛ لكنه على أيّة حال من الأحوال يكون قوي الشخصية ويؤثر في غيره وله خصال مهيبة، وبذلك يحمل خاتم أصله الأرستقراطي، وبناءًا على ذلك تكشف خيول نجد للمتذوق الحقيقي من الوهلة الأولى أصلها الطيب النبيل حتى إن لم تكن تلمع خارجيًا. يعتقد الأوربيون أن هذا النسب سوف يُدَوَّن ويحافظ عليه مالك الحصان بعناية فائقة. ولكن هذه الفكرة خاطئة تمامًا، وسيسخر منها أي عربيّ؛ لأن العرب لا يكتبون نسب أي حصان عربي أصيل؛ لأن سلالته تكشف عن نفسها من خلال التناسق الجميل لأعضائها.

فقط عندما يبيع أحد الرجال العرب حصانه للغرباء، ونادرًا ما يحدث ذلك، فإنه يكتب نسب حصانه ويدونه ويؤكد هذا النسب بواسطة الشهود. وفي نجد حيث توجد أنبل الخيول التي لا ينبغي أن تكون أجمل الخيول العربية طبقًا لمواصفات الجمال الأوربية، فنحن الأوربيون نفضل الخيول التي تلمع خارجيًا ولا نفهم بالقدر الكافي علامات نُبل الحصان وأصالته التي تتضح من تفاصيل تافهة غير حقيقية والتي تسمح بتفضيل الخيول الفخمة العظيمة في سوريا وبلاد الرافدين على خيول نجد.

أمّا ما نعرفه نحن الأوربيون عن "الخيول العربية" فهو أنها كلها من سوريا أو من نواحي بغداد ومصر، والخيول الأصيلة تلك في نجد غير معروفة لنا نهائيًا في أوربا، ولن نعترف بها حتى إذا عُرضت علينا، فسلالات الخيول الأصيلة عندنا مثل النبيذ المعتق.

الأمر يتعلق إلى حدٍ ما بتهذيب الذوق كي يمكن تقدير كلاهما بالشكل اللائق بهما، كما أني أشك فيما إذا كان أحد الأوربيين سيستطيع أن يقدر القيمة الحقيقية لخيول نجد هذه أم لا؛ لأننا تعودنا في المائة سنة الأخيرة على أنواع الخيول الإنجليزية، وساد بالكاد الاعتقاد أنها الخيل النموذجية والمُثلى لما يجب أن يكون عليه الحصان، حتى غدت قيمة الحصان العربي، الذي يتعارض في كثيرٍ من الخصال مع الحصان الإنجليزي، تقل عاما وراء الآخر حتى فقد الأوربيون أخيرًا ذائقتهم تجاه هذه السلالة من الخيل العربية.

إذا كانت الأسعار التي طلبها مراد لبضائع الفرو هذه الغريبة والمعدومة الفائدة في مكة، مُغالى فيها لدرجة الضحك منها، فلم يكن حال سلع التجار الآخرين في البازار التي تختلف طبيعتها عن الفرو أقل عجبًا. كنت أتعجب دائمًا كيف يقدم الناس في مكة على شراء بضائع لا فائدة تُرجى منها مطلقا، حيث كانت تُباع هنا أيضًا منتجات الحرير السورية والحرير الهندي والأوشحة من الكاشمير بكميات كبيرة، وبأثمان تبلغ ثلاثة وأربعة أضعاف قيمتها الحقيقية. كذلك الكتب كان يبيعها بعض الحجاج لحجاج آخرين؛ لأن المكيّين يُشاع عنهم أنهم شغوفون وولعون بالأدب العربي، إلا أنهم يكادون لا يقرؤون ولا يشترون الكتب ولا يهتم ساكنو البلد الحرام بشيء سوى الكماليات الفاخرة باهظة الثمن والمأكولات، التي كانت أهم ما يميز التراخي الجميل في حياتهم التي يركنون فيها إلى الكسل.

مثل هذه الحوادث كظهور رئيس قبيلة نجد كان يساعد في جعل الوقت في دكان مراد يمر سريعًا، فقد كان التجار أنفسهم من أكثر الناس سآمة في العالم، خاصةً الأتراك منهم كانوا بالنسبة لي من ثقلاء الظل عندما يتجاذبون حديثًا طويلًا لا نهاية له مع التاجر التتاريّ. في هذه اللحظات كنت أهرع سريعًا من دكان بيع منتجات الفرو هذا للتجول في زقاق القشاشية أو سوق الليل وأراقب حركة التجارة الرائجة والحيوية في هذه الأزقة.

ذات مرة حينما دخل مفتي كهل وثمينٍ بشكل مخيف من آسيا الصغرى وأراد أن يجرب على جسده فراء الثعلب الروسي؛ على الرغم من الغطاء الطبيعي الهائل الذي يحيطه، فبدأت على الفور ثرثرة لا تنتهي بلغة غير مفهومة عبارة عن مزيج من التركي والكردي

مع مراد، واستشعر السأم وطول الوقت أيضًا سليم الممتقع الوجه الذي تكسوه الصفرة، فأعطاني إشارة فهمت منها أنه سيرافقني للهرب من سأم الوقت في دكان أبيه. كان هذا الظرف السعيد سببًا في رؤية أحد الدكاكين الفريدة من نوعها، والتي لم يسبقني إليها أحد من الأوربيين الذين زاروا مكة من قبل. كنت مندهشًا جدًّا بسبب اسم هذا الزقاق، وسألت عن سبب تسمية هذا الزقاق الذي يقع فيه دكان مراد بالقشاشية، هل سُمى هذا الزقاق بهذا الاسم بسبب مدخني الأفيون؟ فالخشخاش معناها زهرة الخشخاش التي يُصّنع منها الأفيون. رأيت لأول مرة في الشرق مدخني الأفيون؛ لأن مدخني الأفيون هم أنفسهم مدخنو الحشيش بالنسبة لنا نحن الأوربيين، ولا يندرج الأفيون تحت الحشيش وإنما القنب الأفريقي الذي له نفس صفات الأفيون. لقد رأيت في الجزائر وتونس والمغرب عددًا وافرًا من مدخنى الحشيش، حتى أني زرت ما يطلق عليه الأوربيون في القسطنطينية "مقهى الأفيون"؛ ولكن في النهاية اكتشفت أن كل هؤلاء المفترض أنهم مدخنو الأفيون ليسوا إلا مدخني الحشيش. أمَّا هنا في مكة فقد تمكنت من رؤية مدخني الأفيون لأول مرة وزرت دكانهم وعرفت لماذا يُطلق على حارة القشاشية هذا الاسم.

تقدمني سليم إلي إحدى الحواري الجانبية الملتوية لزقاق القشاشية، ثم دلفنا إلى الطابق الأرضي في أحد البيوت القديمة المتهالكة، وكان يجب علينا أن ننزل سبعة سلالم لأسفل حتى نصل للمستوى الأرضي لهذا المقهى الذي ذكرته آنفًا، والذي لم يكن سوى بدروم هذا البيت القديم. في البداية لم ألحظ شيئًا هنا بسبب أن الفرق الشاسع بين الضوء الساطع في الخارج وظلمة هذه الحانة كان كبيرًا جدًا لدرجة كادت أن تعميني. ورويدًا رويدًا تعوّدت أعضاء وجهي على هذه الظلمة المطبقة وبدأت أجول بنظري في المكان الذي تواجدنا فيه. كان هذا القبو هو الأكثر شهرة بين الناس، ولكن لم يكن به أيّ أثاث أو سجاجيد أو حتى حصيرة من القش مفروشة على الأرض، على الحائط كان يوجد بعض البروزات الحجرية، وفي الواقع كان المكان باردًا مثل الأرضية التي كان يجلس عليها مرتادو هذا المكان. في أحد أركان هذا القبو كان يوجد موقد صغير يبدو أنه لم تُشعل النار فيه أبدًا؛ لأن اسم "مقهى" الذي أُطلق على المكان لم يكن حقيقيًا بل تزييفًا

لواقع هذا المكان. حينما شرعت في تفقد هذه الكائنات التي كان يعج بها هذا المكان السري تحت سطح الأرض، بدا لي أني هبطت إلى مملكة الظلال وما أراه الآن هم أُناس باهتون شاحبون خلت أجسادهم من الدماء يتحركون حولي.

كان عدد زوار هذا المكان السري حوالي عشرين رجلًا تجمعوا هنا من بلدان كثيرة متعددة، بعضهم كان من المغرب والبعض الآخر من وطني المفترض الجزائر، والذين لم أكن في حاجة إلى أن آخذ حذري منهم، وآخرون من تركيا ومن شبه الجزيرة العربية؛ لكن غالبيتهم كانوا من شرق الهند بلد المنشأ للأفيون. كان هذا الجمع وبالأخص أصحاب البشرة الداكنة يتميزون بوجوهٍ ممتقعة مندحرة شاحبة، مما جعلهم يظهرون بوضوحٍ أكثر بين هؤلاء جميعًا. كان هذا الامتقاع والشحوب في وجوههم مرضيًا، وكان من السهل تخمين السبب المهلك وغير الطبيعي لهذا الشحوب من الوهلة الأولى. كان يحمل معظم كائنات الظل هذه في أيديهم أنابيب الأراجيل القصيرة التي لا ينبعث منها أيّ أثر للدخان؛ لأنه عند التحدث عن "التدخين" فهذا معناه عند العرب "شرب" الدخان، فهم يستنشقون الأفيون كما يستنشق مرضى الصدر عندنا الكافور غالبًا في الريشة؛ لكن هذا الاستنشاق ليس له أيّ تأثير مذهب للعقل، بخلاف مضغ الأفيون الذي كان يأكله البعض في هذه الباحة السرية تحت الأرض. هؤلاء من أشد المحبين للأفيون، اعتادوا مضغه على شكل حبات صغيرة مدورة؛ لكنهم كانوا يبدون أشد بؤسًا وسوءًا من مدخني الأفيون.

بعد أن نزلنا إلى هذه الحانة، لم يعرنا أحد منهم أدنى اهتمام، فقد كان مدمنو الأفيون يجلسون بأعين فاغرة فتحت أحداقها، متعطشة وولعة، كلها شهوة عارمة، تحدق أمامها بشغف، كانوا يريدون أن يستشعروا الانغماس في حالة النشوة والاستمتاع بها، وفُتحت أشداقهم بضحكات اللذة وكأن وابلا من سعادة لا وصف لها قد غمرهم؛ لكن لم تتحرك شفة أحدهم بكلمة واحدة. كان تأثير الأفيون عليهم لافتًا جدًا للنظر؛ لأنه يجعلهم مختلفين عن هؤلاء الذين اعتادوا على الكيف أو الحشيش، الذي يجعل متعاطيه يهزر ويثرثر ويسبب له خيالات مثيرة؛ لكن هنا في هذه الحانة كان الأمر مختلفًا تمامًا، حيث عمَّ الهدوء في المكان، ولم يفصح أحدهم عمّا يراه من خيالاتٍ تمتعه أو أوهام حلوة تسكن

عقله. فقط بين الفينة والأخرى يصيح أحدهم "الله" أو "لطفك يا الله" وكأنهم يحمدون الله الخالق الذي مَنَّ عليهم بهذه النعمة.

بعد أن مكثنا ربع ساعة في هذا المكان، دلف إلينا رجل بدا متعافيًا وسليمًا يختلف في مظهره عن باقي نزلاء هذا المقهى ذوي الوجوه المتقعة الشاحبة والأجساد الهزيلة. وبينما كان يرتدى هؤلاء الثياب الرثة المتسخة ويضعون العمامات البالية الممزق معظمها، كان هذا الرجل يتزين بالزي المكيّ الجميل، الذي يتكون من الجبة وقفطانٍ من الحرير ووشاحٍ من الكشمير وعمامةٍ من القماش الموصلي المذَّهب. اقترب هذا الرجل صوبنا وحيَّانا بكل أدبٍ وأحضر لنا أرجيلتين بهما الأفيون، مثل التي يحملها الآخرون في أيديهم. كان هذا الرجل هو الوحيد المنتفع من هذا المكان سيء السمعة، حيث كان يجني ربحًا وفيرًا من بيع الأفيون، هذه المادة المخدرة لهؤلاء، وخاصةً عن طريق نهب أموال مدخني الأفيون، الذين اعتادوا على إنفاق كل ما في جيوبهم على الأفيون، طالما كانوا يشعرون بالنشوة، وبعد ما يفيقون من سكرتهم ونشوتهم لا يستطيعون الشكوى؛ لأن الحكومة التركية قد حرّمت بشدة تعاطي هذا المخدر في الأماكن العامة في الآونة الأخيرة وسيُعاقب كل من البائع والمتعاطي على السواء. وبناءًا على ذلك أضحى متعاطو الأفيون يحملون نفس الوزر مثل بائعيه، واستغل البائع هذا الإجراء لزيادة سلطته ونفوذه.

كنت بالطبع أتحاشى شفط الأنبوب الصغير واستنشاق الأفيون، وقد أدى ذلك إلى اعتقاد الآخرين أنني أقوم بهذا؛ لأني أعاني من وجودي في هذا المكان أو لأني أحد جواسيس الشرطة. أمَّا سليم، رفيقي في هذه الحانة، الذي انكشف لي سبب لون بشرته المرضي الأصفر المتقع، فقد كان لا يتظاهر بالاستمتاع بالأفيون فقط؛ بل كان يغط في نشوته به، وباتت مغبة حالته تلك ليست ببعيدة؛ فسرعان ما انغمس سليم في حالة السكر والهذيان مثل باقي نزلاء الحانة، وحينما طلبت مغادرة هذا المكان الذي طالما تفقدت ضيوفه الأشباح المتعاطية للأفيون هنا، كان لزامًا عليَّ أن أمضي خارج المكان بمفردي؛ لأن سليم كما سمعت لم يظهر سوى في اليوم التالي وكان في حالة ذهول وخمول تامة ولم يغضب والده مطلقا لحاله.

كانت عادة الاستمتاع بالأفيون، أو كما يطلقون عليها بطريقة خاطئة تدخين الأفيون، لا تسود في الجزء الغربي لبلاد الشرق؛ بل في الجانب الشرقي منه وبالأخص في شرق الهند والبلاد المجاورة لها كما في الصين. أمَّا في مكة، قلب الإسلام، فلم تستطع المدينة أن تنجو من قدرها هي أيضًا بأن يدخل تدخين الأفيون إليها مع بعض العادات الدخيلة الغريبة الأخرى على مكة.

أحيانًا كنت أصل أثناء تجوالي في مكة إلى الحي السوري والسويقة المجاورة له (السوق الصغير)؛ ولكي أصل إلى هناك كنت أتجه نحو الجنوب حتى أصل إلى الشارع الذي به مدخني الأفيون، وهو شارع الإحساء الكبير الجميل الرئيس، الذي اتبعته حتى جبل المروة، حيث يبدأ حي الشامية. وعندما تسللت ذات مرة بكل هدوء في أرجاء الحي السوري العامر بالدكاكين، سمعت أحدهم يناديني باسمي:

"يا عبد الرحمن".

هكذا صاح أحدهم بصوتٍ مرتفع، كان من الواضح أنه انبعث من تحت الأرض؛ وقال:

"لقد سُررت لرؤيتك".

تلفتُّ حولي طويلًا؛ لكني لم أستطع أن اكتشف أين يوجد صاحب هذا الصوت الذي قد سُرَّ لرؤيتي مرة أخرى. وأخيرًا رأيت كرةً ضخمةً في الطابق الأرضي العميق لأحد البيوت، الذي كاد أن يكون مختفيًا تمامًا بسبب الأرض أمامه، كانت تقبع في هدوء في أحد الأركان. حاولت أن أحلل ماهية هذه الكرة بكل دقة فوجدت أنه كان رفيقي في رحلتي الحاج عمر البدين، الذي كان يختفي هناك بسويعة من الراحة. نزلت لأسفل إليه فوجدت نفسي في دكان حلوى سورية حيث اجتمعت مجموعة قليلة متنوعة من الناس للاستمتاع بوقتها. لم يكن يجلس هناك الحاج عمر البدين فقط، الذي جلس يستمتع بدقائق هنيئة لهضم الكميات الهائلة التي التهمها من الحلوى؛ بل كان يوجد معه أناس آخرون رافقوني في رحلتي، من بينهم الشيخ مصطفى وأبناء أخيه الثلاثة الذين تعرفت على ثلاثتهم أثناء رحلتي.

كان الجميع منهمكين في التهام ما يوجد في أطباق صغيرة من الحلوى اسمها المهلبية عبارة عن معجون يُصنع من دقيق الأرز واللبن، ويُحلى بكمية كبيرة من السكر، وترش فوقه القرفة والزنجبيل وبعض التوابل الأخرى. فقد كان الطباخ السوري الذي تواجد عنده باقي رفقائي في الرحلة مشهورًا بصناعة مثل هذه الحلوى المصنوعة من دقيق الأرز وليس أحد الحجاج، واعتاد الأتراك أن يأتوا إلى دكانه هذا لأنهم يحبونها أكثر من العرب. أمّا الشيخ مصطفى المسكين فلم يعد للأسف هو ذلك الكهل نفسه، فقد أعيته رحلة السفر وأرهقته؛ فحالة الإسهال المستمرة ونزلة البرد اللتان عانى منهما بسبب ملابس الإحرام جعلتاه يبدو كشبحٍ لما كان عليه الشيخ. وعندما سألته عن حاله، أجابني:

"يا أخي، أري أن نهاية أجلي قد اقتربت. أدعو الله أن يحييني حتى أتم حجتي هذه بالوقوف على جبل عرفة وأن تفيض روحي في هذا المكان المقدس. أريد أن أموت على جبل عرفة، فتلك أمنيتي الوحيدة التي أتمناها من كل قلبي."

لم يكن يعرف هذا المسكين أن أمنيته هذه سوف تُنفذ بهذه الدقة. كنت متأثرًا جدًّا للحالة البائسة التي كان عليها الشيخ الطيب، الذي عاينت موته بنفسي بعد عدة أيام، كما تأثر أيضًا باقي الحاضرين وأخذوا يواسون الكهل المريض بطريقة سخيفة مبتذلة، ويدعونه للتسليم بقضاء الله وقدره، كما هي عادة المسلمين، حيث أخبروه بشيءٍ هام وهو أنه سيموت على حالته المرضية تلك إن كان قُدر له قصر العمر. لم أستطع مقاومة القشعريرة التي تدب في أوصالي في كل مرة كنت أسمعهم يتحدثون فيها عن تسليمهم بالقضاء والقدر، الذي يحوى تحت طياته أشد درجات القسوة. لم أعرف في حياتي شيئًا أشد فظاعة من كلمات المواساة والتعازي القدرية هذه، التي لا تحض المرء على فعل ما في الإمكان لتحسين حالته. فأيّة كلمات تعازي ومواساة تفيد حتى شيطانًا مسكينًا قد اقترب أجله، حين نقول له "أنه كُتب عليه قصر العمر" ؟

كان يجب أن أتناسى هذا المشهد الحزين وأنأى بنفسي عن التفكير فيه، فدلفت إلى أحد المحلات، الذي كانت به دستة من شباب الأتراك الأرعن المتهور، وتلك أكثر الخصال وقاحة وبذاءة. كان من الواضح أنهم أتوا توًا من أحد دكاكين الكحوليات، وهو أمر

غير محرم في البلد الحرام؛ لكن الحجاج اعتادوا على الذهاب إلى هناك في الليل فقط. كان يجلس هؤلاء الغلمان حيثما يروق لهم، في أحسن الأماكن الأمامية دون أن يسألوا أو يدققوا النظر عما إذا كان يجلس هناك غيرهم أم لا، حتى أنهم لم يضايقوا الآخرين فقط؛ بل شرعوا بالجلوس فوقهم، فعمت الفوضى المكان وتراشق الحاضرون فيما بينهم بألفاظ السباب والشتائم باللغتين التركية والعربية، دون أن يفهم أحد الطرفين الألفاظ النابية هذه بلغة الطرف الآخر، فالمتحدثون بالعربية كان أغلبهم مصريين يخافون ويهابون هذا الشباب الأهوج من الأتراك؛ لذا كانت الغلبة واليد العليا في هذا المشهد للشباب التركي التافه. كانوا ينادون بملء حناجرهم على المهلبية التي يلتهمونها في لحظة. ثم يتصرفون بمنتهى الأدب طبقًا لقواعد الآداب التركية؛ فيتجشأون في وجه مَن يجلس بجوارهم؛ ويصدرون ذلك الصوت العالي الذي يصدره كل تركي بعد الانتهاء من الوجبات. لقد كنت على وشك تسديد صفعة قوية على وجه أحد هؤلاء الشباب حينما وصل البلغم والرزاز المتطاير منه إلى أسفل أنفي. ولكن ذلك الشاب الذي جعلني أرى بنفسي هذه "الآداب" التركية، كان فيما يبدو يصدق أنه يجاملني بفعلته هذه، فقد بدأ يحادثني حديثًا سرعان ما تعثر وتوقف بسبب قلة معلوماتي في اللغة التركية؛ حيث أني لم أتقدم بعد في التحدث بها بطلاقة. وأخيرًا فرَّ هؤلاء الشباب من هنا واستطعنا أن نستمتع بالمهلبية في هدوء.

كان الوضع في الدكان مثيرًا للملل والضجر لمحمد ابن أخ الشيخ مصطفى؛ ذلك لأنه لا يُسمح له بالتدخين في وجود عمه؛ لأن التدخين في حضرة الأقارب كبار السن يُعد من الخروج على قواعد الأدب عند العرب كما في مصر أيضًا. أعطاني محمد إشارة فهمت منها أنه يريد أن يخرج من هذا الدكان معي، فاستجبت له، وخرجنا سريعًا إلى الخلاء، واقترح عليّ هذا المنافق المخادع زيارة المسجد الحرام، لقد كان اقتراحًا دينيًّا؛ لكنه غير صادق؛ لأنه كان يعلم أن الحجاج الذين يأتون حديثا إلى مكة لا يزورون شيئًا سوى المسجد الحرام في الأيام الأولي أثناء إقامتهم في مكة بملابس الإحرام، ونحن كنا نرتدي ملابس أبعد ما تكون عن الإحرام في كل شيء، التي تجعل الجسد نصف عارٍ. ولأنني لم أجب على اقتراحه المنافق هذا سوى بابتسامة ساخرة، تنازل عن نفاقه وعدّل اقتراحه وقال لي

نريد أن نزور أحد المقاهي الأكثر حيوية هنا. لكنه لم يكن يقصد ذلك فعلًا؛ لأني سرعان ما لاحظت أنه كان يقصد شيئًا آخرًا؛ لكن لم يستطع الآن سوى أن يبحث عن المقهى؛ لأني كنت أبدو له متربصًا بكلامه كي ينفذ اقتراحه. غادرنا الحي السوري واتجهنا صوب شارع الإحساء الذي يقع جبل المروة عند نهايته من الجانب الشمالي الغربي، ورأينا هناك سُوقَ الدَّلاّلين الرائجة، ثم تابعنا السير في أكبر شوارع مكة حتى كدنا نقترب من نهايته عند جبل الصفا. ولأننا كنا في وقت الظهيرة فقد غدا الشارع يكتظ بالمارة؛ لكنهم كانوا أكثر هدوءًا وسلامًا، يرتدون ملابس ملونة، حيث انتهى الحجاج من أداء شعيرة السعي وهذه الهرولة المجنونة بين جبلي الصفا والمروة بطول الشارع في الصباح؛ فلا يوجد في مكة شيءٌ أجمل من المشي في هذا الشارع عندما يكون المارة والحجاج في موسم الحج قد انتهوا من أول شعائر الحج وخلعوا عنهم ملابس الإحرام القذرة ويرتدون الآن أزياءهم الملونة متعددة الألوان والأذواق، التي تكشف عن جنسياتهم المختلفة. فهنا يتنزه أحد الأتراك بزي الإصلاح ، عبارة عن التنورة الرسمية طبقًا للنموذج الأوربي والسيف المقوس مثبت على حزام من الجلد، بجانب أحد البدو يمشي بحرية وبساطة كبرعم آتٍ من الصحراء الشاسعة ملتفًا في رداء أزرق تتطاير أطرافه. هنا كان يعتمر أحدهم القبعة المدببة للفارسي وآخرون يرفعون على رؤوسهم الطربوش المصري المنخفض، وآخرون يعتمرون الشاشية التونسية المرتفعة وآخرون العمامة السورية. وهنا يقترب من المسجد الحرام الرجال الأشداء من خراسان وسمرقند بجانب الأغاوات خدَّام المسجد الحرام العبيد، الذين يزينون شعرهم بمشابك من الذهب، ويرتدون ثيابًا غالية الثمن، وهي الثياب المكيِّة ، التي تتكون من القفطان المصنوع من الحرير، الذي كنت أراه دائمًا مخصصًا للنساء، كما أني لم أقتنع أبدًا عندما كنت أرى هؤلاء الغلمان المكيين بأنهم ينتمون لجنسنا الذكوري، وعندما يرتدي أحد هؤلاء الأغاوات عديم الجنس هذا القفطان الحريري يكون مثيرًا لخيال من يراه من شباب الرجال. ولأن شباب هؤلاء الأغاوات البالغ عددهم مائة أو أكثر وكبار السن منهم، الذين يقومون بخدمات المسجد الحرام، يسكنون جميعا في شارع الإحساء وفي نواحيه، فقد كان من الطبيعي أن أرى هنا عددًا كبيرًا منهم

ليس غالبًا في أوقات الصلوات الخمس فقط أو أثناء تأدية خدمات الحرم الشريف الهامة. لا يزال ثلثي هؤلاء الأغاوات الشباب تقريبا تحت ملاحظة وإشراف الأغاوات كبار السن، حيث يتم تأهيلهم وتدريبهم على المهام التي يقومون بها حاليًا. فكلهم تقريبًا بلا استثناء زنوج وينتمون لطبقة العبيد؛ لكن بعد انتهاء فترة خدمتهم في الحرم الشريف لا يمكن بيعهم لأي مالك آخر، فبعضهم أتى من أسوان والبعض الآخر من دارفور وكوردوفان وبعضهم من الحبشة، كانوا أطفالًا لآباء مسيحيين بيعوا وهم صغار أو لأنهم سُرقوا. من النادر جدًّا أن نرى في مكة أحد الأغاوات من أصحاب البشرة البيضاء، ففي فترة إقامتي هناك لم أصادف أي واحد منهم هنا؛ على الرغم من أنه كان يوجد الكثير منهم سابقًا. وعمومًا فإنه لا يوجد في بلاد المسلمين عدد كبير من الأغاوات ذوي البشرة البيضاء. لقد رأيت في القسطنطينية نحو ثلاثين يقومون هناك بالخدمات الخارجية للسراي بينما يقوم السود منهم بالأعمال الداخلية، وتختلف درجات هؤلاء السود منهم ووظيفتهم ورتبهم بحسب درجة إخصائهم، مما كان السبب في إخصائهم إخصاءً كاملًا، بينما يُخصَى البيض منهم إخصاءً جزئيًّا. من بين الأغاوات الذين تواجدوا في مكة خُدّاما للحرم المكي كان سبعة منهم ليسوا زنوجًا؛ وإنما كانوا يتمتعون بالبشرة القمحية اللون. وقد حظي هؤلاء الخصيان بمنزلة شريفة ومقدسة من قبل الحجاج، الذين كانوا يقدسون كل ما يتعلق بالحرم الشريف ويحيطونه بهالة من الروحانية الغامضة والورع، وقد امتد ذلك ليشمل حتى الحمام الذي كان يحط في صحن المسجد فيطعمونه ويسمونه حمام بيت الله، ولا يُسمح بقتله، وكانوا يفسرون مسارات طيرانه وأهدافه التي يصل إليها، وكذلك الأوقات التي يطير فيها على أنها خير أو شر لهم.

كان هؤلاء الأغاوات خُدّام البيت الحرام يسكنون حقًا في مساكن جميلة تمتد بطول شارع الإحساء، تحد المسجد من الجهة الشمالية الشرقية. تأكدت لي معلومة لم أكن لأصدقها؛ وهي أن الحريم هن من يملكن الكثير من هؤلاء الأغاوات، وقد يعتقد البعض أنهن امتلكن بذلك الكماليات التي لن يستفدن منها في شيء. كان يوجد بالإضافة إلى بيوت الأغاوات في هذا الشارع مباني حكومية أخرى كثيرة، ففي ناحية الجنوب الغربي

كان يوجد قصر كبير كان في الأساس جامعة وصار الآن استراحة لكبار الموظفين في الحكومة التركية، حيث اعتاد الباشا الذي كان يقود قافلة الحج السورية أن يمكث فيه في فترة الحج. وغير بعيد عن هذا القصر يوجد مبنى آخر مرتفع، كان في أحد الأيام بيت الفقراء وأصبح حاليًا استراحة لاستقبال أهم شخصيات الحجاج، فيما عدا ذلك انتشرت في هذا الشارع منازل يمتلكها أشراف مكة؛ وهم نسل الرسول الذين بنوا بيوتهم وسكنوا عند المسجد الحرام. كان بعضهم يقوم بحراسة الكعبة ويحصل مقابل ذلك على مكافآت كبيرة من الحجاج الفقراء المنهوبين. كانت لهؤلاء الأشراف سمات وملامح البدو، وهي الرأس الطويلة العالية، وشعر اللحية القليل الناعم، والوجه الصغير، والأنف المعقوفة، والأعين البارزة؛ لكنهم كانوا أكثر قوة وصلابة وأجسادهم أكثر امتلاءً من أقاربهم الذين ينحدرون مثلهم من نفس الأصل وهم البدو ؛لكن قلّما تلحظ بين هؤلاء الأشراف تلك السمنة والبدانة المنتشرة بين الأتراك وأهل باقي البلاد الشرقية، فالفرق بين البدوي وشريف مكة يعادل الفرق تقريبًا بين الخيل التي تتغذى جيدًا في الإسطبل والجواد العربي الحر المنطلق شبه البري. إن الأشراف الذين كان رئيسهم كل مرة هو شريف مكة يعتبرون سلالة مغرورة للغاية، وترى باقي العالم عبيدًا وُلِدوا لخدمتهم، وقد دعم نظرتهم هذه توقير وإجلال الحجاج لهم. كان الأتراك يرونهم سادة سياسيين؛ لكنهم يحتقرونهم جدًا في السر، فالسلطة التركية في مكة لم تكن لها هيبة وأقل قيمة من وضعها في مصر، حيث يمارس العثمانيون طغيانهم ويفرضون سيادتهم. ويرى شريف مكة نفسه كما يراه غالبية المسلمين أفضل وأشرف إنسان على وجه الأرض، ويعتبر كل المسلمين الأصل العربي الأصيل أفضل سلالة بشرية؛ ولأن الأشراف هم أشرف العرب وأفضلهم؛ لذا يعتبرون من أفاضل ومن علية الطبقة الأرستقراطية.

قد يندهش المرء من أن هؤلاء الأشراف لهم مشاعر كباقي البشر تجاه أنفسهم و تجاه الآخرين، فهم يحتقرون باقي المكيين، الذين يعتبرونهم دخلاء ومغتصبين لمكة، ويطلقون عليهم "مستوطنو مكة"[1]؛ لأنَّ باقي الشعب في مكة يكاد يتكون من الغرباء وأبنائهم

١ بقايا الحجاج. (المراجع)

الذين استوطنوا مكة، وأصبحت لهم عاداتهم المحلية الخاصة بهم وملابسهم ولقبهم الهائل المميز لهم "المكاوية"، بينما المكيون الحقيقيون هم الأشراف الذين لا يزيد عددهم عن ألف فرد.

إذن فإن قدر بعض المدن أن تصبح مقرًا لاستيطان الغرباء وتوطنهم فيها لم يكن من نصيب مكة فقط؛ ولكن شاركها في هذا الوضع مدن أخرى رئيسة بها أماكن دينية مقدسة سواء في الشرق أو في أوربا، على سبيل المثال في مدينة روما نجد جزءا ضئيلا جدًا من الشعب أصله روماني حقيقي، وفي القدس قلّما نجد عائلة استوطنتها وعاشت بها أربعة أجيال، أمَّا في المدينة الرئيسة الأخرى للإسلام وهي المدينة المنورة فإن الوضع لا يختلف عما هو عليه في مكة منذ زمن بعيد. ولكن الأشراف كانوا يحاولون منذ قديم الزمان منع التزييف ووقف انتساب الغرباء أنفسهم لهم وللمكيين عامة؛ لأنهم كانوا يستفيدون من نسب أنفسهم وأطفالهم للمكيين؛ لأنه في كثير من الدول تُمنح العطايا والمميزات للمكيين؛ لذلك صار من أعرافهم ختم الأطفال حديثي الولادة بثلاثة شقوق على كل وجنة، وهي عادة استمرت حتى اليوم. ولإزعاج الأشراف قام كل الغرباء الذين استوطنوا مكة بتقليدهم وختم جميع الأطفال الذين وُلدوا في مكة بتلك الشقوق الثلاثة في وجوههم، حتى أضحت تلك العلامة بلا قيمة ولا تعني بالضرورة أن حاملها قد وُلد في البلد الحرام؛ لكن الغريب ما زال يرى في هذه العلامات دليلًا على أن هؤلاء أطفال البلد الحرام الذين يتمتعون بتقدير وشرف كبيرين في جميع أنحاء العالم الإسلامي. أمَّا الأشراف فقد كان لا أمل في أن يعتبروا هؤلاء الأطفال من الأصول غير المكية كأنهم مكيين ومساواتهم بهم، حتى ولو أن أسلافهم كانوا قد استوطنوا مكة قبل عشرين جيل. فهم يعتبرون أنفسهم مميزين عن غيرهم، ويطلقون على أنفسهم اسم المكيين الأصليين وما عداهم هم الغرباء. ففيما يتعلق بالنسب والأصل كان الأشراف متعصبين بلا هوادة، ولم يكونوا مستعدين لإظهار أي تعاطف في هذه النقطة وإطلاق لقب "مكي أصلي" على الأطفال الذين وُلدوا في مكة حتى لو أن أمهاتهم أتين إلى مكة قبل ولادتهم بأشهر قليلة. لقد أدى ذلك إلى أن الأشراف كانوا يحتقرون باقي أفراد

الشعب وينظرون إليهم على أنهم أسوأ العوام، فلا يتعاملون معهم ويتجنبون التعاملات العميقة والزواج منهم، وقد قطعوا كل إمكانية لصلات القرابة مع نسل هؤلاء الغرباء الدخلاء وعاشوا منعزلين بمفردهم عن الجميع من أجل خدمة بيت الله الحرام فقط، التي توارثوها فيما بينهم، واشتغلوا بتجارتهم واحتكروا أعلى مناصب خدمة الحرم لهم؛ بينما كان الأغاوات يقومون بالوظائف الدنيا في هذه الخدمة. والعجيب أنهم لا يمانعون من الزواج من الزنجيات، ويتركون النساء ذوات البشرة البيضاء؛ مما ترتب عليه بمرور الأجيال اقترابهم من جنس المولاتو الذي يختلف عن أقاربهم البدو، ويرجع ذلك إلى لون البشرة الفاتح للأمهات العربيات.

أهمل الأشراف إيواء الغرباء وتركوا هذا الأمر غير الجدير بهم أن يقوموا به لباقي المكيين من عامة الناس. ولأن خدمة البيت الحرام لم تكن متوفرة لكل شريف، والذي لا يستطيع العيش من خلال الوجاهة والأرستقراطية؛ بل يحتاج إلى كسب العيش بوسائل دنيوية، فهو لا يجد نفسه جديرًا سوى بإدارة المشاريع التجارية الكبيرة.

يدير كثير من الأشراف متاجرهم سواء في مكة أو في مرفأ جدة، التي يدخل عن طريقها عُشر السلع التجارية إلى البلد الحرام، بعضهم كان ثريًا جدًّا، ولم يتحدث أحد أبدًا عن الثروة الكبيرة الخاصة بشريف مكة الذي كان يملك تقريبًا نصف مكة والبلاد المجاورة لها. أمَّا البعض الآخر من الأشراف فيعيشون في حالة متوسطة متواضعة قد تصل إلى حد الفقر؛ لكن لا يمنعهم ذلك من إحساسهم بالفخر والزهو بأصلهم، وبأنهم لا يزالون أفضل الأشراف، وأفضل من المكيين الأثرياء. بعد أن تجولت مع محمد في شارع الإحساء بطوله، أردنا أن ننزل على رغبته وهي الذهاب إلي احد المقاهي في نهاية الشارع من ناحيته الشرقية، حيث تواجدنا فجأة في وسط جمع غفير من البدو. كانت أجساد هؤلاء البدو نحيفة جدًّا،؛ وعلى الرغم من كوننا في فصل الصيف حيث يتغذى هؤلاء الرجال بشكل رئيس على الحليب، فقد بدا عليهم الضعف والهزال؛ لكن في الحقيقة إذا دعته الحاجة إلى المصارعة والشجار فسوف يخرج منها منتصرًا؛ لأننا نحن الأوربيين ننخدع في الشخص النحيف عندما نرى عضلاته الهزيلة؛ لأننا اعتدنا أن نرى أن الرجل القوي يكون دائما

ضخم الجثة، و لن يكون الحال هكذا أبدًا عند البدو حتى وإن تغذوا جيدًا في فصل الشتاء. كان غالبية سكان السهوب هؤلاء أو بدو البادية كما يحلو للقارئ أن يسميهم (لأن موطنهم عبارة عن منطقة وسط بين الصحراء والسهوب) الذين تواجدوا في المقهى ينتمون لقبيلة بني فحم (Beni Feham) التي تقيم في الأراضي المنخفضة جنوب مكة. حقًا إنه أمر غريب أن اسم هذه القبيلة بني فحم ليس مشتقًا من أصل نسبهم؛ لكن يبدو أن هذا الاسم مشتق من مهنتهم، فهم أبناء الفحم أي الذين يبيعون الفحم، وهي المهنة التي احتكرها أبناء تلك القبيلة فقط. كان مشهورا عن بني فحم إتقانهم التحدث باللغة العربية الفصحى، ولقد كان هذا الأمر مثيرًا جدًّا لي لأن أتحدث مع نفر منهم؛ لكن للأسف كان مستواي في اللغة العربية الفصحى لا يسعفني لأن أصل لهذه الدرجة من إتقان اللغة العربية الفصحى والتحدث بها بطلاقة؛ لأن ما تعلمته في الجزائر كان اللهجة الجزائرية الدارجة؛ وعلى الرغم من أني أتقنت بعض التعبيرات والأساليب اللغوية أثناء رحلتي القصيرة للحج إلى مكة؛ وكذلك لأني كنت استخدم القاموس (القاموس الوحيد في اللغة العربية الذي جمع مؤلفه مفرداته أثناء جولاته في مناطق قبائل البدو)، استطعت أن أفهم كثيرا من التعبيرات العربية الفصحى من أفواه البدو، التي كانت تخص نواحي أخرى. إنها إحدى السمات المميزة للغة العربية أنها تُنطق على وجه أفضل من ساكني القرى؛ أي أن التعبير المكتوب يَنطقه أهل القرى أوضح من أهل المدن، والعكس صحيح تمامًا عند ملاحظة باقي اللغات.

كان هؤلاء البدو يتكلمون اللغة العربية الفصحى، لغة القرآن، فيمدون الحروف المتحركة التي تظهر عليها علامات المد في الكتابة فقط؛ بينما الذين يتحدثون اللهجات حتى في أكثر المدن تحضرًا، لا يمدون حرف المد أو ينطقونه بطريقة غير صحيحة، فعلى سبيل المثال يوجد في اللغة العربية ثلاثة حروف متحركة هي الألف والياء والواو، في اللهجات تُنطق الألف التي لا يجب أن تُمد ياء خفيفة، أما البدو فيقولون هنا بالنصب (A-Laut) وهي حركة تظهر في الكتابة، بدلا من كتابة حرف الألف. وهذا المثال تقاس عليه باقي الحروف. فكل العرب باستثناء البدو الذين يتحدثون الفصحى بطلاقة، ينطقون اسم النبي محمد

(Mohamed) أي بكسر الميم وهي طريقة خاطئة نطقًا وكتابةً، والصحيح محمَّد (Moha-mad) بفتح الميم، لأنه في اللغة العربية لا توجد القيمة الصوتية (E-Laut). لقد بحثت طويلًا دون جدوى عن عربيّ يستطيع نطق اسم النبي بطريقة صحيحة كما يُنطق، والآن أوشكت أن أصدق أن حالة النصب لها طريقتان في القراءة، في بعض الحالات تُنطق ألفًا (A) وفي حالاتٍ أخرى ياء خفيفة (E)؛ ولكنني اقتنعت فجأةً بالعكس وسررت به، حينما سمعت كلمة محمَّد (Mohamad) من أفواه البدو وليس محمِّد (Mohamed).

كان سماع اللغة العربية الفصحى من هؤلاء البدو ومحاولات التحدث معهم بالنسبة لي ولأسماعي وليمة لذيذة، تمنيت البقاء هنا لساعاتٍ وأيام أطول كي أستطيع الإنصات إلى الحروف والكلمات من أفواه هؤلاء البدو. أمَّا رفيقي فلم تصبه هذه الحماسة اللغوية مطلقا، فقط كان يقطع عليَّ تحمسي وولعي بلغتهم، حيث لم يقدر بأي حال من الأحوال هذه اللغة العربية الفصحى الجميلة النقية من الأخطاء؛ بل وقع في الخطأ الذي وقع فيه تقريبًا جميع المسلمين الذين يعتقدون أن طريقة نطقهم للعربية هي الأفصح والأصح، مثلما كان يفعل أيضًا الجزائريون الذين كانت لهجتهم حقًّا في كل مكان سيئة وتوصف باللهجة الأكثر رطانة. أراد محمود أن يعجل بانصرافه من هذا المكان، وكان عليَّ أن أتبعه حتى لا أبقى بمفردي مع هؤلاء البدو البدائيين قساة القلب الخبثاء؛ على الرغم من لغتهم العربية المميزة.

أفصح محمود المنافق الآن فقط عن قصده الحقيقي من هذه النزهة معي؛ على الرغم من عدم ذكر مقصده حرفيًّا بالكلمات، ولقد أجاد فن التّصنع والإخفاء الخاص بالمسلمين، كنت قد خمنت قصده منذ وقت طويل وهو زيارة أحد الأحياء التي تجذب الكثير من الشباب العرب؛ وعلى الرغم من أن أي أوربي قلّما يستوعب أيّة جاذبية يقصدها العرب هنا؛ لأن الجمال الذي يدَّعونه قبيح للغاية لدرجة أن الإنسان الذي يبحث هنا عن الجمال سيصيبه الفزع والهلع.

تجولنا مرة أخرى في شارع الإحساء، ومررنا بآبار المياه العامة، ثم انعطفنا نحو شارع المؤتة الذي يمتد حتى شارع المعلاة الذي تنزهنا فيه بطوله. الآن وصلنا إلى نهاية الجهة

الشمالية للمدينة حيث يبدأ الحجاج الحج على عرفة، وعلى يسار الشارع كانت توجد خزانات مياه السوريين وحي السليمانية الذي أسكن فيه، بينما كانت توجد على الجانب الأيمن خزانات مياه المصريين وبجانبها "أحد الأحياء السرية". اتجهنا نحوه وسريعًا وجدنا أنفسنا في إحدى الحواري، التى بها بيوت منخفضة قديمة نوعًا ما. كان يبدو أن الدور الأرضي هو المسكون فقط وخاصة من النساء اللاتي جلسن في أكشاك تشبه المحاريب على البساط المفروش على الأرض، أو على الحصيرة المصنوعة من القش ويعرضن مفاتنهن لإغراء مَن ينظر إليهن من باب الأكشاك نصف المفتوحة؛ لأنه لا يُسمح بفتح كل الباب في هذه المهنة في مكة الفاسدة.

كانت أبواب جميع هذه الأكشاك نصف مفتوحة حتى يمكن للمرء مشاهدة الحسناوات داخلها من خلال فتحة باب الكشك، وعندما أقول النساء "الحسناوات" فهذا بالطبع هنا فقط ومراعاةً للجنس الأنثوي، الذي يُطلق عليه في جميع أنحاء العالم "الجميل"، والحمد لله أنه كذلك غالبًا؛ لكن بالطبع توجد استثناءات محزنة. ولخيبة أملي رأيت أنا هنا في مكة هذه الاستثناءات بل عددا ضخما منها، وعلى وجه الخصوص في هذا الحي، الذي لا يسكن فيه حقًا الأشخاص الأكثر رقة ونعومة والذين يحصلون على مبالغ نقدية كبيرة في مقابل ممارسة هذه المهنة. وبعد أن مررت على هذه الأكشاك المائة والحسناوات اللاتي يبعن أنفسهن بداخلها، أدركت أن غالبية هؤلاء النساء قبيحات ولسن جميلات. ولكن يا له من قبحٍ غريب! إنه لشيء غير معروف لنا تمامًا في أوربا وإذا حدث ذلك، فلن يفكر أحد في أنهن جميلات ويقصدن الإغراء.

ربما يعتقد البعض أنهن يقدمن عرضًا في النحافة والهزال مثل المعرض السنوي "الهيكل العظمي الحي" الذي اعتدت السفر إليه، فالشرق أرض المتناقضات الغريبة والمبالغات المفرطة. فالعربيّ إما أن يكون بخيلًا أو مسرفًا ولا يعرف الطريق الوسط، وهو أن ينفق موفرًا بعقلانية، وكذلك المرأة العربية إما أن تكون بدينة جدًا أو نحيفة كالهيكل العظمي، وقلّما وجدنا بائعة هوى تتحلى بالجسد السليم الرشيق.

قد يبدو الأمر متناقضًا عندما أذكر صفات تخص الجسد كالبدانة والنحافة مع الصفات الأخلاقية كالبخل والإسراف في نفس الموضع؛ لأنه بصورة عامة يكتسب المرء الصفات الأولى بعيدًا عن إرادتنا في ذلك، ومن المؤكد أن هذا الأمر لا ينسحب فقط على النساء العربيات، اللاتي اعتاد بعضهن الأكل بشراهة كما يشتهين، مما جعل غالبية الشرقيات يصلن إلى البدانة ويفضلنها، بينما يفضل الأخريات الطعام غير الصحي، لكنه حلو المذاق، وبذلك يكون السبب في تلك الحالة من الهزال والنحافة التي يصلن إليها، إلى أن يصبحن هيكلًا عظميًّا. ومن الطبيعي أن أسلوب حياة هؤلاء الشرقيات لا يصلح كي يظل الجسد سليمًا قويًّا؛ بل على النقيض من ذلك يكون به الكثير من العلل والأمراض العضال، التي لا تُشفى، ويصبح مصير هؤلاء الضحايا التعيسات هو الموت المبكر المثير للشفقة عليهن. علاوة على المغالاة في التعرض لحمامات البخار مما يجعل بشرتهن خشنة تفقد وظيفة الإحساس بها. كان يتمتع معظم هؤلاء الحسناوات القبيحات ببشرة صفراء أو قمحية اللون، وشعر طويل خفيف مدهون بالزبد، وبملامح طويلة رقيقة تكاد تكون شفافة، غالبًا أنف طويلة مقوسة، أعين بها حول، جسد شاحب هزيل، ويدان تبرز عظامهما نحيفتان مخضبتان باللون الأحمر والأظافر مطلية باللون الأسود، والأقدام حافية خشنة، هذه هي الصفات الخارجية التي كانت عليها غالبية هؤلاء الحسناوات القبيحات ساكنات هذه الحارة، واللاتي كن يبذلن جهدًا كبيرًا كي يلفتن الأنظار إليهن، ويردن كلهن تقريبًا إقامة علاقة حميمة مع عشاقهن؛ لكنني لم أنظر سوى لاثنتين أو ثلاثة منهن، تمتعن نوعًا ما بشيء من الجمال الخارجي.

على أية حال كان يسكن شِعب عامر هذه الطبقة الدنيا فقط من النساء اللاتي يحصلن على أقل أجر؛ لكنهن الأكثر عددًا هنا. كنت أتمنى لو رأيت نساءًا أخريات ينتمين إلى طبقاتٍ أفضل؛ لأني لا أشك قيد أنملة في أنه يمكن أن أجد بينهن نساءًا جميلات يمكن مقارنتهن بحنيفة الجميلة في جدة، فبالتأكيد لا يسكن في هذه الحارة المخصصة لباقي رفيقاتها في هذه الطبقة الاجتماعية والأقل منها؛ لكنهن متفرقات في المدينة، وبناءًا على ذلك لن يتم العثور على منازلهن بدون مساعدة أحد الأدلّاء، فهن يعشن الآن في موسم

الحج حياتهن الخاصة، منعزلين تمامًا، ولكن ليس بسبب أنهن اعتزلن حرفتهن تلك، فقط لأنهن عقدن صفقة راسخة في أثناء موسم الحج مع الحجاج ليصبحن زوجات مؤقتات لفترة الحج. لقد كان شيئًا مثيرًا للضحك رؤية كيف يمثل هؤلاء دور "الزوجات الشريفات"، وأية عروض يقدمنها في هذا اليوم لهذا الشخص مما يجعلهن يحولن حرفتهن، التي يمتهِنَّها علانية، لعلاقة يقمن بها في السر لأجل شخص واحد. عُرض عليَّ الكثيرات من هؤلاء الفتيات اللاتي يرتدين أغطية رأس وأثواب سميكة، يأتين في مشية كلها وقار، يتصرفن بعفة واحتشام، عيونهن منكسرة، يخطين خطوات بريئة؛ لكنهن يتصرفن ويظهرن على النقيض من ذلك تمامًا في أوقات أخرى.

كان معظم النساء اللاتي يسكن في شِعب عامر من البدو؛ لكنهن لسن بنات القبائل المشهورة من علية القوم الأحرار، الذين يتركون بناتهم يسقطن بهذه الطريقة؛ لكنهن الأطفال التعساء أولاد القبائل المنحطة المفككة مثل الفتيات اللاتي أتين في الأربعين سنة الماضية جراء الصراع والتناحر بين القبائل والأحزاب من البدو. ومن ناحية الأمور المالية كان ما يُدفع لهن في هذه المهنة ضئيلًا جدًّا؛ لأن النساء المسلمات اعتدن على ذلك الأجر الضئيل في هذه المهنة؛ ولأنهن الشقيات رضين بذلك، فهو خير دليل على أنهن لم يجدن طريقة أخرى لكسب العيش. لقد أسرعت بالخروج من هذا الزقاق الذي يعج بالبؤس الأخلاقي والجسدي، وتركت رفيقي هنا لأن ذلك الشاب المصري الذي أثاره هذا القبح المرعب لن يهدأ ويصل للمزاج البارد.

في شِعب عامر، الذي كان بالنسبة لي مكان الدنس والرذيلة، كان يسكن أيضًا باقي أعضاء قبيلة قريش أصحاب الحظ السيئ، تلك القبيلة التي نالت شهرة واسعة، والتي انتمى إليها ذات يوم أسياد مكة وعظماؤها، والتي ينتهي نسبها مباشرة إلى إسماعيل وإبراهيم، والذي ينتمي إلى نسبهم النبي محمد شخصيًّا.

وفي جولة أخرى برفقة المطوِّف صادق وابنه اللذين لا يفارقاني (لم يتركني صادق وابنه أبدًا إلا عندما كنت في محل مراد التتاري؛ لأنهما لم يخافا آنذاك أن يستحوذ عليَّ طواف آخر غير صادق) في هذه الحارة، أراد صادق أن يريني عائلات أخرى تنتسب

إلى قبيلة قريش وتسكن هنا؛ ولكن كيف يعيش أنجال هذه السلالة الشريفة في هذا الفقر والتدهور؟ يلبسون الخيش لتغطية أعضاء أجسادهم الهزيلة، والقذارة والقمامة تملأ عششهم الفقيرة، لكن بالرغم من هذا الوضع المتدهور فإني استشعرت فخرًا بهذا العرق الشريف، خاصةً عند النساء اللاتي ظهرن نوعًا ما بائسات، بدون غطاء الرأس، وبدين ككائنات هزلية تشبه الساحرات. أثارت رؤيتي لهذا المشهد شفقتي عليهم، حتى أني أردت أن أعطي هؤلاء الفقراء مبلغًا صغيرًا من المال، عندما أخبرت صادق بما أنوي، عارضني ونصحني ألاَّ أفعل هذا الأمر، فأوضح لي أن هؤلاء الناس لن يذهبوا للتسول ولن يقبلوا الصدقات مطلقًا، ويعتبرون حتى صدقات المسجد فضيحة وذلة لهم حتى لو من شريف مكة. لكني لم استطع مقاومة رغبتي في مساعدة رب أسرة يجلس حوله عشرة أطفال نصف عراة، على أجسادهم الوسخ والقذارة وأعطيته ريالًا. كان قراري هذا مشهدًا قيِّمًا جدًّا بالنسبة لي، فالإيماءات والتعبيرات التي ظهرت على وجه هذا القرشيّ لا مثيل لها، فقد جسدت صراعًا داخليًا بين الجشع الفطري في العرب وفخره وزهوه بأصله ونسبه العريق، ولم يحرز أحدهما نصرًا على الآخر. توهجت عيناه من الطمع وحب المال الذي يتميز بهما كل عربي أصيل بجانب شهواتهم التي لا يمكن التنبؤ بها. مهدت الومضة الأولي من الفرحة بعرضي هذا نفس الأب كي يقبل المبلغ المعروض؛ لكنها ظلت مكبوتة داخله، حيث داهمه الفخر والزهو بنسبه العريق، ونبهه أنه لا يليق به قبول هذا المال من أول غريب يتميز هو عليه بأنه هو القرشي الأصيل الذي يرى أن هذا الغريب ليس جديرًا بأن يناوله حتى الماء. وأخيرًا كانت الغلبة للرغبة في المال، فلو كان المبلغ المعروض ضئيلًا لانتصر شعوره بالفخر والكبرياء لنسبه وأصله؛ لكن الريال عند البدو ليس مبلغًا قليلًا، فعائلة كاملة يمكن أن تعيش بهذا المبلغ لمدة أربعة عشر يومًا أو أطول؛ لذا كان الصراع الداخلي للأب بين الحاجة للمال وكبريائه غير متكافئ حتى يحل أحدهما محل الأخر ويلغيه. أخذ القريشيّ الريال وهو يقول: "سوف آخذه منك، باعتبارك أمينًا على كنوز الله."، ذلك الرد الذي يخفي في طياته كل شعور للمسلمين بالفخر والتباهي. وبناءًا عليه فهم لا يشكرون

صاحب العطاء والصدقة؛ بل خالقهم الذي يؤمنون به وبقضائه وقدره، الذي يُقدر لكل مسلم مصيره.

أريد أن أفصح عن شكي على أية حال في أن هذه العائلات صغيرة العدد التي تنحدر من قبيلة قريش، والتي تسكن في أفقر حواري مكة وأكثرها بؤسًا، تعتريهم الحيرة والريبة عندما يذكرون أصلهم ونسبهم بلا عيب أو نقيصة. كما أنه لم يستطع أيّ عربي أن يجيب على أسئلتي التي طرحتها آنذاك وهي ماذا صارت إليه أقوى قبيلة وأكثرها سيادة في مكة عبر القرون؟ ومتى فقدت سيطرتها وحكمها كوحدة لها هيبتها آنذاك؟ كيف ولماذا وصلت هذه القبيلة لهذا الحال المتدهور؟ يبدو أن تاريخ القرشيين بعد محمد لم يُدون بعد. كان يوجد في مكة أثناء وجود بوركهاردت خمس أو ست عائلات فقط من قبيلة قريش ومعظمهم كانوا فقراء جدًّا ويعملون في خدمة المسجد الحرام؛ لكنني لا أعتقد أن هذه العائلات التي رأيتها أحفاد ما رآه بوركهاردت، حتى وإن عمل هؤلاء أيضًا في خدمة المسجد الحرام. ويعتبر البعض شريف مكة وباقي الأشراف من القرشيين لأن نسبهم ينتهي إلى النبي، والذي من المعروف أنه أيضًا قرشيّ. فيما بعد استحسنت النساء لقب شريف لأبنائهن، وغدا الاسم ليس دليلًا على أصل الرجل الذي ينتمي لقبيلة قريش.

قادني صادق من هذا الحي الفقير شِعب عامر إلى سوق الرهسة الكبير الذي يقع بين شِعب عامر وشارع السوق (شمال السوق). ولأن اليوم هو يوم السوق، فقد استطعت أن أرى في هذا المكان عددًا لا بأس به من البدو يبيعون منتجات محلية صُنعت في وطنهم. هنا عاصر هؤلاء البدو، أبناء السهول والجبال والصحراء، العرب الأحرار، الذين لا يسيطر عليهم أي حاكم ولا يستسلمون للطغاة، يتسمون بالعنف والجسارة، الرجولة والزهو وينعمون بحرية البراري؛ على الرغم من الفقر ومصاعب الحياة، حياة الترف لسكان المدينة، ولكنهم يفضلون بيئتهم وحياتهم عن حياة سكان المدينة الذين يرونهم عبيدًا. كانت ملابسهم وزينتهم تبدو نسائية الشكل ومنحطة الذوق، ويلفون حول أجسادهم أقمشة درابيه (مكشكشة) خلابة اللون، من الكتان أو القطن، وقلما ارتدوا أثوابًا مخيطة يغلب عليها اللون الأزرق الفاتح وتتكون من قميص بكم بسيط من القطن

يُطلق عليه اسم طوبة، ومعطف من الصوف الخشن اسمه البينش، يُلبس فوق القميص مثل التُّوجة في روما القديمة، وهذا كل ما كانوا يرتدونه. أمّا بخصوص القدمين فقد استغنى بعضهم عن لبس أي شيء بهما حتى الصندل الخفيف. كانت رؤوسهم عارية تمامًا وانسابت شعورهم الطويلة الكثيفة التي لم تُقص مرة واحدة من الجماجم غريبة الشكل على أكتافهم النحيفة. هذا الشعر الطويل المنسدل هو ما يميز البدو عن باقي المسلمين، الذين يتميزون بعادة قص الشعر، جعلني أتذكر كلمات بلينيوس (Plinius) التي يقصد بها العرب الأصليين أسلاف البدو، الذين عاشوا هنا قبل ألفي عام وكذلك ذريتهم حتى اليوم. كان شعرهم دائمًا متسخًا وحتى عندما كان يُغسل لم يغسلوه بالماء الذي كان نادرًا وثمنه غاليًا؛ بل بالبول[1]، مما كان يجعله بالطبع أكثر قذارة، وأحيانًا كانوا يدهنون شعورهم بالزبد (ليس بالزيت، الذي لم يكن معروفا للعرب القدامى)، فيكسوه الغبار والوسخ، ويؤدي ذلك إلى نمو غابات صغيرة تعيش فيه ولكني لن أذكر أسماءها هنا بالتفصيل. كانت شعور أغلبهم ناعمة مثل غالبية البدو المنحدرين من قبيلة ذوي بركة الذين اشتهروا بأنهم من الأشراف. رجال هذه القبيلة الذين يعيشون في وادي فاطمة ووادي ليمو، بالقرب من مكة، أقوياء البدن وأشداء كما رأيتهم بنفسي في السوق، وكما هو حال أغلبية سكان النواحي القريبة من مكة، فهم أكثر صحة وقوة من ساكني النواحي البعيدة وخاصة أهل الصحراء الذين يعانون من فقر الإمكانيات المعيشية.

أمّا ما يخص طريقة حياة وأخلاق البدو العرب أهل الأصالة، فلم يتغير أيّ شيء مطلقًا على مر القرون. فلا يزالون يتمتعون بفضيلة الكرم التي توارثوها أبا عن جد وتقديس حق الملح، أي عدم اضطهاد الأشخاص الذين تقاسمت معهم الطعام في يوم من الأيام طالما لا يزالون يقيمون في ديارهم، حتى وإن غدوا ألد الأعداء. ولأن العرب ساكني المدن بعيدون عن تنفيذ حق الملح هذا والإبقاء على عهده؛ لذا كان البدو يطلقون عليهم "خائنو الملح" أي "خائنو حقوق الكرم وحسن الضيافة" وهم يستحقونها عن

[1] ربما يقصد المؤلف هنا بول الإبل الذي اعتاد البدو قديمًا على استخدامه لعلاج الشعر، ويشترط أن تكون الناقة البكر أو أي حيوان آخر مأكول اللحم، لأن بوله يكون طاهرا على الراجح طبقا لأقوال أهل العلم. وفي العلم الحديث كُتبت أبحاث كثيرة عن التداوي بألبان وأبوال الإبل. (المترجمة)

حق، وخير دليل على ذلك قصص سلب ونهب الحجاج وبالأخص الحاجّات التي حُكيت لي، والتي عاصرت منها قصص حمدون وزوجاته المؤقتات.

يشترك البدو العرب فيما يتعلق بالروابط الاجتماعية في خصائص كثيرة مع قبائل الجزائر والمغرب، خاصةً فيما يتعلق بالجَلد والعزم، مما يجعلهم لا يزالون يحافظون على عادة الثأر التي توارثوها من البربر والتي لن ينفكوا عنها أبدًا، ويعملون على غرسها في نسلهم وذرياتهم عبر الأجيال، على هذا النحو تتشابه القبائل ولكن الشعوب تختلف بعضها عن بعض من ناحية الوفاء للأصدقاء والأخوة الزائفة[1]. فمثلما هو الحال في قبائل الجزائر حيث يدافعون عن هذا الأخ غير الشقيق ويقفون بجانبه في حياته ويساعدونه ويثأرون لموته، فكذلك يعرف البدو العرب علاقة مماثلة يطلقون عليها الرفقة؛ فالرفيق يجب عليه أن يساند أخاه في حياته ومماته ويعتبر أقاربه وأهله كأهله هو نفسه، ويرث من بعده عداء الدم والثأر وهذا كله يعمل على جسامة وتضخم مجال عادة الثأر الموروثة.

يختلف البدو أيضا في نقطة أخرى عن العرب ساكني المدن، وهي النظافة والطهارة، فهم لا يتركون الحيوانات النافقة بالقرب من منازلهم، ويدفنون الموتى بسرعة عقب الوفاة، ويحافظون على الاغتسال بانتظام، ولكن للأسف كل ذلك يزيد من قذارتهم وليس طهارتهم بسبب غسل شعورهم بالبول والذي يُعد طبقًا للقرآن من النجاسات.

أحضر بدو قبيلة لهيان الذين يسكنون بين مكة وجدة الجمال والأبقار لبيعها في هذا السوق. بجانبهم رأيت بدوًا من اليمن، كانوا يبيعون الخراف. كان ينتمي أغلب هؤلاء اليمنيين لبني الجهادلة وكان لهؤلاء شعرٌ طويل مموَّج ينسدل في خصلات مجعدة، يشبه شعور النساء الإنجليزيات في أوربا. كما كان يوجد عدد كبير من أفراد القبيلة القوية عسير يلهون هنا وهناك بين الجمال والأبقار والبغال والحمير والخرفان. كانوا رجالًا هَزيلين نِحافا ضِعافا، ملامح وجوههم طويلة دقيقة مدببة، لهم لحية خفيفة وشارب مقصوص، وعندهم كسائر باقي البدو بعض الشعر على الشفة العليا والذقن، بينما يعتبر نمو الشعر على الوجنتين أمرًا غير معتاد عندهم، ولا ينمو الشعر أساسًا عندهم في هذه

---

١ المقصود هنا ليست أخوة الزواج أو النسب ولكن ربما أخوة الدين أو الوطن أو الجوار. (المترجمة)

المنطقة. رأيت أيضًا في السوق أسرابًا من البدو ساكني الجبال حول الطائف، حيث كان يعرض بدو (هذيل) الماعز للبيع، والتي تُعد ثروتهم الرئيسة، أمَّا أفراد قبيلة (التوريك) المشبوهين التي تضم أكثر لصوص العرب، فكانوا يتجولون في أنحاء السوق، بينما كان يعرض أفراد (ثقيف) أعلاف الجمال والخيول للبيع.

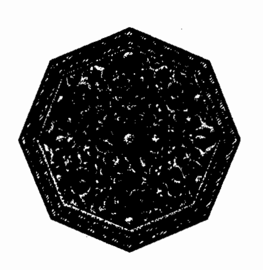
لم تكن الخيول تُباع في هذا السوق، ولا هنا في منطقة الحجاز، ربما في اليمن قليلًا؛ لكن سلالة الخيول العربية الأصيلة توجد حقًّا في نجد؛ لأنه في المناطق حول بغداد والعراق لا تُربي الخيول، وأكثر المناطق وفرة بالخيول هي سهول سوريا لا تعتبر من بلاد العرب. في مكة كان شريف مكة وبعض الأشراف الأثرياء، بالإضافة إلى بعض التجار ميسوري الحال، يمتلكون أحصنة للركوب؛ أمَّا البدو في النواحي المحيطة بالبلد الحرام فلا يملكون أيّ حِصان. كان الحصان هنا من الكماليات الكبيرة ويُباع بأثمان باهظة بالرغم من قرب نجد، أحسن موطن للخيل العربي من سوريا ومصر؛ لأنه في نجد تُربى أجود أنواع سلالات الخيل؛ لكنها ليست أعدادًا كبيرة، بينما في سهول سوريا وبلاد مابين النهرين يوجد العدد الأكبر من الخيول.

تعرفت على بعض هؤلاء البدو، الذين كانوا أصدقاءً لصادق مطوفي، على الأقل كما ادّعى ذلك هو. إلا أني سرعان ما عاينت الطريقة المزرية التي تعامل بها ساكنو الصحراء الأحرار مع المطوِّف الذي كانت مهنته أكثر خزيًا واحتقارًا، حتى أدركت أن تلك الصداقة تقع فقط من جانبه هو. فمن المؤكد أنه لم يأكل الملح معهم، أو ربما لا يرونه جديرًا بحق عهد الملح.

كان معارف صادق هؤلاء من القبائل المجاورة لمكة وقد دعاني أحدهم أن أزوره هناك في موطنه ولكني لم أستطع تلبية دعوته لسببين، أحدهما عدم أمان الطريق والآخر لأني قد أموت جوعًا عند هؤلاء الناس الطيبين؛ لأنهم في الصيف لا يجدون ما يأكلونه، وسيكون الأمر محرجًا لي عندما آكل طعامي وهم لا يأكلون.

أعتقد أن الرحالة الألماني، الذي يريد أن يتعرف على المناطق الداخلية لجزيرة العرب بالتفصيل، ينبغي أن يقيم علاقات جيدة مع البدو. فقط يجب عليه أن يتبعهم في كل

تقاليدهم وعاداتهم، ولا يتزحزح عنها قيد أنملة؛ لأن ساكني البادية لا يطيقون أدنى شذوذ أو حياد عن هذه الأعراف. والحق أنه يجب أن يعاصر معهم الحرمان والمشقة وبذل الجهد؛ لأن حياة البدو تقريبًا هي أكثر طريقة معيشة حرصًا ومشقة يمكن للإنسان أن يعيشها. كما أنهم ينامون قليلًا وفي أوقات غير منتظمة، في الشتاء يواجهون البرودة بالبقاء داخل أثوابهم المصنوعة من الكتان الرقيق وفي الصيف يمكثون تحت أشعة الشمس الحارقة ورؤوسهم عارية دون ضجر. ربما يستطيع أيّ أوربي احتمال هذه الحياة الخشنة معهم لوقتٍ قصير؛ لكنني أشك أنه يستطيع التأقلم مع هذه الحياة إلى الأبد.





الفصل الثامن عشر
واجبات أخرى في الحج

حالة الورع التي من المفترض أن أتحلى بها، الزيارة المتكررة للمسجد - الذهاب إلى المسجد الحرام في الليل - الخرافات عن إضاءة الكعبة - باب النبي - إضاءة المسجد - انطباع غريب عن المسجد - المكان حول الكعبة - الرواق نصف مضاء - الزيارات النسائية للمسجد - العودة للبيت في الشوارع المظلمة - كشك مدخني الحشيش - مناسبتان أخريان - السعي بين الصفا والمروة - الصلاة - السعي - جبل المروة - السعي سبعة أشواط - جبل المروة - آيات القرآن عن السعي - عادة وثنية قديمة - هيكلا الصنمين - الأصل الوثني لجبلي الصفا والمروة - العمرة، الحج الأصغر - صخرة أبي لهب - لعنات القرآن - كنيسة العمرة - القُدَّاس والصلوات - عودة الحجاج إلى مكة.

لو كان عبد الرحمن بن محمد السكيكدي قد اكتفى بالتجول فقط في شوارع مكة وزيارة الأماكن سيئة السمعة والمثيرة للاهتمام له، وتدوين ملاحظاته عن الناس الذين يقابلهم، لكان عبد الرحمن هذا أكثر الحجاج سوءًا لا غير؛ لكنه ارتدى صفة المسلم الحق هذه؛ لأن الكثيرين من الحجاج الورعين المتدينين يرونه هكّذا، وهذا مغاير لحقيقته وكذلك هم أيضًا لم يكونوا بالورعين. ولكي يحافظ على سمعته تلك كان على الحاج الجزائري أن يشارك الآخرين في كثير من الشعائر الأخرى التي سيعرضها موجزة للقارئ فيما يأتي؛

لأنه يخشى أن يقع حتى الصابرون أنفسهم في الريبة والملل بسبب العرض المُطوّل لهذه الأشياء الفُكاهية والمسلية.

بداية يجب أن أذكر زيارتي المتكررة للمسجد، التي يقوم بها كل حاج طبقًا للعادات، خاصةً بعد أول قدوم له عند الكعبة؛ على الرغم من أن هذه الزيارة ليست واجبة. كانت المرة الأولى التي كررت فيها زيارة المسجد بعد ثلاثة أيام من وصولي إلى مكة؛ لأني مكثت هذه الأيام الثلاثة في بيت صاحب الفخامة حمدان بن حمدون صاحب النُزل الذي كنت أقيم فيه؛ لأنال قسطًا من الراحة والاستجمام، على خلاف ما قام به جميع الحجاج الآخرون الذين ذهبوا مساءًا مرة أخرى عند الكعبة؛ لأن زيارة المسجد يجب أن تتم في ملابس الإحرام غير المريحة على الإطلاق، وأنا لم أكن أرغب مطلقًا في ارتداء هذه الخرق مرة أخرى، فتحججت بالمرض وذبحت خروفًا من الخراف التي كانت تربيها عائلة حمدان تكفيرًا عن هذا الإثم، وبذلك استطعت أن استجم في البيت طيلة ثلاثة أيام في هدوء بعيدًا عن باقي واجبات الحج.

قد تقعون في الخطأ إذا توقعتم أن عدم زيارتي للمسجد الحرام ومكوثي في غرفتي للراحة ثلاثة أيام جعلني أستريح من صادق المطوِّف وعائلته وخدماتهم التي كنت في غنى عنها. أبدًا، فهؤلاء الانتهازيون وجدوا في شخصي البقرة السمينة التي يحلبونها كل يوم، فيسعدوني بزياراتهم الطويلة، فقد كانوا يأتون في أوقات الطعام بانتظام، ويتقاسمون معنا الطعام عند حمدان بشهية مفتوحة لا أحتاج للحديث عنها هنا. في بعض الأحيان كان يأتي شخصان وفي مراتٍ أخرى يصطحبون معهم أي مكيّ يصادفونه ويدّعون أنه ابن عمهم أو خالهم ويدعونه للأكل معي على طاولتي، ولم يكن في إمكاني الاعتراض حتى لا أكون في نظرهم خارقًا للأعراف والتقاليد. وقد ترتب على ذلك أني كنت أدفع لحمدان في كل الأيام بدلًا من تكاليف طعام شخصين تكاليف طعام أربعة أشخاص أو خمسة وأحيانًا ستة أشخاص، ولم يكن هذا المبلغ بالقليل؛ لأن حمدان كان يطلب تكلفة الشخص الواحد المبلغ الباهظ الريال (وهو يعادل ٢ جندر ونصف أو واحد ونصف تالر). هذا المبلغ الذي لا يُعد طبقًا للمفاهيم الأوربية مبلغًا كبيرًا؛ لكن طبقًا للحياة العربية يعتبر هذا المبلغ رأس مال

كبير تعيش منه أسرة طيلة أسبوع كامل. كانت مكة في أوقات الحج استثناءًا لا يجري على باقي الدول في الشرق فيما يخص أسعار ما يحتاج المرء شراءه، مما جعلني لم أعد أتعجب من تعرضي للسلب والنهب يوميًا على يد حمدان. لكن من حسن الحظ أني كنت مستعدًا ماليًّا لمواجهة هذه الاحتمالات أو الأصعب منها. فكل الأشياء التي أحضرتها معي لبيعها كي أظل في مهمتي كانت بالنسبة لي رأس المال الجميل الذي لم أستخدمه؛ لأني فقدت كل شيء أثناء هروبي من مكة ماعدا الأموال النقدية التي كانت معي.

في مساء اليوم الرابع بعد وصولي للبلد الحرام دخل إلى حجرتي المطوِّف صادق بن حنيفة، وأخبرني أن الأمر لم يعد يحتمل تأخيري زيارة المسجد في المساء، هذا إن لم أكن زنديقًا من أتباع عليّ، أو ربما أسوأ من ذلك. فأقسمت له بكل ما هو غالي كي أُبريء نفسي من تهمة أن أكون شيعيًا من أتباع عليّ، ولعنت كل فارسي وعلى وجه العموم كل أتباع الشيعة الزنادقة كما يوصفون في التعبيرات المتشددة لتحل عليهم اللعنة الأبدية. هذه اللعنات التي دللت على إيماني العميق أسعدت ابن حنيفة التي تُعد أمه من أولياء الله؛ ولأني كنت قد وعدته أن أزور المسجد معه في هذا المساء، وأن أعطيه البقشيش الذي يستحقه عن زيارة المسجد، طاف في مخيلته وعدي له فأسرع صادق بكل سرور بنزول الدرج؛ كي يحضر المصابيح التي بمساعدتها سيقودني ابنه حسن في الشوارع المظلمة؛ لأن إضاءة الشوارع في هذا البلد المبارك مكة لن تكون بنور الإيمان كما أعتقد. كما أنه من المعروف أن أحجار مكة بها لمعان بفعل قوى خارقة للعادة، وبالتالي لا فائدة من إضاءة الشوارع. ولأن معظم الحجاج من الأشرار؛ لذا لا يمكنهم رؤية هذا الضوء الخارق للعادة؛ لذلك يكتفون بضوء المصباح الأقل روعة، الذي يساعدهم بطريقة عملية في الوصول إلى المسجد الحرام.

عمّ الصمت في حواري مكة، التي كان يكسوها ضوء القمر الخافت، ووقفت الجموع الكئيبة لهذه المنازل المظلمة بجانب بعضها هنا، والتي لم تعد تشبه نوافذها المفتوحة هذه بدون زجاج في هذا الوقت من الليل النوافذ الأوربية؛ لكن كليهما في النهار يتشابهان. فهذه النوافذ بدون الزجاج وفي معظمها يغيب أيضًا مِصراع النوافذ، التي اعتدنا نحن

الأوربيين غلقها في الليل، قد ساهمت في أن تبدو لي هذه المنازل في الليل كفراغات كبيرة، وذكرتني بحطام القصور في العصور الوسطى. فقط بين الفينة والأخرى تسمع صوت خطوات أحد الحجاج يتقدمه شخص آخر يحمل له المصباح. وكلما اقتربنا من المسجد صادفنا عددًا أكبر من حجاجٍ آخرين، توافدوا كسربٍ من الأرواح، يلتحفون ملابس الإحرام البيضاء، هكذا بدوا لي في الظلام، وقد خرج بعضهم من أحد الأبواب بينما توافد سرب آخر من أحد الشوارع الجانبية.

وصلنا أخيرًا إلى الشارع الرئيس الإحساء، الذي تتفرع منه ثلاثة أبواب إلى المسجد، وهم الباب الذي تكرر ذكره فيما سبق وهو باب السلام، وباب النبي وباب عليّ، كما يوجد باب صغير جدًا لم يُذكر من قبل وهو باب العباس. دلفنا إلى المسجد من الباب الأوسط، وهو باب النبي، وسُمي هكذا لأن النبي كان يعتاد أن يدلف إلى المسجد من هذا المكان، وهو مُزين بنقوش فنية ومعمارية بديعة، وترتفع على هذا الباب إحدى المآذن السبعة للمسجد الحرام، وهي أكثرهن نقشًا وزخرفًة وفي نفس الوقت أصغرهن حجمًا؛ فقاعدتها مربعة ومدورة من فوق وملونة كسائر مآذن مكة.

دلفنا إلى صحن المسجد من خلال هذا الباب المبارك، فصادفنا هنا منظرًا رائعًا؛ حيث كان الباب يتميز بطراز فريد من نوعه. أضاءت الأضواء الخافتة النابعة من عدد لا حصر له من مصابيح الزيت صغيرة الحجم، فأشاعت جوًا صوفيًا بديعًا حول الكعبة والمقدسات المحيطة بها بالقدر الكافي كي نراها؛ لكن هذه الإضاءة نفسها لم تجعل المكان بارز المعالم حتى يمكن تمييزها بشكلٍ واضح، فساد المكان ظلام غامض مما أثار مُخيلتي وتصورت الكعبة وما حولها بصورةٍ مغايرة تمامًا لما فضحه ضوء النهار وكشفه بكل وضوح. كانت السماء شبه معتمة تمامًا بسبب القمر الجديد خافت الضوء، الذي لم تستطع أشعة ضوءه الواهية أن تخترق صحن المسجد وتصل للمصابيح المضاءة بالزيت. وقفت هذه الكتلة الصماء المظلمة الآن بدون الكسوة السوداء؛ لكنها كانت لا تزال حالكة الظلام كقصر للشياطين الذي أحرقته قوي الظلام. لقد امتصت وحدها كل أشعة الضوء المنبثق من آلاف المصابيح؛ لكنها لا تزال مظلمة وبالكاد يمكن تمييزها عن غيرها من المقدسات

التي حولها. اكتظ الحجاج نصف العراة في أعداد غفيرة لا حصر لها أمام هذا الوحش في حالة من الحماس والورع يستقبلونه بأفئدتهم وأفواههم. عُلقت المصابيح المضاءة على الأعمدة البرونزية التي كانت تحيط بالكعبة على هيئة هلال فكوَّنت قوسًا مضيئًا، كأنه هالة حول أكبر صنم في الإسلام، تلك الكعبة معقل الأوثان والأصنام. كانت هذه الدائرة من الضوء التي تكاد تكون مغلقة، يقف في منتصفها هذا الغول المظلم كواحةٍ تقع في إحدى المدن. حول هذه الدائرة كانت توجد الصحراء وصحن المسجد الكبير حالك الظلمة مفروشًا بالرمل، محاطًا من جميع الجوانب بالرواق المربع الشكل، معلقة مصابيح صغيرة عددها كبير بين أعمدته، لا تضيء المكان إضاءة واضحة. هذا الظلام الغامض في هذا المكان المقدس الذي أراد أن يهزم هذه المصابيح صغيرة الحجم كثيرة العدد وكشف لي الوضع الطبيعي لهذا المسجد وصورة الإسلام عامةً. هذه الظلمة هي الدين، الذي يطلقون عليه الوحي، والذي لا يرقى أبدًا ليكون مذهبًا عقلانيًا؛ على الرغم من أنه من المؤكد توافر مبدأ إلهي مُستوحى من تعاليم الإيمان المُوحى بها. هذه المصابيح الصغيرة هي الأرواح البشرية التي تخترق الظلام حتى تصل للوحي الأساس؛ لكنها ليست قادرة على شيء آخر سوى معايشة الظلام.

إضافة إلى الحجاج الذين أتوا إلى هنا بنية أداء فريضة الحج، تجمع حول الكعبة عدد كبير من المطوِّفين الذين جاءوا لمقاصد دنيوية من أجل مصالحهم الشخصية، فهؤلاء الأناس الطماعون قد يبلغ عددهم ألفًا في مكة، يعيشون على سلب ونهب مَن يقوم بتأدية فريضة الحج، ولا يتركون الحاج في هدوء لا بالليل ولا بالنهار حتى يستسلم لأحدهم ويقع فريسة لهم، وحينما يحدث ذلك يعرف إذن هذا المطوِّف جيدًا كيف يجعله لا يستطيع أن يفلت من شباكه وسرقاته مرة أخرى. كان من المعروف أنهم يركزون أنظارهم على الحجاج الأثرياء وميسوري الحال. لأن الحجاج لا يزورون المسجد إلا بملابس الإحرام التي لا تسمح للمرء أن يلبس ملابس فاخرة جدًا تعبر عن حالته المادية، فقد كان يخطئ المُطوِّفون في تقدير الحالة المادية للحجاج. أقول إن ملابس الإحرام قد لا تسمح بالتعبير عن ترف وثراء الحاج بدرجة كبيرة، لأنها كانت تسمح بذلك بطريقة واحدة، حيث

كان في إمكان الأثرياء أن يتخذوا كلا من الرداء والإزار من أجود الخامات وأفخمها مثل الكشمير غالي الثمن، وعن أمثال هؤلاء الحجاج كان يبحث المطوِّفون. ذكر أحد المطوِّفين قصة طريفة حدثت أثناء تواجدي في مكة. أهدي أحد الباشاوات الأتراك درويشًا فقيرًا رداءًا وإزارًا من الكشمير، وظن المطوِّفون أنَّ كرويسوس قد أتي للحج، فتناحروا فيما بينهم كي يفوز أحدهم بصحبته. لكنّ المطوِّف سيئ الحظ الذي حظي به كان يبدو تعيسًا وخائبًا أمله، بعد مضي ثمانية أيام في خدمة الدرويش، بعد أن اكتشف الوضع الاجتماعي الحقيقي لضحيته هذه.

على هذا الضوء الخافت المنبعث من هذا العدد الجم من مصابيح الزيت تجولت هنا في المسجد الحرام وصادفني أحد الحجاج، الذي كان يسجد مصليًا أمام هذا المعبد الوثني القديم المروِّع، وصادفت أيضًا حاجّة كانت تجري، ربما أتت إلى هنا لمقصد غير ديني. كان الازدحام والتدفق حول الكعبة نفسها شديدًا للغاية، حيث أراد عدد كبير من الحجاج تقبيل كل من الحجر الأسود والأبيض مرة أخرى، والصلاة عند أثر قدمي إبراهيم، والشرب من ماء زمزم أو الاغتسال به، مما جعلني لا أطيق البقاء هنا في هذا المستنقع فترة أطول؛ لأني أردت الحفاظ على عظامي. أقول هنا في "المستنقع" لأن هذا المكان حول الكعبة كان ضحلًا جدًا وعميقًا، كان يرتفع صحن المسجد عنه حوالي تسعة أقدام. نظرًا لأني لم أستشعر أي روحانية تخص العبادة هنا، كالتي يقوم بها هؤلاء الحجاج، آثرتُ أن أنسحب بعيدًا إلى صحن المسجد قاصدًا الرواق، الذي أدهشتني رؤيته أيضًا؛ بسبب إضاءته والأعداد الغفيرة التي اكتظت ساحاته بها. عُلق بجانب كل عمودين مصباح صغير خافت الضوء حتى يمكن رؤية المسجد من بين جميع أعمدة الرواق؛ لكنها لم تكن بالتأكيد كافية. هذه الطريقة في إضاءة وتزيين المكان أثارت مخيلتي وتداعت الخواطر في ذهني عن خرافات العصور الوسطى وأساطير أشباح الليل، والأديرة المتهالكة، التي تنشط فيها الأشباح بالليل. هذا الرواق بأكمله المظلم في بعض جوانبه والمُضاء إضاءة خافتة في بعضها، كان بالنسبة لي كساحة الدير في ليلة تملؤها الأشباح. حتى الأشباح توافرت هنا بكثرة، حيث كان أحد الحجاج

يستند إلى عمود من المرمر، وبدا كأنه عمود آخر ملاصق للأول؛ لأن الحاج لم يتحرك أبدًا من مكانه. وعند قاعدة أحد الأعمدة اتكأ أحد الحجاج الضعفاء، كان هزيلًا يحتضر، ومن الأولى أن يحمله شخص آخر بدلا من أن يمشي ويلفظ أنفاسه الأخيرة هنا في ذلك المكان المقدس؛ لأن الحجاج الورعين يؤمنون بوجوب الجنة لهم إذا ماتوا في الأراضي المقدسة. كما توافرت هنا باقي عناصر خرافات العصور الوسطى وهي الراهبات الشابات الريَّانات، عرائس الرب، اللائي يريد الشيطان القضاء عليهن دائمًا. ولأن الإضاءة هنا لم تكن قوية، لم يستطع أحد لحُسن الحظ رؤية كيف تمتعت هذه المخلوقات القادمة من شِعب عامر بقلة الجاذبية لهن، واللاتي كن يلتحفن أثوابًا طويلة فضفاضة، ويتنقلن بخفة وسرية بين أعمدة الرواق وساحاته، يقفن طويلًا أحيانًا عند أحد الحجاج؛ لكي يبعن له شيئًا، ويتبادلن الكلمات الرقيقة مع غيره، ثم يذهبن لحاج آخر متعمق في أداء العبادة ويحاولن صرفه عما ينشغل به، فمثل هذه الأرواح تبذل ما في وسعها من إغراءات كي تضم تلك الأرواح إلى مملكة الشيطان.

بين الفينة والأخرى كانت تُحمل جثة أحدهم إلى صحن المسجد؛ لأن بعض الموتى لم يكن لديهم وقت كافٍ للذهاب إلى الكعبة حتى اللحظة الأخيرة، فأوصوا وهم على سرير الموت بوجوب استكمال الطواف حول الكعبة وهم أموات؛ لعدم استطاعتهم القيام بذلك.

اتضحت لي جوانب كثيرة من الحياة الأخلاقية في مكة في هذا المسجد وما حوله، وربما ما يحدث هنا ليس بأقل مما أشرت إليه سابقًا. لأن بوركهاردت قد ناقش بالفعل هذا التدهور الأخلاقي بالتفصيل (جنسٌ من الفساد، الذي إذا ظهر في أوربا، يتراجع من الحياة العامة على استحياء؛ ولكن هنا لا يخشاه الناس؛ بل بالأحرى يسعون إليه هنا في هذا المكان)؛ لذا سأكتفي هنا بقول أنه ليس ثمة تغيير حدث منذ تواجد بوركهاردت هنا. حكى بوركهاردت على وجه الخصوص أنه بجانب العاهرات من النساء كان يوجد رجال بأعداد كبيرة في المسجد، حتى أنه كانت هناك مجموعة من الشباب يقومون بالأشياء المكروهة ويصبر على أفعالهم تلك الجميع هناك، إذا تجنبوا

ممارسة أفعالهم الفاحشة تلك في أوقات الصلوات الخمس. على أي حال هذا ما ذكره بوركهاردت، وكنت مستنكرًا عدم استحياء هؤلاء المكيين الفقراء من أن يتركوا أولادهم يمارسون هذه الحرفة الخبيثة ويكسبون المال منها. علاوة على أني تعجبت قليلًا من أن السلطات في مكة كانت تعاني من هذا العبث ومازالت في الأماكن المقدسة؛ وذلك لأني سمعت أن غالبية مَن يقومون على الحكم والسلطة أنفسهم يمارسون هذه الرذيلة؛ فالقاضي أعلى مرتبة دينية في مكة والمُفتون الأربعة لم ينجوا من هذا الاتهام. كان هذا الوضع يسود في كل المدن العربية. لم يتأكد لي ما ذكره بوركهاردت من أن البدو كانوا في ذلك استثناءًا محمودًا عن باقي المكيين. اختلف أغلب الأشخاص الذين يمجدّون هذه الحرفة الفاضحة في ملبسهم وعاداتهم عن باقي شباب المكيين إذا وُجد غيرهم أساسًا. فقد قبل بعضهم حياة وملبس وعادة الشعر الطويل وزينة ومساحيق ومستحضرات تجميل صديقاتهن، وسكنوا معهن في شِعب عامر. وكما هو واضح لم يتغير شيء من تلك الأحوال منذ عصر بوركهاردت وملاحظاته عن أخلاق أهل مكة فالوضع يُصدِّق على صحتها حتى اليوم.

سوف أُعفي القارئ من وصف العبادات التي نجح صادق المطوِّف في إقناعي بالقيام بها؛ لأنه ادّعى أنه في حالة امتناعي عنها سيعتبرني الآخرون زنديقًا. لم تكن هذه الأدعية والصلوات سوى مجموعة من الشعائر التي أفرطت في أدائها عند زيارتي الأولى للمسجد.

بعد أن مكثنا في المسجد الحرام حتى منتصف الليل، بدأنا عودتنا من خلال طريق شارع القشاشية الذي كان به بعض الحركة والحيوية. عندما مررنا بالشارع الجانبي الذي كان فيه مقهى مدخني الأفيون، حكيت لصادق عن زيارتي لهذا المكان سيئ السمعة. في بادئ الأمر تظاهر صادق المنافق، كباقي العرب، أنه لم يفهمني، ولمَّا كررت له الحكاية مرة أخرى ولم يعد في وسعه التظاهر بعدم فهمي، ظهرت على وجهه ملامح صاحب الفضيلة المتعض والمستاء وقال لي:

> **"يا أخي! لقد اقترفت إثمًا عظيمًا. ألا تعلم أنه محرم على كل مسلم تعاطي المواد المسكرة والمخدرة وزيارة هذه الأماكن التي يتعاطى فيها**

الناس هذه المواد؟ يجب أن تذبح كبشًا كي تكفر عن إثمك هذا. اذبح كبشًا ! اذبح كبشًا!"

هكذا كان رد فعل المسلمين عندما يريدون أن يتهموا شخصًا بالعدوان على الشعائر، فقط عندما تذبح كبشًا يغفرون لك كل ذنوبك. ولأني سخرت هذه المرة من صادق الماكر ولم أطعه في تنفيذ أمره بذبح كبش اعتاد أن يأكله هو وأسرته كل مرة، أدرك صادق هذه المرة أني لم أعد الشخص المخدوع بنفاقه وريائه؛ لذا قرر فجأة أن يعزف على وتر مختلف تماما ويترك كل هذه الفضائل التي لا يتحلى بها داخليًّا، فاقترح عليَّ هذا التقيّ أن نزور كشكًا جديدًا مشابهًا لكشك مدخني الأفيون، وهو مقهى الحشيش، الذي يطلق عليه الأفارقة الكيف، ويسبب حالة من الخدر تشبه تأثير الأفيون المصنوع من نبتة الخشخاش. ينتشر مدخنو الحشيش في جميع البلاد الإسلامية، بينما يوجد مدخنو الأفيون في الشرق البعيد فقط في آسيا والهند والصين؛ لكنه استثناء في البلاد العربية. وعلى الرغم من أني طالما أعرضت بشدة عن الحشيش في الجزائر وتونس والقسطنطينية، كنت أود أن استغل هنا هذه الفرصة لمخالطة الحجاج في هذا المكان وكتابة ملاحظاتي؛ لكني للأسف كنت أرتدي ملابس الإحرام ولا يُسمح لي بدخول هذه الأماكن المدنسة بهذه الملابس الطاهرة. لذلك أجلتُ جولتي تلك.

أعتقد أني وفرت على نفسي قصة سيئة بامتناعي عن دخول مقهى الحشاشين بملابس الإحرام. نعم لقد كنت مقتنعًا أن عرض صادق المطوِّف الذي كان يعرف المكان جيدًا؛ لكنه اعتاد أن يوبخ بعنف من يقدم على هذه الأماكن مثله، لم يكن إلا لغرض تنبيهي داخل كشك مدخني الحشيش بشكلٍ رسمي. فلو كنت وافقت على عرض صادق ولم أعرف نيته الحقيقية لهددني في كل مكان بأني زنديق كافر دَنس ملابس الإحرام إذا لم أسد فمه بمبالغ مالية كبيرة. وأخيرًا لم يكن عليَّ فعل الكثير بسبب ما أقوم به من مخالفات وخرق للعادات الإسلامية الناتجة عن قلة إلمامي بها. كيف كان سيكون الوضع إذن لو كان قد اتهمني بهذا الانتهاك الصارخ؟ يتعرض الحجاج يوميًا لمثل حالات الابتزاز هذه من قبل المطوِّفين المصاحبين لهم في رحلتهم. بعد مضي عدة أيام على تلك الواقعة،

قادني صادق المنافق؛ لكن هذه المرة بدون ملابس الإحرام، إلى مقهى مدخني الحشيش. لم أر هناك شيئًا جديدًا غير الذي كنت أراه في مقاهي الكيف المعتادة للتسلية في القاهرة والقسطنطينية وتونس.

انتهى اليوم الشهر الثاني في الحج وهو شهر ذي القعدة، كانت زيارتي الليلية للمسجد في اليوم الأخير من هذا الشهر. لقد بدأ الآن الشهر الثالث والأخير من أشهر الحج، وهو ذو الحجة، الذي فيه العيد الكبير؛ لأنه في اليوم العاشر منه يحتفل المسلمون بأكبر أعيادهم ويطلق عليه الأتراك عيد الأضحى؛ ولأنه من المتوقع في اليوم الأول من ذي الحجة وصول أكبر قافلة حجاج من بغداد، وفي اليوم الثاني من نفس الشهر وصول قافلة أخرى من سوريا، واللتان تصلان هذا العام مبكرًا بضعة أيام عن موعد وصولهما الثابت؛ لذا نصحني صادق المطوِّف أن أغادر المكان قبل وصولهما فأغادر المكان في صباح الأول من ذي الحجة؛ لأن هذا العدد الهائل من الحجاج الجدد سوف يعيقني من إتمام باقي واجبات الحج في هدوء.

أمّا الشعيرتان اللتان لا يمكن لأي حاج الهرب منهما فهما السعي بين الصفا والمروة وأداء العمرة (الحج الأصغر). قررت أن أبدأ بأولهما؛ فلبست ملابس الإحرام مجددًا في الساعة السادسة في الأول من ذي الحجة وتبعت المطوِّف في شوارع المعلاة والمؤتة والشارع الرئيس الكبير الذي ذكرته كثيرًا الإحساء، الذي يؤدي فيه الحجاج الهرولة والسعي بين الصفا والمروة. عبرنا هذا الشارع بطوله حتى وصلنا لنهايته من ناحية الشرق حيث يوجد جبل الصفا أحد أهداف السعي. يشبه شكله الحالي مذبح أحد الكنائس في العصور القديمة، قاعدته عبارة عن ثلاثة سلالم ترتكز عليهما قاعدة من الحجر مربعة الزوايا، يرتكز عليها عاليًا لوح أفقي يبرز حوالي قدم من كل جانب عن حافة الجزء السفلي للمذبح.

كان لزامًا عليَّ صعود سلالم هذا المذبح الذي يطلقون عليه بطريقة خاطئة "جبل الصفا". عندما وصلت لأعلى درجة وجهت وجهي ناحية الغرب كما أمرني صادق، مباشرةً صوب المسجد الذي لم أستطع رؤيته؛ لأن المنازل في شارع الإحساء حالت بيني

وبين رؤيته. الآن أعطاني المطوِّف إشارة بأن أمد ذراعيّ نحو السماء، وبعد أن فعلت ذلك أملاني الدعاء الذي يجب عليَّ أن أردده الآن:

"اللهم رب السماء الثالثة! الواحد الأحد، بارك لي في حجتي هذه، وفي سعيي الذي أقوم به ابتغاء عفوك الكريم. كغزالة ظامئة ضلت الطريق في وادي الصفا؛ ولكن لا منجى إلا منك. أنت الرحيم، وأنعمت علينا ببئر زمزم. اللهم احفظ لحمي ودمي وجلدي وعظمي من نار جهنم. وبارك اللهم على سيدنا محمد عليه السلام".

بعد ذلك بدأت السعي بين الصفا والمروة، الذي مكانه في شارع الإحساء، وهو الطريق المخصص لذلك ويُطلق عليه وادي الصفا. يجب أن أمشي أحد أجزاء هذا الطريق، بينما أقطع مسافات أخرى مهرولًا، وتلك المسافة تقع بين أربعة أعمدة يعتبرونها مقدسة لونها رمادي متسخ، وتقع تقريبًا في منتصف شارع الإحساء وتتفرع إلى البيوت الواقعة في هذا الشارع. يُطلق على هذه الأعمدة الميلان الأخضران؛ وذلك لأن لونها الأصلي كان أخضرًا، والآن كما ذكرت صُبغت الأعمدة بلون الوسخ الرمادي.

في نهاية شارع الإحساء، الذي يبلغ طوله مائتي قدم، يصادفنا الجبل الآخر المروة. كان لهذين الجبلين هيئة المذبح الخالي من الذوق الفني، أربعة سلالم كبيرة يصعد عليها الحجاج ليتلوا دعاءا مماثلا لما ذكرته عند الصفا.

تبدأ رحلة العودة بعد ذلك. عند الوصول إلى الصفا يردد الحاج الدعاء عدة مرات، ثم يبدأ الشوط الثاني هكذا حتى يتممهم سبعة أشواط، وبذلك تنتهي هذه الشعيرة المرهقة، التي هي عبارة عن الهرولة سبعة أشواط بين جبلي الصفا والمروة، والتي اسمها السعي. تجب أثناء هذه الأشواط قراءة بعض الأذكار وحمد وشكر الله مثل "الله أكبر" و"سبحان الله" و"الحمد لله".

يعود أول ذكر لتاريخ الصفا والمروة إلى النبي إبراهيم وابنه إسماعيل وزوجته هاجر التي جرت هنا سبع مرات بحثًا عن الماء قبل أن تكتشف بئر زمزم حسب الرواية الإسلامية. لكن محمدًا أراد أن يرجع أصل شعيرة السعي إلى هذا السبب كي يلغى الأصل الوثني لهذه العادة قبل الإسلام. لكن لسوء الحظ توجد أدلة تاريخية تثبت أن هذا

السعي ليس إلا عادة وثنية قديمة، وأن الصفا والمروة بنقطتي الانطلاق والعودة لم تكونا سوى مذبحٍ للأصنام، ليس له أدنى علاقة بالأم هاجر.

حسب الروايات المنقولة عن العرب الذين كانوا يعبدون الأوثان، كان يوجد على جبلي الصفا والمروة صنمان: إساف الصنم المذكر ونائلة للجنس المؤنث، وكان الجاهليون يمسحونهما ويطوفون بهما، ولم يكونا سوى بطلين مؤمنين لهما سمعة طيبة. وفي روايات أخرى لم يكن إساف ونائلة أناسا لهما سمعة طيبة ولا آلهة تُعبد؛ بل كانا أناسا عاديين جدًا، والأنكى من ذلك أنهما كانا يقترفان الذنوب، وهما إساف بن عامر ونائلة بنت ساهل كما ذكر فون بوكوكيه (Von Pococye) طبقًا لما ورد في الكتب العربية القديمة (specimina historiae Arabum)، وينحدر كلاهما من قبيلة الجراهمة، وقد عاشا تقريبًا قبل ألف عام في مكة. وقع كلاهما في حب الآخر؛ لكنهما لم يحصلا على موافقة أسرتيهما على الزواج. ماذا فعل إذن هذان الشريران؟ لقد قرر كل من إساف ونائلة أن يتزوجا بدون مباركة الأسرة وكهنوت القبيلة، ورتبا موعدًا غراميًا للقاء في هذا البلد الحرام، وبالأخص في بيت الله. لكنهما نسيا أن ما فعلاه طبقًا لتقاليد العرب يعتبر من أكبر الفضائح. توسل الجراهمة إلى الله أن يصب غضبه عليهما ويعاقب صاحبا الذنب العظيم، فاستجاب الله لدعائهم، فسخط كلا من العاشق ومعشوقته إلى قطعتين من الحجارة، صارا فيما بعد الصفا والمروة اللذين لا يشبهان أيًا من البشر إطلاقا، والسبب في ذلك هو المعجزة التي لا حدود لها والتي قد تجعل المستحيل ممكنًا. عبد أتباع الجراهمة هذين العاشقين اللذين صارا حجارة وقدَّسهما أتباع قريش إلى درجة التأليه، ومن المحتمل بسبب كرههم للجراهمة، فزادوا في تقديسهم لهما وتعظيمهما، وزاد حماسهم لهما فجعلوا الطواف بينهما؛ لكن عندما جاء محمد ألغى هذه العادة في دينه الجديد، فقد ورد في القرآن جزاء من يفعل ذلك مباشرة، في سورة البقرة (رقم ٢) الآية رقم ١٥٣ [١]:

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

١ الرقم الصحيح للآية هو (١٥٨). (المترجمة).

فقوله "فلا جناح عليه" تدل بمنتهى الوضوح على أن محمدًا أبقى بامتعاض على هذه العادة الوثنية مثل غيرها من سائر العادات الأخرى، التي نقلها إلى الإسلام. كما أنه بدّل عقوبة السعي التي ذُكرت في الإنجيل بقصة هاجر وجريها، التي لا نعرف مصدرها بالضبط.

إن شعيرة السعي تعطينا مشهدًا فريدًا من نوعه، فلا نرى سوى أجساد نصف عارية تهرول بحماس جنوني في الشارع، كلٌّ منهم يتبع ظله وهو المطوِّف المصاحب له، الذي لا ينفصل عن الحاج. لقد كان الأمر بالنسبة لي مثيرًا جدًّا للاهتمام في مراقبة كليهما. كشفت ملامح الحاج أكبر مظاهر التعصب، مزيجًا من النشوة الصوفية ونفاقهم النابع عن قناعة ورضا عن أنفسهم. أمّا ملامح المطوِّف فكانت على النقيض من ذلك؛ كانت ملامح المُضارب الذي لا يهتم بشيء سوى بكسب الحاج الذي يصطحبه أثناء الطواف والسعي، مثلما يصطحبه في شِعب عامر. لم أر هنا منافقين مثل هؤلاء المطوِّفين؛ فهم يهمهمون دائمًا بالأدعية والصلوات، ويحملون في أيديهم سبحة الصلاة؛ لكنَّ تعابير وجوههم وقسماتها فضحت نفاقهم وكذبهم، ولم أر منهم سوى الطمع وحب المال. فالمطوِّف يعتبر الحاج الذي يصطحبه كالذبابة التي تدخل شباك العنكبوت، فقد حكى لي حمدان في إحدى لحظات صفوه معي أن المطوِّفين يتباهون فيما بينهم بكيفية احتيالهم على الحجاج، ويجعلون من ذلك ومن سذاجة الحجاج وتصديقهم لهم موضوعًا لنكاتهم الساخرة وتندرهم. فإذا انتهى موسم الحج، يبدأ وقت اللهو والمرح عند المطوِّفين؛ إذ يشرعون في الاحتفالات الليلية وحفلات الأعراس وختان أطفالهم وما شابه ذلك من أسبابِ الاحتفاء. في هذه الأعياد والمناسبات يتسلون بالنكات والنوادر عن الحجاج الورعين، ويحكون فيما بينهم كيف يخدعونهم أو يجردون أحد الحجاج من ملابسه، أو استمالة أحدهم لشراء أشياء لا قيمة لها. على أيّة حال كان ينظر هؤلاء المطوِّفون إلى الحجاج على أنهم أشياء يكسبون مالهم من نهبهم وسلبهم.

بعد أن أتممت شعيرة السعي، لم يعد باقيًا عليَّ من واجبات الحج سوى أداء العمرة أو ما يطلقون عليه "الحج الأصغر"، فقد اعتاد الحجاج الذين ينتهون من الطواف حول

الكعبة أن يحلقوا شعورهم، ويحافظوا على وضوئهم أو يغتسلوا. أمّا أنا فقد تحللت من الإحرام؛ لذا لا أحتاج لمراسم الحلاقة الاحتفالية هذه، وتوجهت مباشرة لأداء العمرة من عند جبل الصفا.

كانت تبلغ المسافة التي يجب عليَّ أن أقطعها لغرض العمرة حوالي ثلاثة أرباع ميل بالحساب على الطريقة الألمانية، بالطبع سيكون ذلك مجهدًا جدًا لي إذا فعلت مثل سائر الحجاج الذين يقطعون هذه المسافة حفاة، سيرًا على الأقدام. لكن لحُسن الحظ جهزّ صادق المطوِّف دابتين للركوب عبارة عن حمارين صغيرين ركبناهما ليس بعيدًا عن جبل الصفا. من المنتظر أن نصل المكان الذي نريده ونحن نمتطي هذين الحمارين الصغيرين الرشيقين في مدة قدرها ساعة وربع.

غادرنا مكة من ناحية الجنوب الشرقي، صادفنا في طريقنا أولًا سهلًا رمليًا يكاد يخلو تمامًا من أي زرع أو نباتات، ثم صعدنا أحد سلاسل الجبل المقدس أبي قُبيس حتى توقفنا على بعد ربع ميل من المدينة عند كوم من الحجارة المتراكمة فوق بعضها بطريقة عشوائية، والتي كانت لي عبارة عن محطة دينية جديدة. هنا أخذ كل واحد حجارة من على الأرض ورماها على هذه الكومة وهو يتلو سورة من القرآن وهي سورة الدعاء على أبي لهب، التي يلعن فيها محمد عمه الكافر أبا لهب وزوجة عمه "حمّالة الحطب"؛ لأنهما لم يؤمنا بدينه الجديد. أقسم أبو لهب أن ينتقم من محمد فأمر بحفر بئر، وأمر اثنين من عبيده أن يرميا أفضل أول رجل يأتي هنا في البئر، واعتقد أبو لهب الماكر أنه سيرسل ابن أخيه تحت أي ذريعة إلى البئر. ولكن مثلما حدث للعبد فريدولين (Fridolin) في قصيدة "المشي بعد المطرقة الحديدية (Gang nach dem Eisenhammer)" جاء محمد أيضًا متأخرًا وبذلك نجا من الموت، بينما أبو لهب لم يستطع انتظار نبأ وفاة ابن أخيه، فذهب بنفسه إلى البئر؛ ولأنه لم يصل إلى هناك أيّ شخص سواه، نفذ العبدان المطيعان ما أمرهما به سيدهما حرفيا وألقيا به في البئر العميق، حيث مات فعلا. ومن ثمَّ ظهر المثل الشعبي: "مَن حفر حفرة لأخيه، وقع فيها."، الذي لدينا له بدائل أفضل بكثير في اللغة الألمانية. وهكذا مات

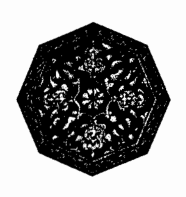
العم الشنيع أبو لهب، ومنذ ذلك الحين يتلو الحجاج في هذا المكان القريب من ذلك البئر المزعوم سورة المسد: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ .

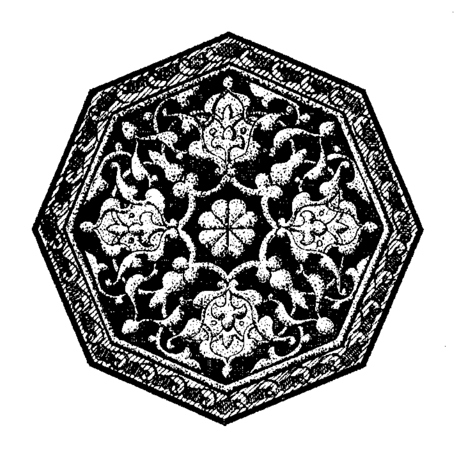
تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ .

بعد أن انتهينا من تلاوة هذه اللعنات على أبي لهب الكافر وزوجته، رمينا قبرهما بالحجارة ثم امتطينا الحمارين الصغيرين الهزيلين مجددًا.

وصلنا سريعًا إلى مكان العمرة، وهو عبارة عن مصلى تعلوه قبة، نزلنا من على أمتعتنا أمام عتبته. توضأنا من الماء الموجود هنا في خزانات، وصلينا أربع ركعات متجهين نحو القبلة. ثم دلفنا إلى المصلى الصغير الفقير في طرازه المعماري؛ لكنه كان يعج بالحجاج، كأن أرضيته رُصفت بالمصليين فيه، وبسبب هذا التزاحم داخله لم نتمكن من أداء الصلاة كاملة (كان وقت الظهر قد دخل)؛ فبمجرد أن أقف في إحدى زوايا المصلى للصلاة، يأتي إلى نفس المكان نصف دستة من الحجاج ويتزاحمون بجانبي، لدرجة أنهم عندما كانوا يسجدون كدت أختفي تقريبا تمامًا تحتهم، فأسرعت هربًا منهم حتى لا أُهرس تحتهم.

أخيرًا انتهيت من هذه الشعيرة وشرعنا في "التلبية" في طريق عودتنا إلى مكة، بينما كنا نمتطي الحمارين. بذلك أكون قد انتهيت من كل شعائر وواجبات الحج ما عدا الوقوف بعرفة، الذي يجب أن يكون في اليوم التاسع من ذي الحجة فقط، ولا يعتبر الحج صحيحًا إذا تم الوقوف في يومٍ غير هذا؛ لذا كان يجب عليَّ أن أمكث ثمانية أيام أخرى في مكة حتى أختم حجي بهذا العمل النهائي الذي يتسم بأجواءٍ احتفالية.







الفصل التاسع عشر
وصول قوافل الحج

قافلتا الحج الكبيرتان - شريف مكة وأبناؤه - باشا دمشق - القافلة السورية - اختلاف الحجاج وتنوعهم - الوهابيون كحرس - تعصب وجمود أتباع هذا المذهب - مكان الحجاج السوريين - توافد الحجاج على المدينة - العودة إلى حمدان - الاستيلاء على غرفتي - عشرون رجلاً سوريًا أرادوا طردي منها - تراشق بالكلمات بيني وبين حمدان - تزايد أسعار الإيجار في موسم الحج - التحرر أخيرًا من المعتدين - تعاطف نساء الحريم معي - الإقامة لمدة أطول في مكة - وليمة - مخافتي من قوانين الحج وذبح الفدية.

وصلت قافلة بغداد في اليوم الأول من شهر ذي الحجة وفي اليوم التالي وصلت قافلة من دمشق لم يصل عدد أفرادها أربعة آلاف، بينما يصل تعداد قافلة بغداد خمسمائة حاج. كانت قافلة دمشق أكبر قافلة من حيث عدد أفرادها ويقودها أحد الباشوات الأتراك، واستقبلها رسميًا شريف مكة وأبناؤه وعدد من أتباعه.

في ظهر اليوم الثاني من ذي الحجة ذهبت مع صادق وابنه إلى مشارف المدينة كي أشاهد وصول القافلتين. صادفنا في الطريق أولاً خزان مياه السوريين، ثم مررنا بأكبر مقابر في مكة، ووصلنا أخيرًا إلى أحد السهول في شمال غرب مكة، الذي أُطلق عليه اسم أحد الصالحين صاحب المقام الموجود هنا وهو الشيخ محمد، حيث نصبت القافلة

السورية خيامها، وكان قد خرج في الصباح عدد كبير من أهالي مكة لاستقبال القافلة، فلحقوا بركابهم واستقبلوهم استقبال المنتصرين الفاتحين. كان المشهد وقتها مدهشًا، يتصدره شريف مكة، رجل كهل مولاتو (أي خليط بين الأسود والأبيض)؛ لكنه ضخم الجثة، مع أبنائه الأربعة، أشخاص من أصل كريم جديرون بالاحترام، يرتدون الملابس العربية الجميلة من خام الحرير وأوشحة من الكشمير، ويضعن على رؤوسهم عمامات من الكشمير. فقد اعتاد شريف مكة، الذي كان آنذاك يحكم مكة بصلاحيات لا حدود لها، أمّا الآن فهو اسم تابع للأتراك؛ لكنه في الحقيقة مستقل كنائب ملك مصر أو تونس، على أن يستقبل هو وكبار الرجال الإقطاعيين في الدولة أن يعبروا للسلطان عن تشرفهم ويقدموا له التحية باستقبالهم القافلة والاحتفاء بها، التي يسعد أفرادها بحماية وحضور أهم أفراد الدولة وأكثرهم نفوذًا وهذا ما حدث هذا العام أيضًا.

ظهر بجانبه الباشا حاكم دمشق الذي كان حاضرًا هذه المرة بنفسه[1]، فيما عدا ذلك كان يرسل في المرات السابقة أحد مرؤوسيه. جلس الباشا على حصان عربي من سلالة سورية، اعتاد الأتراك ركوبها مثلما كان يركب العرب الفرس العربي. بدا الباشا نوعًا ما كئيبًا وثقيل الظل؛ فكرشه المدور البارز ووجهه الناعس الذي يوحي بالضجر وملابسه (فقد كان يرتدي ثيابًا مقصبة بالذهب، غالية الثمن ونيشانًا من الألماس على صدره)، كل هذه الأشياء جعلته أقل رجولة واحترامًا طبقًا للأعراف العربية. وبشكلٍ عام كان مظهر الأتراك الأعيان في ترفهم ونعومة ملبسهم وأجسادهم السمينة كالإسفنج، بجانب العرب الذين لا ينعمون بالثراء والترف أصحاب الأجساد النحيلة الهزيلة، لا يعتبر ميزة للأتراك بل نقيصة. لقد كان من اللافت للنظر لي جدًا أن الباشا ارتدى في هذه المناسبة هذا الزي الرسمي بينما فيما عدا ذلك من المعتاد أن كل مسلم مهما كانت درجة تدرجه في الوظيفة أو الرتبة يرتدي ملابس الإحرام قبل الوصول إلى مكة. كان من الواضح جدًا أثر خرق تعاليم الحج من قبل الباشا التركي على العرب. تركزت نظرات

١ كان والي دمشق يقوم بمهمة (أمير الحج) مكلفا من السلطان العثماني بذلك للسهر على أمن القافلة وقيادتها بنفسه مع قوة عسكرية ومرتزقة لحمايتها من تعديات البدو وهذه كانت من أخطر المسؤوليات التي تسند إلى والي دمشق لأنه بمقدار ما ينجح في هذه المهمة بمقدار ما يستقر في منصب ولاية دمشق وقد قدرت الدولة خطورة هذه المسؤولية فكانت تتخيّر لباشاوية (ولاية) دمشق كبار رجالاتها. (المترجمة)

الكثيرين منهم على صاحب المقام العالي معبرة عن امتعاضهم من مظهره واحتقارهم لشخصه؛ لكنْ كالعادة لم يجرؤ أحد على الاحتجاج؛ لأن هذه الشخصيات السيادية في بلاد المسلمين تكاد تكون آلهة عندهم، لا يقترب أحد من البشر منها سوى بمعسول الكلام والمديح. كان يتبع الباشا في هذا الموكب أركان حرب الجيش وهم عبارة عن مجموعة من الرجال الشباب، يغلب عليهم المظهر النسائي الممتلئ. ثم توافدت أفواج الحجاج السوريين المختلفة. هنا حمل بعضهم نقّالة بين الجمال، كان يدخن عليها أحد الأتراك البدناء الأرجيلة، وعلى نقّالة أخرى حُمل الحريم اللائي كن عبارة عن مجموعة من السيدات التركيات يصعب تمييزهن عن بعضهن؛ لأنهن ارتدين ملابس الإحرام النسائية الطويلة غير الشفافة. كانت تمشي بجوار هذا الركب مجموعة من السوريين الفقراء من دمشق أو حلب، والذين يكشف مظهرهم الخارجي الهزيل الضعيف عن متاعب رحلة الحج الشاقة بالنسبة لهم، والتي لم يشعر بها بالطبع الأثرياء؛ لكنها كانت مهلكة للفقراء. تبع هؤلاء المُتَرَجِّلين الفقراء مجموعة من البدو السوريين يركبون الجمال ويترنحون شمالاً ويمينًا فوق ظهورها، كانوا رجالاً أقوياء لهم عيون سوداء لامعة ولحى كثيفة، بالإضافة إلى بعض الشعيرات الخفيفة التي تنمو على ذقن كل عربي أصيل، مما كان يمثل لي تناقضًا لافتًا للنظر. ثم جاء المواطنون المسالمون وهم مجموعة من التجار من حمص يمتطون حميرًا ليست بالهزيلة، ويحملون معهم بالات البضائع التي يحلمون ببيعها كلها مقابل المال. ثم ظهرت مَحَفَّة زُينت بالوسائد الناعمة المنجدة يجلس عليها أحد الولاة الأتراك أو ربما قاضي أو مفتي، اتكأ عليها كأنه يقرأ القرآن، وجسده الذي تبدو عليه الصحة وحسن التغذية كشف عن أن رحلة الحج لم تكن مرهقة له فحسب؛ بل كانت نزهة قصيرة، لم يستغن فيها عن وسائل راحته ورفاهيته، بالإضافة إلى أنه استمتع بالقيام بأحب شيء إلى قلبه وهو "فعل اللاشيء".

حول هذه الحشود من الحجاج امتطى رجال البدو الأقوياء خيول نجد النبيلة؛ لأنهم كانوا حرس القافلة. كان أغلبهم من الوهابين وترتب على ذلك أنهم زنادقة ويمثلون خطرًا على كل مسلم حق. ولّما كان طريق الحجاج من بغداد ودمشق إلى مكة يجب أن

يمر بمنطقة البدو هؤلاء؛ لذا استغلت الحكومة التركية وجودهم في الطريق لصالحها ودفعت إليهم الأموال كي يحرسوا قوافل الحجاج، فغدوا ذوي قيمة ونفع، وكان هذا هو السبب في عدم اعتدائهم على القوافل ونهبها كما كان يحدث في السنين الماضية. كان هؤلاء الوهابيون متعصبين بلا حدود لأحكام مذهبهم الديني، فحرَّموا ما قد يراه المسلمون الآخرون مباحًا كزيارة قبور الأولياء ولبس ثياب الحرير باهظة الثمن وتدخين وشم الطباق وكل ما يخص الكماليات المترفة. ففي كثير من الأحيان عندما يرون أحد الحجاج يدخن، كانوا يجلدونه بلا رحمة ولا هوادة، مثلما حدث مع أحد معارفي الإيرانيين.

لن ينسى الوهابيون أبدًا أنهم كانوا حكامًا لكل شبه الجزيرة العربية حتى نهاية القرن المنصرم وبداية هذا القرن، حتى في مكة قد حكموا طويلاً واستغلوا شريف مكة لمصالحهم. ولكنْ منذ تحالفهم مع محمد علي انحل سلطانهم الذي كان من أكبر أهم القوى السياسية؛ لكن فخرهم وزهوهم بمذهبهم لم يتزعزع قيد أنملة، وظلوا على إيمانهم بعقائدهم التي يراها أتباع المذهب السني والشيعي هرطقة وزندقة، فأُطلق عليهم أتباع المذهب البروتستانتي المتشدد في الإسلام؛ لكن ما يجمع بينهم هي تصريحات المذهب البروتستانتي كما اتضح ذلك في انحرافات سيسكا ويوهان فون لايدن (Ziska und Johann von Leiden) ، وليس الاتجاهات الأفضل في هذا المذهب. حتى مَن هم على شاكلة الوهابيين في هولندا واسكتلندا قد تميزوا بالتعصب الفظ، فحطموا قبور الصالحين، أمَّا هنا فقد قام أحدهم سرًا بتحطيم أضرحة الأولياء الصالحين؛ لأنهم لم يقدروا على ذلك في العلن.

التزم جميع حجاج القافلة السورية بملابس الإحرام باستثناء الباشا، الذي ربما لم يجد راحته فيها أو ربما كان كسولاً جدًا وركن إلى ذبح كبش الفداء تكفيرًا عن خرقه لواجبات الحج. على أيّة حال لم يكن من المعتاد أن يحافظ رجال الجيش التركي على لبس ملابس الإحرام. لكني أثناء صعود جبل عرفات رأيت الجنود الأتراك يتجولون على سفح جبل عرفات المبارك بزيهم الرسمي الكامل، في نفس اليوم ونفس المكان حيث يرتدي الحاج العربي ملابس الإحرام. لهذا السبب كان ينظر العرب دائمًا إلى الأتراك عامةً وإلى الجنود

منهم خاصةً بازدراء واحتقار، وساهم في هذا أيضًا عدم معرفة الأتراك باللغة العربية؛ لأن العرب ترسخ فيهم الاعتقاد بأن اللغة العربية لها السبق والميزة على سائر لغات العالم وأنها اللغة الوحيدة العقلانية، واعتادوا على نعت كل شخص لا يعرف اللغة العربية بكلمة السب "الحمار"، مثلما كان الحال عند الأتراك الذين حاولوا بشدة تعزيز المثل الشعبي بوصف "مَن لا يعرف اللغة التركية بأنه لا يخشى الله"، مع الفارق أن الأسبقية في مكة تكون للغة العربية، والعرب يعتبرون التركي الذي لا يجيدها بربريًّا قبيحاً، وقد يكون لهم بعض الحق في هذا الحكم؛ لأن كل العلوم الدراسية والمواد التعليمية مكتوبة باللغة العربية لكل المسلمين سواء أتراك أو عرب أو فرس أو هنود، وهذا لأنها لغة القرآن الذي لا يُقرأ ولا يُدرس ولا يُفسر إلا من خلالها. ومن ثَمَّ إذا أراد أحد العرب أن يصبح عالمًا، تكون لدية إذن فرصة أعظم بكثير من التركي.

كان شريف مكة يصطحب القافلتين حتى المكان الذي اعتادا النزول فيه على مشارف مكة، والذي كان يستوعب عددا ضخما من الخيل والدّواب. يبحث الكثير من الحجاج بأنفسهم عن مكان للإقامة فيه، وطبعًا يحصل عليه الأغنياء فقط؛ لأنه بعد وصول القافلة السورية ترتفع الأسعار أضعافًا، وحتى الحجاج الذين استأجروا الغرف من قبل يصبحون فجأة مهددين بالطرد في الشارع إن لم يدفعوا فرق الزيادة في الأسعار مثل الوضع في لايبتزيج في موسم المعرض.

هذا ما حدث معي بالفعل عندما رجعت من نزهتي التي خرجت فيها لأجل رؤية استقبال القافلتين، اندهشت لمَّا رأيت الغرفة نُظفت ورُتبت على غير المعتاد منهم، وجمعوا أغراضي وحقائبي في أحد أركان الغرفة حتى يتخلصوا منها سريعًا في حالة الضرورة، فكان ذلك دلالة لي على شيء غريب سيحدث. كما وجدت خادمي المسكين عليًّا الزنجيَّ مطرودًا يجلس أمام باب الغرفة، وقد أخبروه أنهم لا يعرفون بعد، هل ستظل الغرفة مخصصة لسيده أم لا؟

لم يغير وصولي أي شيء في هذا المشهد، حتى أن عبدي حمدان الزنجيين أرادا أن يمنعاني من الدخول إلى الغرفة. كانا يصرخان بشدة في كل مرة كنت أحاول فيها مقاومتهما

والدخول للغرفة، وتكرر صراخهما مئات المرات بسبب صدى الصوت من غرفة الحريم المحبوسات في غرفتهن (لسوء الحظ حبس حمدان اليوم حريمه وأغلق عليهن الغرفة بالقفل والمفتاح بسبب توافد الحجاج الجدد). أثارت هذه الضجة حمدان بن حميدو ضخم الجثة، فصعد أخيرًا الدرج بطيئًا متثاقلاً بصحبة حشد من الحجاج السوريين، وما أدراك ما هذا الحشد! كان يتكون من ثمانية رجال سوريين أجسادهم نصف عارية في ملابس الإحرام القذرة ويكشف مظهرهم الخارجي عن تشردهم وإرهاقهم، ومن نصف دستة غلمان وأربعة من العبيد.

تكوَّم هذا الحشد بأكمله الآن في غرفتي الصغيرة، التي كانت مكانًا مريحًا لي ولعليّ، والتي يجب أن يصطف فيها هؤلاء الحجاج العشرون جميعهم أفقيًا إذا اضطروا للإقامة فيها. على الرغم من ذلك أبدى هؤلاء السوريون موافقتهم على النزول في الغرفة، واقترحوا على صاحبها حمدون قيمة الإيجار كي أخرج أنا منها وأقيم في هواء صحراء مكة الطلق. ربما يظن القارئ أني تشبثت بكلتا يديَّ وقدميَّ في غرفتي تلك التي تمثل لي المأوى من المجهول، وربما توقفت عن الركض طويلاً هنا وهناك بحثًا عن أخرى. الحق أني لم أستطع المطالبة بها حتى عن طريق القضاء.

في موسم الحج يستطيع أي مكيّ يمتلك بيتًا أن يفسخ الإيجار إذا أراد وقتما وكيفما يشاء، فالمستأجرون عنده يقعون في قبضته، ولا تمنع أواصر وعلاقات الصداقة أو القرابة هذا المكيّ البخيل من طرد المستأجرين القدامى عندما يجد آخر جديدا يدفع له أكثر. الآن أعرف ذلك جيدًا. منذ وصول الحجاج السوريين لاحظت من ملامح وسلوك حمدان أنه أصبح فجأة إنسانًا آخر في التعامل معي، الآن غدا يتجاهل وجودي بعد أن كان يلقي عليَّ وابلا من التحيات ويعاملني بفتور بعد أن كان ينافقني ولا يخفي فضوله، وبعد أن كانت تسيل من فمه كلمات المديح والترحيب "بأمير الجزائر"، توقف تمامًا عن الحديث معي، ولا يتكلم سوى مع السوريين الذين يحدقون مرتابين في هذه الغرفة الصغيرة الذي يخطط لأن يسكنهم جميعًا فيها.

يرجع هذا التغير الكلي في سلوك حمدان إلى اعتقاده أني لن أستطيع أو بالأحرى لن أوافق على دفع فرق الزيادة في أجرة الغرفة التي أراد أن يطالبني به؛ لكني كنت قررت ألا أدخر مالاً في سبيل المحافظة على غرفتي؛ لأنه بغض النظر عن الإزعاج بسبب تفريغ الحقائب ونقلها، مَن يعلم إذا كنت سأجد غرفة أخرى أم لا؛ لأن المدينة بأكملها تكدست بالحجاج السوريين.

ناديت على حمدان وحده جانبًا بعيدًا عنهم في مكان ضيق، واضطررت إلى أن أتخطى واكتسح بعض السوريين وتراشقت معهم بألفاظ السباب وهمست له في أذنه:

"يا حمدان! ما فعلته ليس أمرًا جيدًا، هل لك أن تطرد ساكنًا قديمًا عندك من غرفته بسهولة هكذا، دون أن تسأله هل سيدفع الزيادة في الإيجار أم لا!"

نظر حمدان إليّ غير مصدق كلماتي له وسألني ماذا أعني بها بالضبط؟ كان يعتقد أنه من المستحيل أن أوافق على زيادة أجرة الغرفة أو أستطع دفعها؛ لأنه قلّما امتلك أحد الحجاج المال كي يسكن بمفرده في غرفة في موسم الحج. بمجرد أن أكدت كلامي لحمدان بأني سأدفع له يوميًا نصف ريال أكثر مما عرض عليه السوريون تغير حمدان تمامًا وصار إلى حالته القديمة معي، رجع احترامه لي وتحياته والسلام الكثير وقال لي بكل ود اعتدت عليه منه من قبل:

"يا أخي، أنت حقًا ابن الملوك (يقصد باشا الجزائر المفترض أنه والدي) كي تتكفل بهذه النفقات المبهرة.!"

بالرغم من احترام وتبجيل حمدان لابن "باشا الجزائر" المفاجئ في نفس اليوم من جديد؛ إلا أنه طالبني بدفع الإيجار حتى نهاية الحج مقدمًا. لم أستطع الموافقة على هذا الطلب؛ لأني لست متأكدًا من حمدان، ربما أراد خداعي، فمَن يعلم؟ ربما بعد أن أدفع المبلغ كله يأتي لي حمدان بساكن جديد ويطالبني بدفع الأجرة من جديد؟ لقد قاومته هذه المرة بكل قواي واقترحت أخيرًا تخفيض عدد الأيام بأن أدفع لحمدان أجرة ثلاثة أيام مقدمًا. حتى ذلك الحين كنت أدفع لغرفتي يوميًا نصف ريال (أي عشرين قرشًا فضة، جيندر وربع)، أمّا الآن فقد زادت الأجرة خمسة أضعاف أي ريالين ونصف (ثلاثة

ونصف تالر برويسي أو ستة جنادر وربما أكثر). ولأني وعدته بأن أدفع له نصف ريال زيادة عن المبلغ الذي عرضه عليه السوريون، والذي ادّعى حمدان أنه ريالين، لذا صار الإيجار ريالين ونصف. كان هذا المبلغ في المدن العربية مبلغًا كبيرًا جدًا يكفي لاستئجار بيت كامل في القاهرة أو دمشق لمدة شهر؛ لكنها مكة في موسم الحج التي تشكل استثناءًا في مجال السكن كما في سائر المعاملات، لدرجة أن هذا الغلاء الفادح أصبح أمرًا معتادًا.

بموجب ضرورة احتياجي الشديد للغرفة كانت الآن عندي هذه الغرفة على الأقل، أو كان عندي الأمل فيها ووعد حمدان لي بها؛ لكن فجأة دلف الرجال السوريين العشرون إليها، وكان من الصعب إخراجهم منها إلا بمساعدة حمدان، الذي قال لهم أن عنده في الطابق السفلي غرفة أحسن بكثير ومريحة عن هذه، وسوف يعطيها لهم بنفس السعر الذين اتفقوا معه عليه. أدركت هنا أن هذه الغرفة المقصودة هي حظيرة الدجاج التي سكنت فيها في أول قدومي هنا. حاولت أن أكتم ضحكاتي وأنا أراهم ينسحبون من هنا؛ لأنهم سيظلون طول مدة الحج مقيمين في حظيرة الدجاج. رفضت بكل جرأة حتى توسلاتهم لي بأن أقبل الغلمان الستة في غرفتي؛ لأني كنت أريد أن أكون حرًا بلا ضيوف، وأخيرًا تخلصت من طوفان الحجاج في غرفتي، ونثرت طبقتين من مسحوق يكافح الحشرات كنت قد أحضرته معي؛ لأن الحجاج الورعين قد أحضروا لي معهم عددًا وفيرًا جدًّا منها. الآن فُتح من جديد باب الحريم الذي ظل موصدًا تمامًا في الفترة التي تواجد فيها هؤلاء الحجاج السوريين. أظهرت تلك المخلوقات الطيبة اللائي تحررن توًا من الحبس سرورهن ببقائي جارًا لهن، وكانت بنت العم لطيفة جدًا معي حين قالت لي: "يا عبد الرحمن! تحية منا لك يا جارنا".

الآن استغل الهدوء الذي عمّ غرفتي من جديد بالبقاء فيها؛ لأنها كانت باردة نوعًا ما مقارنة بالحرارة المرتفعة في الخارج، كي أواصلَ مراقبتي وملاحظاتي عن حياة الحريم. طرأ تغَيُّر كبير في مخدع الحريم بسبب الهربِ المفاجئ للشاب ذي البشرة الوردية وانضمام الأرملة الهندية الشابة إليهن. بدت بنت العم حزينة بسبب غياب ابنها الحبيب؛ فلم تعد تشارك في جلسات السمر واللهو مع باقي النساء، ويبدو أيضًا أن ذات البشرة الداكنة

بينهن قد كدر صفوها. اختلف سلوك هذه الزوجة الجديدة تمامًا عن سابقتها الأرملة السورية، التي كانت تتمتع بالطيبة ودماثة الخلق، أمّا الهندية فكانت عكسها تمامًا، يبدو أنها كانت زوجة أحد الأثرياء من دلهي أو كالكوتا وتختال بحجم ثروتها مما جعل علامات الغطرسة التي لا تُطاق تظهر عليها. لقد تنازلت بقدر ما استطاعت لمدة أسبوع أو أسبوعين لتدليل زوجها حمدان؛ لكنها كانت أبعد من أن تعيش مع باقي زوجات هذا الزوج المؤقت بنفس طريقتهن. فقد كان من الواضح جدًّا احتقارها لهن، فلو كانت تعرف اللغة العربية لسبتهن جميعًا بأكثر الألفاظ وقاحة وإهانة؛ لكن لأنها لم تكن تعرف هذه اللغة الجميلة اكتفت فقط بالتعبير من خلال ملامح وجهها وإيماءاتها التمثيلية عن قلة تقديرها لهؤلاء النساء. كان من الطبيعي أن ترد زوجات حمدون على غطرستها بمحاولات استنزاف أموالها وتدبير المكائد لها أحيانًا.

استطاعت إحداهن إقناع الجميلة السمراء المتغطرسة بأن تستخدم أحد مساحيق تجميل البشرة التي ستجعلها تتمتع بلون بشرة فاتح جميل. وقد اقتنعت البلهاء الهندية بأن لون البشرة البيضاء سيليق عليها؛ فدهنت وجهها يوميًا بهذا المسحوق الأبيض البشع الذي كان يبدو كالصمغ، وجعل منها أكبر أضحوكة.

أُتيحت لي فرصة أن أري تلك السمراء التي لطخت وجهها باللون الأبيض بدون حجاب عندما غادرت غرفة الحريم ذات يوم لتصل إلى غرفتها المحجوزة لها في الطابق الأعلى، وأستطيع أن أؤكد أنني استمتعت بهذا المشهد المضحك. كنت أسمع في كل مرة تغادر فيها الهندية غرفة الحريم صوت جلجلة ضحكات باقي الحريم، بينما كنَّ يبدين استحسانهن لهذا اللون غير الطبيعي لأرملة الثري قبل خروجها. أمّا عن حمدان، الذي لم يعارض الاستهزاء وخداع زوجته الرابعة المؤقتة، فقد كان بالنسبة لي لغزًا! على أيّة حال أنا أعتقد أن حمدان لم يكن يهتم بشخصية هذه الزوجة الأقل جاذبية له؛ لكن كان شغله الشاغل الروبيات الهندية فقط، حيث أظهر حبه لها وشوقه إليها لينهبها ويسلبها ثروتها كما فعل مع سابقتها الأرملة السورية.

لكن القدر لم يمنحني فرصة معاينة لحظة مغادرتها جنة زوجها حمدان؛ لأنه كان يجب عليَّ أن أقطع دراستي عن الأخلاق في مكة فجأة في يوم العاشر من ذي الحجة وأن أغادر البلد الحرام سريعًا كما لو كنت لاجئًا، وسأوضح السبب في ذلك فيما يأتي.

أمَّا الآن فقد كانت الهندية سعيدة جدًا باحتلالها المكانة الأولي في الحريم بالرغم من المقالب المضحكة التي دبرتها لها باقي الزوجات؛ لكنها وجدت تعويضًا عن ذلك في الزيارات المتعددة لها من أكابر نساء مكة، اللائي أردن مشاهدة أعجوبة البحر. والحق أنهن يأتين لمشاهدة هذه الأرملة الثرية والتعجب من جمالها غير العادي وتغافلن تمامًا عن أن أشكال الحُلي الغريبة عليها هي التي أغرتهن بزيارتها. لم أستطع للأسف رؤية هؤلاء الزائرات اللائي ارتدين حجابًا غطَّاهن تمامًا؛ لأنه في كل مرة عندما كانت تأتي مجموعة كبيرة من النساء، كان حمدان يصعد الدرج مسرعًا ويغلق الباب سواء كنت متواجدًا في غرفتي أم لا. لقد سادت هذه الأخلاق الكريمة في مكة خاصة وعند العرب عامة. لكن من خلال الشقوق الصغيرة في باب غرفتي استطعت أن أراقبهن عندما يكون باب غرفتهن مفتوحًا، فيما عدا ذلك ساد الظلام في الممر بين الغرف، واليوم نفَّذت الحريم أمر حمدان بإغلاق باب غرفتهن سريعًا ولا يُفتح إلا لحظة دخول الزيارات ثم يُوصد. أمَّا إذا لم توجد زيارات ولم يكن حمدان بالقرب من غرفتهن، فكان بابهن يظل مفتوحًا، وكذلك باب غرفتي، واستطعت آنئذٍ متابعة مراقبتي لهن. إذا لو كان لدى حقا قدر كبير من الشجاعة لاستطعت زيارتهن.

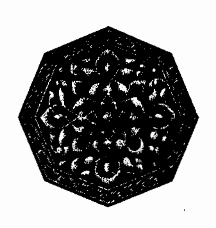
هكذا مرت ساعات ما بعد الظهيرة دون مكسب فيما يخص لذة مراقبة الحريم في مخدعهن، أمَّا أوقات ما قبل الظهيرة والمساء، التي كنت أقضيها خارج المنزل، فقد كانت أكثر طرافة ومتعة بالنسبة لي. لقد زادت الضجة في شوارع البلد الحرام بسبب الحجاج مختلفي الشكل والأصل واللون الذين جاءوا مع القافلتين، مما كان له جل الأثر على مخيلتي، فعندما كنت أجلس في دكان مراد أو في أحد المقاهي كانت تمر الصور الضبابية وكأني أجلس أشاهدها في مسرح عالمي، وأتلذذ بتعدد المشاهد والظواهر في هذا المكان الذي تعمه الضجة والفوضى التي لا مثيل لها في أي مكان آخر في العالم. حينما كنت

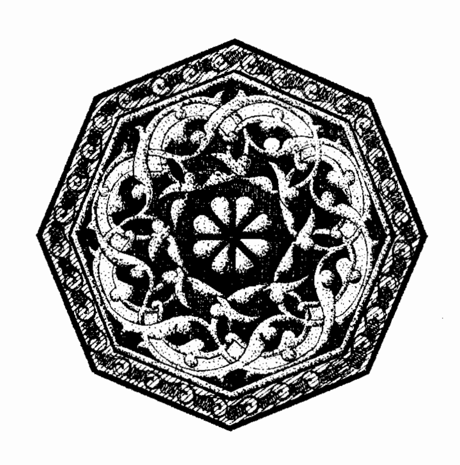
أشعر بالتعب حتى درجة الخدر من الساعات الطويلة التي كنت أمضيها في مشاهدة ومراقبة ما يجري، كنت أدلف إلى داخل المسجد، حيث لا يوجد الهدوء أيضًا؛ لكن كانت تسود المكان حالة من الرتابة اللافتة للنظر؛ لأن كل الحجاج يرتدون في الخارج ملابسهم المزركشة الوطنية المميزة للشعوب الإسلامية، بينما هم في داخل المسجد قد لفوا أجسادهم بملابس الإحرام البيضاء ذات اللون الواحد، مما أشاع جو الكآبة والسأم.

كنت أزور المسجد الحرام يوميًا مرة أو مرتين، وأقوم بالطواف حول الكعبة طبقًا لتعليمات صادق لأن كل حاج ورع يجب عليه القيام بذلك كلما أمكنه ذلك.

في الرابع من ذي الحجة دعوت الناس في بيت حمدان على وليمة كبيرة، ذُبح فيها كبشان، ضحيت بهما لأني لم أقم بالسعي بين الصفا والمروة مباشرة بعد وصولي مكة وبعد الانتهاء من الطواف. استغل صادق المطوِّف الماكر عدم علمي بهذا الأمر كي أقوم بهذه المخالفة وأضحي بالكبشين اللذين سيستفيد منهما هو وابنه؛ فهم لا يكتفون بالأكل منهما ودعوة كل قبيلتهما إلى الطعام فقط؛ بل هما يذبحان الحيوانات ويحتفظان بفروها ويدعون الناس إلى الطعام، وطبعًا كل ذلك في مقابل المال. بالإضافة إلى سكان بيت حمدان، وبالأخص عائلة مراد، دعوت أصدقائي المصريين للطعام، الذين تواعدت معهم على الصعود إلى عرفة معًا.

في هذه الآونة اقترب يوم صعود جبل عرفات، حيث يجتمع الحجاج هنا ويحصلون على لقب "الحاج"، الذي يتحقق فقط بالوقوف هنا في هذا اليوم، وبه تُتوج وتُختم أعمال الحج كلها.







الفصل العشرون
الصعود على جبل عرفة

التهيؤ للصعود إلى عرفة في المسجد - خروج قافلة الحجاج السورية - شارع الحجاج - المقابر - الثكنة - ضواحي مدينة المزدلفة - المسير ليلاً - النظرة الأولى لجبل عرفة - مدينة الأكواخ والخيام - جبل عرفة - أشعار العرب - التلبية - صعود الجبل - محطة آدم - منصة الخطبة - المقام على قمة الجبل - مسجد الصحراء - العودة إلى الأكواخ - موت الشيخ مصطفى - طيش أبناء أخيه - الخطبة على جبل عرفة - الخطيب - البكاء والعويل - الهبوط من على الجبل - مسجد المزدلفة - خطبة عيد الأضحى - الذهاب إلى منى - المبيت بمنى - الأضحية - العودة إلى مكة - خلع ملابس الإحرام.

في ظهيرة اليوم السابع من شهر ذي الحجة بلغت الحركة والنشاط في شوارع مكة أوجها، حيث تحركت حشود لا حصر لها من الحجاج مرتدين ملابس الإحرام مجددًا بأجسادٍ نصف عارية، مما كان بالنسبة لي أعلى درجات الرتابة؛ كي يبدؤوا رحلة الصعود إلى البقعة المقدسة جبل عرفات؛ كي يتموا آخر فرائض الحج بأداء تلك الخطوة الهامة فيه.

كنت في صحبة كل من صادق وعليّ والشيخ مصطفى، الذي كان يحمله أولاد أخيه، والرجل البدين الحاج عمر، وقد جاءوا جميعهم إلى بيت حمدان؛ كي أكون برفقتهم، واتجهنا صوب المسجد الذي كان قد اكتظ بالأعداد الغفيرة من المصلين، حيث انتظرنا

حتى ساعة طلوع الشمس طبقًا لمناسك الحج. ثم غادرنا البيت الحرام من باب السلام ودلفنا إلى شارع المؤتة، ثم إلى زقاق المعلاة ووصلنا أخيرًا إلى السهل الرملي الذي يحد البلد من جهة الشمال. هنا يبدأ الطريق من مكة إلى جبل عرفة الذي يبلغ ثلاثة أميال فقط على طريقة الحساب الألمانية، والتي يقطعها الحاج غالبًا مع هذا البطء في اثنتي عشرة ساعة سيرًا على الأقدام أو على الحمير والجمال البطيئة.

صادفنا عند ضواحي البلد الحرام حشودًا جمة من الحجاج، كما أن القافلة السورية كانت قد تحركت. كان مشهدًا عظيمًا حقا. في مقدمة القافلة السورية كان يوجد الجمل المقدس مرفوعًا عليه "لواء النبي" (لم يكن اللواء الحقيقي المحفوظ في القسطنطينية ولكنه تقليد له ويطلقون عليه نفس الاسم). كان هذا الجمل أحد جملي المحمل في رأس القافلة، ولم يكن يوجد إلا المحمل السوري والمصري[1]. ويمكن القول أن هذا الأخير كان أكثر قدسيةً بالمعنى الحرفي للكلمة من السوري؛ لأن المحمل المصري لم يكن يحمل اللواء المقدس فقط؛ بل هدايا وعطايا السلطان الأعظم للكعبة، وهي عبارة عن كسوة الكعبة. أمَّا المحمل الشامي فقد تفوق على الكل في العقود الأخيرة من حيث العدد والأهمية، وكانت له أهمية خاصة عن باقي القوافل، لأن أحد كبار المسئولين يقوم بنفسه بمهمة الإشراف عليه نائبًا عن الوالي؛ لذا حظي المحمل الشامي بنفس أهمية وتقدير المحمل المصري. لم يكن لواء النبي مبسوطًا آنذاك بل محفوظًا في الجراب الخاص به، وكان على المحمل المصري أن يلحق فيما بعد بالشامي وينضم إليه.

كان يمشي خلف المحمل كبار الشخصيات ثم عدد كبير من الحجاج السوريين، أمَّا الحجاج الأثرياء، والباشا ورفقاؤه، الذي يقوم كل مرة بأداء فرض الحج، وعدد كبير من الحريم، من بينهم أيضًا بعض الجواري من القسطنطينية والأغوات الذين يرافقونهن،

---

١ من أبرز تلك الطقوس ما يسمى بالمحمل بأنواعه المختلفة كالمحمل الشامي والمحمل الهندي والمحمل المصري وغيرهم، حيث كان الحجاج يجتمعون في مراكز مختلفة، يجتمعون في الكوفة ودمشق وبغداد والقاهرة وتونس وفاس وصنعاء لتنطلق المسيرة إلى مكة قبل موسم الحج بنصف عام، وغالباً ما يكون الاجتماع للانطلاق صوب مكة في شهر رمضان. ورغم أهمية المحمل في فترات الحج إلا أنه لا يستفاد منه للركوب عليه أو لنقل الأشياء من خلاله، ولا بوضع الأشياء المتعلقة بالحج من أغراض وأدوية وغذاء عليه..إلخ، أو حتى حاجيات قائد المسيرة والقافلة؛ وإنما تُحمل عليه نسختان من القرآن الكريم كرمز روحي فقط وشكل خارجي يوضح إلى من أي منطقة أو بلد جاءت الحملة، فلكل منطقة جغرافية محمل يمثلها، حيث يعتبر بمثابة الهوية الجغرافية والثقافية لتلك المنطقة. (المترجمة)

فقد كانوا يجلسون على مَحَفَّات تُشد بين كل جملين أحدهما يتقدم الآخر، وكانت تُزين تلك التي تحمل الحريم بشكلٍ بديع، حيث كانت تُرفع على بعضها باقات من الريش الأحمر وعلى البعض الآخر أهلة من الذهب. كان يسحب كل جمل من هذه الجمال أحد فتية البدو وأغلبهم هم أبناء أصحاب الجمال، جاءوا معهم من دمشق؛ لأن هذه الجمال كانت تُستأجر لفترة الحج وليست ملكًا للحجاج. أمَّا الحجاج متوسطي الحال فقد كانوا يركبون على هوادج أصغر حجمًا مثبتة على ظهر الجمال لذا كانوا يترنحون يمينًا وشمالاً بفعل الرياح، وهم يعرفون جيدًا دوار البحر الذي قد يحدث لهم بسبب ركوب الجمل.

وفي بعض الأحيان كان يحمل جمل واحد هودجان، يُثبت على كل جانب واحد، مثلما يحمل الفلاحون في ايطاليا سلال السوق. لكن وسيلة النقل هذه تعتبر خطيرة جدًا ويجب منعها؛ لأنه في حالة سقوط أحد الهودجين سيؤدي حتمًا إلى سقوط الآخر، وقد كنت بنفسي شاهدًا على أحد هذه الحوادث حينما سقط كلاهما فوق بعضهما، وكادت السيدتان العجوزتان من دمشق اللتان كانتا داخله أن تموتا. أعقب هذه الهوادج في السير الحجاج الفقراء، يمتطون حميرًا صغيرة استأجروها من مكة، والبعض جاء ماشيًا، وعدد منهم ليس بالقليل كانوا حفاة. أحاط بهذا المسير ذي الضجة المربكة رجال البدو من القبائل المحيطة بمكة وعدد كبير من الوهابين، كان بعضهم يركب الخيول ولكن أغلبهم جلسوا على الجمال، فبدت أجسادهم ضخمة حقا لها تأثير مهيب على مَن يرونهم، وأظهروا قدرتهم على الحركة بخفة وسهولة؛ على النقيض من الكتل البشرية المتثاقلة في قوافل الحجاج. لبس كل هؤلاء الرجال "اللثام" تقريبا؛ وهو عبارة عن شال يغطي العنق والأكتاف ويمتد حتى الوجه فيغطي غالبًا الأنف، ولبسه يعتبر عادة بدوية أصيلة، الغرض منها حماية الشخص من أشعة الشمس الحارقة. كما ارتدي بعضهم عمامة خفيفة على رؤوسهم يُسحب طرفها لأسفل حتى تغطي الوجه، فيصعب تمييز الرجل من المرأة المحجبة. كان يخرج بعض البدو في المدن المجاورة مباشرة لمكة بصحبة زوجاتهم، اللائي كن أيضًا يضعن الحجاب ويغطين وجوههن مثل أزواجهن، إلى جانب أن لهن أجسادا نحيلة هزيلة تبرز عضلاتها، وقد كشفن عن سيقانهن وأذرعهن المحترقة من لهيب

الشمس فبدَون كالمقاتلين؛ لكن في نفس الوقت كان منظرهن مرعبًا قبيحًا، لدرجة أنه كان من الصعب جدًا تمييز القبيح مِن الجميل بين هذه الكائنات، إذْ كانوا يطلقون على هذه الكائنات الأشبه بالساحرات "النساء". وعلى الرغم من عدم رؤية وجوه هؤلاء "الحسناوات"؛ إلا أنه من التجاعيد الكثيرة في باقي الجسم يمكن استنتاج أن الشيخوخة المبكرة قد نالت منهن جميعًا.

لحقت بالقافلة السورية مع أصدقائي المصريين وعائلة صادق التي لا تفارقني كنبتة قرطب التصقت بي، كنا نجلس جميعًا على حمير صغيرة ماعدا أولاد أخ الشيخ مصطفى الذين كانوا يمشون بجانب هذا الكهل المريض كي يظل جالسًا مستقيمًا على حماره؛ لأن ذراعيه كانا قد هزلا وكأنهما لجسدٍ ضعيف يحتضر لدرجة أنه من المؤكد أنه سيقع من على حماره بدون مساعدتهما، والذي بالرغم من حالة المرض والهزال التي ألمت به، لم يرد أن يفوّت فرصة أن تكون رحلة الحج هذه، التي لا تصح سوى في هذه الأيام من العامَ، آخر محطة في حياته على الإطلاق.

ستصادفنا حالاً في نهاية الركن الشمالي للبلد الحرام قناة مياه مكة المكرمة التي تغذي البلد بمياه وفيرة، إلا أنها كانت كريهة غير صالحة للشرب، وبالتوازي مع هذه القناة يبدأ شارع الحجاج إلى عرفة. توجد في بداية هذا الشارع بعض المباني والمصالح العامة، تبدأ بخزانات المياة الكبيرة الخاصة بالمصريين والسوريين، وعلى الجانب الأيسر للشارع نجد أكبر مقابر مكة، التي تشكل غابة حقيقية من نبات السرو؛ لأن العرب اعتادوا غرس شجرة من هذه الفصيلة بجانب كل قبر، هذه الأشجار لا يُعتنى بها؛ لكنها ليست تالفة وبمرور الوقت بلغت ارتفاعًا كبيرًا. كان الحال كذلك أيضًا في بيرا في القسطنطينية حيث نجد المقابر عبارة عن غابات حقيقية. في مقابل المقابر، من جهة الشمال بجانب بركة مياه كبيرة متفرعة من قناة مكة، يصادفنا قصر شريف مكة، الذي بُني كبيت كبير على الطراز المكيّ. في نهاية الشارع الذي به المقابر من الجهة الشمالية توجد أكبر ثكنة عسكرية تركية، والتي كان بها وقتذاك حامية كبيرة يُرسل منها الجنود الذين يرافقون قافلة الحجاج، وفي فناء هذه الثكنة كانوا يقفون مرتدين ملابس الإحرام، الرداء والإزار،

وعلى أهبة الاستعداد للانضمام لقافلة الحجاج حينما تمر من هنا. بسبب مسير هؤلاء الجنود الأتراك خلف قافلة الحجاج السورين، الذين كانوا خلفنا أيضًا مباشرة، ابتعدت عن رفاقي الذين كانوا معي، ولم أستطع مقاومة زحفهم واختراقهم جمعنا؛ ولذا عانينا جميعًا من التأخير والتباطؤ. نتيجة لتزايد أعداد الحجاج الجدد الذين ينضمون إلينا كانت تتسع الهوة بيننا وبين القافلة السورية، لدرجة أننا قطعنا حوالي ساعة ونصف في الطريق حتى استطعنا بالكاد أن نقف مجددًا خلف قافلة دمشق.

بدت على هؤلاء الجنود الأتراك الذين انضموا للمسيرة علامات البؤس؛ فعلى الرغم من أنهم شباب يكادون أن يكونوا جميعًا في السابعة والعشرين؛ إلا أنهم شاخوا، فقد أدى كل من سوء التغذية والأمراض وإهمال العناية إلى خلق ثغرات كبيرة في الجيش التركي سنويًا، أمَّا مَن يظل على قيد الحياة منهم فتظل صحته سيئة. وفقًا لبعض الحسابات، فإن حوالي ثلث الجنود الذين يتم تجنيدهم سنويًا يصلون إلى نهاية مدة خدمتهم الإجبارية، ويموت الثلثين الباقين غالبًا بسبب الأمراض المعدية مثل حمى التيفود والدوسنتاريا وماشابه ذلك، التي تصيب هؤلاء التعساء وتنتشر سريعًا بينهم، ومن المؤكد أن ذلك يرجع إلى كل من سوء التغذية والعناية والملبس.

بعد الثكنة العسكرية مررنا بمجموعة من البيوت كبيرة يطلقون عليها مدينة، كانت أكبر الضواحي التي يسكنها بدو من قبائل مجاورة استوطنها بعضهم مجددا وآخرون من المعابدة استوطنوا مكة منذ زمن بعيد، بالإضافة إلى مجموعة من البدو المهاجرة هنا وتشكل شعبًا غير مستقر. البيوت في الغالب صغيرة وقبيحة. بالإضافة إلى تلك البيوت من الحجارة كانت توجد بعض العشش والخيام لاستقبال الزوار، تبيع لهم فيها نساء البدو الخبز والزبد والفاكهة.

هنا عند هذه الضاحية يتفرع الشارع الرئيس الكبير، الذي يمتد حتى شمال مكة، إلى فرعين. امتد طريق الحجاج صوب الشرق، الذي يؤدي إلى البقعة المقدسة عرفات ونحو الشمال، حيث يوجد وادي فاطمة، الذي يؤدي إلى المدينة وسوريا. سرنا بالطبع في الطريق الأول. مررنا في نهاية المعابدة (el Moabida) من ناحية الجنوب بأحد قصور

شريف مكة الذي كان يقيم فيه في هذا الوقت. كان هذا القصر العشرون الذي رأيته منذ وصولي مكة. في مقابل هذا القصر وعلى جهة اليسار من طريق الحجاج يوجد معسكر الحجاج المصريين، الذي لم يكن هامًا بالنسبة لعدد كبير من الحجاج المصريين الذين يفضلون حديثًا السفر بحرًا عن طريق السويس والقصير. إلا أن القافلة المصرية كانت لها أهميتها ومكانتها بسبب المحمل الذي يأتي كل سنة بصحبتها حاملاً هدايا السلطان للكعبة وبالأحرى كسوة الكعبة السوداء. بمجرد انضمام القافلة السورية لمعسكر المصريين استقبل الجميع هذه الحيوانات المباركة بصيحات التلبية العالية التي خرجت من حناجر الحجاج، ووقف المحمل السوري بجوار المصري على رأس مسيرة الحجاج. قاد مصريان هذين الجملين اللذين يعتبرهما الحجاج حيوانات مقدسة. كان هذان المصريان من أغرب الأشخاص الذين رأيتهم في رحلة حجي. فقد كان لكليهما نفس الجسد النحيل والعينين القابعتين كما هو حال جميع المصريين بسبب مرض الرمد. فيما عدا ذلك كان الرجلان مختلفين تمامًا. كان أحدهما رجلاً كهلاً يبلغ حوالي ستن عامًا، لون بشرته قمحية مثل جنس المولاتو، له فم فاغر تبرز منه أسنان بيضاء جميلة، وأنف أفطس مقلوب بكل جرأة لأعلى، ولحية شعثاء بيضاء لها نهاية طويلة رفيعة كلحى اليهود. أمّا الرجل الثاني فيبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا تقريبا، وربما كانت بشرته الفاتحة نسبيًا ناعمة ذات مرة، ثم أصبحت سلسلة لا نهائية من الهضاب والوديان؛ حيث غطت البثور كل أجزاء جسده وما أدراك ماهذه البثور! نمت على كل منها خصلة صغيرة من الشعر مما أكسبه منظرًا غريبًا جدًا يجعل كل من يراه لا يستطيع النظر إليه دون التردد بين الشعور بالشفقة نحوه أو الضحك منه. لم يكن المضحك والغريب هو المظهر الخارجي فقط لهذين الرجلين؛ ولكن كان أيضًا يكمن أكثر في سلوكهم وطريقة تعاملهم مع الجمل. فبدا كأنهما قائدا هذين الجملين وأرادا أن يقدسهما وويوقرهما الحجاج مثلما يفعلان مع الجملين، فمشيا بقامة مفرودة مستقيمة، ينظران بكل فخر وجرأة حولهما كلما سمحت حالة الحزن الدائمة في عينيهما بذلك. كل هذا العالم لم يكن شيئًا في نظر قائدي الجملين المباركين اللذين حظيا بكل تقدير وإجلال؛ لكن للأسف لم يستمر تبجيل وإجلال هذين المتغطرسين طويلاً،

حيث لم يركع أمامهما أبناء وطنهم المصريون ولم يقبّلوا أيديهم القذرة، فبدى على ملامح هذين القائدين افتقاد الرضا، وتبدلت ملامح وجهيهما، وفاضت عيناهما بالدمع صوب السماء.

أمّا السوريون فلم يظهروا هذا التبجيل والتقديس لقائدي المحمل المصري في هذا اليوم، ولم يكتفوا فقط بعدم تقبيل يديهما؛ بل أهانوهما، وقد رأيت بعيني أحد الصبيان الوقحين يبصق على يديهما؛ إلا أنهما تظاهرا بالصفاء والتسامح اللذان يمثلان لمن يستمتع بهما في مثل هذه الحالات دلالة على الجبن الذي يعتبر من السمات الرئيسة للمصريين. لعب القائدان دور الشهداء الذين يعانون ويكابدون من أجل الحق ويتحملون الإهانات في سبيله. كانا ينظران بين الفينة والفينة إلى جمليهما ليجترا تعاطفهما وكأنهما يقولان لهما: "يا سيدي! (لأن الجمل كان بالنسبة لهما صنمًا) هذا الأذى نتحمله لأجلك فقط."

لكن الجمل ناكر الجميل كان غبيًا، فلم يظهر استعداده لدفع أدني حساب للمهانة التي تحملاها من أجله.

انضم لمؤخرة القافلة السورية عند معسكر إقامتها عدد ليس كبيرًا من الحجاج المصريين، الذين جاءوا في القافلة المصرية الآتية من القاهرة، والذين أتوا عن طريق جدة بحرًا، مما جعلنا نبعد أكثر عن القافلة الرئيسة.

في هذه الأثناء كان الليل قد أسدل ستائره على المكان. انطلقنا من عند الكعبة في الساعة السابعة والنصف مساءًا ووصلنا المعابدة (el Moabida) الساعة التاسعة والنصف تقريبًا، ونبعد الآن نصف ميل عن المسجد الحرام. ولأننا دخلنا الآن وقت الربع الثاني للقمر كان يجب علينا أن ننتظر سويعات بعد منتصف الليل حتى بزوغ ضوء القمر؛ كي أستطيع أن أرى الناحية التي وصلنا عبرها حتى وإن لم تكن الرؤية واضحة تمامًا.

في أثناء الساعتين الأولين بعد رحيلنا من المعابدة (el Moabida) وصلنا عبر أحد الأودية، الواسع نسبيًا الواقع شمال جبل أبي قبيس، إلى الجهة الشرقية لمكة. كان المكان سيئًا؛ فعلى قدر ما استطعت رؤيته في هذا الضوء الخافت للقمر، امتدت الصحراء

وتناثرت هنا وهناك بعض الأشجار مثل شجرة سنط وشجرة بلسم الليمون التي بدت كالحلم في المكان. ثم وصلنا إلى أحد الوديان الذي أخذ يضيق تدريجيًا حتى وصلنا لحدود صخرية على كلا الجانبين، حتى أصبح السير بينهما صعبا جدًّا. ضاق الطريق أكثر فأكثر حتى انتهى بنا إلى الأرض المرتفعة من الوادي.

هنا مكث الحجاج فترة طويلة؛ لأنه كان يجب عليهم أن يمروا اثنين اثنين وفي بعض المناطق فرادى واحدا تلو الآخر، واستمر توافدهم إلى عرض الوادي بالكامل حتى الآن.

كانت تقع منى (Menaa) تلك البقعة التي يقدسونها (كتبها بوركهاردت بالحروف الإنجليزية Muna) في مجرى سيل هذا الوادي. كانت البيوت والأكشاك فيها لم تنته بعد، وبدت على ضوء المشاعل التي حملها الحجاج كأطلال تثير المخيلة بأن الأشباح تسكن المكان الذين يمكن مقارنتها بالحجاج الذين يغطون نصف أجسادهم بملابس الإحرام البيضاء. حيا الحجاج هذا المكان بصياحهم العالي وهتافاتهم بالتلبية التي كانت ترج أصداؤها أرجاء المكان بأكمله. لم نمكث في هذه القرية طويلًا، لأنه لا يُسمح لنا بالبقاء هنا إلا بعد الوقوف على عرفة وبعده نتم بعض الشعائر الخرافية.

خرجنا من الأرض المرتفعة الضيقة في الوادي نحو الساعة الخامسة صباحًا بعد أن أمضينا الليل بين العديد من الاختناقات المرورية في هذا الوادي؛ ولكن المسير كان يتقدم دائمًا للأمام، وفي وضح النهار استطعت أن أرى أرضًا عند سفح جبل عرفة بكل وضوح.

هذه الأرض كانت عبارة عن صحراء خالية من الزرع إلا من شجرة بلان شوكي جافة. كانت الصحراء تملؤها الحجارة والدبش والحصى، وتظهر عندها الهضبة السفلى لجبل عرفات. كانت صحراء قاحلة ومخيفة لم أر مثلها قط من قبل، يوجد بها شيء واحد فقط على قيد الحياة أنعش شعور الوحدة فيها، ألا وهو التعصب الديني لهذا الحشد الخرافي من الحجاج، الذي أقام عرشه في وسطها. تحسنت حالة الرتابة والسأم التي شعرت بها في المكان عندما وجدت في الفضاء البعيد جبال الطائف المتعرجة؛ لكنها بدت أيضًا قاحلة وبائسة ككل شيء أحاط بي هنا.

بمجرد وصولنا شرع الحجاج في نصب خيام المبيت، حتى بدا هذا السهل الرملي بعد رحلة استمرت ساعة ونصف مثل مدينة مزدحمة جدًا بالخيام.

كان بعض الحجاج قد وصلوا هنا منذ عدة أيام، وقضوا الليل إمّا في خيامهم أو في المقاهي وأكشاك الزوار التي أنشأها المكيون لهم. كان منظر مدينة الخيام هذه في منتهى الغرابة، هنا تناثرت الخيام في كل أنحاء السهل الرملي، وهنا أُقيمت العديد من صفوف الأكشاك والأكواخ التي كان لها طابع الطرق الرسمية، وفُتحت فيها الأسواق والبازارات. بركت الجمال والحمير والبغال بين هذه الخيام، وقام على حراستها بدو يرتدون ملابس رثة بالية. كان يبزغ بين الفينة والفينة ضوء أشعة الشمس في الصباح على الهلال الذهبي المعلق على خيام المكيين الأثرياء التي كانت تتكون من أقمشة لونها أحمر وأصفر زُينت بالعديد من الحلى الملونة. كان يوجد في الجهة الشرقية معسكر الجنود الأتراك المساكين. امتدت بجانبه الخيام الخضراء لشريف مكة وأعيانها يحيط بها العديد من الألوية. هنا استقرت وبركت جمال المحمل المقدسة ورفرفت الألوية الخضراء الفخمة من قماش الحرير المرفوع عليها بسبب رياح هبت من جهة الشرق. أمَّا الحجاج الفقراء فقد نصبوا خيامهم في جهة الجنوب الغربي. استشعر عدد قليل فقط من الحجاج الحاجة إلى الراحة بعد هذه الرحلة الليلية الطويلة التي أمضيناها أمس، فدخل ربعهم على أقصى تقدير خيامهم للراحة، أما الباقون فتجولوا بين الخيام، واكتظت بهم شوارع عرفة التي كانت تتكون من الأكواخ والخيام.

كانت لقرية الأكواخ في تلك الأيام مقومات ومعالم المدن العالمية؛ حيث كان لكل تاجر مشهور في مكة كشكه الخاص يحاول فيه إغراء الحجاج واستمالتهم للشراء منه بأسعار تمثل عشرة أضعاف السعر الأصلي. كما كان يوجد العديد من المقاهي وأكشاك الحلاقة؛ لأن حلق رأس الحاج كانت من أهم مناسك الحج في عرفة. كانوا حتى هنا في مدينة الحجاج المقدسة هذه يتاجرون بالأخطاء البشرية كما لو كانوا في مكان شعبي فاسد، حيث كانت توجد أكشاك لبيع المشروبات الروحية سرًا، حتى مدخنى الحشيش وجدوا هنا أحد الأزقة الرديئة حيث تجد أرواحهم جنتهم التي يحلمون بها، ويربطون في مخيلتهم بين هذا الجبل

المقدس وبين الصور الجريئة التي تدور في أدمغتهم التي بدأت تتعرق وتنتشي. كان يوجد بجانب هؤلاء بعض الناس الذين لم يمارسوا تجارتهم في السر، وكانوا عبارة عن عدد كبير من "بعض النساء" هنا في نفس المكان الذي استشعرن فيه حاجتهن للقب الحاجَّة الديني الورع؛ لكن لم يمنعهم ذلك من إلهاء الحجاج الورعين عن نشوتهم.

بالإضافة إلى أماكن الإيواء هذه التي خُصصت للحجاج كانت توجد في مدينة الخيام بيوت مبنية بالحجارة انتشرت في أنحائها؛ لكنها كادت تختفي خلف هذه الإنشاءات المؤقتة، وهي عبارة عن بيت لشريف مكة يقع بجوار بركة المياه مباشرة، لم يسكن فيه أبدًا، ومسجد صغير اسمه جامع الصحراء، ومدرسة أقام الحجاج المصرين عندها، وعدة خزانات مياه. كما كانت تظهر هنا وهناك إحدى النقاط العسكرية الصغيرة وبعض المباني الأخرى غير المهمة.

كنا متواجدين نوعًا ما بين هذه المجموعة الأخيرة التي وصلت في هذا اليوم إلى قرية الأكواخ هذه. لقد قطعت القافلة السورية الطريق سريعًا ونصب الحجاج خيامهم قبل طلوع الفجر فعلا. ولأنه كان اليوم الثامن من شهر ذي الحجة والشعائر المهمة تبدأ في اليوم التاسع كان عندنا يوم نقضيه عند سفح جبل عرفة مما جعلنا لا نشعر بالملل؛ بل أتاح لنا أقصى فرصة لمعايشة التغيير والتنوع هنا. بعد أن نمنا سويعات في أحد المقاهي وهو في نفس الوقت أحد دكاكين الحلاقة واخترناه نفسه لقضاء الليلة المقبلة، قضينا باقي النهار نتجول في بلد الخيام والكهوف التي دب فيها النشاط والحيوية. عقب ذلك شاهدنا الألعاب الخطيرة للسحرة الهنود الذين ظنوا بذلك أنهم يسلون ويبهجون الحجاج عن طريق الركض وهم يحملون سكينًا بين أعينهم أو خنجرًا في بطونهم. على أيّة حال تعتبر مثل هذه الألعاب خطيرة على الحياة إن لم يقم بها محترف. وقفنا بعد ذلك وسط حشد من المتفرجين التف حول أفعى تعضها حيات أخرى وتلتهمنها. كنا ننصت لإحدى فرق الموسيقى العربية تعزف على الناي والطبلة نغمات غير متجانسة. ثم استمعنا بعد ذلك إلى موال عن إحدى القصص الخرافية المصرية تمدح حظ الحجاج؛ لكني تجهمت من طريقة الغناء غير المناسبة لموضوع هذه الأغنية الورع. واصلنا التجول حتى صادفنا

مجموعة من الأشباح البشرية؛ هي عبارة عن نساء ارتدين ملابس الإحرام التي تغطيهن بالكامل، حتى لم نكد ندرك أين وجوههن؛ لأن العينين أيضًا قد سترتا بشالٍ. قضيت بعدها سويعات في الثرثرة مع مراد تاجر الفرو، الذي يمتلك أحد الأكشاك لبيعه، وكان يحاول إقناعي بشراء أحد فرائه؛ لكني لم أكن زبونًا له. بعد ذلك زرنا أحد معسكرات البدو، الذي نُصبت فيه الخيام على شكل دائرة في مركزها بركت الجمال والدواب، كان الناس يجلسون هنا في جماعات، وينصتون لأغنية أحد شعراء البدو، الذي امتدح أفعال أجداده وأسلافه بلغة عربية رصينة.

أخيرًا أسدل الليل ستائره على المكان وأضفى عليه مشهدًا بديعًا، حيث أُضيئت الخيام والكهوف بعدد لا نهائي من المصابيح والكرات الملونة؛ مما شكلَّ منظرًا أدهشنا جميعًا. كما أُضرمت النيران أمام الكثير من الخيام، فصار المكان كله مشرقا ومصقولا، والذي استمر توافد حشود الحجاج إليه تباعًا واحد تلو الآخر حتى منتصف الليل.

بعد الساعة الواحدة استطعنا أن ننصب خيمتنا الليلية في كشك القهوة الذي حجزناه، ونلنا قسطًا من الراحة قبل أن تزعجنا طلقات النار التي تعلن صباح يوم عرفة. بعد أن صلينا الفجر في العراء بحثنا عن مقهى آخر؛ لأن الذي نمنا فيه كان قد اكتظ وازدحم بالحجاج، ولم نعد نستطيع الجلوس فيه. كنا بمجرد وصولنا إلى مقهى آخر لنجلس فيه يضيق المكان بالحجاج ويتسخ، فأشرع في الهروب منه إلى خارجه أنا ورفاقي الذين لا ينفكون عني أبدًا، عائلة صادق المطوِّف؛ لكي نبدأ الصعود إلى جبل عرفة.

لَّما خرجت من باب المقهى، استمتعت وسررت بأحد المشاهد العظيمة والبديعة. سطعت أشعة الشمس المتوهجة على جرانيت جبل عرفة، فأحدثت هناك مددًا ساخنًا من الدفء ودرجة اللون الكثيفة، وهذا مشهد لا نراه أبدًا في أوربا ضعيفة الإضاءة. كانت كل الكتل الصخرية العارية هذه متقدة ومتوهجة مثل الفرن ذي اللهب الأحمر الناري، وكأن حمم البركان قد لفظتها توًا. خلا الجبل تمامًا من أي أشجار إلا من بعض الشجيرات القليلة. أرى أن النباتات الخضراء المورقة لا تناسب المكان هنا، فبدلاً من الزخرفة النباتية في المكان حظيتِ الطبيعة بأخرى عضوية، ألا وهي النقط البيضاء

اللانهائية، التي تناثرت على الجبل سواء فرادى أو في مجموعات، أي الحجاج الذين غطوا أجسادهم بملابس الإحرام البيضاء.

هذا الجبل الذي يطلقون عليه عرفة معناه جبل المعرفة أو التعارف؛ لأن آدم وجد زوجته هنا بعد فراق استمر مائة وعشرين عامًا فعرفته وعرفها، ويطلق عليه بعض المسلمين "جبل الرحمة"؛ لأن جبريل قد جاء بالوحي هنا للنبي. لا توجد لدى المسلمين بقعة أقدس وأطهر من هذا الجبل حتى مكة والمدينة، فكتب الشعراء العرب والصوفيون عنه، وأشعار المديح الدينية، لا حصر لها. وبغض النظر عن كل هذه الأشعار والمدائح المعروفة عن الجبل سوف أترجم هنا قصيدة في مدح جبل عرفة، ذكرها لي صادق ولا يعرفها حتى الآن أيُّ أوربي غيري:

يا عرفة، الحجاج يرون فيك الحظ الأكبر،

ومَن يقف عليك ينادي بكل لهفة: لبيك!

مَن يحج إليك، يعود محررًا من ذنوبه،

والجنة بالتأكيد لِمن نادى من عليك: لبيك!

عندما هبط آدم من جنات عدن، كان قدره أن يخطو إليك،

حائرًا لا مأوى له، فوقف عليك ونادي: لبيك!

حتى زوجته الغالية، التي خلقها الله من ضلعه،

لَّما أخطأت، جاءت إليك ونادت: لبيك!

بحث عنها آدم لأنها خرجت من ضلعه،

فجاء إلى عرفة ونادى وكله رجاء: لبيك!

هنا وقف أبو البشر، وعندما وقعت عيناه الملتاعتان،

على الزوجة الغالية وعرفها، نادي: لبيك!

وحواء التي بحثت عنه طويلاً وعيناها تفيض دمعًا،

وجدته أخيرًا هنا، فطوقته بذراعيها ونادت: لبيك!

فعادا سويًا من جبل عرفة بعد أن وجدا بعضهما،

ولم يفرقهما الشيطان مرة أخرى أبدًا، ونادا معًا: لبيك!
ومن هذا التعارف نشأت البشرية وسعادتها،
من هذا الحب المتقد هنا، من نداء التقوى: لبيك!
يا عرفة، منذ ذلك اليوم غدوت قنطرة السماء،
لكل مَن جاء هنا ودعا ربه: لبيك!
يا عرفة، يا نعمائي،
قلوبنا تطرب بك دومًا،
وسيظل نداؤك يجلجل فيها،
إلى أبدِ الآبدين: لبيك!
في حياته يقول المرء لنفسه أنا السيد،
وريثما تعود الروح إلى بارئها،
يضيء القبرَ النداءُ إليك: لبيك!
وحينما نُبعث من قبورنا ونعود للملكوت الأعلى،
سنقف أمام رب العالمين مهللين: لبيك!
فهذه الكلمة يعرفها قاضي السماء والأرض،
وعندما يسمعها سيفتح لنا المكان المبارك،
فنهتف له جميعًا: لبيك!
في عليِّين حيث تطوف حور العين حولنا،
وننعم في اللذة، هنالك نهتف أبدًا: لبيك!

"لبيك"، كانت هذه الكلمة نداء الحجاج وكلمة السر في الحج بأكمله، لم تسمع أذناي حتى الآن سوى هذه الهتافات الهادرة منذ وصولي إلى عرفة. أي كلمات عداها فقدت أهميتها حتى بدا أن اللغة العربية بأكملها قد أُختزلت في هذه الكلمة. "لبيك" كانت تدوي في شوارع مدينة الكهوف، وتخرج من خيامها، هكذا كان يلبي كل حاج أراد أن

يقيم صلاته، "لبيك" جلجلت أصداؤها في كل البسيطة وعلى حوائط الجرانيت في جبل عرفة، نعم قوة الصوت كانت ضعيفة؛ لكن كلمة "لبيك" كانت حقًا مسموعة.

صعدت على كتلة الجرانيت الصخرية ومعي صادق المطوِّف وابنه التي يطلقون عليها "جبل عرفة"، التي ترتفع عن الأرض بمقدار حوالي مائتين وخمسين قدمًا. كان الطريق لقمة الجبل يتكون من درجات محفورة في الصخر. بعدما صعدنا حوالي خمسا وأربعين درجة منها، وصلنا إلى ما يسمونه "موضع سيدنا آدم"، حيث وجد أبو البشر آدم نصفه الآخر وحبيبته. على كل حال كان مشهدًا غريبًا جدًّا عندما وقف آدم وحواء العملاقان، اللذان يبلغ طولها خمسمائة أو ستمائة قدم طبقًا للمصادر الإسلامية، على هذا الجبل البالغ طوله مائتان وخمسون قدمًا، أي لا يكاد يصل لخصرهما. كما أنه غير معلوم ماذا ينبغي تصديقه من حكاية موضع سيدنا آدم، حيث كان يصلي أبو البشر دائمًا في هذا المكان؛ لأنه من الواضح إذن أنه عندما كان يسجد بوجهه على الأرض كان يغطي كل الجبل بجسده الضخم هذا. يجب أن أعترف أن هذا الارتياب الجلي يعكر صفو أيّة عبادة فلم أستشعر منها شيئا هنا على جبل عرفة. لماذا لم يختر محمد جبلاً آخرًا أكبر من جبل عرفة الصغير هذا؛ كي يلتقي الزوجان العملاقان عليه؟ مما زاد من شكوكي ورغبتي في السخرية هو أنه كان يجب عليَّ التفاني في أداء العبادات في هذا اليوم وقراءة الأدعية والأذكار المخصصة لهذا المكان، التي كان يمليها على صادق بن حنيفة.

بعد صعود حوالي سبعين درجة وصلنا إلى المنبر وهو المكان الذي يلقي من عليه الخطيب في هذا اليوم خطبة عرفة. هنا وجدت لافته من المرمر بين الصخور منقوش عليها كتابة لم يكن لدي الوقت الكافي لقراءتها.

عند هذه المنصة صار الطريق الصاعد لأعلى بلطف وسلاسة أكثر ضيقًا وانحدارًا؛ فاكتظ الممر بحشود الحجاج حتى وصلنا لقمة الجبل بشق الأنفس، حيث يوجد المكان الذي اعتاد محمد أن يعلم أتباعه فيه مناسك الحج والصلاة. لم يخطر على بالنا أن نفكر في الدخول إلى داخل هذا المكان بسبب ازدحام الحجاج ومن بينهم مجموعة عملت كنقطة حراسة له. لذلك اكتفينا بالصلاة أمام الباب وتركنا هؤلاء الأتقياء يمتلكون المكان وحدهم.

عندما نزلت من على جبل عرفة، وجدت مجموعة من الحجاج واقفة لا تتحرك من مكانها؛ كي يسمعوا الخطبة التي ستستمر من سبع إلى ثمان ساعات. لم أستشعر أيّة رغبة في أن أستسلم لعذاب الانتظار سبع ساعات؛ لسماع خطبة مملة مبنية على العموميات، كما اكتشفت بعد ذلك. بدلاً من ذلك زرت مع المُطوِّف مسجدًا صغيرًا موجودًا عند سفح الجبل اسمه مسجد الصحراء، وأقصد بذلك أني شاهدته من الخارج فقط لأنه اكتظ من الداخل بأجساد الحجاج، ولسوء الحظ لم أستطع اختراقهم والدخول فيه. بعدها كنت على قناعة تامة أنه لا يوجد بداخل جامع الصحراء شيء يستحق عناء الجهد والمشقة كي أراه، فاتجهت صوب المقهى الذي يسكن فيه حاليًا دليلي حيث نويت أن أقضي باقي اليوم حتى ساعة انتهاء الخطبة.

في الطريق إلى المقهى سمعت فجأة صوتًا أعرفه جيدًا ينادي على "يا عبدالرحمن! إلى أين تسرع هكذا؟ الخطيب لن يبدأ خطبته الآن، تعال معنا واستمتع في هذا الوقت بالكيف!" استدرت فوجدت أمامي جسدًا شحيمًا نصف عارٍ له رأس صلعاء عارية؛ مما جعلني أتعرف على حمدان بصعوبة؛ لأنه يبدو في غير هذا اليوم في ملابسه الفخمة غالية الثمن رجلًا له هيبة ووقار. فقد كان يرتدي ملابس الإحرام مثل باقي المكيين الذين كانوا على جبل عرفة، ويشاركهم باقي مناسك الحج. لكن هذه الملابس لم تناسب هذا الرجل السمين، حيث انعكس حبه للثراء على ما ارتداه، فكانت من الكشمير الناعم. ولأن ملابس الإحرام كلها لها نفس المقاس، لذا كانت النتيجة بالنسبة لهذا الجسد الضخم الشحيم أن ظل كل من الرداء والإزار مفتوحين؛ فرأينا مواضع كثيرة من جسده مغطاه بالشعر الكثيف، كان من الأولى ألا نراها. كان يبدو حقًّا جميلاً وأكثر شبابًا في ملابسه العادية، أمَّا الآن فقد كان للحيته المصبوغة وشعر الشيب الذي يغطي كل جسده، مُغايَرَة مثيرة للسخرية، لدرجة أنه كان من الصعب جدًّا علي أن أقمع ضحكاتي من رؤيتي لهذا المنظر. ومع ذلك فقد استطعت التحكم في ضحكاتي، وتبادلت مع حمدان عبارات الإطراء التي يصف فيها كل منا الآخر بأنه الشمس، ويمتدح لقاءنا صدفة اليوم بأنه أكبر حظ لنا على الأرض. دعاني مضيفي حمدان بإشارة منه أنيقة أن أجلس في أحد

خيامه، حيث فُرش على الأرض بساط جميل، ورُصت فوقه الأراجيل يدخنها حوالي عشرة رجال من أصحاب حمدان بدا عليهم الخبث والمكر. دخلت للأسف وسط هذه المجموعة ودخنت معهم وشربت القهوة مرارًا وتكرارًا لمدة ساعة كاملة، بينما كنت أستمع لحديث حمدان البارع.

اعتقد حمدان نفسه اليوم متوجًا بنصرٍ مًا في نفسه، فقد كان يتصرف كعريسٍ؛ لأن العرسان في الشرق يتميزون بشيءٍ خاص يظهر على طبيعتهم وتعاملهم مع الآخرين، مما يسهل اكتشافهم من بين آلاف الناس الآخرين. حتى حمدان أظهر للآخرين سعادته، هذا الكائن المظفّر الذي يهنأ براحة يفخر بها، يستولى على القلوب بكل رضا، والذي حقق توًا تلك الفتوحات اللذيذة. هذا السلوك الذي يُطلق عليه في اللغة الفرنسية (fatuité) أي إرضاء الذات، هو الوحيد الذي يجعلنا نتعرف على العريس، أو الأكثر من ذلك تخمينه؛ لأن الحالة التي يكون عليها العريس لا يمكن فهمها بشتى أنواع الكلام. كل تلميح على العروس ومفاتنها أو أي ذكر لأسرتها يعتبر خروجا عن قواعد الأدب المتعارف عليها؛ بل أقصى درجات الامتهان.

لكن كان من الواضح عن طريق الضيوف من خلال أسلوبهم الرقيق المحبوب، الذين عاملوا العريس كطفلٍ يجب أن يُدلل، أنه لا يُسمح لهم بالحديث عن العروس؛ لكنهم يعرفون عنها كل شيء. كان المشهد هناك يبدو هكذا، جلس حمدان مُتوجًا كالأمير بين رعيته الذين يملأون أذنيه بكلمات التودد والنفاق. مع ذلك، فكلما تأملت أن سبب حالة الزهو والنصر التي عليها حمدان من المؤكد أنها بسبب امرأة أخرى غير الأرملة الهندية القبيحة، كذلك كلما رأيت جسده العاري المغطى بشعر الشيب ولحيته المصبوغة، كنت لا أستطيع كبح ضحكي وسخريتي منه ومن كونه عريسًا. كنت أرى حمدان سابقًا دائمًا رجلاً جميلاً، أمًا الآن فهو بالنسبة لي ليس إلا رسومًا متحركة. هذا "الأسد" العجوز يحاول أن يظهر بمظهر محطم قلوب النساء. كانت الأرملة الهندية، تلك الموقعة التي ظفر بها أخيرًا، تجلس في إحدى الخيام المجاورة له؛ وعلى الرغم من أني لم أرها، فهمت من وجود إمائه الزنجيات، أن كل حريم حمدان قد أتوا معه إلى عرفة للحج، وأن الجمال

الهندي القبيح كان برفقته، لذا لم يساهم بالكثير في انتصاره وزهوه. استمع هذا الغَنْدُور المختال بنفسه بارتياح واضح لكلمات النفاق التي ألقاها عليه المتطفلون الذين جلسوا معه. كيف كان يطرب لكلماتهم! أيّ حظ يجعله محل تقدير لكونه الفاتح الأعظم لقلب هذه الأرملة الهندية القبيحة، والسبب في ذلك أنه سينهب ويستولي على ثرواتها وكل ما تملكه من نفائس. في هذه الأثناء ازدادت صعوبة كبح ضحكي طويلاً؛ لأن حمدان بدا لي مثيرًا للضحك في كل حركة يقوم بها؛ لذا غادرت الخيمة التي بها ضيوف حمدان بعد أن دخنت الأرجيلة، ورجعت إلى المقهى حيث كان في انتظاري ملهاة أخرى جديدة. قبل أن أصل إلى هناك، تركني صادق المطوِّف بعد أن طلب مني أن آذن له هو الآخر بزيارة زوجاته المؤقتات، الحاجّات الورعات، فأعطيته أجازة لهذا الغرض الجدير بالثناء.

لَمَّا رجعت إلى المقهى، وجدت صديقي المسكين الشيخ مصطفى يلفظ أنفاسه الأخيرة. كانت حالته قد ازدادت سوءا وبلغ هزاله وضعفه غايتهما لدرجة جعلت وفاته متوقعة في كل ثانية. لكن روحه كانت لا تزال لم يغلبها المرض، كان يحرك عينيه وهو يقرأ الأذكار الدينية، ولَمَّا دخلت عليه وجدته يلقي خطبة على أولاد أخيه الثلاثة الذين وقفوا حوله بعد أن نفذ صبرهم، ولم يتوقعوا هذا القرار الأحمق لهذا الكهل. كان يتحدث إليهم بصوت يحتضر خالٍ من الخشونة والفظاظة. تنبأ الشيخ لهم بعبارات قوية بنهاية سيئة إذا استمروا في العيش في حماقات الشباب بدلاً من تقوى الله ومخافته. لَمَّا رآني، قال لي ما يأتي:

"يا عبد الرحمن! أنت ترى أخاك يقترب من الموت رويدًا رويدًا؛ لكنني لست حزينًا بسبب ذلك؛ بل على النقيض من ذلك أنا مسرور أن أنعم الله عليّ بالحج إلى عرفة، ولو أمدّ في عمري حتى أسمع الخطبة اليوم فسأغادر مكاني في هذه الدنيا بكل سرور؛ كي أنعم بالملذات في الجنة، التي وعد الله بها المؤمنين الأتقياء".

للأسف لم تُلبَّ آخر أمنية لصديقي الشيخ الكهل؛ لأنه مات ودُفن قبل أن يطلع الخطيب على المنبر. بمجرد أن أسلم روحه إلى بارئها لفوه في نفس اللحظة في الكفن وحملوه أمام المقهى، وحفروا حفرة في الرمل وضعوا جثمانه فيها، هكذا يتصرف العرب في هذه الظروف مثل الرحلات والحج، ومنذ هذه اللحظة نُسيَ الشيخ مصطفى تمامًا،

وكأنه لم يكن موجودًا. ربما كنت أنا الوحيد الذي لا يزال يفكر فيه، فأولاد أخيه لم يذكروه مطلقًا ولم يفكروا فيه، وأصبح الشيخ مصطفى المسكين وخطبه المملة؛ لكنها ذات معنى جميل، في طيات الماضي الغامض. لن تنقذه من النسيان حتى ورقاتي هذه. رحمك الله يا شيخ مصطفى وجعل مثواك الجنة بسبب ما وعظتنا به من خطب ورعة، ولْتَمَلَّ كل الحور العين من معلوماتك الدينية البديهية، وستشعر بالراحة عندما يتحقق أملك في أولاد أخيك، فيستجيبون لكلماتك بأن يغيروا من حماقاتهم ويتقوا الله.

بدا الأمر لي كما لو أن هؤلاء الغلمان الثلاثة كانوا ينتظرون لحظة موت عمهم الجليل حتى يضربوا بالأخلاق عرض الحائط. فبمجرد أن لفوا جسده في الكفن، جاءت ثلاث راقصات وجلسن بجوار هؤلاء الثلاثة في المقهى. من الآن فصاعدًا تغيرت حياة هؤلاء الغلمان إلى النقيض مما ينبغي أن تكون عليه حياة المسلم الحق. لا يفوتني بالطبع بحكم كوني من الحجاج الورعين أن أعظهم وأرشدهم حتى وإن استقبلوا كلماتي بضحكات التهكم والاستهزاء. لذلك اكتفيت بذكر قصة قُورَح ابن يصهار صديق داثان وأبيرام[1] وانسحبت مع أفراد عائلة صادق، الذين بدوا فخورين بإيماني، إلى ركن المقهى المقابل للغلمان، حيث كنت أنتظر في صبرٍ خطبة عرفة.

قبل صلاة العصر بساعة تركت المقهى؛ كي أقترب كلما أمكن من المنبر الذي ستُلقى من عليه الخطبة، حتى أجد مكانًا أستمع منه جيدًا إلى تحفة البلاغة الموعودة. الحق لم يكن هذا الأمر هينًا؛ لأن أعدادا لا حصر لها من الحجاج بدأت تتدفق إلى هنا منذ الصباح الباكر متحلين بالصبر في انتظار ساعة بدء الخطبة. بدا الجبل والمنطقة المحيطة به كالأرض التي زُرعت بهؤلاء الحجاج الذين ينتظرون الخطبة، والذين كونوا برؤوسهم الصلعاء وأكتافهم العارية مئات الأسوار، التي لم يكن عندي أمل مطلقًا في اختراقها؛ إلا أن حسن بن صادق استطاع بضربات أضلعه القوية التي وجهها للحجاج الورعين أن يشق طريقًا

---

١ قورح وداثان وأبيرام Corah, Dathan and Abiram هم شخصيات من ضمن مقاومي موسى النبي، وذُكِروا في سِفر العدد: «قُورَحُ بْنُ يِصْهَارَ بْنِ قَهَاتَ بْنِ لاَوِي وَدَاثَانُ ابْنَ أَلِيآب وَبِيرَامُ ابْنِ أَلِيآبَ». كانت غايتهم تحويل الرئاسة من موسى إلى سبط رأوبين، واتحد معهم ٢٥٠ شخصًا من رؤساء الجماعة، ثم انشقت الأرض وبلعتهم جميعًا. (قاموس الكتاب المقدس/ دائرة المعارف الكتابية المسيحية) (المترجمة)

بينهم دلفت من خلاله إلى المنبر، بينما كان يصيح: "أفسح الطريق أيها الكلب الغريب لابن البلد الحرام!". ومن أمام المنبر استطعت أن أرى وأسمع كل ما يجري عليه.

هنا وقفنا جميعًا متكدّسين حول بعض كالسردين حوالي نصف ساعة، تعالت فيها صيحات الحجاج المتعصبين بنداءات التلبية التي أوقفت أذكار الحمد والتسبيح وتلاوة آيات القرآن. أخيرًا حدثت بعض الأشياء التي ألمحت إلى حدوث شيء جلل الآن. مد الحجاج رؤوسهم الصلعاء إلى الأمام وأبصارهم ناحية الغرب، حيث من المتوقع قدوم الخير كله. لم أستطع رؤية أي شيء لفترة طويلة مما لفت انتباه أنظار الآخرين؛ ولكن على مرمى البصر رأيت فقط رجلاً على هيئة كرة كثيفة من الصوف تتدحرج في اتجاه عرفة. بعد مرور بعض الوقت كانت تتحدد معالم هذه الكرة المتشابكة، وأخيرًا أبصرت رجلاً يجلس على جمل، تحيط به مجموعة من أتباعه الوثنيين الذين يألِّهونه. كان هذا الرجل هو الخطيب الذي سيلقي الخطبة على عرفة اليوم. بدا هذا الرجل سعيدًا بهذا الإجلال والتقديس، الذي كاد أن يقترب من العبادة. رمى بعض الدراويش المفتونين به بأنفسهم أمامه على الأرض، وجعلوا الجمل الذي كان الخطيب يركبه يمشي على ظهورهم. إنها نعمة من الله عليهم إذا دهسهم هذا الحيوان وماتوا! فالجنة مرجعهم إذن!

مر الآن هذا الخطيب من جانبي، كان عبارة عن رجل عجوز له ملامح جنس المولاتو ولحية بيضاء خفيفة. نمَّت ملامح وجهه عن خيال الصوفيين حين يقظتهم، كما كشفت أيضًا عن الحماسة الدينية للمتعصبين؛ لكنها بدت لي مبالغًا فيها، مما جعل البعض يفهم ذلك على أنه تصنُّع واختلاق. كان يوجه وجهه صوب السماء بكل جدية وصرامة؛ لدرجة أنه كان من الصعب إدراك كيف احتمل عنقه هذا الوضع غير الطبيعي هذه المدة الطويلة. تصلبت عيناه تحملقان في السماء ولم تتحركا، وجمله الذي كان يقوده اثنان من الأغاوات، لم يعتن به مطلقًا، منعه من ذلك حشود وأكوام الناس التي التفت حوله. كان الرجل ينظر دائمًا لأعلى في نشوة عارمة، كما لو كان تعامله مع من يسكنون السماء فقط وليس مع أهل الأرض أصحاب الذنوب والآثام. لم أر في حياتي رجلاً متعصبًا قط مثل هذا الخطيب.

كان من المعتاد أن يلقي الخطبة كل يوم عرفة قاضي مكة؛ لكن هذه المرة أخذ هذا المولى (الإمام) مكانه، ولم أستطيع أن أعرف السبب في ذلك. تحدث الناس كثيرًا عن هذا الرجل؛ لكن مفهوم المسلمين عن البلاغة يختلف كثيرا عن مفهومنا؛ لذلك لم يكن عندي استعداد لتقدير وتوقير بلاغته في هذه الخطبة المرتقبة.

أخيرًا صعد الخطيب على المنبر حيث سيلقي خطبته دون أن ينزل من على الجمل. استمرت هذه الخطبة ساعتين واحتوت على كل البديهيات الدينية التي كان يقرؤها من ورقة. كان صوت الخطيب هذا العام أخنفا ونطقه غير واضح تمامًا، وأعتقد أن عشر الحجاج لم يفهم الخطبة؛ لكن لا تكمن الفائدة المرجوة من الخطبة في الفهم؛ بل في أن يكون الحاج موجودًا على جبل عرفة وقت إلقائها. سمعت الخطبة كاملة، وبين الفينة والفينة كنت أسمع الكلمات التي كان ينطقها بوضوح، والتي من خلالها استطعت أن استخلص موضوع الخطبة، الذي كان يدور تقريبًا عن فوائد ومكاسب الحج. كان الخطيب يتوقف من حينٍ لآخر ويأخذ استراحة. كان الحجاج الذين يتراوح عددهم مابين العشرين والثلاثين ألفًا يستغلون هذه اللحظات كي تتعالى حناجرهم بنداءات التلبية التي كانت تدوي في المكان، بينما كانوا يضعون طرف رداءهم على رؤوسهم ويلوحون في اتجاه مكة.

كانت دموع التأثر من أهم مكونات الخطبة على جبل عرفة والتي يجب أن تُسكب من الخطيب والسامعين معًا. لا يعتقد المسلمون في صحة الحج دون كمية كبيرة منسابة من هذه الدموع التي يجب أن تُسكب بإخلاص؛ لذا لم يخل المكان هنا من الدموع. حمل الخطيب في يده منديلاً لونه أحمر من القطن كما بدا لي، واضعا له أمام عينيه؛ لكي يُرِي هذه الحشود من الحجاج أنه أيضًا يشاركهم تأثرهم بالموقف ودموعهم. تبعه في ذلك تقريبًا كل الحجاج. مما لا شك فيه أن دموع الكثيرين كانت حقيقية غير مُتصنعة، أمَّا بعضهم فقد كانت دموعهم دموع التماسيح، والبعض الآخر وأنا منهم لم يكترثوا لذرف الدموع. ولأن المسلم الحق يجب أن يذرف الدموع متأثرًا بهذه اللحظة المهيبة في الحج، كان عليَّ أن أبدأ هذا الفاصل الكوميدي مع منديلي، فأخذت وشاحًا حريريًّا لونه أصفر

ووضعته على عيني وأخفيت عينيَّ الجافتين تمامًا ووجهي التقي وراء طياته، أمَّا صادق وابنه فقد نزفوا دموعهم بالبكاء. يا لهؤلاء المنافقين المساكين! يذرفون دموعهم بكل ما أوتوا من قوة! كلما استمرت الخطبة، زاد النحيب والعويل والبكاء وتعالت أصوات زفراتهم.

في النهاية أُجهد الحجاج من كثرة التباكي والتأثر من كلمات الخطيب، وبدا الأمر لي أن تأثير الخطبة الطويلة على الحجاح كان الملل وعدم الاكتراث طويلاً بها. فبدلاً من البكاء والنحيب حلت بالكثيرين منهم حالة من التثاؤب المستمر كان من الصعب عليهم كبحها، ودبدب الكثيرون منهم الذين نفذ صبرهم بأقدامهم على الأرض. لذلك استطعت أن أفهم بوضوح تضاؤل عدد الحشود من حولي بمرور الوقت؛ لأنه لم ينتظر كل الحجاج حتى نهاية الخطبة كي ينزلوا من على عرفة.

كادت الشمس أن تغرب في اتجاه مكة، وأغلق الخطيب كتابه وأدخل منديله الأحمر الكبير رمز الدموع الغزيرة، معلنًا بذلك انتهاء الخطبة. جلجلت آخر صيحة له بالتلبية ورفع طرف ملابسه لآخر مرة، وبذلك انتهت شعيرة الوقوف على عرفة. الآن بدأ نزول الحجاج من على الجبل المبارك، وهو ما يُعرف في اللغة العربية "بالإفاضة من على جبل عرفة"؛ لكن لا توجد كلمات تستطيع أن تصف حالة التهور والترويع التي حدثت أثناء هذه الإفاضة. تدافع الحجاج بسرعة عالية ودون توقف أثناء نزولهم من على الجبل مثل الشلالات التي تفيض بمياه الأمطار تماما، والويل لَمن لم يستطع أن ينجو بنفسه من هذا التدافع الجنوني. من المؤكد أن أعدادًا كبيرة من المصابين ستُدهس أو ستموت كما يحدث كل عام أثناء الإفاضة من عرفة. كان لزامًا عليَّ أنا أيضًا أن أترك نفسي للاندفاع للأمام مع جموع الحجاج سواء رضيت أم لا. لم يكن لديَّ أيُّ وقت؛ كي آخذ معي الدابة التي كنت أركبها قبل صعودي على عرفة. في مدينة الأكشاك هذه لم يقف شيء عائقًا أما تدافع الحجاج ومواصلتهم التقدم مرة أخرى في اتجاه مكة، أو بالأحرى وصولهم إلى المنطقة الواقعة بين مكة وجبل عرفة التي اسمها منى، التي يجب على الحجاج أثناء رجوعهم إلى مكة زيارتها حيث توجد آخر مناسك الحج.

بعد انتهاء الخطبة أضحي لمدينة الأكشاك منظر مختلف تمامًا عما كانت عليه قبل الوقوف على عرفة. تم تفكيك جميع الخيام وحملها أصحابها على ظهور جمالهم في طريقهم إلى منى. كانت الأكواخ فقط لا تزال موجودة؛ لكنها كانت مهشمة إلى حدٍّ كبير؛ لدرجة أن هذه المدينة المؤقتة التي كانت تعج بالنشاط والحيوية في الصباح، غدت صورة للدمار لا غير.

ما زالت أفواج الحجاج تتدحرج الآن في الطريق إلى وادي منى. ولأن الليل قد أسدل ستائره على المكان، أشعل بعض خُدام الحجاج الأثرياء عددا من المشاعل حتى نستطيع رؤية الطريق بوضوح على ضوء هذه المشاعل وبصيص من ضوء القمر. حتى صادق مُطوِّفي الهَرِم حمل في يده اليمنى الهزيلة أحد هذه المشاعل. كان من الأفضل لي ألا يحملها هو؛ لأن هذا الضوء المشتعل اهتز في يده دائمًا حتى كاد أن يلمس الأرض، وقد طاله سوء الحظ وأنا أكثر منه عندما مال منه المشعل لأسفل فاقتربت النار من ملابس إحرامي التي كانت من القطن؛ لذا اشتعلت فيها النار سريعًا، ولم أتمكن من إطفائها إلا بعد أن احترق نصفها. لم يكن من المتاح تدبير ملابس إحرام جديدة بعد أن أصبح جسدي نصف عارٍ ومغطى ربعه فقط. على هذا الوضع الذي أكد أن أكون فيه عاريًا تمامًا انتهت مراسم حجي.

وصلنا من جديد حوالي قرب منتصف الليل لمسجد المزدلفة، حيث قضينا باقي ليلتنا في العراء؛ كي نؤدي صلاة الفجر في المسجد.

نلت قسطًا من الراحة في الليل لمدة قصيرة جدًا؛ لأن صادق الطوّاف أيقظني في الساعة الثالثة كي نذهب للجامع ونصلي الفجر معًا. كان اليوم هو العيد الكبير أي عيد الأضحى، وهو أكبر أعياد المسلمين. في هذا اليوم تسبق صلاة الصبح خطبة يشرح فيها الخطيب معنى العيد، وبعدها تبدأ مراسم الاحتفال بالعيد ويتبادل المسلمون التهاني والمعايدات.

اتخذ الخطيب الذي ألقى الخطبة على عرفة مكانه على منبر مسجد المزدلفة. لم يكن عدد الحاضرين وقتذاك كبيرًا مثل خطبة أمس على جبل عرفة؛ لأن الحجاج أرادوا أن

يستريحوا أو كانوا كسالى؛ لذا أضاعوا فرصة سماع هذه الخطبة مع الحاضرين. استمرت هذه الخطبة هذه المرة ثلاثة أرباع ساعة فقط، واشتملت على البديهيات الدينية أيضًا مثل الخطب السابقة. بعد ذلك صلينا العيد وعانق الحجاج بعضهم البعض، وتبادلوا عبارات التهنئة وتمنوا الخير والسعادة لبعضهم بعبارات مثل "عيد سعيد" و"عيدك مبارك". لقد كان على أن أسمح لمئات من الحجاج الذين لم أرهم من قبل أن يعانقوني. لم تكن تلك الشعيرة لطيفة بالمرة؛ لأن معظم هؤلاء المنافقين كانوا مرضى، عيونهم غائمة أو تفوح منهم رائحة الأوبئة.

تعالت الحناجر مرة أخرى بنداءات التلبية الرنانة في المكان، وتواصل زحف حشود الحجاج إلى وادي منى، حيث يجب أن نصل بعد غروب الشمس بساعة.

قبل أن أرحل من المزدلفة كان يجب على أن أجمع إحدى وعشرين حصاة من على الأرض، وأودعها في شنطة مُعدة لهذه الحصى فقط بناءًا على تعليمات المُطوِّف. رأيت باقي الحجاج يجمعون الحصى مثلي وبهذا يكون قد جُمع في المزدلفة حوالي مليون حصاة، سوف تُرمى جميعها في رأس الشيطان؛ فهذا هو الغرض الأساس من هذه الشعيرة التي تُنفذ في وادي منى. قِيل إنه في هذا الوادي جاء الشيطان لإبراهيم على هيئة الأفعى إبليس وبدأ المفارقة التاريخية المثيرة للشفقة وهي الحج إلى عرفة أيضًا، وفي الطريق عرض له الشيطان، وحاول ثلاث مرات تثبيطه عن مقاصده الورعة. كان إبراهيم يرمي في كل مرة بإيعازٍ من الملاك جبريل، الذي كان لا يفارقه أبدًا، بثلاث حصيات في بعض الروايات وبسبع في روايات أخرى، على رأس هذه الأفعى الجبانة حتى اختفت. إحياءً لذكرى هذا العمل البطولي لإبراهيم يرمي الحجاج كل عام في العاشر من ذي الحجة في وادي منى الشيطان بإحدى وعشرين حصاة على رأسه، والتي للأسف لا تصيب كلها رأسه[1] لأن بعض الصغار المحظوظين والأولياء هم الذين يستطيعون رؤية الشيطان فعلاً، أمَّا الباقي فيخمنون ويجتهدون في معرفة مكانه.

١ المراد هنا رمي الجمرة ويتم بحيث تُضرب الحصاة في شاخص الجمرة أو تقع في الدائرة المحيطة به (المترجمة).

لسوء الحظ لا تعتبر هذه الأسطورة الدينية التي تربط رمي الجمرات بإبراهيم سوى عادة وثنية، أدخلها العرب القدامى إلى الإسلام. وطبقًا لما أورده العسكري كان يوجد في وادي منى قبل محمد سبعة أصنام، كان كهنتهم من مفسري الطالع، ومن خلال رمي وسقوط الحصوات التي كانوا يرمونها أيضًا قبل دخول الإسلام، يتنبأون بمستقبل رامي الحصاة.

الحاخام الأسباني مايمونيدس (Maimonides) من قرطبة، الذي عاش في عام ١٢٠٠ وكان عالمًا بالعادات والتقاليد الإسلامية أكثر من أيّ رجل غير مسلم آخر، يقول بالحرف في كتابه (Mura Nebachim) :

"إن عادة رمى الجمرات وثنية بالتأكيد؛ على الرغم من أن المسلمين يرجعون أصلها إلى إبراهيم، والبعض يرجع أصلها إلى آدم (مثل ابن الأثير وأبو سعد الشيباني). لم يعرف العرب القدامى شيئًا عن هذا الظهور المزعوم للشيطان؛ بل رموا الجمرات فقط على سبيل التنبؤ بأقدارهم، تمامًا مثلما كانوا يستقسمون بالأزلام في وادي منى، ومن رمي السهام يتطلعون إلى معرفة الغيب. أمّا المسلمون الآن فيدّعون أن عادة رمي الجمرات الوثنية والتنبؤ بالغيب أُستحدثت؛ وليست إلا إفسادا للشعيرة الأصلية التي أدخلها إبراهيم، مثلما أفسدت عبادة الأوثان في الكعبة ديانة التوحيد التي جاء بها محمد."

حول هذه النقطة سيتفق الجميع إذا ما توافر أحد الأدلة التاريخية التي تبرهن على وجود إبراهيم في أي مكان آخر غير فلسطين، وأن قصة بنائه الكعبة وحجه إلى عرفة ليست إلا خرافة بعيدة المنال.

بعد ركوب ساعة على الدواب وصلنا إلى المزدلفة في مسيرة تزدحم فيها الدواب بجوار بعضها، وفجأة تكدّس المسير وتعثرت القافلة بأكملها في استمرار الزحف في هذا الوادي الضيق، والسبب في ذلك أنهم توقفوا عند مكان الشيطان الذي عرض لإبراهيم، عند هذا العمود[1] الموجود منذ قديم الأزل، الذي وقف عنده إبراهيم ورمى الشيطان بالجمرات

١ (١) اختلفت المسميات التي استخدمها الرحالة مالتسان حول المكان الذي تُرمى فيه الجمرات، فأحيانًا يستخدم بعض الألفاظ مثل عمود الشيطان، وأحيانًا أخرى نُصُب الشيطان، وقد التزمت بالترجمة الحرفية لهذه الألفاظ في ترجمة النص الأصلي؛ لأنها تعكس بلبلة الرحالة وعدم اعتماده على مصدر علمي موثوق فيه لاستيفاء معلوماته عن رمي الجمرات؛ لأن ما يُسمى (نُصب الشيطان) اسمه في الإسلام (شاخص الجمرة) وتم بناؤه ليكون (علامةً) لمكان الرجم الذي يرجمه

لأول مرة. تزاحم الحجاج هنا وتدافعوا مرة واحدة كي يرموا إبليس الملعون على رأسه بأول سبع حصيات انتقوها وجمعوها من منى وحملوها معهم إلى المزدلفة. ولأن المكان حول هذا العمود لم يكن يستوعب سوى بضع مئات؛ لكنهم كانوا هنا بضعة آلاف؛ لذا حدثت هذه الفوضى الحتمية والضجة المخيفة. سقط العديد من الحجاج على الأرض وبعضهم بجمالهم وحميرهم وخيولهم، كما انقلبت بعض المحفّات رأسًا على عقب، ولم تستمتع الجميلات اللائي كن بداخلها بهذه اللحظات الممتعة. لقد كانت حقًا أصوات صرخات ونحيب وعويل مربكة؛ لكن "التلبية" تعالت وانتصرت عليهم جميعًا، وحلت محل الحزن والبؤس الذي ألّم بالحجاج. بالإضافة إلى ذلك سمعت بعض الأصوات غير التلبية، حيث كان يصرخ أحد الرجال الأقوياء السوريين، ويفسح الطريق يمينًا وشمالاً بلكماتٍ من قبضات يديه قائلاً: "إفسح الطريق! يا كلب يا ابن الكلب، أخرج من هنا ولتذهب للجحيم" وما شابه ذلك، وعندما يقابل شيعيًا يقول له: "ابتعد من هنا أيها الخنزير، ابن اللبؤة". كانت هذه العبارات عندهم عادية جدًا لدرجة أنها لم تعد تلفت نظري. بالإضافة إلي استمرار البعض في تسديد اللكمات يمينًا وشمالاً، والبعض الآخر أمسكوا ببعضهم من أعناقهم حتى كادوا يخنقون بعضهم. وتراشق البعض الآخر فيما بينهم بالحجارة، التي جمعوها أساسًا لرجم الشيطان. فخلال وقت قصير سُرّ الشيطان بالشجار والكره والفتنة، التي أثارها بين الحجاج، واحتفل بهذه الانتصارات العظيمة هنا في المكان، حيث كان يجب أن يُرجم؛ لأنه ألحق بالحجاج هذا الولع بالمعاصي، الذي يعتبر أحب الأشياء إلى نفسه.

أمّا عن كيف خرجت من هذه الجلبة بجسدي الدامي أزرق اللون، أو بأحد الأعضاء المكسورة، وكيف واصلت الزحف، فقد ظل هذا لغزا كبيرًا لي حتى اليوم. استطعت بعد نصف ساعة من اختراقهم هنا وهناك والتصادم بهم ومعهم أن أكون أخيرًا على بعد مائة خطوة من عمود الشيطان الأول حيث تُرمى "الجمرة الأولى". هذه الكلمة التي لها

الحجاج في الحج، والمقصود من رجم الجمرات الثلاث إتباع السنة، واقتفاء أثر الأنبياء إبراهيم ومحمد عندما رجموا هناك؛ ولهذا لا فرق بين أن يكون على شكل عمود، أو على الشكل الأخير الذي أقره العلماء لأن المطلوب شرعا رجم (المكان) لا (العمود) أو (النُصب). (المترجمة)

معنى غريب وهو "قطعة الفحم المتقدة" (وهو رمز لنار جهنم)، كانت عبارة عن سهم به حصاة غير محددة الشكل يبلغ ارتفاعها حوالي ستة أقدام وعرضها أربعة. سألت صادق عن سبب إطلاق اسم الفحم على هذه الحجارة، فأجابني بكل جدية عن سؤالي بهذا الهراء الذي أنصتُّ إليه بكل إمعان:

"لمّا رمى إبراهيم الشيطان، الذي عرض له وحاول منعه من الحج والوقوف بعرفة في ثلاثة مواضع مختلفة يطلقون عليها الآن «الجمرة الأولي والثانية والثالثة»، رأى بعينيه كيف تحولت هذه الحصاة إلى قطعة فحم ملتهبة أحدثت حروقًا غائرة في جسد إبليس. منذ ذلك الحين يجب أن يُرجم جسد إبليس كل عام بهذا الحصى حتى وإن لم يره الحجاج. يتحول هذا الحصى إلى قطع فحم متقدة تخترق جسد إبليس محدثة فيه ثقوبًا غائرة."

أرى أن المطوِّف محق في هذه النقطة الأخيرة؛ لكني أستغرب وأتعجب من هذه الحياة القاسية التي مر بها هذا الشيطان الأزليّ الذي احتمل هذه الثقوب التي قد تصل إلى الملايين.

كان مكان الجمرة الأولى يقع أمام سور المنصة التي كانت ترتفع عن الأرض حوالي عشرة أقدام. اكتظت هذه المنصة بالحجاج، فكانوا يرمون حصاهم من عليها، ويصبون لعناتهم على الشيطان؛ لأنهم لا يستطيعون الوصول إلى موضع الجمرة الأولى من أسفل. لم يكن في إمكاني أبدا الوصول إلى تلك المنصة، كدت فقط أن أقترب من موضع الجمرة الأولى من أسفل. حينما أقول إني اقتربت من هذا الموضع، فلم أقصد بذلك أبدًا أني كنت قد قمت بذلك بمحض إرادتي؛ لا بالعكس لم يكن لي ثمة دور في وصولي لهذا المكان، كنت أتحرك للأمام من تلقاء نفسي بفعل الدفع من هذه الكتلة البشرية دون أية مساعدة مني. فسريعًا دفعتني إحدى اللكمات في ضلوعي في الجانب الأيمن بضع خطوات للأمام، ورمتني إحدى الدفعات العنيفة في جانبي الأيسر بضع أقدام بجانب نُصُب الشيطان، ومن لكمة لأخرى اقتربت أكثر من هذا النُّصُب. عندما كنت على بعد حوالي عشرين قدمًا من النُّصب رميته بأول سبع حصيات، واحدة تلو الأخرى، ورددت وراء المطوِّف هذه الكلمات:

"باسم الله القدير. أقوم بهذا العمل لأني أكره الشيطان. وليكن العار الأبدي والعقاب جزاؤه".

علاوة على ذلك ردد بعض الحجاج كلمات أخرى مثل:

"جزاه الله تحطيم وجهه بهذه الحجارة وكسر ظهره".

لو استجاب لهم الله لتحطم وجه الشيطان وكُسر وجهه منذ ما يقرب من ألف ومائتي عام؛ لكنه لا زال موجودًا حتى الآن وله أتباعه من بين هؤلاء الحجاج الورعين.

يبدأ الحجاج في رمي الجمرة الأولى في قرية منى، التي تقع في وادي منى الضيق. كان يوجد في هذه القرية حوالي مائة بيت من الحجارة؛ لكنها تصبح مدينة لها طابع المعسكر في العاشر من ذي الحجة والأيام التالية بسبب أكشاك القهوة والدكاكين، التي تُشيَّد بها من قبل قوافل الحج. ففي وقت قصير تصبح منى في يومي العاشر والحادي عشر من ذي الحجة نسخة ثانية مما كان عليه جبل عرفة في الثامن والتاسع من هذا الشهر. كان لشريف مكة وأبنائه ولقاضي مكة وبعض الأشراف الأثرياء وتجار البلد الحرام منازلهم الخاصة بهم، التي يقيمون فيها في هذين اليومين أو الثلاثة في منى ويؤوون معهم بعض المنتفعين. أمَّا باقي الحجاج فكانوا يبحثون عن مأوى لهم في هذه الأيام القليلة، إن لم تكن معهم خيامهم الخاصة بهم، في العديد من المقاهي ودكاكين الحلاقة، التي كان يوجد منها عدد وافر جدًّا؛ لأن الحجاج يجب أن يحلقوا بعد رمي الجمرات للاحتفاء بخلع ملابس الإحرام للأبد.

بعد الانتهاء من رمي الجمرة الأولي أي السبع حصيات في رأس الشيطان، عبرنا بجهدٍ كبير بين هذه الحشود والجموع التي اكتظ بها شارع قرية منى، الشارع الوحيد في منى، مع الدفع والضغط منهم من جميع الجوانب. يقع النُصُب الثاني في منتصف هذا الشارع والثالث في نهايته في اتجاه مكة؛ أي يمكننا القول بأن منى تقع بين النُصب الثلاثة للشيطان. في الطريق للجمرة الثانية صادفنا السوق الكبير يمينًا ويسارًا، الذي يتكون من صف طويل من الأكشاك الخشبية، التي كان يبيع فيها نفس التجار الذين كانت لديهم نفس الأكشاك في عرفة، وعلى اليسار كانت تقع بيوت أعيان ووجهاء مكة.

أخيرًا وصلنا لموضع رمي "الجمرة الثانية" واسمها أيضًا "قطعة الفحم الوسطى". هنا رميت مجموعة السبع حصيات الثانية التي جمعتها من المزدلفة على رأس إبليس، مع قراءة نفس اللعنات عليه. كان التزاحم حول هذا العمود مرعبا هذه المرة؛ لذا اكتفيت برمي "الجمرات المتقدة" من بعيد على رأس إبليس. لم أستطع رؤية ما إذا كانت الجمرات قد أصابت رأس الشيطان أم لا بسبب هذا الزحام الكثيف حوله.

في طريقنا من مكان الجمرة الثانية إلى الثالثة صادفنا أولاً مبنى بلدية فخم الشكل، كان بيت قاضي مكة، ثم متجرا مغلقا عبارة عن بازار بالمعني الأوربي الحقيقي للكلمة. فيما عدا ذلك تناثرت يمينًا وشمالًا مجموعة من البيوت لتجار وأفراد مكيين. في نهاية قرية منى من ناحية مكة صادفنا هنا عددًا جمًا من أكشاك الحلاقين الخشبية وخيامهم، كانت مكتظة بحشد هائل من الحجاج وكانت تقام فيها مناسبة خلع ملابس الإحرام.

كان يوجد في مقابل أكشاك الحلاقة هذه موضع "الجمرة الثالثة"، التي كانت تبعد عن الثانية حوالي ثمانمائة قدم، بينما تبعد الثانية عن الأولى حوالي من ثلاثمائة إلى أربعمائة قدم. أمّا "الجمرة الأخيرة" فكانت عبارة عن مرتكز من الحجارة غير محددة الشكل، أحاط بها أيضا حشد هائل من الحجاج.

هنا رميت آخر سبع حصيات معي ولعنت الشيطان مرة أخرى، وبذلك أكون قد انتهيت تمامًا من كل مناسك الحج. شعرت حقًا أني تحللت من هذه الشعيرة الأخيرة المملة. الآن بإمكاني أن أخلع هذه الملابس البشعة التي عانيت منها كثيرًا ولن أرتديها مرة أخرى، أو ربما في مكة لزيارة المسجد الحرام. كان هذا الأمر بالنسبة لي كأنما قد انزاح حمل ثقيل من على صدري.

على الرغم من أنه قد أصبح لدى إذن بخلع ملابس الإحرام، لم يكن واضحًا لي في أي مكان يجب أن أفعل ذلك. بالتأكيد لن يكون ذلك في أحد أكشاك الحلاقة، حيث يوجد الكثير من الحجاج، لدرجة أنه يجب عليَّ أن أنتظر حتى المساء كي أستطع أن أدخل أحدها. علاوة على ذلك لم تكن معي ملابس أخرى، ولم يكن لدى شيء أفعله في منى سوى حلق رأسي وحاجتي الماسة إلى تغطية قدمَيَّ بعد أن أصبح مسموحًا بذلك الآن؛

لأنه يحرم على الحاج ذلك طالما يرتدي ملابس الإحرام. كنت أتمنى أن أفعل مثل باقي الحجاج وأظهر في ملابس مؤقتة؛ على الرغم من أن الحجاج بعد رمي الجمرات يخلعون ملابس الإحرام اسميًا فقط، فيغطون رؤوسهم بأحد الأوشحة ويلبسون الحذاء في أقدامهم بدلاً من الصنادل، ويُبقِي أغلبهم على الإزار والرداء (قطع من القماش تُلف حول جسد الحاج) حتى عودتهم إلى مكة؛ لأن عددا قليلا منهم حمل معه ملابسه. يُطلَق على هذه الملابس ملابس الإحلال[1] التي يعتبرها البعض الزي الأصلي للعرب. بالنسبة لي لم تكن هذه الملابس التي تغطي نصف الجسد لها قيمة عندي، كنت أريد أن أتخلص نهائيًا من الجسد نصف العاري ومن ملابسي التي عرّت جسدي أكثر من ملابس أي حاج آخر يظهر حاليًا في ملابس الإحلال؛ لأنه بسبب إهمال صادق تحولت ملابس إحرامي إلى خرقة نصف محترقة، وأصبح ربع جسدي فقط مغطى بها، بينما باقي الحجاج كانت نصف أجسادهم مغطاة. كما أني أشتاق إلى الاستحمام؛ كي أتخلص كليًا من قذارات رحلة الحج على جسدي، وهذا ما يمكن أن أفعله في مكة فقط؛ لأن ملابسي توجد هناك؛ لذا قررت اختصار مدة إقامتي في منى التي يمدها الكثير من الحجاج إلى يومين. تمنيت أن أكون من أوائل الحجاج الذين يصلون إلى مكة، كي لا أجد الحمام مكتظا بالحجاج كما كان الحال في وقت الحج. بشيء من التردد أخبرت صادق المُطوِّف برغبتي في الرجوع مبكرًا إلى مكة؛ لأني كنت أخشى أن يرى في مطلبي هذا نوعا من الزندقة.

نظر إلى صادق باستغراب؛ لكنني أخبرته أنه من المستحيل أن أجد مكانًا في دكاكين الحلاقة المكتظة بالحجاج ولمته على أنه أحرق ملابس إحرامي وأنه المسئول عن أني لا أستطع توفير لبس الإحلال الكامل مثل باقي الحجاج؛ لذلك وافق أخيرًا على مطلبي وقال لي:

> **"يا أخي! حقًا هذا أمر غير عادي؛ لكنه ليس ذنبًا. لقد أتممت الآن كل المناسك المقدسة للحج ورجمت الشيطان. لكن من المستحب أن ترجمه مرة أخرى وأن تظل هنا في منى يومين كما يفعل كثير من الحجاج؛ كي ترمي**

[1] (١) إحلال الحَاجِّ: الفراغ والانتهاء من أفعال الحج ومناسكه وهو عكس الإحرام. (المترجمة)

الشيطان كل يوم ثلاث مرات في رأسه بالجمرات. لكن ربما بسبب إيمانك وورعك يكفيك أن ترجمه مرة واحدة. على أيّة حال من الأولى لك أن تذبح كبشًا، أو من الأفضل كبشين، الأول لأن اليوم هو عيد الأضحى، والثاني كفارة عن إقامتك القصيرة في وادي منى. اذبح كبشًا! اذبح كبشًا!."

تعهدت أمام صادق بذبح الكبشين مما جعل صادق وابنه مسرورين للغاية؛ لأنهما سينتفعان كثيرًا من هذا الذبح كما ذكرت من قبل في حادثة مماثلة. صاح صادق بفرحة عارمة:

"يا أيها المغربيّ! إنك حقًا من أولاد الملوك كي تدفع هذا القدر الكبير في سبيل الأضحية. بارك الله لك في كرمك وزادك من نعيمه كي تعطي المزيد من الصدقات لمن يستحقها (صادق يقصد نفسه من المستحقين)."

لست في حاجة إلى أن أقول لكم أن هذا المنافق يَعُد نفسه هو وابنه من مستحقي الصدقة، وأبدى استعداده أن يرحل معي من منى. أوصى صادق زوجتيه أو الثلاثة المؤقتات اللائي جئن معه إلى عرفة ولا يردن الرجوع سريعًا إلى مكة، أن يبقين بصحبة ابنه حسن، الذي كان هو أيضًا بصحبة مجموعة صغيرة من الحريم اللائي كن زوجاته المؤقتات، وكانت وظيفته كزوج بالطبع أقل كفاءة معهن مما كان عليه أبوه مع زوجاته.

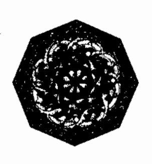
قبل أن نغادر منى، كان ينبغي علينا أن نحضر ذبح الأضحية، التي تُذبح سنويًا في وادي منى يوم العيد الكبير، الذي يتم وسط احتفال كبير. يجب كذلك على كل مسلم حضور ذبح الأضحية إذا توّفرت معه الأموال لذبح خروف يوم عيد الأضحى.

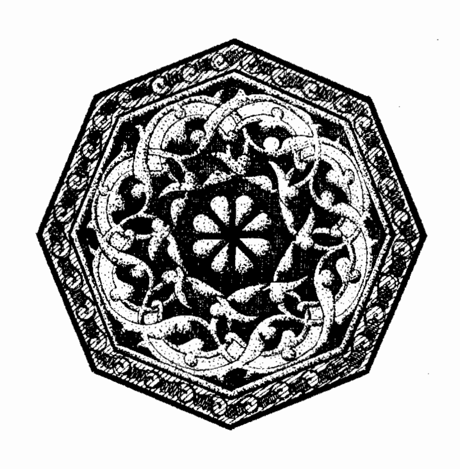
لأني تعهدت بذبح خروفين، كان علينا إذن توفير الخروفين في أسرع وقت في مقابل مبالغ مالية كبيرة. كانت هذه الحيوانات موجودة في أحد المراعي المفتوحة في جنوب منى، حيث كانت تُرعى حوالي خمسة آلاف خروف يمتلكها المضاربون المكيون، الذين طلبوا مبالغ نقدية بالغوا فيها إلى حد مثير للضحك. كانت تكلفة الخروف في الأيام العادية ريالاً (تالر)، والآن يطلبون أربعة أو خمسة ريالات وربما أكثر. نجح صادق في أن يشتري لي خروفين معًا بثمانية ريالات.

يبدأ ذبح الأضاحي عادةً بعد عودة آخر الحجاج من على جبل عرفة ورميهم الجمرات. ولأننا كنا من الحجاج المتأخرين، تأجل الذبح إلى ما بعد أن رمينا الجمرات. وقف حوالي عشرة آلاف حاج في حقل غير ممهدة أرضه بها حصى وحجارة، كان بحوزة ثلثهم تقريبًا خروف يقف أمامهم. كذلك وقف قاضي مكة في مقدمتهم ومعه خروف ملونة كل فروته. بعد الصلاة أعطى صاحب المقام الرفيع هذا إشارة بدء الذبح عندما وجه رأس الخروف صوب البيت الحرام ثم قطع رقبته بسكين ملتوية. تبعه في الذبح باقي الحجاج الذين دفعوا مبالغ كبيرة في سبيل الحصول على خروف الأضحية. على الفور كان يوجد على الأرض حوالي ثلاثة آلاف خروف مذبوح، وتحول المكان لبركة حقيقية من الدماء. كانت رؤية هذا المنظر مقززة جدًا بالنسبة لي فهربت منه سريعًا مع صادق عائدًا إلى مكة. تركنا حسن ابن صادق مع الخروفين اللذين ذبحهما لي صادق، وأمره أبوه أن يغسلهما وينظفهما ويعود بهما إلى مكة كي نحتفل بأكلهما في بيت حمدان.

طبقًا لعلماء المسلمين شُرِعت الأضحية اقتداءا بإبراهيم الذي أراد ذبح ولده ففداه الله بكبشٍ بدلاً منه. قال بعضهم أن هذا حدث في منى حيث يمكن أيضًا رؤية المكان الذي أراد فيه إبراهيم ذبح ولده إسماعيل وليس إسحق، بينما قال البعض أن هذا المكان يوجد في مكة. يوجد أيضًا في أحد الكهوف موضع ولادة إسماعيل الذي ذكره بعض علماء المسلمين. كما ورد في العهد القديم أنه ولد في فلسطين.

أمّا الآن فقد رميت وراء ظهري متاعب وأفراح رحلة عرفات، ورجعت إلى مكة، وذهبت إلى أحد دكاكين الحلاقة، وتحللت من ملابس الإحرام بعد قراءة أحد الأدعية، وارتديت ملابسي وحلق لي أحد الحلاقين رأسي والذي كان يتمتم بعبارات الذكر والحمد لله.







الفصل الحادي والعشرون
فترة الإقامة الأخيرة في مكة والعودة

آخر يوم لي في مكة - الذهاب إلى الحمام الكبير - كيفية الاستحمام - حماقات المُطوِّف - الجزائريون الخمسة - شكهم - حديثهم - كشف هوية المسيحي المتخفي - الابتعاد سريعًا عن الحمام - قراري مغادرة مكة على الفور - هروبي من مكة - الوصول إلى جدة - السفينة الشراعية الانجليزية - السفر إلى عدن وبومباي - خطاب بديلي - الأفكار الغريبة لمدخن الكيف - أشعاره.

حتى الآن كان الحظ حليفي في رحلتي هذه فلم يكتشف أحد هويتي الحقيقية، ولم يعرف أحد مطلقًا أني غير مسلم. لكن فجأة حدث ما لا تُحمد عقباه بسبب المُطوِّف الأحمق الفشّار الذي تسبب في النهاية السريعة غير المتوقعة لرحلتي، وكاد أن يكلفني حياتي ثمنًا لها. لم يعد باقيا لي من رحلتي إلى شبه الجزيرة العربية وفترة إقامتي في مكة شيء لأحكيه سوى هذه المغامرة المزعجة والتي تعتبر النهاية.

فور رجوعي من عرفة وخلعي ملابس الإحرام، بحثت عن أكبر حمام في مكة؛ لأني كنت أحتاج أن أغتسل كليًّا في هذه اللحظة. رافقني صادق إلى الحمام كي يحرس ملابسي أثناء وجودي في حمام البخار، على أيّة حال كان إجراءا احتياطيا لا حاجة له؛ لأن حالة التقى والورع تمنع الحجاج من السرقة في بعض الأحيان.

كان الحمام يقع بجانب المسجد الكبير من جهته الغربية مجاورا تمامًا لحي السويقة، بينه وبين حي باب العمرة الذي يسكن فيه المُطوِّفون. لم تكن فخامة وعظمة الحمام الكبير في مكة قابلتان للمقارنة مع الحمامات الكبيرة الجميلة في باقي البلاد الشرقية، فربما يأتي في المرتبة الثانية أو الثالثة بعد حمامات القسطنطينية وبروسة[1] الغنية بينابيع المياه المعدنية ودمشق والقاهرة؛ لكنه كان كبيرًا ويفتقر إلى الفن المعماري البديع. الزينة الوحيدة التي كانت في المكان وجدتها في الأرضية التي كانت من الرخام الملون، فيما عدا ذلك خلا المبنى كله من أيّة زينة أو نقوش.

لَّما دلفت إلى الحمام كان به حوالي عشرون رجلاً بخلاف العاملين به، بعضهم كان قد انتهى بالفعل من الاستحمام وارتاحوا من متاعب هذه العملية والبعض الآخر كان ينعم بتدليك لجميع الجسد في هدوء من أحد العبيد الذين يعملون في الحمام؛ لأن تدليك الجسد باليدين وتمسيد أعضائه بقفازات مصنوعة من شعر الخيول يُعد من أهم مميزات الحمامات الشرقية.

ألقى المُطوِّف التحية على صاحب الحمام، المكيّ الكهل النحيف، الذي بدا لي كأنه بسبب كثرة الاستحمام بالمياه الساخنة يوميًّا صار هذا العامود الفقري المكسي بهذه البشرة الرقيقة الجافة. أمرني هذا الرجل أن أضع ملابسي في أحد الأركان، ومضيت مع رجلين مظهرهما الخارجي بدا كالنساء نسبيًا، وألبساني صندلاً من الخشب (القبقاب) وأدخلاني صالة البخار ذات السقف المقوس كالقبة، حيث ستبدأ عملية الاستحمام. كان كل شيء يجري على ما يرام، أيضًا التدليك والتمسيد والفرك وشد الأطراف والغسل والتصبين، بدا كل شيء طبيعي، وفي النهاية تم التنظيف والغسل وألبسوني عمامة وعباية بيضاء، ثم قادوني إلى الصالة الأولى التي دخلت منها حيث يجب أن آخذ القيلولة.

لن يستطع أحد وصف صدمتي لَّما رجعت ووجدت المُطوِّف قد أسهب في الحديث وأطاله مع أربعة أو خمسة من الرجال يتحدثوا اللغة الجزائرية بطلاقة. لكم أن تتخيلوا إذن المفاجأة غير السارة! لقد تجنبت لقاء المغاربة دائمًا حتى الآن ونجحت لحسن الحظ

١ بورسه أو بروسا مدينة في غربي تركيا. فتحها أورخان بن عثمان عام ١٣٢٦ م واتخذها العثمانيون عاصمة لهم حتى فتح القسطنطينية. تشتهر بينابيع المياه المعدنية وبصناعة الحرير. (المترجمة)

في ذلك، والآن تظهر لي قناديل البحر على حين غرة، ويكون لها أسوأ الأثر على خطط رحلتي المستقبلية. كان من الواضح أن صادق قد تحدث معهم عني؛ لكنني لم أعرف على وجه الدقة ماذا حكى لهم عني. لكن من المؤكد أنه حكى أني "أمير من الجزائر". لقد بدت على هؤلاء الجزائريين رغبتهم في التعرف عليّ، وبالأحرى الحديث معي كي يكتشفوا كيف أنهم لا يعرفوني حتى الآن، فمن غير الممكن أن يظل رجل ذا مكانة مثلي كما حكى لهم صادق الفشّار عني ولم يتعرفوا عليه بعد. لذا حدَّق فيَّ الرجال الخمسة وأمعنوا النظر (كانوا جميعهم من الجزائر ولكني لحسن الحظ لم أعرف أيّا منهم شخصيًّا، رغم أن ملامحهم لم تكن غريبة بالنسبة لي) بمنتهى الفضول، ولمَّا أجمعوا خمستهم أني لست واحدا من معارفهم، بدت على قسمات وجوههم خيبة الأمل وفي نفس الوقت الشك المتزايد بسرعة كبيرة في هويتي. مع ذلك تحدث معي أحدهم ووجه لي عدة أسئلة بدون تحفظ أجبت عليها فقط بنعم أو بلا؛ لأن الحديث الطويل سوف يكشفني؛ فالجزائري يعرف الغريب حتى وإن تحدث بطلاقة. زاد الشك في نفوسهم لمّا لم يحصلوا مني على المعلومات التي سألوني عنها. كنت على أحر من الجمر لمَّا سمعت هذا الحديث بينهم، الذي كان بصوت منخفض لكنه مسموع لي: **قال أحدهم:**

> **"ما ذا تعتقدون في أمر هذا الرجل المفترض أنه أمير جزائري. لم يكن لآخر باشا جزائري أبناء ذكور وكل أبناء آخر داي للجزائر[1] قد ماتوا جميعًا. كيف يكون هذا الرجل الذي أتى إلى هنا أميرًا، ولا أحد منا نحن الجزائريين الأصليين يعرف أنه أحد أبناء الباشا؟".**

أردف ثانيهم:

> **"من المؤكد أن هذا الأمر ليس صحيحًا. لو كان هذا الرجل الذي يدّعي أنه من أمراء الجزائر شيطانًا، فلن يثير ذلك شكوكي نحوه؛ لكنني أعتقد أن هذا الأفاق ادّعى ذلك كي يجني المزيد من الصدقات. لكن صادق المُطوِّف قال إن عنده نقود كثيرة، وهذا ما أثار شكوكي نحوه؛ لأن**

١ داي الجزائر هو لقب عثماني كان يُطلق على حكام الجزائر بدءًا من فترة الحكم العثماني. (المترجمة)

الجزائريين الأثرياء يمكن عدهم على أصابع اليد، وهم معروفون لنا جميعًا، خاصة إذا كانوا من الأقاليم، فعددهم محدود جدًا. أمَّا في هذه الحالة وهي أن هذا الرجل المفترض أنه من أهل بلدتنا وغير معروف لنا جميعًا، فأنا أرى أنه لن يكون إلا مسيحيًا متخفيًا أو جاسوسًا فرنسيًا".

هذه الكلمات الأخيرة كانت بصوتٍ منخفض للغاية؛ لكن حاسة السمع القوية عندي مكنتني من سماعهم بشكل جيد. يمكنكم تخيل مدى الخوف الذي تملكني. لقد انكشف أمري! لقد قيلت هذه الكلمة المفزعة "مسيحي"، والآن يمكنني أن أتوقع الأسوأ، وتخيلت للحظة نهايتي المأساوية، فوجدت نفسي مكتوف اليدين والرجلين ومسحولًا حتى المثول أمام القاضي ثم الإعدام. هكذا سيكون مصيري دون أدنى شك إن لم يكن يركن هؤلاء أيضًا إلى الهدوء والتباطؤ كما هو الحال المعتاد لدى باقي المسلمين. إن عادة البطء الشرقية التي يحبها العرب أنقذتني من الموت. كان الجزائريون ينوون حقا اتهامي بأني المسيحي الذي أراد انتهاك حرمة بيت الله بمجرد أن تسنح لهم الفرصة. أمّا في الوقت الراهن فقد جاءوا لكي يستحموا ولمَّا دخل خُدام الحمام في هذه اللحظة ليأخذوهم إلى صالة البخار، أجلوا نيتهم باتهامي واستنكار فعلتي حتى عودتهم من الحمام، وذهبوا بكل أريحية إلى صالة البخار. لحسن الحظ لم يفهم صادق ما قاله هؤلاء الرجال، وبالتالي لم يشك في أي شيء هو الآخر مما لعب دورًا كبيرًا في إنقاذي.

إذا كان الجزائريون قد اعتقدوا أنهم عندما يرجعون من الحمام سيجدونني، فقد خاب اعتقادهم. فبمجرد أن أغلقوا الباب الذي يؤدي إلى صالة البخار خلفهم، أنهيت فجأة قيلولتي التي استمرت ساعات، وقفزت من مكاني، وارتديت ملابسي في لمح البصر، وأخذت معي صادق المندهش لحالي.

الآن في تلك اللحظة أصبحت بمأمن من الخطر؛ لكن السيف المسلَّط على رقبتي لا زال يحوم حولي؛ لأن صادق الثرثار قد أخبر الجزائريين بمكان إقامتي، وكنت أتوقع أن يظهر لي هؤلاء الرجال في أي لحظة ومعهم حاجب المحكمة؛ كي يقودوني أمام القاضي الذي سيحكم بالتأكيد في الأمر ضدي. لو غيرت مكان إقامتي فلن يجدي هذا أيضًا؛

لأني لن أستطع أن أخفي مكاني الجديد عن صادق وحمدان، فهما لا يعرفان حقًّا شيئًا عن حقيقتي، ولو عرفا حقيقتي لن يحمياني من الجزائريين؛ بل ربما سيقدماني بأنفسهم لهم. لم أكن أثق في حالتي هذه في أحد يمكن أن يتستر على الجريمة التي فعلتها بين الآلاف من المسلمين هنا؛ لأنه طبقًا لأعراف المسلمين قد قمت بأكبر جريمة، وهي أن يزور مسيحي الكعبة ويجب على كل مسلم أن يلعنني.

استجمعت قواي لبرهة واتخذت قرارًا لا رجعة فيه أبدًا وهو أن أغادر مكة حالاً. كان يجب أن أبقي هذا القرار سرًا ولا يعرف أحد عنه شيئًا، وأنفذه سرًّا أيضًا كلما أمكن. لن يعرف أحد مطلقًا سواء مضيفي حمدان أو المُطوِّف قراري هذا.

أبعدت صادق عني هنا بأي حجة، وأسرعت إلى غرفتي، ولم آخذ سوى بزة ومعطف؛ لأني لم أرد أن أثقل على نفسي أثاء هروبي من مكة بهذه الحقائب. كنت قد دفعت إيجار الغرفة لمدة ثلاثة أيام لحمدان قبل سفري إلى عرفات، وهذا يعني أني لست مدينًا له بشيء. كما يقع تحت تصرفه من الآن كل ما أملك من الملابس والأشياء التي أردت تركها في غرفتي بسبب هربي، وبذلك أكون دفعت له مائة ضعف ما يستحقه عن خدمته لي.

لم أترك أي مكتوب أو إشارة يستنتج منها أحد أني هربت سريعًا من مكة. من المحتمل أن مضيفي لن يستطيع اكتشاف غيابي إلا بعد مرور بضعة أيام؛ لأنه من المعتاد في أيام الحج أن يقضي الحجاج الليل في الخارج سواء في المسجد الحرام أو في الأكشاك أو في أي مكان آخر. لذلك خرجت بمنتهى السهولة من بيت حمدان كما لو كنت ذاهبًا للتنزه. كما أنه كان من حسن حظي أن تخلصت من قبل من صادق، الذي سيستفيد بلا شك من هذا الوقت كي يعود إلى عائلته في منى. حتى صادق لم يكن في حاجة إلى أن يشك في ريثما يعود في المساء ولا يجدني في بيت حمدان؛ لأن لي في مكة بعض المعارف كالحاج عمر وبعض المصريين كمراد وابنه، وقد يخمن أني سأقضي هذه الليلة عندهم. لدحض أي أدلة دامغة حول أي شبهة حولي تركت عليًّا الزنجيّ الذي لم يعرف أي شيء عن هروبي مثل باقي معارفي؛ لأني لم أكن أثق في أيّ واحد منهم. أخبرت عليًّا قبل خروجي الأخير من بيت حمدان أني سأقضي المساء اليوم عند بعض معارفي المقربين لي الذين دعوني لطعام

العشاء عندهم. كانت هذه الدعوات على الأكل يوم عيد الأضحى أمرًا عاديًّا جدًّا، فلن يلفت نظر أحد غيابي؛ بل ستعزز هذه الدعوة من نيتي للهرب؛ لأنه من المعتاد عند العرب أنهم ينامون حيث يأكلون طعام العشاء.

بدلاً من التنزه أو الذهاب إلى المسجد، خرجت من المدينة واتجهت إلى نهايتها من جهة الغرب حيث يوجد بدو الحرب. هناك استطعت بسهولة استئجار حمارٍ كي أركبه إلى جدة، ولم يكن ركوب الحمار يلفت نظر الناس؛ لأن بعض الحجاج قد شرعوا بالفعل في الرجوع من منى. ألقيت سلامي وتحيتي على "أم القرى"، "المباركة"، "الأرض السعيدة" (كلها أسماء لمكة) ومشيت برفقة أحد البدو مباشرةً ودون أي انتظار في الطريق إلى جدة؛ لأني قد عقدت النية على أن تكون أول استراحة لي في جدة.

لم أعرف أي شيء عمَّا حدث في بيت حمدان بعد هروبي من مكة، هل عرف الجزائريون مكان إقامتي السابق، وعما إذا كانوا قد سألوا عني هناك أم لا، كما أني تحاشيت السؤال عن ذلك. من الممكن أن يكونوا لم يتخذوا أي خطوة أو قرار لتعقب أمير الجزائر بسبب الكسل أو النسيان أو ربما لسبب آخر؛ لكنه كان خطرًا كبيرًا عليَّ في حال ما لو توقعت أنهم لن يقوموا برد فعل سريع فور اكتشاف حقيقتي. لذلك لم يكن لي شيء أفعله سوى الهرب من مكة: لقد كانت هجرة حقيقية مماثلة لهجرة نبي الإسلام من مكة.

كان عدولي عن زيارة المدينة المنورة أسوأ مغبة حدثت لي بسبب غباء صادق المطوِّف الذي أجبرني على هروبي من مكة؛ لأن شك أبناء بلدي المزيفين في حقيقتي كان سيكبر ويتتبعون أثري حتى في المدينة المنورة. كنت في موقف لا أُحسد عليه، وشعرت كأني محاط دومًا بالجواسيس، وأخيرًا صرت متهمًا بانتهاك حرمة الدين الذي يستوجب العقوبة. كل ما حدث لي كان بسبب اختيال صادق الساذج ووصفه لي باللقب المضحك "أمير الجزائر" الذي لفت نظر الجزائريين لي.

كما تركت حقائبي في غرفتي لحمدان، تركت أيضًا عليًّا العبد الزنجي في مكة بلا سيد. طبقًا للإسلام يعتبر هذا العبد الآن حرا وقد سررت لهذا المسكين. على أيّة حال انتهى الغرض منه، كما أن الشيخ مصطفى الذي كنت قد وعدته أن أهديه هذا العبد بعد انتهائي

من الحج قد مات، مما يعني أنه لا عائق يقف الآن في طريق حريته. لم أسمع أي شيء بعد ذلك عن عليٍّ مطلقًا.

استغرق الطريق من مكة إلى جدة على الحمار حوالي أربع عشرة ساعة دون توقف، منها ثمانية في الليل، حتى وصلت ميناء جدة في الحادي عشر من ذي الحجة. هنا في جدة كان يحتفل الجميع بالعيد الكبير فلبس الأثرياء ثيابهم الجديدة، واكتظت الأسواق بالمقاهي، وعلت أصوات الموسيقى فيها وغنت الراقصات، وعمت حالة الاحتفاء المبهجة بالعيد هذه جميع شوارع جدة.

شاركت قليلاً في هذه الاحتفالات؛ لأني كنت أفكر فقط في التخلص من ملابسي كمسلم سريعًا في جدة. لذلك اتجهت على الفور إلى ميناء جدة، وسألت عن وجود سفينة أوربية على وشك الإقلاع إلى عدن أو بومباي؛ لأني سأسلك الطريق بعد ذلك إلى شرق الهند. كانت فرحتي لا تُوصف لَمَّا علمت بوجود سفينة شراعية إنجليزية اسمها (Marx Ann) قادمة من جلاسكو وستبحر بعد ثلاثة أو أربعة أيام إلى عدن. توجهت إلى تلك السفينة وطلبت مقابلة قائدها والتحدث معه، وطلبت منه أن أبحر معه على هذه السفينة. لم يستعجب هذا الرجل الخلُوق أن يرى عربيًّا يتحدث الإنجليزية، ولم يمانع أبدًا في أن أسافر معه إلى عدن. بذلك تمكنت من البقاء في نفس اليوم على سطح السفينة الإنجليزية، ومنذ هذه اللحظة قلت للحج سلامًا للأبد؛ لكنه لم يغب عن بالي لحظة. خلال يومين، طيلة فترة بقائي على ظهر السفينة في ميناء جدة، لم أنزل على الأرض. كان هذا المكان آمنًا جدًّا لي كما لو كنت في إنجلترا.

سوف تبدأ رحلتي التالية إلى عدن وبومباي على أتم وجه. تحولت مرة أخرى إلى أوربي بمساعدة أحد الخياطين وأحد الحلاقين الإنجليز، ثم كتبت خطابًا إلى بديلي في الجزائر، عبد الرحمن بن محمد الحقيقي، الذي انتحلت هويته لمدة أربعة أشهر في الحج، وأرسلت له جواز سفره الذي استعرته منه لغرض الحج، الذي يحمل عليه من الآن لقب الحاج. أمَّا الخطاب الذي أرسله لي هذا الرجل الذي لم يفق أبدًا من حالة سكره كردٍ على خطابي له فإني أريد أن أختم به رحلة حجي هنا:

"مسيحي!" هكذا بدأ هذا الخطاب الغريب، "لو حدث بالفعل ما ذكرته لي في خطابك، بينما كنت بدلاً مني في البلد الحرام إذن يجب عليَّ أن يساورني القلق، لأن كل المسلمين الحقيقيين سيتهموني بأني انتهكت حرمة الدين المقدس عن طريق السماح لأحد الكفار بزيارة الأماكن المقدسة باسمي. على أيّة حال فأنا أبعد ما أكون عن أن أقبل أني زرت جبل عرفة والكعبة؛ ولذلك حاولت تصديق أني أنا الحاج الحقيقي وأنت المزيف. سوف تتعجب كيف وصلت لهذه النتيجة.

لكن لو أردت أن تعتقد في رحمة الله (هكذا يُسَمِّي مدخنو الكيف مجمل خيالهم المريض في حالة سكرهم ونشوتهم) فلن يتضح لك هذا الأمر ولو للحظة. حينما مكثت في تونس لمدة ستة شهور بينما كنت أنت عبدالرحمن المزيف في مكة لأداء الحج، ذهبت لمقهى المؤمنين الورعين والعامرة نفوسهم بالله (مدخني الحشيش)، واستسلمت أنا أيضًا لرحمة الله (تدخين الحشيش وهلوساته)؛ فزارني الوحي الإلهي، ووجدت روحي قد وصلت إلى مكة كي تحج وتزور الكعبة وتصعد على عرفة وترجم الشيطان في وادي منى. يمكن أن أحكي لك على وجه الدقة أين أقمت وكيف كانت تبدو مكة ومع مَن تعاملت، إن لم أكن نسيت هذه الأشياء منذ حجي. ولأن الحقائق كلها ليست مؤكدة، ورحمة الله (تدخين الحشيش) هي الحقيقة الوحيدة المؤكدة؛ لذا لا يوجد أدنى شك في أني أنا الحاج الحقيقي، وأستحق بجدارة لقب الحاج الذي يؤكده لي جواز سفري. بناءًا على ذلك أحييك باسم رحمة الله التي تملؤني، وأوقع هنا لأول مرة في حياتي بلقب الحاج الذي أستحقه."

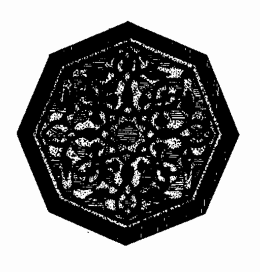
الحاج عبد الرحمن بن محمد

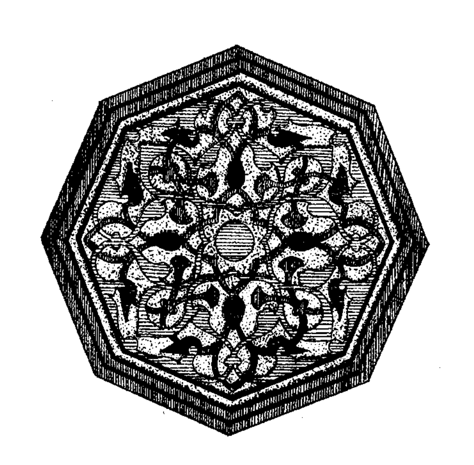
الجزائر، الثاني عشر من جمادى الأولى، الجمعة الأولى ١٢٧٧

هكذا انتهى خطاب بديلي الغريب أو بالأحرى الذي كنت أنا بديله. ولكن خطابه لي لم ينته بذلك. فالعرب يحبون أن يزيلوا خطاباتهم ببيت أو بيتين من الشعر كرمز لمتلقي الخطاب، في الغالب يكون بعيدا جدا عنه أو غير منطقي. هذه هي ترجمة الأبيات التي ألحقها عبد الرحمن بخطابه:

مَن يرى مكة والكعبة،
قد أُوتي من الخير كثيرًا،
وستتفتح زهرة الإيمان،
لمن يستسلم للوهم المقدس.

مَن يرتجف ويقشعر جسده من الإيمان،
في مكة، فقد بُشر بالخير،
ومَن يعش في رحمة الله،
فقد استحق السعادة الكبرى.





الفهرس

رحلة حجّي إلى مكة

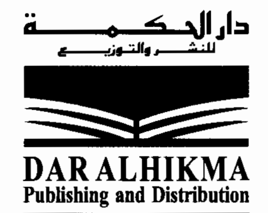
رحلة إلى المناطق الساحلية والداخلية لبلاد الحجاز

لمؤلفه

هاينرش فرايهِر فون مالتسان

لايبتزيج 1865

دار نشر ديكشه



DAR ALHIKMA
Publishing and Distribution
88 Chalton Street. London NW1 1HJ
Tel.: +44 (0) 20 7383 4037
E-Mail: hikma_uk@yahoo.co.uk
Website: www.hikma.co.uk

ISBN: 978-178481

